

محمود عوض

بالعربي الجريه



دارالمعارف

تصميم الغلاف الفنان
شريف رضا

تنفيذ المتن والغلاف
بقطاع نظم وتكنولوجيا المعلومات
دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة - ج . م . ع
هاتف : ٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس : ٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

مقدمة

الدعوة والفكرة .. والقلب بينهما

هى تجربة أمتعتنى.. وأجهدتنى.. تجربة معجونة من الشوق والقلق.. الحنين والتوتر.. الإقبال والتردد.

هى تجربة بدأت بدعوة كريمة من صديق وأخ وزميل فى المهنة - مهنة الكتابة والصحافة التى أخذت منا العمر والصحة والمشاعر والأعصاب و - بين وقت وآخر - بتكلفة فوق الاحتمال.

هى تجربة بدأت بدعوة من الكاتب الكبير عبدالوهاب مطاوع الذى قبل على عاتقه سابقا مسئولية رئاسة تحرير مجلة «الشباب» فأصبحنا نشفق عليه من ضخامة المسئولية، مسئولية التعامل بالكلمة المكتوبة مع جيل تعددت أمامه مصادر الغواية والهواية.. فأصبح اغراؤه بالإقبال على وجبة مكتوبة شهريا تحديا جديدا يضاف الى ما نجح فيه عبدالوهاب مطاوع من قبل.. وبكل جدارة ومهنية.

تكررت الدعوة مرة بعد مرة لى أصبح كاتباً ضيفاً على مجلة «الشباب» بمقال شهري اقترح له الصديق العزيز عنواناً ثابتاً هو «قطعة من القلب».

بعد قليل وجدت نفسى أضع فى الورق قلبى كله.. وليس مجرد قطعة منه. عشت تجربة التعامل مع تلك المرحلة البريئة القلقة بيننا.. والتى تطرح على مجتمعنا أسئلة أكثر.. لكنها تحصل على اجابات أقل. رحلة التطلع الى المعرفة والفهم بأسلوب قابل للمناقشة والفهم. وشهرا بعد شهر وجدتنى أندمج فى التجربة فيفرض مقالى فى «الشباب» نفسه على قلمى سابقا كل ارتباط آخر تقيدت به. اشتكى زملاء أعزاء فى صحف تصدر فى لندن والرياض وعواصم عربية أخرى من عدم انتظام مفاجئ فى مقالاتى بصحفهم.. بينما الثابت الوحيد أصبح ارتباطى بمقال «الشباب». وحينما اقترح على بعضهم نشر مقالى بمجلة «الشباب» فى صحفهم بالتزامن فى نفس الوقت.. كنت أحيلهم إلى المضيف صاحب الدعوة من الأصل.

كان الحماس فى داخلى يتجدد مع ذلك الفيض من رسائل القراء والقارئات الذى كنت ألتقاه شهرا بعد شهر. وذات يوم اتصل بى المشير الراحل محمد عبدالغنى الجيسى وهو من أبرز نجوم

العسكرية المصرية الحديثة وله عندى احترام زائد. هو يناقشنى عن مقال كتبته تحليلا لما جرى فى مصر عسكريا وسياسيا فيما بين سنتى ١٩٦٧ و ١٩٧٣.. حيث سمع عن المقال أصلا من عدة شبان يرتادون نفس النادى الذى يقضى فيه الجمسى بعض وقته كل صباح. والآن يستغرب المشير الجمسى بكل محبة: لماذا بعد ما لمستة من معلومات دقيقة كشفت عنها لا يكون المقال منشورا فى صحيفة كبرى بدلا من مجلة شهرية؟

وقلت له: يا سيادة المشير.. الشرح هنا يطول. لكن مجرد رأيك هذا اعتبره تحية متفكرة أعتز بها كثيرا وأصبح بعدها أكثر تفاعلا مع أولئك الشباب الذين أثاروا لديك هذا الاهتمام.

فى حينها كان مقال «رجال اليوم السابع» هو اجتهاد من جانبى لتوسيع أفق الرؤية لقضية. اجتهاد أطرحه أمام القارئ الشاب.. قبل أن أنتقل إلى قضايا أخرى تفرضها الكتابة الشهرية. لكن سيل التساؤلات وردود الأفعال دفعنى إلى تناول نفس الموضوع مرة ثانية.. وثالثة.. ورابعة.. وخامسة.. حتى أرغمت نفسى على التحرك نحو قضايا أخرى. فى نهاية المطاف يكفى أن القراء الشباب تحركت لديهم إرادة الاستقصاء والمعرفة.. وهى أقصر وأضمن الطرق إلى مستقبل أفضل.

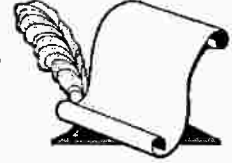
من هذا التفاعل استمرت مقالاتى هذه بمجلة «الشباب» لنحو ٥٢ شهرا حرصت خلالها على أن أتيح للقارئ رؤية متعددة الزوايا لما كنا فيه أو أصبحنا عليه أو نشواق إليه. ربما أبدأ بالفن لأنتهى بالسياسة.. أو أنتهى بالأدب لكى أعود إلى التاريخ.. أو أترك هذا كله لأقوم بتشريح أحداث جارية لا تهتم بها الصحف السيارة. فى جميع الحالات كان التواصل مع القراء يعطينى شحنة متجددة تجعلنى أكثر اندماجا وتفاعلا.. فى دفع استضافة كريمة لربان ماهر امتلك البوصلة المهنية الحقيقية لنجاح بعد نجاح.

عزيزى القارئ..

لقد اختار الناشر هنا أن يقدم لك تاليا مقالاتى فى «الشباب». لكننى أقدم لك قلبى فى «الشباب». قلب ينبض بالعربى الفصحى.. وغالبا بالعربى الصريح.. وأحيانا بالعربى الجريح. ومعذرة لو أراد القلب بعدها فرصة لقليل من الراحة.

محمود عوض

عزى عبدالحليم: .. وحشنا



حكايات وروايات تعيدنى أحيانا إلى محطات مضت من رحلة الحياة. حكايات وروايات كانت تبدو فى وقتها سهلة التوالد على أبطالها بغير أن يدركوا فى التو أنهم يرسمون لوحة بالغة العاطفية والرومانسية رغم الواقع الضيق الذى يتحركون فى إطاره. حكايات وروايات تمتزج فيها الكلمة بالشعر بالموسيقى بالأغنية.. وبالكثير من الانفعالات.

حكايات وروايات سجلت فى طياتها الكثير من الجمال الذى كنا نستعين به على مواجهة القليل من القبح حولنا. حكايات وروايات أخذت معها قطعا من قلوبنا.. ثم تغوص فى اللاوعى إلى أن تقفز إلى السطح من جديد بفعل ذكرى أو موقف. أو حتى كلمات عابرة. وفى التو واللحظة تستعيد الحكايات والروايات بريقها من جديد فى كل مرة كما لو كانت قد جرت قبل دقائق قليلة وليس منذ سنوات وسنوات.

أتحدث عن سنوات أخيرة فى حياة عبدالحليم عرفته خلالها عن قرب شديد رغم فوارق عديدة بيننا. هناك مثلا فارق أجيال.

فبالنسبة لى كان عبدالحليم هو الصوت الذى عشت فىنا انفعالا وتفاعلا. وفى الإذاعة المدرسية بمدرسة طلخا الثانوية كنا نتسابق على إدارة أغانى عبدالحليم طوال فترة «الفسحة الكبيرة» ونتدافع إلى أفلامه السينمائية فى عرضها الأول بسيما عدن فى المنصورة. وحتى فى سنوات دراستنا الجامعية كان أقصر الطرق أمام زميلى لى يقوم بتحجيم زميل آخر هو أن يقول له ساخرا: «انت فاهم نفسك مين؟ عبدالحليم حافظ يا جدع؟».

فى حينها لم يدرك فى خلدى أن ظروفنا سوف تأتى فيما بعد لى تجمعنى فيها بعبدالحليم تجارب إنسانية عميقة.. سواء فى ليالى القاهرة أو خريف الاسكندرية أو شتاء لندن أو أمطار نيويورك أو مفاجآت الرباط ودفع الدار البيضاء. ولا كان فى بالى أيضا أن صداقة عميقة ستربط بيننا على المستوى الشخصى فأكون ضيفا عليه فى بيته أو هو ضيفا على فى بيتى.

وعبارة «ضيفا على» فى بيتى هنا ربما تحتاج إلى هامش توضيحى. فمن حيث عبدالحليم «ضيفا» فهى صفة أكثر مما يجب، ومن حيث كونه ضيفا على فى «بيتى» فهو تشخيص أقل مما يجب.

ذلك أن عبدالحليم عادة يبدأ بالمجىء بمفرده. لكن بعد دقائق يبدأ عبدالحليم فى استخدام التليفون. ودقائق أخرى وأصبح أنا الضيف وعبدالحليم صاحب البيت. فلقد تتابع وصول الأصدقاء الذين استدعاهم عبدالحليم.

أما عن «بيتى» وقتها فهو شقة صغيرة بحى «العجوزة» فى القاهرة وهى بالدور الرابع بغير اسانسير. والضيوف القادمون فى كل مرة كبار فى فنهم وبسطاء فى صحتهم. ثم إن المكان لا يتسع لأكثر من عشرة مقاعد. وبقدرة قادر يتسع المكان أكثر وأكثر. البعض جالس على الأرض.. فى مقدمتهم عبدالحليم والبعض يتحرك إلى الشرفة. البعض لا يجد مكاناً إلا فى المطبخ.. للشاى والقهوة والبوتاجاز (مصانع حربية. بخمسة وعشرين جنيها وقتها. رضا.) مع ذلك تستمر الجلسة حتى الفجر. الغناء أقلها. والحديث فى الأدب والفن والسياسة أكثرها.

فى اليوم التالى يجىء دائما صوت عبدالحليم فى التليفون: «أظن لخبطنا لك البيت فى زيارة امبارح؟».

هاهاها..

– يا حليم دى مش زيارة دى كبسة.

– مغبوط. يبقى بعد كده لا أعزمك عندى تيجى.. هذا والا: كبسة.... هاهاها..

لم أكن محرراً فنيا لجريدة «أخبار اليوم».

بل إنه حدث فى ثلاث مرات، وأمام كل الزملاء فى الاجتماع الاسبوعى، أن ألح على الكاتب الكبير الراحل احسان عبدالقدوس – وكان هو فى حينها رئيس التحرير الذى أعمل معه فى جريدة «أخبار اليوم» – بأن أتولى الاشراف على الصفحة الفنية بالجريدة.. والتى كان يتابعها بنفسه. وثلاث مرات اعتذر عن عدم الاستجابة رغم كل محبتى واعتزازى باحسان الكاتب والفنان ورئيس التحرير.

كان احسان عبدالقدوس هو الذى قدمنى أصلاً إلى الراحلة أم كلثوم .. وتلك قصة أخرى. لكنه بعدها أصبح يعرف أيضا العلاقة الحميمة التى أصبحت تجمعنى بمحمد عبدالوهاب وعبدالحليم حافظ وكمال الطويل وبلخى حمدي ومحمد الموجي.. من بين أسماء كبيرة تصنع حياتنا الفنية. وكنت أعرف أن الصداقة الحميمة يجب أن يكون لها قوانينها الذاتية غير المكتوبة، وهو ما يتقاطع غالباً مع احتياجات تشابك المصالح التى قد تفرضها الصحافة الفنية. وكان كرماً من احسان عبدالقدوس أن يتقبل وجهة نظرى فى النهاية. وكانت ثقة زائدة من هؤلاء الأصدقاء – وفى مقدمتهم عبدالحليم حافظ – أن يأتمنونى على بعض تلك الأشياء الحميمة وشديدة الخصوصية التى يحرصون على الاحتفاظ بها لأنفسهم.

هكذا نشأت وتعمقت العلاقة الشخصية بين عبدالحليم حافظ وبينى.. وهى علاقة كان الفضل فيها يعود إلى عبدالحليم فى الأساس.. ربما كان حريصا على أن يتابع الجديد فى كل ما يحيط به.. فيما هو أوسع كثيرا من دائرة الغناء والموسيقى.. وإذا كنت سأسمح لنفسى الآن بأن أغوص قليلا مع عبدالحليم.. فلأن الصديق مجدى العمروسى - الطرف الثالث مع محمد عبدالوهاب وعبدالحليم فى الشركة التى جمعت بينهم - قد شاغبنى برقة فى كتابه الذى أصدره عن عبدالحليم بعنوان «أعز الناس». وحينما دعانى مجدى العمروسى إلى الغداء بعدها فى منزله مع الصديق صلاح منتصر، قال لى إنه يريد فقط أن يدفعنى إلى استعادة ذكرياتى مع عبدالحليم. حتى حينما اتصلت بى «الحاجة عليّة» شقيقة عبدالحليم التى كان يعتبرها بمثابة أمه فوق كونها شقيقته المقربة إلى قلبه.. ألحت علىّ هى الأخرى لكى أكتب عن عبدالحليم قبل أن تتوه الحقائق وتختلط المعايير.

وكانت مشكلتى دائما، وحتى الآن، هى أن ذكريات عبدالحليم لم تنفصل عنى بالدرجة الكافية لكى أكتب عنه كما أعرف وأحب. ففيما عرفته وعاشرته من عبدالحليم لم يكن هو مجرد الفنان الذى أحاطته الملايين بحبها، ولكنه كائن انسانى متعدد التضاريس متدفق المشاعر سريع الانفعال، وأيضا شديد التراجع عن الانفعال، وشديد الاحتراق فعلا وانفعالا.

وعبدالحليم خاض مشوار نجاحه مرتين. أولا لكى يصل إلى القمة. وثانيا لكى يستمر فيها. فى المشوار الأول وجد عبدالحليم من شاركوه وكانوا جزءا من نجاحه.. ووجد من حاربوه أيضا. هكذا لا يمكن أن نفهم ظاهرة عبدالحليم بغير أن نفهم أساسا مشاركة كمال الطويل ومحمد الموجى، ثم بليغ حمدى، فى الوصول إلى قلوب الناس بلون جديد وسط أسماء كبيرة وقتها كانت لها أيضا قاعدتها الجماهيرية العريضة. فلنترك هنا أم كلثوم ومحمد عبدالوهاب جانبا. يكفى أن نتذكر فريد الأطرش ومحمد فوزى وعبدالعزیز محمود وعبدالغنى السيد من بين أسماء أخرى. هذا يعنى أن عبدالحليم اقتنع من البداية بأن عليه ألا يكون بديلا لأحد أو مزاحما لأحد لأن القمة تتسع لكل موهبة.

وفى ذلك الجانب نريد أن نتذكر أيضا أن عبدالحليم لم يكن فى أى وقت مطرب السلطة كما يحاول بعض ضعاف النفوس تفسير نجاحه. فبعد الاختراق الأول الذى حققه عبدالحليم إلى قلوب الجماهير كان هناك من تبناوا صوتا بديلا اسمه كمال حسنى. أقلام بارزة وصحف كاملة حشدت نفسها لتقديم كمال حسنى كمنافس لعبدالحليم. وكمال حسنى نفسه تعاقد على بطولة أفلام سينمائية وقدمت إليه ألحان عذبة من ملحنين كبار ومضت فى سبيله حملة دعائية كبرى. لكنه فى النهاية توارى. واستمر عبدالحليم نجما أول فى المرمى الحاسم والنهائى: قلوب الجماهير.

وحينما عرفت عبدالحليم كان يتربع بالفعل، ومنذ سنوات طويلة، على عرش الغناء. ومع ذلك، وحتى رحيله، لم تتوقف الحرب ضده. أقول إنها حرب لأنها كانت كذلك فعلا بين وقت وآخر. اننى لن أتحدث هنا مثلا عن محاولات التشكيك فى حقيقة مرضه والادعاء بأنه يتمارض استدرازا

لعطف الناس. أتحدث فقط عن مصالح حقيقية ظلت تمارس ابتزازها لعبدالحليم حتى النهاية. مصالح ضيقة؟ ربما. شخصية؟ ربما. لكن المهم هنا هو أن عبدالحليم كان يعرف بالضبط أشخاص ودوافع أصحاب تلك المصالح.. لكنه يتظاهر أمام الكاميرات بأنه لا يعرف.. ولا يهتم.

كان يعرف. وكان يهتم. والأهم من ذلك: كان يتعذب. كل المسألة هي أنه لم يكن يريد أن يبدو مهتزاً أو ضعيفاً أمام تلك المصالح.

هل أقول مثلاً إن صحيفة كبرى قاطعت أخبار وصور عبدالحليم لأكثر من سنة كاملة.. ليس عن موقف من الجريدة ضده.. ولكن عن مصالح ضيقة ونفوس ضعيفة؟ هل أقول، مثلاً مثلاً، أن بعض النافذين في الصحافة الفنية أو هموا أنفسهم ذات يوم بقدرتهم على إزاحة عبدالحليم من قلوب الناس وإحلال آخرين محله يكونون أكثر اذعاناً لاحتياجاتهم الصغيرة؟

في بعض تلك اللحظات كان عبدالحليم يفاجئني بعذابه، بل وبدموعه، لأنه متأكد مسبقاً من أنني لن أستخدم لحظات ضعفه هذه ضده ذات يوم، فلا مصالح بيننا لكي تتقاطع، ولا علاقة عمل تجمعنا لكي نختلف.

وقد حدث في مرة واحدة أن جمعتني علاقة عمل بعبدالحليم. وإذا كنت سأحدث عنها بعد قليل فلأن آخرين أعفوني من الحرج حينما كتبوا ما عرفوه من عبدالحليم نفسه، وما عاصروه هم أيضاً. لكن ما أريد أن أستخلصه هنا هو أن الفن يختلف عن العلم. الفن ذاتي والعلم موضوعي. الفن تحكمه مشاعر بينما العلم تحكمه وقائع.

وبكلمة «الفن» هنا أقصد كل ما فيه ابداع.. من أدب إلى رسم إلى صحافة إلى موسيقى وغناء. وبهذا التوصيف نخرج بأمرين. الأول: أن عبدالحليم لم يكن أقوى الأصوات الغنائية في مشواره ومع ذلك انفتحت له قلوب الملايين بامتداد العالم العربي - وحتى الآن - والثاني: أن الحياة الابداعية - ومن بينها الحياة الفنية - فيها الكثير من الضرب تحت الحزام. وآه لو حاول المضروب تحت الحزام أن يخرج بشكواه إلى الناس.

لقد أتيت لى أن أعيش في «هوليوود»، عاصمة السينما الأمريكية، لفترات كافية. وهوليوود، بالمناسبة، هي مجرد حي من أحياء مدينة لوس انجلوس الأمريكية، لكنها تتميز بكونها مركز الاستديوهات السينمائية الكبرى ومسكن نجوم الأفلام التي تنتجها تلك الاستديوهات. ومن الملفت أنني وجدت نفس الآليات هناك بمثلها هنا.

بالطبع ليس نفس الامكانيات ولا نفس الأموال ولا نفس المصالح، لكنها نفس الآليات ونفس الضراوة وبين وقت وآخر.. نفس الضرب تحت الحزام. هي منافسة ضارية على القمة، وعلى قلوب الجماهير، وعلى شبابك التذاكر، وعلى الأضواء التي تسحر الجميع، وتسحق في الطريق - أحياناً بلا رحمة ولا إنسانية - أي معترض.

لكن من بين الفوارق مثلاً بين الحياة الفنية في هوليوود ومثلها في القاهرة هو أن النجم في هوليوود لابد له أن يكون عبداً - من العبودية - بالكامل لمن يفكرون له. هو عبد لوكيل أعماله الذي يقوم بتسويقه. وعبد للاستوديو الذي يفكر له، وعبد لتقسم العلاقات العامة في الاستوديو الذي يخطط له مسبقاً أسلوب حياته ومضمون أحاديته، وأحياناً من يصادق أو يتزوج.

في القاهرة ومجتمعها الفني يصبح على الفنان أن يكون كل ما سبق معاً: هو يفكر لنفسه ويخطط ويتابع ويدرس وينافس ويتعذب أو يحترق.. بطوله. بالطبع عبدالحليم هنا كانت خطوة متطورة لأنه استفاد من محمد عبد الوهاب بأن أقام لنفسه ميكراً شركته الخاصة للإنتاج الغنائي والسينمائي، ثم أدمج شركته بعد ذلك في شركة عبد الوهاب لكي يؤسس معاً شركة واحدة أكبر.

إن الحديث الموضوعي هنا يمكن أن يطول ويطول. فقط لا أحب أن أثقل على مجلة «الشباب» التي أضافت إلى الصحافة بصمة متميزة ولا على رئيس تحريرها الأستاذ عبد الوهاب مطاوع الذي شرفني بدعوته لي إلى الكتابة في المجلة.

أريد أن أختصر. من هنا أعود إلى قصة «أرجوك لاتفهمي بسرعة» وهي العمل الدرامي الوحيد الذي سجله عبدالحليم للإذاعة عن قصة كتبها، فقط لأن هذا قد يضيف إلى القارئ بعداً آخر عن عبدالحليم المطرب والفنان الموهوب الذي يدير موهبته بنفسه ويعرف من الأصل أن مرضاً يسحقه، ولكنه يحتّم من المرض يحب الناس له. لقد اختصر البعض حياة عبدالحليم، خصوصاً بعد رحيله، إلى ما هو تحت الحزام، لكن من باب التغيير أحكى هنا عن عبدالحليم.. فوق الحزام.

لقد تناول البعض المرة الوحيدة التي قام فيها عبدالحليم ببطولة مسلسل إذاعي لشهر رمضان، إن شهر رمضان هو الشهر الذي تصل فيه المنافسة بين محطات الإذاعة المختلفة إلى ذروتها وكل محطة تركز اهتمامها أولاً على المسلسل الدرامي الذي تذيّعه عقب الإفطار والمخرج الكبير الراحل محمد علوان مثلاً كان يظل يفكر ويفكر طوال الأحد عشر شهراً في قبلته الدرامية التي يريد أن يفجرها في شهر رمضان متجاوزاً المحطات الأخرى. وبعد محاولات سنوية مستمرة مع عبدالحليم نجح علوان في إقناع عبدالحليم بالوقوف أمام الميكروفون. ولأن عبدالحليم هو نجم الغناء العربي وجمهوره بالملايين من الخليج إلى المحيط فقد كان طبيعياً أن يبدأ علوان أولاً بالاتفاق معه.

وحينما ذهب علوان إلى عبدالحليم حافظ بعقد الاتفاق ليوّقه حتى تبدأ الإذاعة خطواتها التالية قال له: يا أستاذ عبدالحليم هذا عقد تقليدي مطبوع، لكنك بالطبع تستطيع أن تضيف إليه أية بنود أخرى وسييسد الإذاعة أن تنفذها لك.

كان علوان مهياً نفسياً لأن يطلب عبدالحليم مثلاً ميزانية استثنائية له أو لانتاج المسلسل لكن عبدالحليم أمسك بقلمه ليضيف إلى العقد بنداً واحداً بخط يده: أن يكتب محمود عوض قصة

المسلسل. (إن مجدى العمروسى احتفظ لنفسه من وقتها بصورة من هذا العقد و: ياعم مجدى.. وعدتني كثيرا بأن تبعث لى بصورة من هذا العقد، ومازلت فى الانتظار).

لم أعرف شيئا مما جرى لأن عبدالحليم طلب من علوان التكتّم الكامل. وذات صباح اتصل بى عبدالحليم قائلا: هل أمر عليك بعد نصف ساعة لنذهب سويا فى مشوار؟ بعدها جاءنى سائقه عبدالفتاح: الأستاذ تحت فى انتظارك. وفى السيارة راوغنى عبدالحليم فى الإفصاح عن طبيعة هذا المشوار. لكن السائق انطلق إلى الجيزة. إلى شارع الهرم. ثم إلى اليمين بعد شارع الهرم. إنه الطريق الصحراوى لكن: إحنا رايحين فين يا حليم؟ قال: أبدا.. فكرت نروح العجمى (قرب الإسكندرية) نتغدى هناك ونقضى واجبا بسيطا، ونرجع.

أخذت كلماته على علاقتها فقد سبق له أن أشركنى معه فى حكايات تهمة، وآخر مشوار منها كان إلى الإسكندرية فى الشتاء - ليحضر عبدالحليم عقد قران فى أسرة يعتز بمساعدتها له فى مشواره الفنى. يومها كنا فى عز الشتاء، وأصبحنا نحن النزليين الوحيديين فى فندق سان ستيفانو لليلتين متعاقبتين.

لكن فى هذه المرة يريد عبدالحليم الذهاب إلى العجمى حيث كان له شاليه هناك بدا لنا فى حينها كقصر منيف رغم بساطته الشديدة. وفى الصباح التالى استيقظت لأجد الهدوء طاغيا. وبحثت فى أنحاء الشاليه. لا أثر لعبدالحليم. نزلت إلى الجراج. لا سيارة. خرجت إلى عم فرج أسأله. إنه أيضا لا يعرف. كل ما يعرفه هو ان «الأستاذ» نبه عليه برعايتى على مدار اليوم، وبعدها انطلق بالسيارة فى صحبة عبدالفتاح.

بعد ساعات بق جرس التليفون. المكالة ترنك. ثم المفاجأة: هاهاهاه.. خلاص ياعم أنا رجعت مصر وأنت عندك محبوبس فى العجمى لغاية ماتكتب القصة. بعدها فقط أبعث لك عبدالفتاح بالسيارة يرجعك. رمضان قرب ومفيش وقت.. هاهاهاه..

كانت الكتابة لعبدالحليم مسئولية كبرى. فبعد كل شىء يشرف كبار كتاب القصة أن يكون «ناشرهم» الدرامى هو عبدالحليم حافظ وفى هؤلاء لم أكن واحدا من الكبار، ولا من الصغار. فى الواقع كنت لا أزال احتفظ لنفسى باجتهاداتى الأدبية رعبا من امتحان القارئ. والآن يضعنى عبدالحليم فى الامتحان بعفوية وطيب خاطر، وأيضا بثقة أصبحت سيفا على رقبتى. وعلى مدار عدة أيام بعدها أصبح عبدالحليم يكرر اتصاله بى من القاهرة عدة مرات كل يوم.. نتحدث ونثرثر فى كل مرة عن أى شىء.. إلا عن مشروع القصة.

حينما أعادتنى سيارة عبدالحليم إلى القاهرة كان ينتظرنى معه مجدى العمروسى. إذن هو غداء عمل. ومجدى هو عين عبدالحليم وأذنه على الجمهور خصوصا إذا تعلق الأمر بفيلم جديد أو مشروع جديد.

بمجرد أن قلت إن عنوان القصة هو «أرجوك.. لا تفهمنى بسرعة» طلب مجدى التوقف مرة ومرتين قبل الدخول فى الموضوع. هذا مجدى العمروسى الذى لا يضيع وقتا. إن لديه مشروع فيلم لعبد الحليم من إخراج يوسف شاهين. ولل فيلم عنوان مؤقت هو «وتمضى الأيام». الآن يريد مجدى - وهو مدير «صوت الفن» يتكلم - أن «يقترض» منى عنوانى ليعطيه إلى الفيلم والتمن ألف جنيه و: طبعاً أنت مندمج الآن فى جو القصة وتقدر تختار لها عنواناً آخر جديداً وبفلس الجاذبية.

قلت: إيه؟ قال مكرراً: آخذ منك أربع كلمات وأعطيك ألف جنيه.

كانت ألف جنيه من مجدى العمروسى خصوصاً هى معجزة فى حد ذاتها. والمعجزة الأكبر أن ألف جنيه فى ذلك الزمن تعنى أن أصبح والمليونير أوناسيس فى كفة واحدة، فكلانا يتحدث بالآلاف.. غايته.. سيبقى بيننا فارق العملة!

وبصعوبة شديدة قبل مجدى العمروسى اعتذارى. قبل أن ينصرف. وبصعوبة أقل بدأنا نفكر فى الأبطال المناسبين للقصة. إن عبد الحليم كان معتاداً - وهذا حقه - على قصة البطل الواحد. لكنه فى هذه المرة يقبل فى سماحة أن يكون الأول بين متساوين، لأن القصة تعبر عن قضية جيل بكامله. وفيما بعد كان عادل أمام ونجلاء فتحى وآخرون شديدي الابهار فى تقمصهم لشخصيات الرواية. بل إنه فى واحدة من أغاني المسلسل الخمس اشترك الجميع فى الأداء مع عبد الحليم، فى لحن خفيف الدم وضعه منير مراد وشارك فيه بصوته أيضاً وبكلمات محمد حمزة. أغنية تعبر بالضبط عن الطموحات المختلفة لهؤلاء الطلبة الذين تخرجوا فى الجامعة لتوهم ليبدأوا ملاطمة الواقع والحلم بتغييره.

كانت التجربة جزءاً من نفوسنا وقلوبنا. وأصبحنا نعيشها على مدار النهار والليل. فى الافطار نحن على مائدة عبد الحليم بعدها فى ستوديوهات الاذاعة حتى السحور. عندها نعود إلى بيت عبد الحليم أو إلى بيتى. فى الصباح.. صيام وعمل منفرد. على الافطار نتجمع من جديد.

ثم جاءت المفاجأة الكبرى ظهر اليوم العاشر من رمضان. إنها حرب أكتوبر. وأصبحنا نعيش عالين. هناك عالنا الصغير فى ستوديوهات الاذاعة. فرغم أن الاذاعة غيرت برامجها جميعاً لتصبح فى خدمة الحرب إلا أن تسجيل الحلقات كان لا بد أن يستمر ليتم شحنها فوراً إلى جميع إذاعات العالم العربى التى اشترتها مسبقاً ومستمرة فى اذاعتها. ثم هناك عالنا الكبير. عالم الحرب التى أصبحنا نعيشها بكل ذرة فى كياننا بعد ست سنوات من التمزق. كنا نتناقل كل خبر، ونحل كل برقية. وناقش كل تطور وكأن كل منا هو قائد الجيش شخصياً. وفى الشوارع اختفت العصيبة والغربة فجأة من أحاديث الناس. فجأة أصبحوا منضبطين فى سلوكهم. فبرغم حالة الاظلام الليلية التام فى القاهرة لم نشاهد حادث مرور. وبرغم تقنين السلع الأساسية سكر وأرز وزيت وغيره - بالبطاقات التموينية - لم يتزاحم أحد على السوق السوداء للشراء أو التخزين. فى الواقع: اختفت السوق السوداء.

اكتشفنا فى سياق الحرب أن هناك الكثير والكثير يجمع بيننا كمواطنين. واكتشفنا أن مصر تصبح أكبر أو أصغر بشعبها. بكل واحد فى شعبها. وفى دائرتنا الصغيرة يريد عبدالحليم أن يساهم بصوته وبلغ حمدى أسبق الجميع إلى عوده وموسيقاه. حتى كمال الطويل الذى كان اختار لنفسه منذ سنوات التوقف عن التلحين جاءته فجأة حالة جلوس إلى البيانو لكى يلحن. وفى ليلة واحدة كان عبدالحليم يبحث عن كلمات، وأنا أعود إلى بيتى لإعادة قراءة أى قصائد شعرية مطبوعة لعل بعضها يناسب انفعالات كمال الطويل - - وفجأة جاء إلينا كمال بلحن كطلقة مدفع. إنه مجرد دقيقتين أو ثلاث لكن الطلقة فى كلماته الأولى: «خلى السلاح صاحى». فى الصباح التالى اتصل بى عبدالحليم ليقول: لقد نمت الليلة سعيدا مرتين. مرة لأن كمال عاد يلحن لى. ومرة لأننى بموسيقاه سأشارك فيما يجرى.

أصبحنا نعيش بأذاننا مع إذاعة القاهرة. نفقز متعانقين مع كل بلاغ جديد. نحتضن بعضنا مع كل انتصار يتحقق. نذهب إلى الاستوديو لنسجل بينما أحدنا يذهب إلى قسم الأخبار فى الاذاعة كل ربع ساعة. نعود إلى المنزل لنطارِد فى الراديو كل محطات العالم. نفترق إلى بيوتنا لكل ننقل إلى بعضنا البعض بالتليفون كل خبر جديد. نصوم ونفطر ونتسحر وكل عقولنا فى الجبهة. وفجأة اكتشفنا أننا أصبحنا نحتسى كميات من القهوة والشاي عشرين ضعف ما اعتدنا. بعد قليل نفد السكر من عندى. بعده نفد أيضا من بيت عبدالحليم.

وجاءنا عبدالحليم السفرجى ليقول لنا محذرا: من هنا ورايح مفيش سكر.. تشربوا القهوة والشاي سادة.

وبعقوبة جاءه الرد منا جميعا: سادة سادة يا عبدالحليم.. بس نحارب. فيما قبل تلك الليلة وبعدما تتزاحم الحكايات والذكريات والمشاهد عن عبدالحليم. هذا الجريح فى أغنية «تخونوه». أو المشتعل فى أغنية «نار» أو الرقيق فى أغنية «فى يوم فى شهر فى سنة». أو المشتاق فى «رسالة من تحت الماء». أو المعذب فى أغنية «موعود» أو الثائر فى أغنية «حكاية السد». أو الحزين فى أغنية «قارئة الفنجان».. أو.. أو..

لكن الذى يجمع بين كل هذا هو ذلك الصوت القادم من أعماق عبدالحليم حافظ بالركة حينما يتيسر. بالاصرار حين يلزم. بالشدة حين يحب.. وبالصدق فى جميع الأحوال.

و: يا عزيزى عبدالحليم.. من بعد الأشواق والسلامات والسنوات.. أنت معنا صوتا وأداء وصدقا ونجما أول.. مع ذلك يا أخى: وحشتنا.



زوريا: الحياة.. بالطول والعرض



نيويورك ليست هى المدينة المثالية لإقامة علاقة انسانية. نيويورك مدينة متوحشة. هادئة على السطح ومتوحشة فى الأعماق. ربما كان هذا هو ما دفع مثلاً بالأديب الايرلندى الراحل برنارد شو إلى أن يختار أسلوب الصفحات اللغزية فى أول زيارة له إلى مدينة نيويورك. هى مدينة متوحشة ومع الغرباء تصبح متوحشة أكثر. وبرغم أنها تأوى أكثر من سبعة ملايين من البشر إلا أنهم يفضلون الحياة كغرباء حينما يولدون فى المدينة.. وغرباء حينما يعيشون فيها. وغرباء حينما يعبرونها. وفى كل مرات إقامتى فى نيويورك كنت أذكر نفسى دائماً بأننى مجرد عابر سبيل. عابر إلى مقر الأمم المتحدة. أو إلى المكتبات الكبرى. أو إلى «الفيلديج» - القرية أو إلى مسارح بروداوى. أو إلى حى السود (هارلم). وهو ما يعنى أننى أذبذب يومياً بين القرن العشرين والقرن الخامس عشر. أو بين الثراء الفاحش والفقر المدقع.. أو بين فنادق الوالدروف استوريا والهيلتون وبلزا - أعلى الفنادق - وبين بيوت الشباب التى تناسب حذائى غير اللامع ودولاراتى المصرية القليلة، حتى لو كانت بالسعر التشجيعى. مع ذلك، ولدهشتى البالغة، ففى إحدى مرات إقامتى العابرة فى نيويورك أصبحت طرفاً فى علاقة تحمل كل ملامح نيويورك. علاقة مفاجئة عريضة متسعة مبهرة مبهدة متقلبة ممطرة ومشمسة فى نفس اللحظة بالضبط كما هى نيويورك. أما الطرف الآخر فى تلك العلاقة الانسانية فهو أنتونى كوين.. شخص قادم من هوليوود فى الساحل الغربى للولايات المتحدة وحرفته التمثيل وعرفناه فى العالم العربى من خلال أفلام هوليوودية عديدة أشهرها فيلم «زوريا اليونانى». كان هناك صديق مشترك عرفته أصلاً فى لوس انجلوس، وهوليوود احد احيائها، وحينما اتصلت به من نيويورك لأعرف أخباره قال إنه قادم فى اليوم التالى إلى نيويورك فى «مهمة عمل».. والعمل هو تصوير فيلم سينمائى يقوم بانتاجه بالمشاركة مع أنتونى كوين، الذى هو أيضاً بطل الفيلم. إنن نلتقى غدا.. وفى نيويورك. حينما التقينا أصبحنا ثلاثة: أنتونى كوين وصديقنا المشترك - مصرى الأصل - وأنا. فى البداية قال الصديق: أريد أن أعرفك بأنتونى كوين الذى..

قاطعته ضاحكا ومتوجهاً بحديثى إلى أنتونى كوين قائلاً: مستر كوين.. دعنى أقدم نفسى إليك أولاً: أنا كاتب ناشئ من مصر وموجود فى نيويورك بحكم الضرورة وجئت اليوم بدعوة من صديقى

فؤاد هذا لكى أتعرف إليك عن قرب.. إن لم يكن لسبب فلأنى ساهمت بما يعادل ربع دولار فى نجاح فيلم «زوربا اليونانى» بمصر ارجو أن تكون الشركة المنتجة للفيلم قد ذكرت لك هذا الربع دولار فى فاتورة أجرك..

انفجر أنتونى كوين ضاحكا مما دفع الجالسين إلى بعض الموائد القريبة منا إلى الالتفات نحونا.. وفجأة توقف عن الضحك لكى يكتسى وجهه بتعبير مضاد تماما. تعبیر من التجهّم والجدية المفاجئة.. لقد سألتنى: هل قلت إنك كاتب؟ أجبته مصححا: نعم كاتب. لكنى قلت أيضا أننى كاتب ناشئ.

رد أنتونى كوين: لا يهم ناشئ أو غير ناشئ هذه دعابة لا يقولها كاتب ناشئ حقا.. إننى أحسدك..

الآن جاء دورى فى الاندهاش: تحسدنى لأننى ناشئ؟ - لا.. لا.. احسدك لأنك كاتب.. هناك ملايين من الناس يعرفون أننى أنا - أنتونى كوين - ربما أكون ممثلا جيدا أو مشهوراً، لكن ما لا يعرفه أحد هو أن طموحى الأساسى هو أن أكون كاتباً. صدقنى هذه الحياة التى نعيشها فيها قوانين خفية تستعصى على الفهم.. الناس جميعا يروننى ناجحا ومشهوراً وثريا. مع ذلك فأنا الوحيد الذى يعرف أننى ما أزال فقيرا لسبب بسيط.. هو أننى كنت أريد أصلا أن أصبح كاتباً.. أصبح مؤلفاً.. بل إننى فى سنوات فقرى المدقع وفرت دولاراتى القليلة لكى ألتحق بمدرسة خاصة لتعلم مهنة الكتابة والتأليف.. أربعون دولارا كاملة دفعتها من طعامى وقتها حتى أحقق هذا الحلم. فى النهاية قالوا لى فى المدرسة. لا حل.. دك من حكاية الكتابة والتأليف وابحث لنفسك عن مهنة أخرى.

قلت له: مستر كوين.. أنت الآن ممثل ناجح وأفلامك رائجة بمستوى العالم. مع ذلك مازلت تتكلم عن حلم مضى، وبحرارة. ألم يعوضك نجاحك السينمائى كممثل عن فشل أحد أحلامك المبكرة؟

تكهرب وجه أنتونى كوين من جديد وبدأ يتحدث فى المطلق كما لو أنه يناجى نفسه. قال: الفارق الأساسى هو أن الممثل يعزف لحننا وضعه موسيقار. الكاتب هو الموسيقار. هو المؤلف. أنا كممثل خياراتى محدودة فى الأدوار التى أقوم بها على الشاشة أو فى المسرح. وفى نهاية المطاف أنا محكوم برؤية المؤلف وفى الغالب أقبل كممثل أداء أدوار قد لا أكون مؤمنا بها لمجرد أن لى أسرة ونفقات وأعباء مالية لن تنتظر حتى أخترع لنفسى الدور الذى أريد.. هذه هى هوليوود.. هى السينما.

سكت أنتونى كوين لحظة قبل أن يضيف: ربما ترانى أنت على الشاشة بطلا.. لكننى فى الحقيقة كومبارس. عبد. أنا عبد للاستوديو وللشركة المنتجة وللشركة التسويق والتوزيع.

أما المؤلف، الكاتب، فشيء آخر تماما. الكاتب المؤلف هو الفنان الأصلي. أنا وغيري نعزف فقط اللحن الذي وضعه هو وحتى الآن لا يزال الجزء الحقيقي في داخلي هو أن أولف لنفسى. أكتب لنفسى، ألا تعتقد أن هذا من حقى؟

– هذا سؤال متأخر يا مستر أنتونى كوين.

– قل لى تونى من فضلك.

– حسنا يا تونى. لكن ألا تدرك يا مستر أنتونى كوين أن الطعام والغداء تأخر كثيرا؟ أخشى أن هذا المطعم سيطردها فى النهاية لأننا تجاوزنا موعد تقديم الغداء.

قال أنتونى كوين بكبرياء: اطمئن. لا أحد فى نيويورك كلها يجروء على أن يرفض طلبا لأنتونى كوين.

قلت ضاحكا: هذه على الأقل ميزة كبرى للتمثيل والسينما والنجومية يجب ألا نضيعها.

طوال الأسابيع الثلاثة التالية أصبحنا شبه متلازمين – أنتونى كوين وصديقى فؤاد وأنا – فباستثناء ساعات تصوير الفيلم – وهو رقم مائة وخمسة فى حياة أنتونى كوين السينمائية – أصبحت فى حالة غوص يومية فى أفكار مستر زوربا. أقصد أنتونى كوين. ومع أننى لست غريبا تماما عن المجتمع الفنى إلا أنه من النادر أن تجد فى شخصية ممثلة أو ممثل ما يتجاوز الأدوار المرسومة على الشاشة. وحتى فى اللحظات التى يقول فيها الممثل هنا جملة مفيدة.. غالبا ما تكون اقتباسا واعيا أو غير واع من سطور شخصية سابقة له على الشاشة. أنتونى كوين هنا استثناء مدهش. هذا انسان يقرأ ويستمتع ويناقش ويفهم ويتساءل ويندهش ويعيش حياته.. بالطول والعرض. فى بعض اللحظات نحن داخل الفندق. وفى لحظات أخرى على الرصيف. أحيانا نأكل السيمون فيميه وأحيانا نأكل الفشار. غالبا يقرأ سؤالى قبل أن أنطقه والأكثر هو أنه يتمتع بروح من الفكاهة أقرب إلى الروح الشرقية. هذا طبيعى لأن أنتونى كوين نفسه من أصل مكسيكى عن طريق الأم ونصف إيرلندى عن طريق الأب. والأب ذاته خرج من قاع الفقر لكى يطفو بين وقت وآخر على سطح الحياة فى وظيفة تسمح له بالكاد أن يسد رمق أسرته. هذا يعنى أن الفقر بالنسبة لأنتونى كوين كان أكثر من مجرد كلمة. الفقر شبخ وكابوس وشيطان ظل يطارده طوال الأربعين سنة الأولى من حياته على الأقل. وذات ليل، وعلى الرصيف، قال لى أنتونى كوين ببساطة: فى النصف الأول من حياتى كان الواقع يلاكمنى. والآن فى النصف الثانى من حياتى أنا الذى ألاكمه. لقد عملت ماسح أحذية ونجارا وكهربائيا وجزارا وسائق تاكسى وترزيا وعامل أسمنت وملاكما محترفا ضمن دسنة مهن أخرى.

قلت له: لكنك الآن ترسم وتنحت وتسافر وتكتب لنفسك إلى جانب التمثيل.

– نعم. نعم. نعم. لكن كل هذا بفلوسى. بالفلوس يستطيع الإنسان أن يحصل على أشياء كثيرة مفيدة. وهو ما لا يدركه أحيانا أصحاب الفلوس أنفسهم.

سألته: قل لى بالمناسبة.. لماذا تمثل؟

توقف أنتونى كوين فجأة وأمسك ذقنه بيده اليمنى وهو يتطلع إلى مبتسما: سوف أعطيك ثلاثين ثانية لتفكر فى سؤال أفضل.

- هذا هو سؤالى الأفضل: لماذا تمثل؟ أطرق أنتونى كوين قليلا، وصمت لحظة، واستأنف السير فى حديقة «البارك» معى للحظات أخرى قبل أن يجيب: أولا: لأننى أحب جدتى جدا وهى كان من أحلامها أن ترانى ممثلا على الشاشة. وثانيا: لأن التمثيل يتيح لى شخصيات أتقمصها ربما تقول للناس شيئا مفيدا.

- وهل قلت للناس شيئا مفيدا؟

- ليس فى البداية. لقد بدأت أولا ككومبارس فى أحد أفلام المخرج الكبير الراحل سيسيل دى ميل. وحينما بدأت أقف على قدمى أصبح هذا يعنى أدواراً ثالثة أو رابعة فى أفلام هى بذاتها درجة خامسة. أدوار كانت تنتهى دائما بموتى على الشاشة. وفى بعض اللحظات وصل بى الإحباط إلى درجة أننى تصورت أنه لو قدر لى فى نهاية المطاف أن أخرج من هوليوود بنصف عقل فسوف تكون تلك نعمة كبرى من الله

- لكنك حصلت على جائزة الأوسكار مرتين عن دوريك فى فيلمى «فيفا زاباتا» و«شهوة الحياة».

- آه.. آه.. لقد كان فيلم «فيفا زاباتا» هو نقطة التحول الكبرى فى حياتى السينمائية فعلا. بعده فقط بدأت هوليوود تعاملنى كنجم. حتى ذلك الفيلم كانت حياتى سلسلة من البدايات الزائفة. كل بيت عشت فيه لم يكن هو أبدا البيت الأخير. كل علاقة كانت مجرد مقدمة لعلاقة أخرى. وحتى كل سيناريو كنت أنظر اليه على أنه مجرد خطوة نحو سيناريو آخر انتظره على أحر من الجمر. فيلم «فيفا زاباتا» مع مارلون براندو كان هو البداية الصحيحة بعد طول تعب وانتظار.

- والآن ما زلت تتحسر لأنك لم تصبح كاتباً؟

- نعم. نعم. السبب بسيط: أعطنى مؤلفا جيدا.. وأنا أغير لك العالم.

من الغريب أننى لم أكن أحس بالمفاجأة فى معظم اجابات أنتونى كوين. فحتى لو كان هذا الفيلم الذى عاصرت تصويره معه فى نيويورك هو فيلمه الخامس بعد المائة.. إلا أن أدائه التمثيلى يكاد أحيانا يتساوى مع الأعماق التى رسمها المؤلفون لشخصياتهم. فيلم «الزيارة» مثلاً مع انجريد بيرجمان عن قصة الأديب السويسرى دورينمات. فيلم «أحدب نوتردام» مع جينا لولو بريجيديا عن قصة الأديب الفرنسى فيكتور هوجو. فيلم زوربا اليونانى مع ايرين باباس عن قصة الأديب اليونانى نيكوس كازانتزاكيس. فيلم..

انتشلتني أنتوني كوين من حالة السرحان بسؤال مفاجئ: بماذا تفسر ذلك النجاح الهائل الذي حققه فيلم زوربا اليوناني في أنحاء العالم؟ قلت له: لعمقه الانساني. نحن أمام مثقف بريطاني أصبح وريثاً لأحد المناجم. وفي طريقه إلى هناك وقع تحت تأثير زوربا، ذلك المتشرد المحاصر بين متطلبات الروح ونداء الجسد. إنه يمتص لنفسه أكبر قدر من السعادة من اللحظة الراهنة في الواقع الراهن. والفلوس عنده وسيلة لإسعاد نفسه وإسعاد الآخرين. في الواقع ان كازانتزاكيس رسم شخصياته في الرواية بكل انسانية.

- آه.. آه هذا الأديب اليوناني العظيم. لقد التهمت كل كتبه قبل أن أبدأ بتمثيل فيلم زوربا. هل تعرف أنني الآن أحلم بإعادة تمثيل زوربا من جديد. الآن لم أعد احتاج إلى أن أصبغ شعري باللون الأبيض.. والآن تضاعفت خبراتي بالحياة وبالبشر وبالمأزق الانساني في حياة كل منا.

قلت له: إنني أحياناً أتساءل هل أفلام مثل زوربا تعبر عن هوليوود أو هي استثناء فيها؟
- هي استثناء. مؤكد. هي استثناء. وفكرة تحويل القصة إلى فيلم جاءت أصلاً من إيرين باباس والمخرج اليوناني الشاب ميخائيل كوكايانيس.. أما هوليوود فهي مجرد الاستوديوهات والتكنولوجيا والابهار.

- غريب أن اسمع هذا من شخص مدين بنجاحه لهوليوود.
- لا.. لا.. أنا مدين بنجاحي لنفسى أولاً. لإصراري على رفض الهزيمة. هوليوود مدينة مليئة بالنفاق. الممثلون فقدوا صلتهم بإنسانيتهم. بالمعنى الانساني للحياة. بالغضب الحقيقي أو بالحب الحقيقي. فقدوا صلتهم بالسعادة البسيطة أو بالخوف الإنساني أو بالبساطة التلقائية.
- ولكن هوليوود تقود صناعة السينما العالمية.

- تقودها بالتكنولوجيا لا أكثر ولا أقل. هل تعرف مثلاً أنني كنت أزداد انسانية مع كل طفل أنجبه. والآن بعد أن أنجبتهم (كانوا سبعة وقتها وفيما بعد أصبحوا ١٣) فإن نصف همى هو أن أحميهم من التأثيرات الضارة لبعض أفلام ومسلسلات هوليوود.. فبكل هذا العنف في الأفلام.. والمخدرات.. والتدخين.. والجريمة.. لا يمكن الاطمئنان إلى وجود شباب متوازن نفسياً ومتماسك إنسانياً..

- ومن أين يبدأ العلاج؟

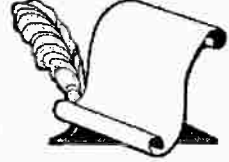
- من الصحوة. من الالاح على هوليوود بعقدة فيتنام. نحن ذهبنا إلى فيتنام بنصف مليون من جنودنا. وقصفنا ودمرنا فيتنام بكاملها لجرد ارغامهم على تقبل نظرتنا نحن للحياة. لقد أدركنا، ولكن بعد تكاليف باهظة وتضحيات جسيمة، أن الشعب الفيتنامي ليس شعباً من الأبالسة والشياطين. هو شعب من الفلاحين الفقراء المعتزين بكرامتهم والمتمسكين بأرضهم والمدافعين عن

استقلالهم. فقط هم متمسكون بحقهم فى أن تكون لهم قيم أخرى. قيم لا علاقة لها بالأيديولوجيا ولا بلعبة الأمم. قيم تتعارض مع الفردية الشديدة التى نجحت هنا - فى امريكا - ولكنها غير مضمونة النجاح بنفس القدر فى أماكن أخرى من العالم. ثم سكنت أنتونى كوين قبل أن يضيف: الأسلوب الأمريكى فى صناعة السينما هو كالأسلوب الأمريكى فى حرب فيتنام. انفاق ضخم فى غير موضعه. أعمال مربحة وتسخير للتكنولوجيا ولكن مع الابتعاد عن الواقع الانسانى.

هكذا تلاحقت الحوارات مع أنتونى كوين. إنه «تونى» كما يحب أن أناديه. وهو زوربا كما التصق فى ذهنى. إنه مقتنع بأن التكنولوجيا مهمة ولا بد منها. ولكن البعد الانسانى أيضا لا يقل أهمية. وهو مستعد للعب فى هوليوود بقواعدها. لكنه فى أول فرصة للاستقلال لا يضيع وقته. وهو يحب الأموال - وبالملايين حيثما أمكن - ولكن باعتبارها وسيلة للسعادة وليست السعادة ذاتها. وهو يريد السعادة لكن بالتفاعل مع الآخرين وليس بالانفصال عنهم. وهو لم يعد ذلك الشاب مقتول العضلات الذى يحمل مسدسه ويقتحم البار - فأفلام هوليوود تعشق الباربات - لكى يطرد الأشرار. ولكنه فى الخمسين والستين والسبعين من العمر (الآن تجاوز الثمانين) يستطيع أن يطرح على الشاشة شخصيات انسانية بعمق زوربا وبفقر المكسيكى سانشيز أو حتى نقيضه الملياردير اليونانى أوناسيس أو... أو... لقد طويت أوراقى مع أنتونى كوين. أوراق عن تلك الأسابيع الثلاثة التى جمعتنى به ذات صيف فى نيويورك. علاقة إنسانية عاد بعدها كل منا إلى عالمه الخاص وآماله المتقاطعة. وفى بعض اللحظات كان أنتونى كوين يقطع حواراتنا لكى يقول لى متأملا: إنك تذكرنى بشبابى. فى الواقع إننى حتى الآن لست متأكدا هل كان بقوله هذا يقصد الإطراء أو عكسه.. يبشرنى بالعذاب.. أو بالمتعة. لقد تابعت أخباره فيما بعد، وهو يتزوج فى الثمانين للمرة الثالثة، أو وهو يحلم بتمثيل شخصيات مثل الرسام بيكاسو أو الروائى تولستوى، أقول معه: هذا إنسان يعيش حياته بالطول والعرض. إنسان يؤمن بأن الحياة جميلة حين نحياها.. ولكن بشرط الاحتفاظ دائما بالبوصله الصحيحة. بعدها فقط نستطيع أن نقول: إن أجمل الأيام كان.... غدا.



«الله يعطيك العافية..» وحكايات أخرى !



كنا نقترّب من الحدود اللبنانية مع سوريا. والأجواء السياسية مكهربة، فهي ذروة الحرب الأهلية في لبنان. أما الأجواء الطبيعية فزمهرير.. كل منا داخل السيارة يتمنى لو أصبح داخل موتور السيارة ذاته حماية من البرد والثلوج. وعند نقطة الحدود توقفت سيارتنا بينما جندى الحراسة داخل المركز الحدودى يشير إلينا فيما بدا أنه يلوح لنا بالمرور. هكذا بدأ السائق ينطلق.. وخلال لحظات أحاطت بنا طلقات الرصاص من كل جانب مما أصابنا جميعا بصاعقة.

قدم نحونا جندى الحدود عصيبا وهائجا وهو يصيح فى السائق بغضب: أنا أعيط عليك.. أعيط عليك.. كيف ما توقف؟

تلثم السائق قائلا بارتباك واعتذار: ما فهمت عليك.. سامحنى يا أخى.. اليوم ما أخذت ترويقة..

لكنى وجدت نفسى أقول لجندى الحدود باندھاش: ولماذا يا أخى تعيط عليه؟ أحنا هنا فى جنازة؟

بعدها اتضحت المفارقة الكبرى. فباللهجة المصرية فإن «العياط» هو البكاء. أما فى اللهجة السورية فالعياط هو المناداة، أو الزعيق، أو الصراخ. ومن تلك المفارقة أفرغ جندى الحدود نصف مدفعه الرشاش إنذاراً للسائق بالتوقف فورا.

ومن تلك المفارقة تعلقت حياتنا للحظات بين الجبل والقبر.



وفى الصحف السعودية لفت نظرى انتشار نوع من الإعلانات، وبكثرة، من النموذج القالى: «للتقبيل» من الساعة ٦ الى الساعة ٨ يوميا. هاتف.... أو: مطلوب للتقبيل: ويفضل عرض مميز. للمفاهمة: هاتف.... أو: للتقبيل: خصوصا العائلات. الديكور جديد. والهاتف.. وهكذا. مع أول صديق سعودى زارنى فى القاهرة انطلق سؤالى: كل هذه الإعلانات؟ للتقبيل؟ وفى السعودية؟ ضحك الصديق السعودى بشدة وهو يشرح لى الأمر قائلا: عندنا التقبيل/ معناه البيع.

فهي اذن عروض إعلانية للبيع. بيع أماكن وعقارات يجري البحث لها عن مشترين من خلال الإعلانات.



وفى القاهرة فوجيء صديقى الطبيب بشخص يدخل إليه عيادته صارخا: دكتور.. الحقنى. أنا اتنشلت..

رد عليه الطبيب باستغراب: وأنا مالى يا أخى.. بلغ البوليس..
لكن المفارقة اتضح حينما تبين لصديقى الطبيب أن زائره هذا عراقى.
وباللهجة العراقية فإن «اتنشلت» تعنى «أصبحت بنوبة برد»، أما باللهجة المصرية فهي تعنى «اتسرقت».



وفى المغرب كنا مدعوين ذات ليلة فى قصر فخم ضخم. صاحب القصر يحب الغناء والموسيقى وفى تلك الليلة أصبح الفنانون الزائرون ضيوفه، وأنا جالس وسط ساندويتش من الموسيقار محمد عبدالوهاب والمطرب عبدالحليم حافظ. بعد قليل طلب الداعى من فريد الأطرش الغناء. ورحب فريد بحرارة خصوصا وأن الداعى صاحب القصر سيقود له الفرقة الموسيقية.
بمجرد أن انتهى فريد الأطرش من الغناء اتجه إليه صاحب القصر ليشكره بحرارة قائلا: يا أخ فريد أنت أبدعت..

رد فريد الأطرش بتلقائية: أبداً والله.. ده مجرد إن سموك حساس جدا..
فى تلك اللحظة امتقع وجه صاحب القصر تماما وركبه سهم الله بينما فريد الأطرش ليس واعيا بالمرة بما جرى. ونظرت إلى محمد عبدالوهاب على يمينى فوجدته يكاد يصبح تحت الكرسي. تطلعت إلى عبدالحليم حافظ إلى يسارى فوجدته يتظاهر بأنه.. ولا هنا.. متشاغلا بحديث هامس مع بليغ حمدي. وللحظات قليلة مرت كأنها دهر بكامله.. خيم علينا الصمت المطبق.. إلى أن أشار صاحب الدعوة إلى فريد الأطرش قائلا بتماسك: تفضل يا أخ فريد.. اجلس.. تفضل..
فى سيارة العودة شرح لى محمد عبدالوهاب الموقف. فكلمة «حساس» فى لهجتنا المعتادة تعنى اطرأ. بينما فى اللهجة المغربية تقال عن شخص شاذ. وليلتها لم يسلم فريد الأطرش من مداعبة عبدالوهاب: الله يجازيك يا فريد.. تقول للراجل إنه حساس؟ وكمان.. حساس جدا؟ هاهاها..



وفى السعودية هناك شخصيات وعائلات كبيرة ومحترمة اسمها أو لقبها الزامل، فى مصر أيضا أشخاص وعائلات لقبها «الطحان» لكن جرب أن تذهب الى تونس لتقول إن اسمك صلاح الزامل أو

سيد الطحان. لاحظتها ستكون المفاجأة الكبرى من نصيب الطرف التونسي. فكلمة «الزامل» دلالتها التونسية سيئة. وكلمة «الطحان» أسوأ وأسوأ.

حالة عكسية: في تونس مثلاً هناك أشخاص وعائلات لقبها «عكروت» وفي اللهجة المصرية كلمة «عكروت» تقال شعبياً عن شخص «مدرج». يلعب بالبيضة والحجر، لكن.. اذهب إلى لبنان وقل للبناني: أنت رجل عكروت. بعدما جهز نفسك لموال شامي من الشتائم المفتقة.. لأنه اعتبر أنك شتمته، بشدة، وهو بالتالي لن يكون أقل سخاء وكرماً.

أو: جرب أن تذهب إلى سوريا وتطلب قوطة.. طماطم - مثلاً. ستكتشف ثانياً أن الطماطم في اللهجة الشامية اسمها «بنادوره». لكن قبل ذلك ستكتشف أولاً أن كلمة «قوطة» في اللهجة الشامية كلمة إباحية جداً.. جداً.

وفي مصر أستطيع مثلاً أن أطلب الجمبري. لكن إذا ذهبت إلى الخليج فاسمه «روبيان» في سوريا اسمه «قريدس» في تونس اسمه «تريلية» تاء راء ياء. لام. ياء. تاء. مربوطة. فإذا وجدت النطق صعباً وناقصك تمرين إذن ابعد وخليك في المضمون واطلب البديل التالي: حوت. ففي غياب الجمبري يحب التونسيون أكل الحوت - يعني: السمك.

فإذا راحت نفسك للبطيخ وأنت في السعودية مثلاً.. إذن اطلب: حبيب. أما إذا كنت في تونس فقل: دلاع. وفي سوريا قل: جبس: لا.. لا.. ليس الجبس المعروف في اللهجة المصرية وتجده عند مقاولي المباني. لكنه «البطيخ» بالسوري.

والسوري في مجاملاته العادية يمكن أن يقول لك: الله يعطيك العافية، بما يعني الله ينعم عليك بالصحة. أما لو قالها سوري لشخص في تونس فسيحدث شينان. أولاً - سيرد عليه التونسي بغضب: الله يحرق باباك. ثانياً - إذا كان هذا التونسي صاحب نفوذ فستقرأ في اليوم التالي عن شكوى أمام الأمين العام لجامعة الدول العربية. تونس تحتج يا إخوان. كيف يتمنى سوري لتونس العافية؟ إذن هو يتمنى له النار. يعني جهنم.. أعوذ بالله وبالعروبة.

وفي مصر نقول عن الخبز إنه عيش. في اليمن هو خبز. وفي الكويت: مرقاق. في سوريا: مرقوق. في العراق هو: صمون (صاد. ميم مشددة مرفوعة. واو. نون). وفي مرة كنا مجموعة أصدقاء عرب في مطعم بتونس. في البداية طلب أحدها من الجرسون طحينة. يعني: سلاطة طحينة. رmqه الجرسون شذراً ولم يرد. بعد قليل ناداه أخونا الكويتي من جديد وقال له معاتباً: يا أخي.. طلبت منك سابقاً طحينة ولم تأت بها الآن هات لنا طحينة.. وصمون.

عند هذا الحد قذف الجرسون بالفوطة من يده إلى الأرض وصاح غاضباً بمجموع كلمات لا نفهم مفرداتها ولكننا اجتهدنا لكي نفهمها بمضمونها. والمضمون هو أن الرجل يزمجر ويغضب لكرامته

الجريحة والمهانة. وبعد وساطة مصرية بين إخواننا في الكويت وإخواننا في تونس طلعت العروبة بريئة. الحكاية ان «طحينة» في تونس لفظ من اختصاص شرطة الآداب وصمون لفظ من اختصاص سجون الآداب.



وأحيانا تطلب شيئا من شخص عراقي فيكون رده: تتدلل. أما المصري فيقول لك: تؤمر والمغربي يقول لك: على راسي. أما السعودي فيقول لك: على خاشمي. و«الخاشم» هنا هو الأنف، وهى من الأنفة، أو الأنفة، فالأنف عند السعودي رمز للعة، وإذا قال لك «على خاشمي» فهو يجاملك.. وبشدة.

طبعا هذا حديث رجال. أما لو دخلت المرأة فخذ عندك. القونسية تقول لك: باهى. فإذا قالت لك العراقية «تتدلل» إذن انسى الكويت.

وإذا قالت لك السورية «تقبرني».. انن أعطاها فرصة تقرأ لنزار قباني. هل هناك أحد يفتح سيرة القبور ومشتقاتها في إطار الغزل؟ وإذا قالت لك اللبنانية «تكرم» أو: «كرمال الله» هذا يعنى أن عليك أن تنسى العروبة وتفكر في فرنسا فالخط مفتوح ومباشر على فرنسا.. صوت وصورة وتلحين ذاتي.. و«فيقا فرانس».. والعروبة يالها طويل. ستقدر موقفك.



بالطبع فرنسا سابقا احتلت الشام «سوريا ولبنان» والمغرب «تونس والمغرب والجزائر» وإيطاليا احتلت ليبيا وبريطانيا احتلت مصر والسودان والعراق والأردن وفلسطين والخليج حتى عدن. والحائط الدفاعي الأول في كل حالة كان هو اللغة العربية.. التاريخ والجغرافيا..

وإذا كنا قد تجولنا لبعض الوقت في هذا المقال مع مفارقات اللهجات المحلية في البلاد العربية فإن المفارقات تطول وتنقلب أحيانا من الطرافة إلى الهم والغم، ولكن هذا كله يظل مدخلا إلى المفارقة الأكبر والأخطر في الموضوع كله. ففي الشمال هم انطلقوا من لغات متعددة إلى الوحدة. ونحن انطلقنا من لغة واحدة إلى التمزق.

الآن يبدأ الحديث الجاد. فالسوق العربية المشتركة مثلا فكرة هائلة انطلقت عندنا في العالم العربي من قبل أن نتحدث أوروبا عن السوق الأوروبية المشتركة لكي يعدلوا اسمها إلى «الاتحاد الأوروبي» ونحن انطلقنا من دول منفصلة الى دول أكثر انفصالا.. تجمع بينها لغة مشتركة.

و«الاتحاد الأوروبي» يضم الآن ١٥ دولة أوروبية (تتزايد مع الوقت) ومؤسسات هذا الاتحاد لها ميزانية سنوية تساهم بها الدول الأعضاء سنويا وبانتظام.. ثلاثة أرباع الميزانية تذهب فقط إلى أعمال الترجمة. فبحكم الاتفاق يجب ترجمة كل أعمال «الاتحاد الأوروبي» ومداولاته واجتماعاته

إلى أحد عشرة لغة منفصلة.. هي لغات الدول الأعضاء.. وهم يترجمون.. ويجتمعون.. ويتحملون.. حتى يحققوا في النهاية المصلحة المشتركة.

والله أعطانا ميزة كبرى هي اللغة العربية.. لغة مكتوبة ومقروءة من المحيط إلى الخليج بلا مترجم، يعنى لغة تربط الآن بين مائتين وثمانين مليون عربي. هذه ميزة كبرى ليست متوفرة حتى للولايات المتحدة، وهي القوة العظمى المنفردة حاليا بمستوى العالم. فمع أن اللغة الإنجليزية سائدة بين تسعين بالمائة من الشعب الأمريكي إلا أنها حتى الآن لا تمثل اللغة الرسمية المتفق عليها. وفي السنوات الأخيرة فقط بدأ أعضاء في الكونجرس الأمريكي يروجون لفكرة إصدار قانون يجعل اللغة الإنجليزية لغة رسمية للمجتمع الأمريكي. في البداية كانت هناك معارضة قوية لهذا الاتجاه.. على أساس أن التنوع العرقي واللغوي كان جزءا من حيوية المجتمع الأمريكي. لكن الأمريكيين بدأوا يكتشفون مؤخرا أن اللغة الواحدة هي بالأساس مصدر قوة واندماج وتفاعل وانصهار بين أفراد المجتمع.

في مقابل ذلك فإن الفرنسيين (والألمان أيضا) هم أكثر اعتزازا بلغتهم وأشد حرصا على حمايتها من تسلل الكلمات والمصطلحات الأجنبية، في الواقع أن مصر حينما أقامت قبل عقود مجمع اللغة العربية كانت تتطلع إلى فوائد مماثلة كالتى استهدفتها فرنسا حينما بادرت إلى إقامة مجمع أكاديمي لحماية لغتها الفرنسية.

وحماية اللغة الوطنية والقومية لا تعنى بالمرّة عدا للغات الأخرى أو خصاما معها. بالعكس. يجب أن يكون الاهتمام كبيرا بتعلم اللغات الأجنبية. ليس فقط من قبيل «من تعلم لغة قوم أمن شروهم».. ولكن أيضا من قبيل أن تعلم اللغة الأجنبية هو باب إضافي إلى المزيد من المعرفة.

المسألة فقط هي أن تظل للغة الوطنية والقومية كرامتها الخاصة وسموها الخاص داخل بلدها، وتظل لها أيضا وظيفتها الحيوية كرابط ثقافي وحضاري وتأكيد للشخصية المتميزة. والزعيم الفرنسي الراحل شارل ديغول مثلا أقام أزمة في عهده مع شركة هيلتون الأمريكية لإدارة الفنادق. كانت الشركة تريد أن تسمى فندقها في باريس «هيلتون دى باريس» ولكن ديغول أصر على أن يكون الاسم هو «باريس هيلتون» وقتها قال البعض إن هذه التفصيلة الصغيرة لا تعنى شيئا سوى عنجهية فرنسية فارغة. لكن ديغول كان يراها جزءا من إعلان فرنسا والفرنسية.. داخل عاصمتها.

والآن لننظر معا إلى إعلامنا العربي ككل. لندقق مثلا في الإعلانات التليفزيونية والصحفية. في أسماء الشركات. في لافتات المحلات. بل حتى في ملابس الصغار والصغيرات. أسماء وكلمات ومصطلحات بالإنجليزية غالبا وبالفرنسية أحيانا بدأت تعود إلى السيادة في حياتنا اليومية.. وكأن التفرنج هنا أصبح أقصر الطرق إلى الموضة والعصرية.

غير صحيح. فباللسان العربى انفتح العرب فى لحظات قوتهم سابقا على الآخرين وأعطوهم حضارة. وبهذا اللسان العربى ذاته احتفى العرب فى لحظات انكماشهم وتمدد الآخرون. فى

الحالتين كان الفارق بين التقدم والتأخر هو المعرفة. العلم. التكنولوجيا. في القرن الثاني عشر جاءت أوروبا إلى العالم العربي مستعمرة باعتبارها قوة بحرية فى مواجهة العرب كقوة برية. لكن العرب أحسنوا تنظيم ما فى أيديهم، وعوضوا بسرعة ما تخلفوا فيه عن الآخرين.. فهزموا الحروب الصليبية.

فى القرن الثامن عشر جاءت أوروبا من جديد. وهى فى هذه المرة سبقت العرب إلى عصر البخار. وحينما واجه نابليون بونابرت وجيشه المصريين وجيشهم فى سنة ١٧٩٨ لم تكن المواجهة بين شجاعة وجبن أو كثرة وقلة. كانت مواجهة بين المدفع والحصان. أى أنه فارق فى التكنولوجيا. من هنا جاءت الهزيمة.

لكن خلال أقل من جيل واحد، جيل واحد فقط، أفاق المصريون من سباتهم وعوضوا بسرعة فارق التكنولوجيا بينهم وبين أوروبا، ولم يجدوا غضاة فى استخدام الأوروبيين أنفسهم أو التعلم من أوروبا لاختصار الطريق والزمن. هكذا أصبحت مصر الدولة المهزومة فى سنة ١٧٩٨ هى بذاتها الدولة التى تدق أبواب تركيا فى سنة ١٨٣١.

والتاريخ لا يتقدم غالبا فى خطوط مستقيمة. التاريخ يسلك أحيانا طرقا متعرجة. لكن عبرة التاريخ فى النهاية تظل هى نفسها: إن من ينسحب من العصر سيدوسه العصر، ومن يتراجع عن المعرفة، وسباق المعرفة، سيحكم على نفسه مسبقاً بأن يكون ملعوبا به.. بدل أن يصبح لاعبا.

هذا يعيدنا من جديد إلى اللسان العربى. إلى اللغة العربية. هناك لهجات محلية داخل الوطن العربى تتقاطع أحيانا مع بعضها البعض. بل إن هناك أحيانا لهجات فرعية داخل اللهجة المحلية الواحدة، عندك مثلا المنطقة الشرقية والمنطقة الوسطى فى السعودية أو الصعيد والمدن الساحلية فى مصر. أو جنوب وشمال السودان.. الخ.

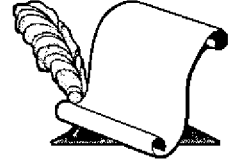
واللغة العربية هى جسرنا الأساسى فوق هذا كله. هى رابطنا المشترك. دعك من البطيوخ والدلاع. أو السمك والحوت. أو العيش والمقوق. الحياة تمضى بمثل هذا وتستمد منه بعض ابتساماتها.

لكن لا تمضى الحياة - أو بالدقة: ما نريده من حياة - بأن نغتر فى سلاح أساسى أعطاه الله لنا كمصدر قوة، فهذه القوة التاريخية لحسابنا، ومن نصيبنا، وتجعلنا أقرب إلى بعضنا بأكثر مما نتصور.

وفى السابق قال الزعيم البريطانى ونستون تشرشل: نحن والولايات المتحدة شعبان حليفان تفصل بينهما لغة مشتركة. بالطبع كان تشرشل يقولها مازحا وساخرا فى المرات التى اختلفت فيها سياسته مع الولايات المتحدة.

الآن نريد أن نقول بجدية وبالعربى الفصحى: نحن ٢١ بلدا عربيا تجمع بينها لغة مشتركة. نعمة لا بأس بها.. كبدية.

قضية كل جيل .. وسؤال كل عصر



الكتب كالنساء.. قليلها يستمر عطره معك بعد انصرافه. والكتب فيها من صفات النساء. هناك نساء تغلق عينيك حتى تراها وكتب تغلق عينيك وتفتح عقلك حتى تستوعبها. وكما أن هناك امرأة تذكرها بنوعها، فهي ككل النساء، هناك امرأة تذكرها بتمييزها وتفرداها. كذلك الكتب. هناك كتاب فيه كل شيء من ملامح الكتب وليس أكثر. وهناك كتاب فيه، غير ملامح الكتب، صفات كاسحة الألغام.. فهو يظهر أمامك أرضا خطيرة ويضيف إليك شجاعة لازمة.

هناك امرأة تحرك خيالك. تستثير غرائذك. في الكتب أيضا القليل مما يضيء عقلك والكثير مما يقتحم حواسك. وهناك امرأة تكفي من العصر بقشوره.. وأخرى تضيف إلى العصر لمسات تنقصه. كذلك في الكتب.

هناك كتاب استوفى كل حيثيات الكتاب العصري، غلafa وطباعة وإخراجا، لكن لا شئ أكثر. وهناك كتاب يدفعك إلى اقتحام العصر لكي تعيشه بندية وعقل مفتوح ورأس مرفوعة.

هناك امرأة متفرجة حتى ولو لم ترتد قبعة. وكتب لا هدف منها سوى أن تضع على عقلك قبعة. هناك امرأة تحس بأنها أضافت إلى جمال الدنيا، وأخرى تحس بأنها عبء على سقاء الطبيعة. في الكتب أيضا ما يكشف لك عن مصادر قوة كانت غائبة عنك، وكتب تشدك إلى واقع قبيح لتجعلك جزءا منه، وبدلا من أن تخرج من قراءة الكتاب وأنت مؤمن بقدرتك على تغيير العالم من حولك.. تفاجأ بأنها تريدك أكثر استسلاما وخنوعا لكل ما في حياتنا من نواقص.

ثم نأتي - اختصارا - إلى الحظ، أو النصيب، أو لعبة القدر.. حسب التسمية التي تختارها. هناك امرأة يصنعها حظها، وأخرى هي التي تصنع حظها. وفي الكتب أيضا شئ من ذلك. بل فيها أحيانا الكثير من ذلك.

ولأنني لا أريد هنا أن اتحدث عن النساء.. ولكن عن الكتب.. فإنني سأتوقف فقط عند تجربة ذاتية تصورت نفسي محرکها فإذا بها تجعلني مجرد الشاهد عليها. ومع أن الكتاب يؤلفون كتبهم على هواهم وحسب مشيئتهم.. إلا أنني في هذه التجربة وجدت الكتاب - وأنا مؤلفه - يشدني على

هواه ويسحبني إلى حياته الخاصة التي انفصلت عني تماما. وحتى الآن، برغم سنوات وسنوات، أجد هذا الكتاب يفاجئني حيث لا أتوقع ويدهشني حيث لا أحتسب ويؤكد في داخلي ذلك المعنى العريض الذي سيطر على مبكرا. معني: أننا مدينون لماضيها لأنه هو الذي جعلنا على ما نحن فيه. وبنفس القدر فمستقبلنا مدين لنا لأننا من الآن نرسم خريطته.

كان الوقت عصرا والزمن صيفا وصديقي الكبير يسألني: أليس لديك كتاب جديد جاهز للنشر؟ لم يكن هذا أي صديق. لكنه الدكتور سيد أبو النجا، وهو في حينها رئيس مجلس إدارة دار المعارف، إحدى أكبر دور النشر في العالم العربي وقتها. وكانت علاقتنا قد امتدت منذ كان مديرا عاما لمؤسسة أخبار اليوم وأنا مجرد واحد من صغار محرريها. وقلت لسيد أبو النجا بتردد: نعم. عندي كتاب على وشك أن ينتهي منه. لكنه ربما لا يجد الاقبال الذي تتوقعه من القراء اذا جرى نشره.

ضحك سيد أبو النجا بشدة وسألني مستغربا: بقدر خبرتي العريضة.. فإن هذه مرة نادرة يقول فيها مؤلف عن كتاب له إنه مستمر في تأليفه برغم توقعه عدم نجاحه توزيعيا. لماذا اذن تضع وقتك فيه؟ قلت له: أنا لا أضيع وقتي في كتاب. أنا أضيعه في قضية. فالكتاب يطرح قضية. ربما أكون أنا مؤمنا بها لكنني لست متأكدا بنفس القدر بأنها بنفس الأهمية عند غيري.

سكت سيد أبو النجا قليلا ثم سألني فجأة: كم من الوقت أنفقت حتى الآن في تأليف هذا الكتاب؟

قلت له: سنتين..

رد قائلا: عظيم/ طالما أنك لم تبخل على هذا الكتاب بسنتين من عمرك.. فأنا لن أكون أقل سخاء منك.. مع أنكم - معشر الكتاب - تقولون عني إنني كاليهود بخلا.. ها ها ها.. سوف أضحى من ميزانية دار المعارف بخمسة آلاف جنيه لإصدار هذا الكتاب، وسأنشره في سلسلة «اقرأ» حتى تضمن له حدا أدنى من القراء.

في اليوم التالي فاجأني سيد أبو النجا أكثر وأكثر بعقد مطبوع من دار المعارف لا ينقصه سوى شيئين: عنوان الكتاب.. وتوقيعي على العقد. واخترت للكتاب عنوانا مؤقتا، فلم أكن قد استقررت بعد على عنوان نهائي.

ثم وقعت، وتسلمت شيكا بمبلغ خمسة وثمانين جنيها، هي في الأصل مائة جنيه قبل خصم الضرائب، وهو أجرى كمؤلف عن هذا الكتاب الذي لم أكن قد انتهيت منه.. بعد.

في نفس اليوم كنت أتصل بالدكتور طه حسين، ذلك الهرم الكبير في حياتنا الأدبية والثقافية، لكي يحدد لي موعداً أول في سلسلة من اللقاءات المطولة في بيته المتفرع من شارع الهرم بالجيزة.

كان تخطيطي أن يكون طه حسين جزءاً من الفصل الرابع والأخير في الكتاب. أما الفصول الثلاثة الأولى فكانت قد انتهيت منها ونشرت قليلها في جريدة «أخبار اليوم» ومجلة آخر ساعة. في الفصل الأول كان الموضوع هو الأزمة التي أثارها قاسم أمين في الحياة المصرية بكتابه عن «تحرير المرأة» الذي أصدره في سنة ١٨٨٩. والفصل الثاني عن عبدالرحمن الكواكبي وأزمته بسبب كتاب «طبائع الاستبداد» الذي أصدره في سنة ١٩٠٠. والفصل الثالث عن الشيخ علي عبدالرازق وكتابه الذي أصدره من المنصورة في أول أبريل سنة ١٩٢٥ بعنوان «الإسلام وأصول الحكم». أما الفصل الرابع - الذي كنت قد أصبحت مندمجا فيه - فيفترض أن يكون عن طه حسين وأزمته في كتابه الذي أصدره في سنة ١٩٢٦ بعنوان «في الشعر الجاهلي».

لقد أصبحت تعيش في عقل تلك الكتب الأربعة، ليس من حيث هي كتب فيها الصواب والخطأ، ولكن من حيث اصراري على فهم العلاقة بين الفكر والسياسة. بين حرية الرأي والسلطة. بين الثقافة والحكم.

كانت جريمة قاسم أمين هي أنه طلب الحرية للمرأة في مواجهة الرجل. وجريمة الكواكبي هي أنه طلب الحرية للشعب في مواجهة السلطان. وجريمة علي عبدالرازق هي أنه طلب الحرية للدين في مواجهة الملك. وجريمة طه حسين هي أنه طلب الحرية للأدب في مواجهة السياسة، وأصبح المفتاح في ذهني لإعادة تشريح تلك الأزمات الأربع هو السؤال المطروح في كل مرة: سؤال: كيف يجب علينا أن نفكر.. ونعيش؟

وبقدر بساطة السؤال تأتي صعوبته. فالسؤال متجدد. وهو سؤال يطرح نفسه على كل جيل في حياتنا الثقافية والسياسية. والمشكلة دائما هي أن المجتمع يريد أن يجمع بين التطور وراحة البال لكن بمجرد أن يحدث تقاطع، يجد المجتمع أغلبية كافية بين أعضائه تتمسك براحة البال على حساب التطور. بينما تخرج أقلية محدودة إلى العراء لكي تقول إن التطور يستحق أن نضحى في سبيله بين وقت وآخر.. براحة البال. وفي الحالات الأربع التي عشتها على الورق بكل أعصابي كانت تفاجئني دائما بضراوة المعركة.

أحد تلك الكتب مثلا أدى إلى انهيار ائتلاف وزارى وسقوط حكومة وتدخل المندوب السامى البريطانى فى مصر وقتها، حيث كانت مصر تحت الاحتلال البريطانى.

أحد الكتب تسبب فى تهديد مؤلفه بالقتل.

أحدها جرى قتل مؤلفه فعلا.

وجميعها وضعت مؤلفيها فى القائمة السوداء سياسيا لسنوات طويلة.

ولأن طه حسين أصبح هو «البطل» الوحيد على قيد الحياة الذى أستطيع أن أحاوره وجها لوجه..

فقد أصبح عبئى كبيرا مرهقا على رجل بمثل مكانته وفى مثل سنه. لكن طه حسين، كعهدى به فى سنواته الأخيرة التى شرفت فيها بالاقتراب منه، كان أكثر من صبور معى ومتحمل لأسئلتى ومتسامح مع مراجعاتى له مرة بعد مرة.

والكتابة عن طه حسين هى فى حد ذاتها متعة مغرية.

فطه حسين قمة متعددة الشرائح. هناك طه حسين الذى حرمه الله من نعمة البصر، فاستعان على مواجهة محنته بنعمة أخرى منحها الله له هى نعمة البصيرة.

وطه حسين كاتب وألف وحاضر وتحدث ودرس وعلم كثيرا، وهى شريحة أخرى من القمة التى صنعها بعقله وكفاحه وإصراره. ولكن طه حسين عندى يتجاوز فى قيمته كل هذا لأنه أعطانا سلوكا وقيمة وصبرا وفتحا ورعاية وأبوة وانتماء لثقافته العربية وإيمانا لا يتزعزع بأن مصر هى ما يضيفه المصريون اليها وليس ما يأخذونه منها.

لا أريد من القلم أن يسحبني اذن إلى الحديث عن طه حسين، فربما أفعل ذلك فى مرات تالية. أما فى هذه المرة فأريد التركيز فقط على هذا الكتاب المتواضع الذى سحب منى جزءا من عمري.

حتى لحظة تسليمي أصول الكتاب إلى دار المعارف لم يكن سيد أبوالنجا قد سألنى مطلقا عن مضمونه. وحينما تسلم الأصل منى اكتفى بقراءة المقدمة، ثم عاد إلى العنوان الذى اخترته: أفكار ضد الرصاص.. وإلى غلاف الكتاب الذى تفاعل معى فيه صديقى الرسام مصطفى حسين، وهو على غير عادة الأغلفة التقليدية التى كانت دار المعارف قد اعتادت عليها.

ثم أخرج سيد أبوالنجا قلمه وكتب تأشيرة مختصرة بنشر الكتاب فى العدد القادم من سلسلة اقرأ. بعدها التفت إلى قائلا: الآن دعنا نتكلم فى كتابك التالى.

لم يكن فى ذهنى - بعد - أى مساحة لكتاب تال.

كنت أريد فقط أن التقط أنفاسى وأنسى الكتب وسيرة الكتب لفترة أرمم فيها حالتى النفسية وأعود من جديد إلى أرض الواقع. والواقع هو أن الناشر اختار سلسلة اقرأ بالذات لأنها كانت عريقة فى تاريخها وشعبية فى طباعتها ومخفضة فى «سعرها»: عشرة قروش للنسخة.

ولأن لها قاعدتها المنتظمة من القراء بفضل مؤلفين كبار سبقونى اليها، ومنهم طه حسين نفسه، فإن دار المعارف كانت تكثفى بإصدارها شهريا، وبغير اعلان على الإطلاق فى أى مرة عن الكتاب الجديد، حرصا على اختصار تكاليف الاصدار إلى أدنى حد ممكن.

فى السنوات التالية أصبحت أفاجا بخطاب مسجل بعلم الوصول يأتينى من دار المعارف فى مطلع كل سنة، ويخطرني بأن الدار أصدرت طبعة جديدة من سبعة آلاف نسخة. ثم سبعة آلاف نسخة أخرى. ثم خمسة عشر ألف نسخة، ثم ثلاثين ألف نسخة. ثم ثلاثين ألفا أخرى.. وهكذا.

وفى كل مرة لم أكن أتوقف كثيرا عند تعبير متكرر فى الخطابات يقول ان الطبعة الجديدة مخصصة للخارج..

ثم اتصل بى ذات يوم صديقى الناشر إبراهيم المعلم مسئول دار الشروق للنشر فى القاهرة يسأل: هل يمكن له أن يصدر طبعة فاخرة من كتاب أفكار ضد الرصاص؟

قلت له: فيما أتذكر من نصوص تعاقد دار المعارف معى.. فإنها تحتكر بمفردها حق نشر الكتاب لعشر سنوات على الأقل.. رد إبراهيم المعلم: أعرف تلك الصياغة فى العقود التقليدية بدار المعارف. لكن أرجوكم.. قل للدكتور سيد أبوالنجا إن طبعتنا الجديدة لن تزامم طبعة دار المعارف. هم يصرون من الكتاب طبعات شعبية بسعر رخيص لكننى أريد اصدار طبعة مكتبة.. أنت تعرف.. يعنى ورق مصقول وطباعة أعلى تكلفة لأنها موجهة لشريحة مختلفة من القراء يهتمهم الاحتفاظ بالكتاب فى مكتبتهم.. ومرة أخرى أصبحت تلك مفاجأة جديدة تأتىنى من ذلك الكتاب غريب الأطوار فى سوق النشر جرت العادة على أن تصدر الطبعة الأولى فاخرة وغالية لى تتحول فيما بعد - إذا نجح الكتاب - إلى طبعة شعبية ورخيصة الثمن. الآن يحدث العكس.

ودار المعارف رفعت ثمن هذا الكتاب خصوصا ستة أضعاف.

أما فى الطبعة التى أصدرها إبراهيم المعلم فقد ارتفع الثمن إلى ثلاثين ضعفا.

وبينما استمرت دار المعارف، فى طبعاتها استمر إبراهيم المعلم فى طبعاته المتتالية من الكتاب. وفى جميع الحالات لم يدفع أى من الناشرين جنيها واحدا لنشر اعلان واحد عن الكتاب.. حتى ولو من بضعة سطور لمجرد الاعلام عن صدور كتاب جديد. وذات يوم جلسنا فى منزلى - صديقى الرسام مصطفى حسين وأنا - وجاءت سيرة كتاب «أفكار ضد الرصاص» بمناسبة أن صديقا له من عمان لجأ اليه فى طلب مجموعة من الكتب، فى مقدمتها أفكار ضد الرصاص.

وبأسلوب مصطفى حسين التلقائى قال لى: الكتاب ده كتاب شقى «من الشقاوة» يعنى أنت لك كتب كثيرة ناجحة وأنا رسمت أغلفة كتب لآخرين بعضها نجح.

المشكلة هنا هى كالشخص الذى ينجب عشرة أولاد مثلا، فيجىء ولد منهم «أو بنت» وسط انشغال الأم والأب بالأولاد السابقين، أو اللاحقين.

هذا الولد الصغير يفاجأ بحقيقة أنه ابن شرعى لأب وأم قيمة ومركز ووظيفة مبررى.. لكنه الأقل حظا فى الرعاية والاهتمام من كل اخوته وفجأة يقرر هذا الابن أن يصنع لنفسه حظه الخاص.. وبقدراته الذاتية البحتة.. بهدف ان يقول لوالده فى النهاية: أنا هنا.. ونجح بمجهودى الخاص.. قلت لمصطفى حسين: هذا يشبه فيلما عربيا. باقى فقط أن يخرج حسن الامام أو من يشبهه. مع ذلك.. أصبح للفكرة وزن أكبر حينما أمسكت ورقة مع مصطفى حسين وبدأنا نحسب مجموع النسخ التى صدرت من كتاب أفكار ضد الرصاص. وعلى الورق صعدنا.

مائتين وثمانين ألف نسخة.

معقول؟ هذا توزيع جريدة، وجريدة رائجة، وليس أبدا توزيع كتاب.

كيف حدث هذا؟

لم يجد أى منا اجابة تسعفه لدى الآخر.

و ذات يوم وجدت نفسى فى المغرب، مدعوا لإلقاء محاضرة.

وفى المحاضرة حان وقت الأسئلة من جمهور الحاضرين ومعظمهم شباب لم يتجاوزوا العشرين من العمر، وخلال دقائق اكتشفت أن نصف الأسئلة عن كتب أخيرة أصدرتها حديثا. لكن النصف الآخر من الأسئلة بدا خارجا لتوه من كتاب أفكار ضد الرصاص الذى لم يكن فى ذهنى لحظتها مطلقا.

وتطلعت إلى محمد بن عيسى، وزير الثقافة وقتها فى المغرب والجالس إلى جانبي، بحثا عن تفسير. وفاجانى محمد بن عيسى بإجابته: لا تندهش.. فهذا الكتاب يدرسه الطلبة هنا فى الجامعة وشكواهم الدائمة هى عدم وجود نسخ كافية منه فى الأسواق. وفى مدينة طنجة المغربية نزلت أتجول فى المكتبات وفوجئت من جديد بأن مكتبة واحدة فقط هى التى لديها نسخة، وأخيرة، من كتاب أفكار ضد الرصاص ويدخرها صاحب المكتبة لابن صديق له سيعطيها له بضعف سعرها المسجل على الكتاب.

فى القاهرة سألت الناشرين.

نعم هناك مشكلة أساسها صعوبة التحويلات النقدية بين الدول العربية وهو ما يضطر كل ناشر إلى أن يضبط صادراته من الكتب عند سقف معين.

لكن المسألة الأهم التى كانت تشغلنى هى البحث عن تفسير لهذا الكتاب غريب الأطوار الذى انفصل عنى وصنع لنفسه مساره الخاص ضد كل القيود والظروف والتوقعات.

هذا كتاب يستمد مادته من جيل سابق لكى يتم تشريح تلك المادة بواسطة جيل حالى، فيجد مثل هذا الصدى عند جيل ثالث، يتهيأ بدوره إلى إعطاء خلاصة دروسه الخاصة لجيل رابع. فى النهاية لم أجد داخلى سوى تفسير مؤقت. ففضية الحرية، وحرية الرأى خصوصا، ما تزال تفرض نفسها على حياتنا.

والعلاقة بين الفكر والسياسة.. أو بين الثقافة والسلطة.. هى قضية متجددة.. والتحدى الكبير المستمر معنا - جيلا بعد جيل - ما يزال هو: كيف نحتفظ بجنورنا ونقتحم العصر فى الوقت نفسه؟

بكلمات أخرى: كيف نضيف إلى بلدنا فنصبح نحن أقوى بها.. بدل أن نخضع من بلدنا فتصبح

هى أضعف بسببنا؟

إنها قضية كل جيل.

وسؤال كل عصر.

غرام .. يقصف العمر



شاغبقتنى. لاطقتنى. طاردتنى. حاصرتنى. لكنها لم تتجاوز الحدود.

تابعتنى فى الصبا. لاحقتنى فى الجامعة. عاكستنى فى العمل.

ظل طيفها أمامى فى كل وقت . يحايلنى من على مسافة. يحاورنى فى مكان عام. يتسلل إلى فى مكان خاص. ومن قبل حتى أن أفتح فمى يصبح طيفها فى مسامى وتحت جلدى وسابحا فى شرايبنى. قاومتها مرة بعد مرة لكن منطقها المتكرر ظل يفحمنى دائما: لماذا لا تجرب حظك معى؟ سوف تجد أننى المتعة ذاتها. والأنس والانسجام. والراحة وروقان البال. جربنى مرة أو مرتين. إذا لم أعجبك لن تكون قد خسرت أى شىء. أما إذا راق بالك وهدأت أعصابك وتراجع توترك فسوف تبادر أنت نفسك بعد ذلك - وبإرادتك الحرة - إلى مصاحبتى.

جربت معى مئات المرات إغراء صريحا. ومئات أخرى من المرات إغراء غير مباشر. صوتا وصورة. نهارا وليلا. عبر أصدقاء ومعارف. وأيضا عبر كثيرين لا أعرفهم. صبرت على طويلا طويلا. وفى كل مرة تختارنى وأنا فى حالة استرخاء. ومرة بعد مرة قلت لنفسى فعلا: لماذا أخشاه؟ لقد صمدت من قبل أمام من هم أكبر منها إغراء.. لماذا إذن لا أعطيها الفرصة معى.. أو أعطى لنفسى الفرصة معها؟:

ومددت يدى نحوها. ومن لحظتها لم تفارقنى. فى الأرض أو فى الجو أو فى البحر.. أصبحت معى. أقرأ أو أكتب أو أستريح فيما بين بين.. هى دائما معى. لم أشعر فى أى لحظة بالخطر منها. لا بالخطر ولا بالتحدى. ففى نهاية المطاف كنت متأكدا أن العصمة بيدي، والقرار فى سلطتى.

إذا كنت قد أصبحت أقاطعها تماما لثلاثين يوما فى السنة، هى شهر رمضان، فإننى قادر على مقاطعتها فى أى شهر آخر، أو حتى القطيعة الكاملة معها إذا تحمست لذلك.

لكن مع الوقت والاعتیاد، بدأت أدرك أننى أسير فوق أرض خطيرة. لقد أصبح غرامى بها هادئا ولكن مستمرا. وصحبته لى تبدو مريحة غالبا لكنها متعبة أحيانا. وذات مرة قررت أن أبتعد

عنها وأستعين على غرامها بمن هم من فصيلتها وجنسها. لكن بعد تجربتين أو ثلاث عدت إليها من جديد.. فلا أنا نسيقتها ولا هي نسيقتني. إنني لم أرفع الراية البيضاء تماما ولكنني فعلت ما هو أسوأ. لقد استسلمت لوهم كبير هو أن استمرار علاقتي بها لا يزال تحت السيطرة وفي حدود الإرادة.

ثم جاءت لحظة إرادة، أو بالدقة عدم إرادة، لكي أكتشف انسحاقى أمامها. الآن فقط أدركت أن ما بدا لي سهلاً يزداد صعوبة يوماً بعد يوم وملازمتها الدائمة لي لم تعد بتلك المتعة التي بدأت بها. لقد بدأت المتعة تختلط بشعور متزايد من التعب والإرهاق وتقطع الأنفاس. لقد انزلت إلى غرام بها. وهي وحدها التي تعرف من البداية أنه غرام يقصف العمر.

ساعتها أدركت أن المواجهة معها قادمة لا محالة. مواجهة كنت أختار لها دائماً أن تحدث غداً. أو بعد غد. بغير أن أجعل المواجهة تجري الآن. في هذه اللحظة وهذه الدقيقة. أخيراً اختارت هي لحظة المواجهة معي. إنها لم تختار الوقت فقط. الخامسة صباحاً - ولكنها اختارت المكان أيضاً: غرفة الإنعاش. يسمونها طبيباً: غرفة العناية المركزة.

فيما بين مشهدي داخل سيارة الإسعاف واثنان من الأطباء يجريان حقني بشيء ما مرة بعد مرة، وما بين إفاقتي من المخدر، أصبح هناك جزء ساقط تماماً من ذاكرتي. أما الذي لن يسقط أبداً فهو ما أصبحت أتفرج عليه من نفسي. إنسان مهزوم، يرقد على سرير بمستشفى، بخراطيم هنا وهناك، وأجهزة طبية تحاصرني من كل جانب، ومراجعة طبية كل ساعة، وصدرى يعلو ويهبط منهارة مرتين. مرة تحت تأثير الأصوات المتحشجة في رثتين أحس بهما كما لو كانا مجرد قطعتين من الخيش ومرة تحت تأثير الجهد الفائق الذي أختطف به ماتييسر من هواء نقي عبر جهاز الأوكسجين.

لم يكن مسموحاً لي بالكلام - بعد- والأسوأ من ذلك أنني أصلاً لم أكن قادراً على الكلام. لكن أخطر ما في الموضوع كان كلامي أنا مع نفسي. كلام أنا وحدي الذي أسمع وأعرف مضمونه ومتأكد من خلاصته.

والخلاصة هي أنني في حالة غضب شديد. غضب من نفسي. هذا شيخ الموت يراقصني. لكن الموت لم يكن هو قضيتي في لحظتها. فقبل كل شيء.. الأعمار بيد الله. والله أعطانا عقولاً لنستخدمها وليس لكي نحنطها أو نرفض استخدامها. لكن أيضاً لأنني واجهت شيخ الموت من قبل مرات ومرات. واجهته براً وبحراً وجواً. في بعض المرات كنت أطارد شيخ الموت بقدمي. وفي مرات أخرى كان يفاجئني حيث لا أتوقع، مع ذلك كنت في كل مرة مقتنعا بأن الموت إذا جاءني فإنه سيأتي في إطار مبدأ أو قضية.. أو قدر. أما أن أواجه شيخ الموت في هذه المرة بسبب هذه التافهة، هذه

السيجارة، فإن الأمر يصبح مختلفا تماما. كيف تجيء هزيمتي بهذا القدر من التفاهة؟ هذا القدر من الاستسلام والانتقياد لما تصورت دائما أنني قادر في أي لحظة على التخلص منها. والآن أرقد في غرفة الانعاش.. فقط لأنني لم أصمم بالقدر الكافي على التخلص منها.

أصبحت غاضبا من نفسي، وبشدة، لأنني أصلا من المؤمنين بأن الإنسان موقف وقرار وإرادة. الآن.. كيف تبخرت الإرادة؟ إنها لم تتبخر عندي فقط، ولكن عند ملايين غيري.

هكذا بدأت أعود إلى الشريط من أوله. وبين لحظة وأخرى أعود إلى الواقع حولي، وما أعرفه عن هذا الواقع. فشركات السجائر تتحرك بميزانيات.. بعضها يتجاوز ميزانيات دول بكاملها. إنها صناعة أرباحها سهلة وتنفق الخيال ومضمونة.. طالما تعرف تلك الشركات كيف تصطاد زبائنهم.. أو بالدقة.. نوعاً خاصاً من زبائنهم.

إنها تركز دائما على اصطياد الزبون في وقت مبكر من حياته. الأصغر هو الأفضل. أولا لأن الأصغر هنا فلسفه سهلة، فهي غالبا مصروفة اليومى من والديه. ثم انه في سن الصبا. وفي الصبا تضعف الإرادة أمام الرغبة في تقليد الآخرين.. والآخرين هنا ليسوا فقط زملاءه في المدرسة أو الجامعة، أو جيرانه في المسكن. إنما الآخرون هم أساسا نجوم رياضة أو سينما أو تليفزيون. مع نجوم الرياضة تدفع شركات السجائر ملايين الدولارات لكي تصورهم وهم ينفثون دخان سجائرهم بما يوحي بالمتعة والاسترخاء اللذيذ. في السينما والتليفزيون يصبح الإيحاء أقوى لأن التدخين هنا، من البطل أو البطلة، يصور السجارة كما لو كانت جزءا لا غنى عنه من السلوك ولازمة عصرية تعبر عن القوة بالنسبة للرجل أو الأنوثة والنعموة بالنسبة للمرأة.

لكن شركات السجائر لم تكن تنتظر أن يأتي لها هذا الزبون. هذا الصبي أو الشاب في سن المراهقة مثلا. لقد كانت تذهب إليه وتطارده بألف طريقة وطريقة. وتحت ستار رعاية الأنشطة الرياضية والاجتماعية مثلا أصبحت تلك الشركات تذهب إلى النوادي متبرعة أو إلى البلاجات مسلية أو تلتقط المناسبات المهمة راعية وممولة. وكثيرا كثيرا ما تقوم بتوزيع عينات مجانية من سجائرها.

هناك جيش عرمرم من خبراء الدعاية والإعلان تستخدمهم كل شركة وتدفع لهم بسخاء لكي يصمموا لها الحملات الترويجية المكثفة. والهدف هو أن تدفع هذا الزبون الجديد - صبيا أو شابا - إلى المبادرة بالخطوة الأولى وشراء أول علبة سجائر. وبذلك الواقعة المنفردة تكون الشركة قد وضعت يدها على زبون مستديم لحسابها بطول ما تبقى له من عمر - خمسين أو أربعين أو ثلاثين سنة - من هنا يجيء حرص الشركات على التقاط الزبون في نقطة مبكرة من حياته وبعدها ستتكفل السجارة وسميتها الإدمانية بالباقي.

وللحصول على تلك النتيجة أصبحت الشركات الدولية لإنتاج السجائر تعتمد على مسألتين أساسيتين:

أولا: أن يستمر خطر السجائر على الصحة بعيدا عن الضوء. وثانيا: الزعم بأن مادة النيكوتين لا تؤدي إلى الإدمان.

وفي الجولات الأولى من الحرب بين سلطات الصحة العامة وشركات السجائر كانت الشركات تكسبها غالبا، أو على الأقل تتعادل فيها. في الولايات المتحدة مثلا ثبت منذ سنة ١٩٦٤ أن التدخين خطر مؤكد على الصحة وسبب لأمراض قاتلة عديدة. في تلك المواجهة قبلت الشركات أن تضع تحذيرا على كل علبة سجائر مضمونه أن التدخين قد يكون ضارا بصحتك. لكن في مقابل ذلك اتفقت الشركات مع الحكومة الأمريكية على وقف أى توجه لإذاعة حلقات تليفزيونية أو إذاعية ضد أخطار التدخين. بعدها قررت السلطات الصحية منع الإعلان عن السجائر في الصحف ثم في الإذاعة والتليفزيون. لكن شركات السجائر استعاضت عن ذلك بالذهاب إلى المدارس والجامعات والنوادي الرياضية والاجتماعية وكل أماكن تواجد الشباب.

ومقابل كل تقرير طبي حكومي يؤكد العلاقة بين السجائر والأمراض القاتلة كانت شركات السجائر تستنطق أطباء كبارا ومتخصصين لكي يشككوا في علاقة السببية هذه. ومقابل كل دعوة إلى إصدار التشريعات ضد منتجي السجائر كانت الشركات تستأجر أعضاء في الكونجرس الأمريكي لكي يدافعوا عنها مقابل رشوى ضخمة غير منظورة.

في السنوات الأخيرة نجح عدد من المواطنين الأمريكيين، أو ورثتهم بمعنى أصح، في إثبات أن تدخين السجائر كان سببا مباشرا في الوفاة.. بما جعل إحدى المحاكم الأمريكية تلزم شركة سجائر بدفع ثلاثة أرباع المليون دولار تعويضا لورثة مواطن ثبت طبيا أن المرض القاتل له يعود إلى التدخين.

هنا بالضبط وقعت مفاجأة كبرى.. لقد قرأت إحدى شركات السجائر الرسالة جيدا في هذا الحكم، وقدرت أنها شركة صغيرة لن تتحمل بمفردها دفع مئات الملايين في القضايا التالية من مدخنين سابقين أو ورثة مدخنين توفاهم الله. هكذا بدأ ممثلو الشركة يتفاوضون مع مسئولى الصحة العامة وورثة بعض الضحايا. وفي سياق تلك المفاوضات كشفت الشركة عن أسرار مذهلة.

لقد تبين مثلا أن علاقة التدخين بالسرطان و٣٣ مرضا آخر ثابتة طبيا ومؤكدة علميا لدى هذه الشركات منذ سنة ١٩٦٤. لكن الشركات اتفقت سرا فيما بينها على إخفاء تلك التقارير الطبية وتزوير تقارير مضادة كلفت بها أطباء كبارا مقابل ملايين من الدولارات. وتبين أيضا أن نفس تلك الشركات لديها تقارير مبكرة، ومؤكدة عن أن النيكوتين الموجود في دخان السجائر يمتصه الدم بسرعة هو مادة تؤدي إلى الإدمان. مع ذلك اتفقت تلك الشركات فيما بينها على إخفاء تلك التقارير. والأخطر أنها اتفقت على زيادة نسبة النيكوتين في دخان السجائر لضمان درجة أكبر وأسرع من الإدمان.. لأن هذا يزيد المبيعات.

وفي البداية اعتبرت شركات السجائر الكبرى، أن هذه الشركة الصغيرة ارتكبت في حقهم جريمة الخيانة العظمى بإفشائها أسراراً داخلية متفقا من قبل على كتمانها. لكن السيف كان قد سبق العذل.. لأن الشركة الصغيرة كانت قد سلمت إلى السلطات الصحية فعلا كل الوثائق السرية في حوزتها.

هنا أيضا جاءت مناورة أكبر. لقد تضامنت أكبر ثلاث شركات منتجة للسجائر في تشكيل وفد تفاوضي مشترك مع السلطات الصحية وجمعيات محاربة التدخين للدخول في صفقة مغرية. فهذه الشركات الثلاث وحدها مستعدة لأن تدفع ثلاثمائة مليار دولار -أكرر: ثلاثمائة مليار دولار - خلال ٢٥ سنة من الآن، أى بمعدل ١٢ مليار دولار سنويا، لتمويل صندوق يخصص لتعويض ضحايا التدخين أو وراثتهم. لكن الشركات تشترط لكي تدفع هذا المبلغ أن يصدر الكونجرس أولا تشريعا يحصنها ضد الملاحقات القضائية في المحاكم.

إنها واحدة من أغرب الصفقات في هذا القرن. وهي لاتزال حاليا محل مساومات ومفاوضات. لكن الأكثر أهمية هنا هو الوعي المتأخر بالمدى الذي وصل إليه تأمر تلك الشركات الكبرى على الصحة العامة.. لمجرد أنها تريد تعظيم أرباحها. وتأمر لإخفاء الحقائق، والتشكيك في الأدلة الحاسمة وتزوير التقارير الطبية الصريحة ورشوة جيش كامل من السياسيين والأطباء والمشرعين لحماية مصالحها.

أحد الأطباء الأمريكيين المتخصصين في أبحاث السرطان كان صديقا للنجم السينمائي الأمريكي يول برينر الذي نعرفه هنا في العالم العربي من خلال أفلام هوليوودية عديدة في مقدمتها «الملك وأنا». ومنذ نهاية سنوات الخمسينيات، وهذا الطبيب ينشد صديقه التوقف عن التدخين، لتأكد علاقته بالسرطان، فيرد عليه يول برينر: «لا تقلق. هذه السجائر لن تنال مني أبدا». منذ الخمسينيات ويول برينر يقول له «لا تقلق» ثم جاءت المرة الأخيرة التي ذهب فيها هذا الطبيب ليزور صديقه يول برينر. كان هذا في سنة ١٩٨٥ ويول برينر أصبح في المستشفى ويتحرك فقط بكرسي بعجلات، بهدف الحصول على علاج إشعاعي من المرض الذي أصابه بسبب التدخين.

وبصوت خفيض متقطع ولاهث همس يول برينر في أذن صديقه: لماذا بحق السماء لم أستمع إلى تحذيراتك لي من قبل؟ بعدها توفي يول برينر في ١٠ أكتوبر سنة ١٩٨٥.

نجم هوليوودي آخر تسببت أفلامه في ترويج السجائر حول العالم بشكل غير مباشر، إنه همفري بوجارت. والآن تصر جمعيات محاربة التدخين في الولايات المتحدة على أحد حلين: إما منع إعادة عرض تلك الأفلام في التلفزيون الأمريكي نهائيا إلا بعد جذف وقص كل مشهد فيه سجارة يجري تدخينها.. أو عرض الأفلام مع إشارة ثابتة على الشاشة طوال مدة عرض الفيلم. إشارة تقول: توفي همفري بوجارت بمرض قاتل تسبب فيه إدمانه لتدخين السجائر.

والآن أصبحت هناك حملة كبرى في الغرب، ليس ضد التدخين فحسب، ولكن للتخلص من بعض أسباب الترويج له في الماضي. الآن أصبح يتسع يوما بعد يوم نطاق منع التدخين في الأماكن المغلقة.. خصوصا بعد أن ثبت أن التدخين ليس خطرا فقط على من يدخن.. ولكن أيضا على من يوجد أيضا في مكان واحد مع من يدخن.. كزوجته وأولاده في البيت مثلا.. أو زملائه في مكان العمل. بل إن إحدى مميزات شركات الطيران توجد لها حاليا قضية منظورة أمام القضاء الأمريكي نتيجة لإصابتها بالسرطان بسبب «التدخين السلبي».. أي استنشاقها دخان السجائر.. ليس لأنها شخصيا تدخن.. ولكن لأن ركاب الطائرة يدخنون وهي بالتبعية تدخن سلبيا من هواء الطائرة. وفي القضية تقول المضيقة: «إنني أم لطفلين.. وفي التاسعة والأربعين من العمر.. ولم يحدث في حياتي أن دخنت سيجارة واحدة.. ولا على سبيل المزاح أو المداعبة. ومع ذلك هذا هو التقرير الطبي الذي سلمه لي المستشفى. التقرير يقول جازما إنني مريضة بسبب تدخين السجائر».

والآن أصبح ممنوعا على شركات الإنتاج السينمائي والتلفزيوني في الغرب، وجود أي مشهد يتضمن أي نوع من التدخين. أما بالنسبة للأفلام القديمة، فيجوز حذف مشاهد التدخين منها قبل إعادة عرضها.. سواء في السينما أو التلفزيون.. بل وخصوصا التلفزيون لأنه يقتحم البيوت ويشارك الأب والأم في تشكيل سلوك الصغار.

وبالمناسبة: تبين أن شركات السجائر كانت تدفع مساهمات مالية ضخمة لمتجى أفلام السينما في هوليوود من أجل تصوير أبطال وبطلات الأفلام وهم يدخنون، تماما كما تفعل شركات الأزياء والعطور وكل ذلك النمط الاستهلاكي المتكرر.

حتى طوابع البريد.. أعادوا مؤخرا إصدار طابع بريد يحمل صورة الزعيم البريطاني الراحل ونستون تشرشل.. ولكن بعد حذف السيجار الشهير من فمه. وصدرت التشريعات المتلاحقة بمنع تواجد أي دعايات للتدخين في المسابقات الرياضية، أو النوادي الرياضية والاجتماعية، أو حتى بالقرب منها.. ومنع تواجد أي أماكن لبيع السجائر قرب المدارس والجامعات والنوادي، ومنع قبول أي مساهمات مالية من شركات السجائر في أي نشاطات تتعلق بالشباب.. إلخ.

إنها عشرات وعشرات من الإجراءات التي بدأوا يتخذونها مؤخرا لحماية شبابهم من ذلك الغرام المدمر الذي يجري دفعهم إليه بواسطة شركات كل ما يعينها، هو أن تكسب مليارات أكثر وأكثر من الدولارات. وخلال الثلاثين سنة الأخيرة انخفضت نسبة المدخنين بين الأمريكيين من أربعين بالمائة إلى خمسة وعشرين بالمائة. لكن تبين أن هذه المقارنة الرقمية خادعة تماما.. حيث الانخفاض وقع بسبب إقلاع أمريكيين عن التدخين فعلا بعد سنوات من الإدمان. لكن نسبة المدخنين الجدد كل سنة استمرت كما هي عليه.

هذا يعني أن شركات السجائر مستمرة في الوصول إلى أولئك المدخنين الجدد بوسائل أخرى. إحدى تلك الوسائل يعبر عنها - مثلا مثلا - مقال قرأته مؤخرا في جريدة أمريكية كبرى بقلم أستاذ في جامعة «هارفارد».. وهي واحدة من أرقى الجامعات الأمريكية بغير أن ينسحب هذا بالمرة إلى كل ما تفعله ولا إلى كل أساتذتها.

الأستاذ الأمريكي في جامعة هارفارد هذه، يقول في مقاله ما خلاصته: أمريكا هي بلد الاقتصاد الحر والسوق المفتوح وبتلك الصفة فإن شركات السجائر خلت مسئوليتها بتوجيه تحذير مطبوع على كل علبة سجائر يخطر المستهلك بأن التدخين ضار بصحته. هذا يكفي. ويكفي جدا. فالمستهلك هنا أصبح ذنبه على جنبه. إذا اختار التدخين فتلك مسئوليته هو وليست مسئولية الشركة المنتجة للسجائر. ومن ناحية أخرى والكلام لا يزال للأستاذ الأمريكي فإن تسبب تدخين السجائر في قصف عمر المدخن ليس شرا كله.. لأنه بوفاته المبكرة يكون قد حقق وفرا في نصيب الميزانية العامة من تكاليف رعايته الصحية.. وهو ما يساهم بدوره في توفير العجز بالميزانية!

وفساد هذا المنطق المتبجح واضح من أوله، ودعنا من فكرة أنه منطق مدفوع الأجر من الشركات المستفيدة ذاتها. فاعتمادا على فكرة أن «كل واحد ذنبه على جنبه» يستطيع كل بلد - أمريكا أو غيرها - أن يبيح.. مثلا مثلا.. بيع الحشيش أو الهيروين.. اكتفاء بسطر واحد مطبوع على كل عبوة يقول: إدمان الهيروين ضار بصحتك.

المهم.. أنه بعد أن أدركت شركات السجائر الكبرى، أن الحصار يضيق عليها شيئا فشيئا.. استمرت في المناورة. في أوروبا الغربية مثلا نشرت الشركات صفحات إعلانية كاملة في الصحف الكبرى تحتج ضد منع التدخين في الأماكن المغلقة، لأنه أولا انتقاص من حقوق شريحة من المواطنين ضد حقوق شريحة أخرى.. ولأن - وهذا مهم في بلاد تعاني من ارتفاع نسبة البطالة - مصانع السجائر في أوروبا توفر فرص عمل منتظمة، وسخية الأجر، لثمانية عشر ألف مواطن ستؤدي الإجراءات الأخيرة إلى خطر الاستغناء عنهم.

في نهاية المطاف انتهت شركات السجائر الكبرى إلى تكتيك مختلف. فإذا كان الحصار يضيق عليها في دولها هي.. لا بأس ولا حيلة.. فلنتجه جنوبا.. حيث الدول النامية وأعداد المستهلكين بها ضخمة (الصين مثلا بها ١٣٠٠ مليون نسمة. الهند ٩٠٠ مليون نسمة. كلام كبير كبير). ثم إن سلطات الصحة العامة في تلك الدول النامية ضعيفة، والوعي الصحي منخفض، والانبهار بالغرب يمكن أن يتضخم، ولا أحد متنبه - بعد - إلى المشاهد السينمائية والتلفزيونية التي تروج بشكل غير مباشر للتدخين.

هكذا تفجرت في بريطانيا في العام الماضي، مثلا فضيحة أن الحكومة البريطانية أصبحت تربط بين استثماراتها الأجنبية في بعض الدول النامية وبين السماح أولا باستيراد منتجات

شركات صناعة السجائر البريطانية. هكذا قامت إحدى شركات السجائر أيضا باستخدام مارجريريت تاتشر رئيسة الوزراء السابقة مستشارا لها، وشركة أمريكية أخرى استخدمت مستشارا سابقا للرئيس الأمريكي رونالد ريجان للأمن القومي. والعقد في كل حالة بملايين الدولارات. والهدف هو استخدام النفوذ السياسي السابق لهؤلاء من أجل فتح أسواق الدول النامية أمام السجائر.. وعلى وجه الخصوص تلك السجائر ذات النسبة الأكبر من النيكوتين التي تحقق الإدمان في وقت أقصر. الشعار الأخير الذي استخدمته شركات السجائر في تكتيكها الأخير هذا - صدق أو لا تصدق - هو: حقوق الإنسان. فالدولة التي تحاصر شركات صناعة السجائر ترتكب جريمة كبرى، هي انتهاك حقوق الإنسان.. وما أدراك بفداحة هذه الجريمة الكبرى. بكلمات أخرى: على الحكومات المعنية أن تمتنع عن محاربة التدخين لأن «الحق في الاختيار هو في مقدمة حقوق الإنسان».

يا أولاد الإيه! حقوق الإنسان.. خبط لرق؟ لكن لكي يصبح للإنسان حقوق يجب أولاً أن يبقى على قيد الحياة. وإلا يصبح الخيار الوحيد المطروح هو: اختيار الحياة.. أو اختيار الموت.

و... كم هو تافه حقا أن يموت الإنسان بسبب سيجارة.. فقط لجرد أن هذا يملأ خزائن الشركات الكبرى بمليارات ومليارات من الدولارات.



هونج كونه ؟ غطيني يا صغية !



حينما رجاني صديقي المجاور لى فى المقعد أن يستعير مقعدى لبعض الوقت لم يدر فى خيالى ما يمكن أن يحدث فى اللحظات التالية. كل المسألة أننا فى الطائرة ذهابا إلى هونج كونج ومقعدى فى الطائرة ملاصق للنافذة التى يمكن عبرها مشاهدة المحيط الخارجى. الآن أضاءت العلامات: ممنوع التدخين واربطوا أحزمة المقاعد. فى تلك اللحظة جاء رجاء الصديق بأن نتبادل المقاعد. تبادلنا. نربط الأحزمة. ربطنا. نتابع الطائرة فى هبوطها الى أسفل. تابعنا. فجأة أمسك صديقى بيدي، وبشدة، بينما عيناه تتنقلان بين النافذة وبينى: هل ترى ما أراه؟ قلت له: تقريبا.

فى اللحظات التالية بدأت الكلمات تخرج من فمه متراشقة متصادمة مع بعضها البعض: لكن.. لكن.. الطيار نازل بنا فى؟ الله.. الله.. المياه.. البحر.. البحر..

قبل أن أurd، كانت يده اليسرى تضغط بشدة على يدي اليمنى، وعيناه تجحطان أكثر وأكثر بسرعة البرق بينما تتحركان بعصبية ما بين النافذة وبينى: الله.. الله.. فى البحر.. فى البحر.. احنا.. احنا متنا..

وسقطت رأس صاحبنا على صدره فى حالة إغماء وفقدان للنطق.

من مقعديهما على مسافة ثلاثة أمتار نظرت نحوى المضيفتان الأسيويتان - هما أيضا رابطتان لحزام المقعد - وبالإشارة سألتنى إحدهما مستفسرة عما يجرى لصديقى فى المقعد المجاور. وبالإشارة حاولت الاختصار فى الرد بقدر سرعة الطائرة فى الهبوط. فى اللحظة التى لا مست فيها عجلات الطائرة أرض المطار جاءت إلى المضيقة بسرعة وهى تحرك عينيها بقلق بين جارى وبينى متسائلة: هل هو مريض بأى شىء ؟

قلت لها: لا على الإطلاق لكنها ربما تكون.. تكون خضة الهبوط فى مطار هونج كونج.

هدأت المضيقة قليلا ثم ذهبت لتعود بسرعة بأشياء ما بين النوشادر والبارفان. ثم جاءت زميلتها لتساعدنا معى فى الإمساك برأس أخينا الوافد إلى هونج كونج لأول مرة: يا مستر.. يا مستر..

أخيرا سمعها المستر. أخيرا نطق. أخيرا تطلع عبر النافذة إلى يمينه ثم تحرك بعينه خلفا إلى باقي الركاب ثم اتجه نحوى بسؤال مستغربا: الظاهر بقينا على الأرض؟ معقول؟ لكن احنا كنا فى البحر بنموت فى البحر.. أنا شفت عزرائيل بعينى فعلا.

قلت له محاولا المداعبة: هذه مبالغة. فالناس فى هونج كونج يموتون برا. ثم إن عزرائيل هنا فى هونج كونج - يكون فى النهار مشغولا بما هو أهم..

سألنى مندهشا: وما هو الأهم عند عزرائيل من قبض أرواح الناس؟

قلت له: أن يقامر فى البورصة. بورصة هونج كونج.. اهدأ إذن وفكر فى البورصة و...

انفجرت المضيفتان ضاحكتين قبل أن تعلق احدهما: والله فكرة. هذا تفسير مريح سأقوله بعد ذلك لأمثال صديقك هذا من القادمين إلى هونج كونج لأول مرة.

لكن المشكلة كانت جادة فعلا. فالمر الذى تهبط إليه الطائرات القادمة إلى هونج كونج ممتد فعلا فى خط مستقيم تماما داخل البحر وفى حالة الهبوط فإن الجالس فقط فى كابينة الطيار هو الذى يرى المشهد أمامه كاملا، أما الراكب إلى يمين أو يسار الطائرة فلا يرى سوى المياه الزرقاء العميقة. مياه البحر. ومن تلك المفارقة قد يهيا لغير المجرب أن الطائرة تهبط إلى مياه البحر مباشرة.

لم يفارقنى هذا المشهد أبدا وأنا أتابع مؤخرا، مع ملايين غيرى، الاحتفال بعودة هونج كونج إلى السيادة الصينية بعد ١٥٨ سنة من احتلال بريطانيا لها. فى النهاية. هونج كونج ذاتها حالة غريبة ومألوفة.. شاذة وعادية.. استثنائية وطبيعية.. فى وقت واحد. هذه جزيرة أخذت لنفسها وحدها اسم الشهرة مع أن لها أتباعا وحواشى. بالحواشى تصبح كل المساحة التى نتكلم عنها نحو ألف كيلومتر مربع. هناك جزيرة هونج كونج. وهناك كولون - مدينة أخرى توأم لها - لكنك تصل إليها من خلال معديّة بحرية كتلك التى نعرفها بين بورسعيد وبورفؤاد. ثم هناك بعد ذلك امتداد برى لكولون هذه يسمى «المناطق الجديدة» وقد استعمرت بريطانيا تلك الأجزاء الثلاثة فى القرن الماضى بثلاث معاهدات متتالية فرضتها على الصين بقوة السلاح والغزو. وبالاتفاق الأخير أصبح محكوما على الصين أن تؤجر هونج كونج وملحقاتها إلى بريطانيا لمدة ٩٩ سنة تنتهى فى سنة ١٩٩٧. من هنا كان التعبير الشائع منذ سنوات هو أن هونج كونج مدينة مستعارة تعيش فى زمن مستعار.

وفى أى مرة ذهبت فيها إلى هونج كونج لم تزد اقامتى فيها على أيام قليلة. هذا كثير فى حالتى لأننى فى كل مرة كنت أذهب إلى هونج كونج لا بد من أحد أمرين: إما أن تكون فى صحبة مليونير أو تكون أنت نفسك مليونيرا. وكلاهما خير كثير نجانا الله من شروره.

هذا لا يعنى بالضرورة أن هونج كونج للأغنياء فقط. فى الواقع أن فيها منتهى الغنى ومنتهى الفقر جنبا إلى جنب. فيها ناطحات السحاب وفيها عشش القش والصفوح للفقراء. فيها التنقلات

بالهليكوبتر والأتوبيس الطائر جوا والأتوبيس ذى الطابقين أرضا والزوارق التى تنقلك بين جزيرة وأخرى بحرا كما فى فينيسيا. وفيها أيضا عربات «الريكشا».. التى تجلس فيها منتفخا بينما الذى يجرها أمامك واحد بنى آدم من لحم ودم، مقابل دولار أو اثنين من دولارات هونج كونج. والدولار الأمريكى مثلا يساوى ثمانية من دولارات هونج كونج وبالمصرى الشائع حاليا يعنى هذا أنك تستأجر مواطنا - صينيا قطعا - فى هونج كونج لكى يجر لك «الريكشا» بسعر يتراوح ما بين ٤٥ و ٩٠ قرشا. ولا فيلم «الأرض» لمحمود المليجى.

ثم إنها جزيرة عجيبة من الناس والتضاريس. الناس فى هونج كونج نحو ستة ملايين معظمهم صينيون وقليلهم أربعون أو خمسون ألفا من الخواجات. هؤلاء الخواجات انجليز غالبا وأمريكان أحيانا ويابانيون بدرجة أقل.. إلخ. هؤلاء هم فى الغالب أصحاب الثروة الكبرى فى هونج كونج أو يعملون لدى الشركات والبنوك ذات الثروات الكبرى. ولأن الثروة - هذا النوع من الثروة - يحتاج غالبا الى محيط من الفقر لكى يتبادل معه المنفعة، فإن أهل هونج كونج يتكيفون مع هذا الوضع.. أو بعضهم حتى يتحسن معه.

فقط هناك أكثر من مائتى ألف تقريبا يسمونهم فى هونج كونج «أهل المياه» وهؤلاء يولدون ويعيشون ويتزوجون ويتعلمون ويموتون فى المراكب الراسية إلى الساحل والمتحركة منه والعائدة إليه. ومن فرط اعتيادهم على أسلوب حياتهم هذا أصبحوا لا يطيعون تغييره، فإذا كنا نعرف «دوار البحر» الذى يصيب غالبا من لا يعتادون ركوب السفن، فإن «أهل المياه» هؤلاء فى هونج كونج يصيبهم «دوار الأرض» لو بات الواحد منهم ذات ليلة بعيدا عن مركبه.. وعلى الأرض فعلا.

من وحى هؤلاء الناس كتبت ذات مرة فصلا كاملا عن هونج كونج فى كتاب سابق لى بعنوان «سياحة غرامية» عن مجموعة رحلات امتدت من اليابان إلى نيبال إلى الولايات المتحدة. لكن الذى يعيدنى الآن إلى الكتابة عن هونج كونج ليس أدب الرحلات.. وإنما أوجاع التاريخ ودروس السياسة. فمع اهتمام العالم بعودة هونج كونج إلى السيادة الصينية رسميا فى الأول من يوليو هذه السنة - ١٩٩٧ - بدا هناك وجهان مختلفان تماما لهونج كونج. هناك الوجه الرائج هنا من خلال المشاهد التلفزيونية المبرمجة سلفا وتذيب العقول ولو كانت من حجر. هذه هونج كونج الدجاجة التى تبيض ذهباً وتفيض رءاء وتتخلى عنها بريطانيا عن طيب خاطر إلى الصين، رغم أن الصين ليست هى الأصل لهونج كونج لمعاناتها من فقر الدم والفلوس والحرية والديمقراطية. وهذا هو الاحتفال الكبير لتسليم وتسلم السلطة فى الساعة الأولى من صباح الثلاثاء أول يوليو، حيث العرض البريطانى يمثله الأمير تشارلز ولى العهد (لا داع لديانا الآن - الموضوع جاد) والصين يمثله رئيسها جيانج زيمين.

وكبار الدعويين من دول العالم بالمئات - من بينهم حسنى مبارك الذى بعث بعمره موسى وزير الخارجية، محسوباً كمصرى عند الصينيين - وليس اسرائيل - على جمال عبدالناصر الذى اعترف بالصين فى سنة ١٩٥٦ ضد مقاطعة أمريكا لها. والصينيون لا ينسون من وقف معهم فى لحظات الشدة. هنا أيضاً كريس باتن آخر حاكم بريطانى لهونج كونج. وقد شاهدناه وهو يلقي بكلمته الوداعية فى الاحتفال.. ولا يوسف وهبى أيام تألقه فى مسرحه وشرف هونج كونج كعمود الكبريت.. والدموع تترقرق فى عينيه.. بينما بناته الثلاث الحسنات اللاتي - زيادة فى التأكيد - دمعت عيونهن هن أيضاً و.. هات يا عياط غلى هونج كونج.

ثم هناك هونج كونج الأخرى التى تراها الصين نفسها - صاحبة هونج كونج - واضطرت لهذه المناسبة إلى إنفاق ١٥ مليون دولار لإنتاج فيلم سينمائى عن تاريخ هونج كونج عنوانه «حرب الأفيون» فقط لكى تذكر الجميع بالحكاية من أصلها وفصلها. وبالطبع لم يفتح إعلامنا المحترم نفسه - إذاعات وتليفزيونات - إلا لهونج كونج الواردة إلينا عبر القنوات الفضائية التى يتعامل معها - التى لا تتضمن - بصدفة غريبة حقاً - إلا كل ما هو غربى المذاق والمضمون والإعداد والإخراج. وبامتداد عشرات من الشرائط الإخبارية التليفزيونية لم يتحدث عندنا أحد مطلقاً عن علاقة هونج كونج بالأفيون وحرب الأفيون..

والقصة باختصار هى أن الصين صاحبة واحدة من أقدم وأعرق الحضارات فى التاريخ الإنسانى لكنها مثل كل عزيز قوم ذل تحولت فى الخمسمائة سنة الأخيرة إلى «ملطشة» لكل وافد جديد إلى عرش القوة فى العالم. لقد ذهبت إليها بقوة الغزو كل من البرتغال وأسبانيا وهولندا إبان ارتفاع نجم كل منهم. واعتباراً من القرن التاسع عشر دخل السباق وافدون جدد إلى عرش القوة العالمية.. بدءاً من بريطانيا العظمى إلى فرنسا إلى ألمانيا إلى الولايات المتحدة إلى اليابان إلى روسيا.. حتى بلجيكا.

ومع حلول سنة ١٨٩٩ مثلاً أصبحت معظم وأهم أراضى الصين مقسمة إلى مناطق نفوذ بين كل أقوى الغابة الدولية الفرحين بقوتهم. وفى مدينة شانغهاى - الميناء والمدينة التجارية الأولى فى الصين - أصبح هناك ١٣ دولة ترفع أعلامها الخاصة إعلاناً صريحاً عن سلطتها المتميزة فى حماية رعاياها وأيضاً حماية التجارين معها من الصينيين، حمايتهم من حكومتهم.

نعود إلى هونج كونج. فامبراطورية بريطانيا العظمى بمجرد ارتفاع نجمها طاحت فى العالم احتلالاً وغزواً بما فى ذلك الهند وقتها ومصر بعد قليل. ومن هناك بدأت بريطانيا المتاجرة مع الصين. لقد وجدت فى سوق الصين ما تشتريه - الحرير والشاى وخلافه - لكنها لم تجد لديها الكثير الذى تغرى به الصين، على شرائه. ثم إن الصين، وهى الامبراطورية ذات الماضى الحضارى

القديم لديها توجس غريزي ضد كل ما هو أجنبي، وتعتبر أن كل الأجانب «برابرة» والتجارة مع البرابرة يجب أن تكون في أضيق الحدود، وعبر مكان واحد فقط في أرضها هو «كانتون». لم يكن هذا من فراغ فقد فتحت الصين أبوابها من قبل لبعض هؤلاء الأجانب حينما وجدتهم يبدأون الحديث عن الخير والإنسانية والمحبة والإخاء والسيد المسيح.. لكي تكتشف في كل مرة أنهم أبالسة لا يبحثون إلا عن الربح من أقصر طريق.. وبالحرام. أو أنهم مجرد جواسيس يجمعون المعلومات لحساب أشرار قادمين في الطريق.. فرضت الصين إذن قيودها الخاصة على التجارة مع «البرابرة» الأجانب. لكن الآن تجيء بريطانيا العظمى لكي تقول إن هذا الكلام لا يعجبها بالمرّة لأسباب مجلجلة. فبريطانيا - المنتشية بقوتها الطارئة - أصبحت ترى نفسها رسولا للحضارة والصين يجب أن تعرف أنها هي التي تمثل البرابرة وبريطانيا لم تسيطر على البحار ابتغاء مرضاة الله ولكن لكي تتاجر مع الآخرين بشروطها. وبريطانيا مفوضة من السماء بأن تمطر بمدافعها وبوارجها المسلحة كل بلد على سطح الأرض يهيأ له أنه سيناقش معها شروط تبادل التجارة. يناقش؟ وشروط؟ وتجارة؟ إذن.. هو الجاني على نفسه.

هكذا، وباسم حرية التجارة، بدأت بريطانيا تزرع الأفيون (بالدقة: نبات الخشخاش الذي يجري استخلاص الأفيون منه بعد ذلك) في الهند وتنقله بسفنها إلى الصين لكي تروج له بين ملايين الصين بأسعار مجزية وأرباح فاحشة وسريعة. وبمجرد أن يدمن الصينيون الأفيون يصبحون هم الأكثر إلحاحا على طلب المزيد منه.

هكذا امتلأت أسواق الصين بالأفيون وامتلأت في نفس اللحظة خزائن بريطانيا بالأرباح. وأصيب امبراطور الصين بالذعر من ضخامة أعداد الضحايا بين شعبه فأصدر قرارا بتحريم الأفيون وهاجمت قواته التجار البريطانيين في مدينة واحدة فاستولت على عشرين ألف صندوق من الأفيون وقامت بحرقها علنا. بعدها كتب الامبراطور إلى الملكة «المتحضرة» فيكتوريا ملكة بريطانيا التي تمنع زراعة أو تداول الأفيون في بلادها هي.. متوقعا أن تنضم إليه في منع تلك التجارة التي تلعنها السماء.

وسرعان ما جاء الرد عمليا.. ليس من السماء ولكن من بريطانيا. لقد كلفت الملكة بوارجها المسلحة بغزو الصين فيما سمي وقتها بـ «حرب الأفيون» - ١٨٣٩/١٨٤٢ - وانتهت بهزيمة عسكرية مروعة للصين وإذعانها لواحدة من أغرب المعاهدات في التاريخ. لقد التزمت الصين أولا بفتح الموانئ الخمسة الكبرى لديها أمام التجارة البريطانية بما فيها تجارة الأفيون. والتزمت بدفع ستة ملايين دولار نقدا تعويضا عن صناديق الأفيون التي أحرقتها. والتزمت بدفع تكاليف الغزوة العسكرية البريطانية ذاتها. و - فوق البيعة - احتلت بريطانيا جزيرة هونج كونج ثم مدت غزوها بعد ذلك إلى «كولون» المجاورة، ثم إلى المزيد من الأراضي المجاورة. وبمقتضى معاهدات ثلاث

متتابعة أصبحت هونج كونج ومحيطها مؤجرة لبريطانيا العظمى لتسعة وتسعين سنة تنتهى فى سنة ١٩٩٧. حكم القوى على الضعيف.

فى حينها بدت ٩٩ سنة دهرا كاملا يجعل الملاك الأكبر - بريطانيا - راضى النفس عن رعاياه الأضعف «تتذكر أيضا عقد امتياز قناة السويس كان لمدة ٩٩ سنة». ولأن التاريخ يجىء للقوى غالبا بمن هو أقوى منه فقد جاءت اليابان فى سنة ١٩٤١ واحتلت هونج كونج بعد طرد بريطانيا. لكن بعد هزيمة اليابان فى ١٩٤٥ عادت بريطانيا. فى هذه المرة شوكتها مكسورة قليلا لبزوغ قوة أكبر - وأن تكن حليفة - هى الولايات المتحدة. وفى البداية نصحت أمريكا بريطانيا بإعادة هونج كونج إلى الصين أخذا بالحق والعدل والأصول. لكن بمجرد استيلاء الشيوعيين على السلطة فى بكين سنة ١٩٤٩ نسيت أمريكا نصيحتها وكل ما يتعلق بالحق والعدل والأصول. وبالتدريج بدأت بريطانيا تحول هونج كونج إلى مركز تجارى يمزج رأس المال الدولى مع العمالة الصينية الرخيصة مع السوق المتسع.. وبالأساس سوق الصين ذاتها. وخلال حرب فيتنام وتورط أمريكا فيها أصبحت هونج كونج أولا قاعدة للسفن الحربية الأمريكية وفى الوقت نفسه ملهى ترفيهيا للجنود الأمريكيين القادمين فى إجازات من كابوس الحرب. كده مكسب، وكده مكسب. والأسم هونج كونج والسمسرة لبريطانيا التى كانت عظمى.

وفى سنة ١٩٨٢ أحست مارجريت تاتشر رئيس وزراء بريطانيا بأن الزمن يجرى وباقى منه ١٥ سنة فقط فى هونج كونج. ولأن تاتشر منبهرة قديمة بونستون تشرشل فإنها حفظت عنه قولته الشهيرة: «لا أحد يأخذ شيئا تحت يد بريطانيا إلا بحرب». ولأن تاتشر كانت قد قامت لتوها بحرب منتصرة ضد الأرجنتين بسبب جزر فوكلاند وهى من بواقى مستعمرات بريطانيا فى المحيط الأطلنطى فقد ذهبت تاتشر إلى الصين مشدودة القامة مرتفعة الصوت ومسلحة فى يمينها بانتصارها ضد الأرجنتين وفى يسارها بمقولة تشرشل. والموضوع باختصار هو: بريطانيا تريد من الآن موافقة الصين على استمرار السيادة البريطانية فى هونج كونج بعد سنة ١٩٩٧.

يومها سمعت تاتشر الرد من الصينيين بنفس الاختصار: هونج كونج أرض صينية تعود إلى الصين فى الموعد المقرر.. بالسنة واليوم والساعة.. وبالضبط. لحظتها فوجئت تاتشر بالرد الصينى تماما - هدوءا وحزما واختصارا - إلى درجة أن قدميها تعثرتا بها وهى تهبط سالمة قاعة الشعب الكبرى فى بكين.. فى صورة تلخص ما جرى ونشرتها صحف العالم من أقصاه إلى أقصاه.

مرة بعد مرة ومفاوضات بعد مفاوضات.. وأخيراً صدر عن الجانبين اتفاق مشترك فى سنة

١٩٨٤.

فأما بالنسبة للسياسة الخارجية والسيادة العسكرية فليس لدى الصين مساومة أو فصال. لكن طالما ينحصر اهتمام بريطانيا بالتجارة فى هونج كونج - والتجارة الشرعية - إذن توافق الصين

على استمرار الحياة الاقتصادية فى هونج كونج على ما هى عليه ، وطبقا لما تراه الصين ذاتها محققا لمصالحها.

هذا هو ما رأيناه بالضبط فى الساعة الأولى من صباح أول يوليو ١٩٩٧. لكن السؤال هو: لماذا؟ هل خرجت بريطانيا من هونج كونج اقتناعا بفنائل الأخلاق.. وعادت إليها الصين انتصارا للحق والفضيلة؟

أبدا. ليس فى السياسات الدولية.. لا حق ولا أخلاق ولا فضيلة. كل المسألة أن كلا من الصين وبريطانيا تعلم درسا من الآخر. فالصين من ناحيتها تعلمت أن السياسة الدولية هى غابة للوحوش الكاسرة، البقاء فيها للأقوى. فلتكن الصين صاحبة حضارة عظيمة فيما مضى، ولتكن هى التى قدمت للإنسانية بعضا من أفضل ما عرفته. لكن هذا يشبه شخصا يعيش على سمعة أجداده وآبائه بينما هو ذاته لا هنا.. ولا هناك.

وفى لحظات انهيار الصين كان امبراطورها يستخدم فى مراسلاته مع الحكام الآخرين القول الصينى المأثور: «لا أحد يجرو على الشخير قرب سريره». لكنهم كانوا يجروون. ويشخرون. ويرمون هو نفسه من فوق سريره. بل ويحرقون قصره الصيفى الفريد فى العاصمة بكين.

ولقد كان الزعيم الهندى الراحل جواهر لال نهرو يقول إن كلا من الصين والهند شبه قارة فى ضخامتها، وبذلك الصفة فإن كلا منهما يشبه الفيل.. إذا سقط على الأرض احتاج إلى فترة طويلة من الزمن ليتمكن من الوقوف ثانية.

ولفترة طويلة اختارت الصين الانسحاب من العصر والانعزال وراء أسوارها. لكنها فى كل مرة كانت تكتشف أن انسحابها هذا يجعلها أكثر ضعفا وأقل معرفة بأسباب القوة الجديدة فى عالم متغير. فإذا كان على الصين أن تكسر مرحلة إذلالها وانتهابها على أيدى الآخرين يصبح عليها أولا أن تدرس بصرامة وجدية أسباب قوة الآخرين.. وتعمل بهمة ليل نهار لكى تلحق بهم وتتقدم عليهم.

وبريطانيا هى الأخرى تعلمت درسها الخاص من الصين. فالجهل والتخلف والانكفاء على الذات ليس قدرا أبديا.. ولا المعرفة والتقدم والتكنولوجيا احتكاراً أعطته السماء لفصيلة من البشر ضد فصائل أخرى. لقد أخذت بريطانيا العظمى حظها من خلال قواتها البحرية باتساع العالم. لكن العالم ذاته يتعلم من هزائمه بقدر ما يستفيد الأقوياء من حظوظهم. لم تكن بريطانيا أول امبراطورية تستأسد على الآخرين.. ولن تكون آخر امبراطورية يمضى زمنها.

ومن بين الآف التعليقات التى ترددت حول العالم بمناسبة عودة هونج كونج للسيادة الصينية لفست نظرى تعليق واحد قاله كاتب بريطانى اسمه ايان جاك. قال: «إن الامبراطورية أعطت

للطبقة العاملة البريطانية أفضل الأجور في العالم. وكان هذا شيئا عظيما وفائق الأهمية حدث لنا كبلد صغير. إن الدرس هو: لا تصدق أبداً دعايتك الخاصة. فبريطانيا لم تحرز امبراطوريتها بسبب صفات استثنائية ورثها الشعب البريطاني عن آباءه وأجداده. لقد أحرزت بريطانيا تلك الامبراطورية أساسا من خلال مركزها الذي حققته لنفسها كأول دولة صناعية. درس آخر هو: كن لطيفا دائما مع الناس وأنت تشق طريقك إلى أعلى.. تحسبا لاحتمال أن تقابلهم بعد ذلك وأنت في الطريق إلى أسفل..»

و.. لم أكن أريد العودة إلى صديقي الذي بدأت به وهو يفاجئني بإغمائه لحظة هبوط الطائرة إلى مطار هونج كونج. لكن المشكلة هي أنه كان من المؤمنين دائما بأن سعد زغلول في آخر لحظات حياته كان يائسا من كل ما حوله إلى درجة أنه قال لزوجته: ما فيش فايدة.. غطيني يا صفيه. ثم: مات.

ألف مرة أقول لصديقي هذا إن تلك الشائعة غير صحيحة، ولا يمكن تصورها من زعيم بحجم سعد زغلول، وإنسانيا حتى هي مقولة لا تعقل. لكنها من نوع الإشاعات الموجهة التي كانت مارجريت تاتشر تتمنى أيضا ترويجها بين الصينيين.. حتى تنخلع قلوبهم ويسلموا لبريطانيا بملحق إضافي للبقاء في هونج كونج.

لكن هونج كونج عادت في الموعد المقرر بالسنة واليوم والساعة.. بالضبط.



فى العاصفة : الطالبة دينا نسال .. والرئيس يشرح



توقفت كثيرا عند السؤال وموضوعه. هذه مواطنة مصرية أشاهدها على شاشة التليفزيون. مواطنة اسمها «دينا» طالبة فى جامعة طنطا. والمسئول الذى يواجهها مع المئات غيرها من شباب الجامعات هو رئيس الجمهورية. وبكلمات محددة تسأل الطالبة دينا رئيس الجمهورية عن السوق العربية المشتركة. والرئيس حسنى مبارك يرد. أو بالدقة: يشرح. وفى شرحه جاءت كلماته بسيطة ومحددة والأهم من كل شيء: احترام عقل هذه الطالبة، وهذا الجيل، فى ذلك اللقاء الذى لفت نظرى بين الرئيس وطلبة الجامعات فى الأسكندرية وأذاعه التليفزيون مسجلا بعد وقوعه بيومين.

لقد توقفت عند هذا السؤال تحديدا ليس فقط لأنه سؤال الساعة، ولكن لأنه يتعلق بالمستقبل. هل للجيل الجديد مستقبل؟ وأى نوع من المستقبل؟ هل سيظل ١٤ مليون طالب وطالبة يذهبون إلى مدارسهم وجامعاتهم كل صباح فى مصر وحدها؟ وحينما يتخرجون فى معاهدهم وجامعاتهم هل سيحققون أحلامهم فى الحياة العملية.. زائد أحلام أهاليهم الذين استثمروا فيهم تحويزة العمر - مالا وجهدا واهتماما وقلقا ورعاية؟ وهذا البلد الذى استثمر بلايين الجنيهات لكى يصبح الجيل الجديد أوسع وأعمق تعليما من جيل سابق.. هل سيرد إليه هؤلاء جزءا من التكلفة؟ هل سيفيض من دخلهم أصلا ما يعوضون به الأهل والمجتمع عن بعض التكلفة؟ وهذه الطالبة التى تسأل، متوجهة باستفهامها إلى رئيس الجمهورية شخصا، هل هى تعنى فعلا مضمون تلك الكلمات الثلاث: سوق عربية مشتركة؟ أليس ملفتا هنا أن يشغل الجيل الجديد نفسه بأى شيء فيه عروبة.. فى الوقت الذى يجرى فيه محاصرته ليل نهار بكل ما يجعله يكفر بالعروبة ذاتها؟

إنها أسباب عديدة تلك التى جعلتنى أتوقف بتأمل عند سؤال الطالبة دينا. ثم أسباب أخرى للتوقف عند شرح الرئيس. قلق الرئيس. هموم الرئيس. بالطبع هو يسعى لإقناع الآخرين بالمشاركة فى إقامة سوق عربية مشتركة. إنه بحكم المسئولية مقتنع بحيويتها. وهو أيضا بحكم الواقعية يعرف مصاعبها. وفى إحدى النقاط كشف الرئيس عن قلقه العميق من إتفاقية «الجات» التى تحولت قبل سنتين إلى مؤسسة دولية باسم «منظمة التجارة العالمية». فإذا كانت الطالبة دينا تريد الحقائق

فأولها هو أن «اتفاقية الجات هذه - وأقولها بصراحة - هي لصالح الدول الغنية على طول الخط».. بما يعنى أنها تفرض على مصانعنا ومؤسساتنا الدخول فى منافسة غير منصفة على الإطلاق.. إلخ. لا أريد الاسترسال هنا فى موضوعات يعتبرها المتخصصون ميدانهم. لكن الموضوع الآن أكبر من المتخصصين. أكبر كثيرا. وقبل أسابيع كنت مدعوا من إذاعة «صوت العرب» للتحدث فى ندوة كبرى مذاعة بعنوان «نحو سوق عربية مشتركة». ندوة أدار مناقشاتها كل من الصديقين الدكتور على الدين هلال عميد كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة وعصام الدين رفعت رئيس تحرير مجلة «الأهرام الاقتصادى».. ونطاق المتحدثين يتراوح بين الأمين العام المساعد للجامعة العربية ورئيس مجلس الوحدة الاقتصادية بالجامعة العربية وأساتذة وخبراء متخصصين.

وفى الجزء الأول من الندوة رجوت الدكتور على الدين هلال إعفائى من الحديث رغبة فى متابعة المناقشات فأصر على أن أشارك فى جزئها الثانى. بعدها فوجئت ثلاث مرات. أولا بالحماس الساخن من جمهور الحاضرين. ثانيا بعدد الرسائل التى تلاحقت على من مكتبى بجريدة «أخبار اليوم» من مستمعين تابعوا الندوة عند إذاعتها. وثالثا لأن منتصف الليل - فى تصورى الذى اكتشفت خطأه - ليس وقتا مناسباً لجذب المواطن العادى بعيدا عن شاشة التليفزيون ليتابع مناقشة جادة فى موضوع غير مسل بطبيعته.. واعيا بأن فكرة السوق العربية المشتركة أصبحت الآن مسألة حياة أو موت. وبتلك الصفة فإنها أخطر كثيرا من تحميل مسؤوليتها للمتخصصين وحدهم.

لقد أصبح على المحك الآن مئات من المصانع مهددة بإغلاق أبوابها أمام منافسة أجنبية غير منصفة، وفى أسواقنا نحن. هناك ملايين من الناس مهددون بالبطالة بامتداد العالم العربى خلال سنوات قليلة. هناك خدمات توفرها الدولة حاليا، ومن مصر إلى تونس إلى السعودية إلى الكويت، وقد لا تجد الدولة مستقبلا موارد تسمح لها بالاستمرار فيها. هناك عاصفة عاتية قادمة إلينا من الشمال. بل نحن فى قلبها منذ سنتين، باسم تحرير التجارة العالمية. كلمات وشعارات براقية وجذابة تقول لنا: افتحوا أبوابكم أمام المنافسة العالمية. مصانعكم. بنوككم. مدارسكم. جامعاتكم. مرافقكم. أسواقكم بالكامل يجب أن تصبح مفتوحة أمام السلع الأجود والأرخص.

منطق جذاب ومغر. عيبه الوحيد أنه أقصر الطرق إلى الجحيم. فأولا وأولا وأولا: لم يحدث فى تاريخ المائتى سنة الأخيرة أن حققت دولة واحدة فى العالم نهضة اقتصادية من خلال التحرير الكامل لتجارتها مع الآخرين. لا شرق ولا غرب ولا جنوب ولا شمال نهضت فيه دولة واحدة. - وأكرر: دولة واحدة - اقتصاديا بشعار تحرير التجارة المضلل هذا.

وقبيل أن أجلس لكتابة هذا المقال توقفت متأملا عند خبر منشور. الخبر يقول إن الحكومة بدأت لتوها تطبيق قانون جديد أصدرته بفرض الرسوم الجمركية على الواردات من الخارج. ومع

وصول أول باخرة فرنسية من الخارج فوجيء المواطنين العائدون بمندوبي الجمارك يتعاملون معهم بصرامة. فباستثناء السلع التي يأتي بها الركاب معهم لاستعمالهم الشخصي هناك رسوم جمركية باهظة على كل شيء آخر. ووسط سخط الركاب من معاملة مندوبي الجمارك وقفت سيدة تحتج بصوتها وبعينيهما الدامعتين: هذه ملابس شخصية اشتريتها من باريس لاستخدامي أنا.. كيف تطلبون مني رسوما جمركية عنها؟ وأمسك مندوب الجمارك بأثواب السيدة يتفحصها بهدوء ثم قال لها: لا يا سيدتي. هذه الملابس لا يبدو عليها أنها مستعملة، وبالتالي فالرسوم هي الرسوم وعليك بتسديدها الآن ولا سنصار هذه الملابس طبقا للقانون الأخير.

بأمر من حدث هذا؟ كمال الجنزوري رئيس وزراء مصر؟ رفيق الحريري رئيس وزراء لبنان؟ وأين جرت الواقعة؟ في عدن؟ في بمباي؟ في مرسيليا؟ أبدا. لقد حدث هذا في نيويورك بالولايات المتحدة والتاريخ هو: ٤ أغسطس سنة ١٨٩٧ - أي قبل مائة سنة بالضبط.

في اليوم التالي ونحن هنا مع جريدة «الهيرالد تريبيون» الأمريكية - نقرأ خبرا آخر بعنوان «الحرب الاقتصادية» والخبر بعث به مراسل الجريدة في باريس.. وهو ينقل عن الحكومة الفرنسية اعتراضها الغاضب على صدور القانون الأمريكي الأخير بفرض الرسوم الجمركية المرتفعة على الواردات، و: «مستر هنري بوشير وزير التجارة الفرنسي يعتبر أن هذا القانون الأمريكي الجديد هو إعلان أمريكي بالحرب الاقتصادية ضد أوروبا.. وبكل الغضب يرى الوزير الفرنسي أن الأمريكيين يغلقون أبوابهم أمام الواردات من أوروبا فقط لأن لديهم أوهاما بأنهم أقل احتياجا لأوروبا، وهذا الوهم سببه اكتفاؤهم الذاتي من البترول والقطن. حسنا: «سوف نثبت لهم أننا أيضا نستطيع الاستغناء عنهم. فالبتترول سوف نصنع بديلا عنه من الكحول، والقطن سوف نحصل عليه من المستعمرات»!.

مع ذلك لم تقيد الولايات المتحدة وارداتها بالقوانين فقط. إن ابراهام لنكولن مثلا، وهو من أبرز الزعماء الأمريكيين، كان يكرر في خطباته العامة المعنى التالي: «باعتباري محاميا ورجل قانون سابق فإنني لا أفهم في الاقتصاد. لكن بصفتي رئيسا للولايات المتحدة أعرف ما يلي: إنك كمواطن أمريكي حينما تشتري سلعة مصنوعة في بريطانيا مثلا فإن الذي يستفيد من دولاراتك في هذه الحالة هو عامل بريطاني صنعها وصاحب مصنع بريطاني أنتجها وخزينة بريطانية أخذت عليها رسوما وصاحب سفينة بريطانية نقلها عبر المحيط. أما إذا اشتريت سلعة أمريكية فإن كل المستفيدين هؤلاء يكونون أمريكيين وتصبح الضرائب التي يسددونها هي ذاتها التي تقام بها خدمات وموافق لك ولأولادك».

والآن قد يرد البعض هنا بالقول بأن أمريكا - كنموذج لغيرها - ربما فعلت ذلك في الماضي فقط لأنها كانت لاتزال ضعيفة وفقيرة فاضطرت إلى تقييد تجارتها مع الآخرين. يجوز. لكن ماذا عن

القرن الحالي؟ عن سنة ١٩٩٧؟ أليست أمريكا هي الآن القوة العظمى الوحيدة في العالم؟ أليست حاملة الأسواط الثلاثة في يديها - صندوق النقد الدولي والبنك الدولي ومنظمة التجارة العالمية - التي تلهب بها ظهور الآخرين دفعا إلى فتح أسواقهم؟

مع ذلك فحتى اللحظة الراهنة هناك مئات من القيود، المنظورة وغير المنظورة في السوق الأمريكية ذاتها ضد واردات الآخرين. كيلو السكر مثلا تشتريه في أى مدينة أمريكية بضعف ثمنه في السوق العالمى لأن واردات السكر الأجنبي لو تدفقت إلى السوق الأمريكية فسوف تغلق صناعة السكر الأمريكية أبوابها. والمزارعون الأمريكيون بشكل عام تعطيلهم الخزانة الحكومية الأمريكية مليارات الدولارات سنويا دعما لهم حتى يستمروا في الزراعة في بعض الحالات .. أو حتى يتوقفوا عن الزراعة في حالات أخرى. عسل النحل: هل يوجد أبسط منه؟ مع ذلك اشتكى منتجو عسل النحل الأمريكيون من أن استيراد عسل النحل الأجنبي وهو الأجود والأرخص - سوف يؤدي بهم إلى الإفلاس.. والحل؟ الحل هو أن تستمر الولايات المتحدة في إغراق الدول الأخرى بمواظع تحرير التجارة وترك المنافسة مفتوحة للأجود والأرخص. أما بالنسبة لعسل النحل فالمسألة بسيطة. لقد صدر قرار بمنع استيراده إلى السوق الأمريكية لأن حماية الإنتاج الأمريكى من عسل النحل هو - صدق أو لا تصدق - مسألة يستلزمها حماية الأمن القومى.. الأمريكى.

في صناعة السيارات مثلا اكتشفت أمريكا أنها تعاني عجزا تجاريا مع اليابان يصل إلى خمسين مليار دولار في السنة، والسبب الأول في ذلك هو مبيعات السيارات اليابانية في السوق الأمريكية. لننذكر هنا أن أمريكا هي التي ابتدعت صناعة السيارات قبل العالم كله. لكن الدنيا كده. يوم في الطالع ويوم في النازل. وفي عشرات المرات، ومن مستوى رئيس الجمهورية ونازل، تلاحق أمريكا اليابان بشكواها من غزو السيارات اليابانية للسوق الأمريكية. واليابانيون في كل مرة يردون: يا سيادة الرئيس الأمريكى.. نحن لا نرغم مواطنا أمريكيا على شراء سيارة يابانية، أو فيديو يابانى، أو تليفزيون.. إلخ.. ألسنتم أنتم أكبر دعاة التجارة الحرة وأن البقاء في السوق يجب أن يكون للأجود والأرخص؟

لكن على مين؟ حرية التجارة والأسواق شعار هائل يرفعه فقط من يعمل الشعار لصالحه. لكن ساعة المعصنة.. انس الأسواق والمنافسة والحرية. هنا: لا حرية. هكذا ضغطت أمريكا على اليابان لكي تفتح سوقها أمام السيارات الأمريكية. اليابان فتحت. ضغطوا عليها بعدها لكي تلزم معارض السيارات داخل اليابان ذاتها لكي تعرض السيارات الأمريكية في نفس الأماكن. اليابان التزمت. وعرضت. بعدها سحب الرئيس الأمريكى-جورج بوش وقتها - رؤساء أكبر ثلاث شركات أمريكية منتجة للسيارات، كأعضاء في وفده الرسمى الزائر لليابان.. في سابقة خطيرة لاستخدام الضغوط السياسية رسميا لتحقيق منافع تجارية.. وهو ما ترفضه أمريكا ذاتها من الآخرين.. وبشدة.

و ذات يوم خرج رئيس وزراء اليابان يناشد شعبه : يا جماعة أرجوكم اشترؤا أى حاجة أمريكانى.. اشترؤا سيارات.. تليفزيونات.. حتى الأرز - وهو فى القاموس اليابانى مسألة أمن قومى فعلا - أناشذكم لتشتروا أرزا أمريكانيا لأن الهدف مساعدة أمريكا فى تقليل عجزها التجارى مع اليابان.. وطبعاً الزعل مع أمريكا يحرق الدم.. فأمرىكا هى بابا وماما وأنور وجدى. ومع ذلك استمر الحال على ما هو عليه. فالواطن اليابانى استمر يشتري فقط انتاج بلاده.. والمواطن الأمريكى استمر هو الآخر يشتري.. إنتاج اليابان.

ولأنه لا شئ عند أقوىاء العالم اسمه مستحيل فقد أصبح آخر اتفاق أمريكى مع اليابان يقوم على فكرتين أولا - أن تلتزم اليابان بعمل «قيود اختيارية» على صادراتها من السيارات إلى السوق الأمريكية فلا تتجاوز قدراً متفقاً عليه. والمضمون هنا هو وجود «قيود» لكن اللعبة اسمها «اختيارية» مفهوم؟ ولأن الفأر استمر يلعب فى عب الواعظ الأمريكى فقد فرض على اليابان حلاً ثانياً - لزوم التأكد - وهو أن تشتري اليابان من مصانع السيارات الأمريكية حصصاً سنوية محددة من أجزاء السيارات ، تقوم اليابان باستخدامها فى صناعة سياراتها هى. طبعاً هذا حل مدهش لأن المواطن هنا - أمريكى أو حتى يابانى - سيستمر فى شراء السيارة على أنها يابانية عنواناً.. ولكن بعشرين أو ثلاثين بالمائة من أجزائها صناعة أمريكية.. مضمونا.

كل هذا اللف والدوران هدفه الاستمرار فى وعظ الآخرين بشعارات حرية التجارة والأسواق المنافسة.. إلخ.. وطبعاً من لا يعجبه كلام أمريكا هو حر. لكن فى اليوم التالى سيدق أبوابه صندوق النقد الدولى. ثم البنك الدولى.. ثم منظمة التجارة العالمية. والنصيحة المتكررة فى كل مرة هى : اسمع كلام أمريكا. افتح السوق. دع المنافسة تأخذ مجراها. اترك البقاء للأصلح والأجود والأرخص.. فإذا أغلقت مصانعك وتشرد عمالك لا تحزن. هذا جزاء الكسالى. وإذا جاع الناس وتحولوا إلى متسولين أو غاضبين.. لا يهم. التسول والغضب علاجهما بسيط. سلح الشرطة وتوسع فى السجون.

من المهم هنا أن نلاحظ أمرين: أولاً - أن أمريكا لا تفعل ذلك حبا فى افتقار الآخرين أو إصراراً على اضعافهم. لكنها تفعله أساساً لحماية مصالح شعبها. ولو كنا فى مكان الأمريكان لفعلنا مثلهم.. فالسياسات الدولية يضعها أصحاب العقول الباردة وليس المبشرين وأصحاب الرسالات. ثانياً - ان هناك بين الأمريكيين أنفسهم من لديه من صفاء العقل وبقظة الضمير ما يسمح له برؤية التاريخ فى سياقه الأوسع.

ليس فى التاريخ أبدا منتصرون دائماً ولا مهزومون دائماً. ليس فى التاريخ أيضاً أولاد تسعة وأولاد خمسة. كلنا أولاد تسعة. بالقليل.. أولاد سبعة. وبتلك الصفة فإن مؤرخاً أمريكياً كبيراً بحجم آرثر شليزنجر مثلاً، الذى كان واحداً من أبرز وألمع مستشارى الرئيس الأمريكى الراحل

جون كينيدي، كتب ذات مرة معترضا بشدة على نصائح واشنطن للدول الأخرى، مباشرة أو من خلال صندوق النقد الدولي، فقال: «لو أن المقاييس التي يطبقها صندوق النقد الدولي حاليا على الدول النامية كانت قد طبقت على الولايات المتحدة في القرن التاسع عشر فإن نموها الاقتصادي كان سيستغرق وقتا أطول بكثير. والآن فإن قيامنا بإلقاء المواعظ على الدول النامية لتطبق سياسات انكماشية في اقتصادها يضعنا في موقف الغائبة العاهرة التي بعد أن جمعت ثروة تسمح لها بالتقاعد - تبدأ في نصح الآخرين بإغلاق بيوت الدعارة لأنها ضد الفضيلة».

الكلمات تبدو قاسية؟ أبدا. لأن الأكثر قسوة منها هو أن يقول أغنياء العالم الآن لقرائه: افتحوا أسواقكم للتجارة الحرة. هذا يساوي أن تطلب من طفل في الخامسة من عمره الدخول في سباق جرى مع بطل أولمبياد، أو تطلب من صناعات ناشئة أن تناطح رأسا برأس صناعات تملك أسواقا أوسع ولديها موارد أكبر وعندها عضلات أقوى تراكمت لمائتي سنة على الأقل.

ثم ان الحرية لا تتجزأ. فمن يريد من الدول النامية فتح أسواقها - عمال على بطل - أمام سلعه ومنتجاته هو.. عليه أيضا أن يفتح أسواقه أمام سلعتنا الأولى التي استثمرنا فيها تحويشة عمرنا. إنهم البشر.

ذات يوم تباحث الرئيس الأمريكي جيمي كارتر وقتها - مع المسؤولين في الصين. والعنوان المفضل لأمريكا وقتها هو: حقوق الإنسان، فباسم حقوق الإنسان يجب على الصين أن تفتح سماواتها وبيوتها للبرامج التليفزيونية والأفلام السينمائية الأمريكية.. ويجب على الصين أن تسمح لمواطنيها بحرية التنقل والسفر.. و.. و..

واستمع رئيس وزراء الصين إلى الرئيس الأمريكي باهتمام بالغ وأدب ملحوظ ولكن مألوف على الطريقة الصينية. أخيرا بدأ يرد قائلا: لنفترض يا سيادة الرئيس أننا نغذنا جانبنا من الصفقة ودخلت الأفلام والمسلسلات التليفزيونية الأمريكية إلى بيوت الصينيين تزكي لهم النموذج الأمريكي في الحياة وكيف أن كل النساء جميلات ورشقات وأصحاء، وكل الرجال مليونيرات أو في طريقهم ليصبحوا مليونيرات. ثم حدث نتيجة لهذا أن انبهر الصينيون بهذا النموذج في الحياة حيث الفقير يفتنى والجائع يشبع والجاهل يتعلم في لمح البصر. هل تنفذون أنتم ساعتها جانبكم من الصفقة؟

لحظتها اندهش الرئيس الأمريكي تماما لأنه اعتقد أنه بدور الواعظ استوفى مهمته. لكن رئيس وزراء الصين استرسل قائلا: لنفترض يا سيادة الرئيس أن عشرة بالمائة فقط من الصينيين انبهروا بالنموذج الأمريكي في الحياة واختاروا الهجرة إلى أمريكا. عشرة في المائة يا سيادة الرئيس. يعني مائة وعشرين مليون صيني. هل ستقبلون بهم عندكم إيماننا بحق الإنسان في الاختيار؟ طيب..

لو خمسة فى المائة فقط هم الذين مارسوا هذا الحق.. يعنى ستين مليوناً . طيب.. نصف الخمسة بالمائة؟ إذن ما نزال نتحدث عن ثلاثين مليوناً. هل أنتم يا سيادة الرئيس تقبلون بفتح أبوابكم أمام ثلاثين مليون صيني؟ أو عشرين أو حتى عشرة ملايين؟

بالطبع لم يرد الرئيس الأمريكى وهو بالتأكيد لم يفاجيء بصمته رئيس وزراء الصين. كل المسألة هى أنه أراد أن يشرح للرئيس الأمريكى الفارق الجوهرى بين مسئوليات رجل السياسة فى دولة نامية.. ونظيره فى دولة متقدمة وغنية وقوية.

فى الدول النامية تصبح أهم مسئوليات رجل السياسة على الإطلاق هى أولاً أن يبقى مواطنيه على قيد الحياة. أن يلحقوا فى عشر سنين أو عشرين سنة بمن سبقوهم فى التنمية بمائتى سنة. أن يتعاملوا مع هذا العصر باعتبارهم شركاء فيه وليسوا عبئاً عليه. أن تكون لهم أعمال كريمة وبيوت نظيفة وأولاد أصحاء يذهبون إلى المدارس والجامعات لأول مرة.

هذا يعنى أننا نتكلم عن البشر. عن الناس. فبحرية تجارة أو غيرها يظل السؤال الملح هو: هل سيصبح مجتمعنا غداً أقل فقراً وأكثر ثراء مما هو عليه اليوم؟ تلك هى المسئولية الأولى لأى نظام سياسى على الإطلاق.. بلا فذلكة ولا لف ولا دوران.

لقد كانت أنديرا غاندى رئيس وزراء الهند الراحلة هى التى خاطبت ذات يوم وفداً زائراً لها من دول الشمال الغنية.. بقولها: هناك فارق جوهري لا يجب أن تنسوه بيننا وبينكم. فأنتم حققتم الثورة الصناعية ودخلتم عصر الصناعة عندكم مبكراً وبرخص التراب. أنتم لم تكتفوا بوضع أيديكم على مجتمعاتنا نحن كمستعمرات لكم.. ولكنكم أيضاً أخذتم عرق وجهد طيقتكم العاملة ذاتها برخص التراب.. ولا رعاية صحية ولا اجتماعية ولا تأمينات ولا مساكن ولا مستشفيات.. إلخ. فى بلادنا النامية لا نستطيع ذلك الآن ولا نريده.. لأن من يقيم مصعاً جديداً عندنا عليه فى نفس اللحظة التزام اجتماعى بأن يبنى لعماله مساكن ويقيم لأولادهم مدرسة ويوفر لهم مستشفى ويضمن لهم فى نهاية المطاف تأمينات ضد البطالة والشيخوخة.. إلخ.

ومن غير أنديرا غاندى والهند.. عندنا طلعت حرب وبنك مصر مثلاً. فحينما كانوا يأخذوننا كتلاميذ صفار فى رحلة إلى مصانع المحلة الكبرى للنسيج مثلاً.. كنا نشاهد داخل أراضى الشركة المساكن النظيفة للعمال.. وملاعب الكرة.. والمستشفى.. والمطاعم التى تقدم الوجبات بأسعار رمزية. وكلها أشياء لم نقرأ عن أى منها فى قصص تشارلز ديكنز مثلاً.. وهو يصور الحياة البائسة للطبقة العاملة الإنجليزية فى السنوات التى كانت بريطانيا تبنى فيها نفسها كأول دولة صناعية. سيأخذنا الكلام هنا إلى بعيد. لكن فى اللحظة الراهنة أتوقف عند تلك المناقشة التى تابعتها فى التلفزيون ذات مساء من هذا الشهر بين رئيس الجمهورية ومن هم فى مقام أولاده.. فى

الاسكندرية. لقد سألته الطالبة «دينا» عن السوق العربية المشتركة بإحساس عميق بالهم والقلق والمسئولية والأمل. وفي إجابته ساقه الموضوع بطبيعته إلى «الجات» ومنظمة التجارة العالمية وعالم معاصر يصنعه الأقوياء لأنفسهم ولو على حساب الآخرين. أقوياء.. لا نستطيع الانعزال عنهم. وفي نفس الوقت لا نستطيع إغلاق عيوننا عن مصالحنا في مواجهتهم.

و... مخلص.. أصل الكلام جاب بعضه.. وفي المرة التالية ربما نناقش هنا ماذا تعنى السوق؟ والعربية؟ والمشاركة؟.



سندريلا .. بالمقلوب



فى البداية كان الخبر. ثم تحول الخبر إلى عنوان. والعنوان إلى تفاصيل متلاحقة. والتفاصيل تشكلت منها قصة. وخلال أيام قليلة تضخمت القصة لكن بعد تغيير جوهرى واحد: لقد أصبحنا نحن.. القصة... نحن القراء أو المشاهدين أو الغرباء أو القريبين أو البعيدين. ملايين بعد ملايين تتابع حدثا «جللا» يجرى من أجله قطع الإرسال وإيقاف المطابع وإذاعات على الهواء وملاحظات عبر الأقمار الصناعية وطبعات خاصة من صحف ومجلات. بل وكتب بكاملها جرى توليفها فى ٢٤ أو ٤٨ ساعة كما لو كان كل هؤلاء مبرمجين مقدما فى انتظار صفارة حتى يتوقف العالم - العالم الحقيقى - ويحل محله عالم بديل. دنيا بديلة. هموم بديلة.. فرضت نفسها على الجميع.. متجاوزة البحار والمحيطات.. مخترقة الحدود والمسافات.. مقتحمة البيوت وغرف النوم: اصح يا نائم. انضم إلينا بسرعة. بحالك التى أنت فيها وملابسك التى ترتديها فسنجعلك تحلق معنا فى المدار الذى نحدده لك.

فقط انس كل شئ من قبل ومن بعد وركز معنا الآن وغدا ولدة أسبوع كامل على الأقل. فاهم يعنى إيه؟ ركز. وركز بهمة لأن العالم كله يركز وأنت لا تريد أن تتخلف. فى الحرب العالمية الأولى أرادت الحكومة فى بريطانيا أن تشحذ هم الناس للتطوع فى الأعمال العسكرية فصممت ملصقا كررته فى كل النواصى والشوارع والميادين. فى الملصق صبي صغير يسأل أباه بجدية وقلق: أين كنت أيام الحرب.. يا بابا؟

الآن شئ آخر مختلف. ليس حربا ولا عالمية ولا بابا ولا ماما. فقط سؤال جوهرى سيطاردك مستقبلا ويؤنب ضميرك: أين كنت حينما شهدت باريس مصرع ديانا.. يا سيد؟ عن نفسى وتحسبا لتحقيقات محتملة قد تشرع فيها الأمم المتحدة - مستقبلا - كنت فى السرير.

مشوار كل يوم فى السادسة صباحا حيث أبحث فى الراديو عن أخبار العالم. إنها البى . بى. سى هيئة الإذاعة البريطانية - والخبر خاطف وسريع - فلاش - يقول تعرضت الأميرة ديانا، أميرة ويلز، لحادث سير مفرج بينما هى فى السيارة مع صديقها الحالى «دودى» الفايد ومرافقيها

يعبرون نفقا في الطريق من فندق «ريتز» إلى شقة الفايد. مستر فايد توفي. أما الأميرة ديانا فقد جرى نقلها إلى المستشفى تعاني من إصابات خطيرة.

انتهى الخبر الخاطف. بعدها تكرر كثيرا مع اضافات متلاحقة. لكن لم يعد هناك «دودي».. ولا فايد. هناك فقط الأميرة ديانا والإنذاعة تتصل على الهواء بمراسلين في باريس.

لقد أدت مؤشر الراديو إلى محطة أخرى وأخرى لعلى أعرف أخبار باقى العالم. لكن بدا الأمر كما لو أن كل محطة تقول لى: أرجع إلى البى. بى. سى. إلى باريس. وديانا.

لقد ضاع وقت الإفطار والصحف إلى أن اكتشفت أن الساعة أصبحت العاشرة. هكذا مضت الساعات الأربع الأولى وأنا أتابع مرة ومرات.. وأندesh. وأتابع لأن الخبر ساخن. وأحزن لأن الحادث مفاجع ومأساوى. وأندesh لأننى حتى تلك اللحظة لم تكن ديانا هذه تمثل بالنسبة لى أى شئ جاد. سيدة أنيقة وجذابة للكاميرا وتعيش حياة النجمة وتتصرف كنجمة. حتى وهى تقف أمام المصورين مؤخرا فى البوسنة فى إطار الترويج لحملة منع الألغام البرية.. تحس أن جوهر المشهد هو ديانا نفسها. أما الألغام البرية فمجالها الأخبار الجادة.

هى نجمة ومشهورة. لكن: مشهورة بماذا بالضبط؟ لم أجد فى أى وقت إجابة جادة على هذا السؤال. أميرة مثل أخريات سواء فى بريطانيا أو موناكو أو السويد. أنجبت صبيين أكبرهما ملك محتمل لبريطانيا يوما ما فى المستقبل؟ هذا صحيح لكنها واقعة مضت منذ سنوات ولم تكن بمفردها التى أنجبت.

هناك زوجها، وهو أمير أيضا والمرشح الحالى الأسبق من ابنه ليكون ملك بريطانيا. لكن أسأل أى عشرة أشخاص بشكل عشوائى: من يعرف الأمير تشارلز؟ ومن يعرف الأميرة ديانا؟ أنا راضى ذمتك. هذا واقع. ومن الواقع أن ديانا كانت امرأة مشهورة. لا يهم مشهورة بماذا أو لماذا. يكفى أنها مشهورة بكونها مشهورة وتلك قضية خطيرة تالية. أما قضية اللحظة فهى هذا الحادث المفجع حقا الذى فقدت حياتها بسببه. فى الساعات الأولى قالوا إن المذنب هو المصورون الذين كانوا يطاردون بها مع رفيقها فى السيارة، وأصبح اسم الشهرة لهم «الباباراتزى» نقلا عن اسم اختاره المخرج الإيطالى فريديريكو فيليني سنة ١٩٦٠ لبطل أحد أفلامه.. مصور رصيف جشع ومتطفل.

الآن أصبح هؤلاء المصورون المتطفلون - الباباراتزى - أول المدانين بالتسبب فى إحراق السيارة التى تهشمت وبداخلها ديانا. وليوم أو يومين أذان العالم كله هؤلاء الباباراتزى باعتبار أنهم سفاحون وقتلة ومصاصو أموال ودماء.

فى نفس الوقت خرج شقيق ديانا ليعلن غاضبا: «كنت طوال الوقت أعتقد أن الصحافة سوف تقتل ديانا فى نهاية المطاف». وفى لمح البصر تحول العالم لإدانة الصحافة. ذلك النوع من الصحافة الذى

يقصده شقيق ديانا.. أى صحافة التابلويد، أو صحافة الإثارة والفضائح، أو حتى الصحافة الشعبية كما تطلق عليها الإذاعة البريطانية فى برنامج يومى.

وتوارى رؤساء تحرير صحف التابلويد تلك خلف مكاتبهم وتحت كراسيهم هربا من غضب الرأى العام.

لكن بعدها بدأت التحقيقات البوليسية فى باريس تشير إلى أن سائق السيارة كان مخمورا. هنا بالضبط تنفس رؤساء تحرير صحف التابلويد الصعداء واعتبروا ذلك اعلانا لبراءتهم. لكنهم وبخبرة المحترفين حولوا اتجاه المدافع فورا إلى ملكة بريطانيا. هناك جمهور انجليزى غاضب وبالملايين ولا بد من كبش فداء يضع فيه هؤلاء غلهم. هكذا خرجت صحف التابلويد البريطانية بعنوانين رئيسية تتساءل: أين ملكتنا؟ صحيفة أخرى: شعبك يتألم. تكلمى إلينا يا مدام.

طيب.. المدام وعرفناها.. فهى ملكة بريطانيا. لكن: إلينا؟ إلى من؟ إلى نفس صحف التابلويد التى كانت ديانا نجمتها وقتيلتها معا؟ نفس الصحف التى دفعت مئات الآلاف من الجنيهات ثمنا لصور تسجل ديانا فى حالة تلبس.. تلبس بالგრاميات، أو بالقبلات، أو حتى بالتمرينات الرياضية.

هؤلاء كانوا متهمين يوم السبت فأصبحوا هم المدعين والقضاة يوم الخميس. لقد ازداد توزيع صحفهم بالملايين بسبب أخبار ديانا وهى ميتة. ديانا سلعة رواج بالنسبة لهم. هكذا كانت فى اشراقها. وهكذا تظل فى قبرها. المأساة الحقيقية أن ديانا نفسها لم تكن تدرك ذلك أبدا. هى بنصف تعليم وربع معرفة وصفر ثقافة هبىء لها أنها هى التى تستخدم صحافة التابلويد لمصلحتها بأكثر من العكس وأن هؤلاء هم سبب نجوميتها، ونجوميتها هى سلاحها الباتر ضد زوجها السابق أب ولديها وضد حمايتها ملكة بريطانيا. لقد استمتعت كثيرا بصورها فى صفحات المجتمع. وتحولت إلى فتاة غلاف، فمجلة واحدة نشرت صورتها غلafa 44 مرة خلال سنوات قليلة. الآن تجيء المأساة. فتاة الغلاف تفتقل من صفحات المجتمع إلى صفحات الحوادث.

وهؤلاء المصورون، الباباراتسى، أو المتفرغون لاصطياد صور المشاهير، كانت ديانا تعرف معظمهم بالاسم وتحفظ أرقام سياراتهم وبين وقت وآخر كانت تتبادل معهم المجاملات. وفى مساء نفس اليوم الذى لقيت مصرعها فيه اتصلت هى من باريس بصديق حميم لها فى لندن هو بذاته أحد محررى صحف التابلويد تلك.. وأسرت إليه بأنها تفكر فى التخلّى عن جمعياتها الخيرية واعتزال الحياة العامة فى شهر نوفمبر القادم. غالبا لم يأخذها ذلك الصديق بجدية لأنها قالت ذلك كثيرا من قبل ثم تراجعته فى كل مرة.

أما المصورون أنفسهم فكانوا يتعاملون مع ديانا باعتبارها متقلبة المزاج فى أفضل الحالات وغريبة الأطوار فى حالات أخرى. وحينما حصلت ديانا على الطلاق من زوجها قبل سنة من

رحيلها المأساوى كان من طلباتها التى أصرت عليها هو إبعاد كل حراسة رسمية عنها. فإذا كان هذا - ربما - لخشيته من أن يصبح الحراس جواسيس عليها لحساب مطلقها.. إذن هل اختارت هى حراسا لها وعلى حسابها؟ إنها فى نهاية المطاف شديدة الثراء فلديها ٦٤ مليون دولار أو ما يساوى ٢٢٠ مليون جنيه. لكنها لم تفعل.. وذات يوم صحبت ولديها إلى دار سينما فى لندن. وبعد انتهاء الفيلم خرجت ديانا إلى الميدان المواجه للسينما فلمحت على الفور اثنين من المصورين - الباباراتزى - يوجهان نحوها كاميرات التصوير من بعيد. وحسب وصف أحدهما فى كتاب له فيما بعد فإن ديانا انطلقت تجرى نحوهما بوجه غاضب وشراسة حيوان جريح، بينما ولداها يجريان خلفها بغير إدراك لما تفعله. ديانا تجرى وسط الميدان والناس والحمام الذى طار من على الأرض ذعرا والسياح العابرون توقفوا يقفرون باندهاش على مشهد غير متوقع. إن أحد المصورين فر هاربا بينما الثانى وقف فى مكانه مستغربا. وبمجرد أن اقتربت منه ديانا صرخت فيه بأعلى صوتها: لقد جعلتم حياتى جحيما. لقد جعلتم حياتى جحيما..

فى تلك اللحظة خلع المصور الكاميرا من كتفه ووضعها على الأرض أمامها قائلا لها: إننى آسف.. تفضلى الكاميرا والفيلم بداخلها يا مدام.. ولك ما تشائين.

هل كسرت الكاميرا؟ خلعت الفيلم؟ أبدا. فقط استدارت خلفا ووضعت وجهها بين كفيها حتى وصلت مع ابنيها إلى سيارتها.. وهناك بدأت تبكى.

أما الحكاية الأخرى الأكثر خطورة فقد وقعت بعد أن سجلت ديانا حوارها الشهير فى برنامج باسم «بانوراما» التليفزيونى الذى تحدثت فيه عن خيانة زوجها لها وخياناتها هى له فى سرير الزوجية.. وبالكثير من التفاصيل.

لقد تبعها نفس الشخصين المصورين وفى اتجاهها نحو الطريق السريع لمحتهما فورا فى مرآة سيارتها. لقد أعطت إشارة بتحركها شمالا وأبطأت سرعتها حتى ترغم هذين المصورين على تجاوزها بسيارتهما. بعدها وخلال خمس ثوان كانت ديانا تسرع بسيارتها لكى تلحق بهما ملامسة السيارة بالسيارة والمصد يخبط فى المصد. أحد المصورين استدار فى كرسيه محاولا الإشارة إليها عبر زجاج السيارة بأن تهدأ فلا تصوير ولا يحزنون. الثانى على كرسي القيادة زاد من سرعته إلى ٩٠ ميلا. ثم ١٠٠ ميل. هو يسرع وهى أيضا تخبطهما بمصد سيارتها بعنف. بوم. بوم. بوم. هكذا ضد كل قوانين السير والسرعة والسلوك. أخيرا هدأت ونفست عن غلها فزادا هما من سرعتهما أكثر لكى يبتعدا عنها ويتحولوا إلى طريق جانبي تقاديا لحادث يمكن أن يكون مروعا.

فى شهر مايو الماضى أعادت كاتبة انجليزية نشر تلك الواقعة مختتمة مقالها بقولها: إذا استمرت بتلك التحرشات فإن القصة لن تنتهى بالدموع فقط هناك شخص ما يمكن أن يموت وربما

لا يكون هذا الشخص باباراتزى. هل كانت الكاتبة تتنبأ؟ بالطبع لا يمكن، وحتى ما جرى لديانا فى باريس يتجاوز أى تنبؤ. لكن الكاتبة كانت تنبه وتحذر. ففي نهاية المطاف ديانا هى المسئولة عن حياتها.

وحياة ديانا غير سوية من بدايتها. طفلة فى أسرة من أغنى العائلات الأرستقراطية قديمة الثراء فى بريطانيا. لكنها ولدت على غير رغبة لأن والديها كانا يريدانها ولدا. فى السادسة انفصل أبواها وتمزقت هى فى حضانتها بين أم وأب أصبحا يتبادلان أقصى درجات الكراهية والاحتقار. فى المدرسة لم تكن ديانا فالحة ولا ناجحة ولا راغبة. يادوب تنجح بطلوع الروح. لقد اختصرت كل أحلامها فى واحد من اثنين: إما أن تصبح راقصة باليه.. أو تصبح زوجة للأمير تشارلز ولي العهد.

هكذا ببساطة. ولم يكن هذا غريبا تماما حيث المعرفة قائمة بين الأسرتين. ولأن أحد الحلمين يحتاج إلى مران وتدريب ودراسة ومجهود فقد تحقق لها الحلم الأسهل وأصبحت عروسا لولى عهد بريطانيا فى سنة ١٩٨١.

وعلى طريقة الأسر الملكية من هذا النوع، وأيضا من باب التطوير، أرادت العائلة الملكية أن تحول الزفاف إلى مناسبة احتفالية شعبية، فجعلت الاحتفال أسطوريا وتليفزيونيا ورواجا تجاريا ودعائيا لم يسبق له مثيل. هكذا وجدت ديانا فتاة العشرين نفسها محط اهتمام الكاميرات والعالم فجأة.. وأيضا بصورتها مرسومة ومطبوعة على القمصان وأدوات المطبخ وأزياء النساء.. الخ. لقد أصبحت مشهورة فجأة، وبغير أى عمل جليل أنجزته. وهذا هو المفتاح الحقيقى فى رأى الذى يجب أن يبدأ منه فهم المأساة الحقيقية لديانا.

تلازم هذا أيضا مع وهم كبير لقى قبولا شعبيا عند فتيات كثيرات. وهم: سندريللا والأمير. فى القصة هنا أمير. لكن ديانا لم تكن سندريللا. على الأقل بمفهوم الأسطورة التى نعرفها. لكن الناس هنا تحب أن تخترع الأوهام لكى تصدقها. إذا خرجت ديانا تصبح سندريللا هى التى خرجت. إذا ارتدت ديانا فستانا جديدا يتحول اسمه إلى فستان سندريللا. إذا احتجبت قليلا لا يفكر الناس فى أنها ربما تكون حاملا، لأن الحمل وحبوب منع الحمل ينزع الشاعرية من أسطورة سندريللا وهكذا.

والأضواء التى تجيء فجأة تصبح مصيبة كبيرة غالبا. أما الأضواء التى تجيء فجأة لإنسانة نصف متعلمة وغير مجربة ومتعلقة أصلا بذاتها فانها تصبح نذيرا مؤكدا بتطورات غير سوية.

لكن التطورات جاءت على دفعات. فى البداية لم تشعر ديانا براحتها مع طقوس القصر الملكى، وبين عائلة اندمجت فى هذه الطقوس لعشرات السنين وأصبحت تحتفى بها. هل سمع أحد مثلا أن

الملكة اليزابيث - وهى على عرش بريطانيا طوال ٤٥ سنة - غادرت قصرها فجأة بعد منتصف الليل لأنه طرأ على ذهنها أن تسهر فى ملهى ليلي بغير زوجها؟ هذا لم يحدث. لكن ديانا فعلته. ثم.. الملكة تذهب إلى البرلمان لتلقى بخطاب العرش، هى لا كتبتة ولا مسئولة عنه ولا سيحاسبها عليه أحد.. فالمملكة فى بريطانيا دستورية تملك ولا تحكم لكنها العادة والتقاليد.

فى ذلك المساء بالذات تحضر ديانا بتسريحة جديدة لشعرها ملفتة تماما. فى اليوم التالى يصبح هذا هو الخبر الأساسى عند صحافة التابلويد.. وليذهب خطاب العرش إلى الجحيم.

أو: تذهب العائلة الملكية إلى حفل موسيقى.. وبالتقاليد المقررة يسبق الأمراء والأميرات بالحضور ليكونوا فى استقبال الملكة. الكل ذهب. وتشارلز ذهب. والملكة ذهبت.. لكن ديانا لم تذهب وكعذر عابر قالوا: أصلها مرضت فجأة. لكن بعد عشرين دقيقة تصل ديانا، وفى زى جديد شديد الأناقة تلقفت صحف التابلويد مناسبة كهذه للتوسع فى الحديث عن ديانا.

والرئيس الأمريكى رونالد ريجان وزوجته نانسى أقاما حفل عشاء بالبيت الأبيض تكريما للأمير تشارلز وزوجته ديانا لدى زيارتهما لواشنطن. وحسب الأصول طلبت نانسى ريجان من كل من الزوجين أن يعطيها قائمة بمن يريد كل منهما دعوته. أما قائمة ديانا فأول اسم فيها هو: جون ترافولتا. بعد العشاء جاء من يهمس فى أذن نانسى ريجان: ديانا ترجوك.. نفسها ترقص مع ترافولتا. بس كده؟ قوم يا جون: أمريكا عايزة بريطانيا مبسوطه. شد حيلك وفتح عينيك وافتكرك حلف شمال الأطلسي.

قام ترافولتا. رقصت معه ديانا.. المدعوون بطلوا رقص وتنحوا جانبا متفرجين باندھاش.. هم: هات يا تصفيق. وديانا: هات يارقص.

طيب وتشارلز؟ عادى. الرجل يتكلم مع جاره فى المائدة عن الهندسة المعمارية. طب والناس؟ الناس تانى يوم كلهم لاحديث لهم فى أنحاء أمريكا إلا عن ديانا الراقصة وترافولتا العاشق لرقصها. طيب: والأمير تشارلز والهندسة المعمارية؟ والله.. الغاوى يقرأ عنهما فى جريدة الحزب الوطنى.. الأمريكى.

فى فصلها الأول تقمصت ديانا دور سفدريللا. فى فصلها الثانى تحولت إلى «آنا كارنينا» بعد أن هجرها «فرونسكى».

لقد أنجبت ولدين أكبرهما سيصبح ملكا لبريطانيا فى نقطة ما مستقبلا. لكن هى فى واد والزوج تشارلز فى واد آخر. حاولت تنتحر مرة لجذب انتباهه ومرة لجذب انتباه حماها. ومرة ألفت بنفسها على السلام لجذب انتباه حماها وحماها والجميع. الكل أجمع على أنها دلوعة ولا تعرف واجبات العرش الثقيلة. طبعاً هى واجبات.. لا هى هنا ولا هناك. لكن الانجليز بالذات مزاجهم

متعكر طوال الخمسين سنة الأخيرة.. خصوصا بعد أن استقلت عنهم «هنا» التي هي الهند.. ثم أخذوا «شلوت معتبر» في مصر وقناة السويس التي هي «هناك». أكيد انهيار امبراطورية ضخمة في جيل واحد يجيب المرض.. ودعنا هنا من واحد متبلد كميخائيل جورباتشوف. الانجليز - ولا حتى غيرهم - ليس عندهم جورباتشوف - عندهم ملكة وعرش ونظام دستوري.

لو كانت ديانا أكثر تعليما، أو حرصا على استكمال التعليم. أو أكثر خبرة.. لربما اختلف الأمر. لكن مشكلة ديانا كانت ديانا. سألتها مرة كاترين جراهام صاحبة جريدة الواشنطن بوست الأمريكية بمنتهى اللطف والاحياء: بعد أن أنجبت ولدين وزاد وقت فراغك لماذا لا تفكرين في استكمال تعليمك؟

لكنها اعتبرت السؤال بحد ذاته لا محل له من الاعراب. تعليم واستكمال للتعليم؟ هذا لا يلزمها لأن لديها بدائل أهم.

بدائل مثل الذهاب إلى السحرة والمنجمين وقراء الطالع وأطباء النفس والمحللين النفسيين ومصاحبة نجوم السينما وعارضات الأزياء والإكثار من العطور وأدوات الماكياج والكوافير والمجوهرات والتسوق.. الكثير من التسوق. أما القواتير، وكلها ساخنة نار، فالحل بسيط: قصر باكنجهام هو العنوان. بعد الخناقات والمصالحات والمشاجرات من جديد.. قررت ديانا ذات يوم أن تنتقم من إهمال زوجها الضمني وخيانتته لها فلجأت إلى أشد الأسلحة فتكا بهذا النوع من الأسر الملكية: سلاح الأضواء. فبترتيبات سرية وخطط محكمة وتكتم كامل وتفكير جهنمي جلست ديانا أمام كاميرات التلفزيون تحكى على المفتوح: عانيت من الإهمال. من مرض الشراة، من البوليميا. حاولت الانتحار. تليفوناتي مراقبة. لن أكون أبدا ملكة لبريطانيا. الأعداء لن يسمحوا لي بذلك. لكن أنا على قلبهم، لن أنصرف بهدوء.

نعم هي أحبت تشارلز وخانها. لكنها أيضا اضطرت لخيانته، ولسنوات، والخيانة ممتعة، خصوصا في فراش الزوجية. طبعاً هو جيمس هيويت الضابط الذي قرأتم عنه في الكتاب الذي صدر مؤخرا عن سيرة حياتي. ثم نظرت إلى الكاميرا مباشرة وقالت ببساطة ورقة: «أحببت جيمس. عيذته. قضيت معه كل الأوقات الممتعة». لكنه هو أيضا - حسب قولها - خذلها وتركها وحيدة. وهي تسامحه.

والعالم قضى نحو ألفى سنة معذبا بسبب صلب المسيح. أما الذي شاهده جمهور التلفزيون، وبالملايين، فهو ديانا المصلوبة. هي ترى أنها مصلوبة وضحية وفي صليها تحولت الخيانة الزوجية بقدرة قادر وسحر عينين زرقاوين إلى عمل من الأعمال الصالحات. وقبل أن تذرف ملايين المشاهدات على وجه الخصوص دموعهن أمام أجهزة التلفزيون تفاجئن ديانا من جديد بأنها لن تهزم أبدا.

لن تنصرف بهدوء. إن لديها عملاً ورسالة وهدفاً: أن تكون ملكة القلوب. تعنى عندها عرشاً بديلاً. هكذا اتسع نطاق جمهور ديانا. فى البداية كانت العذارى الحاملات بالأمير وسندريللا. الآن صاحبات القلوب المحطمة.. الوحيدات الجريحات عاطفياً ونفسياً والأمهات المضحيات والراغبات فى الانتقام من رجال جاحدين لا يقدرّون الاخلاص ويدوسون على النعمة. شاطرة يا ديانا. فلتسقط الملكة ولتحيا حركة المرأة فكل الرجال غادرون غشاشون. هكذا قالت يومها كل من لها تجربة عاطفية سيئة، وهو مايعنى كل النساء فى بريطانيا فوق سن الرابعة عشرة.

لكن المسألة كان لها وجه آخر. فبرنامجها هذا أثارت ديانا حسد كل أصحاب الشركات ورجال المال والأعمال على جانبى المحيط الأطلنطى. يابنت الإيه؟

هكذا التفاوض واللا.. بلاش. ففى نفس الفترة كانت ديانا تتفاوض مع زوجها، ومن خلاله مع العائلة الملكية، على الطلاق. وهى لها شروط وبملايين الجنيهات وكلما تجاوزت الملايين ثروة زوجها يكون أفضل. أليست الملكة أمه؟ خللى أمه تدفع له. بكلمات أخرى كانت ديانا تقول ضمنياً للعائلة الملكية شيئاً أخطر: كنتم تقولون عنى اننى مجنونة؟ هل تريدون أن تروا الجنون بأصوله؟ الليلة مارست بعضه أمام الملايين. لكن مازال عندى المزيد.. الملف كبير والفضائح بجلاجل.. وأنتم أحرار فى الاختيار: طلباتى بالكامل ونقدا وبالملايين، مليون ينطح مليون. هذا.. والا؟ أنا لن أكرر وطلباتى عرفتها.

نحن هنا لا نتكلم عن إنسانة فقيرة. أو نص نص. والفلوس التى حصلت عليها فى النهاية ٢٦ مليون دولار بخلاف أشياء أخرى. لكنها لم تضيف إلى حياة ديانا شيئاً كان ينقصها. فقط هو الانتقام فى شكله التقليدى تماماً وبوجهيه: غرام وانتقام.

فى آخر حديث مسجل لها ولم ينشر إلا بعد رحيلها بخمسة أيام كان الوقت قد مضى على الطلاق وتشارلز أصبح يتطلع - صامتاً - إلى الزواج بالمرأة الأخرى فى حياته، بينما ديانا دخلت فى علاقات غرامية متتابة.. تقول عن كل منها فى حينها إنها العلاقة الأكبر والأعمق والأمتع.

برغم كل هذا فإن ديانا - والحديث مسجل مع صديقة لها بتاريخ ٢٣ يونيو ١٩٩٧ - تتكلم بمرارة واضحة عن تشارلز زوجها السابق، فهو فى رأيها يفتقر إلى أى صفة قيادية وهى الآن تستثمر كل آمالها بشأن مستقبل الملكية فى بريطانيا فى ويليام ابنها الأكبر حيث: «أعتقد أن الوقت قد فات بالنسبة لباقي الأسرة» - تقصد زوجها السابق طبعاً تشارلز لأنه: «ولد للقيام بالوظيفة الخطأ. كان يجب أن يكون سعيداً بحياة يقضيها بمنزل فى توسكانى مثلاً، مستخيفاً عدداً من الفنانين» فهو باستمرار: «شخص تابع» للآخرين. مع ذلك.. فبعد كل هذه القذائف طويلة المدى، والقاتلة، تأتى اللمسات الدافئة. فهى آسفة من كونها لن تصبح ملكة إذا اعتلى تشارلز العرش.

«لأننا كنا سنصبح أفضل فريق معا في العالم. أنا أستطيع أن أصافح الأيدي إلى أن تعود الأبقار إلى بيوتها وتشارلز يستطيع الإدلاء بكل الأحاديث الجادة».

وباستثناء النهاية المأساوية المفجعة التي شهدتها حياة ديانا في باريس في الساعة الأولى من صباح ٣١ أغسطس ١٩٩٧ يمكن تلخيص القصة كلها في عنوان واحد تقليدي ومتكرر: غرام وانتقام. أو: الجمال والفراغ، والنجومية أقصر الطرق إلى الهلاك. أو: الجمال والفراغ أقصر الطرق إلى الملايين. أو: الجمال والفراغ والنجومية أقصر الطرق إلى قارات العالم. ففي كل تلك الحالة المأساوية الإنسانية لا مفر أمامنا من مواجهة سؤالين على وجه التحديد:

أى نوع من الشهرة تمثله ديانا؟ ثم: أى نوع من النموذج يتم هنا دفننا إلى الإعجاب به؟ وفي الإجابة عن السؤال الأول يجب أن نفرق بين نوعين من الشهرة. هناك شهرة تأتي نتيجة لعمل. لانجاز. لموهبة. لإبداع. لعطاء واضح أو تضحية معترف بها. فى مقابل ذلك هناك سلالة أخرى مختلفة تماما وبازغة هى سلالة المشهورين بكونهم مشهورين. لقد قارن البعض بين ديانا وايفيتا بيرون ومارلين مونرو مثلا.

لكن ايفيتا بيرون كانت ممثلة تحولت إلى قضية حقيقية آمنت بها واستخدمت السلطة السياسية فى سبيلها. حتى مارلين مونرو كانت لديها موهبة. لكن ماذا كانت موهبة ديانا بالضبط؟ ذهبت إلى البوسنة ضمن حملة ضد الألغام الأرضية؟ لكن الحملة كانت قائمة فعلا وديانا ذهبت فقط للدعاية لن يتحملون أعباء الحملة. قامت برعاية أعمال خيرية؟ لكن حماسها لذلك كان ينتهى فى اللحظة التي تتوقف فيها الكاميرات عن التصوير. تعاطفت مع مرضى الايدز؟ هى أيضا تعاطفت مع الشوان جنسيا ومن بينهم مصمم الأزياء الايطالى القليل فيرساك والمغنى ايلتون جون الذى غنى لها فى الكنيسة يوم جنازتها.

والفارق هنا بين نوعين من الشهرة جاء من السماء حينما فارقت الراهبة تيريزا الحياة بعد ديانا بأيام. لقد ذهبت تيريزا ضمن بعثة تبشيرية كاثوليكية إلى كلكتا أفقر مدن الهند. وهناك ظلت تعمل بإيمان حقيقى وإنكار مدهش للذات. ولم تقترب منها الأضواء الا بعد خمسين سنة من عملها الفذ هذا. مع ذلك لم تحظ الأم تيريزا فى رحيلها بواحد على عشرة ولا واحد على مائة من الاهتمام الاعلامى الذى جرى تخصيصه لديانا. شهرة تيريزا ومثلها مصباح ينير للآخرين. شهرة ديانا ومثلها مرآة تعكس الآخرين.

هؤلاء «الآخرون» هم نحن. وبذلك نصل إلى السؤال الثانى. ديانا مأساة مفجعة يجب أن نخرج منها بالدرس الصحيح. فحتى المرأة الجميلة - وأمامنا فى الحياة العادية جميلات كثيرات كثيرات - لا يعفيهن جمالهن من بعض الجدية. حتى المرأة الثرية.. لا يحق لها أن تجعل ثروتها مبررا للسطحية والتفاهة. حتى المرأة المشهورة لا تدوم شهرتها إلا بعطاء حقيقى وموهبة فعلية.

ديانا هنا غير مذنب بالدرجة الأولى. لقد كانت - بمعنى من المعاني - ضحية لماكينة لا ترحم اسمها صحافة التابلويد. صحافة الفضائح. الإثارة. المتاجرة بأحلام الناس أحياء والمتاجرة بآلامهم أمواتا.

قبل أسبوع خرجت صحيفة أمريكية - فصحافة التابلويد لا تعرف الحدود - بشكل يثير القشعرة لكي تعلن لقرائها أن الأمير ويليام - الابن الأكبر لديانا وتشارلز في الخامسة عشرة من العمر - هو من الآن فصاعدا «الصبى المحبوب عالميا» يعني: الأميرة ماتت. عاش الأمير. في الحاليتين صحافة التابلويد مستمرة في الرواج والانتشار ولو على جثث الآخرين.

أما المذنب الأكبر في القصة كلها فهو: نحن. فباستسلامنا على هذا النحو المفجع لماكينة الإعلام العالى الجهنمية.. نحن لا نعيش حياتنا.. نعيش حياتهم. والأسوأ: نعيش الجزء الأكثر سلبية وظلاما في حياتهم. هم ينشرون.. فننشر. هم على الهواء ونحن وراءهم. هم يملأون فراغهم فنخلق لهم فراغا عندنا. يروجون لأوهام فنشتريها منهم. يدخلون في حالة هوس.. فندخل مثلهم.

والهوس في هذه المرة لم يكن سندريللا. إنه: سندريلا بالقلوب. ورحم الله تلك الإنسانية الشابة التي كانت - وماتزال - وقودا لآلة إعلام جهنمية أكبر من فهمها وإدراكها. و.. رحمنا الله نحن أيضا.



رجال اليوم السابع



الأسكندرية. نادى «سيورتنج». ذهبت ذات مرة إلى هناك مدعوا للتحدث عن «انعكاسات حرب أكتوبر». الجمهور شباب والعدد يقترب من الألف. لقد همس فى أذنى مسئول النادى الجالس إلى يمينى فى المفصة: هذا الحشد استثنائى تماما. قلت له: ربما لأن الموضوع نفسه استثنائى والجيش الذى خاضت به مصر تلك الحرب هو ما أسميه فى قاموسى الخاص «جيش اليوم السابع». جيش قامت مصر ببنائه مقاتلا مقاتلا، وطوبى طوبى، وسلاحا بعد سلاح.

وكل مقاتل فى ذلك الجيش، من أكبر ضابط إلى أصغر جندى، ظل سنة بعد سنة يرى من زملائه المقاتلين أضعاف أضعاف ما يراه من أسرته، ويأكل معهم فى الخنادق طعاما لا يعرف مطلقا إذا كان سيعيش بعده حتى الوجبة التالية.

رجال ومقاتلون عرفوا وبثمن فادح وبغير فذلكة ولا بغبغة أن مصير الوطن.. بل والعروبة.. كلها يتوقف تماما على مدى إيمانهم وإصرارهم. هناك جولة خسرناها بطريقة مفاجئة سماها العدو دعائيا «حرب الأيام الستة»، الآن هو اليوم السابع، وهؤلاء مقاتلوه إن كل الأيام تساوى ٢٤ ساعة، لكن فى حياة الشعوب تصبح بعض الأيام أطول أو أقصر من الأيام الأخرى. والفترة من اليوم التالى للهزيمة المدوية فى يونيو ١٩٦٧ حتى اليوم الأخير من حرب أكتوبر ١٩٧٣ هى بذاتها يوم واحد متصل، إنه: اليوم السابع. وكان الجيل الذى أنتمى إليه هو بذاته العمود الفقري لتلك الحرب، جيل من المتعلمين وخريجي الجامعات الذين أصبح الجيش بكل فروعه يطلبهم بشكل فوري. ولحسن حظ مصر والعروبة فإن هذا الجيل كان أول إنتاج متراكم لنهضة كبرى بدأت قبلها بسنوات. نهضة عنوانها: مجانية التعليم.

وإذا كانت دفعتى فى الدراسة الجامعية مجرد نموذج هنا، فإن سبعين بالمائة منها على الأقل استمروا مجندين، جنودا وضباطا، فى يوم واحد متصل مابين يونيو ١٩٦٧ وأكتوبر ١٩٧٣. ولولا أنه كان هناك إصرار على أن تمضى الحياة المصرية، زراعة وصناعة واقتصادا ومرافق، كالعتاد، فربما كان سيتم تجنيد مائة فى المائة من خريجي الجامعات. لكن الجيوش الحديثة لاتصبح حديثة من فراغ. إنها تعتمد على - وتعيش من - اقتصاد حديث أيضا.

وإذا كان سبعون بالمائة من دفعتى الجامعة أصبحوا مجندين فى هذا اليوم السابع فإن الثلاثين بالمائة الأخرى كانوا مجندين بشكل مختلف. الأولون يرتدون الكاكي والأخرون بملابسهم المدنية لكن هذا الخريج الجامعى بالملابس المدنية كان يدبر حياته فى حدود مرتبه المتواضع، عشرون جنيها شهريا. والمرتب متواضع ليس لأن جهده متواضع ولكن لأنه يتقبل حقيقة أن عليه أن يعيش فقط على الضرورات، لأن زميله فى جبهة القتال يشارك فى تحقيق المستحيل.

والمستحيل كان هو أن يصبح لمصر جيش عصى. والاستحالة هنا طبيعية لأن مصر تحتاج لها فقط ربع ساعة حرية فى كل قرن وإذا لم تستثمر مصر ربع الساعة هذه بسرعة فى بناء جيش حيث تواجه به أطماع الوحوش الكاسرة فى الغابة الدولية، يصبح مصير مصر هو الاضمحلال. هكذا التاريخ المصرى فى حالته الدرامية. فمصر إما فى القمة وإما فى الحضيض ولا وسط.

فى القرن الماضى تحالفت وحوش الغابة، كل أوروبا وقتها، لضرب مصر وتحجيمها. وبعد التحجيم باتت مصر محكوما عليها بأن تنسى تماما حلم الجيش الحديث القوى لأكثر من مائة سنة بعدها. فى ١٩٥٦ جرى تحالف جديد لكسر شوكة جيش مصرى مايزال فى مرحلة الحضنة. فى ١٩٦٧ جاءت الضربة الأكبر. بعد يونيو ١٩٦٧ بدأ اليوم السابع الطويل. أطول يوم فى تاريخ مصر، وعنوانه هو المقاتل المتعلم باتساع جيل بكامله.

إن بعضا من هذا جعلنى أرحب بالذهاب إلى الإسكندرية مدعوا من نادى «سبورتنج» وبعضاً من هذا جعلنى أختصر كلمتى المرتجلة قدر الإمكان لكى أعيش مناخ الأسئلة والتساؤلات.

فى إحدى النقاط وقف شاب متحمس لكى يسألنى عن شخص محدد بالاسم: سعد الدين الشاذلى. قبل أن يكمل سؤاله رأيت مسئول النادى إلى يمينى يكاد يخطف الميكروفون لكى ينهر الشاب قائلا: يا أخ مثل هذه الأسئلة لاتقال فى هذا المكان ثم إن الأستاذ المحاضر وصل من القاهرة مرهقا والباقي من وقته قليل وقصير.

ثم تجول بعينيهِ فى أنحاء القاعة ليقول آمرا: سؤال واحد آخر يا اخوان ثم تنتهى الندوة. بمجرد أن أعاد الميكروفون أمامى عدت أنا إلى الحديث قائلا: قبل أى سؤال آخر يا اخوان سوف أرد أولا على السؤال الأخير، أنا لم أعرف يا أخى مضمون سؤالك بالضبط لأنك قوطعت فى منتصفه، سمعت فقط اسم سعد الدين الشاذلى، إذن دعنى أفهم هنا أن الشاذلى هو ذاته السؤال. مضبوط؟

من تلك اللحظة فصاعدا أصبح الصمت فى القاعة مدويا. هؤلاء نحو ألف مواطن معظمهم شباب مع ذلك يكاد الصمت فى القاعة يجعلنى أسمع أنفاسهم. والشاذلى المسئول عنه هنا هو الفريق سعد الدين الشاذلى الذى كان أنور السادات قد اختاره رئيسا لأركان حرب القوات المسلحة المصرية قبل حرب أكتوبر بستنتين، ثم أحيل إلى التقاعد فى الأسبوع الأخير من الحرب وعين سفيراً لمصر فى

بريطانيا. فجأة نشأت حملة سياسية عاصفة ضد الشاذلي. حملة بخاتم النسر. من هنا توجس مسئول نادى سبورتنج إلى يميني شراً مستظيلاً حينما استمع إلى سؤال يتعلق بسعد الشاذلي، ومن هنا فوجئ الحاضرون أيضاً بأننى أرفض السخاء والكرم الذى أراد هذا المسئول أن يغمرنى به وهو يحمينى، أو يحمى نفسه، من عواقب الرد على السؤال.

قلت للشاب السائل والألف الآخرين الحاضرين: بالنسبة لى ياأخى هناك شخصان يحملان نفس الاسم. شخصان كل منهما اسمه سعد الدين الشاذلي. هناك أولاً سعد الشاذلي. الرجل العسكرى وهناك أيضاً سعد الشاذلي رجل السياسة. وكل الجدل المثار مؤخراً حول الشاذلي يتعلق أساساً بالشخص الثانى. برجل السياسة سعد الشاذلي. فى السياسة هناك قواعد مختلفة للعب عنها فى الحرب. فى السياسة ياأخى الكريم يمكن لك أن تكون مخطئاً ومع ذلك تستمر على قيد الحياة وتستمر سياسياً أيضاً، وربما.. حتى.. يصفق لك بعض الناس. فى الحرب غير ذلك.

لا أحد يصفق لأحد فى الحرب، هناك فقط منتصر ومهزوم. إذا أخطأت فى الحرب هذا يعنى: توفاك الله. فإذا كنت قائداً، حتى ولو ضابطاً صغيراً، وأخطأت، هذا لايعنى موتك فقط لكنه يعنى أيضاً موت العشرات أو المئات أو الآلاف تحت قيادتك.

لا أريد الإطالة هنا لكننى أحب فقط أن أحدد مضمون الحديث. فى الجدل المثار عن رجل السياسة سعد الشاذلي (وهو فى حينها سفير لمصر فى لندن) تصبح المسؤولية فى صحته وخطئه هى مسئوليته منفرداً، وهذا ليس موضوعنا الآن. موضوعنا هو حرب أكتوبر. هذا يعنى أن من يعيننا هنا هو المقاتل سعد الشاذلي. هنا دعنى أقول لك أن الشاذلي بتلك الصفة هو أحد أعمدة العسكرية المصرية الحديثة ولو لم يفعل الشاذلي فى حياته سوى أنه كان رئيساً لأركان حرب القوات المسلحة المصرية التى بدأت حرب أكتوبر لأصبح هذا يكفيه، ولانستطيع أبداً أن نسحبه منها لأن السياسة تغيرت أو لأن السياسيين يختلفون.

فى اللحظة التى انتهت فيها من إجابتي غمرنى الحاضرون بانفعالهم ومودتهم وحيويتهم مستمرين فى أسئلتهم الملهمة لأكثر من ساعة بعدها. لكننى لم أتنبه إلى أن مسئول نادى الجالس إلى جوارى ركب سهم الله. تنبهت فقط وهو يوصلنى إلى سيارتى قائلاً بكلمات متقطعة مترددة. كنت أحب أن أصحبك إلى الفندق الذى حجزنا لك فيه للمبيت هذه الليلة لكنه: فندق سيسيل وسوف تجد الغرفة محجوزة وكل شئ على مايرام.

قلت له: أشرك ياأخى. فى الواقع لدى شقتى الخاصة فى الإسكندرية وسوف أبيت فيها. وفر فلوس النادى إذن واتصل بالفندق لإلغاء الحجز.

أخذت مكانى فى السيارة وبدأت تشغيل الموتور. وأخونا مسئول نادى سبورتنج ينحنى لى يسألنى هامساً: انما سيادتكم.. أقصد.. سيادتكم تقرب للشاذلي؟

قلت له ضاحكا: لست قريبا له.. ولا أعرفه بالمرة. لكن دعنى أقول لك إجابة أخرى. إن كل من حارب منذ اليوم السابع ليناويو ١٩٦٧ حتى اليوم الأخير من حرب أكتوبر هو قريبى. فهمت يا أخ؟ لقد انطلقت بالسيارة قبل أن أتأكد بالضبط هل فهم الأخ.. أو لم يفهم. غالبا لم يفهم. بعد مسافة قصيرة توقفت بالسيارة لكى أبحث فى جيوبى متأكدا.. هل المفاتيح معى أو نسيتها فى القاهرة. الحمد لله. وجدتتها. كان عبدالحليم حافظ يحتفظ معى بمفتاح الشاليه الذى يمتلكه فى العجمى، قرب الأسكندرية. كذلك كان بليغ حمدي يحتفظ معى بمفتاح شقته الخاصة بالأسكندرية. واخترت المبيت فى شقة بليغ، ليس فقط لأنها الأقرب.. ولكن لأن لدى شعورا طاغيا بالانقباض قد لأصلح معه لقيادة السيارة ليلا فى الطريق الطويل المتعرج إلى العجمى.



القاهرة. النادى الأهلى: اتصل بى حمدي الكنيسى، الآن رئيس الإذاعة، وقتها مذيع بمحطة صوت العرب. لقد فاز لتوه بعضوية مجلس إدارة النادى الأهلى وهو يريد افتتاح الموسم الثقافى بشئ له رنين. هكذا فكر فى استضافة المشير (متقاعد) محمد عبدالغنى الجمسى وزير الدفاع الأسبق لكى يتحدث عن ذكرياته عن الحرب. والآن يدعونى الكنيسى لكى أكون مشاركا فى الندوة. قلت له: سأحضر مستمعا وليس مشاركا فالجمسى يأخى هو أحد الرموز الكبرى للعسكرية المصرية فإذا كان سيحضر فعلا فهذا تشريف لك ولكل من سيحضرون..

قاطعنى حمدي الكنيسى مستدركا: تلك هى المشكلة، أن الجمسى لم يعدنى بالحضور، وعدنى فقط بأن يفكر وأخشى أنه سيفاجئنى بعد ذلك بالاعتذار عن عدم الحضور، لهذا أطلبك لكى تضم صوتك لى وتتصل بالجمسى محاولا إقناعه.. إننى أعرف أنه يقدرك بشدة.

قلت له ضاحكا: سوف أقبل منك الجملة الأخيرة على أنها مجاملة رقيقة منك أنت وليس من الجمسى. يا أخى.. الشئ الوحيد الذى يفعله الجمسى «بشدة» هو الانضباط العسكرى. مع ذلك.. هات رقم تليفونه وسأناشده الحضور فعلا عن نفسى والكثيرين الكثيرين الذين يكونون له كل تقدير واحترام.

فى التليفون أرفقنى الجمسى.. وبطلوع الروح تحمس، وبطلوع الروح ذهب إلى النادى الأهلى يقود سيارته الصغيرة. وبكل تواضع دخل إلينا فى الحجرة الجانبية التى جلسنا ننظره فيها قبل الدخول إلى قاعة الندوة. وبكل انضباط تطلع الجمسى إلى ساعته وقال معتذرا: آسف لأننى تأخرت خمس دقائق عن الموعد لم أكن أعرف أن وسط القاهرة يصبح مزدحما هكذا فى المساء.

ثم بصوته الجمهورى قال لى الجسمى أمام الحاضرين: على فكرة أنا قرأت كتابك الأخير «وعليكم السلام»، أقول لك حاجة؟ لو كنت الآن مستمرا كوزير للدفاع لكنت قررت هذا الكتاب على كل ضابط فى القوات المسلحة، من رتبة ملازم فما فوق.

لحظتها ركبني سهم الله. لقد أجمتني كلمات الجسمى المفاجئة بالمرة. أجمتني امتنانا ومسئولية وعزاء عن عمر أعطيته لقضية كبرى فى ذلك الكتاب، وإذا كانت الكلمات فى قاموس اللغة تعنى رأيا. فإن تلك الكلمات من الجسمى خصوصا تعنى جائزة «نوبل». أطمع وأجمل وأمتع من نوبل.

فى الندوة بدأ الجسمى متحفظا كالمعتاد. الكلمات تخرج من فمه بمغناطيس كالمعتاد. الوقائع والأرقام والتواريخ شديدة الدقة، كالمعتاد. لم تكن أمام الجسمى ورقة. لم يستعص عليه تاريخ. لم تعطله جغرافيا. أنه يتحدث عن وقائع حية، عن بشر، عن سلاح. عن تفاعل سلاح مع البشر واستنطاق البشر للسلاح. فى كل جملة يقولها الجسمى هناك تعظيم للمقاتلين الشهداء منهم قبل الأحياء. هذا رجل منصف يتحدث عن حرب منصفة. عن قضية ساخنة مستمرة. قضية، نحن موضوعها ماضيا وحاضرا ومستقبلا والناس تريد أن تسأل، أن تعرف المزيد، أن تناقش.

فى المناقشة بدأ الجسمى يسخن شيئا فشيئا. لقد أصبحت حرارة المشاعر فى القاعة تشحنه بالمزيد والمزيد من الحيوية والتفاعل. وإلى جواره جلست مستمعا ومستمتعا. هذا رجل لا يقول أنا. يقول «نحن». رجل لا يدخل جدلا. إنه يطرح وقائع. حرب الاستنزاف هى التى صنعت الجيش المصرى الحديث. هى - بكلمات اسرائيل - أول حرب حقيقية تهزم فيها اسرائيل. عبدالناصر يحسب له إعادة بناء القوات المسلحة المصرية بالكامل بعد ١٩٦٧. السادات يحسب له قرار حرب أكتوبر. نعم، كان اتفاقنا الرسمى مع سوريا هو التقدم فى سيناء حتى المضائق. نعم، تغير مسار الحرب بعد الاستطلاع الجوى الأمريكى لجبهتنا. نعم الثغرة كانت كبوة عابرة أساسها نقص المعلومات لكننا بسرعة أصبحنا قادرين على تصفيتها عسكريا لو تلقينا أمرا بذلك. نعم.. كادت الدفعة تفر من عينى فى أسوان بعد الحرب لحظة المساومة السياسية التى قادها هنرى كيسنجر. حائط الصواريخ يا إخوان الذى أقامته مصر غرب قناة السويس كان معجونا بدمائنا، بتضحياتنا. كل متر إلى الأمام سقط فيه شهداء. كل قفزة كانت تعنى اقترابا أكيدا من اليوم الكبير يوم العبور الخ.. الخ.. الخ.



القاهرة. نادى التوفيقية للتنس. المشير (متقاعد) محمد على فهمى. هذا رجل كبير فى ناد صغير. تلك ليست المسألة. هو عقل كبير فى قضية أكبر.

كنت أريد استيضاح بعض النقاط لمجموعة مقالات انشغلت بها لفترة، هناك فجوات وتساؤلات واستفهامات وثقافة عسكرية سميت إليها عند صاحبها: محمد على فهمى.

مرة أخرى: الرجل عزوف بشدة عن الحديث. عزوف.. لكن بمودة الأب وتواضع الخبراء. فى سياق اليوم السابع (١٩٧٣/١٩٦٧) كان بعض زملائى فى دفعتى الجامعية مجندين تحت قيادة محمد على فهمى بعضهم جنود. بعضهم أصبحوا ضباطا. الكل فى حينها اعتبروا محمد على فهمى مجرد قائد عسكري آخر.

فى الواقع إنه بعد أن قرر جمال عبدالناصر أن يصبح الدفاع الجوى قيادة مستقلة فى القوات المسلحة اختار محمد على فهمى مسئولاً أول عن تلك القيادة والصورة الوحيدة المنشورة له وقتها هى صورته وهو يقابل جمال عبدالناصر وإلى جواره الفريق محمد فوزى وزير الدفاع (الحربية وقتها). وانتشرت نكتة بين العسكريين: آه مسكين محمد على فهمى أخذ بمبة كبيرة.. أخذ الشايب. فى حينها سألت: يعنى إيه.. الشايب؟ قال حسنى زميلى فى الدراسة المجند فى الدفاع الجوى: فى الكوتشينة. من يسحب ورقة ويجد أنها «الشايب» يعنى أنه خسر اللعبة.

التصق فى ذهنى هذا التشبيه الغريب تماما، والدارج والمألوف بمنطق الشخص العادى. مع ذلك فيوما بعد يوم.. وليلة بعد ليلة.. وشهداء بعد شهداء.. بدأنا نستوعب لأول مرة ماذا يعنى بالضبط دفاع جوى. الألفاظ واضحة. دفاع وجوى. لكن بحلول الأسبوع الأخير من شهر يوليو ١٩٧٠ بدأنا ندرك أن تطورا خطيرا قد حدث. تطور سيغير مسار الصدام فى المنطقة كلها خلال ذلك اليوم السابع.. الطويل.

لقد وصلت مصر بحائطها الصاروخى الشهير إلى أقرب نقطة من قناة السويس. وفى أسبوع واحد - سمي عالميا: أسبوع تساقط الطائرات - أسقطت الصواريخ المصرية ١٧ طائرة اسرائيلية من طراز فانتوم وغيرها، ووضعت مصر أيديها على تسعة طيارين اسرائيليين أحياء. ووقف آباإيبان وزير الخارجية الاسرائيلى يتكلم بمرارة فى الكنيست الاسرائيلى قائلا: الموقف خطير، لقد بدأ سلاح الطيران الاسرائيلى يتآكل.

وعرف المصريون لأول مرة معنى وطعم أن يكون لديهم دفاع جوى. وفى أول إجازة خاطفة (١٢ ساعة بالتحديد) جاءنى حسنى زميلى المجند فى الدفاع الجوى فسألته مازحا: هل مازال رأى القديم رائجا بينكم.. من أن محمد على فهمى أخذ «الشايب»؟

انتفض حسنى بضحكة مجلجلة غابت عنه وعنا سنوات: «شايب مين ياعم؟ الظاهر الحكاية كانت تمويه فى تمويه.. ده طلع أن محمد على فهمى «عقر» بصحيح.. أخذ «الولد» وكتم عليه وفى أول فرصة بدأ يقش كل الورق على الترابيزة. قالها حسنى بتأكد وثقة وكأنه هو شخصا: محمد على فهمى.



فى حرب «اليوم السابع» لم تكن لدى المصريين — وخصوصا المقاتلين فى القوات المسلحة — أية أوهاى. هناك غابة دولية ونحن لسنا أقوى وحوشها. والوحوش الأكبر لكل منها حساباتها ومصالحها. من تلك المصالح مثلا أن تكفل الولايات المتحدة لإسرائيل، الغاصبة والعنصرية، تفوقا كاسحا فى الأسلحة على الدول العربية مجتمعة.. وخصوصا الطيران. وإسرائيل بطائرات الفانتوم الأمريكية وقتها تستطيع اختراق مصر لكى ترزع شعبها وتفقدهم أى أمل فى قواتهم المسلحة الجديدة. فى المقابل تملك مصر طائرات «المنج» السوفيتية الصنع. طائرة جيدة ولازمة وبنت حلال وتوقع العدو أيضا لكنها فى نهاية المطاف لا تتيح للطيار المصرى نفس الإمكانيات المتاحة أمريكيا لدى الطيار الإسرائيلى.. والأسوأ من ذلك.. ليس مسموحا فى الغابة الدولية أن نحصل على أية طائرة أفضل من أى مكان آخر.

فى مثل هذا الموقف هناك حلان لاثالث لهما: نقل الملف... أو نفتح الملف. فى حالة قفل الملف تصبح الخلاصة هى أن إسرائيل مستمرة فى الاحتلال ومصر فى «الطراوة».. بل... ولاحتى فى «الطراوة». مصر عليها فقط.. وبعدها كل العرب.. الانتظار إلى جوار التليفون حتى يملى عليها وزير الدفاع الإسرائيلى المطلوب منها ثمننا للهزيمة. فى حالة فتح الملف تصبح الخلاصة هى: نضرب.. وننضرب.. نفع.. فنقوم من جديد. يضربون لنا أطفالا صغارا فى بحر البقر فنضرب لهم طيارين بطياراتهم. هنا يصبح للدفاع الجوى بقيادته المستقلة حديثا محل من الإعراب. مايزال على الورق اسمه دفاع جوى. لكنه فى حرب «اليوم السابع» المصرية أصبح دفاعا جويا فى مهمة أولى فعليه أن يقطع ذراع الطيران الإسرائيلى المستأسد ضد الاطفال المصريين فى بحر البقر وغيرها. لكن تلك فقط مجرد مقدمة للمهمة الأكبر: حماية القوات المصرية العابرة لتحرير سيناء.

بكلمات أخرى.. أصبحت إسرائيل — طوال حرب «اليوم السابع» — تريد أن تقول للعسكرية المصرية. لكل حل.. مشكلة. بينما العسكريون المصريون عليهم أن يثبتوا أنه: لكل مشكلة.. حل.

بكلمات أخرى وأخرى: هناك امتحان كبير وفاصل للارادة المصرية بامتداد التاريخ. ربما يكون النموذج المناسب هنا هو الحروب الصليبية. مصر واجهت الحروب الصليبية وانتصرت فيها فى نهاية المطاف فى ظل معادلة محددة. تفوق بحرى كاسح للصليبيين.. يواجهه تفوق برى كاسح للمصريين. أو بتعبير الظاهر بيبيرس فى رسالة منه لأحد قادة الصليبيين: أنتم سلاحكم المراكب.. ونحن سلاحنا الخيول.

هذا يعيدنى إلى أحدث مجلد صدر بالغرب فى العام الماضى بعنوان «التاريخ العسكرى للعالم». تصفحت المجلد بسرعة ثم توقفت عند أحد فصوله بعنوان «الحروب العربية الإسرائيلية». الكتابة متحاملة ومنحازة ومن منظور موجه أساسا إلى القارئ الغربى. مع ذلك.. بعد الحديث عن حروب

١٩٤٨، ١٩٥٦، ١٩٦٧ يجرى تقييم الفترة التالية.. من حرب الاستنزاف إلى حرب أكتوبر ١٩٧٣ فتجئ هذه الكلمات: «هنا أيضا تعلم العالم دروسا عسكرية جديدة، في هذه المرة محور الدروس الجديدة هو: كيف تستطيع الصواريخ أرض/جو والأسلحة المضادة للدبابات القيام بإذلال وقهر أحدث الطائرات والمدركات المتاحة لإسرائيل.»

عدت مرة أخرى إلى تعبير «إذلال» و«قهر». عدت إلى عنوان المجلد، إلى أسماء مؤلفيه من الخبراء العسكريين. تأكدت مرة أخرى من البيانات. هذه ليست رواية. ليست إبداعاً من خيالات مؤلف. أن «إذلال» و«قهر» هنا تعبيران محددان تماما ومقصودان حرفيا ومن خبراء عسكريين غربيين وبعد سنوات طويلة مما جرى. كمواطن مصري هنا تصبح الترجمة من الانجليزية إلى العربية هي: محمد على فهمي.. شخصيا. أما بالنسبة لمحمد على فهمي فقاموسه الخاص ليس فيه بالرة كلمة «أنا». فيه فقط «نحن». يتكلم عن: جنودنا مهندسينا جيشنا طيراننا.. مدفعيتنا.. شهدائنا.. صواريخنا.. و.. و.. كلها تنويعات وتنويعات للعنوان الرئيسى «نحن».

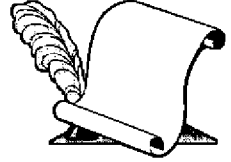


دمشق. ١٩٩٧. دعانى العماد أول مصطفى طلاس وزير الدفاع السوري إلى الغداء فى منزله. قبيل الموعد صحنى صديق سورى موهوب بسيارته إلى مكتب مصطفى طلاس فى وزارة الدفاع حتى يأخذنى الوزير من هناك فى سيارته إلى منزله، إلى الغداء. بينما نتحدث، تلقى مصطفى طلاس مكالة تليفونية عاجلة. وبدأت أطلع بعينى فى أنحاء المكتب. فجأة تسمرت عينائى عند صورة محددة ليست على حائط ولا ضمن صور أخرى. هى صورة قائمة بذاتها، فى برواز بذاته، ولشخص مصرى محدد بذاته. شخص فى رحاب الله منذ سنة ١٩٦٨.

و.. عاد الشريط فى ذهنى من جديد. شريط «اليوم السابع».



رجال اليوم السابع (٢) عبدالمعظم رياض : نهاية البداية



القاهرة - ١٩٦٨

زملاء الدفعة فى جلسة سمر بمناسبة وصول مصطفى فى إجازة من الجبهة مدتها ٢٤ ساعة. مصطفى ضابط فى الجيش الثانى وهو بيننا الأكبر سنا والأكثر مرحا. كان الأكثر مرحا. فبعد يونيو ١٩٦٧ اختفى المرح وسط بحر من السخرية. وكلما كانت السخرية أكثر قسوة، أصبحت أكثر انتشارا. إنها سخرية من العسكريين جميعا، حتى الزوجة تسخر من زوجها والأخت من شقيقها: «هو أنتم فالحين فى حاجة غير الانسحاب؟ وللخلف در؟ وبالخطوة السريعة ياجدع»؟

هذه المرة تختلف، هذه المرة يبادرنا مصطفى بالتساؤل: سمعتم آخر نكتة؟ سلخه أحدنا برد باتر كحد السيف: نعم؟ هو أنتم قاعدين فى الجبهة تحاربوا.. أو تؤلفوا نكت؟

لم يرتدع صديقنا الضابط مصطفى فاستمر متوسلا: طيب اسمعونى الأول، مرة واحد وقف فى طابور الجمعية (الاستهلاكية) يشتري كيلو سمك. وبعد الزحام والانتظار ساعتين اشترى فعلا السمك، وجرى على البيت لكى يبشر زوجته بأن الأكل النهاردة سمك. فى البيت فرحت زوجته لكنها فى نفس اللحظة سألته: أين الزيت؟ حصتنا الشهرية من زيت التمرين خلصت.

قال لها زوجها مغتاظا: تصرفى.. حاولى تستلقى شوية زيت من الجيران. خرجت الزوجة تدق أبواب الجيران، جارة وأخرى وأخرى. مفيش زيت. والعمل؟ قال لها الزوج إن عنده فكرة.. سيأخذ السمك ويذهب إلى أقرب محل يبيع السمك المقلى حتى يقلى له كيلو السمك بالفلوس.

فى الشارع وجد الزوج محل السمك المقلى مغلقا. تمر ساعة واثنان والحيرة تأكله وهو يسعى على رجليه هائما فوجد نفسه إلى جوار النيل. وبكل سخط وغضب ويأس أمسك الرجل كيلو السمك بكلتا يديه وقذف به فى نهر النيل.

غاص السمك في مياه النيل، وفي اللحظة التالية قفز السمك إلى أعلى في الهواء وهو يهتف صائحا: يعيش جمال عبدالناصر! انفجر الجميع ضاحكين.. فالنكتة تعبر عمليا عن حالة التقشف وربط الحزام السائد في البلد منذ يونيو ١٩٦٧. لكن في اللحظة التالية عاد زميلنا المشاكس يسلم مصطفى: على كده إنتم قاعدين في الجبهة فايقين ورايقين وتؤلفوا نكت.. واحنا بنسمع ونقرأ أنكم داخلين مع العدو في اشتباك ليل ونهار؟

صمت مصطفى قبل أن يقول كلماته المفحمة: لاياحبيبي اللي بنعمله في الجبهة أكثر جدا من اللي انتم بتسمعوه وتقرأوه أما هذه النكتة فالذي نقلها إلينا هو الرئيس..

تساءل الزميل المشاكس: أي رئيس؟ تقصد (العميد) عبدالنعم خليل قائدكم في الجيش الثاني؟ رد مصطفى: أقول لك الرئيس ياجدع، يعني جمال عبدالناصر.

جمال عبدالناصر يضحكي لكم نكتة عن جمال عبدالناصر؟ وانتم شفتوه فين؟ قال مصطفى: هو اللي شافنا.. لقيناه طب علينا فجأة في عربية جيب لايس قميص وبنطلون يعني لايس ملكي (مدني) ومعه محمد فوزي (وزير الحربية) وعربية جيب ثانية للحراسة. بس كده.

تذمر زميلنا المشاكس وقال معترضا: يعني إيه بس كده؟ لازم تحكي لنا بالتفصيل.. رئيس الدولة لقيتوه في وسطكم في الخط الأمامي للجبهة ومن غير موكب ولا إنذار ولا إخطار؟ لا إخطار ولا موكب. مجرد سيارتين وكلمة السر لنقطة حراسة الموقع وسؤال من الرئيس للضباط أكلتم يارجاله؟ أنا جعان وعازب أكل مع العساكر والضباط.

في أثناء الأكل - داخل الموقع - سجل الرئيس بضغ ملاحظات طلب من سكرتيه تذكيره بها عند العودة إلى القاهرة ثم بدأ الدردشة قائلا للمجموعة المحيطة به من الضباط والجنود: عازب أسمع منكم عن أحوالكم بكل صراحة.. العسكري قبل الضابط والضابط الأحداث قبل الضابط الأقدم.

وبدأ الرئيس يسمع الشكاوى. لا أحد يشكو من الجبهة، من القتال.. بالعكس الكل يتعجل يوم تحرير الأرض. لكن الكل يشكو من شيء آخر مفاجئ، النكات التي يطلقها الشعب على العسكريين وياسيادة الرئيس كل ما تنزل أجازة نخاف نمشي في الشوارع باللبس الميري «العسكري».. في الشارع نكتة وسخرية.. في بيوتنا نكتة أكثر وسخرية أوجع.

وبدأ الرئيس يطيب خاطر الجميع: معلش.. من حق الشعب يسلم جلدنا وسيستمر يسلم جلدنا إلى أن نثبت له أننا نأخذ الحرب بكل جدية وإن فيه نتائج محددة على الأرض. أنا مثلكم أسمع النكات وأتألم لكن احنا عارفين شعبنا كويس وإن شاء الله يوم النصر سيأخذكم بالأحضان..

لكن النصر أولاً. قبل النصر يهون كل شيء، وإن كان على النكات.. تبقى المسألة بسيطة، عن نفسي أسمع نكات كثيرة ولا آخذها بشكل شخصي، نكات يعبر فيها الشعب عن تضحياته في سبيلكم مثلاً.. هذه النكتة.

ثم حكى جمال عبدالناصر للجنود والضباط نكتة الأخ الذي اشترى كيلو السمك فضحك الجميع معه وتبخرت مرارتهم. وكما جاء الرئيس فجأة، انصرف فجأة. وفي اليوم التالي عرفنا أنه تركنا ليقوم بزيارة مماثلة للواء الجزائري المشارك لنا في الجبهة منذ النكسة. هكذا استرسل مصطفى.



١٩٦٨. نيويورك. مجلس الأمن. الأمم المتحدة

جلست في قاعة المجلس أتابع المناقشات مبعوثاً من جريدتي، أخبار اليوم. في الأمم المتحدة هناك جمعية عامة هي بمثابة البرلمان حيث لكل دولة - صغرت أو كبرت - صوت واحد. أما مجلس الأمن فهو بمثابة الحكومة أو السلطة التنفيذية، والمجلس مشكل من ١٥ دولة عشر منها يتم انتخابها للعضوية بالتناوب كل سنتين، أما الخمسة الباقون فهم الدول دائمة العضوية، وبذلك الصفة فإن للدولة دائمة العضوية امتيازاً خاصاً واستثنائياً اسمه حق النقض (الفيتو) فإذا وافقت ١٤ دولة مثلاً على مشروع قرار معروض على المجلس واعتضت عليه دولة واحدة دائمة العضوية وقالت «فيتو» يسقط المشروع تلقائياً.. ودون حاجة لإبداء أية أسباب.

ومنذ ١٩٦٧ على وجه الخصوص أصبحت الولايات المتحدة تمنع مجلس الأمن من إصدار أية قرارات لعاقبة إسرائيل.. من خلال استخدام حقها في النقض. في هذه المرة إسرائيل هي التي تشكو مصر إلى مجلس الأمن. تشكو من القصف المدفعي واغارات التسلسل ضد احتلالها في الضفة الشرقية لقناة السويس. في البداية قامت قوات الصاعقة المصرية بمعركة حاسمة في رأس العش. بعدها غارات محددة ومركزة بالطيران المصري. بعدها قامت مصر بإغراق المدمرة الإسرائيلية، «إيلات». والآن أصبحنا في سنة ١٩٦٨.



مجلس الأمن. نيويورك. الجلسة التالية.

المجلس يناقش ويستمتع. إسرائيل لديها من يحميها بالفيتو في مجلس الأمن ومصر أيضاً. في الواقع أن الأغلبية الطاغية في كل الأمم المتحدة تساند مصر لكن الغلبة هي الغلبة والضعيف لاهقوق له إلى أن يصبح قويا. ومصر تشق طريقها حثيثاً لتسترد قوتها. في الجلسة طلب مندوب دولة بترولية عربية الحديث، ووجدت دبلوماسياً هندياً إلى جوارى يبتسم. لم أفهم. قال لي: انتظر قليلاً.. وستفهم.

بدأ المندوب البترولى العربى يتحدث. جملتين وعشر جمل مع مصر بالكامل وضد اسرائيل بالكامل ثم استدار إلى المندوب الأمريكى فى مجلس الأمن وقال له ماخلاصته «والله ياأمريكان عيب عليكم. عيب كبير ، عيب تسندوا حتة دولة مفعوسة اسمها اسرائيل وتقفوا ضد دولة هرم زى مصر. عيب. لازم تختشوا وتبطلوا دعمكم لليهود وتشخطوا فيهم فينسخبوا. إنتم دولة كبيرة ومقامها كبير وكلمتها مسموعة من القريب والبعيد. دولة تعرف ربنا زينا وأكثر ناس بتصلوا كل يوم أحد فى الكنيسة».

ثم استدار الرجل من جديد بكرسيه ليشير بأصبعه نحو المندوب السوفيتى قائلا: «إذا كان الناس الروس دول واقفين مع مصر.. يبقى عيب عليكم ياأمريكا. بقى الروس دول.. الكفرة الشيوعيون الملحدون الداخلون جهنم بإذن الله لأنهم لايعرفون ربنا.. يقفوا مع مصر.. وانتم تقفوا مع اسرائيل؟» الخ.. الخ.



نيويورك. وكالات الأنباء. نشرات الأخبار الرئيسية فى التليفزيون. الساعة السادسة والسابعة والخبر يتكرر بتوسع واسهاب: اسرائيل قامت بغارة ناجحة ضد العمق المصرى نفذتها بقوات خاصة محمولة بطائرات الهليكوبتر. الطائرات تسللت إلى نجع حمادى فى صعيد مصر. الغارة فشلت فى تدمير قناطر النيل لكنها نجحت فى إصابة محطة كهرباء نجع حمادى. موشى دايان وزير الدفاع الاسرائيلى يصرخ مهددا: إذا لم توقف مصر حرب الاستنزاف ضدنا فورا فسوف ننقل الحرب إلى كل مرافق مصر ومدنها. لن نسمح لمصر بأن تعيد بناء قواتها المسلحة.



١٩٦٨. أسبوع آخر. نيويورك. شارع بروواى.

نزلت من الأوتوبيس أتمشى. كنت قادما من مقر الوفد المصرى لدى الأمم المتحدة حاملا فى يدى مجموعة من الصحف المصرية ترد من القاهرة كل أسبوع. تفرجت على فاترينات المحلات واحدة بعد الأخرى بحثا عن راديو صغير ورخيص ويعمل بالموجة القصيرة أشتريه حتى أستمع إلى إذاعة القاهرة. فى النهاية دخلت أحد المحلات ووضعت مجموعة الصحف على المائدة حتى أجرب مع البائع راديو بعد آخر.

بعد لحظات تطلع البائع الأمريكى إلى مجموعة الصحف وفاجأنى بلغة عربية مكسرة: آه.. أنت مصرى؟ إذن أنا أمام واحد من يهود نيويورك إياهم.. اللهم طولك ياروح. نعم مصرى.. انما خيلنا فى موضوعنا.. الراديو ده.. بكم؟

رد الرجل بابتسامة شعبانية صفراء: لايهمك السعر.. سأعمل لك تخفيضا مخصوصا يا خبيبي.. بعدها وبلا استئذان، أمسك الرجل باحدى الصحف المصرية وفردها أمامه. فى الصفحة الأولى خريطة تفسر للقارئ المصرى الثغرة الرادارية التى تسللت منها الطائرات الاسرائيلية إلى نجع حمادى.

تطلع الرجل إلى الخريطة أمامه وبكل غل وتشفى قال لى: شوف خبيبي.. دايان يعملها فيكم وانتم تضربوا لخرة؟ شوف خبيبي لازم تسمعوا الكلام مفيش فايده.. ناصر مفيش (ورفع الرجل يده اليمنى يجز بها رقبتة كما يفعل الجزار مع الذبيحة) ناصر مفيش.. جيش لمصر مفيش.. مصر ذات نفسها مفيش.. عرب مفيش.. بترول مفيش..

طيب.. عبدالناصر والجيش ومصر والعرب مفهوم.. لكن بترول؟ أى بترول؟

قال الرجل بكل ثقة وتأكد: بترول أويل.. مفيش.. شوف خبيبي.. البترول لأمرىكا واحنا وأمريكا كده.. أمريكا المخ.. واحنا العضلات. مفيش فايده.. دايان فاجأكم من العالى من فوق وانتم تضربوا لخرة فى الواطى..

خطفت الصحيفة المصرية من يد الرجل، وباقى الصحف وقلت له: والله انت اللى رجل واطى. ودايان بتاعك ده جاى له يوم. ومنعت نفسى بصعوبة من أن أبصق على الرجل لكن النوم ليلتها فارقتى حتى الفجر من حرق الدم.



نيويورك. المساء التالى. منزل سفيرنا لدى الأمم المتحدة محمد عوض القونى.

هذه دعوة عشاء من السفير محرضا لى بأن محمود رياض وزير خارجيتنا وعبدالمنعم الرفاعى وزير خارجية الأردن سيكونان موجودين.

سألنى محمود رياض: لم ألمحك أمس فى الجلسة المسائية بمجلس الأمن.. خير؟

حكيت له قصة الراديو واليهودى الصهيونى الأمريكى صاحب المحل.

تابعنى محمود رياض بهدوئه المعتاد ثم قال مبتسما: إذا أخذت أنت حكاية كهذه بعصية على هذا النحو.. فماذا أفعل أنا كلما طلب جولد بيرج مقابلتى وهو يهودى صهيونى أمريكى لايعمل سفيرا للولايات المتحدة لدى الأمم المتحدة بقدر مايعمل سفيرا لاسرائيل؟ ماذا يفعل أبناؤنا المقاتلون على ضفة قناة السويس وهم يرون الاحتلال الاسرائيلى فى مرمى النظر؟ قلت له: أنا لم أتوقف عند شماتة الرجل بقدر ما لفت نظرى شيئان. أولا حينما يتكلم عن إسرائيل - وهو يحمل الجنسية الأمريكية - يقول «نحن».. ثانيا كلامه عن البترول.

تدخل عبدالمنعم الرفاعي قائلا: يهود أمريكا، ويهود نيويورك خصوصا، فى حالة تعبئة مستمرة لحساب إسرائيل. فلنأمل أن يصبح العرب جميعا، وخصوصا عرب البترول، يمثل هذا الوعى بما يجرى. ثم إنهم هنا يركزون على مصر، وخصوصا أنها كبيرة العرب. وإذا كسروا شوكة هذا الكبير سيطيحون فينا جميعا بترول وغير بترول.

قلت لمحمود رياض والرفاعي: لماذا نجئ إلى الأمم المتحدة إذن؟ بماذا يفيدها مجلس الأمن؟ هذا تضييع للوقت..

ابتسم محمود رياض مقاطعا: بالضبط أنت بلسانك قلتها: نحن هنا فعلا من أجل تضييع الوقت. أقولها لك جادا.. يلزمنا وقت لإعادة بناء الجيش. نحن نعرف من البداية أن إسرائيل احتلت الأرض بقوة السلاح ولن تخرج منها إلا بقوة السلاح. وحتى أى قرار نأخذه من مجلس الأمن، لن ينفذ القرار نفسه.. عندك القرار ٢٤٢ مثلا فى ظروفه كان لصالحنا لكن أحسن قرار فى العالم لابد أن نقرأه بطريقتين. نقرأه مرة من موقع الضعفاء فيصبح تنفيذه على حسابنا ونقرأه مرة من موقع الأقوياء فيصبح لصالحنا.. الكلام الجاد لن يكون هنا.. فى مجلس الأمن أو غيره، الكلام الجاد ستقوله قواتنا فى ميدان القتال. الخ.. الخ..



٩ مارس. ١٩٦٨. القاهرة

خبر صاعق. فى اليوم السابق كانت مصر قد بدأت مرحلة جديدة فى حرب الاستنزاف ضد الاحتلال الاسرائيلى فى سيناء. لخمس ساعات متواصلة استمرت المدافع المصرية من غرب قناة السويس تقصف التحصينات والتشكيلات الاسرائيلية فى شرق القناة. تطور قالت عنه وكالات الأنباء إنه يعكس قفزة جديدة فى قدرات مصر العسكرية. والآن فى اليوم التالى، يجىء الرد الاسرائيلى المضاد بالقصف الشامل لمواقع الخط الامامى المصرى، فى أحد تلك المواقع على حافة قناة السويس مباشرة جاءت الإصابات محدودة: اثنان من الجرحى وشهيد واحد.. أما الشهيد فهو الفريق عبدالمنعم رياض رئيس أركان حرب القوات المسلحة المصرية. تكهرب الناس جميعا. تكهربوا مرتين. مرة لأن ارادة القتال تزداد قوة وصلابة فى لهيب المواجهة.. تضرب.. فننضرب.. فننضرب من جديد. ومرة لأن أكبر رأس فى العسكرية المحترفة المصرية الجديدة استشهد بين جنوده، وفى الموقع الامامى من الجبهة.

لم يكن عبدالمنعم رياض منذ بدايته ضابطاً عاديا. كان عاشقا للعسكرية المصرية مؤمنا بأنه لاهياة لمصر بغير جيش قوى يحميها. والجيش القوى يعنى الجيش الذى يستعد لحرب قادمة وليس لحرب سابقة. يعنى التبحر فى العلم العسكرى. فى المعرفة. فى المزيد من المعرفة. يعنى أن يطلب القائد من جنوده بقدر مايعطيه لهم. يعنى أن يصبح القائد قدوة بسلوكه وليس بكلماته. يعنى أن

نتعلم دائما، حتى من العدو. يعنى ألا تقول لجنودك، تقدموا.. ولكن تقول لهم اتبعونى. يعنى أن يتفاعل القائد مع سلاحه وجنوده ومرؤوسيه. يعنى أن يؤمن بأن مصر ليست ماضيا انتهى أمره، ولكنها مستقبل نشترك فى صنعه.

وعبدالمنعم رياض - كما عرفت فيما بعد - كان أول دفعته فى التخرج وكان تخصصه الدفاع الجوى وكان يزداد تواضعا كلما ارتفعت رتبته. وفى إحدى المرات مثلا عاد العقيد محمد على فهمى (أصبح مشيرا فيما بعد ورئيسا لأركان الحرب) من بعثة تدريبية فاتصل به اللواء - وقتها - عبدالمنعم رياض يسأله: عندك وقت أشوفك لأعرف منك الجديد الذى خرجت به؟ رد عليه محمد على فهمى بود ومحبة: دقائق يسيادة اللواء، وأكون فى مكتبك. لكن عبدالمنعم رياض قاطعه قائلا: أنا الذى سأجىء إليك ياأخى فى مكتبك لأتعلم. فالمعرفة ليس فيها عقيد ولواء. فيها معلم ومتعلم وأنا يامحمد أريد أن أتعلم.

تلك - وغيرها كثير - حكايات عرفناها عن عبدالمنعم رياض فيما بعد. أما فى تلك اللحظة - لحظة الخبر الصاق - فكل ما اكتشفناه، وبأثر رجعى، هو أن عبدالمنعم رياض بصفته رئيس أركان حرب القوات المسلحة المصرية الجديدة بعد يونيو ١٩٦٧ كان يقوم بالعشرات والعشرات من الزيارات المفاجئة للضباط والجنود فى جبهة القتال. زيارات سرية لا يعلن عنها فى حينها ولا بعدها. الآن، فى صدفة درامية، نكتشف أن الفريق عبدالمنعم رياض استشهد بين جنوده وضباطه فى الخط الأمامى على حافة قناة السويس مباشرة بينما هو يتابع على الطبيعة النتائج الفعلية ليوم جديد من حرب الاستنزاف.

فى المكاتب والبيوت، فى الأتوبيسات والشوارع، فى القرى والمدن اهتز المصريون جميعا بنوعين من المشاعر متلازمين فى خيط واحد. هناك أولا الشعور بالذنب. لقد قسونا على العسكريين كثيرا وطويلا بسخريتنا ونكاتنا لكن عبدالمنعم رياض باستشهاده هذا أعاد الاعتبار إلى العسكريين جميعا. هذا النوع الجديد من العسكريين. لقد اختفت كل النكات فى لمح البصر.

أما الشعور الآخر فهو. الغضب. أقصى درجات الغضب. فى هذه المرة أصبح الغضب قوة ايجابية تماما. كنا نصر منذ يونيو ١٩٦٧ على أن الانتصار الإسرائيلى مجرد صفحة فى كتاب لكنه ليس آخر الكتاب. وإسرائيل تريد من انتصارها أن يصبح النهاية. نهاية مصر أو حتى بداية النهاية. الآن يعصر المصريون على أن استشهاد عبدالمنعم رياض هو نهاية البداية. نهاية النظر خلفا وبداية التطلع إلى الأمام. التطلع إلى تحرير الارض. كل الأرض.



دمشق. يونيو. ١٩٩٧.

فى مكتب العماد أول (الفريق) مصطفى طلاس وزير الدفاع السورى وصورة عبدالمنعم رياض تغاجنتى فى برواز خاص يضعه مصطفى طلاس على مكتبه.

سألت وزير الدفاع السورى: لماذا تحتفظ بهذه الصورة أمامك وقد مضى على استشهاد عبدالمنعم رياض ٢٩ سنة؟

عاد مصطفى طلاس إلى مقعده وقال لى: هناك سببان، أحدهما موضوعى والآخر شخصى. أما الموضوعى فهو أن استشهاد عبدالمنعم رياض لم يكن واقعة مصرية. هو واقعة عربية. ففى حالة البلبلة والانهازامية واليأس التى حاولت اسرائيل فرضها علينا بعد ١٩٦٧ كان عبدالمنعم رياض شعاعا مضيئا فى الظلام. هذا عسكري محترف، ومتبحر فى العلم العسكرى، يتابع القتال من الخندق الأمامى وهو يعرف مسبقا أنه فى بؤرة الخطر. أقصى درجات الخطر.

مثل هذا السلوك لايفعله إلا شخص مؤمن بجنوده وضباطه. مؤمن بجيشه. ببلده. بعروبته. وبأن إرادة النصر يجب أن تبدأ من الرأس. ولو أخذتك الآن فجأة إلى مكتب رئيس أركان حرب الجيش السورى، أو حتى فى أية كلية عسكرية فى بلد عربى يحترم نفسه، فسوف تجد صورة عبدالمنعم رياض باعتباره العملة الذهبية التى يقاس عليها الأداء العسكرى المحترف.

أما السبب الشخصى - ومازلنا مع كلمات مصطفى طلاس - فهو أننى شاركت فى جنازة عبدالمنعم رياض مبعوثا من سوريا. لقد وصلت إلى القاهرة متوقعا أن تكون جنازته عسكرية تقليدية أعود بعدها فى المساء إلى دمشق.

فى القاهرة وجدت أن الرئيس جمال عبدالناصر قرر أن تصبح جنازة عبدالمنعم رياض عسكرية وشعبية معا. وأنه هو نفسه فى المقدمة. ومع أننى عشت فى القاهرة من قبل إلا أننى فى ذلك اليوم فوجئت بأن شوارع القاهرة وميادينها اتسعت فجأة لكى تضم مئات الآلاف من المصريين خرجوا بعفوية يشاركون فى الجنازة.

فى إحدى النقاط ذاب عبدالناصر من بيننا وسط الناس وهم جميعا يتدافعون إليه. كل واحد حريص على الاقتراب منه ليقول له: البقية فى حياتك ياريس، ولا يهملك ياريس، الثأر ياريس. معك ثلاثين مليون عبدالمنعم رياض ياريس.. الخ.

توقف مصطفى طلاس لحظة قبل أن يضيف: تطلعت حولى فوجدت أن طاقم الحراسة الخاص بالرئيس عبدالناصر ذاب هو الآخر وسط الناس. تطلعت من جديد فوجدت رؤساء أركان الحرب القادمين من الدول العربية للمشاركة تحولوا هم أيضا إلى مواطنين يغمرهم الانفعال. ومددت كلتا يدى يميننا وشمالا لأقول لهم. فلتتشابك أيدينا معا لنصبح طاقم حراسة للرئيس. نحيط بالرئيس. نحمل الرئيس.

صمت مصطفى طلاس من جديد، ربما لأكثر من دقيقة، ثم قال: في النساء ذهبنا إلى الرئيس جمال عبدالناصر نستأذنه في العودة إلى بلادنا واقتربت من الرئيس.. لأقول له: سيادة الرئيس.. هذا التفاعل الذي شهدناه اليوم من الشعب المصري هو أكبر عزاء لك في استشهاد عبدالمنعم رياض. قاطعني عبدالناصر قائلاً: لا ياطلاس. أنا ذهبت إلى الجنازة لمشاركة الناس وليس لتقبل العزاء في رياض. بالنسبة لي لاعزاء في رياض. العزاء الوحيد عندي، وعند عبدالمنعم رياض، وعند كل العسكريين المصريين، هو تحرير الأرض. كل الأرض. لا أتكلم هنا عن سيناء فأمرها محسوم. أتكلم عن القدس، قبل سيناء والجولان، هي القدس ياطلاس.

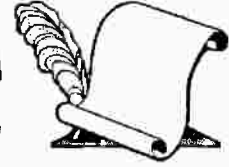
قالها عبدالناصر بوجه من الجرائيت وعينين من النيران.. هكذا حكى لي مصطفى طلاس وبعدها صحتني في سيارته إلى منزله متأخرين عن الغداء. على مائدة الغداء وأظنها الأظعم مذاقاً فيما رأيته من دمشق، كنت متفاعلاً تماماً مع مصطفى طلاس والسيدة الفاضلة زوجته.

أما مخي وعقلي الباطن، فقد استمر مسيطراً تماماً عليهما شريط اليوم السابع الطويل من ١٩٦٧ إلى ١٩٧٣. إنهم رجال اليوم السابع.





رجال اليوم السابع (٣) من غزو مصر إلى الهستيريا



١٩٧٠ . فبراير . القاهرة . فندق هيلتون.

جيمس رستون المعلق الأمريكي البارز ومدير تحرير جريدة «نيويورك تايمز» الأمريكية موجود في القاهرة لمهمة صحفية لجريدته محورها: هل صحيح أن الشعب المصري في حالة انهيار وهزيمة ويأس؟

لم يكن السؤال من فراغ. فخلال الأشهر الخمسة الأخيرة قررت إسرائيل الرد على حرب الاستنزاف المصرية في جبهة قناة السويس بنقل الحرب إلى عمق مصر.. مستخدمة في ذلك طائرات الفانتوم الأمريكية. طائرات هي الأحداث عالميا وبدأت إسرائيل تتسلمها منذ سبتمبر الماضي. كما قامت إسرائيل أيضا بإنزال قوة بر/مائية في نقطة مهجورة على ساحل البحر الأحمر جنوب مدينة السويس بمائة كيلومتر اسمها «الزعفرانة» لتبقى فيها عدة ساعات موثقة بفيلم سينمائي تسجيلي تذييعه إسرائيل بعنوان «غزو مصر». لم تكن للعملية قيمة عسكرية تذكر. لكن قيمتها الدعائية ضخمة. فالواطن الإسرائيلي سيسترد ثقته بقواته المسلحة العاجزة عن وقف حرب الاستنزاف المصرية. أما المواطن المصري فلا بد أنه سيفقد ثقته في قواته المسلحة لأنها بعد سنتين من يونيو ١٩٦٧ مازال تؤخذ على غرة.

بعد قليل استخدمت إسرائيل طائرات الفانتوم الأمريكية في الوصول بغاراتها إلى التل الكبير وأنشاص ودهشور والخانكة.. بل ومشارف القاهرة ذاتها. كلها غارات خاطفة وضد مواقع مدنية. و.. هات يا دعاية. ثم خرج موسى دايان وزير الدفاع الإسرائيلي ليقول - على بلاطة - إن هدفه من هذه الغارات الاسرائيلية بعيدا عن جبهة المواجهة الفعلية في قناة السويس هو: «أن نحافظ على معنويات الشعب الاسرائيلي ونقوض الزعامة السياسية والعسكرية في مصر».

والآن في فبراير ١٩٧٠ غارة اسرائيلية جديدة ضد مصنع مدني قرب القاهرة. توقيت الغارة محسوب ولكن ليس بدقة كافية. في المصنع ورديات تتناوب العمل. كل وردية من ألفي عامل يأتون وينصرفون في موعد محدد بقطار محدد. والغارة الاسرائيلية تستهدف إلقاء حمولة المتفجرات على

العمال في الدقائق التي تجمع بين انصراف وردية وقدم وردية أخرى. يعنى الهدف أربعة آلاف عامل.. مدنى. أقصى وأسفل أنواع الارهاب.. ضد المدنيين. لكن الله ستر والضحايا بضع عشرات. بعد ساعات من إذاعة الأخبار فى إذاعة وتليفزيون القاهرة نزل جيمس رستون الزائر من النيويورك تايمز وعدد من زملائه إلى شوارع القاهرة متوقعين حالة هلع أو ذعر أو تزامم للهروب من القاهرة إلى الريف المصرى بمثل ما حدث لسكان لندن حينما حاول الزعيم النازى الألماني هتلر اربابهم بصواريخه فوق رؤوسهم فى الحرب العالمية الثانية لكنهم فوجئوا بأنه لا ذعر، لا تزامم. انها الحياة الطبيعية بهدونها المعتاد فى القاهرة.

ثم شىء آخر. فى اليوم التالى - الجمعة - ذهب جمال عبدالناصر يؤدى الصلاة كالمعتاد، وفى سيارة مكشوفة كالمعتاد، وآلاف الناس يحيونه فى الشوارع. نفس الذين استمعوا بالأمس إلى أصوات الطائرات الاسرائيلية وهى تخرق حاجز الصوت لكى تشعرهم بوجودها.

على الورق سجل جيمس رستون حيرته من هذا الهدوء الذى واجه به الشعب المصرى القاذفات الاسرائيلية وهى على حافة القاهرة. هل السبب هو طبيعة الشعب المصرى، أو ايمانه، أو عقيدته الدينية، أو شعوره العميق بالوطنية، أو كل هذا معاً؟ هكذا تساءل جيمس رستون كتابياً أمام قرائه الأمريكين.



فبراير. مارس - ١٩٧٠

اسرائيل تلح على أمريكا، أمريكا تلح على مصر. مطلوب إلزام مصر بوقف إطلاق النار بلا قيد ولا شرط، وفورا. مصر ترفض. لا وقف لإطلاق النار إلا بقيود وبشروط. فلتخبط اسرائيل رأسها فى الحائط. القتال مستمر.



٣٠ يونيو - ١٩٧٠

غارات اسرائيلية متتابعة ويومية. فى هذه الفترة لم تعد الغارات موجهة ضد المدن والقرى المصرية بعد أن نجحت مصر فى نشر الدفعة الأولى من شبكتها الصاروخية الجديدة لحماية المدنيين. الآن تعود اسرائيل للتركيز على المواقع العسكرية المصرية فيما بين القاهرة وقناة السويس. الغارات يومية. بطائرات متزايدة وحمولات تدميرية متضاعفة أحيانا ٤٠ أو ٨٠ أو ١٥٠ طائرة فى اليوم الواحد.. والهدف فى كل مرة هو نفسه: المواقع الجديدة لشبكة الصواريخ التى تقترب بها مصر من شاطئ قناة السويس. الشهداء كثيرون والخسائر ثقيلة والنتائج بطيئة.

الآن - فى ٣٠ يونيو - بدأت النتائج المفاجئة. لقد أسقطت الصواريخ المصرية الجديدة ثمانى طائرات قاذفة مقاتلة فانتوم وسكاي هوك مع أسر خمسة طيارين أحياء. بعد يومين: مصر تسقط طائرتين أخريين. وفى اليوم التالى: طائرتين أخريين. فى اجمالى أسبوع تساقط الفانتوم سبع عشرة طائرة أسقطها المصريون ووضعو أيديهم على تسعة طيارين أحياء. كل واحد من هؤلاء تكلف تدريبه - فقط - مليون دولار.

لكن: ماذا عن «غزو مصر»؟ ألم يكن هو شعار اسرائيل المرفوع قبل تسعة أشهر؟ ماذا عن التليفون الذى يجلس إلى جواره وزير الدفاع الاسرائيلى منذ يونيو ١٩٦٧ فى انتظار مكالمة من مصر؟ أو بالقليل من الملك حسين فى الأردن باعتباره مع الأقوى غالباً؟ اسكت هس. اسرائيل سرها فى البير. والبير اسمه أمريكا. وأمريكا هى بابا وماما وفريد شوقى. ومن وقت لآخر استيفان روستى و: نشنت يا فالج؟



٩ أغسطس - ١٩٧٠. الصباح. القاهرة اجتماع سرى للغاية.

هذا مقر قيادة الدفاع الجوى والاجتماع العاجل هو بذاته نموذج لما يجرى فى قيادات الطيران والبحرية والجيشين الميدانيين فى الجبهة و... و...

ضباط وخرائط ولوحات. ثم دخل اللواء محمد على فهمى قائد الدفاع الجوى متأملاً وجوه مساعديه وكبار ضباطه. بعضهم لم ينم بالمرّة خلال الثمانى والأربعين ساعة الأخيرة. كلهم تختلط فى وجوههم ملامح الإعياء مع علامات الانشراح. هذا طبيعى فالأيام الأخيرة كانت أيامهم. فى الواقع إنه منذ ٣٠ يونيو ١٩٧٠ وهؤلاء الرجال يفاجئون اسرائيل فى كل مرة يقفزون بحائظهم الصاروخى إلى الأمام أكثر وأكثر باتجاه قناة السويس. ولم يعد هناك حديث للعالم كله سوى تلك الصواريخ بعد أن خرج الساسة الاسرائيليون يتصايحون علناً فى حالة من الهستيريا. حتى الولايات المتحدة قالت لإسحاق رابين سفير اسرائيل فى واشنطن: يلزمنا وقت لكى نساعدكم بأنواع جديدة من الأسلحة تواجهون بها حائط الصواريخ المصرى هذا.

لقد قبلت مصر واسرائيل بمبادرة أمريكية لوقف إطلاق النار والبدء فى مفاوضات غير مباشرة من خلال ممثل السكرتير العام للأمم المتحدة هدفها تنفيذ قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ الملزم لإسرائيل بالانسحاب من الأراضى العربية التى احتلتها فى غزوة يونيو. واسرائيل تذعن بغصة فى حلقومها. سيكون هناك وقف لإطلاق النار على الجبهة المصرية، وهذا ما كانت تريده اسرائيل طوال السنوات الثلاث السابقة. لكن هذا الوقف مشروط بمدة - ٣ شهور تحديداً - ومشروط بدخول إسرائيل فوراً فى مفاوضات الأمم المتحدة بشأن الانسحاب.

لقد سرى وقف إطلاق النار اعتباراً من الساعة الأولى من صباح ٨ أغسطس. وقبل الموعد بدقائق نجحت مصر في القفز سرا وليلاً بالجزء الأخير من حائطها الصاروخي إلى حافة قناة السويس. هذا هو سر الهلوسة الاسرائيلية لأن المعنى العسكري واضح. فيحائط الصواريخ هذا ضمنت مصر الحماية الكاملة للقوات المسلحة المصرية عند عبورها القناة في طريقها إلى تحرير الأرض. وطوال الأسابيع التالية سوف تتلاحق صرخات اسرائيل مطالبة بسحب الصواريخ المصرية هذه حتى تشعر هي بالأمان. وأمريكا تقول لاسرائيل: نحن أيضاً نتمنى هذا مثلكم. لكن ليس لدينا - بعد - دليل على أن مصر فعلت ذلك بعد موعد سريان وقف إطلاق النار. الآن يجتمع اللواء محمد على فهمي بكبار ضباطه. بالطبع هناك تهنئة وترحم على أرواح شهداء كانوا جزءاً غالياً من الثمن الذي دفعته مصر لإقامة حائطها الصاروخي الجديد، هو في لحظتها أصبح أكبر حائط صاروخي في العالم حسب وصف وكالات الأنباء. لكن محمد على فهمي لم يستطرد كثيراً في التهنية. لقد استدار إلى أحد معاونيه وطلب منه أن يتقدم إلى الخريطة العسكرية التي تتوسط قاعة الاجتماع ويشرح طبوغرافية سيناء من منظور الدفاع الجوي. ما هي العوائق داخل سيناء؟ ما هي المواقع؟ من أين سيجيء العدو، بالطيران أو بالدفعية؟ كيف نناوره؟ نفاجئه؟ تلك وغيرها أسئلة محددة تتطلب دراسات محددة وإجابات واحتياجات محددة مطلوب إنجازها خلال ثلاثة أشهر.

ثم اختتم اللواء محمد على فهمي الاجتماع قائلاً لضباطه: «إن التفوق الجوي الاسرائيلي حقيقة يجب أن نعترف بها. لكن ينبغي أيضاً ألا ننسى أننا استطعنا تحدى هذا التفوق مرات عديدة خلال حرب الاستنزاف. بل واستطعنا تحقيق بعض الانتصارات عليه. وفي معركتنا المقبلة لن يقتصر دورنا على مجرد تحدى هذا التفوق، بل سيكون علينا أن نهزم هذا التفوق ونحطم الأسطورة». الكلمات محددة. فيها ثقة لكن بلا غرور. فيها تأكيد لكن بلا أوهام. فيها تواضع لكن بعلم ومعرفة وقدرة على تحقيق النصر.



١٩٧٠. الاسكندرية. أغسطس.

الدكتور محمد حسن الزيات سفير مصر لدى الأمم المتحدة جرى استدعاؤه لمقابلة الرئيس جمال عبدالناصر في الاسكندرية. في الطريق إلى الاجتماع أعد الزيات في رأسه عشرات من الأسئلة. إنه سيعود خلال أيام إلى مقر عمله في نيويورك ليمثل مصر في مفاوضات الأمم المتحدة لتنفيذ المبادرة الأمريكية وقرار مجلس الأمن بشأن الانسحاب الاسرائيلي.

في الاجتماع بدأ جمال عبدالناصر يشرح الموقف للدكتور الزيات. بعد دقائق أخرج الزيات علبة سجائره. لكن أين الكبريت؟ نهض الرئيس عبدالناصر من كرسيه وخرج من الحجرة ثم عاد ومعه

علبة كبريت. الزيات فوجيء فعدل عن السجارة لكن الرئيس كان قد أشعل له عود الكبريت قائلا له: احتفظ بالكبريت يادكتور فأنا امتنعت عن التدخين بتعليمات من الأطباء.

ثم دخل الرئيس في الموضوع مباشرة: يادكتور هناك مفاوضات سيقوم بها السفير يارنج - ممثل الأمم المتحدة - معك في نيويورك ومع مندوب اسرائيل. المفاوضات أساسها كما تعرف هو مبادرة أمريكية لتنفيذ القرار قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢. عندك صورة من المبادرة وملفها الكامل جهزه لك محمود رياض (وزير الخارجية). إذا جاءت لنا المبادرة بحقوقنا في المدة المقررة أهلا وسهلا. لكن دعني أنبهك من الآن إلى مسألة أساسية. لا تفاجأ إذا فشلت هذه المبادرة في النهاية. في الواقع إن توقعاتي بنجاحها لا تزيد على نصف بالمائة. لكننا قبلناها لأننا في حاجة إلى الأشهر الثلاثة القادمة.

قال الدكتور الزيات: سيادة الرئيس.. لا تؤاخذني إذا طلبت منك إجابة تلزمني.. ليس لأنني سأذهب إلى نيويورك وأقولها إلى السفير يارنج.. أو أي مخلوق. فقط لمجرد أنني سأكون في نيويورك على مسافة آلاف الأميال ولا أريد العودة إليك أو الوزير محمود رياض قبل كل صغيرة وكبيرة. سيادة الرئيس: ما الحد الأدنى الذي سنقبله إذا كانت هذه المبادرة جادة فعلا؟

رد جمال عبدالناصر بحسم: القدس. هذا هو حدنا الأدنى يادكتور.

فيما بعد.. روى لي الدكتور الزيات تلك الواقعة وهو يضيف مبتسما: في الواقع أنه بتلك الإجابة من الرئيس تبخرت من ذهني عشرات الأسئلة التي كنت قد رتبته في عقلي. فبإجابته تلك اختصر الرئيس كل الأسئلة وحدد محطة الوصول. لكنني أيضا خرجت بنتيجة أخرى وهي أن الرئيس عبدالناصر لا يضع مخه مطلقا في هذه المبادرة. مخه كله في القوات المسلحة وفي تحرير الأرض بقوة المحاربين وليس بفصاحة الدبلوماسيين من أمثالي.



أغسطس . سبتمبر . واشنطنون. القاهرة. واشنطنون

الهيستيريا الإسرائيلية من الصواريخ المصرية تتزايد. مع أن وقف إطلاق النار مستقر منذ تاريخه إلى الآن إلا أن اسرائيل تمطر أمريكا بالشكاوى. ما أدخلته مصر إلى «منطقة التسكين» - أي ٣٠ كيلو مترا من قناة السويس - ثلاث كتائب صواريخ. لا يمكن أن نتفاوض وتلك الصواريخ في رأسنا. لا.. لا.. مصر أدخلت عشر كتائب صواريخ. ياخير أسود؟ ما أدخلته مصر ١٤ كتيبة صواريخ. هل تصدق أمريكا أن مصر تفعل ذلك في ليلة واحدة قبل وقف إطلاق النار؟ إذن.. ماذا ستفعله بنا مصر في باقي الليالي. الحقونا بحل فورا.. والا.. على مصر أن تسحب الصواريخ.

أمريكا تبلغ مصر. ووزير الخارجية محمود رياض يبلغ المندوب الأمريكي: نحن لم نخرق وقف إطلاق النار. وسواء تعلق الأمر بكتيبة صواريخ واحدة أو بعشر أو بأكثر أو بأقل.. لن نسحب صاروخا واحدا.. وعلى المتضرر أن يخط رأسه في الحائط.

ولم يفهم المندوب الأمريكي يومها - دونالد بيرجس - أي حائط ينصح محمود رياض اسرائيل بأن تخط رأسها فيه: حائط المبكى.. أوحائط الصواريخ؟



٢٨ سبتمبر ١٩٧٠. بعد أحداث مفاجئة - ومريبة - في الأردن بين الملك حسين وياسر عرفات، ودماء تسيل، وقمة عربية في القاهرة لوقف المذبحة ونجاح القمة، ومغادرة أمير الكويت القاهرة عائدا إلى بلاده باعتباره آخر الضيوف المغادرين الذين يودعهم جمال عبدالناصر في المطار بنفسه كالأخريين أصبح الخبر المدوي عالميا هو: رحيل عبدالناصر. أسبوع واثان من الاجراءات وتولى أنور السادات رئاسة الجمهورية.



١٥ أكتوبر ١٩٧٠. فندق «الدورف استوريا». نيويورك.

هذا ولیم روجرز وزير الخارجية الأمريكي موجود في نيويورك لحضور الدورة السنوية العادية للجمعية العامة للأمم المتحدة. وبمناسبة وجود محمود رياض وزير خارجية مصر أيضا فقد دعاه روجرز إلى الاجتماع به في جناحه الخاص بالفندق. بعد دقائق من بدء الاجتماع دق جرس التليفون. رفع روجرز السماعة ليجد أن المتحدث اليه هو الرئيس (الأمريكي) ريتشارد نيكسون.

روجرز يرد: نعم ياسيادة الرئيس. بالضبط أنا الآن مجتمع مع مستر رياض.

قال نيكسون: أرجو أن تبلغه عزائي لوفاة الرئيس جمال عبدالناصر. إنني أعتز بمعرفتي بهذا الرجل العظيم والذي تبادلت معه الكثير من الرسائل والأحاديث. أرجو تكرار عزائي للوزير المصري وللشعب المصري. لكن.. اسمع.. دعني أتحدث إلى الوزير رياض شخصيا.

ناول روجرز السماعة لمحمود رياض فبادره نيكسون بتكرار العزاء مؤكدا مرة أخرى مدى الاحترام الذي كان يحتفظ به للرئيس عبدالناصر ومضيفا: لولا أنني استلمت الرئاسة والعلاقات الدبلوماسية مقطوعة بين بلدينا لكنت جئت إلى القاهرة بنفسى للمشاركة في الجنازة. لقد تابعتها على شاشات التليفزيون ولم افاجأ بأنها أضخم جنازة شاهدها على الإطلاق. مرة أخرى أكرر لك وللشعب المصري عزائي.

انتهت المكالمة وبدأ حديث العمل. مستر روجرز يبلغ محمود رياض من جديد بالشكاوى الإسرائيلية من حائط الصواريخ المصري. في هذه المرة يضيف: لدينا بعض الصور التقطناها نحن

جوا بوسائلنا الخاصة ترجح دخول بعض الصواريخ إلى مواقعها بعد سريان وقف إطلاق النار.. وأنا على استعداد لتقديم تلك الصور إليكم.

قاطعته محمود رياض قائلا: لست على استعداد لتبادل الصور والالتهامات. ويمكنني أن أكرر لك أننا لم نخرق ترتيبات وقف إطلاق النار ولم نحرك الصواريخ. على العكس.. لدينا نحن أيضا معلوماتنا الخاصة بأن إسرائيل أقامت تحصينات جديدة في سيناء بعد سريان وقف إطلاق النار.

أشار روجرز من طرف خفي إلى أنه من الممكن تهدة إسرائيل بسحب صاروخ أو اثنين وبذلك يعود يارنج - ممثل الأمم المتحدة - إلى مهمته.

قال محمود رياض: مستر روجرز.. قلناها لكم في أغسطس وقلناها لكم في سبتمبر. والآن أقولها لكم من جديد.. نحن لن نسحب صاروخا واحدا. أما عن الأمم المتحدة فكلانا أكثر معرفة بالحقائق. كل الأمم المتحدة معنا، وكلها تقر بأن إسرائيل قوة احتلال عليها بالانسحاب الكامل من كل شبر أرض عربية.. بغير لف ولا دوران.



١٩٧١. القاهرة . همسات وأحاديث.

هناك جدل يعود إلى السطح من جديد محوره هذا السؤال: هل نحارب بما لدينا من أسلحة.. أو ننتظر الحصول على المزيد منها؟ في الواقع إنه سؤال تقليدي كلاسيكي له دائما اجابتان. هناك جنرالات يصرون على المزيد من الأسلحة حتى ولو كانت ربما لا تأتي أبدا. وهناك جنرالات آخرون يرفضون من الأصل الدخول في هذه الدائرة المفرغة. فحتى لو حصلنا على أسلحة اضافية.. سيحصل العدو أيضا على أسلحة اضافية مضادة. وبامتداد التاريخ كله لم يحدث أبدا أن بدأ جنرال حربا وهو راض تماما عن أسلحته أو لا يتمنى المزيد منها.



١٩٧٢. الربيع. مطار القاهرة الدولي

اللواء محمد عبدالغنى الجمسى رئيس هيئة عمليات القوات المسلحة انتهى لتوه من توديع أحد الرسميين الأجانب. فجأة وجد أمامه اللواء أحمد اسماعيل رئيس المخابرات العامة. سلامات وتحيات ومجاملات.. فالجمسى عمل مع أحمد اسماعيل من قبل في مواقع عسكرية عديدة وهناك مودة متبادلة.

والآن ينتحى أحمد اسماعيل بالجمسى جانبا ويسأله هامسا: قل لى يا جمسى.. متى ستحاربون؟

فكر الجسمى لحظة قبل أن يرد: سنحارب حينما تصبح أنت وزيرا للحربية وقائدا عاما للقوات المسلحة.

الجسمى حوِط. صحيح الصداقة عميقة والود متبادل لكن أحمد اسماعيل ليس عابر سبيل. إنه رئيس المخابرات العامة. وبذلك الصفة لا بد أن تكون الصورة واضحة عنده كما هي عند الجسمى. لازم يعنى نتكلم فى السياسة؟



١٩٧٢. أكتوبر. اجتماع غير معلن. القاهرة

أنور السادات يجتمع بكبار قيادات القوات المسلحة المصرية. الحرب أصلا قرار سياسى والآن. القرار هو: نحارب بالامكانيات المتاحة.

بعدها بيومين أصبح أحمد اسماعيل وزيرا للحربية وقائدا عاما للقوات المسلحة. الآن بدأت عقارب الساعة تتحرك بعد طول توقف. الآن يعود «رجال اليوم السابع» إلى الاندماج فيما أعدوا من أجله وتدربوا عليه وحفظوه عن ظهر قلب وآمنوا منذ الدقيقة الأولى بأنه الخيار الوحيد.



رجال اليوم السابع (٤) الحق والقوة : تلك هى المسألة !



هذه عمارة من سبعة طوابق. عرض وطول وارتفاع ، سبعة طوابق. ولسبب قاهر مطلوب نفس هذه العمارة بالكامل لتصبح بمستوى الأرض. كيف يحدث هذا؟ بأى نوع من المواد المتفجرة؟ وخلال أى مهلة زمنية؟

لكنها ليست مجرد عمارة. هى بارتفاع سبعة طوابق - صحيح - لكنها لاتضم أى فراغات ولا حتى أعمدة أو سقوف بحيث لو جرى نفس أسفلها ينهار عاليها. أبدا. هى مكبوسة كبسا بالرمال والأتربة. وإزالة العمارة يجب أن يبدأ من أعلى ، وبالتدرج. مرة أخرى أى نوع من المواد المتفجرة وخلال أى مهلة زمنية؟

ثم مرة ثالثة: هذه ليست عمارة عادية ولا نسفها يجرى على الراحة: هناك طائرات فوق الرؤوس لمنع الاقتراب من العمارة وقذائف مدفعية من بعيد مسلطة على كل من يقترب منها. والفشل فى إنجاز الهدف هذا لايعنى فقط موت المقربين من العمارة ولا القريبين منها لكنه يعنى أيضا إصابة مليون مواطن بالشلل.

ويعنى أخيرا استمرار احتلال اسرائيل للارض المصرية.

تلك كانت واحدة من مئات المعضلات التى واجهها المخططون المصريون من القوات المسلحة المصرية بعد الهزيمة المروعة فى ١٩٦٧. لقد أصبحت قناة السويس ماتعا مائيا حصينا يفصل بين الاحتلال الإسرائيلى وبين القوات المصرية الجديدة. قناة طولها ١٦٠ كيلومتراً وبعرض ٢٠٠ متر. وعلى مسافات متباعدة أقامت إسرائيل سلسلة من التحصينات القوية على الضفة الشرقية لقناة السويس. وإذا كانت حرب الاستنزاف المصرية (١٩٦٧ / ١٩٧٠) قد دمرت «خط بارليف» هذا فى معظمه ، إلا أن اسرائيل سرعان ما أعادت بناءه اعتباراً من سنة ١٩٧١.

لكن فيما بين تلك النقاط الحصينة أقامت اسرائيل شيئاً آخر. فعلى حافة القناة مباشرة أقامت حائطا مرتفعا من الرمال بارتفاع عشرين مترا كوقاية إضافية. وقاية ضد رؤية القناصين المصريين على الضفة الغربية.

والأهم من ذلك وقاية ضد أى محاولة مصرية للعبور إلى الشرق بمدركات ودبابات. الافراد، ممكن التعامل معهم لكن العبور بمدركات ودبابات؟ مستحيل.

لكن «رجال اليوم السابع» كانوا قد شطبوا من قاموسهم مبكرا كلمة مستحيل. ومع أن حرب الاستنزاف كانت لها جبهة قتال محددة هي خط قناة السويس إلا أن المواجهة سرعان ما أصبح لها بمرور الوقت جبهات شتى. هناك مثلا غارات اسرائيل فى العمق المصرى بهدف ترويع المدنيين فى قراهم ومدنهم. هناك أيضا توحش يومى ضد كل محاولة تتقدم بها مصر بحائطها الصاروخى إلى الأمام. إلى قناة السويس.

لكن قناة السويس ذاتها أصبحت عقبة كبرى. فى نهاية المطاف هدف مصر من كل ماتفعله هو إعداد قواتها المسلحة للحظة عبور القناة إلى الشرق بدءا من تحرير الأرض. فى تلك اللحظة ليس المطلوب عبور أفراد أو مقاتلين فقط. مطلوب عبور مدرعات ومدافع ثقيلة ودبابات. إنن المطلوب إقامة كبار - جسور مائية فيما بين ضفتى قناة السويس - ثقيلة تتحمل عبور مركبات ثقيلة.

وطوال سنة ١٩٦٩ بدأت مصر سرا فى إجراء تجارب لإقامة هذا النوع من الكبارى. وحتى تكون التجارب أقرب إلى الطبيعية فقد اختيرت مناطق محددة على نهر النيل لإجراء التجارب فيها للوصول إلى الإجابات المطلوبة: أى نوع من الكبارى نحتاج إليه؟ كم من الوقت يستغرق تركيبه؟ كم معدل الحمولات التى يمكن أن ينقلها خلال الساعة؟ الخ.

لكن هذا ليس كل شئ. فبافتراض أن الكوبرى أقيم والدبابات عبرت فوقه فإنها سوف تجد على الجانب الآخر حائطا سميكا أصما مرتفعا من الرمال تغوص فيه وتندفن داخله إن لم يكن بفعل القذائف الاسرائيلية فهو بفعل الرمال ذاتها، وهذا هو الهدف الأصلى من إقامة هذا الحائط الرملى السميك الكبير المرتفع بامتداد قناة السويس. كيف يمكن إنن فتح ثغرة فى هذا الحائط الرملى بعرض يكفى لعبور الدبابات والمدافع الثقيلة؟

أصبح هذا هو السؤال شديد الإلحاح والسرية معا، الذى يواجه «رجال اليوم السابع». لقد جربوا الديناميت والمواد الأخرى شديدة الانفجار والتجريف اليدوى والقذف المدفعى لكن بلا حل يناسب قصر الوقت المتاح لحظة العبور والتعرض المستمر لقذائف العدو.

فى النهاية خرجت فكرة: لماذا لانجرب القذف بالمياه؟

هى فكرة استثنائية بقدر بساطتها. لكن الفكرة نشأت من مشروع آخر بدا للعالم فى أوله مشروعا استثنائيا قبل أن يحوله المصريون إلى حقيقة. إنه السد العالى. فخلال العمل لإقامة السد العالى جنوب اسوان استخدمت ظلمبات ضخمة من اجل تذويب الرمال جنبا إلى جنب مع استخدام الفرقعات لتفجير الصخور. وبمجرد أن اشار ضابط مهندس إلى تلك التجربة، حيث كان هو نفسه منتدبا فى حينها للعمل فى السد العالى، بدأت الاتصالات بسرعة وسرية فى أعلى المستويات.

وخلال شهر يوليو ١٩٦٩ تلقى المهندس صدقي سليمان، رجل السد العالي الشهير.. تعليمات من جمال عبدالناصر بأن ينفق فورا مع محمد فوزى وزير الحربية لعمل تجارب فعلية اختبارا للفكرة فى أرض الواقع. واختير موقع محدد فى منطقة اسمها الخطاطبة لى يقيم فيه سلاح المهندسين بالقوات المسلحة مايشبه خط بارليف والساتر الرملى فى سيناء. وجئ بالمعدات المطلوبة من أسوان بالسكة الحديدية على وجه السرعة وجلس مندوبو سلاح المهندسين ووزارتى الرى والسد العالي يتابعون التجربة الأولى.

نعم. الفكرة مذهشة وتنفيذها استغرق ساعة وربعاً من أجل عمل فتحة كافية تسمح بمرور دبابة.. لكن التعليمات جاءت بسرعة: كرروا التجربة باستخدام كبار حقيقية على نهر النيل ومدرعات ودبابات حقيقية.

هكذا تكررت التجربة فى ٢١ أغسطس ١٩٦٩ بحضور المهندس صدقي سليمان، ولجنة من القوات المسلحة برئاسة اللواء جمال محمد على مدير سلاح المهندسين زائد مجموعة من مشاركين آخرين من القوات المسلحة ووزارتى الرى والسد العالي.

النجاح أكبر. والوقت جرى اختصاره إلى ٥٥ دقيقة. لكن يجب استبدال بالموتورات الضخمة ومولداتها الكهربائية نوع خاص من الطلمبات الكهربائية يكون أخف وزناً وأسهل نقلاً عبر قناة السويس. بعد بحث ودراسة، فى نفس الموقع ومن خلال خبرات مهندسى الرى والسد العالي، تبين أن تلك الطلمبات يمكن شراؤها من أحد مصدرين: ألمانيا (الغربية) أو بريطانيا. وبشرط عدم الإيحاء مطلقاً بالمهمة الحقيقية لتلك الطلمبات. لقد ابتكرها مصمموها لهدف مدنى محدد والآن يريد «رجال اليوم السابع» استخدامها فى هدف آخر يحولها إلى مدفعية مائية، أو قذائف مائية تسحب المياه من قناة السويس ذاتها لى تسلطها بقوة على الحائط الرملى المرتفع فى الضفة الشرقية لقناة السويس فتذوب الرمال أمام قوة المدافع وتتساقط إلى قناة السويس.

يومها التقت المهندس صدقي سليمان إلى مساعده المهندس محب أبو قمر المسئول عن إدارة التجريف الهيدروليكي بالسد العالي وأشار نحو مصور سينمائى جاء به قائلاً: الآن عليك بأخذ الفيلم السينمائى من المصور وتحميظه فوراً ثم الذهاب به إلى وزير الحربية.. فالرئيس جمال عبدالناصر لن ينام الليلة قبل أن يشاهد هذا الفيلم بنفسه.

من لحظتها أصبحت فكرة مدافع المياه هذه واحدة من أسرار الدولة العليا المحظور تداولها أو الحديث عنها إلا فى الدائرة الضيقة تماماً بين رئيس الجمهورية ومدير سلاح المهندسين. إن تجارب إقامة كبارى العبور على نهر النيل ستستمر. لكن فكرة «مدافع المياه» اسكت هس. الحرب أسرار وأرواح المقاتلين أمانة.



١٩٧٣. الحرب. ٦ أكتوبر

مصر وسوريا فى حالة حرب ضد الاحتلال الاسرائيلى من خلال جبهتين. الحرب قرار سياسى.

والسياسة لاتدور فى فراغ. هناك مليون مواطن تحت السلاح فى مصر. هناك شعب تحمل وضحي من أجل هؤلاء. هناك غليان فعلى انتظارا لخبر محدد. تحرير الأرض بقوة السلاح.

مع القرار خرجت آلاف التفاصيل. فى الجبهة المصرية مثلاً للحرب عنوان معروف هو قناة السويس وسيناء.

لكن «رجال اليوم السابع» لم يكونوا فقط الطيارين الذين يريدون شفاء غلهم بضربة جوية أولى ولا فقط عشرات الآلاف من رجال المدفعية الذين سيمطرون المواقع الاسرائيلية بقذائفهم ولا فقط خبراء الصواريخ والدفاع الجوى الملتزمون بصمت كامل حتى تبدأ مهمتهم فى حماية القوات العابرة إلى سيناء، ولا فقط فرق المشاة والمدركات التى تلاحم رجالها مع أسلحتهم طوال اليوم السابع الطويل.

هناك أيضا غواصات مصرية ومدمرات أخذت مكانها مبكرا فى باب المندب، المدخل الجنوبي للبحر الأحمر، لمنع وصول شحنات البترول إلى إسرائيل. هناك كذلك طائرات ميراج فى ليبيا بطيارين مصريين عليها حفظوها وحفظتهم. هناك طيارون مصريون تتابع تخرجهم فى كلية الطيران التى كان قد تم نقلها إلى السودان منذ سنة ١٩٧٠ حماية لهم من الغارات الإسرائيلية المحتملة. هناك طيارات مدنية يجب ابعادها عن مصر مسبقا بشكل لايلفت النظر تحسبا للغدر الاسرائيلى المعتاد. هناك حزام من البحرية المصرية فى عرض البحر الأبيض المتوسط تحسبا لأى محاولة من العدو للتسلل إلى الأسكندرية وهى فى حينها الميناء الرئيسى لامدادات مواد التموين وهناك رصيد مبكر من الامدادات الغذائية ذاتها. وهناك وهناك..

ثم: سلاح المهندسين بالقوات المسلحة المصرية والمكلف الآن بالمهمة الافتتاحية الخطيرة. مهمة إقامة الكبارى العائمة بعرض قناة السويس وفتح الثغرات فى الحائط الرملى المرتفع فى ضفتها الشرقية. هناك جيشان ميدانيان فى ساحة القناة. الجيش الثانى يتولى مسئولية النصف الشمالى من جبهة قناة السويس حتى الإسماعيلية ثم الجيش الثالث المسئول عن النصف الجنوبى. مع كل جيش أسلحته وامداداته. وكل جيش فى انتظار قيام المهندسين بمهمتهم العاجلة.

كانت المخابرات الاسرائيلية تقدر أن المهندسين المصريين يلزمهم ٤٨ ساعة على الأقل لعمل ثغرات فى الحائط الرملى على الضفة الشرقية. الآن يعملها المهندسون المصريون فى ساعتين. وقدرت المخابرات الاسرائيلية أيضا أن عدد الثغرات المحتملة سيكون محدودا بالضرورة. الآن

تفاجأ اسرائيل بإقامة ٨٢ ثغرة في الحائط الرملى، كل منها بعرض سبعة إلى عشرة أمتار. وكل منها استلزم أولا إزالة ١٥٠٠ متر مكعب من الرمال واسقاطها فى مياه القناة. لقد عبر «رجال اليوم السابع» أولا بمعداتهم البر/مائية لكى يخترقوا تلك الثغرات بسرعة إلى سيناء. بعدها المدرعات والدبابات من خلال الكبارى العائمة. بعدهم قوات المشاة. وقبل منتصف الليل - مازلنا فى ٦ أكتوبر - أصبح لمصر خمسون معدية للدبابات بامتداد قناة السويس.

فى أحد الوجوه كان هذا انجازا أكبر مما توقعه المخططون المصريون. وفى وجه آخر كان انجازا أقل. فبينما كانت الكبارى فى منطقة الجيش الثانى قد تمت بسرعة وتعمل بكفاءة قبل منتصف الليل، إلا أن نفس النتيجة لم تتحقق فى منطقة الجيش الثالث إلا فى التاسعة من صباح اليوم القالى. والسبب: أن الحائط الرملى هنا كان أقل استجابة لعملية التآكل والتجريف التى تقوم بها قذائف المياه أو المدافع المائية، التى يستخدمها المصريون هنا فيما لم تصمم من أجله.

كانت اسرائيل تعرف، مثل مايعرف «رجال اليوم السابع» أن الامتحان الأساسى هو عبور المدرعات والدبابات المصرية إلى سيناء. من هنا أصبح الصراع فى اليوم الأول يدور تحديدا حول هذه الكبارى العائمة والثغرات التالية لها فى الحائط الرملى بالضفة الشرقية لقناة السويس.

من هنا أصبح تركيز اسرائيل الأساسى خلال اليوم الأول من الحرب هو هذه الكبارى العائمة تحديدا. المهندسون المصريون منهمكون فى إقامة الكبارى وسلاح الطيران الاسرائيلى، وهو وجه التفوق المحورى الذى تملكه اسرائيل ضد مصر بطائرات أمريكية متطورة، يركز كل قصفه على تلك الكبارى حتى لا تكتمل أبدا. فى المقابل. عاد «حائط الصواريخ» المصرى الشهير الذى كانت اسرائيل قد ولولت واستشاطت رعبا منه منذ يونيو ١٩٧٠ - نتذكر؟ - عاد ليمارس المهمة الأساسية التى أقيم من أجلها: مهمة حماية القوات المسلحة المصرية لحظة عبورها قناة السويس متقدمة لتحرير سيناء بقوة السلاح.

خلال الضربة الجوية المركزة الأولى التى بدأت بها مصر الحرب كان سلاح الصواريخ المصرى وكل الدفاع الجوى مقيدا بالكامل فى صمت محسوب. هذا طبيعى. فقط بعد أن تعود جميع الطائرات المصرية إلى قواعد سالة تصبح حرية العمل متاحة لضباط حائط الصواريخ بالعمل لاسقاط أى هدف معاد وبلا رحمة. وفعلًا جرى التصرف.. بلا رحمة. الحرب حرب. إما قاتل أو قتيلى. وفى تلك اللحظة أصبح حائط الصواريخ هو القاتل. من بين كل خمس طائرات اسرائيلية جاءت تقذف الكبارى العائمة التى يقيمها المهندسون المصريون، كانت الصواريخ المصرية تصيب أربعة.

فى المحصلة: خلال ساعتين اثنتين فى هذا اليوم الأول ٦ أكتوبر أسقطت الصواريخ المصرية ٣٨ طائرة اسرائيلية. وقبل أن يحل المساء كانت الأجهزة المصرية قد سجلت مكاملة باللاسلكى من القيادة

الاسرائيلية إلى طياريهما: ابتعدوا تماما عن نطاق حائط الصواريخ المصرية. يعني، لانتجاوزوا عشرين كيلو مترا من حافة قناة السويس.

وبتلك التعليمات أصبح هذا يعني أن الطائرات الاسرائيلية - وهي أهم ماتملكه اسرائيل - عليها أن توجه صواريخها أو قنابلها إلى الكبارى العائمة التي يقيمها المصريون فى القناة من مسافة ٢٠ كيلومترا. فى تلك الحالة هى لاتصبح طائرات تصبح فقط نوعا آخر من المدافع بعيدة المدى وهو فى حد ذاته مايلغيها كطائرات، ويجعلها تتساوى مع أى مدفعية أرضية بعيدة المدى وإن يكن بكفاءة أقل.

هذا يعيدنا إلى الكبارى العائمة التي يحاول المهندسون المصريون إقامتها فى الجزء الجنوبي من قناة السويس داخل النطاق الذي يجب أن يعبر الجيش الثالث من خلاله إلى الشرق. هناك قذائف تأتي جوا - وعشوائيا - من الطيران الاسرائيلى. هناك أيضا قذائف أخرى، أكثر فاعلية، من المدافع الاسرائيلية عيار ١٧٥ مم تأتي فوق رؤوس نفس المهندسين المصريين لنفهم من استكمال إقامة كبارى عبور الجيش الثالث إلى الشرق. فوق هذا وذاك هناك الصعوبة الثالثة، من القربة فى هذه المرة، التي تجعل فتح الثغرات مستعصية تماما أمام قذائف المياه أو مدفعية المياه التي ابتكرها المصريون.

فجأة وجدت كتائب المهندسين المصريين بينهم أحد قادتهم. هو لا يحمل رتبة على كتفه، ولا يتصرف مطلقا باعتباره قائدا لأى أحد. لكن تلك الكتيبة من المهندسين تعرف أنه اللواء أحمد حمدي. وبكل بساطة يتناقش احمد حمدي مع ضباطه المهندسين وبكل ثقة يطرح معهم الحلول. لقد عاش كل هذا منذ ١٩٦٩ حينما شارك فى مراجعة واختبار كل الصعوبات المحتملة وغير المحتملة.. التربة تفاجئنا.. ممكن. لكننا أيضا نستطيع أن نفاجئ التربة حتى لا تستعصى علينا. فى النهاية نجح المهندسون فى إقامة هذا الكوبرى المستعصى عليهم وبدأ عبور الدبابات وتنفس أحمد الصعداء قائلا لضباطه المهندسين: سوف اغادركم الآن لأطمئن على باقى كبارى العبور. وفى لحظة انصرافه إذ بقذيفة عشوائية من مدفع اسرائيلى - ضمن آلاف القذائف الأخرى المعتادة قبل ساعات - تصيب احمد حمدي فتسقطه قتيلًا.



حقيقة تتأكد مرة بعد مرة.

فى القوات المسلحة المصرية الجديدة منذ بدأ اليوم السابع فى يونيو ١٩٦٧ وطوال حرب الاستنزاف وحتى الآن فى حرب أكتوبر فإن نسبة الضباط إلى الجنود بين الشهداء هى من أعلى النسب المعتادة فى الحروب. حقيقة تعكس فى حد ذاتها نوع الروح العسكرية الجديدة المؤمنة بحيوية تحرير الأرض بقوة السلاح.



٨ أكتوبر. فيينا. النمسا.

اجتماع مقرر منذ مدة للوزراء الأعضاء فى منطقة الدول المصدرة للبترول «أوبك» وكذلك مع رؤساء الشركات الغربية الكبرى المستوردة للبترول. والوزراء يسعون إلى اقناع رؤساء الشركات - معظمها أمريكية - بقبول رفع سعر برميل البترول ولو عشرة سنتات (الدولار الأمريكى يساوى مائة سنت) لكن المستوردين رأسهم وألف سيف: السعر الحالى (ثلاثة دولارات وسنت واحد للبرميل) مستمر ولا مناقشة فيه قبل سنتين آخرين على الأقل.. مفهوم؟

مع أن الوزراء يمثلون الدول صاحبة البترول إلا أن رؤساء الشركات المستوردة يتصرفون وكأنهم هم أنفسهم أصحاب البترول والمال والجاه والنفوذ والسلطة والسياسة والاقتصاد والكلمة الأخيرة الحاسمة فى كل شئ. طيب اسمعنى يامستر.. أنتم تكسبون من ورائنا أضعاف أضعاف ماتدفعونه لنا.. عشرة سنتات زيادة نطلبها الآن فى سعر البرميل لن تؤذيكم فى شئ.

أبداً. و«لا سنت واحد». ومن منكم لاتعجبه أسعارنا هو حر.. اشربوا بترولكم فنحن فى غنى عنه والمعرض علينا كثير وبأسعار أرخص.

انتهى الاجتماع بقدرة قادر والوزراء عندهم الحق لكنهم لا يملكون سوى مواسة بعضهم البعض. «معلش يازهر ولك يوم ياظالم».

واليوم هو ٨ أكتوبر والصحف الغربية عناوينها الرئيسية جميعاً عن حرب الشرق الأوسط: مصر تعلن اسقاط ٣٢ طائرة اسرائيلية والمدركات السورية على مشارف نهر الأردن. اسرائيل تبدأ الهجوم المضاد فى الجبهتين.



٨ أكتوبر. المساء. التليفزيون الإسرائيلى. هذا ديفيد اليعازر رئيس أركان حرب القوات الإسرائيلىة يتحدث عن الحرب فى مؤتمر صحفى: المصريون والسوريون بدأوا الحرب ضدنا مرة أخرى وسوف نجعلهم يندمون على ذلك. ثم بكل ثقة وتأكد قال اليعازر: إننا سوف نهاجم وسوف نضربهم وسوف نسحق عظامهم.



٩ أكتوبر. الثلاثاء. واشنطن.

الثانية والربع صباحاً يدق التليفون إلى جوار السرير، وهنرى كيسنجر يرد متثابراً: أهلا ياسيادة السفير.. خير؟ قال سيمحا دينتز السفير الإسرائيلى فى واشنطن: لا ياهنرى.. لآخر ولا شالوم. عندى برقية وردتنى حالا من جولدا (يقصد جولدا مائير رئيسة وزراء اسرائيل)، لا.. لا.. لا أستطيع البوح لك الآن بالتفاصيل حتى ولو كان تليفونك آمناً (أى محصناً ضد التنصت) أريد مقابلتك بصفة عاجلة وسرية.

فى الثامنة والثلاث صباحا بدأت المقابلة السرية فى غرفة الخرائط بالبيت الأبيض الأمريكى. السفير يقرأ من برقية رئيسة وزرائه، إسرائيل خسرت حتى الآن - أى فى ٦ و٧ و٨ أكتوبر فقط - ٤٩ طائرة منها ١٤ طائرة من طراز فانتوم.

لم يكن الرقم فى حد ذاته مفاجئاً على ضوء ماهو معروف مسبقاً من فعالية حائط الصواريخ المصرى والدفاع الجوى السورى. لكن هناك صدمة مروعة. إسرائيل خسرت أيضاً خمسمائة دبابة من بينها أربعمائة دبابة فى الجبهة المصرية وحدها. الحقونا بأسلحة بديلة فوراً وبالجو قبل أى وسيلة أخرى.

ثم: رجاء خاص من جولدا مائير إلى كيسنجر. هذه الأرقام يجب أن تظل شديدة السرية ولا يطلع عليها أى أحد آخر بخلاف الرئيس الأمريكى ريتشارد نيكسون. لو عرفت الدول العربية الأخرى بهذا الانجاز من مصر وسوريا فسوف ينضمون إليهما.

وسر آخر: موسى دايان (وزير الدفاع الاسرائيلى) أصيب قبل ساعات بانتهيار عصبي ومنعته جولدا مائير من عقد مؤتمر صحفى.

وسر ثالث: الآن يهمس السفير الاسرائيلى فى أذنى كيسنجر: تقول لك (جولدا مائير) إنها تريد القدوم فوراً إلى واشنطن فى زيارة سرية لكى تقنع بنفسها الرئيس نيكسون بفداحة الموقف. قلت إيه؟



رجال اليوم السابع (٥) ضباب الحرب والسياسة !



مع مساء الثامن من أكتوبر ١٩٧٣ كانت مصر قد حسمت لصالحها معركة عبور قناة السويس بقواتها المسلحة إلى سيناء والتقدم لمسافة ما بين ١٠ و ١٢ كيلومترا. لقد أصبح لمصر فى تلك المساحة المحررة خمس فرق عسكرية كاملة إلى جانب ألف دبابة فى مواجهة انهيار اسرائيلى ملحوظ والأهم من ذلك هو ان هذا الانجاز تحقق بخسائر أقل كثيرا جدا عن ما توقعه المخططون المصريون. وحينما ردت اسرائيل بهجوم برى مضاد يوم ٨ أكتوبر أبادته القوات المصرية بعد أن وضعت أيديها على عدد متزايد من الأسرى الاسرائيليين من بينهم قائد لواء.

لكن السؤال الجديد الذى فرض نفسه هنا هو : ماذا بعد؟ سيناء شبه جزيرة صحراوية. وهى فى معظمها أرض منبسطة.. ومن وجهة النظر العسكرية فإن النقطة الحاكمة فى الموضوع كله هى مضائق سيناء الجبلية التى تبعد ٤٠ كيلومترا إلى الشرق من حافة قناة السويس. وبالتالي يصبح التقدم من الأرض المكشوفة إلى تلك المضائق هو الهدف المنطقي لمن يتقدم إلى الشرق.

وبدلا من ذلك توقفت القوات المسلحة عند مسافة ١٢/١٠ كيلومترا شرق القناة، تاركة ٣٠ كيلومترا ماتزال تفصلها عن مضائق سيناء. لماذا فعلت مصر ذلك؟ هل بقرار سياسى؟ هل برؤية عسكرية؟ إن كل حرب تلد فرصتها التاريخية المفاجئة. وهى فرصة تجيء كالومضة العابرة تصبح ميزة لمن يلتقطها وعبئا على من يتخلى عنها. وإزاء الانهيار الاسرائيلى الواضح فى أرض القتال بدا غريبا أن تعلن مصر أن قواتها فى حالة «وقفة تعبوية» - اصطلاح عسكرى يعنى عمليا أنها لن تتقدم بقواتها أكثر من ذلك فى اللحظة الراهنة.

لكن «اللحظة الراهنة» هى المفتاح، لأنها ليست لحظة دائمة من ناحية ولأن الحرب تدور بين طرفين.

وفى حينها احتار الخبراء العسكريون حول العالم كثيرا فى محاولتهم فهم هذا التطور المصرى.. أو بالدقة: عدم التطور. الخبراء الانجليز قالوا إن الفرصة «الذهبية» التى خلقها الانهيار الاسرائيلى أمام مصر قد تتبخر بسرعة. الروس قالوا نفس الشيء. الفرنسيون أيضا. الأمريكان

انقسموا. فخبراء وزارة الدفاع ووكالة المخابرات المركزية توقعوا تقدم مصر عسكريا، وبسرعة، نحو مضائق سيناء.. وهناك فقط يمكن لمصر أن تأخذ بفكرة «الوقف التعبوي».

وحده هنري كسنجر وزير الخارجية الأمريكي وقتها هو الذي كان له توقع مختلف لم يفسر أسبابه إلا في مذكراته بعدها بسنوات.

وقد استمرت «الفرصة الذهبية» في أيدي مصر لخمسة أيام بالكامل من ٨ إلى ١٢ أكتوبر. في تلك الفترة حولت إسرائيل هذا التطور لصالحها بمفهوم مختلف. لقد ركزت ضرباتها بشدة ضد الجبهة السورية، حيث خطورتها على إسرائيل أكبر لأنها الأقرب إلى المراكز السكانية. وليل نهار ركزت إسرائيل ضرباتها بتوحش.. بل وحتى ضد المنشآت المدنية لكي تعيد القوات السورية إلى موقف الدفاع.. بل والتقهقر. بعدها فقط نقلت إسرائيل تركيزها إلى الجبهة المصرية.

هنا صدر القرار السياسي للقوات المصرية بالخروج من وقفها التعبوي واستئناف التقدم شرقا في سيناء. لكن «الفرصة الذهبية» كانت قد تبخرت. فإسرائيل الآن استردت تماسكها وبدأت تخرج من انهيارها وضمنت لنفسها جسرا جويا أمريكيا عاجلا ومباشرا من المعدات العسكرية الجديدة. جسر يتضاعف يوما بعد يوم بهدف مقرر هو «انقاذ إسرائيل من الانهيار». في المقابل أصبح هناك جسر جوي مماثل من موسكو إلى كل من دمشق والقاهرة. الحرب تزداد ضراوة وإسرائيل تقول لأمريكا: اعطونا مهلة ٤٨ ساعة لكي نسحق مصر وسوريا معا.



١٤ أكتوبر. موسكو. زيارة مفاجئة وغير معلنة.

هذا هوارى بومدين رئيس الجزائر مجتمع مع ليونيد بريجنيف الزعيم السوفيتي. الحرب هي القضية، بريجنيف يستغرب: حتى إذا كان هدف الحرب محدودا في البداية فإن الانهيار الإسرائيلي هو الفرصة، نحن أصدقاء لكم.. لكننا لا نفهم مسار هذه الحرب.

بومدين يرد باختصار: نحن أيضا في الجزائر لنا آراؤنا السياسية المختلفة مع السادات لكن الآن ليس وقت الجدل وهنا ليس مكان بحث السياسة. لقد جئت إليكم بهدف واحد لم أسأل فيه أحدا.. فلا السادات «في مصر» طلب مني ولا حافظ الأسد «في سوريا». هذا شيك مقبول الدفع بمائتي مليون دولار تدفعه لكم الجزائر مقدما تحت حساب ثمن أية أسلحة مطلوبة فورا لمصر وسوريا.

لم تكن الجزائر دولة غنية والمائتا مليون دولار «تساوي ألف مليون دولار بأسعار ١٩٩٨» لم تكن فائضة عن احتياجات شعب الجزائر. لكن شعب الجزائر يشعر بوفاء عميق لمصر لدورها المبكر أيام عبدالناصر في مساعدتها قبل عشرين سنة لطرد الاحتلال الفرنسي. الآن يستوعب بومدين الدرس البسيط المحدد. لقد عاش العرب طويلا بقوة مصر. والآن على مصر أن تكون أكثر قوة بالعرب.

فى تطورات موازية وغير معلنة أيضا دفعت السعودية لمصر ٤٠٠ مليون دولار. الكويت ٢٠٠ مليون. الإمارات ١٠٠ مليون. قطر ١٠٠ مليون.. الخ.



١٧ أكتوبر. خلافات ومشاجرات عبر شاطئ المحيط الأطلنطى.

الجسر الجوى الأمريكى إلى اسرائيل مستمر ومتزايد بشحنات أكثر من الأسلحة. حلفاء أمريكا فى أوروبا الغربية - باستثناء البرتغال - يرفضون استخدام أمريكا لقواعدهم العسكرية كمحطات للجسر الجوى. أوروبا لا تريد أن يصيبها المزيد من الأذى نتيجة الانحياز الأمريكى الفاضح لإسرائيل ضد الحقوق العربية.

فى نفس اليوم يستقبل الرئيس الأمريكى نيكسون فى واشنطن وزراء خارجية السعودية والجزائر والكويت والمغرب ممثلين للجامعة العربية، مطلوب التزام أمريكى محدد بانسحاب اسرائيل الكامل من جميع الأراضى العربية المحتلة. الردود لطيفة. لكن النتائج مراوغة.

أيضا فى نفس اليوم: الملك فيصل من السعودية يوجه رسالة رسمية إلى الرئيس نيكسون مطالبا فيها بانسحاب اسرائيل من جميع الاراضى العربية المحتلة بما فيها القدس. فإذا لم توقف الولايات المتحدة دعمها لإسرائيل فإن العلاقات الأمريكية السعودية سوف تصبح «فاترة».

وقرأ كيسنجر الرسالة على رئيسه معلقا: إذا كان كل ما ستفعله السعودية معنا - بعد كل هذا الجسر الجوى من جانبنا لدعم اسرائيل عسكريا - هو أن تصبح علاقاتها معنا «فاترة» فلا بأس.. فاترة.. فاترة.

فى المساء جاءت القنبلة. وزراء البترول العرب اجتمعوا لتوهم فى الكويت وأصدروا قراراتين بالاجماع.

أولا: رفع سعر البترول العربى بنسبة سبعين بالمائة دفعة واحدة من ٣,١ إلى ٥,١٢ دولار للبرميل الواحد.

ثانيا: خفض انتاج البترول العربى بنسبة خمسة فى المائة شهريا إلى أن تنسحب إسرائيل من جميع الأراضى العربية المحتلة، وهو ما يصر عليه «رجال اليوم السابع» فى مصر منذ ١٩٦٧.

أصبحت تلك أول مرة فى تاريخ البترول التى تتخذ فيها الدول المنتجة قرارا من طرف واحد برفع سعر البيع. شاه إيران من فرط رعبه سارع إلى استنكار القرار العربى وتنصل منه وقال إنه من جانبه سيستمر فى توريد البترول بالسعر الرخيص ولن يقطعه مطلقا عن أمريكا وإسرائيل كما قرر العرب. الرجل معذور. عرشه على كف عفريت ويد أمريكا طرشاء واستقواء العرب بمصر فى رأيه سراب لأن اسرائيل سرعان ما ستتحقق مصر، وسوريا بالنسبة.

كان الغرب من قبل، وبإشراف أمريكي، يحصل على البترول العربي بسعر التراب وفي بعض الأحيان كانت أمريكا تضرب المنتجين بعضهم ببعض. السعودية مثلا تريد سعرا أعلى؟ إذن عليها أن تعرف أن شاه إيران يعرض على أمريكا الالتزام لمدة عشر سنوات بتوريد مليون برميل بترول يوميا، وبسعر مقطوع هو دولار واحد للبرميل، يعني هو ثلث السعر الذي تشكو السعودية منه. هه؟ تقفلوا الملف.. أو نفتح على شاه إيران؟ هكذا استمر ملف البترول مغلقا، وقضيته الصحيحة العادلة نائمة، طوال ربع القرن التالي للحرب العالمية الثانية. ولم يكن إعادة بناء وإعمار أوروبا بعد خراب الحرب ممكنا في الفترة القياسية التي جرى فيها بغير هذا البترول الرخيص. والآن في حماية القوة المصرية - السورية - بالتالي على أرض القتال اكتشف عرب البترول من جديد صحة قضيتهم العادلة النائمة قهرا وقلة حيلة. الآن بقرار رفع سعر البترول والقرارات التالية سوف يرتفع إيراد دول البترول من ٢٣ مليار دولار ليصبح خلال سنة واحدة ٩٨ مليار دولار. انقلاب جذري جعل الغرب يقول إن العرب بهذا الشكل أصبحوا لأول مرة في طريقهم ليكونوا القوة الاقتصادية السادسة بمستوى العالم.



١٨/٢٢ أكتوبر - ١٩٧٣

إسرائيل في نزوة هجومها المضاد في سيناء والجولان. الحرب تزداد ضراوة. مشاورات بين موسكو وواشنطن. مراسلات بين أنور السادات وهنري كيسنجر. اتصالات لكيسنجر بإسرائيل. حلفاء أمريكا في أوروبا ساخطون على كيسنجر ونيكسون وأمريكا. قلنا لكم إن العرب مصممون على تحرير أراضيهم.. قلتم لنا إنكم أدرى. الآن نحن في أوروبا واليابان ندفع الثمن. الآن انتهى عصر البترول الرخيص. كفاية علينا خراب بيوت.

هنري كيسنجر وزير الخارجية الأمريكي يطير إلى موسكو مفوضا من الرئيس نيكسون للاتفاق على مشروع بوقف إطلاق النار. قبيل سفره بدقائق يرجوه سفير إسرائيل في واشنطن ألا يتعجل في المفاوضات لأن إسرائيل تحتاج ٤٨ ساعة أخرى لتسحق مصر وسوريا. كيسنجر يطمئنه: براحتكم على الآخر.. المهم السرعة والحسم والفتيجة.

في موسكو اتفق الطرفان أخيرا على مشروع بوقف إطلاق النار اعتبارا من ٢٢ أكتوبر.. من خلال قرار يصدر عن مجلس الأمن الدولي. إسرائيل تبرق إلى كيسنجر في طائرته. نرجوكم القدوم إلينا في طريق عودتك إلى واشنطن. كيسنجر صهيوني متعصب وإسرائيل تعتبره عينها وأذننها في كل ما يجري.

عدل كيسنجر مسار عودته متجها إلى إسرائيل بكل تفاؤل وثقة. لقد حصلت إسرائيل من أمريكا على كل ما تريده من وقت وأسلحة وجسر جوي مستمر. وإسرائيل تروج تليفزيونيا في العالم كله

أنها بعد أن أفادت من الضربة الأولى تقوم الآن بتعديل مسار الحرب في الاتجاه المضاد. الآن تذيع أخبارا بطول العالم وعرضه عن نجاحها في شق ثغرة فيما بين الجيشين المصريين الثاني والثالث.. عبرت منها بقواتها قناة السويس إلى الغرب. والعنوان «اسرائيل تحارب الآن.. في إفريقيا».

الثغرة صحيحة. أساسها نقص مبدئي في المعلومات المصرية عنها زائد المركزية في إدارة القتال. في المستوى السياسى هناك جزع شديد. لكن «رجال اليوم السابع» لم تنخلع قلوبهم. الحرب هي الحرب. كروفر. هجوم ودفاع. اختراق والتفاف. مشاكل وحلول. لقد بدت اللحظة الراهنة لصالح إسرائيل تماما - على الأقل - يمثل ما تبدو به على السطح. لكن هنرى كيسنجر بمجرد أن هبط بطائرته في اسرائيل قرأ المشهد الحقيقي فورا في وجوه مستقبله من كبار الساسة والعسكريين. مشهد مروع.

إنها الواحدة والنصف ظهرا يوم ٢٢ اكتوبر. وكيسنجر - بكلماته - يلاحظ على الفور: «ان ثبات اسرائيل واحتمالها كان يصل إلى نقطة الانهيار. فأولئك الذين جاءوا للترحيب بنا بدوا شاعرين بعمق كيف أصبحوا قريبين من الهاوية، وكيف أن أسبوعين من الحرب قد استنزفتهم. لقد كان الشعور بالوهن والاعياء طاغيا على اسرائيل، بصرف النظر عما تظهره الخرائط العسكرية».

وبمجرد أن انفردت جولدا مائير رئيسة وزراء اسرائيل بكيسنجر سألته على الفور: قل لي يا هنرى.. هل هناك صفقة عملتها مع الروس في موسكو؟ هل سنضطر أخيرا للإذعان لطلب مصر المطروح منذ ١٩٦٧ بضرورة انسحابنا الكامل من كل الأراضي في سيناء والجولان والضفة الغربية؟ أريد الوضوح.. ومزيدا من الأسلحة.. ٤٨ ساعة أخرى قبل الالتزام بوقف إطلاق النار.

أما الأسلحة فتدققها مستمر. أما الوضوح فالاتفاق هو وقف إطلاق النار الليلة حسب قرار مجلس الأمن. لكن لماذا ٤٨ ساعة أخرى؟

ردت جولدا مائير: لا تعرف لماذا؟ لأننا نريد تحقيق ضربة حاسمة واضحة نشفي بها غلنا من مصر. هل أكشف لك سرا حربيا؟ المصريون في هذه الحرب أسقطوا لنا ألفى قتيل. تعرف ماذا يعنى هذا الرقم؟ لو ساوينا عدد السكان هنا يعنى ان تفقد أمريكا مائتى ألف قتيل في ظرف أسبوعين.

قال كيسنجر: لكن معلوماتنا السياسية من القاهرة أنهم في حالة جزع شديد مما تفعلونه بهم.. قاطعته جولدا مائير: دعنا من معلوماتك السياسية. معلوماتي أنا هي الأساس.. لأنها واردة لى من ساحة القتال. من ضباطنا وجنودنا وما يروونه بأنفسهم. ما يروونه مقاتلين مصريين شديدي الشراسة وهؤلاء يجب أن نلقنهم درسا موجعا..

سألها كيسنجر: وماذا تفيدك ٤٨ ساعة أخرى؟ في أى اتجاه تبحثين عن الضربة الموجهة ضد

المصريين؟

أجابته جولدا مائير: قياداتنا العسكرية قادرة على حسم الموقف.. إما في اتجاه بورسعيد شمالا.. أو بحصار الجيش المصري الثالث من الخلف جنوبا في السويس وقطع خطوط امداداته بالكامل.

وفكر كيسنجر للحظات قبل أن يعطى لإسرائيل حرية عدم الالتزام بموعد سريان وقف إطلاق النار حسب قرار مجلس الأمن. تصرف خطير لأنه انتهاك لاتفاقه مع موسكو.. لكن لا بأس.. هناك حجة احتياطية هي صعوبة الاتصال به في طائرته العائد بها إلى واشنطن.



٢٣/٢٦ أكتوبر. القاهرة. واشنطن. تل ابيب . موسكو.

مصر تشكو من خرق إسرائيل لوقف إطلاق النار واستمرارها في التقدم جنوبا نحو السويس. عسكريا لا يوجد جزع فإسرائيل لن تتمكن ابدا من محاصرة الجيش المصري الثالث وقطع خطوط امداداته الخلفية بالكامل. لكن حتى في ظل أسوأ الاحتمالات، إذا حاصرت إسرائيل الجيش الثالث من الخلف فإن مصر تستطيع أن تحاصر القوات الاسرائيلية من خلف الخلف. هؤلاء «رجال اليوم السابع» هؤلاء عرفوا طوال سنوات قدرة إسرائيل الفعلية في قتال حقيقي. نضرب فننضرب فنضرب من جديد.

الخط الساخن للاتصالات بين موسكو وواشنطن يزداد سخونة. فالمسألة تجاوزت مصر وسوريا وإسرائيل. الآن هناك اتفاق ثنائي وواشنطن تغش في قواعد اللعب.

موسكو تخطر واشنطن رسميا أنها تأكدت من «مصادرها الخاصة» - تعنى الأقمار الصناعية وغيرها - من استمرار إسرائيل في خرق وقف إطلاق النار. ورسالة صريحة إلى الرئيس الأمريكي نيكسون : موسكو تريد «اجابة واضحة وفورية».

كيسنجر يبلغ جولدا مائير وهي تلح عليه من جديد: أرجوك.. لا تلزمنا بالعودة إلى خط ٢٢ أكتوبر الذي قرره مجلس الأمن لوقف إطلاق النار. أرجوك.. مزيدا من الوقت.. ولو ٤٨ ساعة أخرى.

هكذا أصبحنا في ٢٥ أكتوبر. وكيسنجر يستقبل السفير الاسرائيلي في واشنطن في الساعة الواحدة و٣٥ دقيقة صباحا. كيسنجر متلهف: للمرة العشرين أسأل متى بالضبط تنتهون من تدمير الجيش المصري الثالث؟ كم يلزمكم من وقت اضافي؟ لا أريد منك ان تعطيني تقديرك الشخصي. أريد إجابة تفصيلية من حكومتك على وجه السرعة. قدرتي على المناورة مع موسكو والتغطية عليكم في مجلس الأمن تتبخر بسرعة. حلفاؤنا في أوروبا وجعوا دماغ الرئيس نيكسون. الدول العربية توجه سيلا من الامدادات العسكرية في الطريق حاليا إلى مصر وسوريا. هات لي ردا تفصيليا من حكومتك فورا.



الخط الساخن للاتصالات بين موسكو وواشنطن يصاب بصمت مريب. ماذا يعني هذا؟ بعد ساعات قليلة عرف كينسجر ماذا يعني هذا. لقد عبأت موسكو قوات محمولة جوا جاهزة للإقلاع من المجر في اتجاه الشرق الأوسط. كينسجر يجتمع فوراً مع «مجموعة العمل الخاصة» التي تتابع مجريات الحرب من البيت الأبيض. أمريكا تعبىء هي أيضاً قوات محمولة جوا.. زائد إعلان حالة الطوارئ القصوى في كل قواعد العسكارية حول العالم. حلفاء أمريكا في أقصى درجات الغضب: كيف تفعل أمريكا هذا بغير تشاور معنا، في النهاية هذه القواعد على أرضينا نحن. تريدون الذهاب في داهية. هذا اختياركم. لكنه لن يكون للمرة اختياري لنا نحن.



واشنطن. مكالة تليفونية شديدة السرية. جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل ماتزال مستمرة فى خرق وقف إطلاق النار وتلح على أمريكا بالحاجة إلى مزيد من الوقت أملاً فى حصار الجيش الثالث المصرى. الموقف يزداد خطورة والعالم كله فى حالة غير مسبوقة من الغضب والعصبية. أخيراً تدخل الرئيس نيكسون وطلب المجرى إليه بجولدا مائير على التليفون عبر الخط المباشر المأمون (أى المحصن ضد التنصت).

لقد استمرت تلك المكالة الخطيرة واحدة من أسرار الدولة العليا فى واشنطن إلى أن كشف عنها الرئيس نيكسون لأول مرة فيما بعد وهو يسجل مذكراته التليفزيونية مع ديفيد فروست. إن المذيع - فى مايو ١٩٧٧ - يعيد الرئيس نيكسون المتقاعد إلى ذكرياته بشأن تلك المكالة شديدة السرية فى اليوم الأخير من حرب أكتوبر ١٩٧٣: سيادة الرئيس.. كيف أقنعت إسرائيل بالإذعان لوقف إطلاق النار؟

نيكسون يرد: أنا لم أحاول إقناع إسرائيل بأى شىء. فقط شرحت لرئيسة وزراء إسرائيل بعض حقائق الحياة.

لقد قال نيكسون لرئيسة وزراء إسرائيل عبر التليفون الآمن: مسز جولدا.. نحن حلفاء ولم نبخل عليك بأى شىء. ومنذ بدأت هذه الحرب وأنت تبشريننا بقدرتك على هزيمة مصر وسوريا بالضربة القاضية خلال يومين أو ثلاثة. صدقناك. طلبت أسلحة إضافية ومعلومات. أعطيناك. طلبت جسراً جويًا. أقمناه. طلبت أسلحة أخرى ومهلة يومين وثلاثة أخرى. هددنا الوفاق مع موسكو للخطر. أغضبنا حلفاءنا فى أوروبا الغربية واليابان. تشجع عرب البترول لأول مرة على التمرد ضدنا. والآن ماتزالين مصرّة على أسلحة أخرى ومهلة أخرى؟

ردت جولدا مائير: نعم ياسيادة الرئيس..

سكت نيكسون لحظة قبل أن يضيف: إذن دعيني الآن افترض أننا سنسألك من جديد. ونتيح لكم مهلة أخرى من جديد. يومين أو ثلاثة أيام أخرى. دعينا نفترض منذ الآن أنك حاصرت فعلا الجيش الثالث المصري وهو أقصى ما تحلمين به حاليا. حسنا. لنفترض أن هذا حدث. ثم.. ماذا؟ قالت جولدا مائير باستغراب: ثم ماذا؟ تكون إسرائيل قد انتصرت بإسيادة الرئيس..

رد عليها نيكسون: هذا رأيك أنت وقاموسك أنت. لكن حقائق الحياة غير ذلك. أنت تضعين عينيك فقط على عشرين أو ثلاثين ألف جندي مصري بهدف محاصرتهم، وربما إبادتهم. في الواقع سوف يفلت البعض من هذا الحصار. من هؤلاء ربما يكون هناك كولونيل آخر. ناصر آخر (يقصد جمال عبدالناصر الذي كان ضمن المحاصرين في الفالوجا بفلسطين سنة ١٩٤٨) ناصر الآخر لن يعترف بالهزيمة. وسنفاجأ به - نحن وأنتم - في القاهرة. وخلال سنتين أو ثلاثة سوف ينجح ناصر الآخر هذا، غصبا عنا وعنكم، في بناء جيش مصري جديد أحدث وأقوى. بمثل ما ترونه أنتم الآن في إسرائيل عمليا.

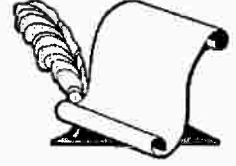
والآن.. هكذا مضى نيكسون في حديثه التليفوني مع رئيس وزراء إسرائيل: سوف ألبى لك كل طلباتك من الأسلحة والوقت لو أجبتيني بنعم على سؤالين اثنين: أولا - هل إسرائيل مستعدة لرؤية ناصر جديد في مقعد السلطة بالقاهرة؟ ثانيا - هل إسرائيل مستعدة مع قيام ناصر الجديد هذا بإعادة بناء الجيش المصري من جديد.. وبنفس الاصرار الذي رأيناه من قبل.. هل إسرائيل مستعدة لمواجهة هذا الجيش الجديد في ميدان القتال.. وبنفس الضراوة التي تعاني منها إسرائيل الآن؟ ما إجابتك يا مسز جولدا؟ هالو.. مسز جولدا.. مارذك؟ مسز جولدا.. هل تسمعين؟ هل تفهمين ما أقوله؟ مسز جولدا..

خرست مسز جولدا. لكن إسرائيل اذعنت في التقو واللحظة. أذعنت لرجال اليوم السابع. أما الباقي فهو سياسة.. وتفاصيل.



بعض رجال اليوم السابع. صورة تذكارية: عبدالمنعم رياض. أحمد حمدي. ابراهيم رفاعي. شطا. تيمور. محمد. صليب. عبدالعاطي. ميخائيل. الشوان. مصطفى. حسين. سيد أحمد. رفعت. سعيد. عبديريه. ويصا. عبدالعال. محمود. صدقي. عيسى. سليمان. ابراهيم.. و..... و..... و..... أحياء عند ربهم يرزقون.

مشاعر .. من لحم ودم



«هى ابنتى، المراهقة الشقية المرحلة المدللة من كل الأسرة، لا بأس. هى آخر العنقود. لكن فى تلك الليلة لم يحدث ما اعتدته منها فى كل مرة. لم يحدث أن تنبهت إلى عودتى إلى البيت، لم يحدث أن تركت ماهى فيه - حتى ولو مذاكرة - لكى تعانقنى. لم يحدث، بالتالى، أن سألتنى: هل أعد لك الطعام أو كوب شاي؟ لم يحدث أصلاً أن تحركت من كرسيها الذى تجلس عليه منكفئة على مكتبها الصغير الخاص.

حتى حينما اقتربت منها مناديا لم يحدث أن سمعنى من أول مرة. هى مندمجة بالكامل مع شىء تقرأه. ربما كتاب.. ربما مجلة.. ربما مطبوعة اشترتها أو اقترضتها من زميلة لها بمدرستها الثانوية الخاصة.

وحينما أفاقت ابنتى إلى أننى واقف إلى جوارها استدارت بوجهها نحوى وفاجأتنى الجدية الشديدة التى تكسو وجهها، على غير العادة. الجدية الأقرب قليلاً إلى الحزن. بعدها أعادت عينيها من جديد إلى ماتقرأه لكى تقول لى بتساؤل معجون بالحيرة: معقول يابابا كان عندنا ناس زى دول؟

- زى مين يا حبيبتي ؟

- زى عبدالمنعم رياض ؟

- تصور يابابا لغاية النهاردة كنت أتصور أن عبدالمنعم رياض ده اسم حائط.. اسم شارع.. اسم ميدان. لكن هذه أول مرة أراه أمامى بنى آدم من لحم ودم.. بنى آدم من مشاعر وإيمان. من تضحية وتكران للذات. لماذا لم أسمع عنه منك من قبل، لا منك، ولا من ماما.. ولا من المدرسة. ولا من الصحف؟ تفضل أقرأ. أعمل العشاء أو فنجان الشاي المعتاد؟

تلك هى باختصار الحكاية التى رواها لى صحفى صديق كبير الثقافة والمقام - هو سعد هجرس - بينما يحدثنى تليفونيا فى تلك الليلة. لقد كان يشير فى الواقع إلى مقال كتبته هنا فى عدد ديسمبر ١٩٩٧ من مجلة «الشباب» بعنوان «عبدالمنعم رياض نهاية البداية».

لم أكن قد سمعت صوت هذا الصديق العزيز منذ شهور. وفي تلك المكالمة ينتقل لى ماحدث لتوه من حيرة ابنته القريبة إلى قلبه، ثم يستحلفنى بأن أزيد فيما كتبت وأفصل ماأجملت، فهذا الجيل شديد الفراغ والقلق والتمزق. شديد الاحتياج أيضا إلى أن يتعرف على نفسه وجذوره وانتماؤه من خلال نماذج صحيحة فى تاريخنا القريب والمعاصر. نماذج من الوطنية والتضحية والإصرار والعطاء ونكران الذات. نماذج موجودة ولن نخترعها. فقط نريد أن نزيل من فوقها صدأ النسيان وغبار التفرنج.

والواقع أن تلك المكالمة تحديدا حسمت فى داخلى ليلتها اختيارا كان متأرجحا من البداية. فحينما كتبت مقالا فى عدد اكتوبر ١٩٩٧ فى مجلة «الشباب» بعنوان «رجال اليوم السابع» كان فى ذهنى فقط أن أضع على الورق شريحة حية من الرجال الذين صنعوا بأظافرهم، وضد كل الحسابات، ملحمة إعادة بناء الجيش المصرى بعد الهزيمة المروعة أمام اسرائيل فى يونيو ١٩٦٧. هزيمة اسمتها اسرائيل «حرب الأيام الستة» وهؤلاء الرجال هم الذين رفضوا تماما تلك الهزيمة.

لم يرفضوا حقيقة أنها حدثت، لكنهم رفضوا فكرة أنها الكلمة الأخيرة. من هنا، من اليوم السابع مباشرة لحرب «الأيام الستة» نذر أولئك الرجال أنفسهم تماما لجولة تالية رأوها حتمية. وفى هذا اليوم السابع الطويل، الممتد من يونيو ١٩٦٧ إلى أكتوبر ١٩٧٣، واجه أولئك الرجال امتحان العمر كله، امتحانا لهم ولصلابتهم وايمانهم وانتماؤهم ولتأكدهم الصلب بأن هزيمة يونيو ١٩٦٧ يجب أن تكون هزيمة فى جولة، وليست فى حرب. استثناء وليس قاعدة. والقاعدة هى أن مصر قوية. وقوة مصر تبدأ من عقلها وإرادتها واصرارها على الإعداد ليوم سابع يكسب تماما «حرب الأيام الستة». هؤلاء الرجال كان فيهم من هو على خط النار الممتد بطول قناة السويس وكان فيهم من هو وراء خط النار، وكان فيهم - بنفس الأهمية والصلابة والتضحية ونكران الذات - زوجات وأمهات وآباء وأولاد وبنات يتشكل منهم الشعب المصرى بمجموعه. هؤلاء أيضا قدموا التضحيات من حياتهم وقلقتهم وحرمانهم من احتياجات أساسية، لعرفتهم بأن المقاتلين أولى. هؤلاء كذلك تحملوا حربا نفسية ضارية من العدو، وتوحشا حقيقيا وصل إلى بيوتهم من خلال آلاف القنابل التى ظلت اسرائيل تمطر بها العمق المصرى العمق المدنى قبل أن تنجح مصر فى قطع ذراع اسرائيل الطويلة بنجاحها فى إقامة حائطها الصاروخى الشهير فى سنة ١٩٧٠.

أقول إن الفكرة عندى كانت مقالا واحدا أضع فيه أمام قراء وقارئات مجلة «الشباب» شريحة إنسانية وتاريخية من بعض ملامح «رجال اليوم السابع». لكن المفاجأة جاءت من القراء. كثيرون بادرونى بالرسائل البريدية أو المكالمات التليفونية أغلبهم فى حالة دهشة أو استغراب أو استفسار كلهم فى حالة رجاء بأن أفصل لهم بعض ماأجملت.

هذا دفعني إلى مقال ثان. ومرة أخرى كنت أتصور أنه يكفي. لكن نفس الموال تكرر. فالزمت نفسي بمقال ثالث.. ورابع. في النهاية جلست أكتب المقال الخامس عن «رجال اليوم السابع» وعندى تصميم مسبق على أن يكون المقال الختامي.. ليس بالضرورة عزوفا عن الاستمرار في الكتابة عنهم، فهناك مئات وآلاف الحقائق والتفاصيل والأسرار التي لم تنشر بعد، وبشكل منصف. إنما كنت أريد أن أتفق مع نفسي أولا على أن هدفي الأساسي لم يكن التأريخ لرجال «اليوم السابع»، فهؤلاء لن تتسع لهم مئات وآلاف الصفحات من مجلة «الشباب». فقط يكفي - مؤقتا - أن أضع أمام القارئ مؤشرا ومعيارا يستخدمه بنفسه لفرز الطيب من الخبيث.. والملفق من الصحيح.. والعابر من الدائم.. والمزيف من الحقيقي..

كان المقال الأول عن «رجال اليوم السابع» هو بإحساسي الخاص. أما المقالات الأربعة التالية فكانت بدافع من أحاسيس القراء. ولبعض هؤلاء أوجه كتابتي في هذه المرة، تعليقا على رسائل أو مكالمات من قراء وقارئات عن مقالات سابقة نشرت لي هنا وامتدت لعدة شهور منذ استضافتني مجلة «الشباب».



■ المستشار حسنى عبدالواحد - القاهرة:

نعم يا أخى الكريم أفهم كلماتك تماما. تقول فى رسالتك إنك كنت فى السنوات ١٩٧٣/٦٧ مجندا جامعا بالشرطة العسكرية الخاصة بالدفاع الجوى وأنت عشت فعلا جزءا صغيرا من ملحمة كبرى اسمها بناء الدفاع الجوى وحائط الصواريخ وأنت بين وقت وآخر تحكى لابنتك ولديك عن بعض ماجرى. وأنت عاتب بشدة على.. وربما بمرارة.. على المشير محمد على فهمى قائد الدفاع الجوى لأنه حتى الآن لم يكتب مذكراته. وتضيف إلى عتابك، أو مرارتك، التأكيد على أن تلك المذكرات ليست من حق محمد على فهمى وحده، ولا حتى كبار مساعديه وضباطه. لكننا من حقا أنت أيضا مع عشرات الآلاف الذين ضحوا. أنت تريد مذكرات صحيحة تضعها فى مكتبتك المنزلية تحت تصرف أولادك الصغار حتى يعيشوا بعض ماعشته أنت وملايين المصريين انتماء لوطنهم وإيماننا بقوته.

أخى الكريم: صوتى معك. قلبى معك. عقلى معك. دعنا بعد ذلك نقول جميعا للمشير محمد على فهمى: مسئوليتك مستمرة عن جنودك وضباطك وعائلاتهم وتضحياتهم جميعا تحت قيادتك.



■ الطالبة سناء محمود كارم - دمياط:

تقولين فى رسالتك: إنها المرة الأولى التى تعرفين فيها أن قوة مصر هى التى مكنت العرب من رفع أسعار بترولهم؟ نعم تلك حقيقة. أما لماذا لاتقال؟ ولماذا لاتتكرر؟ ولماذا لم يصبح العرب فعلا

القوة السادسة اقتصاديا بمستوى العالم كما كان يخشى الغرب؟ أسئلة كبيرة وعويصة يحتاج الرد عليها إلى الغوص أكثر وأكثر في بحار السياسات الدولية.

□□□

■ محمد محب أبو قمر - القاهرة:

لا تشكرني يا أخى. اشكر الروح الوطنية المصرية التى صنعت كل هذا. فقط انتظر منك موافاتي بالتفاصيل والوقائع التى وعدتني بها فى اتصالك التليفونى.

□□□

■ أحمد شاكر سيد أحمد - مدرس ثانوى طنطا (وآخرون):

أخى الكريم.. أنت تطلب منى مالا أملكه. تطلب نسخة من كتابي «أفكار ضد الرصاص» لأنك لاتجده فى المكتبات. أنا معك، فأنا أيضا لا أجده ولو كان موجودا فى الأسواق لما سمحت لنفسى بالكتابة عنه. مع ذلك فحينما تصدر من الكتاب طبعة تالية أعدك بنسخة.

□□□

■ فيصل الخالد - الكويت:

لاتستغرب يا أخى الكريم، محمود عوض الذى ينشر مقاله فى جريدة «الحياة» فى لندن.. و«الرياض» فى السعودية.. و«الاتحاد» فى الامارات و«الشرق» فى قطر.. هو نفسه محمود عوض الذى يكتب هنا فى مجلة «الشباب».

استغرابك هذا ذكرني بقصة. لقد اتصل بى ذات يوم الاذاعى الكبير كامل البيطار يطلب المجيء إلى مصطحبا معه صديقاً له قادماً من تونس صديقاً اسمه صالح كيغام رئيس تحرير مجلة الإذاعة والتليفزيون فى تونس وقتها.

حينما جاء الاثنان عرفت السبب، كان الأخ صالح كيغام قد قرأ فى تونس كتابين بالتتابع. كتاب بعنوان «سياحة غرامية» وآخر بعنوان «أفكار ضد الرصاص». بعدها أضاف قائلا لى: الآن تأكدت فعلا من أنك محمود عوض مؤلف «سياحة غرامية» وبنفس الملامح التى رسمتها لك فى خيالى، بل وحتى بنفس بنطلون الجينز والحذاء غير اللامع لكننى الآن أشك كثيرا فى أنك مؤلف كتاب «أفكار ضد الرصاص».

ولأنه كان يتكلم بنصف جد ونصف هزل فقد قلت له: لاتشك يا أخى. فقط.. الكتابة فى أدب الرحلات شيء.. وفى الفكر السياسى شئ آخر. فى الحالة الأولى أنت أمام غوص فى الحياة الانسانية بالاتساع.. من نيويورك إلى طوكيو إلى كاتماندو إلى باريس.. إلخ. أما فى الفكر السياسى فأنت أمام غوص فى الحياة الإنسانية بالعمق. وفى أعماقنا الإنسانية هناك كثير من الجراح والأخطاء والآلام التى نتعلم منها بأكثر مما نتعلم من المرح والسعادة.

وعلى أى حال فأنت رسمت فى خيالك صورة لمؤلف «سياحة غرامية» واضح اننى لم أخيب ظنك فيها. لكنك توقعت أيضا أن مؤلف «أفكار ضد الرصاص» لابد حتما أن يكون من مشوهى الحرب.. لا بأس. لكن.. لا تتبالغ أكثر من ذلك. مرة أخرى.. هذا يذكرنى بواقعة جرت لمارك توين الكاتب الساخر الأمريكى. لقد نشرت إحدى الصحف الأمريكية ذات يوم خبرا بوفاة. يومها كتب مارك توين برقية إلى الجريدة يقول فيها: أشكركم على كتابة اسمى.. أما عن وفاتى فهذا «خبر مبالغ فيه بعض الشيء».



■ سحر تيمور — الاسكندرية (وآخرون):

لماذا لم أكتب عن عبدالحليم حافظ؟ فكرت كثيرا وترددت، السبب؟ هناك حالة استرزاك انتشرت بفجاجة فى الكتابة عن عبدالحليم وغيره، أكثرها أكاذيب وأقلها أنصاف حقائق. هذه واحدة. أما الأخرى فهى أن من تشرفت بمعرفتهم عن قرب إنسانى حميم، من طه حسين إلى أم كلثوم وعبدالحليم ومحمد عبد الوهاب وتوفيق الحكيم.. و.. ماتزال ذكرياتى معهم لصيقة بى تحت الجلد وحتى الآن لا أستطيع الانفصال نفسيا عن تلك الذكريات بما يسمح لى بأن أصبها على الورق.

مرة واحدة سمحت لنفسى بالتحدث عن عبدالحليم حافظ بقدر من التوسع. كان هذا فى حوار صحفى أجراه معى قبل سنتين الزميل العزيز إبراهيم عيسى بصفته رئيس تحرير جريدة «الدستور». يومها كان فى داخلى عشرة أسباب. السبب العاشر منها هو أن إبراهيم عيسى صحفى موهوب، وبقدر موهبته كان يسعى إلى الحقيقة.. لا أكثر ولا أقل.

قبلها ويعدها حاول معى مندوبو محطات تليفزيونية عربية عديدة، آخرها المحطة الفضائية المصرية. ومع اعتزازى الخاص بهم جميعا.. من عرفان نظام الدين فى لندن إلى المذبة الموهوبة الصاعدة إيمان عليان.. إلا أننى عدت مرة أخرى إلى ما كنت عليه. عدت إلى تحت الجلد.

أما بالنسبة لأم كلثوم فقد كان هذا بدعوة من نادى الصيد بالقاهرة مؤخرا، كما قرأت أنت فى الخبر المنشور بجريدة «الاهرام». هنا كان السبب الفاصل هو أن الدعوة كانت من الدكتور يحيى الجمل المشرف على النشاط الثقافى فى النادى. والدكتور يحيى الجمل — يا أنسى كان استاذا لى بالجامعة. أستاذ.. ولا أى أستاذ.. وفى مرحلتنا العمرية التى يطغى عليها التمرد والرغبة فى المشاكسة وإثبات الذات.. كان يحيى الجمل صديقا لنا قبل أن يكون أستاذا جامعيًا. هو متواضع بقدر علمه. أب بغير تسلط. صديق بغير زمن. أستاذ بغير املاء بسيط بغير ادعاء.

مع مثل هذا الرجل يا آنستي.. وبكل المحبة التي أشاعها هو في كل دفعتي الجامعية.. فإنه لم يوجه لي دعوة. في حقيقة الأمر: وجه لي.. استدعاء.



■ السيدة/ سعيدة رمضان القاهرة (ورسائل ومكالمات أخرى):

تطرحين على سؤالين ياسيدتي سأبدأ بأسهلهما، الكتابة إلى تكون على عنوان مجلة «الشباب» التي أنا أحد ضيوفها..

نجئي إلى السؤال التالي: لماذا اخترت الكتابة في مجلة «الشباب»؟

عندي إجابة مؤقتة.. وهي أن كلانا قد اختار الآخر. فإذا أخذت النصف المتعلق بي من الإجابة فهو: إن الكتابة بهدف النشر هي كركوب سفينة بهدف السفر عبر البحار والمحيطات. إن السفينة مهمة، لكن الأكثر أهمية هو قبطانها.

مع قبطان غائب عن الوعي لن يفيد مطلقاً أن تكون السفينة ضخمة وفخمة بمثل «تيتانك». في المقابل.. مع قبطان يقظ واع يقوم بواجباته الملاحية جيداً، إحساسه بضخامة المسؤولية يعلو على إغراء الانتفاخ بعلو الرتبة، لديه خريطة واضحة، أمامه هدف محدد للوصول، يصبح السفر متعة.. والتحرك إلى ميناء الوصول يصبح مؤكداً أياً كانت العواصف والأنواء.

أقول هذا بحرية وبلا حساسية، لأن الزميل العزيز عبدالوهاب مطاوع دعاني إلى الكتابة في مجلة «الشباب» قبل سنتين والدعوة تكررت بعدها. إذن.. نحن أمام قبطان يختار المسافرين معه. ونحن أيضاً أمام قبطان يعرف جيداً نوع السفينة التي قبل هو مسئوليتها.. ويدرك بوعي كامل مدى صعوبة التحدي الذي تفرضه محطة الوصول.

هذه يا سيدتي مجلة متميزة لها قارئ متميز، هذان شيان استثنائيان تماماً في حياتنا الصحفية بالقاهرة.. من النادر أن يجتمعا معاً فإذا حدث واجتمعا معاً.. لن تسأليني «لماذا تكتب في مجلة «الشباب»؟ لكنني سوف أسأل نفسي: لماذا لا أكتب في مجلة «الشباب»؟

وفي صبانا المبكر ياسيدتي كانت هناك صحف عديدة زاعقة وصاخبة.. مع ذلك كنا نحن نختار صحفنا الخاصة التي نصدقها، وكتابنا الخصوصيين الذين نقرأ لهم، بعيداً عن الزعيق والطبول والأضواء.

وفيما بعد استوعبت لنفسى من ذلك الصبا درسين بالغى الأهمية. أولاً - إن حب القراءة هو المفتاح الأول إلى المعرفة. ثانياً - إن القراءة الصحيحة - كهواية إيجابية - هي الخطوة الأولى نحو التميز.. وإدراك المستقبل قبل موعده.

سكين فى وجهى !



الوقت ليل والدنيا صيف والجو حار رطب مشبع بما هو أقرب إلى رائحة «الشياطين» فى الحجرة نافذة واحدة لكن الستارة مدلاة من أعلى بطول وعرض النافذة. ستارة بلاستيكية خضراء اللون فى الأصل لكن الأخضر أصبح داكنا بمرور الوقت وكثرة الاستعمال. كنت جالسا إلى المكتب الصغير مندمجا فيما أكتب، أو أحاول أن أكتب، حتى أذهب به فى الصباح إلى المطار لكى يدبر لى صديق هناك أمر إرسال المظروف المغلق إلى جريدة «أخبار اليوم» فى القاهرة. النافذة إلى يمينى وبعض الكتب إلى يسارى والقلم فى يدي يكتب ويصحح ثم يكتب من جديد.

فجأة سمعت صوتا إلى يمينى. صوتا واهنا بطيئا لم يكن سماعه ممكنا بغير الهدوء الكامل داخل الحجرة الصغيرة التى أقيم فيها بمفردى. تطلعت يميننا نحو مصدر الصوت فلاحظت فورا شيئا أقرب إلى السكين ربما يشبه المطواة «قرن غزال» التى نعرفها.. ولكن على أمريكانى فى هذه المرة! إن نصل السكين مطوى فى داخلها وممسوك بما يشبه السوستة، لكن بمجرد الضغط على زرار ينعتق نصل السكين فى لحظة استعدادا للتعامل مع الهدف.

والآن.. أنا الهدف.

فاليد التى تمسك بالسكين ترفع الستارة إلى أعلى بهدوء وثقة وتأكد. فوق. فوق. فوق. ثم.. شخص ما يدلف برأسه إلى داخل النافذة. ومن الظلام الدامس خلفه لم أستوعب أكثر من وجهه الأسود وعينيه الضيقتين النارييتين.

وضعت قلمي على المكتب واستدرت بجسمى قليلا نحو اليمين بغير أن يتحرك المقعد الذى أجلس عليه. ولعدة لحظات تالية تسمرت عينا كل منا على عيني الآخر بهدوء قاتل. لقد بدوت فى داخلى كما لو كنت شخصا ثالثا يتفرج على هذا اللص المسلح الجريء فى محاولته هذه لاقتحام غرفة مضاءة بعد منتصف الليل، وأكاد أتفرج على نفسى أيضا كما لو كان شخص آخر تماما هو الذى يجلس فى مكانى هذا.

أدار المذكور عينيه النارييتين فى أنحاء غرفتى الصغيرة ربما للحظة أو لحظتين. لاشئ استثنائيا هنا. مجرد سرير ومكتب وصحف ومجلات وكتب. كثير من الكتب. ركز عينيه على وجهى من

جديد لعله يقرأ فيه شيئا لكن شيئا لم يسعفه. فجأة استدار بعينه خلفا، وفي تلك اللحظة سقطت السكين من يد المذكور على أرض الحجرة. ومع ارتطام السكين بالأرض خرجت أنا فورا من حالة «الاندھاش» التي تفصلني بين وقت وآخر عن الواقع.

هنا فقط نهضت بسرعة متجها نحو النافذة التي تطل بدورها على منور داخلي في المبنى. مع الظلام الدامس لم أتبين أى شئ مؤكد أكثر من شبح يتحرك بسرعة فوق مواسير إلى أسفل وفي لمح البصر كان قد أصبح أرضا، حيث غرقتي هذه في الطابق الثاني، وفي لمح البصر أيضا كان قد اختفى. الآن فقط انتهى انفصالي عن هذا المشهد العبثي، لكى أستوعب لتوى الفكرة من أساسها. فكرة أننى في مدينة نيويورك وحجرتى هذه أقيم فيها منذ أكثر من عشرين يوما. حجرة رخيصة الايجار في بيت شباب أهم مزاياه بالنسبة لى هى أنه لايبعد عن مقر منظمة الأمم المتحدة ومجلس الأمن الدولي بأكثر من خمسمائة متر. هذا يعنى بالنسبة لى توفير تكاليف المواصلات، فضلا عن سرعة التحرك فى قلب «مانهاتن» التي هى بدورها قلب مدينة نيويورك. لم يكن فى الحجرة تليفون ولا حمام، فيها فقط سرير ومكتب وكرسى وجهاز تليفزيون. لا بأس بالمرّة لأنه فى مقابل خمسة دولارات يوميا لا يطمح المرء إلى ما هو أكثر من هذا.

فى الصباح أنزل إلى المطعم فى بيت الشباب هذا فأختار إفطارى بنظام «أخدم نفسك» وأسد ثمنه ثم أجلس إلى إحدى الموائد مع غيرى متصفحاً جرائد الصباح قبل أن انطلق إلى برنامجى اليومى. فى العادة لا بد أن أذهب إلى مقر الأمم المتحدة لزوم المتابعة الصحفية، حتى وقت الظهيرة، ثم اتناول الغداء فى كافتريا الأمم المتحدة وسط حشد من الدبلوماسيين من انحاء العالم. كافتريا تقدم وجباتها الممتازة بأسعار مدعمة، والنظام هنا أيضا هو «أخدم نفسك بنفسك». فى وجبة العشاء لا توجد مشكلة، فإذا لم أكن مدعوا من أحد اصدقائى العديدين فى المدينة.. فإن البديل الآخر - وربما الأكثر راحة بالنسبة لى - هو أن أشتري طعاما جاهزا من أقرب «سوبر ماركت» لكى أتناوله فى حجرتى بينما أتابع برامج التليفزيون أو أتصفح بعض ما اشتريته من صحف، ومجلات وكتب طوال ساعات مابعد الظهيرة.

لكننى فى تلك الليلة لم أفتح جهاز التليفزيون، لقد جلست إلى المكتب أكتب رسالتى الصحفية إلى القاهرة، ولم أدرك أن الوقت قد تجاوز منتصف الليل إلا بعد أن حاول المذكور اقتحام الحجرة وسقط السكين من يده على أرضها.

أمسكت بالسكين فى يدي واكتشفت لتوى أن السكين ليست غريبة عني بالمرّة. لقد شاهدت منها العشرات قبل ذلك، حتى حينما طويت نصل السكين ثم ضغطت على الزر فانطلق النصل من جديد.. بدأ لى كما لو أننى عرفت هذا السكين من قبل.

فى الواقع.. إنه سكّين حاد تماما شاهدت مثله من قبل فى عشرات من الأفلام السينمائية الأمريكية.. خصوصا أفلام رعاة البقر.. مع ذلك فلم يخطر على بالى من قبل أن نفس السكّين سيخرج يوما من شاشة السينما لكى يستقر فى حجرتى.



حينما جاء رجل الشرطة فى الصباح الباكر لكى يعاين المكان بدا عليه ماهو أقرب إلى الشعور بالملل، أو بتضييع الوقت، ولولا أننى اجنبتى فربما لم يكن رجل الشرطة هذا سيجئ من الأصل. أنت فى نيويورك يامستر.. حيث العنف شئ عادى والقتل شئ نصف عادى ليلا وأكثر من عادى نهاراً. شئ واحد لم يفهمه الأمريكى بالمرة وبدا عليه أنه يتوقف عنده مرة بعد مرة: يامستر هل تعرف ماذا يعنى هذا؟ فى نيويورك أنت لاتفكر مطلقا فى مقاومة شخص مسلح، فقط عليك أن تستسلم إليه أو تهرب منه بالخطوة السريعة.

قلت له مصححا: لكننى أصلا لم اكن قد فكرت - بعد - فى مواجهته..

تطلع إلى «الشرطى الأمريكى واسمه هنرى وتساءل مستغربا: إذن ماذا يعنى استمرارك جالسا على مقعدك حتى بعد أن دخل بإحدى قدميه فعلا من النافذة؟ وإذا لم تكن هذه مواجهة فى قاموسك.. إنها مواجهة فى قاموس هذا النوع من اللصوص، إنه حتى لن يكون محتاجا إلى الاشتباك معك. كان يكفيه، ومن مكانه فى النافذة، أن يقذفك بالسكّين وأنت لاتتبعده عنه بأكثر من متر ونصف متر. يامستر يكفيننا هنا مانراه من دماء كل يوم فى هذه المدينة الملعونة.. واحمد ربنا على أن هذا اللص لم يكن محترفا بما فيه الكفاية فهرب فورا بينما أنت الآن على قيد الحياة.

لم أستوعب بالضبط مايريد رجل الشرطة هذا أن يقول. هل أنا خيبت أمله لأننى على قيد الحياة؟ هل الروتين فى عمله هو أن يرى الدماء تسيح ليل نهار فخاب أمله فى هذه المرة؟

كنت سارحا لعدة لحظات فى أفكار مثل هذه ولم ألحظ أن هذا الشرطى الأمريكى يتطلع فى أنحاء الحجرة متفحصا بعينييه أكوام الكتب والمجلات فى كل مكان. لقد تناول عدة كتب ليجرد أن يقرأ عناوينها.. وبعدها فقط سألتنى عن مهنتى بمجرد أن أجبته تغيرت ملامح وجهه على الفور.

لقد جلس على السرير محتفظا فى يديه بكتاب محدد هو «قصة حب» إنها قصة تحكى عن شاب أحب زميلته فى الدراسة الجامعية، لكن الأب الثرى يرفض زواج ابنه من تلك الفتاة الفقيرة.. وهو ماؤدى إلى مزيد من القطيعة بين الأب وابنه. فى النهاية تموت الفتاة الشابة بمرض نادر فتسحب معها من الشاب كل احساس بالحياة.. وعندها فقط يرق قلب الوالد لابنه.

القصة رومانسية تماما. ولأنها كذلك فقد جاء نجاحها - ككتاب أولا ثم كفيلم سينمائى شهير بعد ذلك بطلته آلى ماكجرو - مفاجئا تماما فى السوق الأمريكية التى كانت قد هجرت قبل وقت

طويل مثل تلك الخيالات الرومانسية. هكذا وجد واحد من كل خمسة أمريكيين مؤخرا أن في عينيه شيئا من الدموع يذرفها على تلك الفتاة - آلى ماكجرو في الفيلم - وهى تموت أمامه على الشاشة. لكن هنرى هذا الشرطى الأمريكى الجالس الآن فى حجرتى لا يبدو عليه بالمرّة أن عينيه عرفت الدموع من قبل. لقد تناول كتاب «قصة حب» من أمامى على المكتب، ثم بعد الغلاف توقف بعينه على الصفحة الأولى ليقرأ باهتمام الإهداء الذى سجله أريك سيجال - مؤلف الرواية - باسمى. الآن تنفج أسارير الشرطى الأمريكى هنرى تماما وهو يسألنى: هاها.. هاها.. أنت تعرف مستر سيجال وصديق أيضا؟ أين عرفته؟ قلت له: فى لوس أنجلوس..

- وانست تعرف لوس أنجلوس أيضا؟ اذن هوليود ليست غريبة عنك؟ هاها.. أقول لك سرا؟ أنا أعمل فى الشرطة منذ أكثر من ربع قرن ولم يفارقنى أبدا حلم السفر إلى هناك ولو فى إجازة. لا بأس. ربما أفعل ذلك عند التقاعد وأصبح اسرتى إلى هناك فى إجازة.

عند هذا الحد كانت لهجة ضابط الشرطة هنرى قد تحولت من النقيض إلى النقيض. الآن يتجاذب معى الحديث بمودة ظاهرة ورغبة جادة فى الثرثرة.. متطلعا بين وقت وآخر إلى أكوام الكتب فى كل ركن من أركان الحجرة الصغيرة.

بعدها قال لى: الآن بدأت أفهم الصورة. إنكم معشر الكتاب اناس حالون تخلطون الخيال بالواقع.. ربما هذا هو بالضبط ما أنقذك من الموت قتيلا هذه الليلة.

قلت له مستغربا: ماذا تقصد؟

- أقصد انه فى المواجهة بين مجرم وضحية هناك لحظة سيكولوجية تجئ وتختفى بلمح البصر، فحينما تطلع هذا اللص إليك بالسكين فى يده ووجدك ثابتا فى مكانك انقلبت الآية وبدأ هو فى الخوف!

استغربت أكثر وأكثر: يخاف.. من ماذا؟

- يخاف مما تصور أن لديك سلاحاً.. فبعقليته هو، وأقول لك هذا من طول خبرتى، لا بد أنه تصور أن مواجهتك له بهذا الهدوء تعنى حتما أن لديك فى درج المكتب مثلا مسدسا جاهزا للانطلاق.. هذا طبيعى ومألوف تماما عند كثيرين من سكان هذه المدينة.

قلت له ضاحكا: لكننى انخلع قلبى فعلا بمجرد هروبه..

- صحيح.. صحيح، لكن اللحظة السيكولوجية كانت قد انتهت.. ولصالحك، ولو كان قد لمح فى وجهك أقل علامة خوف أو زعر.. لكان للقصة فى هذه الليلة نهاية أخرى، احمد ربنا إذن وحاول أن تنام الليلة بعمق.

قبل أن ينهض رجل الشرطة هذا مستعداً للانصراف طلبت منه السماح لي بالاحتفاظ بالسكين، ولو كذكرى لإحدى حالاتي الاندهاشية التي فهمها لص الليلة على غير مضمونها فانخلع قلبه.. اكتسى وجه هنري بالجدية الكاملة مرة أخرى وهو يقول: لا بأس فأنت تستحق هذا السكين على أية حال، لكن اسمع.. سأقول لك كلمات جارحة أرجو أن تنقلها إليسه حينما تراه في المرة القادمة..

سألته مندهشاً: انقلها إلي من؟ إلى اللص؟

- لا.. لا.. أقصد أريك سيجال مؤلف هذه الرواية، هذا الفيلم «قصة حب».

لقد جلس هنري من جديد وهو يضيف مسترسلاً: لقد شاهدت هذا الفيلم وبالتالى أطلب منك أن تنقل إليه أن عليه أن يفيق من أوهامه، لا توجد في أيامنا هذه قصص حب من هذا النوع ولا تضحيات بهذه الجسامة، قل له إن ما يجمع الفقر والغنى في حياتنا الواقعية الآن ليس الحب.. ولكن القتال. قل له إنه لو كان يعيش في نيويورك، وليس في لوس انجلوس فربما لم يكن سيكتب مثل تلك الرواية مطلقاً. إننى ضابط شرطة قديم وعجوز. وتسعون بالمائة من جرائم القتل في هذه المدينة سببها الجوار اليومي بين منتهى الفقر ومنتهى الثراء، كلهم يعرفون ذلك ولكنهم يغالطون، فقط هم مفلحون في اتهام الشرطة بالتقصير، والشرطة لاتصنع الجريمة، لكن الجريمة هي التي تصنع الشرطة.

نهض الشرطى هنري من جديد بينما أقول له: على أى حال أريك هذا لا يبتعد كثيراً عن رأى المؤلف نفسه - أريك سيجال - لابد أنك تعرف أنه مدرس بالجامعة، وقد خاصمه الكثيرون من طلابه بسبب هذه القصة خصوصاً.. حيث اعتبروها نوعاً من الأدب الاستهلاكي الذى يسترضى الزبائن بالأوهام من خلال رواية لا علاقة لها بالواقع.

تهللت أسارير هنري مرة أخرى.. وعاد إلى الجلوس مرة ثالثة.. قانلاً لى بارتياح واستغراب: صحيح هذا شئ مهم للغاية.. شئ سأحكيه الليلة لابنتى سوزان.

فى تلك اللحظة كان وجه هنري قد تحول إلى شئ مختلف شئ لا علاقة له بعمله كشرطى، ثم بدأ يتحدث معى كما لو كانت تجمع بيننا معرفة ممتدة لسنوات سابقة.

قال هنري: هذا الفيلم «قصة حب» تسبب لى فى صدام متكرر، سوزان «ابنتى» ذرفت الكثير من الدموع حزناً على مصير البطلة.. بينما جاك «ابنى» لم يعجبه الفيلم من أساسه، وليلة بعد ليلة كان الاثنان يتشاجران كلما وردت السيرة.. فى النهاية وجدت نفسى منضماً إلى ابنى جاك فى الرأى ضد سوزان فالقصة فى هذا الفيلم لاتفعل أكثر من ترويح مخدرات عاطفية بين الجمهور. مخدرات لطبيعة العلاقة بين الفقر والغنى. صحيح أن الفقر يسعى دائماً إلى الثروة لكن الثروة تسعى فقط إلى

المزيد من الثروة. وطوال عملي في الشرطة لم أصادف حالة حب واحدة بين الفقر والثروة، لكنني عرفت فقط حالات من القتال بين الثروة والثروة.

سكت هنري للحظات كما لو كان يناجي نفسه، قبل أن يضيف: إنني أحب سوزان، فهي تعوضني بحنانها عن والدتها التي انفصلت عني في وقت مبكر، لكنني أيضا لا أريد لها أن تعيش في الخيال والأوهام، والفكرة التي يطرحها فيلم «قصة حب» هي أوهام في أوهام، واللييلة.. حينما سأنتقل إليها على لسانك رأى مؤلف القصة نفسه.. وربما تقتنع أخيرا..

قلت له محاولا تخفيف شعوره المفاجئ من الاكتئاب: لكن هذا ربما لا يعجب مستر سيجال المؤلف.. لقد قال لي رأيته هذا.. لكنه ربما لا يريد أن تعرفه ابنتك سوزان..

لم يتسم هنري، فقط تغيرت ملامحه من جديد، في هذه المرة يسترد وجهه قناع ضابط الشرطة وبكل صرامة يقول لي: لا بأس.. لا بأس.. المهم.. اريد أن أطمئنك إلى أن هذا الشخص سوف يلقي جزاءه حتما.. واتمنى أن يلقاه على يدي أنا..

سألته: أي رجل؟ اريك سيجال مؤلف القصة؟

- لا.. لا.. أتكلم عن اللص الذي حاول اقتحام غرفتك الليلة، إنني متأكد من أنه سرعان ماسيقع في قبضة الشرطة. هذا لص مبتدئ، لص غشيم. لو لم يكن غشيمًا لما ساقه حظه إلى مثل هذا المكان. أمامه آلاف الأماكن التي تستحق السرقة في نيويورك.. فيتركها جميعا لكي يأتي إلى السرقة من بيت شباب متواضع مثل هذا؟ ماذا سيجد في كل بيت الشباب هذا؟ إنه حتى كان مرتعشا فلم يحتفظ في يده بأداته في السرقة، لم يحتفظ بالسكين.

بعدها نهض هنري واقفا.. بتصميم على الانصراف في هذه المرة. عند الباب ربت بيده على كتفي، كما لو كان أبا ودودا يواسيني من أعماق قلبه.. قائلا: يابني.. لم أعرف من قبل أن هناك كتبا تساوي أن يعرض الانسان حياته للخطر بسببها، لا بأس، لا بأس حتى في حالتني وخبرتني كضابط شرطة عجوز.. ماتزال هناك ألغاز كثيرة في هذه الحياة لابد أن أفهمها.. احتفظ بكتبك هذه فلا بد أنها تساوي عندك الكثير، ثم حاول أن تنام الليلة بعمق.. فقد كتب لك عمر جديد. هذا في حد ذاته فرصة ثانية لا يحصل على مثلها الكثيرون من سكان هذه المدينة في هذه الأيام.



مصر .. ناقص واحد !



السابعة صباحا ليست موعدا مناسباً لتلقى خبر سييء أو قراءة خبر أسود. فإذا تعلق الخبر بقرار من النيابة العامة تطلب فيه من الشرطة «ضبط واحضار» مواطن.. فهذا يعنى خبراً أسود فى حياتى، أما بالنسبة للحاج صلاح فهو يعنى ماهو أكثر، يعنى: فضيحة بجلاجل.

لم يكن «الحاج صلاح» سوى رجل أعرفه، وما أعرفه عنه هو كل خير، بل إن مايفعله هو شخصيا من أعمال الخير فى محيطه القريب يستحق استضافته فى الصفحة الأولى، والآن هو فيها، لكن من خلال قرار منشور بالضبط والإحضار. هذا يساوى عمليا قرارا بإلقاء القبض عليه.

فى البلد أزمة إسكانية خانقة. وهربا من الإيجارات المحددة بناء على أسعار التكلفة، وسعيا إلى الربح السريع، اتجه أصحاب الأموال إلى إشاعة نظام بيع الشقق السكنية بنظام التمليك. وبين البائع والمشتري.. يفتح الله.

و«الحاج صلاح» تاجر شاطر وناجح. هو رجل عصامى بدأ حياته العملية مما يقترب من الصفر. لم يحصل على شهادة ولا تفذلك بلغة أجنبية ولا زوج أولاده فى حفلات صاخبة تقبل الصحف على تغطيتها والتبشير بالمزيد منها. رجل تضبط عليه الساعة. فى الثامنة صباحا هو فى مقر تجارته، وفى الثامنة مساء هو فى طريقه إلى منزله. فى لحظاته مع زوجته وأولاده هو فى سعادة هادئة. أحيانا يقلقه مايراه فى أولاد وبنات الجيران فيهتم أكثر وأكثر بالتعايش مع الأولاد.. يستمع إليهم ويحاورهم ويتابع أفكارهم.

فى حياته وجهان آخران للسعادة. أولا متابعة مباريات الكرة فى التلفزيون. وثانيا مشاهدة أفلام رأها فى التلفزيون عشرات المرات لكنه مستمر فى الاستمتاع بها. أفلام لفاتن حمامة وعبدالحليم حافظ ومحمد فوزى وليلى مراد وشادية وسعاد حسنى وعبدالفتاح القصرى الخ، يصلى الفرض فى موعده كلما تيسر ويصوم رمضان حتما ويقرأ صحيفة أو اثنتين يوميا. وبين وقت وآخر.. ربما يتابع خمس أو عشر دقائق من نشرة أخبار التاسعة، ثم يغلق جهاز التلفزيون من غير أن يعلق.

و«الحاج صلاح» أصبح حاجا حتى من قبل أن يذهب فعلا إلى بيت الله الحرام، وكما في الريف المصري التقليدي فإن معارف الحاج صلاح وزملاءه من التجار أعطوه لقب «الحاج» مبكرا من قبل أن يحج فعلا. عند البسطاء أبناء البلد مقياس واضح ومحدد تماما: إن الدين هو المعاملة. هذا رجل لا يفرط أبدا في حقه، لكنه لا يريد ما هو أكثر. هو أيضا يفي بحقوق الآخرين.. لكن ليس أقل. يشتري ويبيع ويتاجر بالكلمة. فحتى لو لم يوجد ورق مكتوب.. فإن الحاج صلاح يحترم كلمته ولو بخسارة. ماذا تعنى الخسارة أو المكسب هنا إذا شاع عنه أنه لا يصدق فيما يقول؟

أعطاه الله من الثروة ما يفيض وفكر في شراء أرض وبناء عمارة ينتقل إليها مع أولاده.. فكلهم يقتربون من سن الزواج. والأرض التي اشتراها هي في موقع شديد التميز، في واحدة من أرقى مناطق القاهرة وأغلاها. في الشارع عمارات مرتفعة شاهقة كلها بيعت بنظام التمليك والأسعار هنا باهظة والأرباح السريعة مؤكدة.

لكن الحاج صلاح اختار السباحة ضد التيار. اختار أن يجعل السكن في عمارته الضخمة بالإيجار. بالطبع هناك واقع منتشر اسمه «خلو الرجل» فمقابل العمارات القليلة الممكنة بالإيجار يطلب ملاكها من الراغبين مبالغ مالية خارج نطاق التعاقد كشرط للحصول على شقة. مبالغ تسمى خلو رجل تزيد أو تنقص حسب موقع العمارة أو حالتها. مبالغ تجرى خارج نطاق القانون والشرع والأصول، لكن الواقع الصعب كان قد أصبح أكبر من أي قانون.. والناس تحكمها الضرورة والضرورة لها أحكام.

مع ذلك اختار الحاج صلاح أن يجعل عمارته الضخمة الفخمة بالإيجار. بالطبع له نظريته الخاصة في ذلك. نظريته هي: أريد أن اختار جيرانى لا أن يختارونى هم. هذه عمارة ساقيم فيها.. وفيها سيتزوج أولادى، والجار.. يا أستاذ.. قبل الدار.. أما القلوس.. فلكل مجتهد نصيب.

والآن هاهو الحاج صلاح يقرأ الجريدة فى الصباح فيفاجأ بأن النيابة أصدرت أمراً بضبطه واحضاره والتهمة هي: إنه تقاضى خلو رجل بألاف الجنيهاات حسب شكوى محددة ضده. وطبقا للقرار بأن أى ساكن يشكو من اضطراة إلى دفع خلو رجل إلى صاحب عمارة سوف يسترد مادفعه فورا وإلا تعرض صاحب العمارة للحبس فى التو واللحظة. يكفى أن يأتى الشاكى بشاهدين يصدقان على كلامه فتدور عجلة السلطة بين حدين مقررين سلفا: الدفع أو الحبس.

هكذا اتصل بى الحاج صلاح فى السابعة صباحا.. وبغير كثير من الشرح خلجات صوته تعكس فى التو واللحظة حجم المصيبة التى يرى نفسه فى بؤرتها على حين غرة.

هذا رجل من مقام الأب سنا. مع ذلك أصبح يجلس أمامى متوتر الأعصاب زائغ العينين متقطع الكلمات مشوش الأفكار.. فى تناقض كامل مع كل ماعرفته عنه من قبل. والجملة المفيدة الوحيدة التى فتح الله بها عليه هي: قل لى يا أستاذ.. ماذا أفعل مع هذه المصيبة؟ هذه الفضيحة؟

سألته مغتصبا ابتسامة تسبق كلماتي: يا حاج صلاح.. إذا كان هذا بلاغا كيديا ضدك.. فما هو

الدافع؟

تصور الحاج صلاح للحظة أنني أيضا ربما صدقت الخبر المنشور. فامتقع وجهه أكثر وأكثر وهو يجيبني بقوله: حتى أنت يا أستاذ؟ هذا شخص كان قد طلب مني شقة ولكني لم استرح لسمعته فرفضت وأعطيت الشقة لآخر هو الذي يسكنها الآن. لم أحصل من الآخر ولا من غيره على جنيته واحد لأنني لأقبل الحرام على نفسي ولا على أولادي. صدقني.. وحياة أولادي.. هذا كل ما حدث.

حينما يقول الحاج صلاح وحياة أولادي فهذا يعني في قاموسه الكثير الكثير. ومن ناحيتي لم يخالجني الشك لحظة واحدة في كيدية البلاغ. فقط كنت أريد السيطرة على حالة الغليان في داخلي حتى أفكر مع الحاج صلاح بهدوء. فمبدئيا أعرف أن الجريدة المذكورة لن تنشر أي رد يريده الحاج صلاح كمواطن أصيب في سمعته. لن تكذب الجريدة نفسها، والحجة جاهزة: نحن لم نؤلف الخبر فهو صادر عن النيابة العامة. إذن.. هل أشرح له محاميا قديرا يقف إلى جانبه؟

قلت له: الموضوع هنا أمام محكمة أمن دولة، دعنا نصب عمليين.. فالمسألة هنا ليست فصاحة محام من عدمها.

لقد أصبحت أكثر وأكثر غليانا في داخلي وأنا أفكر من المنظور الآخر. هذه عمارة ضخمة فخمة في شارع كل عماراته تملك.. إنها العمارة الوحيدة في الشارع بالإيجار، وبحسبة بسيطة لعدد الشقق والطوابق نصيب أمام مليون جنيته.. في أقل القليل.. متاحة للحاج صلاح كخلو رجل نقدا وبغير أي ورق مكتوب ولا مستمسكات. بالطبع أعرف تأكيدا.. أن الحاج صلاح لم يتقاض جنيها واحدا.. لكن المشكلة هي: كيف يصدق وكيل النيابة المختص.. وهو في النهاية بشر يعيش في هذا المجتمع ويعرف أحواله.. ان مواطننا كالحاج صلاح رفض مليون جنيته واكتفى بالإيجار المحدد حسب القانون؟

قلت له: يا حاج صلاح.. سأشير عليك بأمرين أولا.. اذهب إلى النيابة في موعد الاستدعاء المقرر، وبلا محام. ثانيا: اجمع لي توقيعات كافية على هذه الورقة.. ناولته ورقة كتبت فيها لتوى أسطرا قليلة خلاصتها أن الموقعين أدناه هم السكان، وبذلك الصفة يتطوعون بالشهادة بأن أيا منهم لم يدفع للحاج صلاح أية مبالغ خارج نطاق عقد الإيجار.

للحظة أو للحظتين بعد أن قرأ الحاج صلاح الأسطر القليلة في الورقة.. تطلع إلى بقدر من التشوش وعدم التأكد. ربما المعرفة، أو التجربة، أو الثقة.. هي فقط ما جعلته يلتزم بما اقترحته. وفي الصباح التالي جاءني ومعه الورقة بأسماء السكان وصفاتهم وتوقيعاتهم. في هذه المرة جاء وفي صحبته اثنان من السكان.

قرأت الورقة مرة واثنتين وثلاثا ولأول مرة منذ أربع وعشرين ساعة يتبخر الغليان في داخلي، ولأول مرة أبتسم بحق وأنا أقول: اسمع يا حاج صلاح.. لقد ضاعت منك، وبخاطرك وضميرك، مليون جنيهه في أقل القليل لأنك لم تقبل الحرام مؤمنا بأن الله الغني. والآن.. بهذه الورقة يعوضك الله بما هو أهم جدا جدا من المليون جنيهه. الآن.. دعني اصب لك الشاي قبل أن اشرح لك باقى فكرتى.. كانت الفكرة بسيطة، لقد اقترحت على الساكنين أمامي أن يذهبا بمفردهما إلى أقرب مركز للشرطة ويقدمان صورة من هذه الورقة.. الإقرار.. الشهادة.. ويسجلانها كبلاغ منهما نيابة عن سكان العمارة، فقط أريد رقما للبلاغ وخاتم مركز الشرطة.

بعدها فقط ذهبت إلى زملائي في الجريدة أتشاور معهم: تحبون الأخبار ومصائب الناس؟ والبلاغات الكيدية حتى وهى مانزال فى مرحلة التحقيق؟ إن هذا خبر مهينى تماما. وبهذا المقياس أظن لن تكذب الجريدة نفسها. فقط. السكان هم الذين يشهدون ضد البلاغ الكيدى. بهذا المقياس أيضا أظن أنه خبر يستحق النشر بالصفحة الأولى. إلا إذا كان هناك فى مهنتنا قانون خفى لا أعرفه يقرر أن الصفحة الأولى هى فقط لأشرار الناس.. وليست أيضا لأخيار الناس.

فى الصباح التالى جاءنى الحاج بلا تليفون ولا موعد، وهو فى حد ذاته حدث جلل لا يفسره سوى فرحته بالنسخة فى يده من الجريدة، وفرحته أكبر وأكبر بالخبر المنشور تحت عنوان: «لأول مرة السكان يتطوعون لانصاف صاحب عمارة». وفى الخبر تسجيل لواقعة بلاغ الشرطة وأسماء السكان جميعا وصفاتهم.

جلس الحاج صلاح وانضم إلينا بعد دقائق ثلاثة آخرون من السكان، وقبل أن أكمل لهم اقتراحى الجديد كانوا هم أسبق منى فى الاسترسال. نعم سوف نسبكك جميعا إلى مكتب وكيل النيابة فى موعد الاستدعاء. نعم. سوف نعرض على وكيل النيابة تسجيل شهادتنا فيما سيجريه من تحقيق نعم.. نعم.



لقد صدر قرار النيابة بعد ذلك بحفظ الشكوى ضد الحاج صلاح لأنها كيدية. لكن الجديد هو الحثثات التى صاغها وكيل النيابة واعتمدها رئيس محكمة أمن الدولة، حيثيات اقترحت على زملائي فى الجريدة نشرها حرفيا، وبقدر كاف من الابرار. لم تكن الفكرة عندى تتعلق فقط بالحاج صلاح من حيث هو شخص محدد أعرف شخصا مدى صدقه. لكن الفكرة الأكبر هى: لا يكفى فى مجتمعنا أن نحب العدل فالوجه الآخر هو أن نصحح الظلم. لا يكفى أن نشجع الجمال ولكن علينا أن نظارذ القبح. لا يكفى أن نؤازر الصدق لأن هذا لا يكتمل إلا بأن نحاصر الكذب. لا يكفى أن نتمسك بالخير، لأن الخير لن يصبح خيرا إلا بعد أن نؤكد مرة بعد مرة أننا نحارب الشر.



وتلك التجربة تحديدا ربما جعلت الحاج صلاح يتيح لى من دخاله وهمومه ماكان يحتفظ به لنفسه.. مع أننا من محيطين مختلفين تماما. هناك واقع مشترك يجمع بيننا. وهناك هموم وقضايا عامة أصبحت أكتشف بين وقت وآخر أنها ليست خافية عن فطنة الحاج صلاح واهتماماته حتى ولو لم يكن متبحراً فيها. وكلما كان يبدأ حديثه معى بالاستفسار، «قل لى ياأستاذ..» كنت أستوقفه مقاطعا: يا حاج صلاح لاتسمنى أستاذاً من فضلك لأسباب عديدة من بينها أننى حريص على أن اظل تلميذاً أتعلم يوماً بعد يوم.

وفى اللحظة التى يهيا لى فيها انه مقتنع.. إذا به يفاجئنى من جديد: قل لى يا أستاذ.. بالأمس ذهبت إلى الصيدلية اشترى دواء لمقاومة نزلة البرد التى ألت بى. دواء اسمه «كوزافيل» دواء بديع وفعال وانتاج مصرى وبجنيهين اثنين فجأة قال لى الصيدلى إنه غير موجود، وأعطانى بدلا منه دواء انجليزى الصنع وبعشرة جنيهات. دعنا هنا من حقيقة ان هذا الدواء البديل هو بخمسة أمثال السعر، لكنه دواء أجنبى. كيف يحدث هذا؟ ماله الدواء المصرى؟ لقد كنا نصدر أدوية كثيرة من انتاجنا إلى الخارج قبل سنوات وسنوات. الآن كيف تنقلب الآية ونعود مرة أخرى لنصبح مستوردين لما نجحنا فيه؟

أو: قل لى يا أستاذ.. زيت الزيتون الذى اشتهرنا بإنتاجه منذ عشرين وثلاثين سنة.. لماذا يختفى ولاأجد فى المحلات غير زيت زيتون من إسبانيا أو من اليونان.. وبأضعاف أضعاف السعر؟

أو: قل لى يا أستاذ.. أين منسوجاتنا التى اشتهرنا بها لأننا بلد ينتج أفضل أنواع القطن فى العالم؟ متر الكشمير من انتاج شركة المحلة الكبرى كنت اشترىه من زمن لى ولأولادى بـ ٢٣٠ قرشا وأهدى منه لتجار عرب عديدين كانوا يجيئون لزيارتنا.. قماش اللينوه من مصانع الشورىجى.. كنا نشترىه بالواسطة.. وبالحجز.. أين اختفى؟

أو: قل لى يا أستاذ.. انا رجل تاجر، وأعرف أن عمولة التاجر فى بيع دواء بعشرة جنيهات هى خمسة أمثال عمولته فى بيع دواء بجنيهين لكن المشكلة هنا هى فى توفر الأول واختفاء الثانى.. وفى بلدنا. يوجد خلل كبير هنا.. ما هو؟

أو: قل لى ياأستاذ.. موبيليات دمياط الشهيرة.. كنا إذا لم نجدها متوافرة فى القاهرة نذهب إلى دمياط لنشتريها بالتوصية.. لماذا لم نعد نرى الموبيليات المصرية ولا عدنا نسافر إلى دمياط؟

أو: قل لى ياأستاذ.. مالها الثلاجة المصرية المشهورة فى بيوتنا من ثلاثين سنة، وكنا نصدر منها الآلاف إلى الخارج، كيف تختفى أو تصبح نوعيتها أقل وسعرها أعلى.. وفى نفس الوقت نترك مكانها عن طيب خاطر لعشرات من الماركات الأجنبية؟

أو : قل لي يا أستاذ.. الخواجات يتكلمون كثيرا عن المنافسة. كلام عظيم. لماذا إذن يشترطون على من يعرض انتاجهم في محلاتنا أن يمتنع بالمرّة عن عرض البديل المصرى الأرخص ؟

أو : كثيرا كنت أحدى لأولادى اننا زمان كانت عندنا حاجة اسمها «عقدة الخواجا»، تعبنا سنين لغاية ماربنا شافنا منها، دلوقتى، الخواجة ذات نفسه موجود.. لكن حتى الدواء غير موجود..

أو : قل لي يا أستاذ.. التجارة شطارة، هذا صحيح. لكن التجارة وطنية ايضا. حينما أشتري الدواء المصرى أو الثلاجة المصرية أو الإنتاج المصرى عموما فإن هذا معناه أن الزارع والصانع والمنتج والبائع استفادوا، وكلهم مصريون.

يعنى المصانع فى بلدنا تكبر وتكثر والخير يزيد والشباب يشتغل والناس تكسب ومستقبلنا - يعنى مستقبل أولادنا - يصبح أفضل.

أو : تحب أقول لحضرتك مقياس مهم ولا مؤاخذه؟ تابع الإعلانات.. فى التلفزيون أو الجرائد أو المجلات. أحسب كم سلعة أجنبية قادرة تلح بإعلاناتها.. وقارنها بكم سلعة مصرية.. تعرف على طول أولادنا رايعين فين..
أو.. أو.. أو.. أو.. أو.. أو..



فجأة سمعت الخبر بالتليفون. بعد التليفون أمسكت بصفحات الوفيات. فى الصفحات بدعة جديدة منذ سنوات قليلة.. حيث مساحات النعى تكاد تصبح بالأفدنة تباهايا بالثروة والقدرة على الدفع والشراء والتباهى بالثروة.. حتى فى الموت. أما الحاج صلاح تحديدا فلم يزد خبر وفاته على عشرة أسطر. لو أراد أولاده لاشترروا من الجريدة صفحة بكاملها إعلانا لوفاة والدهم. لكن الخبر كان مختصرا، وفقط من قبيل الإعلام والتسجيل. فى آخر النعى جملة بسيطة تماما: الأسرة ترجو من يقرأ النعى أن يقرأ الفاتحة على روحه.

لم أدرك أن الجريدة سقطت من يدي. فقط أدركت أن الفقيد رحل لكنه لم يمت.. فقد أخذ عنه أولاده ذلك الادراك الغريزى لأبناء البلد بأن للثروة مسئولية اجتماعية، وانتماء وطنياً وهموماً عامة، وقانوناً خفياً يحكمها عنوانه: الحلال بين.. والحرام بين.. وفى مجتمعنا كثيرون كثيرون من هذا الرجل العصامى الحاج صلاح. كثيرون فاهمون. كثيرون يكدحون ويكسبون ويعرفون الحلال من الحرام. هم لا يحبون أبداً مقاعد الصفوف الأولى. لا يحبون التباهى بثرواتهم ويرفضون التحول إلى نجوم مجتمع ملفق وطلاب شهرة كاذبة.. لأنهم سعداء بحياتهم ونجاحهم وسط الملايين من البشر. لكن هذا كله لم يسحب منى فى ذلك الصباح إحساسا محددا. لقد نقص عدد المصريين واحدا.

إنما : أى واحد ؟

أم أحمد زويد .. وبالعكس !



إجابة أولى : الإنسان مخلوق متزن. بجسم يرتكز على قدمين تزمان ٢٨ مفصلا، بمولد كهربائي كيميائي. تكمله خزانات معزولة من الطاقة.. فى بطاريات حاشدة، بموتورات ملحقة. جسم يضم ٦٢ ألف ميل من الشعيرات، وملايين من إشارات المرور والإنذار. جسم يحتوى على شبكة سكة حديدية وناقلات وروافع.. حيث الذراعان فى الجسم يزمان ٢٣ مفصلا ومحطات تشحيم ذاتية، وشبكة تليفونات لا تحتاج إلى صيانة لمدة سبعين سنة إذا أحسن استخدامها.

«ان هذا التركيب المعقد وغير العادى لجسم الانسان يعمل كله بدقة بديعة من خلال برج يضم آلات تلسكوبية وميكروسكوبية، وملحق به أيضا شبكة لتسجيل المعلومات والأحداث السابقة، وأجهزة لتحليل أطيف الأشعة، و.. و..»



إجابة ثانية : هناك أناس كثيرون يتصورون أن الطلاب الدارسين فى الطب يجب أن يتفرغوا للطب وألا يلعبوا مثلا. أنا لا أوافق. إذا لم تكن لطالب الطب ألعاب وهوايات أخرى، وإذا كان يقضى كل وقته فى قراءة المراجع الطبية فقط، فإنه ربما يعرف كتبه أحسن من الرجل المجاور له. أقول ربما. لأنه ليس من المؤكد أبدا أنه سيعرف كتبه أحسن. إن من المحتمل أنه سيكون أكثر معرفة بما هو مكتوب فى الكتب. ولكن ليس أكثر معرفة بمعنى ما يقرأ. إن على رجل الطب أن يعرف الناس وأن يعرف الطبيعة الإنسانية..»



إجابة ثالثة: «العلم المفرط فى تخصصه لا ينتج عالما إنسانيا. إن شأن مثل هذا العالم مثلا هو كشأن الخراط أو النجار الذى يحسن الخراطة والنجارة إحسانا كاملا لا يجاريه فى ذلك أحد. ولكنه إذا ترك هذا المجال لم يكن بعد ذلك شيئا. انما العلم الذى اعتبره علما.. هو ذلك الذى لا يؤدى بمن يتخصص فيه إلى العزوف عن سائر أبواب المعرفة. إنه العلم الذى يجعل الرجل إنسانا، وهو الذى يجعل له من الحياة معنى، ويجعل له فى الدنيا فلسفة..»

... هيأت نفسى لأسمع إحدى الإجابات السابقة، أو شيئا قريبا منها من الدكتور أحمد زويل فيما تابعت له من حوارات تليفزيونية، أو فيما كنت مدعوا له من ندوة معه بدار الأوبرا حالت ظروفي الشخصية دون تلبيتها. لكن الرجل لم يقل أيا من تلك الإجابات لأنه أصلا لم يستمع إلى أسئلة تكون تلك إجاباتها. وكما نعرف.. فإن صياغة السؤال هي في حد ذاتها نصف الإجابة.

والإجابة الأولى التي بدأت بها هي معلومات متاحة عن الإنسان من حيث هو كائن عضوى. أما الإجابة الثانية فصاحبها الكسندر فيلمنج مكتشف البنسلين. والإجابة الثالثة هي التي كنت قد سمعتها من الدكتور أحمد زكى عالم الكيمياء المصرى الراحل.. والذي كنا فى صباننا نقابع كتاباته العلمية المبسطة فى الصحف.. بشغف وشوق.. لأنه لم يكن يشرح لنا فقط ما هو العلم.. لكن أيضا كيف يجب أن يفكر العلماء.

مع ذلك لفت نظرى ما سمعته من عشق الدكتور أحمد زويل لصوت أم كلثوم وأغانيها، برغم حياته الأمريكية طوال ٢٩ سنة. هو عالم فيزياء وأستاذ فى جامعة أمريكية وسجل اكتشافا علميا مهما. لكن ضيق تخصصه العلمى لم يُلغ اتساع اهتمامه بالمشاعر الإنسانية كالحب والغرام والشجن والطرب والألم والمتعة.

ثم استوقفتنى فيه شئ آخر. لقد تخرج فى كلية العلوم فى جامعة الاسكندرية فى سنة ١٩٦٧. سنة زلزال يونيو ١٩٦٧ وغزوة إسرائيل الكبرى. لكن الدكتور زويل تحدث عن الزلزال باعتباره انكسارا للحلم المصرى الكبير. وزاد على ذلك بأن الهجرة المصرية الكبيرة إلى أمريكا لم تبدأ إلا بعد سنة ١٩٦٧ وربما بسببها. ومع أن كلماته هنا وردت عابرة وليست فى صلب الموضوع.. إلا أننى أريد أن أقول له: لحظة من فضلك. لحظة للمراجعة أو للفحص أو حتى للدقة العلمية.

فى سنة ١٩٦٧ واجهنا فى مصر زلزالا مروعا كنا بعضا من وقوده وضحاياه. وإذا كان من واجبنا أن نتحسب لزلزال من تلك النوعية بالأمس واليوم وغدا.. إلا أن التاريخ البشرى كله لم يعط شعبا واحدا حصانة مطلقة ضد الزلازل والآلام. فى الواقع إن الشعوب العظيمة حقا هي التى تتعلم من آلامها قبل أن تتعلم من انتصاراتها. وفى يونيو ١٩٦٧ جرى ضرب مصر بغزوة اسرائيلية. لكن المصريين الذين ضربوا هم أنفسهم الذين لم يستسلموا، ورفضوا أن تكون تلك الضربة قاضية عليهم أو ساحقة لأحلامهم. وأبسط نموذج لذلك هو أحمد زويل نفسه.

هو من دفعة ١٩٦٧ الجامعية. تلك الدفعة تحديدا وما تلاها هي التى قرر المصريون ان ينهضوا بها من جديد. هناك جيش عصرى جديد بدأ بناؤه على الفور. وبجنود جامعيين أصبحت تستلزمهم الأسلحة الحديثة. فى كليتى بجامعة القاهرة مثلا جرى تجنيد أكثر من سبعين فى المائة من دفعة ١٩٦٧ والدفعات التالية. دفعات وكليات أخرى جرى تجنيد نسبة أكبر أو أقل من خريجيتها.

والسبب في ذلك كان بسيطاً وعملياً. السبب هو أن الحلم المصري لم ينكسر. حلم النهضة والقوة والعصرية لم ينكسر. هذا يعني أولياً التعامل مع زلزال يونيو ١٩٦٧ باعتباره صفحة في كتاب. صفحة سبقتها صفحات وستتلوها صفحات. ربما فات مصر أن تكون صاحبة الكلمة الأولى. لكن لن يفوتها أبداً أن تكون صاحبة الكلمة الأخيرة.

وأول مصادر قوة مصر في تلك المرة أصبحت مجانية التعليم بالكامل من الابتدائي حتى الجامعة، وهو ما كان قد بدأ فعلاً قبل سنوات بعد أن أصبح الأقتصاد المصري لأول مرة قادراً على تغطية تكاليف هذا التوسع التعليمي. وبغير تلك المجانية التعليمية المبكرة أشك كثيراً في أن أحمد زويل وكثيرين غيره كانوا سيعرفون الطريق إلى أية جامعة، فما بالنا بالسفر إلى الخارج على نفقة تلك الجامعة.

هؤلاء الخريجون الجامعيون الجدد، نتاج استثمار مصر مبكراً في نهضتها التعليمية، أصبحوا هم أنفسهم أول أسلحة مصر في الرد على زلزال يونيو ١٩٦٧. بعض هؤلاء الخريجين أصبحوا جزءاً من إعادة بناء القوات المسلحة. والبعض الآخر جزءاً من النهضة الأوسع في المجتمع المعرض. هناك من ذهبوا إلى أسوان مثلاً لاستكمال بناء السد العالي. هناك من ذهبوا إلى نجع حمادى للشروع في بناء مجمع الألومنيوم. هناك من بقوا في كلياتهم لاستكمال مشوارهم العلمي.

وأحمد زويل واحد من هؤلاء. لقد أصبح معيداً في كلية العلوم بجامعة الأسكندرية، وبمرتبة عشرين جنيناً شهرياً حسب ما هو متاح وقتها. كانت مصر تغرق المدمرة الإسرائيلية «إيلات» في عرض البحر الأبيض المتوسط، وفي نفس الوقت تفتتح المصانع الجديدة وتستكمل لجامعاتها هيئاتها التدريسية سعياً إلى مزيد من التعليم والعلم.

هل هذا سلوك شعب انكسر حلمه؟ لقد أصبح أحمد زويل معيداً واختار أن يرأسل جامعات أجنبية، وحينما جاءت له منحة دراسية للحصول على الدكتوراة من جامعة أمريكية وافقت له كليته وجامعته بالإسكندرية. أكثر من ذلك فقد تحملت كليته وجامعته المصرية نفقات سفره إلى الولايات المتحدة - نفس الدولة التي كانت مصر قد قطعت معها العلاقات الدبلوماسية بسبب دورها في يونيو ١٩٦٧.

وحينما سافر أحمد زويل فعلاً في سنة ١٩٦٩ كان حاصلاً من كليته بجامعة الإسكندرية على إجازة دراسية. بمرتبة. هذا يعني أن مصر، وهي البلد التي تحارب عدواً غاصباً لأرضها في حرب استنزاف دامية، هي أيضاً مصر التي تبعث لأحمد زويل وزملائه بمرتبات شهرية بالدولارات الأمريكية، ليس لسنة واحدة أو سنتين.. وإنما لسبع سنوات متتابعة إلى أن توقف أحمد زويل عن طلب مد إجازته الدراسية.. لأنه اختار الاستقرار في الولايات المتحدة نهائياً.

والدول النامية، كحالنا في مصر، لا تحول جزءاً من أموالها إلى أبنائها الدارسين في الخارج لأنها أموال فائضة عن شعبها في الداخل. لكنها تفعل ذلك فقط لإيمانها بالمستقبل، وتريد من أبنائها أن يكونوا جزءاً أساسياً من الاستثمار في هذا المستقبل.

بعض هؤلاء الأبناء، بمجرد حصوله على الدكتوراة في الخارج، تجعله الصدمة الحضارية يعجل بالعودة إلى مصر ليصبح جزءاً من إصرارها على التقدم. الدكتور أحمد زكي مثلاً، بعد أن حصل على دكتوراة في الكيمياء العضوية في جامعة ليفربول في بريطانيا، ثم دكتوراة ثانية في العلوم البحتة من جامعة لندن، عاد ليصبح أول عميد مصري لكلية العلوم بجامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة فيما بعد). وحتى ذلك الوقت كانت سلطات الاحتلال البريطاني في مصر تصر على أن يكون العميد انجليزي الجنسية.

الدكتور إبراهيم حلمي عبدالرحمن مثلاً.. عاد لكي يثير في مصر وعياً شاملاً بأهمية التخطيط في صناعة المستقبل. الدكتور عزيز صدقي عاد من جامعة هارفارد الأمريكية لكي يترجم إيمانه بعصر الصناعة إلى دعوة صارخة بضرورة اقتحام مصر عصر الصناعة لكي تعوض ما فاتتها بسرعة. والآن.. لتتخيل مع المركز القومي للبحوث العلمية في مصر بغير أحمد زكي. أو هيئة الطاقة النووية بغير إبراهيم حلمي عبدالرحمن. أو حال الصناعة المصرية بغير عزيز صدقي. وقبل هؤلاء جميعاً.. لتتخيل حالة الأدب العربي الحديث لو كان طه حسين قد اختار البقاء في فرنسا بعد حصوله على الدكتوراة.

هناك أيضاً من الأبناء من يسرقهم الوقت سعياً إلى المزيد من المعرفة والتخصص.. أو يريحهم انضباط وسخاء المجتمع العلمي في الغرب فيطيلون من الغربة أو يحصلون على الجنسية الجديدة في البلد الذي اختاروا الاستمرار فيه. من هؤلاء مثلاً أحمد زويل الذي أصبح عالماً متميزاً في الفيزياء بجامعة كاليفورنيا، وقد تحدث مؤخراً عن سعيه إلى إقامة نمط جديد من المجتمع العلمي الأكاديمي في مصر خلال سنوات قليلة.

وشراة العالم هنا لا تكتمل إلا برؤية رجل السياسة. وما تابعناه مؤخراً، مثلاً، من قدرة باكستان على صناعة القنبلة النووية على يد فريق علمي برئاسة الدكتور عبدالقادر خان لم يكن ممكناً إلا برؤية سياسية مبكرة في سنة ١٩٧٤ من «ذو الفقار علي بوتو» رئيس الوزراء في وقتها. ودخول مصر عصر الصناعة الحديثة بقيادة عزيز صدقي لم يكن ممكناً إلا برؤية متكاملة خطط لها جمال عبدالناصر.

والآن تفاعل المصريون جميعاً من الاهتمام الذي أعطاه حسنى مبارك رئيس الجمهورية وكمال الجنزورى رئيس الوزراء للدكتور أحمد زويل وافكاره.. اهتمام لا بد أن له ارتباطاً أوسع بالمجتمع

العلمي في مصر، وسيصبح التفاؤل أكبر وأكبر حينما يتسع الاهتمام ليشمل فريقا متكاملًا من العلماء المصريين باتساع العالم. نعم.. في أمريكا تبدو الحياة أسهل والمرتبات أعلى وأدوات البحث العلمي أوفر. لكن هذا كله تفعله أمريكا لحسابها ولحساب شعبها.. وليس لكي تتصدق به على الآخرين.

وقبل أيام سئل الدكتور عبدالقادر خان، قائد وراعي البرنامج النووي في باكستان، مرتين. في المرة الأولى كان السؤال هو: باكستان بلد فقير.. فمن أين جئتم بالموارد المالية الكافية لإقامة برنامج نووي قادر على صناعة الأسلحة النووية ؟

وكان رده هو: بالضبط لأننا بلد فقير فنحن بلا أوهام. أما عن التكلفة المالية فيكفي أن أقول لكم ان ما يتكلف في أمريكا مائة مليون دولار نصنعه نحن هنا بخمسة عشر مليون دولار.

وبتلك الإجابة الذكية المختصرة يريد عبدالقادر خان أن يوضح طبيعة التحدي المزيج أمام رجل العلم في دولة نامية. إن العالم هنا ليس عليه فقط أن يناطح نظيره الأمريكي أو الأوروبي علما بعلم، ولكن أيضا بموارد محدودة لا يملك وطنه التبذير فيها أو الرفاهية في استخدامها.

أما السؤال الثاني الأكثر أهمية، الموجه إلى عبدالقادر خان، فهو: كيف أقنعت نفسك بترك المركز والجاه والمرتب الضخم الذي كان متاحا لك في جامعات أوروبا لكي تعود إلى باكستان قائدا لبرنامجها النووي.. وقانعا بمجرد أربعمائة دولار مرتبا شهريا ؟ وأهمية السؤال هنا تكمن في واقعيته. ففي الجامعات الأوروبية التي برز فيها عبدالقادر خان كان يحصل على آلاف الدولارات كمرتب شهري، زائد إمكانيات علمية متاحة له وبقدر ما يطلب، وحتى سكرتيه كان مرتبها ألفي دولار.

صحيح. كيف يترك عبدالقادر خان كل هذا لكي يعود إلى باكستان قانعا بمرتب يساوي خمس مرتب سكرتيه الأوروبية ؟ كيف أقنع نفسه ؟

ورد عبدالقادر خان: أقنعت نفسي بحقيقة بسيطة واحدة.. إن باكستان هي وطني. وبذلك الصفة فقد غامرت بالإنفاق على تعليمي مبكرا حتى من قبل أن تتأكد من أنني سأكون جديرا بهذا التعليم. كنت طفلا كالآخرين. وطالبا كالآخرين.. ووطني أنفق على تعليمنا بلا تفرقة ولا تمييز. فإذا أصبحت أنا متميزا في نهاية المطاف فإن البذرة الأساسية هنا زرعتها أمي.. وجامعتي.. وبلدي.. ووطني..

والطفل فينا يكبر ويتعلم ويسافر ويلف الدنيا بغير أن ينسى للحظة واحدة أن أمه هي التي ادخرت ليأكل.. وسهرت ليكبر.. وتعبت ليسترىح.. وجاهدت ليتعلم وشقيت ليتميز.. وتحملت ليتفوق.

حسنًا.. دعنا هنا نأخذ الأم في سياقها المصري. فأحمد زويل من مدينة دسوق. هو مستقر وناجح في أمريكا وبين وقت وآخر يأتي لزيارة مصر وبدأ يحلم لحسابها. لكن الحقيقة الأولى في حياته ستظل هي أمه.. والحقيقة الأولى في حياة أمه ستظل هي دسوق كمدينة.. ومصر كوطن.

في دسوق، والقرى المجاورة، هناك أيضًا أمهات أخريات. منهن من بعثت بابنها إلى شمس أسوان الحارقة ليستمّر سنوات في بناء سد عال بغير أن تعرف مسبقًا أن هذا السد هو ذاته الذي سيقوم بعد ذلك، وطوال سبع سنوات عجاف، بحماية ملايين المصريين من أكبر مجاعة هددتهم طوال القرن العشرين.

ومنهن من شحنت ابنها بطاقة معنوية هائلة لكي يتخرج في كلية الهندسة ويلتحق فورًا بالقوات المسلحة ضابطًا مهندسًا في أكبر حائط صاروخي تقطع به مصر نراع إسرائيل الطويلة ضد ملايين المصريين.

وفيما بين هذه وتلك.. في مصر الآن ١٦ مليون طالب ينهبون إلى مدارسهم وجامعاتهم كل صباح.. مشحونين مسبقًا بطاقات نفسية هائلة تعطيها الأم المصرية لأبنائها اعتقادًا غريزيًا بأن التعليم والعلم، هما المفتاح إلى المستقبل.

نعم. هي الأم المصرية.

يلف ابنها العالم. يصول ويجول. يتفوق وينجح. يغترب ويبتعد، وبين وقت وآخر هو يزورها. لكنها في نهاية المطاف لها خيار محدد. خيارها هو قريتها. وشارعها، وبيتها وجيرانها. بهؤلاء تنفست الهواء. ومع هؤلاء تقاسمت الهموم، ومن هؤلاء تأكدت أن المستقبل أصبح أفضل طالما الأبناء أصبحوا أنجح. هي الأم المصرية.

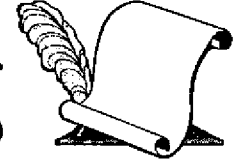
للهولة الأولى يخيل لك أن التعليم فاتها.. والقدرة تخونها.. والحياة تلاطمها.. والزمن يهد حيلها. لكن: احترس من فضلك ولا تخطيء الحساب.

ففي لحظات الشدة تتحول هذه الأم البسيطة الوديدة رقيقة الحال إلى إرادة من فولاذ وصلابة من جيل.

هل يوجد مثل هؤلاء الأمهات في مصر، ومن الإسكندرية حتى أسوان، وجيلًا بعد جيل ثم يتحدث أحد بعد ذلك عن انكسار الحلم المصري؟



جول .. من غرفة الكونزول



فى الحرب العالمية الأولى كانت بريطانيا طرفا محاربا أساسيا إلى جانب فرنسا.. مقابل تحالف مضاد من ألمانيا وروسيا. ولأن الحرب طالّت وجبهات القتال اتسعت فقد أرادت الحكومة البريطانية أن تشحذ هم أبناء شعبها للتطوع والمساهمة فى المجهود الحربى. وبدأت حملة إعلانية كبرى لصالح الحرب. فى تلك الحملة كان الإعلان الأكثر رواجاً وانتشاراً وشعبية و«إحراجاً» هو ذلك الذى تحول إلى ملصق ضخم فى الميادين العامة والشوارع الرئيسية بكل المدن الكبرى.

والإعلان بسيط ومختصر، فهو عبارة عن لوحة لطفل صغير يستفهم فى براءة من والده الجالس أمامه متسائلاً: ماذا كنت تفعل اثناء الحرب يا بابا ؟

ربما شىء قريب من ذلك هو الذى دفعنى إلى فتح جهاز التلفزيون لمشاهدة بضع دقائق من حفل افتتاح مباريات كأس العالم هذه السنة - المونديال - فى فرنسا. لكن الدقائق القليلة التى صورتها تحولت إلى ساعات وأيام متتالية جعلتنى أتفرج فعلاً على كل مباريات كأس العالم، فيما أصبح أنقلاباً جذرياً فى كل برنامجى اليومى. لقد توقفت لغة الكتابة وحلت محلها لغة من الأجوال والقاولات وضربات الجزاء وركلات الترجيح.. الخ.

واتصل بى جورج نوفل من إذاعة «مونت كارلو» ليسألنى بقلق: أستاذ.. تأخرت فى تعليقك المنتظم. كرمال الله. هون بيصرخوا فى الاستوديو..

قلت له: يا جورج، هون بيصرخوا أيضاً لكن من غير استوديو.. ألا تتابع مباريات كأس العالم؟ أجبني المذيع المعروف: ولو.. قسمناها أنا وزوجتى.. هى يوم وأنا يوم.

أما الصديق عبدالوهاب بدرخان - لبنانى أيضاً - فقد اتصل بى من لندن منزعجاً: وين المقالات؟ صحتك مليحة؟ قلقتين عليك.. شو صار ؟

قلت له: صار كأس العالم ياعبد الوهاب.. فرنسا الأم الرؤوم تكافح وأنت قاعد فى لندن؟ بعدين يزعل منك الرئيس (جاك) شيراك. رد عبدالوهاب: شيراك هذا مقدور عليه. لكن صاحب الجرنال غير هيك..

قلت له: على أية حال أنا هنا في القاهرة اتفرج لحسابك في لندن ولحساب جورج نوفل في مونت كارلو وبالمرة لحساب رفيق الحريري في لبنان. المهم خليك شاهد لوقت الحاجة.. إذا سألك أحد كان فين المذكور أثناء المعمة، ترد فوراً: كان مندمجاً في كأس العالم. وصيتك الأولاد ياعبدالوهاب.

لم يكن للمذكور - كاتب هذه السطور - أى تعلق سابق بكرة القدم زائد عن حده. مع ذلك فقد اندمجت في هذه المرة على حين غرة وساعد على ذلك أن متعتى أصبحت مزدوجة. هناك مباريات على الهواء.. وهناك أيضاً معلقون على الهواء.

في المباراة بين إيران والولايات المتحدة مثلاً.. استمر المعلق التلفزيونى هادئاً خفيض الصوت إلى أن أحرزت إيران هدفاً في الرمي الأمريكى. هنا بالضبط تحول المعلق إلى مدفع بشرى سريع الطلقات. فى الشاشة أمامنا ينهض حارس الرمي الأمريكى من الأرض متطلعا بغضب إلى الكرة التى دخلت مرماه. ينهض بعصبية وتوتر ويتجه إلى إحدى قوائم الرمي منحنيا نحو شىء تبين فى اللحظة التالية أنه زجاجة مياه وبدأ يشرب منها بعصبية.

ومعلقنا التلفزيونى مرتفع الصوت سريع الطلقات يقول مخاطباً حارس الرمي الأمريكى: طبعاً مش عاجبك.. لكن هو جول.. تشرب مياه.. تشرب بيبسى هو جول.. وجول هایل كمان.. عاجبك ولا لا؟

تصورت لتوى أن المعلق التلفزيونى سيتترك مكانه متوجهاً نحو حارس الرمي الأمريكى لكى يصفعه فقط من باب زيادة الخير خبيرين.

فى مباراة أخرى بدأ المعلق يقول نبذة عن كل لاعب كلما تيسر له ذلك فى مسار المباراة ثم توقف عند أحد اللاعبين قائلاً: الراجل ده على فكرة مهم جداً شديد المهارة عنده ٣٢ سنة وطوله ١٨٢ سنتيمتر ماشاء الله، ١٨٢ سنتيمتر يعنى داخل على ١٩٠ سنتيمتر وحانشوف منه كثير وكثير.

قالها المعلق بشعور من الثقة والتأكد يوحى بأنه قبل نهاية المباراة سيصبح طول هذا اللاعب تأكيداً هو ١٩٠ سنتيمتر. ماشاء الله.

فى مباراة ثالثة استعرض المعلق التلفزيونى أسماء اللاعبين ثم توقف عند لاعب محدد، اسمه «صانداى» وبدأ يشرح لنا، نحن جمهور المشاهدين، ما لديه من معلومات خاصة عن هذا اللاعب. قال المعلق: هو اسمه «صانداى»، يعنى بالانجليزى يوم الأحد. مافيهاش حاجة أبداً هم هنا بيحبوا يوم الأجازة الأسبوعى، وهو يوم الأحد. علشان كده ناس كتير تسمى أولادها باسم يوم الأحد مافيهاش حاجة أبداً، إحنا كمان عندنا ناس تسمى أولادها خميس.. أو جمعة.. لا.. لا.. مافيهاش حاجة أبداً.

فى مباراة رابعة ركز الملحق التلفزيونى حديثه على فريق كرواتيا.. وكما هى العادة بدأ باستعراض اسماء لاعبي الفريق قائلا: طبعا عندنا بيلازيفيتش المدرب لافيتش حارس المرمى.. وعندنا كمان نوفيتش.. وبعدين سيفيتش.. فلاوفيتش.. فجأة توقف الملحق التلفزيونى عن استعراض باقى الأسماء مسجلا ملاحظته الدهشة: طبعا زى ماحضراتكم ملاحظين معظم الأسماء تنتهى بلقب فيتش.. دى مش صدفة لأن الظاهر أن عائلة فيتش فى كرواتيا عائلة كبيرة جدا وأبناءها وقرايبها منتشرين فى كل كرواتيا..

ذكرتنى تلك التخريجة بالسنة الأولى التى تحللت فيها جمهورية يوغوسلافيا السابقة وبدأت بعض ولاياتها تنفصل عنها معلنة الاستقلال كدول ذات سيادة. وذات يوم تابعت فى نشرة أخبار التاسعة بالتلفزيون عمرو موسى وزير الخارجية وقد خرج من اجتماع لكبار مساعديه فالتف حوله مندوبو الصحف لدى وزارة الخارجية يحاصرونه بالأسئلة.

يومها رد عمرو موسى بأن مصر سبق لها أن قررت الاعتراف باستقلال كرواتيا.. والآن تقرر الاعتراف بانفصال واستقلال البوسنة والهرسك عن يوغوسلافيا.. وأن مصر ستختار سفيرها لدى البوسنة والهرسك خلال أيام.

وسأله أحد المندوبين الصحفيين: سيادة الوزير. بعد سفيرنا لدى البوسنة.. من ستختارون ليصبح سفيرنا لدى الهرسك ؟

ظهرت علامات المفاجأة فورا على وجه عمرو موسى وسكت لحظتين متدبرا أمره قبل أن يرد على الصحفى السائل بغيظ كظيم: ياابنى.. البوسنة والهرسك جمهورية واحدة.. دولة واحدة.. فحينما أتحدث عن سفيرنا لدى البوسنة فعليك أن تفهم ضمنا أنه سفيرنا لدى جمهورية البوسنة والهرسك. والآن.. مالنا والسياسة ؟

فى الواقع إننى استسلمت لباريات كأس العالم فى رغبة متعمدة للابتعاد عن السياسة.. أو الراحة من السياسة. وحتى حينما خاضت نيجيريا مبارياتها التى أصبحت الأخيرة بالنسبة لها تلقيت فى البداية مكالة تليفونية مختصرة، قلت لأصدقائى الجالسين معى بعدها: إننى سأبشرهم بالخبر القنبلة.. نيجيريا ستنهزم فى هذه المباراة وستخرج من كأس العالم.

توجه اصدقائى بأبصارهم نحوى كما لو كنت قد أصبحت من غرائب الطبيعة.. فهم لم يعهدوا فى من قبل بالمرأة أية ثقافة كروية ولا حتى حماسا كرويا. ثم إن نيجيريا فريق مهم ومتميز فى أسلوب لعبه.. وفوق هذا وذاك فقد أصبح الوحيد الممثل لإفريقيا. ولولا بقية اختشاء.. لكان أحدهم قد قال لى مستنكرا: حتى أنت يابروتس؟ تتخلى عن نيجيريا وقد أصبحت أمل إفريقيا الوحيد الباقى أمام العالم؟

كان الشوط الأول قد اقترب من نهايته حينما باغتني أحد الأصدقاء بسؤاله المفاجئ: من الذى كان يحدثك فى تلك المكالمات التلفونية الأخيرة التى كانت ربودك فيها مختصرة؟

قلبت المسألة فى خاطرى للحظات مترددا بين الافصاح من عدمه. فى النهاية الكرة أسرار.. وليس كل ما يعرفه المرء قابل للنشر. أخيرا قلت له: من كان يحدثنى.. مصدر مطلع.

قبل أن يهم صديقى هذا بسؤال آخر كانت مجريات المباراة قد بدأت تفصح عن نفسها فى شاشة التلفزيون، والمعلق التلفزيونى من هناك فى فرنسا وعلى الهواء مباشرة يقول مغتازا بحدة: لا لا يانيجيريا.. ده مش لعب.. اللعب ده يصلح لو كنتم بتعملوا تمرين مع بعضكم لكن ده اسمه كأس العالم فاهمين يعنى إيه كأس العالم؟

أصيب أصدقاؤى الجالسين معى بمزيد من الاحباط مع المزيد من الدقائق والمزيد من المعلق فى الشوط الثانى: الحقيقة يا جماعة «الذين هم نحن - جمهور المشاهدين» انا مش قادر افهم فريق نيجيريا الليلة دى خالص. هل هم يعاقبون أنفسهم؟ أو يعاقبون جمهورهم؟ أو مدربهم؟ أو انهم يعاقبون إفريقيا؟

لا.. لا.. لا..

وخرجت نيجيريا من الكأس.. وبانحدار مذهل مفاجئ فى مستواها الكروى.



أما فى مباراة البرازيل والنرويج فلم يكن مثل هذا الاحتمال واردا بالمرة. البرازيل هى البرازيل. على الأقل فى كرة القدم. لكن المكالمات التلفونية إياها وردتني، بعدها فقط قلت لمجموعة الأصدقاء والصديقات فى منزلى: يبدو يا جماعة إن الليلة ستنتهى بفوز النرويج وهزيمة البرازيل.

انتفض الجميع بصوت واحد وكأننى أصبحت عدوا هبط عليهم بالمظلة فجأة لا.. لا.. هذا افتراء. أنت لاتقدر خطورة كلماتك فى هذه المرة.. لكن.. انظر فى الشاشة إلى لاعبي البرازيل، هم أول من يدرك خطورة الموقف. هم يعرفون أن هزيمتهم تعنى أن يعودوا إلى بلدهم أشلاء.

ثم تفتق ذهن أحدهم عن السؤال المتكرر المباغت: نريد أن نعرف سر هذا التلفون الغامض الذى يوحى لك بنتيجة كل مباراة مقدما..

قلت له: هذا خط ساخن مع غرفة الكونترو.. والطرف الآخر يحدثنى من الكونترو..

تهكم السائل بحدة: كونترول؟ هو إحنا فى امتحانات الثانوية العامة؟ ده اسمه كأس العالم. هذه فرق تعبر عن دول، والدول هنا تدافع عن رصيدها وتاريخها وسمعتها الكروية، فى الآخر.. تقول كونترول؟

لم أكن أقل غيظا منهم جميعا، إنما الكرة خبرة، والخط الساخن.. ساخن. في نهاية المطاف سحب الجميع سخرتهم بمראה حينما انتهت الليلة فعلا بفوز النرويج وهزيمة البرازيل. بعدها فقط بدأ اصدقائي يأخذون كلماتي الكروية بجدية، وقبل كل مباراة تالية أصبحوا هم الذين يتطلعون إلى التلفون بجوارى متسائلين: الخط الساخن مع الكونتورول اشتغل؟



لا لم يشتغل - بعد - والمسألة كلها أن لي صديقة مدهشة فنانة في مجالها وناجحة في فنها، لكنهما متبحرة أيضا في كرة القدم وتاريخها وأحوالها حول العالم. وحينما فوجئت بأنني أصبحت متابعا لمباريات كأس العالم في فرنسا، وأنني أفعل ذلك بحثا عن استراحة عقلية من السياسة، فاجأتني بأن الكرة هي أيضا سياسة والأدلة عندها قائمة.. دليلا بعد دليل بعد دليل.. خصوصا بالنسبة لكرة المحترفين.

ففي البداية كنت أندesh. لكن مع صدق توقعاتها في المباريات الحاسمة بدأت أقلق ثم أنزعج. لقد أعادتني المسألة إلى ذكريات الصبا حينما كنا نذهب، كمجموعة، لمشاهدة فيلم سينمائي جديد ثم يجئ إلى جوارى أو خلفي أو أمامي زميل لكى يهمس في أذنى بين وقت وآخر: الآن سيقع البطل على الأرض.. بعد قليل سيصبح فى المستشفى ويخرج أعمى.. لاتقلق، بعد أن تحبه البطلة سيقع على السلم.. شفت؟ الآن سوف يسترد بصره.. الخ.

هو إن.. هذا الزميل.. كان يسبقنا في كل مرة لكى يشاهد الفيلم قبلنا جميعا، حتى يجئ معنا ويحكى لنا أولا بأول، فيفسد علينا متعتنا. لكن كأس العالم ليس فيلما مستمر العرض، وصديقتى هذه لاتقصد بالطبع إفساد شعورى بالمتعة، فقط هي مقتنعة بأن السياسة لم تترك شيئا إلا وتدخلت فيه.

وصديق آخر.. هو الزميل الصحفى عبداللطيف خاطر المحرر الرياضى بجريدة «الجمهورية»، كان قد أصدر كتابا بعنوان «المونديال الفرنسى ٩٨» وأهداه لى قبل سفره إلى فرنسا بأسبوع واحد ليتابع من هناك مباريات كأس العالم. كنت أجلس قراءة الكتاب إلى حين ميسرة لكننى فجأة وجدتني أستعين به. وفجأة أيضا وجدت في الكتاب تقييما للفرق المشاركة يكاد يتنبأ فيها بالمار الفعلى لنتائج المباريات بعد ذلك.

إنما المهم هنا فى هذا الكتاب، والجديد حقا بالنسبة لى، هو ذلك التحالف العريض من الشركات العملاقة المستفيدة من «المونديال» فى ترويج سلعها ومنتجاتها، أكثر من ١٨٥ شركة من بينها ٨٠ فرنسية جرى اختيارها بواسطة الاتحاد الدولى لكرة القدم (الفيفا) لترويج نحو ٤٠٠ سلعة بهدف تحقيق مبيعات تتجاوز ١٣٠٠ مليون دولار ٤٠٠ منها فى فرنسا والباقي حول العالم. يعنى العنوان

كرة والمضمون اقتصاد والتنظيم سياسة والأدوات لاعبون وأندية والخلاصة دنيا المحترفين - التي تختلف بالكامل عن عالم الهواة - إنهم العاشقون الحقيقيون للرياضة.

أما بالنسبة لصديقتي المتبحرة كرويا فالسألة - حتى - تتجاوز ذلك كله. هناك مصالح عاتية من شركات وعصابات وغسيل أموال ومراهقات وتبادل منافع وقتال على نفوذ ومئات الملايين من الدولارات يجرى كسبها أو خسارتها مباراة بعد مباراة. هذه كرة المحترفين التي لا مكان فيها للهواة. لاعب ثمنه ٣٠٠ ألف دولار ولاعب ثمنه ثلاثون مليون دولار. شركة أحذية رياضية مثلا تتعاقد مع أكبر لاعب في فريق البرازيل - رونالدو - لاستخدام انتاجها دعاية لها.. وشركة بطاقات ائتمان تستخدم ببلييه - نجم البرازيل الأسطورة في الستينيات - داعية لها.

هكذا لم أعد أتابع مباريات فقط، ولكن حركة اقتصادية وسياسة أيضا. فهنا.. البرازيل هم السامبا، وفرنسا هم الديوك، وهولندا هم الطواحين، والمانيا الماكينات، وبريطانيا الأسد.. الخ.

لكن الجديد في هذه المرة والاكتر انتشارا هم فريق «الشواكيش». فليلة بعد ليلة ومباراة بعد مباراة، هناك عشرات من الشركات تدفع ملايين بعد ملايين للترويج للسلع التي تنتجها قبل وأثناء وبعد كل مباراة. أصناف وأصناف من الساندويتشات والفطائر والبطاطس المقلية والأزياء والسيراميك والمنتجات الغذائية وأجهزة التكييف والثلاجات والسيارات والقيلات الفاخرة.. الخ. وكل اعلان تليفزيوني يحرض الأطفال والنساء خصوصا حتى تقول المرأة لزوجها الجملة الناقصة غير المنطوقة: بدمتك دى عيشة إالى احنا عايشينها؟ ياراجل قوم فز.. اتحرك.. هات لنا الأحلام السحرية دى حتى لانتخلف عن غيرنا..

وبالتدريج تصبح كل واحدة من هؤلاء السيدات عضوا في فريق «الشواكيش». تخبط بانتظام رأس زوجها أو فتى أحلامها لكي ينهض ويصلب طوله ويهز عرضه ويفرغ جيبه. وبالتدريج أيضا نجد اللاعبين النجوم وقد تحولوا إلى مجرد وسائل للترويج والاعلان.. تماما كعارضات الأزياء اللاتي تصبح كل واحدة منهن ملتزمة بمقاييس محددة لرشاقتها طوال مدة سريان التعاقد معها.. قبل أن تحال إلى التقاعد لصالح فتيات أصغر وأجمل وأكبر قدرة على جذب المزيد من المستهلكين.



حينما انهزم فريق جنوب افريقيا في مباراته الأولى كان نيلسون مانديلا رئيس جمهورية جنوب إفريقيا المخضرم هو الذى بادر بالاتصال تليفونيا بأعضاء الفريق في باريس ليقول لهم طيبا مواطنهم: ياأبنائى الأعزاء.. الفوز مهم فى الرياضة.. لكن المتعة أكثر أهمية.

وحينما انهزم فريق المانيا بحضور هيلموت كول، عاد كول ليعلم كمستشار (رئيس وزراء) لبلايه: هناك درس مهم خرجنا به فى هذه المرة.. فإذا كان علينا أن نعيد تأكيد مكانة كرة القدم

الألمانية فى المسرح الدولى يصبح علينا أن نبدأ فوراً فى الاهتمام بجدية بمستوى الرياضة - كل أنواع الرياضة - فى مدارسنا.

هذه نظرة حكيمة تتعامل مع كرة القدم، والرياضة عموماً، باعتبارها هواية وليست حرفة، متعة وليست قتالاً، روحاً رياضية وليست قاتلاً وقتيلاً، توظيفاً للرياضة لحساب ترقية البشر.. وليست تسخييراً لنجوم الرياضة لحساب شركات تريد أن تباع وتبيع وتبيع.. بمن فى ذلك اللاعبين أنفسهم.



فى مقابل ذلك هناك نظرة أخرى يلخصها رد فعل الفائز والمهزوم فى بطولة كأس العالم الأخيرة. فى فرنسا مثلاً هتف الجمهور «واحد اثنين ثلاثة صفر» إشارة إلى النتيجة الفعلية ضد البرازيل فى مباراة الختام، وبعدها رددوا النشيد الوطنى (المارسيلين). أما فى البرازيل فقد خرجت صحيفة كبرى لكى تعلن أن مدرب الفريق البرازيلى خسر المعركة الحاسمة فى المونديال، هذه معركة ووترلو البرازيلية.. فى تشبيه بمعركة ووترلو التى خسر فيها نابوليون بوناپرت حربه ضد أوروبا فى القرن التاسع عشر.

فى الصباح التالى ليوم «وترلو» كنت أتابع ثلاثة أخبار. فى هونج كونج وحدها - ومع أن المراهقات غير مشروعة - خسر المقامرون ٥٢ مليون دولار أمريكى بسبب فوز فرنسا على البرازيل. فى المكسيك أشارت تعليقات الإذاعة بلهجة تشكك إلى أن البرازيل.. ربما تكون قد باعت المباراة وتساءل المعلق: كيف يمكن لمثل هذا الفريق وهو من الطراز الأول فى كرة القدم على مستوى العالم أن يظهر بهذا المظهر السيئ؟ هل باعوا المباراة؟

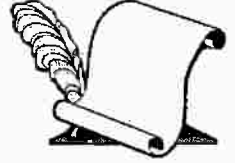
فى إيطاليا قامت جريدة كبرى باستطلاع آراء ألف من قرائها عن تفسيرهم لهزيمة البرازيل وأجاب ٥٢٪ أن تفسيرهم هو: التواطؤ.

أما فى القاهرة؟ حسناً. طلبت صديقتى المتبحرة كرويا لأهنتها على صدق توقعاتها وأقول لها متسائلاً: الآن عرفنا أن كأس العالم قد ذهب إلى فرنسا، لكن «سوزانا» خطيبة «رونالدو» لاعب البرازيل الأشهر لم تحضر المباراة النهائية. فى قاموسك الخاص.. هل كانت هى أيضاً تعرف النتيجة مسبقاً؟

ردت صديقتى المتبحرة بتساؤل مضاد: ربما راحت مع الكأس؟

وفى اللحظة التالية جاء تساؤلها الآخر: لماذا تستبعد، من قبل ومن بعد، أن سوزانا هذه مجرد مندوبة دعاية أخرى لدى «الفيفا» ضمن مئات من حالات جذب المستهلكين.. يا حضرات الرجال المحترمين؟

أرز وحب .. وحقوق إنسان !



قبل سنوات قليلة جرت في مصر موقعة كبرى، موقعة موضوعها هادى مع أن الجدل الذى أثارته شديد الصخب. وطوال «الموقعة» لم يتردد - ولا مرة واحدة - أى شىء من الكلمات والعناوين ثقيلة الوزن فضفاضة المضمون من التى يراها الشخص العادى بضاعة أهل الاختصاص. عناوين مثل «العولة» أو «الكوكبة» أو «القرية الكونية» أو «الجات» أو «منظمة التجارة العالمية» أو «تحرير التجارة» أو «الاندماج» فى الاقتصاد العالمى أو.. أو.. أو..

لا. لا. لا. الموضوع فى هذه المرة شديد البساطة وإن كان - فى بساطته - يقع بالضبط فى صلب السؤال الأكبر: كيف يجب علينا أن نعيش.. ونفكر؟

هناك حلقات تليفزيونية مسلسلية من إنتاج أمريكى عرضت لفترة طويلة فى القناة الرئيسية بالتليفزيون المصرى، وفى وقت الذروة من حيث الإقبال الجماهيرى. حلقات بعنوان «الجرىء والجميلات».

فأما «الجرىء» فاسمه «ريدج» ومعه عائلته التى تعمل فى تصميم الأزياء وإنتاجها. فى هذا السياق طبعا هناك الكثيرات من الحسان الجميلات، بل ربما البهرات فى الأناقة والجمال من وجهة نظر الجمهور الطبيعى الموجهة إليه الحلقات. جمهور من المراهقين والمراهقات. وهو بالفعل أكثر شرائح الجمهور التى تحقق شعبية سريعة وكاسحة لمثل تلك الحلقات اليومية.

يعنى لو جئنا مثلا بعارضات أزياء من نوع سيندى كراوفورد وكلوديا شيفر ونعومى كامبل وأخريات مثلهن بالعشرات - طولا ورشاقة وأناقة - فلن يكون الفارق كبيرا عن الحسان الجميلات فى هذا المسلسل.

فى الحلقات أيضا كل البهرات المعتادة هنا من «مصنع الأحلام» المصورة - سينما وتليفزيون - فى هوليوود. هناك جمال وأناقة وعبور تكاد تخرج من الشاشة لتخدر المتفرجين وتدغدغ حواسهم، وهناك أيضا جنس وعنف وجريمة وإثارة وفراء سريع وأموال سهلة مصدرها صناعة الأزياء.

ومن خلال سيناريو محبوبك غالبا وحوار سريع الإيقاع يجد المتفرج أمامه أنماطا سلوكية جذابة ومغرية. فالمرأة العصرية مثلا - حسب ما يوحي به المسلسل - يعتمد جزء أساسي من عصريتها على أن تلاحق الموضة المتجددة في الأزياء سنة بعد سنة، بل موسما بعد موسم. والمال هنا لا يهم.. فكلما دفعت المرأة أكثر حصلت على أزياء تجعلها أكثر أناقة. وخبراء الأزياء يبدون بأهمية علماء الطاقة النووية.. وربما أكثر فالأزياء صناعة استراتيجية عويصة ولها أسرار كبرى تستحق التجسس وأجهزة الأمن وجمع المعلومات ومطاردات المنافسين وتلصص الخصوم ورحلات بطائرات خاصة ويخوت وسهرات ومؤتمرات صحفية و.. في لمح البصر تتدفق الثروة بملايين الدولارات مكافأة للجهد الخارق والابتكار المدهش من مصممي الأزياء!



هناك الإباحية الخارجية عن كل إطار، والدخلاء الجدد من أصحاب بيوت الأزياء - الدخلاء الفقراء - كل طموحهم هو أن يصبحوا أعضاء جدد في نادى الأغنياء. لكن الباب الوحيد الممكن أمامهم هو أن يتصرفوا كخدم أو كصوص. أما إذا أرادوا الاختصار والسرعة فالطريق هو العلاقات الخاصة. مشروعة إذا أمكن، وغير مشروعة إذا لزم.

هناك طموح ونجاح. لكن الطموح محوره المال. والنجاح قيمة مستقلة بذاتها بصرف النظر عن المشروعية والارتباط بمجتمع. نجاح له طريق غير مضمون هو العمل المنتج. وطريق أسهل هو الانفصال عن القيم واختصار الطريق من خلال الجريمة أو الخيانة الزوجية أو التجسس داخل الأسرة الواحدة أو الحمل غير المرتبط بزواج.. الخ.

هناك صحافة أيضا تخاطب قراء. لكن الصحافة الناجحة هنا هي التي تصبح جزءا عضويا من تلك الماكينة الكبرى الواصلة حتما إلى كل بيت والقادرة على ممارسة كل نفوذ. والصحافة الناجحة هنا يجب عليها أولاً أن تكسب رضا هؤلاء المخرجين - مصممي الأزياء والشركات الضخمة التي تديرهم - فتروج لأفكارهم وتبشر بمبتكراتهم وتكتب عن نجومهم وتلح على القارئات بأزيائهم.. الخ.



هذه الحلقات - «الجريء والجماليات» - جرى عرضها إنن في التلفزيون المصري يوما بعد يوم، وأسبوعا بعد أسبوع، وشهرا بعد شهر.. إلى درجة أن كثيراً من الأمهات اكتشفن فجأة أن بناتهن منبهرات بما يجرى في كل حلقة. حينما يفور دم الأم من بعض ما تراه وتغلق التلفزيون تكتشف في اليوم التالي أن البنات في المدرسة أو عبر التلفزيونات يستكملن من بعضهن البعض ما يكون قد فات بسبب سطوة الأمهات.



حدث أيضا - وبالصدفة البحتة - أن عرضت القناة الثانية فى التلفزيون المصرى حلقات أخرى بعنوان «أوشين». حلقات يابانية الإنتاج كان قد سبق عرضها فى وقت «ميت» من حيث الإقبال والمشاهدة.. فلم تلفت نظر كثيرين. لكن أمام خلل مفاجئ فى خريطة البرامج بالقناة الرئيسية رؤى إعادة عرض حلقات «أوشين» فى وقت الذروة.. فقط لمجرد أن البديل المقرر لم يكن جاهزا - بعد - لدى التلفزيون.

يوم واثنان.. أسبوع وأسبوعان.. وإذا بحلقات «أوشين» هذه تكسب شعبية متزايدة بشكل متضخم وغير مسبوق.. بما جعلها تصبح موضوع مقارنة داخل البيوت وعلى صفحات الصحف. الحلقات مستوفية لكل الشروط الفنية اللازمة لمسلسل تلفزيونى يعرض على ملايين الناس فى البيوت.. من حيث التصوير والإيقاع والسيناريو والحوار.. الخ.



لكن.. من تكون «أوشين»؟ إنها بطله الحلقات.. كما أنها جدة أذهلها أن أحفادها بدأوا يتقاتلون على الثروة والفلوس من حيث هى. ومن ثم.. فقد بدأوا يتصرفون كرجال أعمال متوحشين بصرف النظر عن علاقاتهم بعضهم ببعض أو بعائلاتهم أو بالمجتمع. اختفت السيدة «أوشين» مع أحد أحفادها القريبين إلى قلبها. ومن خلال رحلتها نبداً فى متابعة بدايتها كطفلة لدى أسرة شديدة الفقر كثيرة العيال تعمل بعيالها أجراء فى زراعة الأرز.

وقبل الاسترسال أريد هنا أن أفتح قوسين. فالأرز اليابانى هو من أسوأ أنواع الأرز التى تذوقتها فى العالم.

واليابانيون أنفسهم لا يجادلون فى تلك الحقيقة. مع ذلك، ورغم أن اليابان الآن من أغنى دول العالم، إلا أن السائح اليابانى الذى يعود إلى طوكيو مثلاً ومعه كيلوجرام واحد من الأرز المستورد، لا تجرى مصادرة الأرز فقط، ولا إلزامه بدفع غرامة، ولكن القانون يفرض عليه عقوبة الحبس!

هذا لا يعنى أن اليابان تعامل مواطنيها بقسوة وغلظة، ولا أنها ترفض من مواطنيها السعى إلى حياة أفضل. أبدا. هذا يعنى فقط أن الأرز هو رمز تاريخى لصراع المواطن اليابانى مع قسوة الطبيعة وسوء القرية. رمز للبقاء. وللاستمرار ولل اعتماد على النفس. فمهما اغتننت اليابان.. إلا أنها لا تريد من مواطنيها أن ينسوا للحظة واحدة أهمية الاعتماد على الذات، خصوصا فى سلعتهم الغذائية الأولى وهى الأرز. هذا أرز أقل جودة من أى نظير مستورد. لكنه أرزنا. نحن نزرعه. نحن نأكله. نحن نعتمد عليه.

انتهى القوس.. ونعود إلى «أوشين». فجأة بدأ الجدل ساخنا على صفحات الصحف المصرية. هل ينقصنا هذا الحديث عن الفقر والقراء؟ ثم أى أرز؟ المحصول قليل وعلى اليابانيين أن يشغلوا

مخهم ويفتحوا خزانتهم ويستوردوا كل الأرز الناقص وعندهم أمريكا جاهزة تصدر لهم أرزاً أفضل وأرخص وبينهم فرقة كعب. مش عاجبهم أمريكا؟ احنا مستعدين نصدر لهم أرزنا وبفلوسهم سنأكل جاتوه. ثم.. أى «أوشين»؟ أهلها يبيعونها بشوالين رز؟ احنا ما لنا؟ أليس ريدج وجميلاته أفضل وأمتع؟ وإذا كان رجال التليفزيون المصرى معجبين إلى هذا الحد بأوشين وأرزها.. فلماذا لا نعطيهم إجازة مفتوحة ليهاجروا إلى اليابان؟

لم يكن رجال التليفزيون هم المعجبين بحلقات «أوشين» بدليل أنهم من قبل اختاروا لعرضها وقتاً ميتاً وهم فى هذه المرة يعرضونها فى وقت الذروة علاجا لورطة وليس اقتناعاً بمضمون. لكنهم الناس.

الناس أنفسهم الذين يستمدون متعتهم وثقافتهم الشعبية من التليفزيون هم الذين أقبلوا على مشاهدتها بشكل غير مسبوق جعل الحلقات تصبح مثار نقاش فى البيوت. لقد شقت الحلقات طريقها إلى قلوبهم بغير عنف ولا جريمة ولا جنس صارخ ولا خيانات زوجية أو ثراء سريع يهبط من السماء بلا مجهود.

وأوشين صبية فقيرة جاهلة جائعة باعتها أسرته إلى سمسار مقابل جوالين من الأرز. والسمسار باعها بدوره إلى أسرة فى المدينة تعمل فى تجارة الأرز. هى لا تعيش سنّها ولا طفولتها ولا أحلامها. فقط هى تعيش لتعمل. وفى عملها، سواء كان بسيطاً أو ضيعاً، هى تريد أن تتقنه. الاتقان هنا هو المفتاح.. ليس فقط لكى تستمر هى لدى الأسرة.. ولكن أيضاً لكى تبعث بأجرها أولاً بأول إلى أسرته فى أعماق الريف.

هى أيضاً تتطلع حولها. لماذا الصبايا فى سنّها أفضل؟ لأنهن يذهبن إلى المدرسة. إذن عليها أن تعتمد على نفسها وتتعلم القراءة والكتابة. عليها أن تكون أول من يستيقظ وآخر من ينام. لم يقل لها أحد ذلك لكن الحياة هى التى تفرض عليها قانونها غير المكتوب. والقيمة الأولى فى الحياة هى قيمة العمل. بالعمل تصبح أقوى وأصلب عوداً. وبالا اعتماد الكامل على النفس تجعل نفسها موضع إعجاب من الجميع. وموضع ثقة أيضاً. طالما هى تعمل، وتعمل باتقان، فإن الحياة ستعطيها بقدر مجهودها. هى تكبر أمامنا على الشاشة حلقة بعد حلقة وفى تطورها يتعاطف المشاهدون معها لأنهم بالفعل أصبحوا يصدقونها. والمصادقية هنا هى أهم القيم على الإطلاق فى أى عمل فنى.

أما فى حلقات «الجرىء والجميلات» فإن الحياة لونها بمبى. لا أحد يعرق لأن الجميع فى مساكن ومكاتب مكيفة الهواء. ولا أحد يمرض لأن أفضل الأطباء جاهز للمجىء فوراً بمجرد تليفون. ولا أحد يجوع لأن مجتمع صناعة الأزياء لا يعرف الجوع. يعرف فقط الموضة والأناقة والتباهى بأحدث الأزياء والتفاخر بأسرع الصققات.

ومع أن المشاهد هنا - سواء مشاهد حلقات «أوشين» أو مشاهد حلقات «الجرىء والجميلات» - هو مصرى يتكلم العربية. إلا أن دنيا الأزياء توهمه فقط. لكنه يوهم نفسه أيضا بأنه أصبح جزءا من هذا الخدر اللذيد الذى يتدفق أمامه فى شاشة التلفزيون. لا تفكير ولا إجهاد ولا عقل ولا وجع دماغ. فقط. عطور وجمال وأناقة وجنس وعنف وجريمة ونفوذ يسمح بالخروج من الجريمة فى كل مرة كما الشعرة من العجين.



تلك كانت هى المشكلة الحقيقية فى الواقع. مشكلة أن كلا المسلسلين يعرض منظومة مختلفة تماما من القيم.

فى «الجرىء والجميلات» هناك الفردية الشديدة ولا شىء غيرها. الإنسان هنا صفته الأولى هى أنه جشع. وطموحه الأساسى هو المال. والمال يجب أن يجىء على حساب أى اعتبار آخر.. فلا يهم أن يكون النجاح على جثث الآخرين. ليس هناك «آخرين». الموجود هو «أنت» و «أنت» فقط. وبتلك الصفة على المرء أن يسعى إلى المال من أسهل طريق ويتحول إلى مستهلك بأسرع ما يمكن. لا تفكر فى أسرة ولا فى مجتمع ولا حتى فى أب أو أم لأن مصير أى منهما - لحظة الشدة - هو دار المسنين.

فى «أوشين» هناك أيضا حلم الخروج من الفقر المدقع إلى الثراء الواسع، وقد تحقق هذا فى نهاية المطاف. لكنه تحقق من خلال العمل الشاق والاعتماد على الذات والارتباط بالمجتمع والتضحية فى سبيل الأسرة أو الجماعة والولاء للقيم العائلية. حينما تمرض أم «أوشين» فإنها تصبح ممرضةا وطبيبته. حتى لو كانت الأم تريد بجدية أن تخفف من حمل ابنتها.. لكن أوشين ترفض تماما لأن تخليها عن أمها فى لحظة ضعفها ومريضها هو منتهى العيب. وحينما تشتاق الأم مكانها الحبيب، مكان الصبا، فإن أوشين تحملها على ظهرها بتصميم وصلابة ومشقة. لكن كل المشقة تهون فى سبيل أن تدرك الأم لحظة سعادة.. تشتاق إليها قبل الرحيل إلى العالم الآخر.

هناك أيضا لحظات من الهزيمة. كثير من لحظات الهزيمة. أحيانا بسبب الطبيعة ذاتها، وهى فى الحالة اليابانية طبيعة شديدة القسوة.. زلزال مثلا. بعده تعود «أوشين» لتكتشف أن كل ما ادخرته وتعبت فى سبيله تبخر فى غمضة عين. الآن يعود شبح الفقر من جديد.

لكن فى قاموس «أوشين» يصبح الفقر مجرد امتحان آخر لصلابة الإرادة وقوة العزيمة. الفقر امتحان. لكن الجريمة الحقيقية هى أن نرضى به أو نستسلم له. والهزيمة واردة. لكن الأهم من الهزيمة هو الإصرار على تحديها وتحويلها إلى انتصار من خلال العمل والابتكار والتكاتف مع الآخرين.

كل تلك المعانى تشعها حلقات «أوشين» بغير مواعظ ولا معلبات.. بل بالتزام كامل بمقتضيات الانتاج الدرامى التليفزيونى الناجح والجذاب.. وليس مطلقا بشكل مباشر.. أو قريب من المباشر.



المهم هنا شئ أساسى، وهو أن معظم الذين روجوا لحلقات «الجرىء والجميلات» وهاجموا حلقات «أوشين» هم فى اليوم السابق واليوم التالى الأشخاص والأقلام نفسها التى تروج لفكرة «العولة». وضرورة الانفتاح على الآخرين.. كفانا تخلفا وانغلاقا وجمودا وانعزالا وتمسكا بقضايا عفا عليها الزمن. لكن فى التطبيق تبين أن المقصود ليس انفتاحا على الآخرين، ولكن على نمط محدد من الآخرين. اذن: يعيش النموذج الأمريكى فى الحياة ويسقط النموذج اليابانى.

هذه هى المشكلة الأولى المثارة الآن بشأن «العولة» والهوية الثقافية.

فالشركات العابرة للقارات المتعددة الجنسيات تروج حول العالم لنموذج محدد دون غيره من خلال وسائل الإعلام والثقافة الشعبية.

ليس الموضوع «يسار فى مواجهة يمين».. أو «اشتراكية فى مواجهة رأسمالية». لكن الموضوع يتعلق بنموذج محدد من الرأسمالية، هو تلك الرأسمالية المتوحشة التى تضع الفرد قبل المجتمع، والاستهلاك قبل الإنتاج والمال قبل القيم.

ولو كانت حلقات «أوشين» تلك فرنسية أو ألمانية الإنتاج مثلا.. فإنها كانت ستواجه أيضا الهجوم نفسه ومن الأشخاص والأقلام وأصحاب التوجه نفسه.

وبلادنا لم تكن فى أى وقت منعزلة عن الآخرين ثقافيا. لكن المشكلة ظلت هى الإلحاح عليها باستمرار للارتباط بالنموذج الغربى أولا.. ثم بالنموذج الأمريكى تحديدا مؤخرا، دون باقى النماذج الغربية.

والنموذج الأمريكى ناجح تاريخيا فى إطار حالته الخاصة، هو بالفعل يصلح لأهله. لكنه ارتبط بظروف محددة وسياق تاريخى محدد وإطار قيمي محدد. الآن يريد هذا النموذج أن يفرض سطوته وهيمنته على مستوى العالم كله، بما فى ذلك النماذج الغربية الأخرى فى أوروبا. وهذا هو التحدى الكبير.. ليس بالنسبة لنا فقط فى دول الجنوب.. ولكن حتى فى دول الشمال ذاتها.

وأبسط دليل على ذلك هو أن الخمس عشرة دولة الأعضاء فى «الاتحاد الأوروبى» هى. جميعاً دول رأسمالية، ومعظمها متحالفة مع الولايات المتحدة الأمريكية عسكرياً - على الأقل - وكلها أجزاء من الحضارة الغربية. مع ذلك فأحد القوانين المعمول بها فى دول «الاتحاد الأوروبى» هو أن يكون واحداً وخمسين بالمائة على الأقل من المواد الدرامية المعروضة تليفزيونياً من إنتاج أوروبى. هذا بدوره فتح معركة كبرى، ما تزال جارية، خلال مفاوضات «الجات» التى أنت إلى قيام منظمة التجارة العالمية.

فباسم حرية التجارة العالمية تصر الولايات المتحدة على إزالة أية قيود تمييزية في دول «الاتحاد الأوروبي» لصالح الانتاج التلفزيوني المحلي ضد الانتاج الأمريكي.. ودول «الاتحاد الأوروبي» ترفض بإصرار هذا الطلب الأمريكي كجزء من إصرارها على أن تكون لها هويتها الثقافية الخاصة المحصنة ضد الذوبان في الهوية الأمريكية التي تروج بدورها لنموذج الرأسمالية المتوحشة والفردية الصارخة.

المشكلة الأخرى هي أن «العملة» في هذا الإطار مطلوب منها أن تكون في اتجاه واحد ثقافياً واقتصادياً هو الاستقبال وليس الإرسال. وقد حدث مرة أن تفاوض جيمي كارتر أثناء رئاسته للولايات المتحدة مع الصينيين، ضاغطاً عليهم بشعار عريض هو «حقوق الإنسان».. وأن من بين تلك الحقوق مثلاً الانفتاح بدرجة أكبر على الإنتاج السينمائي والتلفزيوني الأمريكي، لأن المواطن الصيني يجب أن يكون له حق الاختيار.

يومها استمع إليه رئيس وزراء الصين بكل هدوء وتهذيب، ثم عرض على الرئيس كارتر فكرة بسيطة وعملية تماماً.

قال رئيس وزراء الصين للرئيس الأمريكي: ماذا لو نفذنا هذا الانفتاح الثقافي الكامل الذي تلح به علينا تحت عنوان «حقوق الإنسان».. ثم حدث أن انبهر الصينيون بنمط وأسلوب الحياة الذي تروج له مسلسلاتكم التلفزيونية وأفلامكم السينمائية.. وصدقوا فعلاً أن أمريكا هي أرض اللبن والعسل والمليون دولار تهبط على المرء في لمح البصر؟

ماذا لو أن مجرد عشرة بالمائة فقط من الشعب الصيني اختاروا الهجرة إليكم لي تجربوا بأنفسهم؟ عشرة بالمائة من شعبنا تعني مائة وعشرين مليوناً. كثير؟

طيب.. ماذا لو تكلمنا فقط عن ستين مليوناً؟ أو ثلاثين مليوناً؟ أو حتى عشرة ملايين؟ نحن من جانبنا سنعطيههم فوراً تأشيرات خروج باسم حق الإنسان في حرية الانتقال والسفر. هل أنتم لحظتها مستعدون للوفاء من جانبكم بالصفقة، واستقبال هؤلاء الملايين العشرة في بلادكم؟ سيادة الرئيس.. من حقوق الإنسان أيضاً حقه في اختيار المكان الذي يعيش فيه أو ينتقل إليه. فهل أنتم مستعدون؟

يومها لم يرد الرئيس الأمريكي وبدا من ذلك فضل تغيير الموضوع !.



الفضيحة .. بجلاجل !



هذه الفضيحة تشبه - من بعض النواحي - سانويقتشات الوجبات السريعة التي تنشرها أمريكا حول العالم، وجبات تأكلها على الواقف، في المطعم أو الشارع أو البيت «لايهم» ولست مضطرا في كل مرة إلى الذهاب إليها بنفسك فهي تحت الطلب إلى مكانك مع فاتورة الدفع. سريعة الإعداد مغرية الشكل جذابة الدعاية. لها كل مظاهر الغذاء - لحم أو دجاج حسب اختيارك - لكن فيها القليل من أي منهما. تعطيك وهم الشبع لكنها تصبح بعد فترة خصما من صحتك الغذائية. في الواقع إن السلطات الصحية داخل الولايات المتحدة ذاتها بدأت تحذر بشدة من خطر تلك الوجبات على الصحة العامة.. وأيضا من لجوء بعض مطاعمها إلى إضافة مواد معينة إليها لخلق حالة من الإدمان لدى مستهلكها، كما النيكوتين في السجائر.

لكن حينما يتنبه المستهلك إلى هذا كله تكون قد مضت فترة كافية من الوقت جرى فيها الإدمان - أو الاعتياد على الاستسهال - وتكون تلك المطاعم قد تكاثرت بشكل أكبر. فمقابل كل جنيهه طعام تعطيه لك هي تكسب أربعة جنيهات، وبعد كل مرة من هذا الأكل «على الواقف» يكون المستهلك نفسه قد أصبح أكثر ابتعادا عن الغذاء الصحيح أو التعامل معه من خلال الحقيقة، وليس من خلال الصور اللامعة في الإعلانات المكلفة التي تحاصرك على مدار اليوم.

فقط الفضيحة في هذه المرة ممتدة معنا منذ عشرة أشهر على الأقل. وموادها هنا ليست مجرد نفايات لحوم أو دجاج. الآن نحن أمام بشر حقيقيين ومتابعة على مدار الساعة وتنويهات متكررة عن أفعال تخدش الحياء.

وبالطبع.. هناك سياسة وسلطة ومراكز عليا وعلامات استفهام مفاجئة وشهود يتفادون الكاميرات وقضاة ومحلفون. هذا ليس فيلما بوليسيا آخر من انتاج هوليوود. لكنه دراما فعلية على الهواء مباشرة فيها الكثير من بصمات هوليوود.

لدينا أكبر رأس في البلد، فهو «بيل كلينتون» رئيس الولايات المتحدة، ولدينا فتاة في الحادية والعشرين عملت لبعض الوقت متدربة مرفوعة لرؤوسه داخل البيت الأبيض الأمريكي

في العاصمة واشنطن، ولدينا تسجيلات تليفونية ومكالمات بالهمس والرمز وهدايا تبطن بأكثر مما تعلن ومحقق خاص مكلف من الكونجرس الأمريكي - البرلمان - بالتحقيق في الفضيحة من طقطق إلى سلام عليكم. طقطق.. وعرفناها.. ففي البداية أنكرها الرئيس الأمريكي، وبالتدريج اعترف بها على دفعات.

في المرة الأولى وقف الرئيس الأمريكي أمام الكاميرات، وبكل ثبات وثقة ركز عينيه على الكاميرا أمامه كمن يدب اصبعه في عيني المشاهد ليقول بكل تصميم وحزم: لم تكن لى أية علاقة حميمة مع تلك المرأة. وشهرا بعد شهر استمرت التحقيقات والملاحقات والاستدعاءات والضبطيات والمحاصرات، نروتها محاصرة الرئيس الأمريكي ذاته لأكثر من أربع ساعات. بعدها خرج هو نفسه ليقول بنفس الثقة والتأكد والتصميم: نعم كانت لى علاقة غير ملائمة مع تلك المرأة وكنت مضطرا للكذب بشأنها حماية لنفسى ولزوجتى وابنتى، وآلآن دعونا ننسى هذا الموضوع ونستدير إلى القضايا الأكبر.

بعد يومين نبهه خلاصه إلى أنه، حتى، لم يعتذر.. فاعتذر. لم يذكر اسم المرأة.. فذكره. لم يعبر عن ندمه. فعبّر عنه. لم يعد بسلوك آخر.. فوعد. إذن.. ننسى الحكاية ونعود لشغلنا؟
أبدا. فالرئيس الأمريكي ذاته أصبح هو «شغلنا». ليس شغل الأمريكيان فقط داخل بلدهم، ولكن شغل العالم كله من أقصاه إلى أقصاه، وبتسهيلات أمريكية لتوصيل الوقائع والصور تليفزيونيا إلى المنازل.



عند هذا الحد ظهرت ثلاث مدارس. هناك أولا مدرسة «أنا عبدا للأمور» وخلصتها هي: ما هذا الذي يحدث؟ هذا عيب كبير واقتحام للحرية الشخصية لمواطن شاء له حظله أن يصبح بدرجة رئيس للدولة. إخص.. لا يجب أن يتعرض معاليه، رئيس النظام العالى الجديد وسيدنا وتاج رأسنا وبابا وماما وأنور وجدى إلى كل هذه البهذلة. ثم: من يكون هذا المحقق كينث ستار؟ ابن مين فى واشنطن؟ والخلصة: ولا يهمك يا سيادة الرئيس.. ياسيادة الأمر والأمور. عيال مفاعيص تتناول عليك.. أصواتنا معك. قلوبنا معك. صحفنا معك. بترولنا فداك.

ثم هناك مدرسة ثانية خلاصتها هي: كم هي عظيمة أمريكا هذه. كم فيها من حرية وديمقراطية ومساواة أمام القانون بين أكبر رأس وأصغر هلفوت.. ناس منفطحين شفافين ليس على رأسهم بطحة ولا عندهم مركب نقص. إنهم حتى لا ينتظروا العالم لكى يتفرج عليهم.. بل هم يلاحقون العالم برسائلهم الإخبارية المصورة.. طازة بطازة.. لكى تصبح الفرجة جماعة.. وعلى الهواء.

هناك مدرسة ثالثة خلاصتها أن «الرئيس أيضا بشر».. صحيح هو متزوج ولديه ابنة فى سنة أولى جامعة لكنه أيضا بشر، عمل غلطه؟ وماله. من فينا لم يغلط؟ وعلى حد تعبير باربارا

سترايسند الممثلة اليهودية الصهيونية الأمريكية القريبة من كلينتون حينما صرخت في وجه المعارضين قائلة: نحن لم ننتخبه ليصبح بابا للفاتيكان في روما. لقد انتخبناه ليصبح رئيسنا في واشنطن.



هناك مدرسة رابعة. عيبها أنها ليست على البال وأحد رموزها صامت في قبره. إنه الجنرال جورج مارشال رئيس هيئة الأركان المشتركة للقوات المسلحة الأمريكية في الحرب العالمية الثانية. وقتها دخلت أمريكا الحرب في جبهتين: في أوروبا ضد ألمانيا وإيطاليا.. وفي المحيط الهادئ ضد اليابان. واختار جورج مارشال ضابطاً مقرباً إليه تحت رعايته شخصاً لقيادة قوات الحلف في أوروبا هو الجنرال دوايت إيزنهاور. ومع أن إيزنهاور لم يكن ألمع زملائه إلا أن مارشال أسند إليه ذلك المنصب الخطير، حيث ستصبح مسؤوليته هي قيادة قوات أمريكا وحلفائها ضد ألمانيا وإيطاليا. وباختياره لإيزنهاور كان جورج مارشال يختار له مسبقاً طريق الشهرة والمجد.. لأن الإعلام سيتابع صور وتحركات وإنجازات إيزنهاور بأكثر من رئيسه.. جورج مارشال نفسه.

ومع ذلك فقد تلقى جورج مارشال تقريراً من المخابرات الحربية بأن الجنرال دوايت إيزنهاور أصبح طرفاً في علاقة غرامية مع ضابطة إنجليزية شابة، خصصها له الإنجليز بالذات لكي تصبح سائقاً لسيارته في كل تحركاته داخل وخارج أوروبا. واكتشف جورج مارشال أن تلك العلاقة يدور بشأنها لغز كثير هامس بين الضباط الأمريكيين في لندن، ومنذ شهور عديدة سابقة.

وعلى الفور قام جورج مارشال باستدعاء الجنرال إيزنهاور لمقابلته في واشنطن. في المقابلة سأله مارشال مباشرة عن مدى صحة هذه العلاقة من عدمها.

وبشعور تلقائي من المفاجأة والضيقة رد إيزنهاور: نعم بياسادة الجنرال، لكن هذا شأن يخصني بمفردى. وبالكثير يخص زوجتي وأولادى هنا في واشنطن، هذه حياتى الشخصية، أليس كذلك؟

واحمر وجه جورج مارشال بلون الدم وبوجه صارم وعينين ناريتين خبط على المكتب أمامه مقاطعاً: لاياجنرال. أنت تعانى.. إما من جهل فاضح بمعنى الحزية.. أو بجوهر القيادة.. أو من كليهما معاً. حينما تكون مواطناً عادياً في واشنطن جالساً فى بيتكم تصبح تلك حياتك الشخصية والشأن فيها لزوجتك وأولادك.

لكن حينما تكون جنرالاً فى الجيش الأمريكى، وجنرالاً بأربع نجوم، وتتولى مثل هذا المركز القيادى، فيجب أن تعرف أنه لم تعد لك حياة شخصية بالمرّة، يجب أن تعرف أنه.. حتى حياتك الشخصية هنا.. تصبح من شئون القوات المسلحة الأمريكية، والآن عندى لك أمر عسكرى محدد ومختصر.. اقطع هذه العلاقة فوراً. مفهوم؟ انصرف.

لم يكن جورج مارشال هنا متعسفا مع إيزنهاور - الذى أصبح نفسه رئيسا لأمريكا لثمانى سنوات بعد ذلك - فقد كان مدركا بعمق لمعنى القيادة. فالقائد - على مستوى شركة أو مؤسسة أو كلية أو محكمة أو محافظة أو دولة - لا يصبح قائدا لأنه أحد الملائكة لكن عليه أن يدرك أن القيادة تعنى القدوة والنموذج، واحترام منصبه ومسئوليته.

إنه قد يستطيع الاستغناء بين وقت وآخر عن حب مرفؤسيه له طالما أن بعض قراراته لن تكون لها شعبية. لكنه لو استغنى عن احترام الآخرين لسلوكه.. فإنه يتحول من «قائد» إلى «لص» فهو يسرق منصباً عاماً من أشخاص آخرين مستعدين لإدراك مسئولية القائد.

أحيانا تجد لصا لم يكتف بكونه لصا فزاد على ذلك التبحر فى تبرير لصوبيته. هو فاسد أو مرتش أو سارق للمال العام أو عينه فارغة ويده فارغة. وبعد القبض عليه يقف فى المحكمة وفى تبجح يقول: يا سيادة القاضى.. لماذا أنا؟ البلد كلها لصوص.. لماذا أنا بالذات تحاكموننى ؟

طبعاً حينما تكون البلد «كلها لصوص» فهى الكارثة وعلاجها الجذرى يكون خارج المحكمة. وإلى أن يحدث ذلك فى المحكمة لابد لهذا اللص من العقاب لأنه جرى ضبطه متلبساً ولأنه يجب رده الآخرين من خلال كل حالة تلبس.

فى حالة فضيحة الرئيس الأمريكى كلينتون مع المتدربة مونيكا كان يخرج من المشكلة فى كل مرة كما الشعرة من العجين. مرة لعدم توافر الأدلة أو لعدم وجود الشهود أو لمضى المدة أو لبراعته هو نفسه فى اغتصاب اللغة والتحايل على الكلمات. إنه مثلاً فى سياق قضية سابقة، يقرر أنه لم تربطه مع مونيكا علاقة عاطفية، ثم يكرر نفس الشهادة فى سياق قضيته الأخيرة ولكن أمام محكمة فيدرالية فى هذه المرة. وحينما تحاصره الأدلة بعد الأدلة تكون حجته هى: لقد كانت شهادتى السابقة صحيحة.. قانوناً. والكلمات هنا دقيقة من حيث الصياغة اللفظية، لكنها كاذبة من الناحية الأخلاقية والموضوعية.

والمستوى الأخلاقى فى فضيحة «كلينتون - مونيكا» هو المستوى الوحيد الذى يمكن أن يتسامح معه فيه الشعب الأمريكى، أو على الأقل نسبة كبيرة منه. والسبب هنا نؤجله لحظات قليلة. هناك أيضاً مستوى قانونى جوهره هو: هل كذب بيل ك्लينتون فى شهادته أمام المحكمة الفيدرالية بعد أن حلف اليمين، إذا كان كذلك يصبح الكونجرس مفوضاً بمحاكمته.. وبالتالي عزله من منصبه.

هذا ينقلنا إلى المستوى الثالث فى الفضيحة. المستوى السياسى، فالكونجرس هنا - بمجلسيه - يسيطر عليه حزب المعارضة، الذى هو الحزب الجمهورى، وبتلك السيطرة توجد أصوات كافية من الآن لعزل ك्लينتون. من هنا تبدأ المناورات السياسية، فالحزب الجمهورى مناورته هى خلق ضغط شعبى كاف ضد ك्लينتون يرغمه على تقديم استقالته (كما حدث مع ريتشارد نيكسون فى سنة

١٩٧٤). فإذا لم يستقل طواعية - وهذا مؤكد لأن كلينتون شديد التعلق بمنصبه - يصبح في إمكان الكونجرس البدء في محاكمته.

في التطبيق لاتصبح المسألة بهذا القدر من السهولة، فالخياران المطروحان أمام كلينتون أحلاهما مر بالنسبة للمعارضة الجمهورية. فحتى لو اضطر كلينتون إلى الاستقالة، فهو لن يفعل ذلك إلا بعد أن يهدم المعبد على نفسه وعلى من فيه آخذاً بنظرية «على وعلى أعدائي». هذا يعني أن كلينتون سيقوم بتعمرية الطبقة السياسية كلها.. وبالكامل، بادئاً بأعضاء الكونجرس أنفسهم، أما إذا بدأت إجراءات المحاكمة فإنها ستمضى مطولة شهراً بعد شهر.. مثيرة لدى الشعب الأمريكي كله اشمئزازاً بعد اشمئزاز ضد الحزبين معا. الديمقراطية والجمهورية.

إن.. هل النتيجة تكون هي الحل الوسط؟ ربما. لكن الحل الوسط هنا ممكن في المستويين القانوني والسياسي وهذا يعيدنا من جديد إلى المستوى الأخلاقي في كل هذه القصة من أولها.

حينما نتكلم عن الأخلاق فنحن نتحدث عن حصيلة مكونات عديدة أساسها وخلاصتها، «القيم السائدة» اجتماعياً. هذه القيم تختلف من عصر إلى آخر، ومن مجتمع إلى آخر، ومن ثقافة إلى أخرى. في ثقافتنا السائدة بيننا نحن هنا مثلاً.. نجد أننا ننشأ - على الأقل حتى الآن - على أن «الجنة تحت اقدام الأمهات» وأن رعاية الأبناء والبنات للوالدين في كبرهما واجب ديني وأخلاقي. في الثقافة الأمريكية شئ آخر: إذا كبر الوالدان وأصبحا عبئاً على الفتى أو الفتاة.. فالحل هو إبعادهما إلى أقرب بيت للمسنين. في الثقافة الأمريكية أيضاً هناك مقياس أول وأساسي وجوهري للنجاح هو الفلوس.. معك دولار.. إذن أنت بدولار، معك مليون إذن أنت قيمتك مليون. في ثقافات أخرى تظل الفلوس مهمة أيضاً، لكنها جزء من اعتبارات أخرى تأتي قبلها وبعدها. تلك مجرد أمثلة.. ليس هدفها الإدانة أو تقييد الذات ولكن لمجرد التوضيح، فالمجتمع الأمريكي وجد نفسه من خلال قيمة أساسية هي «الفردية» المطلقة - أنا ومن بعدى الطوفان - بينما ثقافات مختلفة تعطي الأولوية لمبدأ «التكافل الاجتماعي»، حيث «الناس لبعضهم»، و«داين تدان»، والفلوس لها وظيفة اجتماعية قبل أن تكون رصيда في بنك أو «فشخرة» كاذبة لمعايرة الآخرين.. إلخ.

وفي الفضيحة الأمريكية الرائجة إعلامياً الآن - فضيحة كلينتون/ مونيكا - توجد في الخط شركات ومؤسسات كبرى مستفيدة بمئات الملايين من الدولارات نتيجة الإلحاح على كل شعوب العالم لمقايمة مايجرى تماماً كما جرى في حادث مصرع الأميرة البريطانية ديانا قبل سنة. في حينها حول الإعلام الغربي ديانا تلك إلى حالة من الهستيريا الجماعية.. فقط لأنها بذاتها تحولت إلى سلعة تؤدي بدورها إلى ترويج مئات أخرى من السلع. أين الآن هستيريا ديانا؟ والكلام الكبير عن المؤامرة المخبرانية لقتل ديانا؟ لقد اختفى كل هذا في أقل من سنة.. لأن الماكينة الإعلامية

الجهنمية تحولت إلى سلع «بشرية» أخرى.. أكبر وأبعد تأثيرا. وأخطر ما فى حكاية كلينتون - مونیکا.. هذه الفضيحة الأمريكية الملونة.. هو بالضبط ماجاء فى آخرها، عشرات وعشرات من المحطات التلفزيونية والصحف والمجلات (ونحن فى ذيلها طبعا) نشرت تقرير المدعى الخاص كينيث ستار ضد كلينتون. تقرير فى ٤٢٥ صفحة. أما شريط التحقيق مع كلينتون نفسه فقد استغرق أربع ساعات و١٢ دقيقة.

وفى بداية النشر الصحفى والتلفزيونى حرص كل ناشر على أن ينبه كل أسرة إلى حقيقة أن هناك ألفاظا خارجة عن اللياقة من المصلحة إبعاد المراهقين والأطفال عن قراءتها أو الاستماع إليها. المراهقون والأطفال؟ بعد ثمانية أشهر من النشر والالاحاح فيه تنبهت الآلة الاعلامية الجهنمية إلى أن فى جمهور «المستهلكين» مراهقين وأطفالا؟

نعم. ومن بين العديد ممن جرى استطلاع آرائهم فى امريكا لفتت نظرى إحدى الأمهات التى قالت: لم يعد يعنينى أن يبقى كلينتون فى البيت الأبيض أو يروح فى ستين داهية. فقط ابعدها هذه الحكاية المقززة عن بيوتنا. عن أولادنا وأطفالنا.



إن فى امريكا مراهقون ومراهقات، وآخر تقرير عن المراهقين فى امريكا استمعت إليه فى مساء ١٨ سبتمبر (١٩٩٨)، التقرير عنوانه، أهم المشاكل التى تواجه المراهقين فى الولايات المتحدة، بناء على دراسة تناولت حياة من هم تحت سن العشرين فيما بين سنتى ١٩٨٥ و ١٩٩٥.

المشكلة الأولى هى تزايد ارتكاب الجرائم بنسبة ٦٦٪. المشكلة الثانية هى تضاعف عدد الأسر التى يرعاها عائل واحد. الأب بمفرده أو الأم بمفردها. المشكلة الثالثة هى تزايد معدلات الحمل بين المراهقات. المشكلة الرابعة هى أن الأطفال الذين انحدرت حياتهم إلى مستوى الفقر ارتفعت نسبتهم إلى ٢١٪ أى شخص واحد من بين كل خمسة. المشكلة الخامسة والسادسة والسابعة..

فى الخلاصة يتناول التقرير تفكك القيم العائلية فى الحياة الأمريكية، ثم يمضى فى التشرىح إلى أن يقول تحديدا: إن المراهقين الأمريكيين أصبحوا يستلهمون من مسلسلات وأفلام هوليوود أفكارا شيطانية تجعلهم أكثر عنفا وعدوانية وإباحية واستعدادا للمخدرات يوما بعد يوم.

وفى أى مجتمع يكتشف مثل تلك النتائج المروعة تنقلب الدنيا. لم تنقلب الدنيا. فقط هناك دنيا أخرى مقلوبة تتسلى بحكاية «كلينتون/ مونیکا». فى البيت الأبيض مع أن العلاقة وثيقة ومباشرة تماما بين البيت الأبيض وتلك الحقائق السوداء. فى البيت الأبيض فضيحة، لكن فى المجتمع العريض فضيحة.. بجلاجل. مع ذلك فكل الأضواء تتفادها وكل المنبهرين أمام شاشات أجهزة التلفزيون لا يريدون معرفة أى شئ عنها.

الحد .. هو المشوى !



جاءنى بغير موعد. جاءنى وأنا فى أقل الأوقات استعداداً لاستقبال أى أحد.. أو أى شىء.

وهذا فى قاموسى الخاص دافع كاف للاستفزاز والرد من جنس العمل. للبيوت حرمة ولأوقات الراحة حماية يصبح الناس أفضل كثيراً لو أصبحت حدودهم فيها معروفة ومحددة.

لكن الأمر فى هذه المرة زاد عليه تطور آخر استثنائى. لم يكن ما تبحر من داخلى هو فقط رغبتى فى استقبال الآخرين، ولكن أيضاً الإحساس بأننى لا أطيق نفسى.

مجرد أن أطيق نفسى. لقد سار يومى كالمعتاد. وفى العاشرة ليلاً تناولت علبه من الزبادى. وبعد المزيد من القراءة أصبحت فى السرير استعداداً للنوم. فى الصباح الباكر لدى برنامج مكثف من الكتابة يتعلق بارتباطات والتزامات ومواعيد.

وفجأة استيقظت من سابع نومة على سكاكين. كثير من السكاكين. كلها تتسابق مع بعضها البعض فى تمزيق أحشائى ومعدتى. تطور جعلنى على وشك أن أصرخ من الألم. تطلعت إلى الساعة فوجدت الوقت قد تجاوز منتصف الليل بقليل.

موعد غير مناسب بالمرّة للاتصال بطبيب. ثم إننى بالطبيعة لست من هواة التعامل مع الأطباء فى الفارغة والملآنة.

ومعدتى لم تكن ملآنة. فمنذ ثماني ساعات على الأقل لم يدخل فيها سوى علبه الزبادى إياها ومن نفس الماركة ونفس المحل اللذين اعتدتهم. هكذا استبعدت من البداية أية شبهة تتعلق بالطعام. إذن.. لماذا المغص المؤلم ومن أين تجيء كل هذه السكاكين الحادة فى معدتى ؟

جنّت إلى السرير بمجموعة من الكتب والصحف لعل الآلام تزول بمرور الوقت. سطر وآخر. كتاب وآخر. لا مزاج للقراءة. أى قراءة. لا قدرة على النوم أيضاً. والوقت، تجاوز الثانية صباحاً.

تناولت بعض المياه. لا فائدة. كوباً من اليانسون. أبداً. محاولة أخرى وأخرى للاندماج فى القراءة. مستحيل. والساعة فى يدى تبدو عقاربها وكأنها تتعمد التقدم ببطء. فتحت جهاز الراديو

إلى جوارى. تنقلت من محطة إلى أخرى. سمعت مقاطع متنوعة من كل تلك الثثرات المملة التي أصبحت إزاعاتنا تقلد فيها بعضها. لا فائدة.

مع الفجر بدأت صحف الصباح تردنى. وبالتتابع أجد تلك الصحف ملقاة فى الشرفة المطلة على الشارع العمومى. وبعض آخر يجرى تسريبه من تحت عقب الباب.

الآن صباح جديد ويوم وعالم جديد. لكنه نفس العالم العبثى. مظاهرات فى روسيا بحثاً عن لقمة خبز. مناقشات فى أمريكا لتحديد مصير رئيس. رئيس فى أمريكا يشغل وقته بالجمع بين رئيس وزراء إسرائيل ورئيس سلطة الحكم الذاتى الفلسطينى.

ظرفاء تماماً هؤلاء الأمريكيون. كأفراد لهم انجازات كثيرة تستحق الإعجاب، لكنهم تاريخياً.. مجتمع «قص ولزق». شعب بلا ماض. فالولايات المتحدة - كدولة - عمرها مجرد مائتى سنة وكسور. إحساسهم مسطح تماماً بالظلم والقهر والحق والعدالة. الدنيا فى عيونهم بمبى.. والصراعات الكبرى مجرد تعبير عن ضيق الأفق وقلة الحيلة.

والأمريكان عندهم الحيلة. اجمع الخصوم معا فى مكان ريفى جميل للناس الفايقة والرايقة. اطلب منهم الابتعاد عن الرسميات والاكتفاء بقميص وبنطلون جينز. اعمل لهم «بارباكيو» - أو وجبة لحوم يقومون هم بشوائها لبعضهم فى الهواء الطلق. وحياتى عندك يا «بيبى» تاكل الريشة دى. وحياتك انت يا «عوعو» تاكل الصدر ده. لقمة من هنا. لقمة من هناك. ابتسم علشان الصورة. الكاميرات صورت. الإرسال التليفزيونى اشتغل. خلاص. كله.. كما كنت. كله يغمض عينيه. كله يحلم. دولارات. دولارات.

ويهنئ الأمريكيون بعضهم البعض على هذا الإنجاز المدهش. بل إنهم يصرون أيضاً على أن يقوم العالم كله بهتنتتهم. ويطلبون من الشعوب أيضاً أن يقلد مواطنوها ما شاهدوه لتوهم على شاشات التليفزيون..

وبالألوان. كل واحد عليه أن يقول: فى طولك فى عرضك.. أنا بتاع المشوى. من لديه «بيبى» سرق بيته أو احتل أرضه أو قتل أخوه.. لا يهم. الحل فى المشوى. اعطه مشوى.. يعطك حناناً.

بالحنان يعيش العالم ويترقى الإنسان. ياراجل. كبير مخك. ما قيمة قتلاك الشهداء أو أرضك المحتلة أو بيتك المسروق أمام لفظة حنان؟ أنت جربت النضال والمقاومة سنوات. لماذا لا تجرب نسيان الماضى وتطلع إلى المستقبل؟ ما فات مات.. والعلاج الآن هو بعض الحنان. صحيح هذا قتل عائلك واغتصب أرضك لكن لا تعتبره لصاً أو قاتلاً. هو بشر. والبشر علاجهم الحنان. قتل لك قتيلاً؟ أعطه الحنان. قتيلاً آخر؟ مزيداً من الحنان. قتيلاً عاشراً؟ ادخل عليه بالمشوى. اكسفه. افحمه. اعزمه مرة واثننتين وثلاثة. مفيش لحم؟ جرب الفراخ. مفيش فراخ؟ هات له بيتزا. فى الآخر.. لا تيأس. بيتزا بعد بيتزا بعد بيتزا أكيد مزاجه سيعتدل وبالتالى قلبه سيطمئن إليك ويعطيك - هو

الذى سيعطيك - شهادة بحسن السير والسلوك. تسأل.. أين حقوقك.. أو أين أنت نفسك؟ فى الطراوة طبعاً. لكن ما رأيك فى الحنان؟!
مغص. مغص. مغص.

إنها التاسعة صباحاً. تسع ساعات وأنا أتلوى من الألم. قائماً. مستلقياً. جالساً. بين. بين. مغص. مغص. مغص. لم أكن أعرف من قبل أن فى معدتى كل هذه السكاكين. لم أكن أعرف أيضاً أن جدلها مع بعضها البعض يتزايد بمرور الوقت. أمسكت بسماعة التليفون. بعد لحظة أعدتها إلى مكانها. فتقابة الأطباء التى أعرفها اسمها الدكتور علاء الزيات. نعم هو ابن الأديب الكبير الراحل أحمد حسن الزيات صاحب مجلة «الرسالة» ذات الدور الشهير والخطير فى الثقافة العربية خلال سنوات الأربعينيات من هذا القرن.

لم ألحق بأحمد حسن الزيات. لكننى لحقت بمجلة «الرسالة» فى مكتبة مدرستنا الثانوية بطلخا وفى دار الكتب بالنصورة. اعتبرنا أنفسنا محظوظين لأننا نجد أعداد «الرسالة» فى الحفظ والصون بعد توقفها بسنوات.

فيما بعد سافرت إلى بيروت ودمشق وبغداد وجدة ضمن دسنة بلدان عربية أخرى. لم أجد أديبا أو مثقفا عليه القيمة إلا وهو يتذكر مرحلة شبابه. وفى شبابه كان ينتظر شهرا بعد شهر وصول أعداد مجلة «الرسالة» التى يصدرها أحمد حسن الزيات فى القاهرة.

كان الزيات مرتبطا بالرسالة. و«الرسالة» جزء من دنيا عريضة من الثقافة العربية يتنافس فيها النجوم رأساً برأس. من طه حسين إلى أحمد حسن الزيات إلى محمد حسين هيكل إلى أحمد أمين إلى عباس محمود العقاد.. إلخ.

مغص. مغص. مغص.

دخلت فى الساعة العاشرة. جريت من جديد. يانسون. شاي. قهوة. مياه. لا فائدة. فكرت فى استخدام التليفون من جديد وغيرت رأيى من جديد. يجب أن أتحمل هذه السكاكين فى معدتى لوقت أطول فربما ينتهى هذا الشجار الداخلى على خير. ثم إن الدكتور علاء الزيات صباحاً لابد أن يكون منهمكا فى عمله الصباحى - أستاذ بكلية طب القاهرة - أو ربما بالمرور على مرضاه فى مستشفى قصر العيني. قلت لنفسى: طول بالك وتحمل. هناك مرضى حقيقيون فى مستشفيات حقيقية ربما يكونون أكثر احتياجاً منك لوقت علاء الزيات.

الحل مؤقتاً: يانسون آخر. شاي آخر. و.. محاولة للاندماج فى القراءة عندى علاج ذاتى يجرى فى دماي منذ الطفولة. وأى كتاب اختاره يجعلنى أنسى الدنيا. لم أنس الدنيا. لم أستمر فى القراءة. جربت الاستعانة بحبى الآخر. حب العمر. حب الكتابة. لكن القلم لم يطاوعنى. برج العقل تبخر فى داخلى. لا كتابة.

مغص. مغص. مغص.

فى الثالثة عصرا كنت استهلكك قدرتى على تحمل الألم. هكذا تناولت سماعة التليفون من جديد وطلبت علاء الزيأت فعلا. لم يكن يزعجنى ككاتب أكثر من أن يدق جرس التليفون إلى جوارى وأنا فى منتصف جملة. من هنا تحسبت مقدما لاحتمال أن يفاجأ علاء الزيأت بمكالمتى وهو فى منتصف الكشف على مريض.. أو منتصف عملية جراحية.. أو حتى وهو يخطف لقمة غداء.. بصوته البشوش المعتاد رد علاء الزيأت. من غير تحيات ولا سلامات أردت أن أُلخص له الحالة بكلمات برقية خاطفة مركزة. سألتنى الطبيب الصديق: هل توجد حرارة مرتفعة؟ هل حدث لك قىء؟ إذن.. أكتب اسم هذا الدواء وتناول منه قرصا كل ست ساعات. ثم دواء آخر تأخذ منه قرصا واحدا فى حالة اشتداد الألم إلى درجة تفوق احتمالك. يوم واثنين يتم الشفاء بإذن الله. فما أصابك هو ميكروب منتشر فى هذه الأيام.

صلبت جسمى يصعوبة واستدعيت «عم محمد» لكى يأتينى بالدواء المطلوب من أقرب صيدلية. فى المسافة من الباب إلى السرير مرة أخرى كنت أضغط على معدتى بشدة خشية أن يتمزق منى جدار المعدة فى منتصف المسافة.

لم أكد أستلقى على السرير من جديد حتى دق جرس الباب مرة أخرى. هل أستطيع أن أقطع نفس المسافة القصيرة مرة أخرى بجسم مصلوب؟ آه.. آه.. تلك كانت الصرخة المكتومة فى داخلى قبل أن يفاجئنى شخص غريب بكتاب و: الأستاذ مجدى العمروسى يسلم على حضرتك ويهديك هذا الكتاب و.. يا ترى سيادتك تعرف فين شارع عبدالعزيز آل سعود.. أصل الأستاذ مجدى كلفنى أيضاً بتوصيل نسخة من الكتاب إلى مدام وردة (نجمة الغناء). وبإحدى يدي وبأقصر كلمات ممكنة شرحت له الطريق إلى الشارع القريب بينما يدي الأخرى تمنع معدتى من الانفجار. لكن المسافة فى هذه المرة وأنا عائد من الباب إلى السرير بدت أقصر. فالكتاب فى يدي يحمل غلافه صورة عبدالحليم حافظ ثم عنواناً من أربعة أسطر: كراسة الحب والوطنية.. السجل الكامل لكل ما غناه.. العندليب الأسمر.. عبدالحليم حافظ. التوقيع: مجدى العمروسى.

السطر الأول مأخوذ عن الصديق صلاح منتصر من عمود له سبق نشره فى جريدة «الأهرام». أما السطور الأخرى فقد جعلتنى أستلقى على السرير بسرعة. فى هذه المرة بعينين فصيحتين تماما. حالة تعنى بالنسبة لى أننى سأندمج فى الكتاب تماما.

هكذا فاجأنى الكتاب بغير موعد. ومن الناحية الموضوعية فإنه مجرد عمل تسجيلى بالنصوص الكاملة لكل ما غناه عبدالحليم حافظ طوال مشوار حياته الفنية.. من الحب إلى الوطنية وبالعكس.. ومن السينما إلى الإذاعة وبالعكس.

بعض ما فى هذا الكتاب كنت شريكا فيه وأعرف كل تفاصيله وظروفه.. خصوصا تلك الأغاني التى كانت جزءا من مسلسل «أرجوك لا تفهمنى بسرعة» المأخوذ عن رواية من تأليفى. مسلسل قام عبدالحليم حافظ ونجلاء فتحى وعادل إمام ببطولته إذاعيا فى سنة ١٩٧٣. وبذلك الصفة فإن أغاني المسلسل الإذاعى - كفكرة وتعبير - ولدت فى بيتى مع أبطالها الأساسيين: بليغ حمدي ومحمد الموجى ومنير مراد.. وبالطبع عبدالحليم حافظ. أغاني أخرى عشتها مع عبدالحليم كصديق.. أو مع محمد عبد الوهاب كصديق أكبر. أغاني أكثر وأكثر عشتها كطالب فى المرحلة الثانوية - نفس المدرسة التى كان اسمها مدرسة طلخا الثانوية - وأصبحت الآن تحمل اسم أحمد حسن الزيات تكريماً له كواحد من أبناء إحدى قرى مركز طلخا.

فى المدرسة كانت عندنا فسحة بين النشاطات مدتها ساعة. إنها الفسحة الكبيرة. فى تلك الساعة كان هناك نشاط مدرسى مفتوح. أحد النشاطات تشغيل الإذاعة المدرسية، وهى مهمة عويصة يتحمل مسئوليتها ثلاثة من الطلبة.. كنت أحدهم.

والمهمة عويصة لأن ما نختاره من مواد لإذاعته هو من ذوقنا الخاص متوسمين بالطبع برغبات «المستمعين». رغبات زملائنا الطلبة. والمستمعون مزاجهم رايق معظمهم حبيبة وعشاق تحت العشرين والدور لابسهم !

ومحاميهم العاطفى - وربما محامينا نحن أيضا - هو عبدالحليم حافظ فى أغانيه الرائجة بشدة. أغاني مثل: تخونوه.. باحلم ببك.. ظلموه. صافينى مرة.. على قد الشوق.. أهواك.. توبة.. حلو وكداب.. فى يوم من الأيام.. أبوعيون جريئة. فى يوم فى شهر فى سنة.. إلخ. بمرور الوقت بدأنا نحس أننا - نحن الثلاثة المكلفين بتشغيل الإذاعة المدرسية واختيار موادها - محل حظوة ومركز قوة. حتى من قبل جرس الفسحة بدقائق تبدأ الرجاءات: من أسبوع وأنتم لا تديعون «صافينى مرة» ومركزين على «أهواك».. هم بتتوع سنة ثالثة كلمتهم مسموعة عندكم أكثر منا ولا إيه ؟

أو: الفصل كله عايز يسمع «حلو وكداب».. أنتم مش عاجبكم الفيلم؟
أو: عايزين نسمع أغنية «أول مرة تحب يا قلبى».. برضه أنتم كنتم فى سنة أولى زينا.. أعطوا الجيل الجديد فرصة..

أحيانا نضرب لكمة. الأغاني كثيرة والطلبات أكثر ومن الصعب الاستجابة إلى كل الطلبات.. فالوقت محدود. ثم إن هناك فقرات أخرى ثابتة نعرضها فى دقائق. مثل «أقوال الصحف» أو «آخر كتاب ورد إلى المكتبة» أو.. أو..

فى تلك الحالات كنا نستعين بالجنيه الذهب الغنائى. إنها أغنية «حكاية شعب» التى كتب كلماتها أحمد شفيق كامل ولحنها كمال الطويل.

بتلك الأغنية تحديدا لم تكن ضمن فقط رضاء كل «المستمعين» ولكن مشاركتهم في الغناء أيضا..
أيا كان موقع كل طالب في ملعب المدرسة لحظتها.

هناك «كورس» تبدأ به الأغنية وهو يقول: قلنا حانينى وآدى احنا بنينا السد العالى..
يا استعمار بنيناها بإيدينا السد العالى.. من أموالنا بإيد عمالنا.. هي الكلمة وآدى احنا بنينا..
وحينما يتدخل عبدالحليم مقاطعا: إخوانى.. تسمحوا لى بكلمة؟ يطفى علينا صوت الزملاء من
الملعب مرددا مع الكورس: هيه..

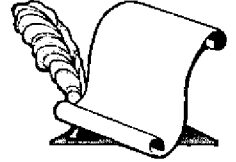
ويبدأ الصمت يطفى من جديد وعبدالحليم يسترسل.. «كان طبعى نبص للنيل اللي أرواحنا في
إيديه.. مية في البحر ضايعة والصحارى في شوق إليه.. قلنا بنينى سد عالى سد عالى...»
مع جرس انتهاء الفسحة كنا نسير وسط الطلبة وكأن كلاً منا هو عبدالحليم حافظ شخصيا.
وأتطلع إلى أقرب من أراه في سنة أولى: خلاص يا سنة أولى؟ سمعت «حكاية شعب»؟
أظن دلوقت رأسك برأس سنة ثالثة.. هاهها..

بعد قرصى الأول من دواء الدكتور علاء الزيات.. وقراءتى الأولى لنصوص أغانى عبدالحليم
حافظ المطبوعة.. اكتشفت أن عقارب الساعة في يدي قد عادت إلى حركتها الطبيعية.. وأننى لأول
مرة منذ منتصف ليلة أمس قد أصبحت أكبر من السكاكين الحادة في داخل معدتى.. هل فاجأها دواء
علاء الزيات؟ أو أغانى عبدالحليم؟ أو كلاهما معا؟

أيا كانت الإجابة فإن المعنى الذى استقر فى ذهني هو: في الحياة - بين وقت وآخر - آلام لا مفر
منها. آلام لا تطاق. وفى مواجهة هذا الموقف هناك حلان: إما أن نجعل الآلام أصغر.. أو نصبح
نحن أكبر. والصغر والكبر هنا يبدأ قبل أى مكان آخر من إرادتنا نحن. من عقولنا. من قلوبنا. من
أحلامنا. راح المغص !



حال الدنيا !



لايكاد يمر يوم إلا وتأتى سيرة «الأمم المتحدة»، بشكل أو بآخر. بعد الحرب العالمية الأولى كانت هناك منظمة باسم «عصبة الأمم».. جاءت الحرب العالمية الثانية فى سبتمبر ١٩٣٩ لى تدفنها بالثلاثة. من فشل «عصبة الأمم» ودروس حربين عالميتين اتفق أصحاب «النظام العالمى الجديد» فى سنة ١٩٤٥ على إقامة منظمة دولية جديدة باسم «منظمة الأمم المتحدة».

فى هذه المرة لم يعد العالم يعترف بمكاسب الغزو المسلح لأن هذا هو بالضبط ما جعل العالم يتحول إلى غابة كبرى فى ظل وجود منظمة «عصبة الأمم». الآن فى ميثاق «الأمم المتحدة» الوليدة أصبح المبدأ الحاكم هو عدم جواز الاستيلاء على الأراضى بالغزو أو بالقوة وبالحرب، ثم شئ آخر هو أن «الأمم المتحدة» لها «أسنان» حقيقية إذا أرادت الدول الكبرى.

فى «الأمم المتحدة» هناك - أساسا - برلمان وحكومة، الجمعية العامة للامم المتحدة هى البرلمان حيث لكل دولة صغرت أو كبرت.. صوت واحد فى المقابل هناك حكومة وسلطة تنفيذية هى مجلس الأمن المشكل حاليا من خمس عشرة دولة.. القاعدة هنا أيضا هى صوت واحد لكل دولة لكن هناك فارقا أساسيا.

فمن بين الخمس عشرة دولة هناك عشر دول تنتخبها الجمعية العامة لى تصبح أعضاء فى مجلس الأمن لمدة سنتين بعدها عشر دول أخرى .. وهكذا.

فى نفس الوقت هناك خمس دول تحديدا دائمة العضوية. وبذلك الصفة يصبح لها حق النقض، «الفيتو»، فإذا ناقش مجلس الأمن مشروع قرار وفى لحظات التصويت اعترضت عليه دولة واحدة من الدول الخمس دائمة العضوية، يسقط هذا المشروع تلقائيا ويصبح كأن لم يكن، حتى لو حظى بموافقة الأربع عشرة دولة الأخرى الأعضاء فى المجلس. والفكرة هنا هى أن الدول الخمس دائمة العضوية هذه اعتبرت نفسها من البداية أنها القوى التى خرجت منتصرة من الحرب العالمية الثانية، وبذلك الصفة تريد كل منها أن تحمى نفسها ومصالحها ومناطق نفوذها الخاصة من تطفل وتدخل القوى الأربع المنافسة الأخرى.

من الجمعية العامة للأمم المتحدة، البرلمان، يوجد ما هو أقرب إلى الديمقراطية والعدالة والمساواة.. الخ. من مجلس الأمن - أى السلطة التنفيذية - يولد القاموس الآخر. قاموس: كلنا

دول متساوية نظريا مع بعضنا البعض لكن عمليا بعض الدول على رأسها ريشة.. وبعضها في الهواء الطلق.

مع ذلك فلأأم المتحدة مجالات أخرى للعمل تتولاها إدارات ووكالات متخصصة مجالات بعيدة عن السياسة بمعناها الساخن وإن تكن في قلب السياسة بمعناها الشامل.

من هنا توقفت مؤخرا عند تقرير سنوي صدر عن إحدى إدارات الأمم المتحدة وموضوعه المتجدد يمكن تسميته بـ «حال الدنيا» هناك تقارير أخرى عديدة مليئة بالحقائق والأرقام والاحصائيات. حقائق مثل متوسط نصيب الفرد من الدخل في دول العالم، أو معدلات النمو الاقتصادي المقارنة بين الدول أو صادرات وواردات كل دولة الخ.

هذا التقرير شيء مختلف. في هذا التقرير بشر حقيقيون، وحقائق نستطيع أن نلمسها باليد أو نراها بالعين أو نفسر بها بعض مظالم الحياة ومرارات الواقع.

حقائق مثل: ماذا يأكل أطفال العالم؟ من في كل مجتمع تنسوس أسنانه من الآيس كريم ومن تنسوس أسنانه من سوء التغذية؟ من يملك بدل السيارة عشرة ومن لا يجد ثمن ساعة يد؟ لماذا تبدو ايميلدا ماركوس مثلا كما لو كانت شابة في سن السبعين ولماذا يموت ملايين الأطفال جوعا قبل الخامسة؟.. إلخ.

كلها ماتزال أرقاما لكنها أرقام بوجه إنساني في هذه المرة، أرقام تحفز العقل أو توجع القلب.. أو ماتبقى منهما. أرقام هذا بعض منها.



■ المالكون: خمس سكان العالم الآن هو الأغني وخمسهم في القاع هم الأفقر. الخمس الأغني من سكان العالم يستهلكون بمفردهم ٨٦٪ من كل السلع والخدمات التي ينتجها العالم كله.. بينما الخمس الأفقر يستهلك مجرد ٣,١٪. في الواقع إن الخمس الأغني يستهلك ٤٥٪ من كل اللحوم والأسماك و ٥٨٪ من كل الطاقة المستخدمة و ٨٤٪ من كل الورق ولديهم ٧٤٪ من كل خطوط التليفونات ويملكون ٨٧٪ من كل المركبات في العالم.

■ الأغنياء: الشعوب الثلاثة الأكثر غنى في العالم لديهم ممتلكات تزيد على كل الإنتاج المحلي لثمان واربعين دولة مجتمعة هي البلاد الأقل نموا.

■ شديدا الثراء: في عالمنا المعاصر ٢٢٥ فردا هم الأكثر ثراء على المستوى الشخصي في كل العالم. هؤلاء الأفراد ستون بالمائة منهم أمريكيان قيمة ممتلكاتهم ٣١١ بليون دولار.

ال ٢٢٥ فردا هؤلاء قيمة ثرواتهم تريليون دولار أو مايساوي مجموع الدخل السنوي لسبعة وأربعين بالمائة من كل سكان العالم، الذين يصبحون بتلك الصفة أهم الأكثر فقرا.

■ الموارد الطبيعية: منذ سنة ١٩٧٠ تراجعت مساحة الغابات في العالم من ٤,٤ ميل مربع لكل ألف من السكان إلى مجرد ٢,٨ ميل مربع لكل ألف من السكان. بالإضافة إلى ذلك فإن ربع كل مخزون العالم من الأسماك جرى استنزافه أو يتعرض لخطر استنزافه عند الحد الخطر بيولوجيا.

■ التعليم وأدوات التجميل. الولايات المتحدة بمفردها تنفق ثمانية بلايين دولار سنويا على أدوات ومساحيق التجميل. هذا المبلغ يزيد بليونين من الدولارات عن كل المبلغ المطلوب لتوفير التعليم الأساسي لكل سكان العالم سنويا.

■ النهر المقدس: في الهند يعتبر «الهندوس» أن نهر «الجانج» مقدس حيث إنه يرمز إلى النقاء والطهارة.. وحيث إن الهندوس يؤمنون بأن من يشرب من مياه نهر «الجانج» أو يستحم فيها يتطهر من الخطيئة. مع ذلك.. في الهند ٢٩ مدينة كبيرة وسبعون مدينة متوسطة وعدد لا يحصى من القرى يلوثون مياه هذا النهر من خلال إلقائهم مخلفات مجارى بشكل مباشر في النهر تصل كميتها إلى ٢٤٥ مليون جالون. فوق ذلك هناك مصانع هندية تلقى في هذا النهر بسبعين مليون جالون من مخلفاتها وفلاحون يلقون في مياه النهر بستة ملايين طن من مخلفات الاسمدة الكيماوية.. بالإضافة إلى تسعة آلاف طن من الطحالب ومخلفات المبيدات.

■ افريقيا: في قارة أفريقيا أصبح متوسط ماتستهلكه الأسرة العادية في اليوم الواحد يقل بنسبة عشرين بالمائة عما كان عليه الحال قبل ٢٥ سنة.

■ الذين لا يملكون: هناك ٤٤٠٠ مليون نسمة يعيشون في الدول النامية حاليا.. وثلاثة أخماس هؤلاء يفتقرون إلى وسائل الصرف الصحي وثلثهم لا يحصل على مياه الشرب النظيفة وربعهم لا يعيش في مساكن ملائمة وخمسهم لا يحصلون على خدمات صحية من أى نوع.

■ اللحوم: متوسط مايستهلكه الفرد الأمريكي من اللحوم سنويا هو مائتان وستون رطلا. في بنجالاديش المتوسط هو ستة أربال ونصف رطل.. سنويا.

■ الدخان: في العالم المعاصر يموت مليونان وسبعمائة ألف شخص سنويا بسبب تلوث الهواء. هناك أيضا مليونان ومائتا ألف حالة وفاة سنويا بسبب التلوث داخل المنازل، بما في ذلك الدخان المتصاعد من حرق الاخشاب وروث الحيوانات.. وهو دخان أكثر ضررا حتى من دخان التبواكو.. ثمانون بالمائة من هؤلاء الضحايا هم من فقراء الأرياف في الدول النامية.

■ المستقبل: سكان العالم حاليا ستة بلايين نسمة في سنة ٢٠٥٠ سوف يصبحون تسعة بلايين وخمسمائة مليون نسمة. من هؤلاء سيكون هناك ثمانية بلايين نسمة في الدول النامية وحدها.

■ ساعات اليد وأجهزة الراديو: في الهند تسعون مليوناً يعانون من الفقر الشديد.. ثلثهم يعيشون حتى تحت مستوى خط الفقر. مع ذلك فإن أكثر من خمسين بالمائة من هؤلاء الناس شديدي

الفقر يمتلكون ساعات يد و٤١٪ يمتلكون دراجات و٣١٪ يمتلكون أجهزة راديو و١٣٪ لا يمتلكون مراوح.

■ خطوط التليفونات: في السويد يوجد ٦٧١ خطاً تليفونياً لكل ألف من السكان. في الولايات المتحدة ٦٢٦ خطاً. في أفغانستان وكامبوديا وتشاد وجمهورية الكونغو الديمقراطية يوجد خط تليفوني واحد لكل ألف من السكان.

■ الآيس كريم والمياه: الأوروبيون ينفقون أحد عشر بليون دولار سنوياً على الآيس كريم. هذا المبلغ يزيد بليونين من الدولارات عن كل المبلغ المطلوب سنوياً لتوفير مياه الشرب النظيفة ووسائل الصرف الصحي لكل سكان العالم.. سنوياً.

■ مرض الإيدز: مع نهاية سنة ١٩٩٧ بلغ عدد الأفراد الأحياء المصابين بمرض «الإيدز» في العالم كله ثلاثين مليون شخص، يتزايدون بمعدل ١٦ ألف مصاب جديد يومياً، تسعون بالمائة من هؤلاء هم من سكان الدول النامية، الآن تقول التقديرات إنه بحلول سنة ٢٠٠٠ سوف يرتفع عدد المصابين بالمرض إلى أربعين مليون شخص من سكان العالم.

■ الألبان الأرضية: في العالم الآن أكثر من مائة وعشرة ملايين لغم أرضى نشيط متناثرة في أراضي ٦٨ دولة. بالإضافة إلى مخزون مماثل لدى دول العالم. وفي كل شهر يموت، أو يتشوه، أكثر من ألفي شخص بسبب انفجار تلك الألبان.

■ أغذية وأدوية الكلاب والقطط: الأمريكيون والأوروبيون ينفقون سبعة عشر بليون دولار سنوياً على أغذية الحيوانات الأليفة (كلاب وقطط.. الخ) هذا المبلغ يقل بأربعة بلايين دولار فقط عن كل المبلغ المطلوب سنوياً من أجل توفير الأغذية والأدوية الأساسية لكل فرد في العالم المعاصر.

■ كم تساوى أربعين بليون دولار؟: كثيرون في هذا العالم يحلمون بتوفير التعليم الأساسي لكل سكان العالم ويحلمون بتوفير الرعاية الصحية الأساسية لكل سكان العالم ويحلمون بتوفير مياه الشرب النظيفة ووسائل الصرف الصحي لكل سكان العالم.

السؤال هو: كم يحتاج العالم كموارد إضافية - فوق الموارد المتاحة حالياً - لتحقيق كل تلك الأحلام؟

الإجابة هي: أربعون بليون دولار سنوياً.

السؤال الأخير: كم تساوى هذه الأربعين بليون دولار الإضافية؟

الإجابة الأخرى: تساوى أقل من أربعة في المائة من إجمالي ثروات المائتين وخمسة وعشرين شخصاً الأكثر ثراء في هذا العالم المعاصر.



بعد هذا كله : ما الخلاصة ؟

كوفى عنان السكرتير العام للأمم المتحدة هو - بنص ميثاق المنظمة الدولية - كبير موظفي السكرتارية الدائمة للأمم المتحدة. هو إذن ليس دولة فوق الدول، ولا حتى تحت الدول. هو.. وكل سكرتير عام قبله أو بعده.. موظف عند الأمم المتحدة.. وعمليا موظف عند مجلس الأمن.

ومجلس الأمن فيه أعضاء عاديون وأعضاء على رأسهم ريشة. بتلك الريشة يستطيع بعضهم - حتى - أن يدعى ضيق ذات اليد فيتأخر كما يحلو له عن تسديد مجرد نصيبه في الميزانية السنوية العادية للأمم المتحدة. وبتلك الصفة مثلا فإن الولايات المتحدة مدينة منذ سنوات وحتى الآن بأكثر من بليون دولار للأمم المتحدة هي أصلا مستحقات عن سنوات سابقة.

بتلك الريشة أيضا لن يعطى أغنياء العالم لفقرائه دولارا واحدا بل إنهم في الواقع يعملون بكل نشاط وهمة لـ«شفط» حتى أقل القليل مما يوجد لدى فقراء هذا العالم. أى الأغلبية.

وسواء تكلمنا عن الجات أم العولة أو صندوق النقد الدولي أم حرية التجارة أم فتح الأسواق فإن الخلاصة في النهاية تظل هي : الأغنياء يزدادون غنى والفقراء يزدادون فقرا.

بالطبع هذا ليس عدلا ومن لا يعجبه عليه أن يعتمد على نفسه أو يكتفى بالحصول على مواساة الأمم المتحدة من خلال مثل هذا التقرير. تقرير عن الوجه الإنساني لعالمنا المعاصر. أو بالدقة الوجه اللاإنساني.



للحزن صباح آخر



حينما زارنى المطرب السوري الكبير صباح فخري في غرفتي بالفندق وعرض على فكرته..
تحمست فورا. فقط أصبح لابد لي من إجراء مكالمة تليفونية لتأجيل موعد كنت قد ارتبطت به في
السادسة مساء مع مسئول سوري كبير.. هو وزير الإعلام. إنها دمشق وهذا فندق «الشام» الذي أقيم
فيه منذ وصولي. أما صديقي الفنان الكبير صباح فخري فقد أثار حماسي منذ الجملة الأولى التي
نطق بها. إنه على موعد الليلة لإحياء حفل غنائي في بيروت ، وما رأيك في أن تجيء معي لنذهب
معا إلى بيروت فنسهر الليلة سويا ثم نعود معا إلى دمشق ظهر الغد ؟
بيروت ؟ وصباح فخري ؟ هاتان هديتان يتحمس المرء لأى منهما.. فما بالك بهما معا.. وفي
ليلة واحدة ؟

كانت علاقتي مع بيروت من نوع تلك العلاقات الرومانسية التي لا تكتمل أبدا. في المرة الأولى
كانت بيروت في ذروة تألقها وازدهارها. وبعد يومين من وصولي جاءني صوت عمنا العزيز الراحل
سعيد فريحة صاحب دار الصياد اللبنانية للصحافة. لقد فاجأني بكلماته المنفعلة المعترضة الغاضبة :
كيف أعرف بوجودك هنا في بيروت من خبر أقرأه في الصحف؟ لا.. لا.. لا أعذار أقبلها منك
بالمرة.. وخلال دقائق ستملك السيارة لكي تصبح ضيفي أنا. يا رجل.. تجيء بيروت ضيفا على
وزارة السياحة وأنا موجود؟ هذا لا يجوز.

وفي العلاقة مع سعيد فريحة كانت المناقشة لا تجوز. هو أب وعم وخال وفنان وصحفي كبير
المقام قبل السن، وبغير مناقشة قال للسائق: اطلع بنا على شتورا..

قلت له: لكن ماذا عن وزارة السياحة وهي أصلا التي دعتنني إلى هذه الزيارة ؟
رد سعيد فريحة ببساطة: " دير بالك. بكير أكلم وزير السياحة اعتذر له.. أو حتى أدعوه هو
أيضا لكي يلحق بنا في شتورا.

لكن لماذا شتورا ؟ لأنها مقر البيت الريفي أو الصيفي أو الهاديء لسعيد فريحة وعائلته. ولأن
شتورا هي أيضا جزء من سحر وسخاء الطبيعة اللبنانية، ومن الساعة الأولى اتصل سعيد فريحة
تليفونيا بالموسيقار محمد عبدالوهاب - الذي كان هو أيضا في زيارة للبنان - ودعاه إلى شتورا.

وفيما بين محمد عبدالوهاب وسعيد فريحة وشتورا.. ضاعت منى بيروت.

بعدها بسنوات سافرت إلى دمشق للذهاب منها برا إلى بيروت. الحال غير الحال ولبنان كلها دخلت في مفرمة الحرب الاهلية ولم تعد هناك طائرات بين القاهرة وبيروت وبالتالي أصبحت وسيلتي الوحيدة هي السفر جوا إلى دمشق كمرحلة أولى وبعدها برا إلى بيروت كمرحلة ثانية.

في دمشق نزلت في فندق «أمية» برفقة ممثل للجامعة العربية استبشرت خيرا حينما حدثني عن نفوذه الخاص في دمشق ووعدني بتسهيل عدة مقابلات مع كبار المسؤولين السوريين. إنها وساطة مهمة لأن العلاقات السياسية بين دمشق والقاهرة وقتها كانت شديدة التوتر على مستوى الرئيسين. لكنني في دمشق وجدت الوقت يجري يوما بعد آخر بغير أن ينجح ممثل الجامعة العربية في الحصول لي، أو لنفسه!، على أية مواعيد.

وبينما أتصفح جريدة سورية قرأت خبرا عن وجود محمد عبدالوهاب في بلودان فيما بدا أنه - كالعادة - كيف نفسه مع الظروف المتغيرة. لم تعد رحلته الصيفية المعتادة إلى بيروت ممكنة.. فاستبدل بها رحلة صيفية إلى بلودان.

سألت موظف الاستقبال عن أية أرقام تليفونات لفنادق يعرفها في بلودان فأجابني بأن المهمة سهلة لأنه لا يوجد في بلودان سوى فندق واحد يرتاده كبار القوم.

في التليفون سمعت كلمات عبدالوهاب المألوفة من الود والترحيب إلى أن قلت له إن برنامجي هو الذهاب إلى بيروت. عندها تحولت المودة في كلمات عبدالوهاب إلى اعتراضات شديدة اللهجة: بيروت؟ بيروت؟ يا حفيظ معقول عايز تروح بيروت وسط المذبحة الجارية هناك؟

قلت له: نعم أريد الذهاب.. بالضبط بسبب هذه المذبحة. أريد فهمها وتحليلها على أرض الواقع..

اعترض محمد عبدالوهاب من جديد: هذا جنون مطبق. بيروت؟ يا حفيظ. الإنسان يروح للموت برجليه مرة. وأنت تروح مرتين؟ مش كفاية الرباط؟

كان عبدالوهاب يشير بكلماته الأخيرة إلى موقف آخر تابعتني من خلاله في سنة سابقة حينما كنت أقيم معه في فندق هيلتون الرباط بالمغرب وجرى انقلاب عسكري. وليتها فوجيء عبدالوهاب بأنني نزلت إلى قلب المدينة مرة ومرتين إلى أن قبضوا على في المرة الثالثة مع الموسيقار محمد الموجي عند أحد قواطع الدبابات. ليبتها ظللنا - الموجي وأنا - معتقلين وسط الظلام والرصاص إلى أن أعادونا إلى الفندق فجرا تحت الحراسة المشددة الغاضبة.

- لا.. لا.. انس حكاية بيروت الآن تماما. في الرباط على الأقل كان فيه جيش يقاتل جيشا. لكنك في بيروت ستجد عصابات في مواجهة عصابات.. والشارع الواحد أحيانا تحكمه ثلاث أو

أربع عصابات. لا.. لا.. أنت من الآن ستصبح ضيفي وسأحجز لك غرفة معي هنا في الفندق.. في بلودان.. والسيارة ستصلك خلال ساعة.. تجيء بحقائبك وتنسى بيروت تماما.

قلت لعبد الوهاب: لكنني أحتاج الاستمرار في دمشق على الأقل يومين أو ثلاثة على الأكثر انتظارا لمقابلات أسعى إليها مع كبار المسؤولين السوريين.

كما هي عادة محمد عبد الوهاب كان لديه دائما رد جاهز على كل سؤال وحل جاهز لكل مشكلة.

لقد قاطعني قائلا: لا تقلق.. سلم لي نفسك أولا في بلودان وسأجىء إليك بكل من تريدهم. عاين تشوف مين؟ الحكومة السورية؟ سأجىء لك بالحكومة السورية. خلاص المهم أن تنسى بيروت الآن تماما.. مفيش فصال.. وتنسى أيضا صديقك بتاع الجامعة العربية..

لم يكذب محمد عبد الوهاب خبرا. فمنذ المساء الأول الذي أصبحت فيه ضيفا عليه في بلودان.. وكل ليلة يدعو إلى مائدته بالفندق مسئولا سوريا واحداً بعد الآخر.. أولهم عبد الحليم خدام وزير خارجية سوريا وقتها والخبير رقم واحد بالملف اللبناني. وبينما السيدة نهلة القدسي زوجة محمد عبد الوهاب تقوم بدورها البشوش كالعادة في الترتيب لكل أمسية مع زوجات المسؤولين السوريين كان عبد الوهاب حريصا على تلبية احتياجاتي الصحفية في مناخ أوشكت معه أن أصبح جزءا من العائلة السورية. عائلة عبد الوهاب السورية. وبعد عدة ليال فهمت المغزى. فإذا كان على أن أتعامل مع السوريين من خلال مناصبهم فإن عنب اليمن أقرب من تفاح الشام! أما في التعامل مع السوريين كعلاقات إنسانية فإنهم يصبحون أقرب إلى المرء من حبل الوريد.

وبشعور من الذنب اتصلت بمبعوث الجامعة العربية، رفيق السفر من القاهرة إلى دمشق، والمستمر انتظارا في فندق «أمية» بدمشق.. وجاءني صوته: أين غطست؟ كنت في أشد القلق عليك بالرغم من رسالتك المكتوبة التي أبلغها لي الفندق بعدها بيومين فعرفت أن محمد عبد الوهاب يستضيفك في بلودان.

قلت له: لا تقلق. فبدلا من أن انتظر الجبل في فندق أمية جئت يقدمى إلى الجبل في بلودان. والليلة سوف أقابل زيد الرفاعي رئيس وزراء الأردن (وقتها) لأنه قادم مع زوجته خصيصا للترحيب بمحمد عبد الوهاب قبل أن يعود إلى الأردن غدا..

قال لي مبعوث الجامعة العربية بلهفة: صحيح.. طيب أرجوك.. ممكن أقابله؟

سألته: تقابل من؟ زيد الرفاعي؟

رد باعتراض سريع ولهفة أكبر: لا.. لا.. ممكن أقابل الأستاذ محمد عبد الوهاب؟



بيروت مرة أخرى. فى هذه المرة ذهبت مدعوا للمشاركة فى ندوة بالغة الأهمية عن «العرب والعولمة»، ولأن ما ربطنى ببيروت كان دائما علاقة لم تكتمل فقد تحمست لقبول الدعوة بفكرة مسبقة متسلطة على عقلى. فكرة أننى بعد الأيام الأربعة - مدة الدعوة - سوف أنتقل إلى فندق آخر فى قلب المدينة لكى أقيم أسبوعا على حسابى الخاص حتى أتنفس بيروت براحتى.

فى البداية سار كل شىء على ما يرام. الدعوة والندوة والعولمة والفندق الآخر. ثم دعانى الصديق الكبير الدكتور حازم الببلاوى المقيم فى بيروت بصفته مساعد السكرتير العام للأمم المتحدة، دعانى إلى وليمة غداء فاخرة فى واحد من أرقى مطاعم بيروت الكائن مباشرة على ساحل البحر الأبيض المتوسط.

كله تمام... الطعام شهى وحديث الدكتور حازم الببلاوى أكثر متعة.. حتى وهو يحلل لك العولمة ويغريك بتفاحة النظام العالمى الجديد ويقتنعك بأن حبل المشنقة ليس عقوبة وإنما هو دليل استشهاده.

لكن شيئا واحداً حدث فى خروجنا من المطعم مكيف الهواء. فقد أخذت لفحة هواء معتبرة. هواء نظيف تماما.. صحى تماما... باستثناء أن الشعب الهوائية فى صدرى أصبحت منذ سنوات أضعف من استقبال لفحة هواء بمثل تلك القوة والمفاجأة.

والنتيجة: أقمت فى بيروت فعلا لمدة أسبوع آخر، لكنها إقامة المريض الذى يعانى بشدة من نوبة أنفلونزا كاسحة جعلتنى طريح الفراش معظم الوقت آناء الليل وأطراف النهار... وبالدولار لو سمحت لأنه الأكثر سهولة فى التعامل بدلا من أن أحمل فى جيبى مثلا مليوناً ونصف المليون ليرة لبنانية.

وقبل أن تراودنى أية أوهام بأننى مليونير أتذكر دائما هذا المليون ونصف المليون ليرة يساوى بالكاد ألف دولار.

الدولارات تجيء وتروح.. لكن بيروت هذه لا تجيننى أصلا.
والآن تجيننى بيروت. والواسطة صباح فخري.

إنه صوت بديع يمثل عنواننا شديد الأهمية فى دنيا الغناء والطرب هو عاشق أصيل للتراث الغنائى العربى، وصوت ينتمى إلى تلك السلالة القوية الجبلية القادرة باستمرار على استكشاف مواطن الشجن والمتعة والانتماء فى الغناء العربى. فى حفلاته الغنائية القليلة التى بدأ يحييها فى مصر مؤخرا بدعوة من دار الأوبرا تنفذ التذاكر قبل موعد الحفل بأسبوع أو أكثر. مع ذلك كانت مشاهدتى له فى حفل غنائى هى باستمرار مشروع مؤجل. هذا التخلف له أسباب تفهمها من قبل صديقى الراحل عبدالحليم حافظ. ومن قبله سيدة الغناء العربى أم كلثوم. ولكن صباح فخري ظل يتقبل على مضض - وإن يكن تفهما ظاهريا - اعتذارى عن عدم حضور حفلاته الغنائية بالقاهرة.

ثم إن صباح فخري من أبناء مدينة حلب السورية.. التي هي بذاتها أحد المراكز الحصينة للغناء والموسيقى في العالم العربي. حلب هذه أعطتنا أصواتاً عذبة عديدة آخرها ميادة الحناوى. فى بدايتها كان محمد الموجى يقول لى إن لديها - قبل الصوت - الصدق الفنى. بليغ حمدي أيضاً كان يعول عليها كثيراً فى مستقبل مشرق للغناء العربى الحقيقى. لكننى بمرور الوقت - لم أعرف أيهما خذل الآخر: هل خذلها بليغ برحيله المبكر... أم خذلتها هى بتقطع حضورها الغنائى ؟

والآن أصبحت أستمتع بصوت صباح فخري... وفى قلب بيروت. فى الواقع هذه هى جونية.. الجزء الأكثر تفرنجاً فى بيروت.

فى المائدة التى جلست إليها - راجيا صباح فخري مسبقاً بأن تكون فى آخر الصفوف - أصبحت تشاركنى فى المتعة أسرة بيروتية من عشاق غناء صباح فخري. أسرة مارونية من أب وأم وثلاث بنات.

أصغرن إلى جوارى اسمها كوليت.. سألتنى: ناوى تبرم فى بيروت ؟

تلعثت الكلمات على لسانى حتى استوعبت فارق اللهجات فأجبتها: أنا نفسى فعلاً أتجول فى بيروت... لكننى سأعود ظهر الغد مع صباح فخري إلى دمشق.

بعد قليل دق جرس التليفون على المائدة. أقصد التليفون المحمول الذى تحمله كوليت. قبل أن تمد كوليت يدها إلى التليفون كانت الأم قد أخذته لكى ترد هى. فى الواقع هى لم ترد وإنما أعطت إنذاراً صارماً إلى المتحدث على الطرف الآخر... قالت له بحزم: اسمع.. إذا كانت لديك أية أخبار سيئة فلتطلبها - تقصد كوليت - غداً. أما الليلة... فنحن نريد أن نستمتع بغناء الأستاذ صباح.. بعدها ناولت السماعة إلى كوليت. كلمة ورد غطاها و.. عادت كوليت تندمج بالكامل مع غناء صباح فخري.

ظرفاء تماماً هؤلاء اللبنانيون. لديهم غالباً قدرة مدهشة على الحياة فى عدة طوابق فى وقت واحد.. كل طابق مستقل تماماً عن الطابق الآخر. للتجارة وقت.. وللسعادة وقت... وللأناقة وقت... وللأحزان وقت.

وفى اللحظة الراهنة... هذا وقت للسعادة.. وقت لصباح فخري. أما الحزن.. فله وقت آخر.. وصباح آخر.

طوال الساعة الأولى أدركت أننى أتنفس هواء الاسكندرية وعبق بيروت وأصالة الشام.. معاً. هذا صباح فخري يغنى ألحان سيد درويش.. بل ويعيد اكتشاف بعضها فيما أسمعه منه لأول مرة. نعم.. هو نفسه سيد درويش الذى رحل عنا منذ نحو سبعين سنة.. غير مدرك أن إبداعه الموسيقى سوف يتجاوزه هو شخصياً وجغرافياً وتاريخياً.

هذه كوليت إلى جوارى. شابة لبنانية هيفاء يمكن أن تقابلها صباحا فتعتقد أنها محامية شركة كوكاكولا.. أو كنتاكي.. أو حتى البيتزا.. لغتها الأجنبية الأولى فرنسية.. والثانية إنجليزية.. ولها أقرباء سبقوها بالهجرة إلى كندا أو استراليا أو حتى إلى سيراليون. لكنها إلى جوارى تستمتع بصوت صباح فخري وموسيقى سيد درويش ولهجة مصرية أصبحت بالغناء خبيرة فيها. بعدها أغاني أم كلثوم.. ومازلنا مع صوت صباح فخري وألحان محمد القصبجي وزكريا أحمد وبلبل حمدي.

في القاعة الضخمة يتفاعل الجمهور مع صوت صباح فخري. جمهور أغلبه في سن الشباب، قبل الغناء بربع ساعة لم يكن يبدو عليهم أن لهم صلة بالغناء العربي.. فما بالنا بالتراث العربي. مع ذلك فحينما بدأ الغناء تحركت الأشجان وتفاعلت المشاعر واستيقظت الأوجاع وتدفقت الانفعالات. أين كان هذا كله مختفيا ؟

في اليوم السابق كنت أقلب مؤشر الراديو بين محطات إذاعية عربية.. فتوقفت عند محطة محددة تذيع أغنية تقول كلماتها: «لحلحني وأنا لحلحتة.. زغرغني وأنا زغرغته».. لم أصدق أذناي. هل هبط نوقنا إلى هذا الحد وتراجعت أغانينا إلى هذا المستوى ولم نعد نعرف الفارق بين إذاعة عامة ومواخير الليل ؟

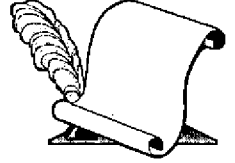
الآن أعيش مع غناء حقيقي وموسيقى أصيلة وشباب يدرك عمليا أن السطح المتفرنج يحتفظ تحته مباشرة بعروبة حقيقية.. لا أحد منهم رأى سيد درويش.. ربما لا أحد منهم أيضا يعرف اسمه. لكن هذه ألحان سيد درويش وما تفعله بهم. هذه أيضا أغاني أم كلثوم الخارجة مباشرة من عصر كامل من الرومانسية. وتلك الرومانسية تشق طريقها مختصرا إلى أفئدة مستمعين ربما يعيشون حياتهم عمليين تماما ومن خلال كمبيوتر وبفئجال قهوة بستة آلاف ليرة.

هؤلاء أيضا لبنانون يعيشون هموم بلدهم.. اختيارا أو اضطرارا. في الجنوب لديهم مقاتلون حقيقيون يرفضون الاحتلال الإسرائيلي المتوحش والمتجبر.. لكن المقاتل يحتاج أيضا لأن يغنى. لأن يحب. لأن يتمسك بالجمال حوله حتى يجيد القتال ضد القبح أمامه.

لقد مضى الوقت بى ساعة بعد ساعة.. وبصبح فخري أغنية بعد أغنية.. وبالجمهور يتفاعل متعة بعد متعة. مضى الوقت وراح الزمن.. ومع الزمن راحت منى بيروت مرة أخرى.



أولاد حلال .. مثلنا !



يسافر المرء إلى أنحاء العالم شرقا وغربا.. ويعيش فى أجواء تحت الصفر وفوقه.. ويرتاد أفخم الأماكن أو أكثرها تواضعا.. ويضحك مع الآخرين أو يضحكون عليه.. ويتعرف إلى ألوان من البشر فيهم الأبيض والأسود والأصفر.. ويتحرك بنقود قليلة أو كثيرة (وهى دائما قليلة).. وترتج به طائرة فى مطبات هواء مفاجئة فوق المحيط الأطلنطى.. أو باخرة فى قلب عاصفة وسط البحر الأبيض المتوسط.. ويستكشف طباعا مختلفة فى مجتمعات أخرى ويتعلم بضعة أشياء جديدة فى كل مرة.. ويتفاهم مع الآخرين بالصوت أو بالكتابة أو بالإشارة.

مع ذلك تظل الرحلة الأولى دائمة غائصة فى عمق خاص بها داخل بحر الذاكرة، تغوص أو تطفو حسب الحاجة وبكل تفاصيلها الثابتة على ألوانها الأصلية.. زاهية أو داكنة حسب مستوى المعرفة والخبرة التى بدأت بها.

لم تكن هناك خبرة. تلك هى الرحلة الأولى إلى خارج الحدود. وفى جزئها الأول تبدأ بحرا من الإسكندرية. ثم فى جزئها الثانى تبدأ برا من فينسيا. فى جزئها الثالث تبدأ بحرا مرة أخرى من روتردام فى هولندا بالشمال الأوروبى.

من الإسكندرية هى باخرة ركاب تعمل على خط منتظم يذهب بها إلى ميناء «بيريه» فى اليونان ليقضى الركاب هناك يوما بليلا قبل أن تتحرك بهم الباخرة إلى فينسيا فى إيطاليا ثم تعود بعدها إلى الاسكندرية.

هكذا غادرنا ميناء الاسكندرية فى السادسة والربع مساء. واليوم هو الخميس. ورفيقى فى الرحلة اسمه على أصبح شريكى فى الكابينة رقم ٣٣، كابينة من سريرين - تحت وفوق ونافذة زجاجية ببيضاوية تطل على البحر.

بعد قليل حان موعد العشاء. وفى المطعم جلس الركاب - نحو مائة، رجالا وسيدات - إلى موائدهم لكى يفاجئهم المسئول الإدارى بخبر سار. هذان اثنان من الركاب - فتى وفتاة - يتطوعان بتأدية فقرة من الغناء والرقص اليونانى على نغمات شريط موسيقى يحملانه معهم. تلك كانت بروفة مبكرة عن اليونان قبل أن نصلها. بعد قليل استحق الراقصان المكافأة التى طلباها مسبقا.. وهى ان يتم نقلهما من الدرجة السياحية إلى إحدى كبائن الدرجة الأولى.

فى اليوم التالى جاءت البداية خادعة. الطقس مشمس والهواء منعش والأفق متسع والبحر هادىء. وعلى حين غرة - مع قربنا من جزيرة كريت - خذ عندك. رقصات أخرى جماعية وفوضوية وإجبارية ومفاجئة. هاج البحر. وطوال ساعات قليلة بعدها تتمايل السفينة يسارا ويمينا مع أنها ثابتة فى طريقها. مع التمايل المستمر المتكرر تزايدت حالات القىء والدوخة والاعياء. وفى تقسيم غير مقصود للعمل.. جاءت الدوخة من نصيبى بينما دوار البحر والقىء المستمر من نصيب زميلى فى الكابينة والرحلة.

- إذن هذا هو «دوار البحر» كما شاهدناه فى الأفلام !

هكذا تساءل زميلى بكلمات متقطعة متفسخة عن بعضها البعض وهو فى لحظة استراحة فيما بين نوبتين من القىء. لكن دوار البحر فى الطبيعة أقسى وأصعب مما عرفته فى الأفلام. هكذا استرسل قائلا.. وهو يسترجع عن ظهر قلب أفلاما سينمائية أمريكية شاهدها. فهو منذ عرفته وهو فى حالة إدمان مستمر للأفلام الأمريكية. وعلى مدار السنة.. كلما سألته عن آخر صورة يحملها فى جيبه.. أعرف فوراً اسم آخر فيلم شاهده..

فى الكابينة سألته فلم يخيب ظنى كالعادة: نعم.. نعم.. هذه هى.. شيرلى ماكلين وجاك ليمون..
- اذن آخر فيلم شاهده كان «إيرما الغانية» ؟

- نعم.. نعم.. ثلاث مرات وحياتك إيرما لادوس تجنن.. بنت حرام والله.. إنما...
لم تكتمل الجملة لأنه فوجئ بنوبة جديدة من القىء. بعد ساعتين أو ثلاث فوجئ بأننى لن أذهب معه إلى المطعم لتناول العشاء فقال لى مندهشاً: الآن أنت توفر لهم وجبتين.. فلا غداء ولا عشاء..

قلت له: المسألة ليست هكذا. فمع أن البحر عاد إلى هدوئه منذ المساء.. إلا أننى سأحتفظ بمعدتى فارغة حتى لا أصبح فى مثل حالتك من القىء المتقطع. تكفينى الدوخة.
فى الثانية بعد الظهر رست الباخرة على رصيف ميناء «بيريه» باليونان بعد نحو ٤٤ ساعة فى البحر. ولأنها الرحلة الأولى فقد بدت على المرء الرغبات المتزاحمة فى أن أفعل عشرين شيئاً فى نفس اللحظة. أريد النزول فوراً إلى شوارع بيريه.. وأريد الذهاب إلى أثينا العاصمة - على مسافة ربع ساعة بالسيارة - وأريد تنفس التاريخ فى أكروبوليس.. حيث قدمت لنا المرشدة اليونانية كاترينا صفحات التاريخ فى برشامة. سقراط وأفلاطون والحضارة الاغريقية فيما مضى. بعدها القصر الملكى لكى نتعرف عليه من خارجه قبل ان نكتشف ان التجول فى معالم ميناء بيريه هو أيضاً جزء من الرحلة السياحية. مقاه بعد مقاه بعد مقاه. ربما مخبز هنا ومحل حلويات هناك. بعدها مقاه ومقاه ومقاه. وجرسونات فى وجه أحدهم ملامح قريبة من استيفان روستى لكن من غير ميمى شكيب. بعدها سوق المدينة الرئيسى. وأخيراً سوق اللحوم، كيلو اللحمه بربع جنيه.

فى عودتى إلى الباخرة لم أجد زميلى فى الكابينة. هل تحتاج شوارع بيريه - التى جئت منها لتوى - إلى أكثر من خمس ساعات للتجول فيها؟ يجوز. لكن ما هو مؤكد أنه فى حوالى الثامنة والرّبع مساءً جاءنى أحد البحارة وفى يده ورقة. لقد كان لتوه مع عدد من الركاب - من بينهم زميلى فى الكابينة - وأرشدهم إلى مكان ينبسطون فيه - و: هذا هو العنوان..

قبل أى استفسار كان البحار قد اختفى فى دهاليز الباخرة لكى يغلبنى أنا حب الاستطلاع الزمن. على الرّصيف أشرت إلى سيارة تاكسى وقلت للسائق: شارع نوتابا.. نظر السائق إلى شذرا فكررت له الاسم من جديد: نوتابا.. نوتابا..

فى شارع نوتابا نزلت من التاكسى لأسأل من جديد: بلاكا.. لو سمحت. لولا أن سائق التاكسى كان قد انصرف فعلا لتصور أن أقرض تعبيرات وجهه للرجل الذى استوقفته لأسأله. لقد توقف الرجل ونظر إلى شذرا هو الآخر. نفس النظرة التى لفحنى بها سائق التاكسى فى البداية. ثم فى أقل من لحظة. أعطانى الرجل ابتسامة صفراء وهو يشير لى بأصبعه نحو لافتة بأضواء النيون الملونة مكتوب فيها: بلاكا..

دخلت المكان، إنه الطابق فوق الأرضى. الباب نصف مفتوح على صالة واسعة فى مدخلها سيدة جالسة إلى ما يشبه المكتب.. وبعدها رجال متراصون إلى جوار بعضهم البعض لمحت بينهم زميلى فى التو واللحظة مع اثنين أعرفهما من ركاب الباخرة.

رمقتنى السيدة بعينيها ثم تطلعت إلى ساعة يدها باستغراب وتمتمت ببضع كلمات لم أفهم منها سوى «دراخما» بينما هى تناولنى قطعة بلاستيك تحمل رقما ما. لم أتناولها ولم أعرف المغزى فاتجهت مباشرة إلى حيث يجلس زميلى لكى أستفسر منه عن هذا المكان وكيف أتى إليه. رد هامسا بأنه البحار إياه جاء بهم ولكنه سبقهم إلى المتعة وسبقهم إلى الانصراف و.. كله بالدور.

- أى دور؟

فى تلك اللحظة انفتح باب فى الداخل وخرج منه شخص إحدى يديه فى كم الجاكته بينما اليد الأخرى تبحث عن الكم الآخر.. وصوت نسائى خلفه يصيح بكلمة ما.. فتشير السيدة الجالسة إلى المكتب نحو أحد الرجال المنتظرين فينهض فورا متجها إلى الداخل.

سألت زميلى مرة أخرى، وبعبصية: ما هذا؟ ماذا يجرى هنا؟ قال لى هامسا: أصل هو عليه الدور. جاء قبلنا..

- أى دور؟

مد الزميل يده إلى جيب جاكته وأخرج لى الصورة إياها بحرص شديد حتى لا يراها أحد غيرى، صورة شيرلى ماكلين. ثم قال لى - هامسا أو راجيا أو متوسلا لا أعرف بالضبط -: إيرما.. إيرما لادوس..

يا خبر أسود؟ طلعنا من بلدنا وركبنا البحر ونزلنا أوروبا علشان تقول لى إيرما؟ وشيرلى ماكلين؟ أنا راجع المركب فوراً وانت براحتك.

نهض زميلى خلفى محاولاً امتصاص غضبى وكأنتى ولى أمره - مع أنه الأكبر سناً - وضبطته فى موقف مشين وهو يحاول التفسير. لكن أى تفسير؟ هذا بيت بغاء يا أخى وبكل هذا المشهد الحيوانى.. لا فيه إيرما ولا الشغالة بتاعتها. أنا ماشى وانت حر فى نفسك..

قبل أن يسترسل هو كان رجل قد خرج من الداخل - نفس الرجل الذى دخل قبل دقائق - بينما السيدة الجالسة إلى المكتب تشير إلى الساعة المعلقة فى الحائط وهى تقول بحزم: فينيتو.. انتهى الوقت.. فينيتو.. فى انتظاركم غدا..

فى الشارع جرى استكمال الحوار بعد أن تدخل فيه الراكبان الآخران أحدهما يشرح: هنا البغاء مسموح به قانوناً.. ومخصص له هذا الشارع.. والعمل ينتهى يومياً فى التاسعة مساءً. والحكاية كلها فرفشة وتسلية ولازم برضه نرجع مصر نحكى اننا عرفنا بنات فى أوروبا.. أنا مجرب..

أذهلتنى كلماته فوقفت مكانى على رصيف الشارع مستفسراً بكلمات غاضبة من زميلى أنا: لماذا لم تذكر لى ذلك فى الورقة التى أرسلتها لى؟ لماذا اكتفيت باسم الشارع والمكان دون تفسير يسمح لى بالاختيار أن أجىء أو لا أجىء؟ الآن فقط بدأت أفهم معنى النظرة الغريبة من سائق التاكسى والرجل الآخر الذى دلنى على المكان.

فى تلك اللحظة فوجئنا جميعاً بواحد من رجال الشرطة اليونانية. وبكل هدوء قطع علينا الطريق واتجه نحوى أنا على وجه الخصوص. اننى لم أفهم من كلماته اليونانية سوى كلمة الباسبور. ناولته جواز السفر فأمسك به فى يديه وبدأ يتفحصه ملياً بتركيز مدهش صفحة بعد صفحة. توزع انتباهى بين جبهتين. أخونا الراكب المجرب من قبل يقول لى هامساً: لا شىء غير عادى. مجرد إجراءات عادية بوليسية روتينية يومية لتأمين المنطقة من شغب الغرباء. فى النهاية المنطقة كلها مسئولة منهم. أما صاحبنا رجل الشرطة فمستمر فى تفحص جواز سفرى بنظرات مدققة واعية حتى لا تفوته شاردة ولا واردة فى أى صفحة. فقط.. حينما وصل إلى صورتي أدرك أنه من البداية كان يمك بجواز السفر بالملقوب.

لكن.. إذا كان لا يقرأ.. فلماذا يطلب تفحص جواز السفر؟ ولماذا أنا وحدى دون الباقين معى؟ أجابنى الراكب الخبير المجرب الزبون السابق لهذا الشارع بكلمات تقع بين الهزل والجد: المسألة بسيطة.. الشرطة فى كل مكان سلطة. وبجهل أو بعلم.. لازم تقول: أنا هنا. أما لماذا أنت بالذات.. فإما لأنك أصغرنا سناً.. أو لأنك تبدو زعيماً لنا.. أو لأنه باين عليه انك غريب فى هذا الشارع وهذه المنطقة ها ها ها..

فى فينسيا اتفقت مع زميلى على قواعد صارمة. فبعد ما جرى فى «بيريه» عليه أن ينسى تماما شيرلى ماكلين وايرما لايوس وكل أفلامه الأمريكانى.. عليه أيضا ألا يتصرف بشكل يفرض على أمرا واقعا ونحن فى الغربية. عليه ثالثا أن يعرف أن نقودنا قليلة ورحلتنا طويلة والبرنامج المحدد للرحلة لا يسمح بأى انحراف أو فلتان. هذا والا.. فليتفرج هو على أوروبا كما يحب.. ويتركنى أنا أتفرج على أوروبا كما أريد..

فى الحقيقة هو التزم، ولو بحكم الضرورة.. من هنا جاء الخطأ التالى من مسئوليتى أنا وحدى.. وبالكامل.

لقد نزلنا بحقائبنا من الباخرة فى فينسيا لكى نودعها فى محطة قطارات السكك الحديدية ونحجز مكانين فى القطار الدولى. قطار ليلى سوف نستقله متحركا من فينسيا فى الثامنة وخمس دقائق مساء إلى ميلانو.. ومن هناك شمالا وشرقا - عبر سويسرا - إلى ألمانيا.

فى السوق المجاور لمحطة القطارات مضيئا نتجول بين المحلات. عند أحدها توقفت أمام مجموعة بديعة من أربطة العنق، التى لا أهواها ولا أستخدمها مطلقا، لكنها تصلح هدايا لمجموعة من الأصدقاء. السعر المكتوب هو ألف ليرة إيطالى. وبحسبة بسيطة أدركت اننى لو اشتريت خمس كرافتات فسوف أتكلف خمسة آلاف ليرة تعادل فى حينها نحو ثمانية دولارات أمريكية. فيما بعد تعلمت درسا مختلفا وهو أنه فى السفر من الأفضل ألا يشتري المرء أية أشياء على الإطلاق حتى يتحرك بخفة وسرعة فإذا كان ولابد من مجاملات فعلى المرء أن يؤجل مشترياته إلى نهاية رحلته قبل العودة إلى مصر وليس فى بداية رحلته.

لكن تلك دروس كانت ماتزال فى علم الغيب فهذه هى الرحلة الأولى خارج الحدود والمرء يريد أن يؤكد لأحبائه فى الوطن أنهم كانوا على باله من اللحظة الأولى ثم إن أربطة العنق لا تمثل هما من حيث الوزن أو المشقة. من هنا أعجبتنى أربطة العنق فقررت أن أشتري منها خمسة فورا.

أمام المحل وضعت صاحبة الكرافتات الخمس فى كيس أنيق بينما أنا مشغول بعد الورقات المالية التى سأدفعها لها. خمس كرافتات يعنى خمس ورقات من فئة ألف ليرة إيطالية. همس زميلى فى اذننى قائلا إياك أن تدفع لها من غير أن تساوم معها هؤلاء طلاينة وكلهم أولاد حرام تحب أقول لك جينا لولو بريجيذا أو كلوديا كاردينالى عملوا ايه فى آخر فيلم أمريكانى؟ الآن قررت أن أجرب نصيحته وبدلا من خمسة آلاف ليرة ثمننا للكرافتات الخمس ناولت السيدة ثلاثة آلاف ليرة فقط من باب الشطارة والمساومة. يادوب أنا عملت كده وياداهية دقى. كلمة منها كلمة منى ولا سميع ولا مجيب. حيلة تكلم حيلة. لا أنا أتكلم طليانى ولا هى تتكلم إنجليزى أو فرنساوى.

فى البداية هى اعترضت بهدوء لكن مع اصرارى تحول هدوؤها إلى السخونة شيئا فشيئا. أصواتنا أصبحت عالية والمشهد يجذب انتباه عابرى الطريق يميننا ويسارا. السيدة توقف أحدهم بعد

الآخر تسأله: سكوزي بيرنافوري. ابدا طلياني طلياني. لا أحد يتكلم انجليزي وزميلي يهمس في أذني مهنئا نفسه ومشجعا لي: جالك كلامي؟ بالضبط الفيلم الأمريكي. اثبت على موقفك ولا ليرة زيادة هم نصابين لكن إحنا برضه شطار. حتى الثلاثة آلاف ليرة كثير عليها. أصل كلوديا كاردينالي في آخر فيلم أول ما ردت للزبون راح في شربة ميه.

في النهاية فكرت في أن أعدل عن الفكرة من أساسها. لا كرافات. وهاتي الليرات وبين البائع والمشتري يفتح الله.

هنا بالضبط تجهم وجه السيدة وهي تقبض بيدها على الثلاثة آلاف ليرة وهي تقول لي في حسم: مومينتو.. لقد تركتني وزميلي واقفين في الشارع أمام المحل وغاصت هي داخل المحل دقيقة ودقيقتين ثم عادت وفي صحبتها فتاة ربما لا يزيد سنها على السادسة عشرة. إذا لم تكن هذه كلوديا كاردينالي في صباها فلا بد أنها بنت خالتها والا إيه يا علي؟ قال لي زميلي علي: ولو.. كفايه عليهم ثلاثة آلاف ليرة. دول في كل فيلم أمريكي شغلتهم يشطبوا على أي زبون في غلوة واحدة. خليك ثابت على المبدأ.. ثلاثة آلاف ليرة والا بلاش البيعة من أصلها.

في اللحظات التالية بدأت المشكلة تتضح. فبكلمات إنجليزية مهجنة قالت لي الفتاة ما خلاصته: هذه ماما.. ماما تريد أن تقول لك إن الثمن الذي تدفعه لها كثير. فالكرافات الخمس معا ثمنها كلها ألف ليرة وما تدفعه أنت لها أكثر مما هو معلن من المحل.. لذلك أخذت الفتاة الفلوس من يد أمها لكي تعطيني ورقتين من فئة الألف ليرة.. ثم ناولت أمها ورقة واحدة بألف ليرة قائلة لي مع ابتسامة عريضة: جراتسي.. جراتسي.. طيب على الأقل اسمك إيه؟ سيلفانا. وأنت؟ قلت لها: أجبسيانا..

قاطعني زميلي قائلا: أنا كمان والنبي.. عرفني بها.

قلت لها: أنت سيلفانا.. وأنا أجبسيانا.. وهو أمريكانا.

ضحكت الفتاة بما يزيد على خمسة آلاف ليرة أخرى. ولأن موعد قطارنا يحل بعد ربع ساعة فقد أصبح لابد أن ننصرف.. والفتاة تقول لنا مع أمها: ارفيديليرا. مع السلامة.. بالعافية شددت زميلي من ذراعه حتى نسرع إلى المحطة. هذا والا.. ربما وقف متسما أمام المحل الليل بطوله.

في القطار كان هو مستمرا في اندهاشه: غريبة الحكاية دي. يعني الطلاينة فيهم والله ولاد حلال مثلنا. إنما ليه جينا لولو بريجيذا وكلوديا كاردينالي..

ثم سكنت قبل أن يتمم لنفسه قائلا: معلش يا كلوديا.. لك يوم أشوفك في فيلم أمريكي تببببب كرافات. من دلوقت انا طالع من ذمتي لك خمسة آلاف ليرة. أما الأمريكيان فلي معاهم حساب تاني..

من باب الخطأ



ليس معتادا أن يبدأ المرء الكتابة من باب الخطأ. فالكتابة فعل إرادي محدد. سواء كتابة مشاعر أو حقائق. مع ذلك فهذا هو ما أفعله الآن بالضبط. هناك خطأ شائع فيما نقرأه ونسمعه كل يوم. خطأ يزداد شيوعا مع الوقت. بما يجعله فكرة مستقرة عند أغلبية من كتابنا ومعلقينا. الكل يتحدث عن دخولنا وشيكا إلى قرن جديد، أو ألفية ثالثة من السنوات حسب التقويم الميلادي. الكل يتحدث عن ٣١ ديسمبر ١٩٩٩ ليس فقط باعتباره نهاية سنة. ولكن أساسا باعتباره ختاماً لقرن، هو القرن العشرين. بالتالي يتحدث الكل أيضا عن أول يناير القادم - سنة ٢٠٠٠ - باعتباره أول أيام القرن العشرين.

الناقدون يتذمرون من أشياء عديدة محتجين بقرن جديد. وسواء بدأ الحديث بمشاكل المرور أو بنسبة الغياب والحضور في مجلس الشعب فإن الجملة المعتادة بتنويعاتها هي: ان هذا لم يعد يليق بشعب مصر وهو على عتبة قرن جديد. والمصفقون أيضا يحتجون بالقرن الجديد. وسواء اشترى شخص حذاء أو سيارة. أو حتى أرضا أو مطبعة. فإنه يفحمك بقوله: هذا ضروري استقبالا للقرن الجديد. والحقيقة أن المسألة كلها خطأ في خطأ. وأن سنة ١٩٩٩ هذه ليست ختاماً للقرن العشرين. الصحيح انها سنة ٢٠٠٠. فالقرن العشرون - حسب التقويم الميلادي - مستمر معنا حتى ٣١ ديسمبر ٢٠٠٠. أما القرن الجديد، القرن الحادي والعشرون، فإنه يبدأ يوم أول يناير ٢٠٠١.

هناك إذن فسحة زمنية مستمرة معنا بعد كل هذا الخطأ الشائع في كتاباتنا وتعليقاتنا. ليس معتادا أن يبدأ المرء الكتابة من باب الخطأ. لكنها الضرورة. فقبل أن أبدأ في كتابة هذا المقال كنت أتابع نشرة أخبار التاسعة في التلفزيون. وهالتي من جديد أن يرد في سياق أحد الأخبار المحلية هذا الخطأ الذي أشرت إليه. وأحيانا يكون الخطأ سببا في المزيد من الخطأ. فلا بد أن معد النشرة استقر في ذهنه فعلا من الصحف التي يقرأها أن القرن العشرين سوف يصل إلينا مع الأول من يناير سنة ٢٠٠٠. وسماع هذا الخطأ من تلفزيون حكومي يعطيه مسحة من التأكيد، باعتبار أن الحكومة تعرف أكثر! لكن.. لا الحكومة تعرف أكثر، ولا القرن العشرون سيגיע إلينا قبل مواعده. إنه سيגיע في مواعده المقرر تماما. أول يناير سنة ٢٠٠١.

حينما عادت نشرة الأخبار إلى الوقائع الدولية جاء الخبر عن كوفى عنان السكرتير العام للأمم المتحدة وهو يستقبل وزيرا أوروبا في مكتبه. نفس المكتب الذى أتذكر تضاريسه بالضبط.. باثنين شغلا من قبل منصب السكرتير العام للأمم المتحدة.. أولهما هو «أوثانت» الرجل القادم من بورما والذى أصبح السكرتير العام الرابع فى تاريخ الأمم المتحدة.. والثانى هو كورت فالدهايم الرجل القادم من النمسا والذى أصبح خلفا لأوثانت.

ربما كانت هناك صدفة أخرى تالية جعلتنى أكثر اندماجا مع ذهاب الدكتور بطرس غالى إلى الأمم المتحدة فى سنة ١٩٩٢ ليصبح سكرتيرها العام السادس. كنا ما نزال فى شهر مارس سنة ١٩٩١ والراحل العزيز أحمد الرزاز - وقتها مدير الشؤون السياسية بإذاعة القاهرة - يتصل بى ليجرى معى حوارا تليفونيا موضوعه الجامعة العربية.

كان مستقرا عربيا عودة الجامعة العربية إلى القاهرة بعد سنوات من وجودها المؤقت فى تونس نتيجة لقطيعة سابقة مع مصر فى أعقاب اتفاقات كامب ديفيد وما تلاها. مع المثابرة الدؤوبة من الرئيس حسنى مبارك وعفة لسانه وحسن صياغته لعلاقات مصر العربية والخارجية أصبحت عودة الجامعة العربية إلى مصر تنتظر فقط حصول مصر على إجماع عربى لمرشحها كأمين عام جديد للجامعة العربية. ومصر رشحت فعلا الدكتور عصمت عبد المجيد، وزير الخارجية حينئذ، ليشغل هذا المنصب.

فى التليفون سألتنى أحمد الرزاز حتى يذيع حوارنا هذا عقب نشرة أخبار الثامنة والنصف مساء بإذاعة البرنامج العام. والسؤال هو: هل تعتقد أنه سيحدث إجماع عربى يسمح فعلا بتعيين الدكتور عصمت عبد المجيد أمينا عاما للجامعة العربية؟

لم يكن السؤال من فراغ. فبعد الغزو العراقى للكويت فى الثانى من أغسطس سنة ١٩٩٠ حدث انقسام مروع فى العالم العربى اختارت مصر لنفسها فيه من اللحظة الأولى الموقف الصحيح.. أخلاقيا وسياسيا وموضوعيا. موقف إدانة ورفض الغزو العراقى جملة وتفصيلا. وطوال الشهور التالية استمرت مصر تناشد العراق علنا ورسميا لكى يسحب قواته من الكويت.. اليوم وليس غدا.. لأنه إذا لم يفعل فسوف تشن الولايات المتحدة حربا حقيقية لاسترداد الكويت - ضمن تحالف دولى وإقليمى - حربا لن يدفع العراق ثمنها بمفرده وإنما العالم العربى بمجموعه.

والحرب وقعت. والولايات المتحدة تصدرت. وأصبحت قواتها لما بعد الحرب أضعاف أضعاف ما كان يتخيله أكثر المتشائمين. وحين خرج الرئيس الأمريكى - جورج بوش وقتها - أمام الكاميرات لكى يعلن: الآن توقفت الحرب.. أصبح واضحا أن هذه لن تكون خاتمة القصة.. وإنما مجرد انتقال إلى فصل جديد..

وأعود إلى الدكتور عصمت عبد المجيد موضوع السؤال الإداعي التليفوني. قلت لأحمد الرزاز: يا أخي.. أنا أعتقد جازما أن الدكتور عصمت عبد المجيد سيحصل على إجماع عربي رسمي يجعله أمينا عاما للجامعة العربية. للرجل تاريخه المعروف، ورصيد علاقاته العربية والدولية واضح، وفي اللحظة الراهنة لن تحاول أية دولة عربية الدخول إلى الحلبة بمنافس من عندها.

سألني أحمد الرزاز: إذن لن تكون هناك أى عراقيل؟ لن تكون هناك مشكلة؟

أجبتة قائلا: لا مشكلة. لكن هناك فرصة أهم من المشكلة والفرصة مكانها في نيويورك وليس في القاهرة.

في البداية لم يستوعب أحمد الرزاز ما أقصده. فالسكرتير العام للأمم المتحدة حينئذ هو خافيير دى كويلار.. وهو يشغل منصبه هذا منذ سنة ١٩٨٢ ومعروف عنه أنه صديق شخصي للرئيس الأمريكي جورج بوش.. والولايات المتحدة لها ثقل كبير داخل مجلس الأمن في اختيار السكرتير العام للأمم المتحدة. والأهم من ذلك أن دى كويلار مستمر في منصبه بهدوء ولم يكن مثارا في حينها على الإطلاق - علنا على الأقل - اختيار بديل له.

قلت لأحمد الرزاز لمزيد من الشرح: الميثاق الذي قامت على أساسه الأمم المتحدة كمنظمة دولية في سنة ١٩٤٥ ليس فيه حد أقصى لمدة خدمة السكرتير العام ولا تحديد لجنسيته.

مع ذلك هناك عرف استقر بين الدول الخمس دائمة العضوية في مجلس الأمن على نقطة أولى هي ألا يستمر شخص في منصب السكرتير العام أكثر من مدتين كل منهما خمس سنوات.

لقد كان «تريجنفى لى». من النرويج - هو أول سكرتير عام للأمم المتحدة عند إقامتها. لكنه اضطر إلى الاستقالة في منتصف مدته الثانية سنة ١٩٥٣ بعد أن فقد الاتحاد السوفييتي الثقة في نزاهته فقرر مقاطعته. وجاء السكرتير العام الثاني «داج همرشولد» من السويد - يعنى من أوروبا أيضا - لكن الحجة كانت هي أنه يكمل مدة خدمة من سبقه. ثم رضى عنه الجميع فجددوا له إلى ان جرى اغتياله في ظروف غامضة عقب أزمة دولية بسبب الكونغو. ثم أصبح «اوثانت» سكرتيرا عاما جديدا قادما من بورما. يعنى من آسيا - بعده «كورت فالدهايم» من النمسا.. يعنى أوروبا مرة أخرى.

في سنوات فالدهايم كانت دول عدم الانحياز - التي قادها أصلا جمال عبد الناصر من مصر وجواهر لال نهرو من الهند وجوزيف تيتو من يوغوسلافيا - قد أصبحت ذات أغلبية مسموعة الصوت في الجمعية العامة للأمم المتحدة. هذه الأغلبية تشاورت مع الأعضاء الدائمين في مجلس الأمن لكي يكون اختيار السكرتير العام للأمم المتحدة أكثر ديمقراطية. في ميثاق الأمم المتحدة ليست هناك أية شروط أو مواصفات أو مؤهلات محددة يلزم توافرها في شخص السكرتير العام. فقط لابد أن يرشحه مجلس الأمن، ثم يحظى الترشيح بموافقة أغلبية الدول الأعضاء في الجمعية العامة.

هنا بالضبط تم الاتفاق، بشكل ودي وغير رسمي، على عرف جديد هو ان يجيء السكرتير العام من قارات العالم بالتتابع. هكذا أصبح جافير دى كويلار من بيرو - يعنى من أمريكا اللاتينية - سكرتيرا عاما. أوروبا وآسيا جرى تمثيلهما من قبل. الدور الآن على افريقيا. وإذا كنا ما نزال فى مارس ١٩٩١ ودى كويلار تنتهى مدته الثانية فى ٣١ ديسمبر ١٩٩١.. يصبح لازما من الآن أن تتقدم افريقيا بمرشح من عندها ليصبح السكرتير العام السادس للأمم المتحدة.

سألنى أحمد الرزاز بتلقائية: لكن ما شأن هذا بمصر؟

قلت له: لمصر شأن كبير هنا. مصر الآن - والآن تحديدا فى سنة ١٩٩١ - يجب أن تتقدم هى بمرشح من عندها لمنصب السكرتير العام للأمم المتحدة لأسباب محددة. أولا: لأن هناك عرفا مستقرا فى كواليس الأمم المتحدة بأن الدور على افريقيا، صحيح هو عرف غير معلن ولا مسجل ولا مكتوب.. لكن المتابعين بدقة لما يجرى وراء الكواليس يعرفون به. ثانيا: مصر دولة افريقية بحكم الجغرافيا. ثالثا: مصر بحكم التاريخ كان لها دور محوري فى استقلال الكثير من دول افريقيا طوال ايام افريقيا الصعبة. وفى السياسة انت تزرع اليوم لكى تجنى الثمار غدا. الآن.. نحن غدا! رابعا: الولايات المتحدة فى الماضى او المستقبل قد تعترض على أن يصبح مصرى سكرتيرا عاما للأمم المتحدة. لكن بالنسبة لليوم. هناك علاقات وثيقة بين الرئيس الأمريكى جورج بوش والقيادة المصرية، بالتالى ليس محتملا وجود اعتراض أمريكى فى مشاورات الكواليس. لكن المسألة تتطلب مجهودا فى اتجاهات أخرى ويجب البدء فيه مبكرا. وعلى أى حال فهذا هو التحليل الذى أراه ردا على سؤالك. تحليلي خلاصته: اذا لم تصل الدبلوماسية المصرية إلى منصب السكرتير العام للأمم المتحدة الآن.. فلن تصل إليه فى أى وقت آخر.

انتهى الحوار التليفونى الإذاعى وانشغلت بعده بأشياء أخرى.. فليس من طبعي مطلقا الاستماع إلى ما أقوله.. صوتا وصورة.

فى ظهر اليوم التالى اتصل بى أحمد الرزاز تليفونيا من جديد. فى هذه المرة كلماته قلقة، فقط هو يستفسر منى لنفسه. ومن قبيل المراجعة، قائلا: تفتكر فيه حاجة غلط فى كلامنا المذاع أمس؟ الآن أصبحت أنا الذى أرد عليه بكلمات قلقة: غريبة.. هذه أول مرة أجذك متشككا فى مادة مذاعة.. وبأثر رجعى..

أجابنى بقوله: لست بالضبط متشككا.. لكن وزير الإعلام (صفوت الشريف) استدعانى لمقابلته على أن آخذ له بالذات شريط كاسيت مسجلا عليه حوارى معك الذى أذيع أمس كاملا. مع أن الشئون السياسية فى الإذاعة والتليفزيون هى من صميم اهتمامات ومشاغل كل وزير للإعلام.. إلا أننى كنت أعرف أن صفوت الشريف - تحديدا - يعطى مساعديه مساحة كبيرة من حرية التصرف والثقة بالنفس حتى يحافظوا على أداء مهنى يجذب أذن المستمع وعين المشاهد..

قلت لأحمد الرزاز: ليس عندي تفسير خاص في التو واللحظة. لكن بكلماتك هذه أصبح عندي حب استطلاع. على أي حال كلامي هو كلامي ومسئوليتي. أي شيء آخر هو تفاصيل. أرجوك.. وأيا كان رد فعل الوزير بعد سماعه للشريط.. اتصل بي..

لم يتصل بي. هذا جعلني أكثر قلقا فشغلت نفسي بأشياء أخرى.

في المساء دق جرس التليفون. وبمجرد أن رفعت السماعة قال المتحدث: يا محمود إزيك.. أنا عصمت عبد المجيد..

لم تكن هناك أية علاقة بين أفكاري الداخلية المتوترة في تلك اللحظة وبين الدكتور عصمت عبد المجيد - وزير الخارجية وقتها - والمرشح رسميا من مصر ليصبح أميناً عاماً للجامعة العربية.. لكن الصوت هو الصوت. والرجل هو الرجل بنفس روحه الودودة دائما..

ثم قال الدكتور عصمت: الحقيقة أريد أن استفسر منك أكثر بشأن تحليلك الذي أذيع أمس بخصوص السكرتير العام للأمم المتحدة. أنا في لحظتها كنت بالسيارة في طريقى إلى دعوة عشاء لابد من المجاملة بالحضور فيها بصفتي وزيرا للخارجية. لم أسمع سوى أجزاء من تحليلك بعد أن طلبت من السائق أن يرفع مستوى الصوت في الراديو. لذلك اتصلت بالوزير الأخ صفوت الشريف صباح اليوم أرجوه - إذا كان هذا ممكنا - الحصول من الإذاعة على التسجيل كاملا. والآن وصلني الشريط وسمعت الحوار كما جرى. الموضوع الآن هو..

حينما وصل الدكتور عصمت إلى «الموضوع هو» تبخر من داخلي كل التوتر المعبأ والمتراكم منذ الظهيرة.. فليس مريحا بالمرّة أن يعاقب مذيع بسببي.. أو بسبب حرية أتاحتها لنفسه - بخاتم النسر - في إدارة حوار إذاعي مع الآخرين بعد أن قيل له إن المهم هو الأداء المهني لجذب وإفادة المستمع.

سألني الدكتور عصمت بعدها عن الفكرة من أساسها. عن حساباتها واحتمالاتها وتقديراتها.. عن وعن وعن.. فالجميع وقتها كانت تمتصه بالكامل مجريات الأمور بعد تحرير الكويت.

هذا يعيدني مرة أخرى إلى الأمم المتحدة وكوفي عنان والكتابة من باب الخطأ.

في الأمم المتحدة كان عصمت عبد المجيد نفسه أحد سفراء مصر إليها ومندوبيها لديها. في الواقع يبدو أن هناك تقليدا اكتسبته السياسة المصرية بعد طول خبرة في الميدان الدولي. تقليد بأن يكون تمثيلها في الأمم المتحدة هو الامتحان العملي الذي يرشح الناجح فيه ليصبح فيما بعد وزيرا للخارجية. حدث هذا بالنسبة للدكتور محمود فوزي ومحمود رياض. حدث أيضا بالنسبة لأحمد حسن الزيات وعصمت عبد المجيد وعمرو موسى.

ومن هؤلاء تابعت على الطبيعة، وفي نيويورك، ثلاثة على الأقل.. أكثرهم الدكتور عصمت عبد المجيد. ففي مقر سكنه في نيويورك كنت دائما أجد ضيوفا لديه.. في غداء أو عشاء. ضيوف.. اكتشف هو مبكرا أنهم سيشكلون سياسة أمريكا في المستقبل. ويعكس أي مجال آخر من العمل الدبلوماسي.. فإن الدبلوماسية الحقيقية في الأمم المتحدة هي دبلوماسية بيوت وصالونات واجتماعات خارج نطاق مبنى الأمم المتحدة ذاته. في الحقيقة.. كانت مفاجأة كاملة بالنسبة لي حينما عرفت لأول مرة أن هناك دولا معينة أعضاء في الأمم المتحدة تدير مناقشاتها في مقراتها الخاصة بمدينة نيويورك.. وداخل غرف مجهزة تكنولوجيا للحماية ضد تنصت وتجسس الآخرين! لكن تلك قصة أخرى.



الفينو .. والقانون .. والغابة



هى بلدة صغيرة للاستشفاء تقع على ساحل البحر الأسود. بلدة لم يكن أحد خارج محيطها قد سمع باسمها من قبل. مع ذلك.. فذات يوم من أيام سنة ١٩٤٥ قفز اسم تلك البلدة إلى الصفحات الأولى حول العالم. من يومها لم يعد أحد يستطيع أن يفهم أحداث العالم مطلقا فى النصف الثانى من القرن العشرين بغير أن يتوقف كثيرا أمام ما شهدته تلك البلدة فى شهر فبراير سنة ١٩٤٥.

البلدة اسمها «يالتا». والمناسبة كانت اتفاق «الثلاثة الكبار» على اختيارها مكانا لاجتماعاتهم فى تلك الأيام العصيبة الحاسمة. هناك حرب عالمية ثانية مستمرة منذ سنة ١٩٣٩ بطرفين أساسيين يتقاتلان باتساع العالم برا وبحرا وجوا. هناك مجموعة «دول المحور» بقيادة ألمانيا وإيطاليا واليابان.. مقابل مجموعة «دول الحلفاء» بقيادة الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى وبريطانيا «العظمى».

ومع اقتراب الحرب العالمية الثانية من فصلها الأخير المعبر عن انتصار «الحلفاء».. اختار «الثلاثة الكبار» بلدة «يالتا» مقرا لاجتماعهم الثانى سعيا للاتفاق على معالم دنيا ما بعد الحرب. إنهم: فرانكلين روزفلت رئيس الولايات المتحدة، وجوزيف ستالين الزعيم السوفيتى وونستون تشرشل رئيس وزراء بريطانيا.

فى نهاية اجتماعاتهم صدرت عنهم بيانات فخيمة حماسية تكررت فيها كلمات الحرية والديمقراطية والانتخابات التى ستنعم بها كل شعوب العالم بعد اندحار وهزيمة العدو.

أما فى الحقيقة فقد كان اجتماع «يالتا» يستهدف أساسا تقاسم «غنائم الحرب» فى وثائق استمرت شديدة السرية لسنوات طويلة بعدها.. بل واستمر مضمونها معمولا به فى أرض الواقع لأكثر من ٤٥ سنة بعدها. هكذا اتفق «الثلاثة الكبار» على تقسيم أوروبا مثلا إلى معسكرين.. أحدهما شرقى بقيادة الاتحاد السوفيتى. والآخر غربى بقيادة الولايات المتحدة.

وبعد تحديد مصير «غنائم الحرب» دولة بعد دولة.. بقيت بعض الحالات المثيرة للجدل. دولة يوغوسلافيا مثلا.. هل تكون من نصيب الشرق أو الغرب؟ فى الاجابة على هذا السؤال أراد الزعيم البريطانى ونستون تشرشل اختصار الوقت اللازم للترجمة، فأمسك بقلم رصاص أمامه وكتب فى ورقة بيضاء: ٥٠% - ٥٠%.

ثم دفع بالورقة إلى روزفلت بجواره ثم إلى ستالين معه على نفس المائدة المستديرة. وتطلع ستالين إلى الورقة متأملاً.. ثم هز رأسه علامة الموافقة.

وبذلك تحدد مصير يوغوسلافيا فيما بعد الحرب العالمية الثانية. والمصير هو: أن يتقاسم الشرق والغرب مع النفوذ السياسى فى يوغوسلافيا.. فلا تحتكرها لنفسها إحدى القوتين البارزتين فى هذا «النظام الدولى الجديد».

لكن «الثلاثة الكبار» اتفقوا أيضا على شىء آخر. فبدلاً من منظمة «عصبة الأمم» التى أقيمت بعد الحرب العالمية الأولى وثبت فشلها.. هناك منظمة جديدة ستقوم باسم «منظمة الأمم المتحدة» لتصبح هى العنوان الديمقراطى لعالم ما بعد الحرب. فى «الأمم المتحدة» ستكون فكرة العمل الجماعى للحفاظ على الأمن والسلام هى الأساس.. ومبدأ «عدم جواز الاستيلاء على الأراضى بالقوة أو بالغزو العسكرى» هو المبدأ الحاكم. والأمم المتحدة تقبل فى عضويتها كل دولة تتعهد مسبقاً بالالتزام باليثاق المتفق عليه. من مجموع الدول الأعضاء تتشكل الجمعية العامة للأمم المتحدة لكى تصبح بمثابة البرلمان الذى يعبر عن إرادة المجتمع الدولى، حيث لكل دولة - صغرت أو كبرت - صوت واحد عند اتخاذ القرارات.

هناك أيضاً «مجلس الأمن».. وهو بمثابة السلطة التنفيذية - أو الحكومة - فى الأمم المتحدة. هذا المجلس تفوضه الدول الأعضاء بالأمم المتحدة بسلطات واسعة تسمح له باتخاذ ما يلزم من قرارات لحماية الأمن والسلام الدوليين.. بل وحتى سلطة فرض قراراته بالقوة على الدولة التى يقرر أنها تتحدى «النظام الدولى الجديد».

مجلس الأمن يتشكل من خمس عشرة دولة. عشر منها يتم انتخابها لعضوية المجلس كل سنتين. أما الخمس الأخرى فتمتع بالعضوية الدائمة لمجلس الأمن. وهى محددة بالاسم: الولايات المتحدة - الاتحاد السوفيتى - بريطانيا - فرنسا - الصين.

فى اجتماع «يالتا» - فبراير ١٩٤٥ - اتفق «الثلاثة الكبار» - كل لأسبابه الخاصة - على أن هذا الامتياز الاستثنائى ليس كافياً لتمييز المنتصرين فى الحرب على غيرهم. فالنقطة الأهم هى أنه برغم أن «الحلفاء» عملوا معاً لهزيمة عدو مشترك.. إلا أن هذا التحالف كان متلازماً أيضاً مع درجات متفاوتة من التربص وعدم الثقة.

بريطانيا مثلاً ترى نفسها كامبراطورية عظمى لها مصالح باتساع العالم. وهى متخوفة من اتجاه الولايات المتحدة بعد الحرب إلى وراثتها هى - وراثتها بريطانيا - حتى تصبح هى القوة العالمية الأكبر. جوزيف ستالين كان يرى أنه يمثل الاتحاد السوفيتى الدولة الماركسية التى فرضت عليها ضرورات الحرب التحالف مع دول رأسمالية كأمريكا وبريطانيا. لكن انتهاء الحرب العالمية الثانية

سوف يعنى عودة المسيرة إلى حالتها الأولى حيث إن كلا من الرأسمالية والماركسية تريد قطع رقبة الأخرى. الولايات المتحدة ترى أنها - وقد شاركت بقوات من عندها لتحارب خارج أراضيها في أوروبا والمحيط الباسفيكى وأقرضت بريطانيا الكثير من المال والسلاح - فإن من حقها أن تصبح هى الجالسة بمفردها فى كرسى قيادة الغرب كله.

فى اجتماع «يالتا» جاء الحل. والحل هو أن تتمتع الدول الخمس دائمة العضوية فى مجلس الأمن - ومعظمها امبراطوريات سابقة أو لاحقة - بحق النقض - الفيتو - هذا الفيتو معناه أنه لو فاز أى مشروع قرار معروض على مجلس الأمن بأربعة عشر صوتاً.. ثم اعترضت عليه دولة واحدة من الخمس دائمة العضوية.. يسقط مشروع القرار تلقائياً.. حتى من غير أن تضطر الدولة المعارضة إلى إبداء أية أسباب!

لم يكن هذا يتمشى بالمرّة مع الديمقراطية التى يبشر بها المنتصرون باقى العالم عنوانا لنظام دولى جديد فيما بعد الحرب العالمية الثانية. مع ذلك فالواقع هو الواقع. وكل واحدة من الدول الخمس الكبرى - المنتصرة - وجدت فى تمتعها بحق النقض - الفيتو - ضماناً إضافياً يمنع الدول الأخرى المنافسة لها من التطفل على مصالحها الخاصة باتساع العالم.

هكذا قامت «الأمم المتحدة» رسمياً فى سنة ١٩٤٥، بعضوية ٥١ دولة - هى فى حينها كل الدول المستقلة فى العالم - وبالتدريج، مع اتساع حركات التحرر والاستقلال فى العالم الثالث، أصبح أعضاء الأمم المتحدة حالياً ١٨٥ دولة (وتاليا ١٩١).

ومصر شاركت فى المؤتمر التأسيسى للأمم المتحدة سنة ١٩٤٥. وفى حينها لم يكن أحد يستطيع التنبؤ بأن العالم العربى بمجموعه سوف يعانى بشدة من ذلك الامتياز الاستثنائى الذى تحتكره لنفسها الدول الخمس الكبرى دائمة العضوية فى مجلس الأمن. امتياز حق النقض - الفيتو - أحياناً كان الفيتو لصالح العرب. لكن غالباً كانت الولايات المتحدة تستخدمه لحماية إسرائيل من غضب المجتمع الدولى الذى تمثله الأمم المتحدة.

فى يونيو ١٩٦٧ مثلاً قامت إسرائيل بـ «غزوتها» الكبرى التى انتهت باحتلال سيناء والجولان والضفة الغربية لنهر الأردن. والتطبيق النزيه لميثاق الأمم المتحدة كان يعنى تحرك مجلس الأمن لإصدار قرار بإدانة العدوان الإسرائيلى وإلزام إسرائيل بالانسحاب فوراً إلى مواقعها قبل الخامس من يونيو ١٩٦٧.. إن لم يكن إلزامها أيضاً بدفع تعويضات للدول العربية الثلاث المعتدى عليها.

وفىما بين الخامس من يونيو والثانى والعشرين من نوفمبر سنة ١٩٦٧ وقفت الولايات المتحدة بالمرصاد داخل مجلس الأمن لحماية إسرائيل من الإدانة ومن الالتزام بالانسحاب الكامل إلى حدود ما قبل حرب يونيو. وأمريكا دولة عظمى على مستوى العالم. لكنها ليست عظمى بما يكفى لإلغاء

باقى دول العالم. ومصر أصبحت مهزومة. لكنها ترفض أن تتحول تلك الهزيمة إلى أن تصبح مصر غنيمة حرب لإسرائيل بحماية أمريكية.

هكذا اكتشفت الولايات المتحدة أنها لو استمرت فى إصرارها على حماية العدوان الإسرائيلي بتلك الضراوة والتحدى الصارخ لكل الشرعية الدولية التى تمثلها الأمم المتحدة.. فإنها فى الواقع ستصبح هى المعزول داخل الأمم المتحدة.. وليس مصر.

واحدى النقاط الحاسمة التى برزت فيها تلك العزلة جاءت فى ٢١ أكتوبر سنة ١٩٦٧. ففى مبنى الأمم المتحدة فى نيويورك دقت أجهزة «التيكرز» التابعة لوكالات الأنباء العالمية أجراسها تنبيهها لورود خبر استثنائى عاجل وخطير. والخبر هو أن زوارق الصواريخ المصرية قامت بإغراق المدمرة الإسرائيلية «إيلات» فى مياه البحر الأبيض شمال بورسعيد.

كان الخبر استثنائيا تماما من زاويتين: أولا - أن تلك هى المرة الأولى فى تاريخ الحروب التى تستخدم فيها زوارق الصواريخ البحرية، وب نجاح كامل، ضد سفينة حربية بضخامة وتجهيزات وأسلحة المدمرة الإسرائيلية «إيلات». ثانيا - ان مصر، وهى الدولة المهزومة عسكريا لتوها قبل أربعة شهور فقط توضح عمليا أن الهزيمة لن تكون فاصلة ولا نهائية.. وأن حرب يونيو الإسرائيلية هى مجرد جولة ستتلوها جولات فى «صراع ممتد».

يومها كان مندوبو دول عديدة فى الأمم المتحدة بنىويورك مسارعين إلى مندوب مصر - محمد عوض القونى وقتها - ليقولوا له باعتزاز: الآن تؤكد مصر عمليا قبولها للتحدى الإسرائيلى ورفضها للغطرسة الأمريكية. أما مندوب الهند فى الأمم المتحدة.. فبمجرد أن لمح أمامه آرثر جولدبيرج المندوب الأمريكى فى الأمم المتحدة استوقفه قائلا: مستر جولدبيرج.. قلنا لكم عدة مرات إن حمايتكم للعدوان الإسرائيلى ضد المجتمع الدولى كله معناه أنكم تعيشون فى عالم خيالى من الأوهام. والآن ها هى مصر ترد عليكم عمليا فى الميدان بنفس اللغة. لغة القوة.

لم تكن مصر قد انتهت - بعد - من إعادة بقاء قواتها المسلحة الجديدة بعد هزيمة يونيو. فى الواقع إنها كانت ماتزال فى الفصل الافتتاحى الأول من ذلك العمل البطولى. لكن إغراق المدمرة «إيلات» جاء بالضبط توضيحا مبكرا لمن لا يريد أن يفهم أن مصر لا تدعن أبدا لقانون القوة. قانون الغابة.

فى كواليس الأمم المتحدة اضطرت الولايات المتحدة إلى التواضع بعض الشيء فى غطرستها داخل المنظمة الدولية. هكذا صدر أخيرا قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ فى ٢٢ نوفمبر كأساس لا تعترض عليه الولايات المتحدة - باستخدام الفيتو - داخل مجلس الأمن. ذلك القرار لا يزيد على صفحة واحدة من القطع المتوسط. مع ذلك فكل كلمة فيه كان يجرى التشاور بشأنها بين عواصم دولية عديدة باتساع العالم.

وزير خارجية إسرائيل مثلاً اضطر إلى عبور المحيط الأطلنطي طائراً ذهاباً وإياباً فيما بين نيويورك ولندن سعياً لإقناع رئيس وزراء بريطانيا - صاحبة المشروع الأصلي - بأن تحذف من الصياغة كلمة «الانسحاب» كالتزام قاطع على إسرائيل باسم مجلس الأمن. يومها رد عليه رئيس وزراء بريطانيا: ليس هناك أمل مطلقاً في أن يمر مشروع القرار هذا من مجلس الأمن بغير إلزام إسرائيل بالانسحاب. حتى الأمريكيين حاولوا هذا لحسابكم فواجههم الفشل الذريع. وإذا لم تسمعوها من الأمريكيين فما نحن نقولها لكم: ... أفيقوا من نشوة انتصاركم العسكري وعودوا بسرعة إلى أرض الواقع. كلمة «الانسحاب» ومبدأ «عدم جواز الاستيلاء على الأراضي بالغزو العسكري» هما المفتاح الوحيد لكي يمر مشروع هذا القرار من مجلس الأمن.

كان وزير خارجية مصر وقتها الذي يمثل مصر في مشاورات الكواليس بالأمر المتحدة هو محمود رياض. وعلى مدار الليل والنهار كانت مشاوراته لا تنتهي مع كل الدول الفاعلة في الأمم المتحدة، حتى المندوب الأمريكي نفسه.

وفي بعض اللحظات كان محمود رياض يبلغ القاهرة برقياً بالضغط الأمريكية المضادة على بعض الدول. والقاهرة تتشاور برقياً مع زعامات دولية وإقليمية بحجم «شارل ديغول» في فرنسا و«أنديرا غاندي» في الهند و«ماوتنسي تونج» في الصين و«هوارى بومدين» في الجزائر و«هياسلاسي» في أثيوبيا. والقاهرة تخطر محمود رياض في نيويورك بالمواقف المؤيدة التي حصلت عليها.. فيجتمع وزير الخارجية من جديد مع مندوبي الدول المعنية.. لكي يجد أن تعليمات حكوماتهم قد سبقته إليهم لكي ينسقوا بالكامل مع الوفد المصري.

مع ذلك لم تكن مصر تريد أن تترك أي مجال للصدفة أو للتلاعب بالألفاظ في صياغة اللحظات الأخيرة.. كما هو مألوف في أحوال عديدة في مشاورات الكواليس بالأمر المتحدة.

هكذا.. ففي جلسة التصويت على مشروع القرار ٢٤٢ بمجلس الأمن مساء ٢٢ نوفمبر ١٩٦٧ تكلم مندوبو فرنسا والهند واليابان وأثيوبيا وبريطانيا ونيجيريا والبرازيل لكي يوضحوا مفهومهم الدقيق - كأعضاء في مجلس الأمن - لمعنى التزام إسرائيل بالانسحاب. ورئيس مجلس الأمن في ذلك الشهر مستر «مامادو بوباكار» من دولة مالي يحرص في جلسة التصويت على أن يسجل علناً، وفي المضبطة الرسمية للجلسة، أن مشروع القرار المعروض على المجلس للتصويت يعني «أولاً - إن انسحاب القوات الإسرائيلية كلها من جميع الأراضي العربية المحتلة منذ الخامس من يونيو ١٩٦٧ - لا يمكن أن يكون محلاً لأي شرط من أي نوع».

هكذا حصل القرار ٢٤٢ على كل أصوات أعضاء مجلس الأمن - دائمين وغير دائمين - بما فيها الولايات المتحدة. ومن وجهة النظر المصرية وقتها لم يكن القرار مثالياً.. فهو - مثلاً - لم يفرض

على إسرائيل عقوبات. لكن القرار أيضا لم يعط لإسرائيل أيا من مطالبها الأساسية. هي لم تكن تريد النص على الانسحاب، وكانت تريد مفاوضات مباشرة مع مصر والأردن وسوريا. وتريد علاقات دبلوماسية وتجارية... الخ، لا شيء بالمرّة من هذا ورد في القرار ٢٤٢. فقط إسرائيل ملتزمة بالانسحاب مقابل التزام الدول العربية المعنية (تحديدا: مصر وسوريا والأردن) بإنهاء حالة الحرب مع إسرائيل.

بعد ٦٧ يوما قضاها محمود رياض - وزير خارجية مصر وقتها - في نيويورك في معركة دبلوماسية حقيقية انتهت بصدور القرار ٢٤٢ سألته: إذن... هل ينتهي الاحتلال الاسرائيلي؟ اعتدل محمود رياض في كرسيه وهو يرد بهدوء وتأكّد: نحن لم نذهب إلى الأمم المتحدة لأنها هي التي ستنتهي الاحتلال الإسرائيلي. فالاحتلال ينتهي فقط بنفس الوسيلة التي جرى بها. ينتهي بالقوة. ولأن إعادة بناء القوات المسلحة المصرية تحتاج إلى وقت.. فقد ذهبنا إلى الأمم المتحدة كسبا للوقت. ذهبنا أيضا إلى مجلس الأمن اتقاء لشروط واثباتا لحقوق. الشرور اتقيناها والحقوق أثبتنا بعضها. تلك لغة دبلوماسية. أما لغة الواقع فهي القوة... والقوة وحدها هي اللغة التي تفهمها إسرائيل.

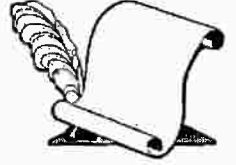
هل يعني هذا أن الأمم المتحدة كفكرة ومنظمة وشرعية دولية، قد فشلت؟ في الواقع هي نجحت أحيانا وفشلت غالبا. في حالات الفشل كان هذا يرجع إلى أن دولة كبرى من الخمس دائمة العضوية في مجلس الأمن تصر على أن تحتكر لنفسها الحل والربط في منطقة تريدها تابعة لها بعيدا عن مشاركة أو مزاحمة الآخرين. الشرق الأوسط هنا نموذج لمصالح كبرى تريدها الولايات المتحدة لنفسها.. حتى على حساب حلفاء لها كفرنسا وبريطانيا. مع ذلك.. يظل عالم توجد فيه «الأمم المتحدة» أفضل من عالم بدونها.

وذات يوم، في نيويورك، سألت السكرتير العام الثالث في تاريخ الأمم المتحدة: لماذا تكره إسرائيل دائما التعامل معك ومع الأمم المتحدة؟

رد الرجل الآسيوي «أوثانت» بكلمات رصينة: لأن إسرائيل تعرف أنها لن تجد عندي سوى قرارات مجلس الأمن ضدها في يدي اليمنى.. ومبدأ عدم جواز الاستيلاء على الأراضي بالقوة في يدي اليسرى.. كلاهما لا تريد إسرائيل الالتزام به.



أولها .. فلفل !



الفلفل الأسود لم يوجد من الأصل لكى يبدأ به الكتاب مقالاتهم. لم يوجد أيضا لكى يتم تناوله بمفرده أو مستقلا عن مأكولات يصاحبها أو يضاف إليها. مع ذلك.. وفيما يلي من سطور.. فإن الفلفل الأسود ليس مضافا إلى.. أو مضافا إليه. إنه هنا.. وفي أقل القليل.. صلب الموضوع.

من أجل الفلفل الأسود تغير وجه العالم. وفي سبيله احتشدت جيوش وجرت معارك وحروب وغزوات.. وسقطت ممالك وازدهرت دول وتقرر مصير امبراطوريات.. بل أيضا تعرفت إحدى قارات هذا العالم على قارة أخرى لأول مرة.

كان الفلفل الأسود، والحبهان، وحزمة أخرى من التوابل.. تجرى زراعتها في أجزاء من قارة آسيا. من خلال التجارة اكتشفت قارة أوروبا أن الطعام إذا أضيف إليه الفلفل الأسود وباقي البهارات.. يصبح ألذ.. وربما يفتح الشهية بدرجة أكبر. لكن أوروبا بمجرد أن تفتحت شهيتها على الفلفل الأسود اكتشفت أن مصر والمصريين هم الواسطة التي لا بد منها. فالمصريون، والعرب عموما، يقومون بالتجارة مع ممالك وإمارات الهند وآسيا من بعدها. إنهم يستوردون منها التوابل - وفي مقدمتها الفلفل الأسود - ثم يصدرونها إلى أوروبا. الأرباح هنا مؤكدة وتتجاوز ثلاثمائة فى المائة، وبين البائع والمشتري.. يفتح الله.

ولأن أوروبا باردة المناخ فلا تصلح فيها زراعة التوابل.. حيث التوابل هي من محاصيل البلدان الحارة القريبة من خط الاستواء. فى الهند وسيلان قليل منها. أما مجموعة جزر الملايو فهي غنية بها حتى إنها سميت «جزر التوابل». ومنذ ذاقوا أوروبا طعم التوابل فى مأكولاتها، من خلال التجارة مع العرب، فقد أصبحت تريد الوصول إليها.. بنفسها.

لم يكن فى القصة أسرار ولا ألغاز. التاجر عليه أن يسعى، ويشترى ويبيع، ويرحل شرقا ثم يبيع شمالا، وبالتالي تستطيع أوروبا أن تذهب إلى آسيا كما يذهب العرب. أرض الله واسعة وطرق التجارة معروفة. ولكن أوروبا بدأت بالطمع. لقد أرادت أولا أن تضع يدها بالقوة المسلحة، على العالم العربى.. ذات نفسه.

من هنا، ضمن أسباب أخرى، جاءت الحروب الصليبية من أوروبا حملة بعد حملة بدءا من القرن الحادى عشر. الموافقة صدرت من الكنيسة فى روما، وهى فى زمنها مثل مجلس الأمن والأمم

المتحدة فى زماننا، والشعار هو الصليب. فى أرض الواقع لم يكن للصليب، ولا للمسيح - عليه السلام - أية علاقة بالموضوع. المسألة كلها تجارة وشطارة وخفة يد.. والمطلوب هو توفير غطاء لأوروبا فى سعيها إلى السيطرة على طريق التجارة.. إلى الشرق.

بعد أن استرد صلاح الدين الأيوبي القدس من احتلال «الصليبيين» فى سنة ١١٨٧ اكتشفت أوروبا أنه من رابع المستحيلات عليها المضى فى هدفها للذهاب شرقاً فى وجود هذا «السد العالى» أمامها. هذه الدولة العربية القوية الموحدة المشكلة أساساً من مصر وسوريا. إذن.. فالحل يبدأ أولاً بضرب هذه الدولة.. أو فى أقل القليل.. تفكيكها. من هنا جاء الجزء الثانى من الحملات الصليبية موجها لضرب العقل المحرك فى جسد الدولة العربية الموحدة. ضرب مصر. هكذا وصلوا إلى دمياط وبعدها مدينة المنصورة. آخرتها.. ملك فرنسا أسير فى «دار ابن لقمان» بالمنصورة. والإفراج عنه بغدية معتبرة.. ونهاية الحلم الأوروبى.. مؤقتاً.

سنوات طويلة بعدها مضت فى النقاط الأنفاس. أوروبا فى مكانها شمالاً تدرس أسباب هزيمتها ومصر فى مكانها تهنىء نفسها. ثلاثة قرون وهى تهلىء نفسها.

ولأن التاريخ لا يعترف بوجود قانون ثابت يقرر ان يظل القوى على قوته، ولا الضعيف على ضعفه.. فقد انكفأت مصر على نفسها بغير أن تدرك أنها بذلك تخسر قوتها. أما أوروبا فقد درست أسباب ضعفها وبدأت تفكر فى حل جذرى لها.

وطالما التجارة، وبالتالي.. الأرباح الطائلة، هى الهدف.. فقد صممت أوروبا على أن تشق طريقها إلى آسيا و«الشرق الأوسط» الأقصى بعيداً عن مصر وسوريا وكل حراس الطريق الدولى للتجارة.. طريق القفل.. والذى منه. فى البداية بدأ الحل صعباً ومهلكاً. الحل هو أن تقوم أوروبا بحركة التفاف واسعة على كل هذا «الشرق القريب» الذى يقوم المصريون - والعرب عموماً - بالتحكم فيه وحراسته. هذا الالتفاف يقتضى استكشاف طريق بحرى وليس برياً - إلى الشرق «الأقصى» طريق كان لا يزال مجهولاً بالكامل حتى وقتها.. ويقتضى التقدم بحراً إلى المحيط الأطلنطى ثم جنوباً بحذاء الساحل الغربى لتلك الأراضى المجهولة - سموها فيما بعد «قارة أفريقيا» - أملاً فى الوصول بعدها إلى تلك الأراضى البعيدة جداً وقتها.. أراضى آسيا والشرق الأقصى. أراضى القفل الأسود والذى منه.

حينما نجح المكتشف البرتغالى «فاسكو دى جاما» فى اكتشاف رأس الرجاء الصالح بجنوب إفريقيا فى سنة ١٤٩٧ كان هذا يعنى إنجازاً غير مسبوق فى تاريخ البشرية. هو لا تعنيه البشرية. يعنيه القفل. لذلك فحينما وصل فاسكو دى جاما بسفنه الأربع إلى الساحل الغربى للهند فى ٢٧ مايو سنة ١٤٩٨ أدرك أنه حقق لنفسه «الحلم المستحيل» الذى سيحقق له الشهرة ولأميره

الثروة، وبالمرّة.. رضاء الكنيسة. أما ما لم يدركه - في لحظتها - فهو أنه برحلته تلك.. شهد العالم ولادة «نظام دولي جديد».

لقد وصل المكتشف البرتغالي قائدا لقافلة بحرية صغيرة واجهت الأهوال والمخاطر طوال الطريق البحري الطويل الشاق المجهول الذي سلكته. وقبل أن يغادر «فاسكو دي جاما» البرتغال كان من الصعب أن يقنع الكثيرين من البحارة بمرافقته في رحلة البحث عن المجهول. ان التحدث إليهم عن أهمية الذهاب إلى بلاد الفلفل الأسود والحبان وما أشبه معناه ألا يتبعه أحد بالمرّة.. فكل أجر البحار في سنة لن يكفي لتسديد ثمن ربع كيلو فلفل. وإذا تحدث إليهم مبشرا بأرباح مضمونة فيما بعد.. فإن أهوال الرحلة ومخاطرها هي المضمونة أكثر. وإذا بدأ حديثه بشرح خبرته السابقة بأعلى البحار والمحيطات فلن يجد كفايته من كبار الأثرياء لتمويل رحلته والصرف عليها وتوفير المؤن اللازمة لها. الكل يعرف - مسبقا - أنه ملاح ماهر، خبير مجرب. لكن هذه رحلة غير مسبوقة ولا أحد جربها من قبل.. وبالتالي فلا خرائط لها ولا ضمان ضد مخاطرها. إنه شيء طيب أن يبشرهم «فاسكو دي جاما» بأرباح طائلة من تجارة الفلفل الأسود وباقي بهارات الشرق. لكن.. هل هو يضمن أولا أنه سيعود إليهم وهو على قيد الحياة ؟

عند ذلك الحد دخلت الكنيسة على الخط. لقد استصدر أمير البرتغال ثلاثة مراسيم متوالية من البابا في روما توفر «الشرعية الدولية» اللازمة له لجمع التمويل اللازم لتجهيز المهمة البحرية الكبرى سعيا إلى الهند.. أينما تكون الهند هذه.. لأن البابا نفسه لم يكن متأكدا أصلا من وجودها. في أحد تلك المراسيم يسجل بابا روما حرفيا ما يلي: «إن سرورنا لعظيم إذ نعلم أن ولدنا هنري أمير البرتغال... قد دفع باسم الله إلى أقصى البلاد وأبعدها عن مجال علمنا، كما أدخل بين أحضان الكاثوليكية الغادرين من أعداء الله وأعداء المسيح مثل العرب والكفرة...»

البابا هنا يكتب كما لو أن أحلام أمير البرتغال قد تحققت فعلا، وهو فقط يجتر آراء سابقة من تاريخ مضى شكلته الحروب الصليبية. هذا لا يهم. أما المهم بالنسبة لأمير البرتغال خصوصا فهو أن يحصل من بابا روما - وهو في حينها سلطة دينية ودنيوية معا - على تفويض مسبق بأن له - أي لأمير البرتغال نفسه - الحق في أية كشوف جغرافية يفلح فيها.. حتى بلاد الهند، قطعاً للطريق على أمراء آخرين قد يطمعون مستقبلا في مزاحمته.

ولأن البابا «حويط..» فهو حسب المرسوم يسجل بداية أنه ليس متأكدا أصلا من وجود بلاد بعيدة باسم «الهند». فإذا كان ولايد من وجود «الهند» هذه.. إذن فسكانها لابد أنهم مسيحيون كاثوليكيون يلزمهم فقط بناء كنائس لهم والابتعاد عن «العرب والكفرة». لكن البابا أيضا - بصفته رجلا دنيويا - يريد لكنيسته حصة مسبقة من الأرباح إذا تحقق فعلا حلم كسر الاحتكار العربي للتجارة في الفلفل الأسود وكل التوابل الأخرى.

حينما وصل «فاسكو دى جاما» بسفنه الأربع إلى الساحل الغربى للهند فى سنة ١٤٩٨ اكتشف أولاً أن الهنود فى استقباله يسألونه عن هذه العلامة المرسومة على مقدمة سفنه. علامة الصليب. لكن.. ما هو الصليب؟ اذن هم ليسوا كاثوليكين ولا مسيحيين وإنما لديهم ديانة أخرى خاصة بهم. هو لم ينزعج. بعدها اكتشف أن من بين مستقبليه تجارا من العرب يقيمون هناك لأن الهند إحدى محطات تجارتهم. الآن.. هو ينزعج. لقد سلك طريقا بحريا طويلا وغير مطروق من قبل وحول افريقيا بهدف الالتفاف على العرب فى مصر والشام.. وفى النهاية يجدهم موجودين فى الهند أيضا؟ أخيرا اكتشف أن كل السفن الأخرى المراطة فى الميناء غير مسلحة. كان هذا طبيعيا فى حينها. لكنه بدا بالنسبة لرجل قادم من البرتغال، ويعرف الحكاية وما وراءها.. مفتاح الموقف كله.

فى البرتغال اتضحت الرؤية. «فاسكو دى جاما» عاد بحمولة من الفلفل الأسود تغطى كل تكاليف الرحلة والقليل من الأرباح للمساهمين فى التكاليف. مسألة الكاثوليكية والمسيحية لا محل لها من الاعراب. الهند فيها فلفل أسود وبهارات لكن ما بعدها هو الأهم. والأهم الآن هو أن البرتغال عرفت طريقها إلى «الشرق» من غير العرب. والأكثر أهمية فى الرحلات التالية هو أن تحتكر البرتغال لنفسها هذا الطريق الجديد إلى التجارة مضمونة الأرباح. تجارة الفلفل الأسود وكل التوابل. الاحتكار ضرورى تماما، ليس فقط لكى يستبعد العرب من المعادلة التجارية المأخوذ بها حتى ذلك الحين.. ولكن أيضا للتحكم فى أوروبا نفسها. ومن البداية صك الاحتكار موجود وموثق من بابا روما نفسه.

فى رحلته التالية حرص «فاسكو دى جاما» على أن تكون السفن فى قافلته أكثر عددا لكن الأهم هو أن تكون كلها مسلحة بالمدافع. فإذا كان العرب قد ذهبوا إلى الهند لمجرد التجارة.. فإن البرتغال تذهب إلى هناك للتجارة.. والسيطرة. هذا هو القانون غير المكتوب الذى حكم اللعبة كلها طوال المائة سنة التالية. حينما احتكرت البرتغال لنفسها طريق التجارة بين أوروبا والشرق.. ولم يكن ممكنا أن يستمر الاحتكار طويلا بعد أن دخلت أسبانيا ميدان المنافسة. كانت البرتغال وأسبانيا منذ مدة تابعتين لعرش واحد. لكن التجارة وأرباحها الفلكية الطارئة تخلع القلوب وتكسر العروش. هكذا أصبحت البرتغال وأسبانيا فرسى رهان فى هذا السباق المحموم إلى الاستكشاف والاستعمار. فى النهاية اضطر بابا روما إلى التدخل بينهما لإلزامهما بمعااهدة تقسيم مناطق النفوذ الجديدة بينهما. واختار الأسبان التوجه غرباً فى اتجاه أمريكا الجنوبية، بينما فضل البرتغاليون التوجه نحو الشرق. فى الشرق أصبحت الهند مجرد محطة على الطريق لأن البحث ظل مستمرا بهدف الوصول إلى مجموعة «جزر الملايو» التى كانت شهرتها هى «جزر التوابل». من هناك احتكرت البرتغال لنفسها السيطرة على كل تجارة التوابل دوليا.. حتى إن مصر والشام – ومعهم إيران بالرة – لم تستطع من وقتها فصاعدا الحصول على التوابل إلا من خلال البرتغاليين.

وخلال الستين سنة التالية أصبحت البرتغال محل حسد كل أوروبا. فهذه المملكة الصغيرة - البرتغال - تحولت إلى امبراطورية لها مستعمرات تمتد من البحر الأحمر إلى مسافة ستة آلاف ميل شرقا في آسيا حتى الملايو. بعد قليل لحقت بها أسبانيا قادمة من الاتجاه المضاد. ومن أرباح البرتغال وأسبانيا سال لعاب كل ممالك ودول أوروبا.. فانطلق الجميع يتسابقون إلى استعمار هذا العالم القديم - الجديد عليهم - حتى الصين. وكلما بزغت قوة أوروبية جديدة تقوم فوراً بمزاحمة من سبقوها وقطع الطريق على من يمكن أن يلحقوا بها.. بدءاً من هولندا ونهاية ببريطانيا. لم تعد الهند وحدها، ولا جزر الملايو واندونيسيا، هي الهدف.. وإنما اتسعت الأهداف لتشمل اليابان والصين. في الصين - وقد أصبحنا في القرن الثامن عشر - كانت «الغاية» الدولية تعمل بنفس القانون: البقاء للأقوى. ولأن بريطانيا هي الدولة الأولى التي دخلت عصر الصناعة فقد أصبحت هي الأنجح في مزاحمة الآخرين وإزاحتهم من طريقها إلى السيطرة على طرق التجارة الدولية. وهكذا.. بعد أن قامت بريطانيا باحتلال الهند.. تفتحت شهيتها إلى باقي المنطقة.. والصين في مقدمتها.

ولأن التجارة بيع وشراء.. فقد اكتشفت بريطانيا أن «الميزان التجاري» مع الصين هو باستمرار لمصلحة الصين سنة بعد سنة. الصين تبيع من الشاي إلى الحرير إلى عشرات من السلع التي تلح بريطانيا نفسها على شرائها. لكن الصين لا تشتري من بريطانيا الكثير لأنها أصلاً لا تحتاج إلى الكثير. الموضوع هنا لا علاقة له بحكومة. فقط عرض وطلب.

أليست «امبراطورية بريطانيا العظمى» هي التي قدمت نفسها إلى الصين باعتبارها حامية حرية التجارة الدولية.. بل لديها عبقرى اسمه «آدم سميث» يروج لفكرة أن السوق في التجارة يجب أن تكون حرة بالكامل لأن للسوق قانوناً يحكمها تحت عنوان «اليد الخفية» التي اسمها العرض والطلب.

بالطبع بريطانيا «العظمى» تقر بهذا كله. لكن المشكلة مستمرة. والمشكلة هي أن الصين تبيع لبريطانيا أكثر وتشتري أقل. في هذه الحالة - وتلك هي «امبراطورية بريطانيا العظمى» ذات نفسها تتصرف: ملعون أبو التجارة الحرة.. بل وحتى ذلك المدعو آدم سميث شخصياً. التجارة هنا لها معنى واحد: أن يكسب القوى من الضعيف.

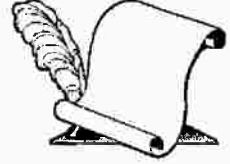
في حالات مبكرة - كحالة البرتغال وأسبانيا مثلاً في القرن السادس عشر - كان ممكناً تدبير فتوى سريعة من البابا والكنيسة في روما تقول: ان تلك هي رغبة السيد المسيح. لكن بريطانيا شيء آخر. أولاً: هي أكبر مقاما من امبراطوريات غاربة ومنتهية في حجم البرتغال وأسبانيا. ثانياً: بريطانيا تتبع كنيسة أخرى غير كنيسة روما. ثالثاً: بريطانيا هي صاحبة «النظام الدولي الجديد»

الذى فرضته بحكم تفوقها البحرى. وبذلك الصفة.. تريد بريطانيا العظمى لنفسها أن تكون نبراسا فى الحق والعدل. قالت: إن التجارة الدولية يجب أن تكون حرة.. ولذلك فهى تتمسك بأن تسجد الصين لأصول التجارة الحرة. الأصول.. أصول. بريطانيا «العظمى» دولة أصول.

إن حكومة جلالة «ملكة امبراطورية بريطانيا العظمى» لن تتدخل مطلقا لتصحيح العجز التجارى المستمر لمصلحة الصين. هى أرفع من ذلك. فقط: على الصين أن تفتح أبوابها بالكامل أمام تجار بريطانيا لكى يصدروا إلى الصين كل السلع التى يستطيعون تصديرها.. وفى مقدمتها: الأفيون.



فى التارىخ : طالع .. نازل !



فى السابع من شهر مايو - ١٩٩٩ - وقع حدث جلل هز قارات العالم جميعا وسوف نعيش مع آثاره لسنوات طويلة قادمة. هناك منظمة عسكرية اسمها حلف شمال الأطلسى قامت فى سنة ١٩٤٩ بقيادة الولايات المتحدة، وأصبحت تضم حاليا ١٩ دولة. منذ الرابع والعشرين من شهر مارس - ١٩٩٩ - قرر هذا التحالف شن حرب جوية ضد يوغوسلافيا بهدف إرغامها على الإنذعان لشروط محددة مسبقا.

الحرب من أولها تبدو لمخططيها محسومة فى نتيجتها. فحينما يتحرك أكبر حلف عسكرى فى التاريخ ضد دولة صغيرة - سكانها حاليا أقل من عشرة ملايين - لابد أن تصبح النتيجة فى النهاية..

تحصيل حاصل.

للحرب وملابساتها وأسبابها وأهدافها قصة أخرى ربما نعود إليها قيما بعد. فقط يكفى أن نعرف مؤقتا أنها ليست كما تبدو عليه حتى الآن - إعلاميا على الأقل - ليست أيضا دفاعا عن الإسلام مع أن معظم ضحاياها فى نهاية المطاف هم مسلمون. ولا هى أيضا دفاعا عن حقوق الإنسان.. فكل أطراف تلك الحرب سجلهم أسود ضد حقوق الإنسان.

والدول الكبرى - بامتداد التاريخ كله - هى بذاتها بلاوى كبرى. بالطبع هى شىء طيب لشعوبها. لكنها الجحيم نفسه بالنسبة للآخرين. إن الكبر والصغر هنا لا يتعلق بالحجم بقدر ما يتعلق بالقوة.

بريطانيا العظمى حينما أصبحت إمبراطورية عظمى لم تكن أكبر دول العالم حجما أو مساحة أو سكانا. إسرائيل حينما احتلت سيناء والجولان والضفة الغربية وغزة وجنوب لبنان لم يكن هذا لأنها الأكثر تحضرا. هولندا حينما استعمرت اندونيسيا لم يكن ذلك لأنها الأكثر فضيلة. البرتغال حينما أصبحت إمبراطورية لم يكن ذلك أيضا لأنها مفوضة من السماء بنشر المذهب الكاثوليكي.. كما ادعت بذلك وقتها فعلا. الولايات المتحدة حينما احتلت الفلبين واستعمرتها لم يكن هذا لأن السيد المسيح - ذات نفسه - ظهر للرئيس الأمريكى فى المنام وكلفه بالذهاب عسكريا لاحتلال

الفيلبين حتى يكسب رضاء الرب عنه وعن الشعب الأمريكي كما قال بذلك علنا رئيس الولايات المتحدة في حينها!

الدول الكبرى تصبح كذلك من خلال القوة وتخوض معاركها ومنافساتها ضد الآخرين من خلال السياسة.. وليس من خلال الأخلاق والمثل العليا. والفصل بين القوة والسياسة هو فكرة مضللة تماما.

والدول تكبر وتضمر حسب فهمها الخاص لعناصر القوة في عصرها ومبادراتها إلى تملكها بأفضل من الآخرين. بل إن الدولة نفسها يمكن أن نجدها كبرى في عصر وصغرى في عصر آخر من غير أن يتغير موقعها على الخريطة. هناك سلم صاعد إلى أعلى والحركة مستمرة دائما عبر درجات هذا السلم. من الحركة يولد التاريخ، من التاريخ يتعلم الإنسان. يتعلم أولا أن الدولة القوية لا تصبح كذلك مرة واحدة وإلى الأبد. فالقوة عملية حيوية متجددة يمكن للدولة أن تكسبها.. ويمكن أيضا أن تخسرها إذا تصورت أن على رأسها ريشة أو أن معها تفويضا من السماء. أو نامت على ما يجري حولها.

ودائما.. دائما.. هناك صاعدون وهابطون على هذا السلم. الصاعدون في حالة ثقة وغطرسة.. فالقوة بحد ذاتها يمكن أن توهم الدولة بأنها أصبحت على كل شيء قديرة. والهابطون في حالة انكسار فالضعف يجعل الشعوب مهانة بعد عزة وذليلة بعد أنفة.. ومستباحة بعد حصانة.

وما جرى في السابع من شهر مايو ١٩٩٩ أيقظ كل تلك الهواجس النائمة.. خصوصا لدى دولة لها أصل وقصل مثل الصين. فطائرات حلف شمال الأطلسي - ومعظمها أمريكية - مستمرة في قصف أهدافها المختارة داخل يوغوسلافيا من قبلها بأربعة وخمسين يوما بغير انقطاع. الضربات غالبا تصيب.. وقليلًا تخيب. في مساء الجمعة ٧ مايو أصبحت سفارة الصين في العاصمة اليوغوسلافية بلجراد من بين الأهداف التي جرى قصفها. هكذا تداعى مبنى السفارة وسقط بها ثلاثة صينيين قتلى زائد عشرين جريحا.

وعلى الفور خرجت الصين الرسمية تدين هذا القصف باعتباره عملا بربريا همجيا يؤكد موقف الصين الأصلي باعتبار ضربات حلف شمال الأطلسي ضد يوغوسلافيا عدوانا سافرا. وطلبت الصين اعتذارا رسميا من الولايات المتحدة وكل دول حلف شمال الأطلسي. وكذلك التحقيق فورا في الحادث ومعاقبة المسؤولين عنه.. الخ.

الرئيس الأمريكي بيل كلينتون خرج بنفسه يعتذر علنا للصين عما جرى ويصفه بأنه «عمل مأساوي مؤسف».. بعده حلف شمال الأطلسي ومعظم أعضائه الكبار. لكن الاعتذار بالنسبة للصين لم يكن كافيا. هي تريد إدانة صريحة قاطعة وتحقيقا ناجزا محددا، وكذلك قرارا من مجلس الأمن

الدولى يعتبر ما جرى بمثابة عدوان مدان ضد الصين. الولايات المتحدة - ومعها حلفاؤها فى مجلس الأمن - رفضت قرار الإدانة. الأسف ممكن. الاعتذار واجب. أما الإدانة.. أبدا!

فى الوقت نفسه خرج مئات الآلاف من مواطنى الصين - فى العاصمة بكين وغيرها من المدن الكبرى - فى مظاهرات عارمة غاضبة تحاصر السفارة الأمريكية وقنصلياتها وتقذفها بالطوب والحجارة والشعارات الغاضبة.

لأربعة أيام تالية والمظاهرات غاضبة متجددة والسفير الأمريكى محاصر داخل السفارة مع مساعديه قائلا: إنهم أصبحوا بمثابة الرهائن داخل السفارة والرئيس الأمريكى فى واشنطن خرج يعتذر علنا من جديد.. ويقول أيضا إنه يحاول بنفسه الاتصال برئيس الصين جيانج زيمين تليفونيا لتقديم أسفه الشخصى.. دون جدوى. لسبعة أيام متوالية ورئيس الصين يرفض الرد نهائيا على مكالمات كلينتون التليفونية.

فى البداية اعتبرت الولايات المتحدة أن رد الفعل الصينى مبالغ فيه.. بل إن الحكومة الصينية ربما تكون هى نفسها التى تشجع المظاهرات. لكن.. حينما تجول الصحفيون الأمريكيون بأنفسهم بين الطلاب الغاضبين فى بكين اكتشفوا حقائق مختلفة. هؤلاء طلاب جامعات وبالذات جامعات النخبة فى الصين. معظمهم يتكلم الإنجليزية بطلاقة لأنه يفكر فى استكمال دراساته فى الولايات المتحدة. معظمهم أيضا شبه معجبين بالنموذج الأمريكى فى الحياة من خلال أفلام السينما ومسلسلات التليفزيون والمحطة الاخبارية الأمريكية «سى. ان. ان». فاذا كان الأمر كذلك.. فكيف ترفضون أيها الطلبة الآن الاعتذار الأمريكى.. بل وتدعون أيضا إلى مقاطعة كل ما هو أمريكى ؟

لأنكم تستخفون بعقولنا. لقد صدقنا إلحاحكم على أنكم أصبحتم القوة العظمى الوحيدة فى العالم. صدقنا أن أقماركم الصناعية فى الفضاء تصور أدق وأصغر ما يجرى على الأرض وصدقنا أن أسلحتكم الذكية لا تخطئ هدفها.. وأن معلوماتكم دقيقة لا يلحقها الخطأ أو يصيبها الإهمال. الآن تقولون إنكم لم تكونوا تعرفون أن المبنى المستهدف هو سفارة الصين فى بلجراد. كيف هذا؟ سفارتنا فى بلجراد ليست مكانا سرايا. إنها مبنى طويل عريض يرفرف فوقه علم الصين ومكتوب على بوابته اسم الصين. كل دبلوماسيكم دخلوا هذا المبنى من قبل فى حفلات استقبال أو غداء أو عشاء.. حتى بغير ذلك.. فمنوان السفارة مسجل فى كل الخرائط السياحية لمدينة بلجراد. ومسجل أيضا فى دفتر التليفون. هل عجزت مخابراتكم أيضا عن الحصول على نسخة من دفتر تليفونات العاصمة بلجراد ؟!

كان واضحا أن الصينيين يسيطر عليهم الشك فى كل ما يقوله وما يفعله الأمريكان. فالسفارة لم يتم ضربها مرة واحدة وإنما ثلاث مرات متتالية ومن زوايا مختلفة جوا. والسفارة بحد ذاتها مبنى

مدنى وليست ثكنة عسكرية ولا يوجد بجوارها أو بالقرب منها أى ثكنة عسكرية. وفى الآخر.. تقول الولايات المتحدة للصين إن السبب أساسه.. خطأ فنى ؟

المشكلة الكبرى فى حالة الصين تحديداً هى أنها طوال مائة سنة متتالية وهى تتلقى الضربات والصفعات من الآخرين.. بحجة «الخطأ الفنى» ! واعتباراً من منتصف القرن التاسع عشر تحديداً أصبحت كل الإمبراطوريات الغربية البازغة تسابق بعضها تنافساً على اقتراس الصين وتقاسم مناطق النفوذ فيما بينها.

فى «حرب الأفيون» الشهيرة التى فرضتها بريطانيا العظمى على الصين كان ذروة الإذلال هو إجبار الصين على فتح أسواقها رسمياً أمام تجار الأفيون. وفى إحدى المرات بادرت السلطات الصينية بمحاصرة ومهاجمة أوكار بيع وتسويق الأفيون وصادرت عشرين ألف صندوق أفيون لدى كبار التجار.. وأحرقتها. كيف تجرؤ الصين على ذلك ؟ ألا تعرف مسبقاً أن هؤلاء التجار إنجليز ومن رعايا إمبراطورية بريطانيا العظمى.. التى تدعو صباحاً ومساءً إلى حرية التجارة ؟

والنتيجة «بوارج» مسلحة بريطانية وصلت للتو إلى سواحل الصين لكى «تقنع» حكومتها عملياً بعدم التدخل فى حرية التجارة. النتيجة - ثانياً - هى معاهدة تم إرغام الصين على توقيعها. وتضمن فيها الحكومة فتح أسواق الصين أمام الأفيون وأية سلعة أخرى يحقق منها تجار أوروبا أرباحهم الفلكية. وحتى لا يكون لدى شعب الصين أية أوهام بشأن حكومته.. فقد تم إلزام حكومة الصين أيضاً بدفع تعويضات فادحة لتجار الأفيون الذين صودرت واحتُرقت شحناتهم من الأفيون.

فى سنوات تالية استخدمت بريطانيا «العظمى» سلاح الأقليات الدينية ضد الصين. المسلمون مثلاً.. هم فى الصين أقلية. لكنهم فى أحد أقاليم الصين - بالشمال الغربى - يمثلون أغلبية. إذن بالنسبة لبريطانيا العظمى : عز الطلب. لقد قامت بريطانيا سرا بتشجيع ذلك الإقليم على التمرد وإعلان الانفصال والاستقلال. وطول ١٤ سنة تحول ذلك الإقليم الصينى الصغير فعلاً إلى دولة مستقلة ملكها اسمه «يعقوب» وتسانده بريطانيا بصفتها القوة العظمى فى العالم الحريصة على رفع شأن الإسلام والمسلمين. فى النهاية قامت الصين بقمع التمرد واستعادت سيادتها على الإقليم.. بينما بريطانيا العظمى تذرف دموع التماسيح عطفاً على - وحماساً إلى - الإسلام والمسلمين.

وحينما ذهب مبعوث صينى إلى لندن لكى يسأل وزير خارجية بريطانيا فى سنة ١٨٧٦ : إذا كنتم تحرضون الأقلية المسلمة فى شعبنا على الانفصال بكل هذه الحرارة حتى تصبح لهم دولة مستقلة.. فلماذا فى الهند - وأنتم مستمرون فى احتلالها - ترفضون رغبة المسلمين الهنود فى الاستقلال وتحاربونهم بكل شراسة ؟

كان السؤال بديهيا وعمليا.. لأن مندوب الصين يعرف أن القضية بالنسبة لبريطانيا العظمى هي إضعاف وتفسيخ الصين وليست أبدا دفاعا عن المسلمين. بل إنه في خلال ست سنوات فقط قامت بريطانيا باحتلال مصر و«نصف دسة» دول إسلامية أخرى في الشرق الأوسط. وخلال سنوات قليلة بعدها بدأت بريطانيا تروج بوليا أنها مستمرة في احتلال مصر.. فقط لحماية الأقباط المصريين من اضطهاد المسلمين المصريين.

نعود لموضوعنا. نعود للصين. فكل القوى البازغة في أوروبا ومعها الولايات المتحدة - كقوة كبرى وليدة - ذهبت إلى الصين بحثا عن الأسواق والأرباح والمغانم. كل قوة ترفع لنفسها شعارا يفيض رقة وإنسانية.

فرنسا مثلا.. رأت أن ثوابها سيصبح أكبر لو قامت بهداية الشعب الصيني ليدخل في المسيحية.. وبالأذات المذهب الكاثوليكي. وبكل نعمة ومودة.. بدأ القساوسة يتوافدون على مدن الصين بحجة أن تلك هي تحديدًا - رغبة السيد المسيح. القسيس يجي من هنا.. وفي ذيله حملة مسلحة! القسيس يبني كنيسة.. وفي حمايتها ينشأ فورا سوق للخنازير!

لا.. ليست الخنازير التي نعرفها. لكن «الخنازير» في ذلك القاموس - قاموس القوى العظمى وقتها - هم البشر.. بالضبط. هكذا كانوا يسمون مواطني الصين. «خنازير». تطلع قافلة مسلحة إلى أرياف الصين. تخطف ما تيسر من المواطنين الشبان تحشدهم في قافلة تحت الحراسة المسلحة إلى أقرب سفينة.. حيث تبحر بهم السفينة لكي يتم بيعهم كعبيد في كل المستعمرات الجديدة بأمريكا الشمالية والجنوبية وبين البائع والمشتري: اسمهم.. خنازير!

الصين تحتج، تصرخ، تشكو.. باسم الحضارة والإنسانية تصرخ من جديد. أبدا ليس في الحضارة والإنسانية مكان مطلقا لأى «خنزير».. يعنى لأى مواطن صيني. لسنوات عديدة استمرت الصين في حالة ذهول مما يجرى بها وفيها. الصين لا تصدق أن ما يجعل الآخرين يستأسدون عليها بكل هذا القدر من الاحتقار والتوحش. هو ضعفها. إنها لا تزال تعيش على الماضى.. قوة الماضى.

وفى إحدى المرات «شخط» امبراطور الصين فى مبعوث أجنبى قائلا له: «لا أحد يجرؤ على الشخير قرب سريرى». كلام فخم ضخم موجود فعلا فى تراث الأمثال الشعبية الصينية. لكن الأقوياء لا تردعهم الأقوال المأثورة.

الأقوياء يردعهم فقط بأن تكون أنت نفسك أقوى منهم. من هنا.. فوجيء امبراطور الصين بعد قليل.. ليس فقط بأن الأجانب «يشخرون» قرب سريرهم.. بل حرقوا سريرهم هو نفسه.. ضمن القصر الامبراطورى فى العاصمة بكين.. الذى جرى حرقه أوله عن آخره.. إثباتا جديدا لحالة الضعف التى وصلت إليها الصين.. فأصبح هذا فى حد ذاته إغراء للآخرين بتشريح جسدنا.

لقد أصبحت الصين إذن تدفع ثمن ضعفها.. بينما الآخرون يتجرأون عليها نتيجة لقوتهم. وكما الأفيال فى سقوطها.. لابد من إرادة فولاذية وعزيمة جبارة حتى تنهض الأفيال نفسها واقفة من جديد.

الصين ذاتها لم تسترد بعض قوتها إلا فى منتصف القرن العشرين. ومع أنها أصبحت دولة نووية منذ سنوات الستينيات.. وتشهد نهضة اقتصادية كبرى منذ عشرين سنة.. إلا أنها لم تسترد هونج كونج مثلا - وهى التى جرى اقتطاعها من أراضيها فى القرن التاسع عشر - إلا قبل سنتين.. لكن لا تزال هناك أقاليم أخرى منشقة لم تعد بعد إلى السيادة الصينية.. فى مقدمتها تايوان.

بكل هذا التاريخ الطويل والثقيل من إذلال الصين وتفسيخها.. أصبحت الصين فى داخلها تتوجس شرا من كل الآخرين.. خصوصا إذا كانوا أقوياء وخارجين لتوهم من قلب الحضارة الغربية.. ويلوحون بشعارات براقة من نوع «حقوق الإنسان».

مصر فى سياقها التاريخى الخاص هى، كما الصين، صاحبة حضارة عظمى سابقة. لكن هذا كان.. زمان. ماذا بعد ذلك؟ ما الذى يجعل دولة كبريطانيا تجيء من أقصى الشمال فى أوروبا لكى تحتل مصر مثلا لأكثر من سبعين سنة؟ تحتل الهند أيضا؟ تستأسد على الصين فى أقصى الشرق؟

وفيما بين مصر والهند.. تضع يديها كذلك على إمبراطورية كبرى لا تغيب عنها الشمس فى ثلاث قارات على الأقل بامتداد العالم.

أيضا: لماذا انهارت فى النهاية امبراطورية بريطانيا العظمى.. وأصبح المؤرخون يحددون سنة ١٩٥٦ على وجه الخصوص باعتبارها الضربة القاضية لتلك الإمبراطورية.. حينما قامت مصر بتأميم قناة السويس.. وقاومت بصلاية غزوا مشتركا من بريطانيا وفرنسا معا.. وفى ذيلهما إسرائيل.

إنها مرة أخرى: حركة التاريخ. ليس فى التاريخ أقوياء دائمون أو ضعفاء دائمون. ليست هناك أيضا أحكام نهائية من القدر تقول إن القوى سيظل قويا دائما.. أو أن الضعيف لا فكاك له من ضعفه. بالعكس. يستطيع الضعيف أن يصبح قويا إذا درس بعمق أسباب ضعفه.. ولماذا تجاوزه الآخرون فأصبحوا أقوياء. السلم مفتوح للصاعدين والهابطين. والحركة فيه مستمرة. طالع.. نازل.

فى حالة بريطانيا مثلا كانت قوتها مكافأة لها، لأنها سبقت الجميع إلى دخول عصر الصناعة. ولأن السباق مفتوح أمام الجميع فقد اقتحمه آخرون. وتغيرت من جديد قائمة النازلين.. والصاعدين.

أنت حلمى السعيد ؟ .. أبولك ييشنغل إيه ؟



فى رحلة الحياة تجمعنا الظروف بأشخاص كبار أو صغار.. شيوخ أو شباب.. للحظات أو لسنوات.. لكن نكتشف فيما بعد أن مصفاة التجربة قد أعادت فرز انطباعاتنا المبكرة عنهم. أحيانا إلى الأسوأ وأحيانا إلى الأفضل. مرات يحس المرء بأن لحظات التجربة معهم كانت أقصر مما يجب.. أو أطول مما يجب.

فإذا اختلط العام والخاص هنا.. والموضوعية مع الذاتية.. يصبح الفرز - وإعادة الفرز - عملية مهمة فى حد ذاتها. ربما لأن الإنسان هو المخلوق الوحيد الذى له ذاكرة. وبذلك الصفة تظل الذاكرة منتعشة دائما بأشخاص قبل غيرهم.. لأسباب تبدو فى سياقها طبيعية.. وفى ظروف متغيرة تبدو غير طبيعية بالمرّة. ذلك لأن الأشياء الأكثر جمالا فى حياتنا يصنعها الحالمون والأشياء الأكثر تكرارا يصنعها الواقعيون. وفيما بين الاثنين تتأرجح حياتنا ويتشكل مستقبلنا.. ربما حتى بغير أن ندرك ذلك فى حينه.

وفى حياتنا العامة توقفت كثيرا، غالبا بينى وبين نفسى، عند شخصيات من نوع خاص. بعضها أتاحتها لى المرحلة المبكرة من حياتى الصحفية. وبعضها فيما بعد. فى الحالتين كان الجرس يدق فى عقلى منبها فى كل مرة إلى أن الانتماء.. لوطن أو لفكرة أو لمهنة أو لأسرة.. ليس واقعة تحدث مرة واحدة وينتهى الأمر. لكنها فى الواقع عملية تراكمية لا تقاس أبدا بمنطق الربح والخسارة. إنها تقاس بمنطق الزمن: ما الذى سيكنسه الزمن فى طريقه.. وما الذى سيبقيه ؟

حلمى السعيد واحد من هؤلاء. واحد من فريق الأصالة والانتماء ونكران الذات. هو لم يكن يستريح أبدا إلى الأضواء. ولا كان يزاحم غيره سعيا إلى الصفوف الأمامية مزهوا بموقعه داخل السلطة. إنسان شديد البساطة والتواضع. يستمع أكثر مما يتكلم. يستكشف أكثر مما يتعسف. يستمد صلابته الخاصة من داخله.. أكثر مما يستمدّها من نفوذ أو منصب. رجل.. عرفت أخيرا، وأخيرا جدا، كم كان قريبا من جمال عبدالناصر فى زمن كان فيه عبدالناصر هو الملهم والزعيم. مع ذلك فلم أسمع فى أى مرة يعزف اللحن الذى ابتذله غيره، لحن: قلت لعبد الناصر.. وعبد الناصر قال لى..

فى كتابه الأخير، بل فى الواقع كتابه الأول، بعنوان «شهادتى للأجيال» عرفت عن حلمى السعيد حقائق وأسراراً لم أعرفها منه مطلقاً فى حينها ولا تخيلتها عنه بعدها. ضابط مهندس عضو بالخلية الأولى التى شكلها عبد الناصر سرا باسم «الضباط الأحرار». رفيق لعبد الناصر فى الحياة العسكرية وعلى أرض فلسطين. مدير لمكتب عبد الناصر. مستشار لعبد الناصر. رئيس لأحد ثلاثة أجهزة كبرى تابعها عبد الناصر. وزير فى عهد عبد الناصر. بعدها وزير أيضاً فى عهد أنور السادات. من هناك إلى الاستقالة. من الاستقالة إلى السجن. من السجن إلى مشوار الحياة مرة أخرى فى بداية جديدة وسط ظروف أصعب وأظلم.

وفى مرحلتى الصحفية المبكرة عرفت حلمى السعيد. أو بكلمات أدق.. كنت واحداً من شباب الصحفيين الذين اقتربوا منه بحكم المهنة. فى ذلك الاقتراب كان حلمى السعيد أباً وأخاً أكبر وقوة بغير أن ينطق هو نفسه بأى من تلك الكلمات. أكرر: هذا إنسان بسيط. لا يضيف إليه منصب الوزير شيئاً ينقصه. هو الذى يضيف إلى المنصب. وبإضافته تلك يجعل المنصب العام أكثر إنسانية وواقعية. الإنسانية من حيث إدراكه أن السياسة جوهرها إدارة البشر. والبشر هنا يحركهم الحماس والافتناع والانتماء بأكثر مما يحركهم التسلط والتجبر. والواقعية من حيث إنه يرى المنصب العام تكليفاً وليس تشريفاً. تضحية وليس مغنماً. الإدارة بالقوة وليس الإدارة بالسوط.

فى كتابه الأخير «شهادتى للأجيال» يأخذنا حلمى السعيد بتواضع وإيجاز إلى عالم من السلطة والصراع كان هو فى بؤرته. إننى لم أكن أعرف - مثلاً - أنه عاش قصة السد العالى منذ كان مجرد حلم وفكرة. ولم أعرف أيضاً أنه كان المحقق الأول فى قضية «انحراف المخابرات» بعد نكسة يونيو ١٩٦٧. ولا عرفت كذلك أنه فى عالم السياسة يمكن أن يتحول الضرب تحت الحزام إلى مثل هذا التوحش. هذه كلماتى أنا وليست كلمات حلمى السعيد. فالرجل منضبط القلم والكلمات. راقى الإحساس بأن عدالة السماء أبقي من عدالة البشر. مصمم فى كل مرة على أن أسوأ ما فى المحنة لا يكون وقوعها ولكن الاستسلام لها والفتل فى الخروج منها. وهو بصلابته الداخلية تصرف فى حياته العامة على هذا الأساس.

لقد أسعفتنى الذاكرة هنا بشخصيات أخرى من نفس النسيج. نسيج التعامل مع المنصب العام على أنه تضحية ونكران للذات.. حتى لو كانت التضحية استتبسالا ونكران الذات تواضعاً.

تذكرت - مثلاً - صدقى سليمان. ومحمود يونس ومحمود رياض. وأتذكر أيضاً محمد على فهمى. هناك زلزال كبير فى مصر والمنطقة. فى الزلزال إرهابات وتحولات وتحديات لا أول لها من آخر. مع ذلك فبعض التحولات تصبح لها دلالات أكثر من بعضها الآخر.. لأنها فى الواقع تبدأ من نقطة شديدة الانخفاض قاتمة اللون منذرة بأوخم العواقب.

فى حالة (المشير) محمد على فهمى مثلا كانت هناك نكسة كبرى سجلت فيها إسرائيل انتصارا مدويا فى يونيو ١٩٦٧. والقضية التى أجمعت عليها مصر كلها هى ببساطة أن ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة. والقوة ليست سلعة متاحة فى محلات البقالة ودواء متوافرا فى الصيدليات. القوة هى نحن. هى ما نصنعه، هى ما نختطفه وسط غابة دولية لسنا أقوى وحوشها. وإسرائيل بعد انتصار مدو أصبحت تستببح سماء مصر بطائراتها الأمريكية. والغابة الدولية لا تتيح لمصر سلاحا بسلام. والمتوحشون فى الغابة يقامرون على الوقت. على الزمن. فبالزمن من الوقت، لابد أن تستسلم مصر.

ولأن الاستسلام يبدأ من الروح فقد جرى تكليف العميد - وقتها - محمد على فهمى بإنشاء سلاح جديد اسمه «الدفاع الجوى».. لكى يتكامل مع أسلحة المشاة والبحرية والطيران. لم تكن المسألة هنا هى فقط أن تمتلك مصر قوة عسكرية رابعة ضمن قواتها المسلحة. كانت المسألة أساسا هى قطع اليد الإسرائيلية الطويلة. يد الطائرات التى تستأسد يوميا ضد المدنيين فى مدن مصر وقراها.. بمن فيهم أطفال مدارس لم تستوعب عقولهم البريئة - بعد - أى شىء عن العدوان والتوحش وإسرائيل.

وأصبحت مشكلة محمد على فهمى هنا مشكلتين. فهو القائد فى عملية كبرى صامته لإعادة بناء دفاع جوى حديث لمصر لن يعرف بها العالم إلا حينما تدخل، فيما بعد، فى مرحلة بناء «حائط الصواريخ». وهو أيضا يفعل ذلك فى ظل غارات جوية إسرائيلية يومية على مدار الساعة. ثم إنه يفعل ذلك كجزء من عملية شاملة لإعادة بناء القوات المسلحة المصرية بالكامل بعد نكسة يونيو ١٩٦٧ لكى تصبح جيشا عصريا بالمعنى الدقيق للكلمة.

فى نكسة يونيو ١٩٦٧ كان أحد الدروس الأساسية التى استوعبتها مصر هو أن بناء جيش عملية أكبر تعقيدا بكثير من شراء أسلحة.. حتى لو كانت أحدث الأسلحة. من الممكن أن تصبح لدينا دبابات ومدمرات وطائرات ومدافع.. بغير أن يعنى هذا أنه أصبح لدينا جيش. تماما كمجموعة آلات موسيقية فى أيدي عازفين. لدينا كمان وعود وناي وأكورديون وآلات إيقاع. لكن هذا كله لا يصنع لحنًا ولا يؤدي إلى قطعة موسيقية متناغمة. العزف الانفرادى موجود. لكن المهم بعد ذلك هو اللحن الجماعى الذى يتم عزفه.

هذا ينقلنا إلى محمود يونس. هو أيضا ضابط مهندس اختاره جمال عبدالناصر أساسا ليقول تنفيذ قرار سياسى خطير بتأميم شركة قناة السويس. القناة مصرية شقها مصريون على أرض مصرية وبتضحيات مصرية. مع ذلك فطوال أكثر من ثمانين سنة وكسور أصبحت مصر تعمل لحساب قناة السويس بأكثر مما تعمل القناة لحساب مصر.

ثم إن شركة قناة السويس مملوكة لمساهمين أجانب أهمهم فرنسا وبريطانيا.. وكل منهما في حينها امبراطورية كبرى على مستوى العالم. فى القانون لمصر الحق فى تأمين شركة قناة السويس. لكن فى الغابة الدولية.. القوة هى القانون. قبلها بسنوات قليلة جاءت فى إيران حكومة وطنية برئاسة محمد مصدق وأعلنت تأمين شركة البترول استجابة لمطلب شعبى كاسح تقره العدالة والقانون. مع ذلك قرر وحوش الغابة أن قوتهم - وقوتهم وحدها - هى القانون. والنتيجة؟ عملية عسكرية مخابراتية كبرى أسقطت حكومة إيران الوطنية وأعادت البترول الإيرانى إلى نفس اللصوص الكبار. وبعدها أصبحت إيران عبرة لمن يعتبر.

وفى سنة ١٩٥٦ أصبح محمود يونس وفريقه المحدود مكلفين وطنيا بأن ينفذوا على أرض الواقع ذلك القرار السياسى الخطير بتأمين قناة السويس. لم يعد شعب مصر بمفرده صاحب القضية.. بل كل شعوب العالم الثالث.. بينما المتوحشون الكبار مصممون على أن يتقيأ المصريون جميعا قرارهم بتأمين قناة السويس.. حتى تعود علاقة المصريين بقناة السويس إلى سيرتها الأولى. القناة وإدارتها وإيراداتها من نصيب الخواجات.. أما المصريون فمكانهم الوحيد المتاح هو.. سلم الخدم.

فى العملية الكبرى كانت المواجهة غير متكافئة بالمرة.. وفى تلك المواجهة احتاج المصريون - ويمثلهم فى هذه الحالة محمود يونس وفريقه - إلى أقصى درجات الخبرة والعلم والسياسة والإدارة. وقبل هذا وبعده: إرادة النجاح.

هذا ينقلنا ثالثا إلى صدقى سليمان. هو ضابط مهندس كلفه جمال عبدالناصر بالإشراف على بناء السد العالى. الإشراف هنا ليس وجاهة.. ولا امتياز. لكنه أقصى درجات الانضباط والمسئولية. قرار بناء السد العالى فى حد ذاته كان مسئولية كبرى وخطيرة غيرت جذريا من تاريخ مصر. وفى البحث عن تمويل لبناء السد العالى جرت فى الساحة الدولية مناورات ومداورات ومشاحنات من الوحوش الكاسرة فى الغابة الكبرى. السد العالى يجعل مصر أكثر قوة، وأكثر حصانة ضد غدر الطبيعة، وأكثر حماية ضد الجوع والعطش. ولنفس هذه الأسباب بالضبط أصبح مطلوبا من الوحوش الكبار منع مصر من بناء السد العالى.

ولسنوات طوال أقام صدقى سليمان فى جنوب أسوان. فى موقع السد. ومن السادسة صباحا.. يوما بعد يوم.. ولعشر سنوات متواصلة.. كنا نجد صدقى سليمان فى الموقع.. بين الصخور ووسط المهندسين والعمال. عشرات الآلاف من العمال. كلهم يبدأون عملهم فجرا بالتطلع إلى اللوحة الكبرى المضاء التى أقامها صدقى سليمان فوق أعلى صخرة بالمنطقة. لوحة تسجل: باق من الزمن ألف يوم - ٩٩٠ يوما - ٨٢٠ يوما - ٧٩١ يوما.. إلخ.

بقيص وينظرون، وغالبا بقبعة اللواقية من قيظ شمس أسوان.. أصبح الرجل مقيما وسط جيش المهندسين والعمال. إنه - تماما كمحمود يونس في قناة السويس قبله ومحمد على فهمي في شبكة الصواريخ بعده - يعرف أن مستقبل مصر يتقرر هنا.. والعالم كله سوف يحاكم مصر - أو ينحني لها - هنا. مع ذلك فإن أيا من هؤلاء لم يشغل نفسه بالعالم. شغل نفسه بمصر والمصريين.. وهو يريد - بغير كلمات ولا خطب ولا شعارات - أن يستخلص الدرس الكبير من كل تلك التضحيات: إن أداء المصريين هو الذي يجعل مصر قوية أو ضعيفة.. حصينة أو مستباحة.. أكبر أو أصغر.

هذا في حد ذاته جعل جمال عبدالناصر يتساءل علنا أمام المصريين جميعا في خطاب عام: كيف ننجح في إدارة قناة السويس وبناء السد العالي.. بينما نغفل في إدارة مستشفى قصر العينى؟ التساؤل حاسم باتر.. وموجع أيضا. في التحديات الكبيرة يرتفع دائما أداء المصريين وتتبعث في داخلهم روح التحدى والإنجاز. لماذا لا يمتد هذا إلى التحديات الصغيرة، بل المسائل البسيطة التي كان يجب أن تصبح محسومة منذ خمسين سنة على الأقل؟ في المستشفى طيب ممتاز. لكن يجب أن تكون الممرضة ممتازة أيضا. في المدرسة معلمون. لكن الملاعب هى بأهمية الفصول. فى المصنع إنتاج. لكن جودة الإنتاج هى بنفس أهمية رخص سعره. فى المدينة شوارع. لكن نظافة الشوارع توازى أهمية اتساعها.

على المستوى الفردى لدينا مبدعون وموهوبون وخلاقون ومتقنون. فى الطب كما فى الهندسة والتعليم، لدينا عزف انفرادى. لماذا قبل العزف الانفرادى لا نهتم بروح الفريق؟ لماذا بعد اجتياز الصعب.. يفوتنا السهل.. تفوتنا الإدارة؟

هذا هو بالضبط ما جعل حلمى السعيد يصبح رئيسا لجهاز مركزى جديد فى مصر اسمه «الجهاز المركزى للإدارة». جهاز كانت الفكرة الأساسية منه هى تطبيق مبادئ الإدارة الحديثة فى الحياة المدنية المصرية. الإدارة التى تجعل السلطة أداة لخدمة المجتمع وليس التسلط عليه.

فى الطريق إلى الإدارة الحديثة أصبح التدريب - وإعادة التدريب - هو المفتاح. لكن هذا ليس كل شئ. الشاب يبدأ متحمسا.. ويتدرب بسلاسة.. وتتوالد فى داخله أفكار جديدة للأداء الأبسط والأكفأ. لكن نفس الشاب يفاجأ بأن رؤساء الأقدم خدمة والأكبر سنا يسخرون منه ومن حماسه وأفكاره.

إنها ليست مشكلة مصرية. هى مشكلة إنسانية. هى أيضا نفس المأزق الذى واجه ذات مرة دوايت أيزنهاور حينما كان قائدا أعلى لقوات الحلفاء فى المسرح الأوروبى أثناء الحرب العالمية الثانية. فى الحياة العسكرية لابد دائما من التدريب وإعادة التدريب. لكن بعد أن جرى تدريب الضباط الشبان ذات مرة وعادوا إلى وحداتهم انهالت على أيزنهاور مئات الشكاوى من الضباط

الكبار الذين يشكون للقائد الأعلى من أن هؤلاء الضباط الصغار يصبحون بعد عودتهم إلى وحداتهم العسكرية مصدر إزعاج وشغب بحجة أن لديهم أفكارا أحدث وأفضل.

وبدلاً من أن يوقف ايزنهاور تدريب صغار الضباط اكتشف أن عليه أن ينظم أيضاً دورات تدريبية لكبار الضباط إذا كان يريد «إدارة» سلسلة وذات كفاءة للقوات المسلحة.

والإدارة بحر عميق. لكن موضوعنا هو فقط ذلك النوع المدهش من الشخصيات العامة في مصر الذين عرفوا مبكراً أن البشر في مصر هم الأساس. وفي اهتمامهم بالبشر أصبحوا نموذجاً للتفاني والتضحية والتواضع ونكران الذات.

نظلمهم كثيراً لو جعلناهم وقوداً للمشاحنات السياسية. فالسياسة بطبيعتها متقلبة وتهوى التغيير. ليكن. إنما من قبل التغيير ومن بعده هناك حالات عطاء حدثت وانتهى الأمر. حالات لا يستطيع قلب المزاج السياسي أن يمحوها ولا أن يشطبها من ذاكرة المصريين.

فقط على هؤلاء الناس أن يضعوا على الورق حصاد عمرهم وخبرتهم وتجربتهم.. لأن هذا يوثق حصادهم الكبير. حصاداً من الخبرة والتجربة والمآزق والتحديات.. والكثير من التفاصيل.

في كتاب حلمي السعيد عناوين عريضة. لكنه يبدو زاهداً في إعطاء التفاصيل. والزهد قيمة كبرى على المستوى الشخصي في حياتنا كأفراد. لكنه ليس كذلك بالمرّة حينما يتعلق الأمر بتحديات كبرى خصوصاً إذا كانت من نوع التحديات التي لا تفرض نفسها على مصر إلا مرة واحدة كل مائة سنة. وفي انتظار التفاصيل أقف متأملاً بعمق عند واقعتين في حياة حلمي السعيد يرويهما في إيجاز بليغ.

في الواقعة الأولى حصل الطالب حلمي السعيد على شهادة البكالوريا (الثانوية العامة) في سنة ١٩٣٦. ومثل عدد من أقرانه تطلع إلى الالتحاق بالكلية الحربية.. متصوراً بحكم سنه أن المصريين سواء أمام القانون. وفي كشف الهيئة الذي سيقدر على أساسه قبول الطالب من عدمه جلست مجموعة من كبار ضباط الجيش المصري بصفقتهم لجنة الامتحان. في الامتحان طرح اللواء رئيس اللجنة سؤالاً أول على الطالب المتقدم: اسمك حلمي السعيد؟ أبوك بيشغل إيه؟

رد الطالب الشاب باعتزاز طبيعي: مدرس..

قال الضابط اللواء رئيس اللجنة: طيب.. كفاية كده.. قوم روح.

لم تكن هناك أسئلة أخرى، فإجابة هذا السؤال الأول قطعت الطريق على الأسئلة التالية بما جعلها لا لزوم لها. والنتيجة: الطالب حلمي السعيد غير مقبول ولا يصلح ليكون ضابطاً. والسبب غير المعلن: أن أباه ليس من المحاسيب ولا هو من كبار الملاك.

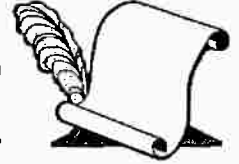
أما الواقعة الثانية فبعدها بسنوات طويلة كان حلمي السعيد قد أصبح خلالها - ولظروف أخرى - مهندسا وضابطا ورفيقا لعبدالناصر ومستشارا ووزيرا ومستقيلا وسجيناً. بعد السجن بدأ الحياة من جديد. ليس كوزير سابق وإنما كمواطن يسعى للعمل مستشاراً هندسياً في مكتبه الخاص. المكتب يحتاج إلى مصاريف وتكاليف.. بينما الزمن لم يسمح له سوى بملكية البيت الذي يسكنه مع أسرته.. بحيث أصبح الحل الوحيد المقاح هو بيع هذا البيت حتى يبدأ الرجل حياته الجديدة مع عائلته ويلاطم ظروفًا متغيرة بإصرار وتصميم.

ولأنه صاحب أولاد فقد تردد كثيراً في قراره ببيع البيت. لكن ما حسم الأمر هو أن ابنته قالت له بكل فخر: البيت مش هو اللي جابك.. وبإذن الله تعوض كل شيء. إذا لم يكن حلمي السعيد قد أعطى لأولاده سوى تلك الرؤية العميقة البسيطة.. فإن هذا إنجاز مذهش.

مع ذلك.. ففيما بين الواقعتين.. كانت قد تدفقت في نيل مصر مياه كثيرة.



.. مات الملك عاش الملك ..



.. هذا وقد تم استدعاء الوزراء وكبار رجال الدولة إلى القصر الملكي لكي يقبلوا يد الملك الجديد تعبيراً عن ولائهم له بينما أفراد الجمهور» .

أغلقت جهاز الراديو إلى جانبي لكي تقفز إلى ذهني فورا ذكريات سابقة لا تزال ساخنة ومتوهجة في الذهن. ليست ذكريات مع الأمير محمد الذي أصبح لتوه ملكاً جديداً للمغرب. ولا عن الوزراء الذين سيقدمون الولاء إليه بتقبيل يده أمام كاميرات التليفزيون. ولا بالضرورة عن والده الملك الحسن الذي رحل لتوه بعد ٣٨ سنة قضاها على عرش المغرب. الذكريات هنا مفتاحها: عبد الحليم حافظ .

كنا في مدينة نيويورك الأمريكية - عبد الحليم حافظ وأنا - نزولين في فندق «بلازا».. واحد من أغلى فنادق نيويورك وأفخمها. عبد الحليم موجود للزيارة والعلاج على نفقة الحسن ملك المغرب. وأنا ضيف على عبد الحليم حتى يغادر نيويورك فأعود إلى ما جئت أصلاً لمتابعته.. وهو جلسات مجلس الأمن والأمم المتحدة من الفندق الرخيص الذي اعتدت النزول به بالقرب منها. قبل سفر عبد الحليم قال لي إنه متجه إلى المغرب حيث سيقضى فيها شهراً أو أكثر.. أولاً لتقديم الشكر للملك الحسن وثانياً للمشاركة في احياء حفلات عيد ميلاده - عيد ميلاد الملك.

وعرض على عبد الحليم مرافقته إلى المغرب أو اللحاق به فيما بعد.. خصوصاً ان الموسيقار محمد عبد الوهاب سيكون هناك أيضاً خلال الفترة نفسها من أجل المناسبة نفسها. لم أتحمس كثيراً رغم حقيقة أنني لم أكن قد زرت المغرب من قبل. وفيما بدا لي ان عبد الحليم اقتنع.. ودعته في مطار كينيدي بنيويورك وعدت أدرجى لكي أدير أموري فيما بقي من برنامج رحلتي الطويلة.

بعد يومين فوجئت بمكالمة تليفونية من محمد عبد الوهاب وهو يتحدث من فندق هيلتون الرباط - عاصمة المغرب. ومثل عبد الحليم هو يحثني على قبول الدعوة لزيارة المغرب. بالطبع هي دعوة من الباطن فمحمد عبد الوهاب وعبد الحليم حافظ مدعوان من ملك المغرب. وأنا سأصبح

مدعوا منهما.. بالرغم من أن الإقامة معهما بفندق هيلتون زائد تذاكر السفر، ستكون على نفقة الحكومة المغربية.

لكن عبد الوهاب سلك مدخلا آخر غير الأسلوب المباشر من عبد الحليم. لقد سألتني عبد الوهاب: بعد أن تنتهي من مشاغلك الصحفية في نيويورك.. ماذا سيكون خط سيرك في الرحلة؟ أجبته قائلا: إنني سوف أوجه إلى باريس لقضاء أسبوع أو أكثر. وبعدها إلى لندن.

قاطعتني عبد الوهاب قائلا: عظيم.. عظيم.. بمجرد وصولك إلى باريس ستجد تذكرة باسمك في مكتب شركة الطيران المغربية، باريس - الدار البيضاء - باريس. الفكرة هي أن تخطف رجلك وتجيئ تقعد معنا يومين ثلاثة هنا في الرباط وتتفرج على المغرب. إذا عجبك الحال كان بها وتستمر معنا حتى تغادر المغرب سويا. إذا لم يعجبك لن نخسر شيئا. تذكرة عودتك إلى باريس في جيبك ومن هناك تستكمل البرنامج الأصلي لرحلتك هيه؟ قلت إبه؟

لم يعد في المسألة رأي بعد كلمات عبد الوهاب. من نيويورك إلى باريس فالدار البيضاء فالرباط. في الرباط أصبحت مقيما في الهيلتون مع محمد عبد الوهاب وعبد الحليم حافظ.

في الفندق اكتشفت أن الصحبة أوسع نطاقا بكثير. فالملك الحسن احتفالا بعيد ميلاده، لم يكتف بدعوة عبد الوهاب وعبد الحليم فقط وإنما حشد في الواقع معظم كبار الفنانين في العالم العربي. الآن أصبحت ليل نهار في صحبة عبد الوهاب وعبد الحليم وفريد الأطرش ووديع الصافي وشادية وبليل حمدي ومحمد الموجي وهدي سلطان وشريفة فاضل ومحمد رشدي وأحمد فؤاد حسن و.. و..

حينما كان كبار رجال الدولة يجيئون لزيارة عبد الوهاب وعبد الحليم والآخرين، أو يذهب إليهم عبد الوهاب كان يقدمني إليهم مداعبا بقوله: هذا ابني الذي كنت أتمنى أن أنجبه.. ابني المشاغب.

بعد أيام لاحظ عبد الوهاب أنني أفكر في العودة إلى باريس لأنني أدركت في قرارة نفسي أنني بقدمي إلى هنا لا أقوم بزيارة المغرب. فقط أزور فندق هيلتون. وفي الهيلتون، أو أي فندق كبير آخر، لا يحس المرء بأن أي بلد تختلف عن أي بلد. حتى تصميمات الفنادق ومأكولاتها ومقاهيها تكاد تكون مستنسخة من بعضها البعض.

وقال لي عبد الوهاب: فهمت فكرتك. فقط اعطني مهلة يومين على الأكثر. سوف أطلب من الوزير المختص هنا أن يعد لك البرنامج الذي تريده لكي ترى المغرب بالطريقة التي تناسبك. أما الآن فعليك فقط أن تستعد لكي تأتي معنا للذهاب إلى جلالة الملك (الحسن) والسهر معه في قصره الخاص..

قلت له مستغربا: طيب أنتم ضيوف الملك ومهنتكم الغناء والموسيقى.. لكن لا أنا أغني ولا الملك يعرفني أصلا..

ضحك عبدالوهاب من مقاطعتي التي بدت له ساذجة وفي غير محلها.. ثم قال: يا محمود يا حبيبي أنت أصلك جديد على معرفة الملوك.. مفيش هنا شاردة ولا واردة إلا بعلم الملك. صحيح أنا وعبد الحليم رتبنا مجيئك هنا.. لكننا من الأصل في عهدة جلالة الملك. وأنا بنفسى بلغت القصر الملكي من ساعة واحدة بأنك ستكون معنا فى السهرة الخاصة الملكية الليلة. يعنى لو فيه إجراءات أمنية مثلاً.. ستكون عليك وعلينا. لا تحبكهيا واترك لى التصرف. ألسنت أنا أبوك وأنت ابنى.. المشاغب؟

فى القصر الملكى ليلا أدركت من الدقائق الخمس الأولى أن ألف ليلة وليلة ليست مجرد أساطير. هى الآن أمامى صوتا وصورة. السهرة شديدة الخصوصية.. وبالطبع ليست هناك إذاعة ولا تليفزيون. فيها فقط كبار الفنانين هؤلاء.. زائد الفرقة الموسيقية بقيادة أحمد فؤاد حسن. ومن وراء ستار رقيق - كما فهمت همسا - يوجد «الحريم» الملكى. أما النجم الأكبر فى السهرة كلها فهو الملك الحسن.. ذات نفسه.. بقميص وبنظلون وروح من الدعابة جعلته يقول لهدى سلطان كلمات قلقة: يا ست هدى.. كيف حالك الآن؟ مزيان؟ سمعت أنك مرضت.. لكن لا بأس.. أنت الآن مزيان..

هذا بدوره أقلق هدى سلطان. هى فى الفندق شكت للبعض عصرا من أنها ربما على وشك الإصابة بنوبة برد. بعد دقائق كانت تصلها فى حجرتها أدوية ضد البرد. يعنى.. لما الواحدة تعطس فى «أودتها» الملك ياخذ خبر؟ هكذا تساءلت هدى سلطان همسا فى أذنى بأسلوبها التلقائى المدهش.

لم يسعبنى الذهن بتفسير. ولا هدى سلطان كررت تساؤلها. فقط الملك الحسن خلال مأدبة العشاء يتحرك بيننا لطيفا مجاملا رقيقا.. حريصا بين وقت وآخر على أن يعد بنفسه طبق طعام أو حلوى لأحد ضيوفه هؤلاء.

بعد العشاء عادت جلسة الغناء والموسيقى. فى هذه المرة الملك الحسن يقود الفرقة الموسيقية بنفسه بعد أن فاجأ شادية بأنه يطلبها للغناء. من مقعدى وسط عبدالوهاب إلى يمينى وعبدالحليم إلى يسارى أسمع تفسيرات متقطعة عن هوايات الملك وحبه للفن والفنانين. حتى إنه أمر بإنشاء فرقة لموسيقى التراث الغنائى المغربى على غرار فرقة الموسيقى العربية فى القاهرة. هو أيضا..

لكن قبل «أيضا» هذه قطع الملك كل أفكارنا بأن ألقى قنبلة: الأستاذ عبدالوهاب استجاب مشكورا لرغبتى فى أن يغنى لنا بصوته أغنية «ودارت الأيام».

أحسست برجفة عبدالوهاب إلى يمينى فى التو واللحظة. لقد «بغى» بكلمات من نوع: يا جلالة الملك هذا مرسوم ملكى لا أستطيع عصيانه لكن..

لم يبد على الملك أنه يستمع ، أو يريد أن يستمع ، إلى كلمة «لكن» وما بعدها من عبدالوهاب. لقد استرسل الملك قائلا : غدا في الظهيرة سيكون الغداء الملكي الرسمي.. لكن غدا في العشية سيكون احتفالي الخاص جدا معكم هنا.. لكي تطربنا يا أستاذ عبدالوهاب بصوتك مغنيا «دارت الأيام».. وفي ظني أن الوقت كاف يا أستاذ عبد الوهاب لكي تستعد.. وسأقود لك الفرقة الموسيقية بنفسى.. مزيان ؟

مزيان أو غير مزيان - تمام أو غير تمام - لم يكن من صفات عبدالوهاب في أى وقت معارضة السلطة.. ابتداء من عسكرى مرور إلى ملك بحجم ومودة وكرم الملك الحسن. وبطريقته التي حفظتها عن ظهر قلب رسم عبدالوهاب على وجهه قناع السعادة والامتثال، بينما هو يغطي شفتيه بيده اليسرى وهو يهمس بكلمات متتابعة في أذني متصورا أنني أسمعه، في الواقع لم يكن مأسمعه منه سوى تمتمة.. غمغمة.. لا أكثر . فقط أصبحت همساته في أذني مسموعة في اللحظة التالية حينما أشار الملك الحسن إلى فريد الأطرش قائلا : الآن.. تفضل يا أستاذ فريد.

وهمسات عبد الوهاب في أذني هي : ربنا «يثتر.. ربنا يثتر».

الكلمات واضحة، ربنا يستر، لكن مالم افهمه لحظتها هو : يستر على ماذا؟ على تكليف عبدالوهاب ملكيا ليغنى «دارت الأيام» بعد ٢٤ ساعة؟ أم.. ربنا يستر الآن على فريد الأطرش، وهو يغنى استجابة لرغبة ملكية ؟

حينما بدأ فريد الأطرش الغناء لم يبد عليه أنه جاهز بصوته فقط، بل وجاهز أيضا بأغنية قال إنه أعدها تكريما للملك الحسن شخصيا، بل وكان قد سلم لأحمد فؤاد حسن مسبقا النوتة الموسيقية الخاصة بها.

ومع انسجام الحضور الملكي من غناء فريد الأطرش نهض الملك الحسن متجها اليه مصافحا له.. قائلا : أحسنت ياأستاذ فريد.. مزيان مزيان..

بدا فريد الأطرش منتشيا بتلك اللفتة الرقيقة من الملك الحسن فرد قائلا : هذا كرم كبير منك ياجلالة الملك أعتر به.. وهذا يؤكد أن جلالتك حساس.. حساس جدا..

في تلك اللحظة بالضبط وقعت أربعة تطورات متلازمة. أولا : امتنع وجه الملك الحسن. ثانيا : انسحبت وجوه الأشخاص الثلاثة أو الأربعة الموجودين من حاشية الملك. ثالثا : ارتفعت اليد اليسرى لعبدالوهاب إلى شفتيه لكي تسترهما وهو يتمتم لنفسه بكلمات هامسة، في هذه المرة هي آيات من القرآن الكريم، رابعا : استدرت إلى عبدالحليم حافظ إلى يسارى مستفسرا فوجدته يشيح بوجهه عنى المتتبع لقوه أيضا - مائلا على أذن بليغ حمدي إلى يساره.

لحظات كما الدهر، وبينما يد فريد الأطرش لاتزال ممتدة في الهواء نحو الملك الحسن.. إذا بأسايرير الملك تنفجر بعد عبوس ويمد يده إلى فريد مصافحا وقائلا بشكل يبدو كريما: تفضل ياأستاذ فريد.. استرح.

وبينما فريد الأطرش يتجه إلى مقعده بدا عليه أنه أقل الحاضرين تنبها إلى لحظة التوتر المفاجئة التي خيمت بثقلها. وبقدر ما أسعفتني البديهة وقتها أدركت أن هناك لبسا خطيرا في الموقف كان حسن ادراك الملك ومودته هما فقط المفتاح إلى تجاوزه لما تبقى من هذا الاحتفال «العائلي» الضيق.

في صالون محمد عبدالوهاب بالفندق عرفت سر اللبس الخطير الذي جرى. فكلمة «حساس» في اللغة العربية لها المعنى البريء المعتاد الذي نعرفه وتقال غالبا في سياق مجاملة شخص رقيق المشاعر. لكن كلمة «حساس» نفسها معناها في اللهجة المغربية الدارجة مناقض تماما بما يجعلها أقرب إلى الإهانة. حساس بالعامية المغربية معناها: شاذ..

وطول الليل لم يسلم فريد الأطرش من لسان عبدالوهاب اللاذع. الله يخرب عقلك يا فريد.. سنين طويلة وانت مفهمنا انك أدري بالأمرء والملوك.. ده انت كنت هاتودينا كلنا في مصيبة.. تقول للراجل انه حساس؟ وكمان.. حساس جدا؟

وفريد الأطرش بكل الطيبة والتلقائية، أو ربما السذاجة، يأخذ كلمات عبدالوهاب بجدية كاملة قائلا: والله يااستاذ عبدالوهاب أنا لا أعرف مطلقا اللهجة المغربية، أنا أقولها من قلبي كفنان يقدر في الملك روح الفنان.

وعبدالوهاب يستفزه: فنان إيه يا فريد؟ انت خليت فيها فن وفنان؟ أنت خليتها خل.. ياعم من هنا ورايح أنا لاشفتك ولا أعرفك.. سامعة يانهلة (زوجته) أنت كمان من هنا ورايح فريد ده لا عرفناه، ولا شقناه..

وفريد الأطرش بكل جدية يدافع عن نفسه أمام عبدالوهاب ونهلة القدسي: والله يااستاذ عبدالوهاب أنا اصبحت مقتنعا بغلطتي.. طيب ساعدني أصلح غلطتي. أطلب مقابلة جلالة الملك اعتذر له.. وأشرح له جهلي وحسن نيتي؟

رد عبدالوهاب: لاتشرح ولا تعمل حاجة أبدا، جلالة الملك نفسه تجاوز الموقف بلباقته إدراكا لحسن نيتك. هذا والا.. كان زمانك دلوقتى أطرش فقط من غير فريد.. يا حفيظ.. يا حفيظ..

في الفجر فوجئت بدقات على باب غرفتي. فتحت الباب لكى أجد أمامي محمد عبدالوهاب. لم يبد عليه أنه ذاهب إلى مكان أو قادم من مكان، هو بالروب النبيذى فوق بيجاما داكنة وقادم لتوه

من جناحه بنفس الطابق في الفندق على مسافة أقل من خمسين مترا من حجرتي، الملامح في وجهه مشدودة والكلمات متقطعة وعيناه تجولان بأحاء الغرفة وتساؤله ميكانيكي: ايه.. كل دي جرائد ومجلات؟ اشتريتهم أمتي؟ مش اتفقنا أنك هنا في إجازة من الشغل والصحافة؟

لم آخذ تساؤلات عبدالوهاب بجدية، لكن مجيئه على هذا النحو هو الذي أخذته بجدية. في الأساس كان يستطيع أن يتصل بي من جناحه كما يفعل على مدار اليوم.. أو يدعوني للذهاب إليه، ثم إنه بالبيجاما والروب، ولا يبدو عليه أنه نام جيدا في الساعات القليلة التي مضت.

زائد انه لم يجلس إلى مقعد واستمر واقفا. في النهاية تحدث عبدالوهاب بكلمات شديدة القلق قائلا: بعد عودتك إلى مصر.. هل ستحكي لها؟

فاجأني السؤال فقلت له: أحكى.. لمن؟

- ثومة ياأخي.. أم كلثوم..

مرة أخرى لم أستوعب كلمات عبدالوهاب فسألته بانزعاج: ومادخل أم كلثوم فيما فعله فريد الأطرش؟

انفجرت أسارير عبد الوهاب بعض الشيء، وقال مفسرا: ياأخي أنا لا أقصد فريد الأطرش، أقصد طلب جلالة الملك مني لأغني «دارت الأيام» له بصوتى.. ألم تسمع بنفسك ماقاله الملك قبل ساعات؟

الآن فهمت نصف المشكلة، ففي علاقة أم كلثوم بكل الملحنين الكبار الذين تعاملت معهم كان هناك قانون غير مكتوب خلاصته أنه بمجرد أن تقبل هي أغنية من ملحن فهذا يعني في نفس اللحظة التزاما من الملحن بالأ يرددها بصوته في أي مكان. بالطبع كل الملحنين كانوا يعرفون ذلك ويقبلون به سعادة بأن أم كلثوم وحدها أصبحت من لحظتها فصاعدا هي المعبر - كلمات ولحنا - عن الأغنية أمام الناس.

لكن يبقى النصف الآخر من المشكلة، النصف الذي لم افهمه، هل يتخيل عبدالوهاب، ولو بنسبة واحد بالمائة - أن صداقتي بأم كلثوم تلزمني بأن احكي لها ماأراه أو أسمعته؟ ثم إن الملك الحسن هو الذي طلب، وعبدالوهاب استسلم.. أو حتى تجاوب، وموافقته كانت أمام عشرين فنانا وموسيقيًا على الأقل فلماذا يستبعد عبدالوهاب كل الآخرين.. ويستنقني أنا بالذات؟

استدرك عبدالوهاب قائلا: انت تضايقت؟ مفيش فايدة فيك.. ابني لكن مشاغب ياأخي.. ممكن عشرين واحد يقولوا الحكاية لأم كلثوم لكن لو انت بالذات حكيت لها، حاتصدقك.

لم استرح لتفسير عبدالوهاب بالمرّة، هكذا انتابني الصمت.. بينما هو يتجول بعينيّه للحظات في سقف الحجرة ثم في أركانها. بعدها سحبني من يدي قائلاً: تعال معاًيا نتمشى «ونقر» (ندردش) سوا.

- اتمشى ازاي وانا بالبيجاما؟ على الأقل ألبس قميصاً وينظّلونا.

أبدأ.. منطلق عبدالوهاب مختصر، نحن لن نغادر الفندق ولا حتى هذا الطابق.

فقط سنتمشى في المسافة بين جناحه وحجرتي إياباً وذهاباً استمراراً لبرنامج اليومى في المشى.

في الممر قلت لعبدالوهاب: على العموم ليس امامك سوى أحد خيارين، أن تغني «دارت الأيام» على العود بصوتك فينبسط الملك وتحاسبك أم كلثوم.. أو لاتغنيها فيحاسبك الملك وتنبسط أم كلثوم.

رد عبدالوهاب: حساب أم كلثوم يوجعني أكثر.

قلت له: اذن لم يعد سوى إنقاذ ما يمكن إنقاذه، يعنى بكل معزتك عند الملك الحسن ممكن تأخذ منه وعداً مسبقاً قبل الغناء بالألا يتسرب شريط التسجيل فيما بعد إلى الإذاعة المغربية مثلاً..

- أخ.. هو كمان ممكن يبقى فيه تسجيل؟

هكذا توقف عبد الوهاب عن المشى فجأة وكأننى ألقيت في أذنه بقنبلة. لم ينطق. لم يعلق. لم يتحرك. فقط قال لى: اسمع، ارجع أنت لمجلاتك وجرائدك وعلى الغداء نتكلم.. أنا وانت ونهله فقط.

لكن، فقط، هذه لم تتحقق لأسباب عملية. عبد الوهاب موجود في الفندق لأنه اعتذر عن عدم الذهاب إلى الغداء الرسمي الملكي، وحجته المقبولة مقدماً هي أنه يستعد للغداء الليلية أمام الملك. أنا مع عبدالوهاب وزوجته بناء على طلبه المسبق. عبد الحليم حافظ في مقر الإذاعة المغربية لعمل بروفات على أغنية أعدها للمناسبة. باقى الفنانين.. إما انهم في الغداء الرسمي الملكي بقصر الصخيرات مع ألف مدعو آخر من رجال السلك الدبلوماسي وكبار المدعوين.. أو انهم يتسوقون في محلات الرباط.

في مطعم الفندق جاء إلينا فريد الأطرش ووديع الصافي منضمين إلى مائدتنا وتوجه عبدالوهاب بمؤاله إلى فريد الأطرش: إيه يافريد.. معقول الغداء في الصخيرات انتهت؟

رد فريد: لاياستاذ عبدالوهاب.. في الواقع الغداء كان على وشك أن يبدأ حينما قررت أنا العودة إلى الفندق ومعى وديع. المدعوون كثيرون والوقت بدرى.. لكن هنا سأكل براحتي..

قاطعه وديع الصافي قائلا: أكمل يا فريد.. احكى للأستاذ عن الرصاص ..

عبد الوهاب ينزعج ويقاطع: رصاص؟ هو الغداء كان فيه رصاص؟

ابتسم فريد الأطرش بثقة وتأكد قائلا: أبدا يا أستاذ.. أصل وديع فاهم غلط.. مشكلته انه لا يعرف أى شىء عن طقوس احتفالات الأمراء والملوك.. الحكاية اننا بعد ما خرجنا من قصر الصخيرات سمعنا أصوات رصاص، وديع أخذ الحكاية بجد، لكن طبعا أنا شرحت له أن هذا لابد يكون جزءا من تقاليد الاحتفال، قل له: انت يا أستاذ عبد الوهاب. فهمه..

عند تلك النقطة سقطت الشوكة والسكين من يد عبد الوهاب، انت قلت ايه يا فريد؟ رصاص؟ إزاي؟ إمتى؟ فين؟ سمعت بأذنك؟ متأكد انه رصاص؟ إزاي؟ إمتى؟ فين؟ قلت لى انك متأكد أنه رصاص؟ وكمان رصاص حقيقى؟ إزاي؟ إمتى؟ فين؟

فى الدقائق التالية بدأت المفارقة تتضح قطعة قطعة. بالأمس كان فريد الأطرش فى قلب موقف جاد تحول إلى مزحة، الآن هناك مزحة تبين انها موقف جاد.

ذلك أن ما حدث يومها لم يكن بأقل من انقلاب بالقوة المسلحة استمر لعشرين ساعة تالية.. نجا منه الملك الحسن بأعجوبة. لكن الأعجوبة لم تكن بنفس القدر بالنسبة لعبد الوهاب.. ولا عبد الحليم.. ولا باقى الفنانين.



الأسلحة علينا .. والقتل عليك !



السؤال بسيط ومباشر: هل من حق شركة أن تتصل بى فى القاهرة لكى تعرض عليّ أحدث ما لديها من مسدسات وبنادق ورشاشات سريعة الطلقات وكواثم للصوت وأجهزة رؤية ليلية.. فضلا عن تشكيلة معتبرة من الأسلحة البيضاء؟ هل من حق الشركة أن تلح عليّ أيضا بمزايا كل سلاح ومدى دقته فى قتل «الهدف» والمسافات التى يصبح فيها هذا القتل مؤكداً أو نصف مؤكد؟

هل من واجب تلك الشركة، ولها فروع فى جانبى المحيط الأطلنطى، أن تبشرنى.. وأنا المواطن المصرى.. بأنها ستعطينى خصما خاصا فى السعر يصل إلى عشرة بالمائة إذا اشتريت السلاح فورا.. ترتفع إلى عشرين بالمائة إذا اشتريت السلاح مع ذخيرته.. ترتفع مرة أخرى إلى خمسين بالمائة إذا جنّث إليها بزبون جديد - مشتر جديد - غيرى أنا شخصا؟

حتى إن الشركة تعرض على تسهيلات فى الدفع، حيث التقيسيط ممكن فى بعض الحالات.. وتعرض أيضا هدايا مجانية إذا زادت قيمة السلاح - مسدس يدوى مثلا - عن ثلاثمائة دولار.. وتعرض جنسيات مختلفة من الأسلحة وليس فقط الإنتاج الأمريكى.. حيث تقوم هى أيضا بتسويق أسلحة من إنتاج بلجيكا وإيطاليا والنمسا والبرازيل وسويسرا.. وبالمرّة إسرائيل.

والشركة المذكورة مستعدة لشحن طلباتى على عنوان منزلى أو أى عنوان آخر أحده لها. كما أن كل سلاح مصحوب بضمان مسبق بأنه سيؤدى مهمته - وهى القتل - بكفاءة كاملة. أما إذا اكتشفت عيبا فى الصناعة.. كأن انحشرت رصاصة فى المسدس مثلا ولم تنطلق إلى «الهدف».. فإن الشركة مستعدة فورا لإعطائى مسدسا جديدا مجانا.. مع ذخيرته. أما إذا رغبت بعد فترة فى أن استبدل بالسلاح الذى اشتريته آخر أحدث أو أكفأ.. فإنها مستعدة لذلك أيضا بتسهيلات معتبرة فى الأسعار.

والشركة المذكورة (وهى تكرر لحالات أخرى حدثت معي) لا تعرفنى شخصا. وبالطبع لا يعنيه من أمرى شيئا.. سواء كنت صغير السن أو كبيره.. مصرى أو لبنانياً أو سعودياً أو ماليزياً أو موريتانيا.. عدوانيا أو مسالما أو بين بين.. يلزمنى السلاح للقتل أو لمجرد الفشخرة.. كل هذا

لا يهم. أنا بالنسبة لهم مجرد زيون محتمل - والزيون يلزم «إقناعه» - بل إغراؤه - بأن هذه السلعة لازمة له بشدة حتى ولو كانت نتيجتها قتل الآخرين.. أو ربما الرغبة في الانتحار.

هكذا وصلني بالبريد الجوي ذلك «الكتالوج» مرة بعد مرة. الصفحات ملونة، والطباعة فاخرة، والأسلحة تكاد تقفز من صورها على الورق لتصبح في حجرى! كل ما هو مطلوب هو أن أختار ما يعجبني من أسلحة.. وأحدد طريقة تسديد الثمن.. بالنقد أو بالشيكات أو ببطاقات الائتمان. بعدها ستتولى الشركة الباقي.. مع تنبيه خاص إلى أن الأسلحة المطلوبة سوف تصلني خلال فترة ما بين أربعة إلى ستة أسابيع، بافتراض أنه: «لا توجد موانع قانونية معمول بها لدى سلطات الجمارك في بلد المشتري» الذى هو.. أنا.

بالطبع، وحتى الآن على الأقل، لا يزال القانون في مصر يمنع حيازة الأسلحة إلا بترخيص مسبق. لكن المسألة على هذا النحو تثير بضعة أسئلة جوهرية. أولها وأهمها هو: كيف عرفت تلك الشركة - وشركات أخرى غيرها - عنوانى الخاص؟.. عنوان منزلى؟

جزء من الإجابة بدا سهلاً للوهلة الأولى. فمُنذ سنوات أتعامل بالبريد الجوي مع مؤسسات صحفية وثقافية عديدة فى أوروبا والولايات المتحدة. هناك مطبوعات عديدة أشتريها، ومطبوعات أخرى أجدد اشتراكى فيها سنوياً وبانتظام. كلها تبدأ وتنتهى بالكتب والمجلات والصحف والمطبوعات الدورية وغير الدورية. أحياناً كنت أتلقي «كتالوجات» ومطبوعات ترويجية لأشياء لم أطلبها. مطبوعات سياحية مثلاً.. أو نوادى جديدة للكتب.. أو مكتبات كبرى تعرض مساعدتى فى الحصول على كتب نفدت من الأسواق.. إلخ.

بعد قليل بدأت أتلقي مطبوعات ترويجية لم تخطر لى على بال. شراء أسهم وأوراق مالية مثلاً من خلال بورصة نيويورك. أو اليانصيب مثلاً. هذا يانصيب مستمر لخمسمة أشهر بجوائز تصل إلى ملايين الدولارات. والعرض هو: بدولارات قليلة تدفعها الآن يمكن أن يجعلك الحظ مليونيراً فى لحظة. والمشكلة هنا موجودة فى داخلى أنا نفسى. فمن قديم نشأت لدى حصانة تلقائية ضد كل ما يتعلق بالخطأ العشوائية أو اليانصيب أو القمار - واليانصيب أحد تفرعات القمار - بل إننى قضيت ذات مرة ٢٤ ساعة فى لاس فيجاس.. وهى المدينة الأمريكية التى أقيمت فى صحراء نييفادا الأمريكية لكى تصبح عاصمة للقمار وعنواناً له.. ليس فى الولايات المتحدة وحدها وإنما فى العالم كله. وفى لاس فيجاس، من لحظة وصولك الأولى، تحاصرك إغراءات القمار من كل جانب. الفنادق هى الأفخم مع أنها الأرخص. والعروض الغنائية الراقصة أكثر إبهاراً مع أن تذاكرها هى الأسهل. وفى صالات القمار داخل كل فندق تجد المأكولات والمشروبات مجاناً. فقط كل المطلوب من «الزيون» هو أن ينقطع عن العالم و.. يقامر. فطالما وصل إلى هنا بقدميه لابد من اعتصامه.

وخلال الأربع وعشرين ساعة التي قضيتها لم يعترضني أحد لأن عقلي من الأصل مغلق تماما أمام القمار وحواشيه وتنويعاته. فقط كانت دعوة من صديق مقيم في لوس أنجلوس المدينة القريبة من لاس فيجاس.. وحب استطلاع من جانبي لمشاهدة أجواء القمار هذه. والنتيجة: وجدت نفسي مشدودا تماما للاعبين وليس لألعابهم التي لم أستوعبها أصلا. ساعات وساعات أدركت خلالها أنني لو أقيمت بقنبلة بجوار لاعب قمار فإن عينيه ستظلان مشدودتين إلى ما يلعبه سعيا إلى الوهم الكبير الذي تعلق به. وهم أن تهبط عليه الثروة الطائلة في لحظة حظ. بالطبع هناك بعض من يحدث لهم ذلك. من هنا يبدأ «المرض». وهناك أيضا من تخرب بيوتهم. بل ومن ينتحرون فعلا.. ولا نعرف أسمائهم إلا في الصباح التالي أو الأسبوع التالي أو الشهر التالي.. إذا اهتم أحد أصلا بنشر قصصهم وأسمائهم.



بعد قليل بدأت أتلقي مطبوعات ترويجية أخرى من نوع مختلف: هل تريد الحصول على جنسية أخرى بجواز سفر إضافي؟ نحن نستطيع أن نحقق لك ذلك بأقل من خمسمائة دولار شاملة كل التكاليف بما فيها ثمن جواز السفر. فقط.. املا الاستمارات المرفقة، مع الصور الشخصية، وحدد لنا طريقة تسديد المبلغ المطلوب.. وخلال أسابيع يصبح في جيبك جواز سفر إضافي تسافر به حول العالم بغير أن تضطر إلى تسجيل تحركاتك الدولية في جواز سفرك الأصلي. إنها فرصة العمر أمامك. لا تضيعها.

تأملت الأوراق المعروضة أمامي سارحا بخيالي بحثا عن إجابة لسؤال: من هو «الزبون» المستهدف والمحتمل هنا؟ شخص ثري يريد أن يخفي سفرياته عن زوجته؟ هارب من الشرطة ويريد التسلل إلى الخارج بالرغم من منعه من السفر؟ باحث عن المغامرة وإن كانت بشكل مريب؟ أو سارق لأموال الناس والبنوك ويريد الاختفاء في دولة أخرى.. مجهولة؟

بالطبع كل هذه الشركات، الكفيلة بمثل تلك الإنجازات، لا بد أن تكون لها علاقة وثيقة بالجريمة المنظمة بشكل أو بآخر. لكن.. ماذا عن تلك الدول التي تجعل الحصول على جنسيتها وجواز سفرها يمثل هذه السهولة والعشوائية؟ نحن هنا لا نتكلم عن الولايات المتحدة أو ألمانيا أو سويسرا أو مصر أو السعودية أو اليابان أو أي دولة حقيقية لديها نظمها الصارمة الخاصة في صرف جوازات السفر لمواطنيها. نتكلم عن دول صغيرة مجهولة لها شكل ورموز الدولة بغير أن تملك إمكاناتها أو سلطاتها.. أو حتى إرادتها.

في «الأمم المتحدة» مثلا ١٩٩ دولة عضوا.. تشكل في مجموعها المجتمع الدولي الذي نعرفه. لكن من بينها نحو أربعين دولة سكانها أقل من مليون نسمة، وإمكاناتها في الحضيض، وسلطاتها الرسمية تعيش على الإعانات أو الصدقات أو.. الرشاوى.

فى هذا الشهر مثلا انضمت ثلاث دول جديدة إلى عضوية الأمم المتحدة.. كلها جزر فى المحيط الباسيفيكي ، ولم يسمع كثيرون بأسمائها من قبل. إنها - أولا - دولة «نويجا» يسكان عددهم ٩٨ ألفا ومساحة ٢٢٨ ميلا مربعا. ثانيا - دولة «كيريباتي» وسكانها ٨٢ ألفا متناثرون فى ٣١٦ ميلا مربعا من الجزر. أما الجزيرة - الدولة - الثالثة فهي «ناورو» التى هى مجرد جزيرة أخرى مساحتها ثمانية أميال مربعة وسكانها أحد عشر ألفا. يعنى.. لا يصل عدد سكانها إلى ثلث أعضاء نادى الجزيرة فى القاهرة أو ربع أعضاء نادى الصيد .. أو حتى عشر سكان شارع «السكة الجديدة» فى المنصورة !

بالطبع سمعنا من قبل عن دولة اسمها «ميكرونيزيا».. وهى أيضا تقع فى المحيط الباسيفيكي بمساحة ٢٧١ ميلا مربعا، وسكانها ثلاثون ألفا. والمرة الوحيدة التى سمع فيها القارئ العربى بوجود دولة بهذا الاسم كانت قبل سنوات قليلة بمناسبة قرار أصدرته الجمعية العامة للأمم المتحدة ضد إسرائيل. وفى حينها وافقت كل الدول الأعضاء على القرار ولم ترفضه سوى إسرائيل - بالطبع - ومعها الولايات المتحدة و.. ميكرونيزيا. فدولة مثل ميكرونيزيا سابقا أو تيمور الشرقية لاحقا (وهى نصف جزيرة صغيرة سكانها أقل من ٨٠٠ ألف، فى طريقها حاليا إلى الاستقلال عن أندونيسيا برغبة سامية من أصحاب المصلحة الكبار فى غابتنا الدولية ومحاميهم المستجد من نوع «كوفى أنان» السكرتير العام للأمم المتحدة) موجودة ومستمرة، أو مطلوبة لمصالح دولية أخرى .

والمشكلة فى هذا النوع من الدول هى أنها لا تملك أصلا مقومات البقاء والاستمرار كدولة. بالتالى تظل فى حاجة دائمة إلى صدقات الآخرين أو حمايتهم.. أو كليهما معا. وفى مثل هذا المحيط توجد وتترعرع أنواع خفية من المصالح والنشاطات.. من أول تأجير القواعد العسكرية برخص الفلوس، إلى بيع الصوت فى الأمم المتحدة بصندوق تفاح.. إلى بيع الجنسية وجوازات السفر للزبائن «العشوائيين» حول العالم بحفنة دولارات.

لكن ما استجد بعد مرات ومرات.. وفى القاهرة.. هو إغراءات بشراء أسلحة. والإغراء يصلنى فى منزلى. هنا يعود السؤال: من أين حصلت تلك الشركة الأمريكية على عنوان منزلى ؟

شغلنى الأمر قبل أن أدقق أكثر فى عروض الكتب والمطبوعات التى تصلنى بانتظام. مع كل عرض توجد بطاقة مطبوعة، ومظروف للرد ، جاهزان لإعادة الإرسال بعد أن أسجل أسماء وأرقام المطبوعات التى أريدها. فى ركن جانبى من إحدى البطاقات لاحظت سطرا يقول: هل لديك مانع من تلقى مطبوعات ترويجية وتنشيطية من شركات ومؤسسات أخرى ؟ ثم وجدت مربعين صغيرين، أحدهما تحت كلمة «نعم» ، والآخر تحت كلمة «لا» . المشكلة هى أن هذا السطر مطبوع بحروف صغيرة جدا لا تلفت الانتباه إلا إذا كان هناك حرص مسبق على التدقيق فى كل شيء .

إنن لابد أنها كانت غلطتى قبل أى طرف آخر.. فواضح أنه فاتننى التأشير على مربع «لا» فى واحدة أو أكثر من البطاقات السابقة. لكننى فعلت ذلك من قبل تحت تصور أن مؤسسات الثقافة والنشر لابد أنها تروج فقط لبعضها بعضا. وفى تلك الحال لا بأس من أن أتلقي المزيد من «الكتالوجات» والمطبوعات. هذا حدث فعلا حيث كنت أشتري كتابا من أمريكا مثلا فتصلنى بعده مطبوعات ترويجية من هولندا. أو أشتري مجلة مقرها لندن فتصلنى مطبوعات ترويجية من شركات مقرها الفلبين.. وهكذا.



لكن فى نهاية المطاف: ما هى علاقة المطبوعات الثقافية والصحفية.. بالأسلحة؟

هذا التساؤل الذاتى قادنى إلى تفاصيل أكثر. فمعظم الشركات، موضوع الحديث هنا، هى بذاتها.. أو على علاقة مع .. شركات دولية متعددة الجنسيات. هذه شركات وجدت أنها تستطيع أن تبيع المعلومات إلى بعضها بعضا. شركة للنشر مثلا تتراكم لديها سنة بعد سنة قوائم بزبائناتها حول العالم.. خصوصا إذا كانوا زبائن من النوع الدائم والمنظم ومضمونى التسديد. فى إحدى النقاط لا تجد هذه الشركة بأسا فى أن «تبيع» قوائم زبائناتها هؤلاء إلى شركة دولية أخرى لديها ما تريد تسويقه والترويج له باتساع العالم. تلك الشركة «الأخرى» سرعان ما تمطر الزبائن المحتملين هؤلاء بمطبوعات الترويجية الخاصة بها سعيا إلى كسب زبائن جدد. المشكلة الأساسية فى حالتنا هذه هى أن «الزبون» المقصود لم يستأذنه أحد بوضوح وصراحة فى تعميم بياناته الشخصية.. التى يمكن أن تكون مجرد عنوان إقامته.. أو تمتد إلى وظيفته .. وتليفونه المنزلى.. وبطاقته الائتمانية.. إلخ. بالطبع لا يزال الزبون المحتمل قادرا فى نهاية المطاف على تجاهل الموضوع برمته. فهو يستطيع الرد أو عدمه.. وبعد محاولتين أو ثلاث ستتوقف المطبوعات غير المرغوب فيها عن الوصول إليه. لكن.. ماذا لو أدى الإلحاح عليه إلى توليد رغبة فى داخله - لم تكن موجودة أصلا - فى شراء سلعة لم يفكر فيها؟ أو حتى الإقبال عليها من باب حب الاستطلاع؟ سلعة كأوراق اليانصيب فى بورصة مالية هو على غير دراية بها.. أو الحصول على مستند جديد يعطيه هوية اضافية فى شكل جواز سفر.. أو شراء تشكيلة «جذابة» من أسلحة يدوية وأوتوماتيكية كتلك التى تلقيت «كتالوجات» فخمة بصورها وإمكاناتها على عنوان منزلى بالقاهرة !



إن التراسل مع شخص على عنوان إقامته يظل مسألة شخصية بحثة لابد من استئذان صاحب الشأن فيها مسبقا بغير لف ولا دوران. وإذا كان البريد الجوى هو الوسيلة الحالية التى يجرى عادة اقتحام الآخرين من خلالها.. فقد تطور الأمر أخيرا إلى بريد إلكترونى أيضا من خلال الكمبيوتر والإنترنت وما إليهما مما يتيح التطور التكنولوجى الآن ومستقبلا.

فى الأصل ىرحب المرء بكل تطور. فالتكنولوجيا عمل إنسانى؁ وسلاح إضافى لتوسيع قدرات المرء الفعلية والعملية. لكن التكنولوجيا - مثل أى شىء آخر - سلاح ذو حدين. التكنولوجيا كسكين المطبخ.. مفيدة فى أعمال المنزل.. ومفيدة فى القتل أيضا. والمرء لن يكون أكثر أمانا بمنع تداول السكاكين. لكنه يصبح أكثر حكمة بتحريم وتجريم القتل. ومن باب أولى.. بمنع الأدوات التى لا وظيفة لها.. سوى القتل.

وفىما حكيمته من عروض تلقيتها عشوائيا أصبحت النقطة الجوهرية التى توقفت عندها هى: أن اقتحام خصوصية الآخرين بحجة أن التجارة شطارة.. أو أن من حق البائع أن يلح بتجارته؁ ومن حق الزبون أن يرفض.. هو قول شديد الخطورة.

ربما كان هذا هو ما دفعنى إلى متابعة أخبار جولات مكثفة من الاجتماعات الحكومية بين الولايات المتحدة من جانب وخمس عشرة دولة أوروبية من جانب آخر.. تشكل فى مجموعها دول «الاتحاد الأوروبي» وفكرة تلك الاجتماعات هى أن دول أوروبا تنوى إصدار قوانين صارمة تلزم الشركات الكبرى بعدم «بيع» أو «إعارة» أو إخطار الآخرين بما لديها من بيانات شخصية عن زبائننا إلا بعد حصولها على موافقة كتابية مسبقة ومحددة من كل زبون على حدة.

الولايات المتحدة ترفض هذا الإجراء بشدة.. قائلة إنه يكفى التوصل إلى «ميثاق شرف» فيما بين الشركات الدولية وبعضها البعض. وبالطبع «ميثاق الشرف» مهم؁ لكنه مجرد التزام معنوى لا يقترن بعقوبات صارمة ضد الشركة المخالفة. فى النهاية.. اتفق الجانبان - الأوروبي والأمريكى على طرح المشكلة على مستوى رؤساء الدول.. ببيل كلينتون من الجانب الأمريكى ورؤساء الحكومات فى خمس عشرة دولة أوروبية من جانب آخر.

عند هذا الحد أدركت أن تساؤلاتى الشخصية لها محل من الإعراب.. فى محيط دولى! وتساؤلاتى هذه اتسعت لكى تمتد من الحق فى الخصوصية إلى تلك المعضلة التى حيرتنى دائما.. معضلة: لماذا المجتمع الأمريكى بالذات هو الأسبق تكنولوجيا.. وفى الوقت نفسه هو الأكثر تفسخا اجتماعيا؟ لماذا المجتمع الأمريكى هو الأكثر ترحيبا بانتشار الأسلحة الشخصية.. والأكثر معاناة من انتشار الجريمة.. والأكثر انحرافا فى محيط الصبية والأحداث.. إلى درجة أنه صدر أخيرا قانون فى العاصمة الأمريكية «واشنطن» يمنع الشباب تحت سن السادسة عشرة من التجول خارج بيوتهم بعد الساعة الحادية عشرة مساء ويعاقب الوالدان أيضا فى حالة القبض على ابنهم فى الشارع بعد الموعد المحدد؟!

الإجابة تطول.. ولها حديث آخر.

عبدال .. اللغة الرابعة !



السلاح لا يقتل. لكن الشخص حامل السلاح هو الذى يقتل. وفى معظم الحالات لا يتحول الشخص إلى قاتل فجأة.. فلا بد أن توجد فى داخله أولا حالة ذهنية سابقة تسمح بالعنف، أو العنف إلى درجة القتل. تلك الحالة، ومدى كثافتها، هى التى يؤدى انتشارها إلى التفرقة بين مجتمع وآخر.. وثقافة وأخرى.. وتربية أسرية وتنشئة اجتماعية وأخرى .

فى الحياة اليومية يتشاجر الناس مع بعضهم البعض بين وقت وآخر. لكن احتمال أن ينتهى الشجار إلى قتل أو الشروع فيه.. هو احتمال إذا وجدناه فى مصر مثلاً قابلاً للتحقق مرة.. ففى أمريكا نجده قابلاً للتحقق عشرين مرة. (هذه المعادلة تتغير فى مصر الآن إلى الأسوأ، لكن تلك قصة أخرى).

هناك سببان عريضان لذلك. ثانيهما هو مدى توافر الأسلحة القاتلة. أما أولهما فهو مدى الاستعداد المسبق للعنف. هذا يدخلنا فوراً إلى مناقشة طبيعة الثقافة السائدة.

وأحدث هنا عن الثقافة بمعناها العريض الذى يتشكل من حصيلة أسلوب الحياة والتفكير. إنها العادات والتقاليد والسلوك بقدر ما هى أيضاً الموسيقى والفن والأدب. الثقافة السائدة فى مجتمعنا مثلاً ليست فقط طه حسين وعباس العقاد وزكى نجيب محمود وأم كلثوم وعبدالحليم حافظ ورياض السنباطى وبلخ حمدي ومحمد عبدالوهاب وفاتن حمامة وسعاد حسنى. إنها أيضاً محمود شكوكو ونجيب الريحاني وكرة القدم والأهلى والزمالك وعمرو دياب ومحمد هنيدي. إنها أيضاً ما نأكله وما نقبل عليه بقدر ما هى ما نقرأه. إنها الفول والطعمية والعدس والعرقسوس والتمر هندي وجحا وألف ليلة وليلة.. بأكثر مما هى الهامبورجر وكنتاكي وبيتزا وكوكاكولا وحامل المسدس من فوق حصان جامح.

وهى أيضاً نوع المعايير السائدة للصواب والخطأ. المسموح والمنوع. الصلاح والفساد. الحوار والعنف.

فى مدارسنا لم نكن مثاليين. ولا كنا ملائكة. ولا حتى مقسمين بالتساوى بين أخيار وأشرار. الفرد الواحد منا كان فى داخله مزيج من كل هذا.. معاً. والصبى الواحد بيننا كانت تراوده بين

وقت وآخر فكرة الخشونة والعنف مع زملائه.. خصوصا إذا خرج لتوه من مشاهدة أحد أنواع أفلام رعاة البقر الأمريكية.. حيث «الشجيع».. يشعل عود الثقاب من حذائه ويعلق في وسطه حزاما من الرصاص والسدس. أحيانا مسدسين .

بالطبع لم يكن في متاجرنا مسدسات للبيع. ولا كان في مصروفنا ما يسمح أصلا بالشراء. لكن الميل إلى التقليد يظل طبيعيا تماما في تلك السنوات المبكرة من الصبا والمراهقة. كثيرا ما كنا نتشاجر كطلبة في فصل واحد أو مدرسة واحدة. ربما بسبب كرة القدم. أو المقارنة بين فريد شوقي وفيلم الشجيع «زورو» أو حتى التحيز لصوت فريد الأطرش مقابل محمد فوزي. أو لجرد أن صبيا واحدا من بيننا هيئ له أنه الفتوة .

الشجار وارد. ربما في «الفسحة» بفناء المدرسة.. أو بعد الخروج من المدرسة. بالطبع هناك لكلمات ولكلمات مضادة. أحيانا هناك كدمات وإصابات خفيفة. ثم يقع شيء نادر. يحدث مثلا أن نفاعاً في أحد الشجارات بأن أحدنا أخرج من حقيبته مطواة.. هنا بالضبط تقوم القيامة.

أولا - نكتشف أن الأهل كانوا يتابعون من بعيد شجاراتنا الصبانية خصوصا إذا بدت آثارها واضحة في الوجه أو الملابس. ونظل نحن متصورين أن شجاراتنا هي أسرار صغيرة بيننا لا يعرفها أحد. أما حينما تظهر المطواة بيننا فإن الأوضاع كلها تنقلب رأسا على عقب بما يجعل حياتنا جميعا هي الجحيم ذاته لفترة طويلة تالية. إذا ظهرت المطواة في مشاجرة مدرسية فالقرار فوري: استدعاء ولي أمر الطالب المذكور لمقابلة ناظر المدرسة ذات نفسه مع وقف التلميذ الصبي عن الدراسة أسبوعا أو أكثر وإعلان هذا كله - مع إنذار بالفصل - على الطلبة جميعا من ميكروفون المدرسة في الصباح التالي. أما إذا كانت المشاجرة خارج المدرسة فإن خبر المطواة ينتقل إلى آباء وأمهات الطلبة جميعا.. بل إلى الشارع كله. هناك مداولات ومشاورات ومعاتبات وإدانات. تلك كانت أول فكرة عرفناها في صبانا المبكر عن «مجلس الأمن» و «الأمم المتحدة».

في شارعنا تقرر «الأمم المتحدة» أن هناك وباء طارئا يجب محاصرته ومقاومته. هناك مطواة تسللت خلسة إلى حياة «العيال».. الذين هم حضراتنا. وبغير قرار واضح تنشأ حالة مقاطعة للعنصر «الديسية» حامل المطواة.. وهناك أيضا تفتيش مفاجئ لحقائبنا المدرسية.. في البيت وفي المدرسة. وهناك مزيد من التقصص عن أفعالنا اليومية. وهناك كذلك رغبة في فك حالة «النفور الجماعي» ضد «العنصر الديسية» بيننا. حالة احتواء. لماذا يا بني؟ لماذا المطواة؟ ضربك أحد، اضربه. لكلمة، الكلمة. لكن لا تستخدم سلاحا أبدا. أنت تلميذ.. أم «صايح»؟

فيما بعد كبرنا وفهمنا سر حالات الطوارئ النادرة تلك. فالعنف ليس سيئا في حد ذاته فقط. لكن الأكثر سوءا هو الاعتياد عليه. إذا جرى تحمل وجود مطواة واحدة بين مراهقين يوم السبت

فسوف تصبح عشرين مطواة قبل يوم الخميس. وإذا اعتاد مراهق على سلاح في يده - أيا كان هذا السلاح - فإنه في نفس اللحظة سوف يعتاد فكرة أن لديه قوة استثنائية لا يمتلكها آخرون. لقد أصبح قادرا على الأذى بغير أن يتعرض هو نفسه للأذى. لكن بعد قليل يريد الآخرون حماية أنفسهم من الأذى.. والنتيجة: مستوى أعلى وأكثر خطورة - من العنف.



ولأن الحياة تلف بنا والوعى ينمو في داخلنا والتجارب تتراكم فى عقولنا.. فقد ذهلت ذات سنة حينما عشت فى مدينة «لوس أنجلوس». هذه مدينة كبرى فى الغرب الأمريكى تقع على ساحل المحيط الباسيفيكي. ولأن الحد الأقصى لارتفاعات المباني محدد قانونا بسبب وجود المدينة فى منطقة زلازل دورية، فقد أصبحت المدينة ممتدة أفقيا.. بما يجعلها من حيث المساحة تكاد تعادل المسافة بين القاهرة وطنطا.. أو بين المنصورة وبورسعيد. ويكفى أن نعرف أن «هوليوود» عاصمة السينما الأمريكية والعالمية هى مجرد جزء من لوس أنجلوس.. و«بيفرلى هيلز» هو أرقى أحيائها لأنه المكان المفضل لإقامة نجوم السينما وكبار الأثرياء.

فى «بيفرلى هيلز» كنت أقيم .. بغير أن أكون نجم سينما أو مليونيرا. فقط كنت مدعوا لفترة طويلة من أصدقاء، والفيللا التى أقيم فيها تضم اثنين دائمين من الخدم من الفلبين بخلاف غير الدائمين. الأهم من هذا هو الحراسة المسلحة المحيطة بالفيللا.. وكل الفيللات المجاورة.. حراسة قطاع خاص يحمل أفرادها مسدسات دائما وأحيانا بنادق سريعة الطلقات.

لكن: الحراسات والأسلحة لحماية من.. وضد من وماذا؟ إنها بالضبط لحماية هؤلاء النجوم والأثرياء لأنهم يعيشون كجزيرة وسط فقر مدقع. إنها بيئة طبيعية لنمو العنف.. والعنف المسلح تحديدا.. لكن هذا ليس كل شىء.

فى الولايات المتحدة على وجه الخصوص توجد أعلى معدلات الجريمة فى العالم.. وبالذات الجريمة التى تستخدم فيها أسلحة نارية. وإذا كان تعداد الشعب الأمريكى حاليا مائتين وخمسين مليوناً فإن عدد قطع السلاح المنتشرة بين أفرادها تجاوز مائتى مليون. بالطبع هذا لا يعنى أن نأخذ بالتوسط ونقول ان كل مواطن أمريكى بالضرورة يحمل مسدسا أو بندقية.. فقد يعيش المرء وسط مائة مواطن أمريكى لا يملك أحدهم سلاحا على الإطلاق ولا يعرف حتى طريقة استخدامه. لكن الأرقام تعنى أنك قد تجد فى بيت واحد خمس قطع سلاح أو عشرة.. ومرة أخرى.. هذا لا يعنى أن حائزى تلك الأسلحة هم قتلة بطبيعتهم أو لديهم أصلا استعداد للقتل.. لأن النسبة الكبرى منهم تحوز السلاح كضمان إضافى لحماية أنفسهم. فإذا عرفنا أن نحو أربعين ألف مواطن أمريكى يموتون سنويا قتلًا بأسلحة نارية.. نكتشف إذن أن السلاح فى نهاية المطاف لا يحمى. لكن انتشاره يصبح فى حد ذاته سببا إضافيا للمزيد من العنف.

والسبب الأول في ذلك هو السهولة الكاملة في الحصول على الأسلحة النارية في المجتمع الأمريكي. لقد ذهبت ذات يوم في صحبة صديق أمريكي في «لوس أنجلوس» إلى غداء محدد سلفاً.

وفي الطريق أوقف سيارته أمام «سوبر ماركت» ونزلنا معا لكي اكتشف بعد لحظات أنه يتفرج داخل المحل الكبير على أحدث أنواع الأسلحة النارية ويستبدل بمسدسه مسدساً أحدث، مسدداً فارق السعر للبائع بمثل السهولة التي اعتدنا بها في مجتمعنا على الدخول إلى محل بقالة لشراء جبن أو زيتون.

في التاريخ الأمريكي جذور لتلك الظاهرة. لكن أهمها على الإطلاق هو شركات السلاح. فلأن تلك الشركات المنتجة تحقق أرباحاً فلكية من بيع الأسلحة.. فقد شكلت فيما بينها منظمة تسمى «الرابطة الوطنية للبنادق» وجاءوا بممثل سينمائي مشهور ليرأسها كواجهة، وتقيم سنوياً معارض للترويج قانونياً لأحدث منتجاتها، مستهدفة المراهقين والشباب على وجه الخصوص.

وكما تابعنا مؤخراً يحدث بين وقت وآخر أن تقع جريمة مروعة يهتز لها ضمير المجتمع الأمريكي.. كأن يقوم طالب أو طالبان معا في مدرسة ثانوى بقتل عشرة أو عشرين من زملائهما وزميلاتهما داخل المدرسة.. وباستخدام الأسلحة الأوتوماتيكية.. ويفعلان ذلك ضاحكين مع بعضهما البعض كما لو أن الأمر مجرد تسلية أخرى.. ثم في النهاية ينتحran بنفس الأسلحة. اللافت هنا أن التلميذين المراهقين «بييض»، وليسوا «سود» ومن عائلات ثرية وليست فقيرة، ومن زبائن شبكة «الإنترنت» وليسوا من «صياغ» الشوارع ولكن الأبوين في كل حالة مواطنان صالحان ورعان.

هذا في حد ذاته يقلب المفاهيم النمطية السائدة عن أن الفقر هو منشأ الجريمة أو أن «السقوط الاجتماعي» هو فقط البؤرة الممكنة للعنف والجريمة.

هنا فقط تنقلب الدنيا ويثور الرأي العام وتكتب الصحف. بل ويخرج الرئيس الأمريكي نفسه لكي يدين هذا العنف مبشراً الرأي العام الأمريكي بأنه الآن - والآن فقط - سوف يتصرف من خلال السعى إلى استصدار قوانين واعتماد مبالغ لمحاربة العنف. تشريعات من نوع تحريم بيع السلاح لأصحاب السوابق.. وأموال لتوفير أجهزة الكشف عن الأسلحة عند باب كل مدرسة من النوع السائد في مطارات العالم.. أو رفع سن الشخص المسموح له بشراء السلاح إلى ١٨ سنة.. إلخ.

لكن.. ماذا عن الحل المنطقي بمنع وتحريم بيع الأسلحة للأفراد من الأساس؟ أبداً. كله إلا هذا. لماذا؟ لأن الدستور يسمح.. ولأن من حق المواطن أن يحمي نفسه.. ولأن كل مواطن مسئول عن أفعاله.. ولأنه ليس من مهام الحكومة أن تحمي الأفراد من بعضهم البعض. كل واحد خلاصه في رأسه. كلام جميل يصلح للأغاني. لكن الحجة الباترة في كل مرة هي بالضبط الحجة غير المعلنة.

فشركات صناعة السلاح أموالها ضخمة وبتلك الأموال تشتري ذمم ما يكفى من أعضاء الكونجرس الأمريكى - البرلمان - للتصويت ضد أية قيود لا تعجب شركات الأسلحة. بالضبط كما فعلت شركات صناعة السجائر من قبل حينما فرضت ستارا من الكتمان على التقارير الطبية الموثقة بأن التدخين مسبب للسرطان، وسايرها فى ذلك الكونجرس الأمريكى طوال أربعين سنة. وفى نهاية المطاف جرى فرض غرامات ضدها.. ولكن فى مقابل أن تطلق الحكومة الأمريكية أيديها - أى أيدي شركات السجائر - فى دول العالم الثالث. فقط على الحكومة الأمريكية أن تضمن لشركات السجائر الأمريكية حصّة معتبرة فى أسواق الدول النامية تحت عنوان «ضرورة فتح الأبواب للتجارة الحرة» هكذا.. بكل بساطة.

وفى انتخابات الرئاسة الأمريكية الحالية ضغط الناس على أحد المرشحين البارزين لكى يتبنى فى برنامجهِ فكرة إصدار تشريع بمنع بيع وحيازة الأسلحة، فكان رده هو: إننى لم أسمع أبداً عن قانون يرغم الناس على أن يحيوا بعضهم بعضاً.

كلام جميل. ولا ليلى مراد مع أنور وجدى. والمرشح الأمريكى للرئاسة نفسه يعرف ذلك. إنما المشكلة كلها أن المرشح المذكور - وربما نجده الرئيس القادم للولايات المتحدة - «قلبه محتار.. بين صاحبه وخطيبته» استعارة من الأغنية الشهيرة فى فيلم لـ «محمد عبدالوهاب».

جمهور الناخبين صاحبه. لكن شركات السلاح خطيبته لأن مساهماتها المالية فى حملته الانتخابية مضمونة ومؤكدة. الخلاصة إذن هى: الفلوس، هى التى تقرر القانون.. وليس القانون هو الذى يقرر الفلوس.



مع ذلك يظل توافر الأسلحة مجرد جانب واحد من الصورة. أما الصورة الشاملة فهى مكان ومكانة العنف فى الثقافة السائدة. هذا يعيدنا إلى لوس أنجلوس وهوليوود.. حيث يتزايد مؤخراً الشعور العام - داخل أمريكا - بأن أفلام هوليوود السينمائية هى سبب رئيسى فى انتشار العنف.. ليس فى أمريكا وحدها.. وإنما حول العالم.

فى بريطانيا مثلاً - وهى على الجانب الآخر من المحيط الأطلنطى يستمتع السياسيون فيها بفكرة العمل خدماً لأمريكا - صق الإنجليز عن بكرة أبيهم حينما روعتهم جريمة قتل ارتكبتها صبيان فى الثانية عشرة والثالثة عشرة من العمر. صبيان انتهزوا فرصة انشغال مواطنة بمشترياتها داخل «سوبر ماركت» كبير فاستدراجاً طفلها، وعمره لا يتجاوز الثامنة، لكى يصحباه معها إلى أن أصبحوا فى شارع مهجور فأخرجوا سكيناً وذبّحاه.

لقد انقلب المجتمع الإنجليزى رأساً على عقب من تلك الجريمة المروعة وأصبح السؤال المحورى هو: كيف ومتى انزعت فكرة القتل بالسكين داخل عقل صبيين فى تلك السن المبكرة؟ والإجابة:

أفلام الفيديو. أو بكلمات أدق.. أفلام سينمائية شاهدها منزليا في الفيديو. وعلى الفور عقد رئيس وزراء بريطانيا - جون ميچور وقتها - اجتماعا طارئا بمندوبي كل شركات الإنتاج السينمائي والتلفزيوني لكي يهددهم باستصدار قوانين صارمة ضدهم إذا لم يتورعوا عن نشر العنف في أفلامهم.

هذا وإلا: «هل تريدون أن يصبح انتشار الجريمة عندنا كما المجتمع الأمريكي؟» هكذا صاح فيهم رئيس الوزراء غاضبا.

وليس بالضرورة أن يشاهد المرء جريمة قتل في فيلم سينمائي، أو عشرين، فيخرج بعدها ليفكر في القتل. لكن الفكرة الجوهرية هي أن الاعتياد على مشاهدة العنف هي أقصر الطرق لممارسته. تماما كما يصاحب المرء جماعة تتسم في سلوكها وألفاظها بالخشونة والسوقية. بعد فترة سيفاجأ هو نفسه بأن قاموسه الخاص تسلل إليه قدر من الخشونة والسوقية.. خصوصا إذا كان في سن لا تسمح له - بعد - بفرض الطيب من الخبيث.. أو في أسرة ترك فيها الأبوان الحبل على الغارب لأبنائهما وبناتهما. بل إن نفس الابن الذي يحصل من أبويه على مصروف استثنائي يتجاوز كثيرا ما يحصل عليه زملاؤه وأقرانه في المدرسة.. لن يدرك إلا في سن متأخرة أنه أصبح أكثر قابلية للفساد والعنف.. وأكثر اعتمادا على قدرات لم يحققها هو بجهد وإمكاناته.

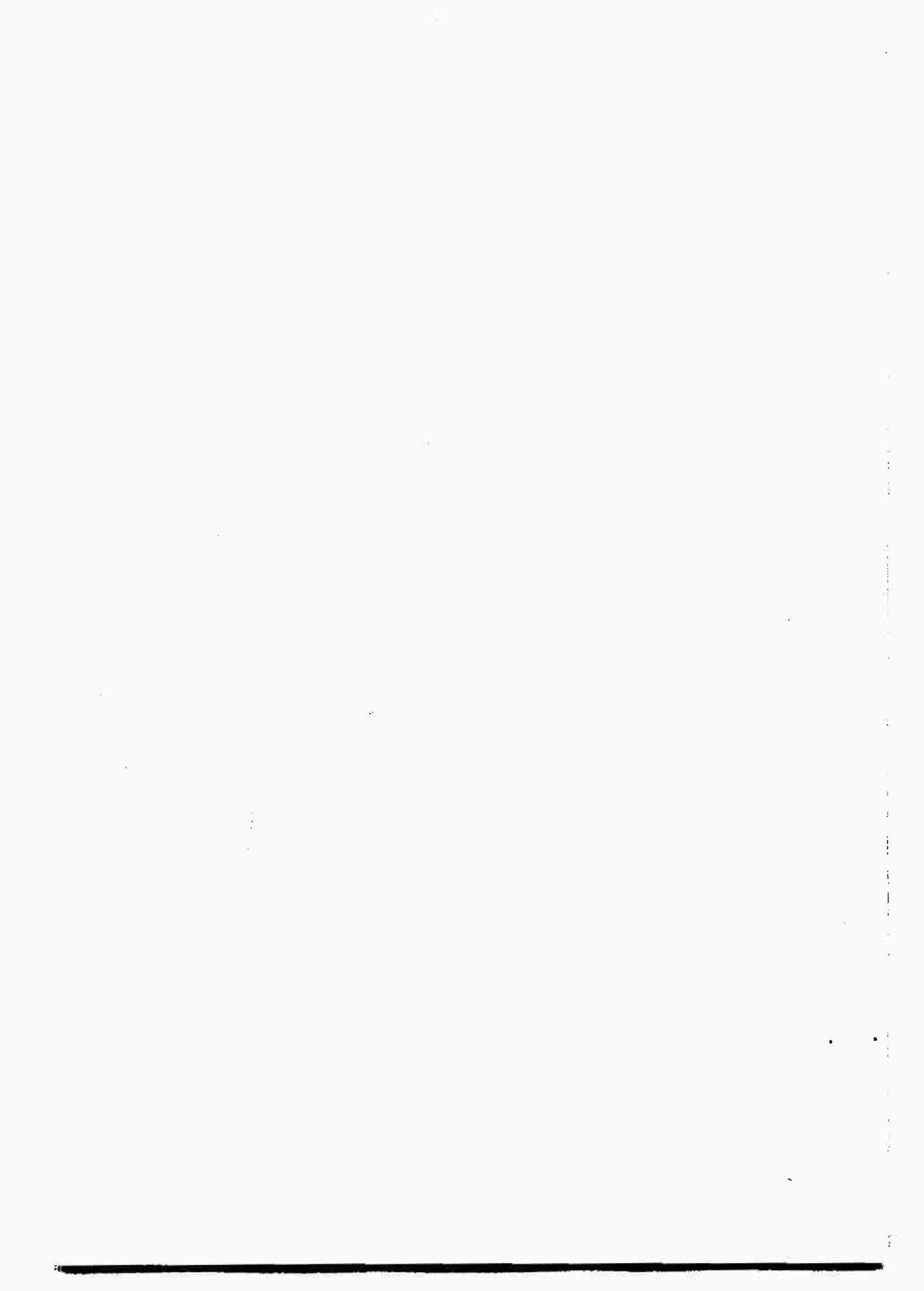
وفي مدينة جنيف بسويسرا حكى لي مؤخرا صديق عزيز من أصل مصري حكاية ملفتة. إنه أكثر من مليونير وأصبح سويسري الجنسية وقيم في قصر واسع ولديه بدل السيارة الواحدة أربع بعد حياة حافلة بدأ فيها من الصفر. وذات يوم لم يلحق ابنه - الصبي ذو الثانية عشرة - بأوتوبيس المدرسة فاستخدم سيارة أبيه المرسيدس آخر موديل طالبا من السائق الخاص الذهاب به إلى المدرسة بسرعة. وفي الصباح التالي فوجيء الأب صاحبنا باستدعاء تليفوني له من ناظرة المدرسة وإصرار على أن يحضر أولا إلى المدرسة بنفسه لكي تخطره هي بسبب استدعائه.

وترك صاحبنا اجتماع مجلس إدارة الشركة التي يرأسها ذاهبا إلى الناظرة التي قالت له بكل صرامة: مسيو.. كثيرون من أولياء أمور التلاميذ في هذه المدرسة أثرياء.. وربما أكثر منك ثراء. وأنت نفسك تبرعت لهذه المدرسة من قبل بمبالغ طائلة من الفرنكات شكرناك عليها في كل مرة. لكننا في هذه المدرسة لا نعطي للتلاميذ تعليما فقط. نعطيهم أيضا سلوكا رشيدا وشخصيات قادرة على التميز في الحياة مستقبلا بجهدهم وإحساسهم الذاتي بالمسؤولية والاعتماد على النفس. ومجيء ابنك بغير أوتوبيس المدرسة يقوض جزءا من نظام الدراسة.. أكتفى في هذه المرة بلفت نظرك إلى خطورته. ابنك تأخر عن أوتوبيس المدرسة؟ ليكن. إذن عليه أن يجيء بالمواصلات العامة من مصروفه الخاص.. أو حتى يأتي سيرا على الأقدام ويتحمل نتيجة خطأه.. والآن.. دعني أهديك

نسخة أخرى من كتالوج بصور وسيرة بعض البارزين الذين تعلموا في هذه المدرسة ونتابعهم في حياتهم العملية بكل اعتزاز. كلهم ناجحون وبارزون وبعضهم - حتى الآن - يجيء إلى المدرسة بين وقت وآخر ليقول: شكرا.

بينما صديقي يحكى لى الحكاية دخل علينا المذكور : ابنه. صبي الثانية عشرة القادم لتوه من مباراة فى التنس نظمتها المدرسة فى يوم العطلة هذا - السبت - وهو سعيد لأنه خرج من المباراة فائزا ومتفوقا. أما الإضافة الأكثر أهمية فهى أنه يتعلم فى المدرسة ثلاث لغات.. والآن يريد منى أن أتحدث معه بالعربية.. ليس فقط لأن أباه مصرى الأصل.. ولكن لأن الصبى يريد أيضا أن يتقن لغة رابعة.. يصبح بها أكثر تميزا عن أقرانه.





موسيقى عذبة .. للنصب على نغماتها !



فى نفوسنا جميعا حافز للقول بأننا لانفعل مانفعله إلا تعبيراً عن رسالة سامية. والأمر يحتاج بعد ذلك إلى ملاطمة الواقع كثيراً حتى نقتنع بأنه بدلا من إصلاح الكون.. فإن من الأجدى أن نبدأ أولا بإصلاح نصف المتر الذى نقف عليه من الكون.

لكن الأمر يختلف تماما مع الدول العظمى. فادعاء حمل الرسالة هنا يكون مصحوبا بدبابات وصواريخ وطائرات تتولى عند الضرورة مهمة «الاقناع» بتقبل تلك «الرسالة السامية» التى تبشر بها الدولة العظمى الآخرين. فالولايات المتحدة مثلا، تقوم بين وقت وآخر، وعن طيب خاطر، بتكليف مشاة البحرية لديها بالذهاب إلى هذه الدولة أو تلك فى أمريكا اللاتينية بهدف «إقناع» أولى الشأن فيها بأن ماتراه امريكا لهم هو أفضل مما يرونه هم لأنفسهم !

روسيا هى الأخرى، قبل أن تتنكر تحت اسم الاتحاد السوفيتى، رأت فى عشرينيات القرن التاسع عشر أن من مهامها الكبرى فى هذه الدنيا أن تحمل هم الشعب المصرى. وهكذا كتب القيصر الروسى إلى والى مصر - محمد على وقتها - يحثه على التدخل بقوة بين الزوج وزوجته داخل الشعب المصرى حتى لايتناسلا بكثرة. لأن فى مثل هذا التناسل خطورة على الإنسانية، ومن ثم خطورة على سياسات القيصر الروسى فى عاصمته بطرسبورج. يعنى.. روسيا، التى تفصلها عن مصر بحار وقارات ومسافات، مهتمة بحماية صحة الشعب المصرى، وتعداده وقتها أقل من خمسة ملايين، ولذلك فهى تحثه على تنظيم النسل !

وهوموم مثل تلك «الرسالة السامية» تدفع الدولة الكبرى بين وقت وآخر إلى خوض الحرب.. ابتغاء مرضاة الله وثواب الآخرة. وفى نهاية المطاف تسفر كل حرب تشنها دولة كبرى عن شيء آخر مختلف تماما عما بدأت به. بريطانيا العظمى مثلا.. ذهبت فى ثلاثينيات القرن التاسع عشر تدق الصين بطلقات بوارجها المسلحة حتى «تقنع» شعبها بالانضمام إلى الحياة المتحضرة، لكى تسفر الحرب فى النهاية عن معاهدات فرضت بها بريطانيا على الصين ان تسمح للتجار الانجليز ببيع الأفيون جهارا نهارا لأفراد الشعب الصينى .

والحرب الفرنسية البروسية في سنة ١٨٧٠ ، كان ظاهرها الذي بدأت به هو النزاع على العرش الأسباني. أما السبب الخفي فكان مقاومة فرنسا لتوحيد ألمانيا. وفي المعاهدة التي فرضت على فرنسا شروط المنتصر نسي الجميع تماما أى شئ عن عرش أسبانيا. وفي سنة ١٨٩٨ شنت الولايات المتحدة الحرب على كوبا - وهى جزيرة صغيرة - بهدف معن هو تحرير الشعب الكوبى من الحكم الأسباني المتسلط الظالم. وانتهت الحرب طبعاً بخروج اسبانيا.. لكنها انتهت ايضا بوضع كوبا تحت الحماية الأمريكية.

ولأن الانتصارات العسكرية تشجع الدول الكبرى دائما على المزيد من «الرسالات السامية» فإن الولايات المتحدة سرعان ما قامت فى نفس السنة بضم الفيليبين إليها بالقوة المسلحة. لكن حتى لا يتفلسف أحد بالحديث عن مصالح أمريكية غير سامية ، خرج الرئيس الأمريكى «ويليام ماكينلى وقتها» ليقول فى خطاب علنى إن السيد المسيح طلب منه ، فى المنام ! ، أن يضم الفيليبين إلى ممتلكات أمريكا ، لأن من واجب أمريكا : «أن تعلم شعب الفيليبين ، وترفع من مستواه ، وتدخله فى الدين المسيحى ، وأن تجعله شعبا متحضرا ، وأن تفعل بهذا الشعب ماتشاء بفضل الله باعتبارهم إخوة لنا مات المسيح من أجلهم أيضا» .

وحيثما دخل نابليون بونابرت إلى الاسكندرية فى سن ١٧٩٨ قال فى منشوره إلى المصريين إنه لم يأت إلى بلادهم غازيا - حاشا لله ! ، ولكن لأنه أدرك فجأة مدى حبه للإسلام والمسلمين. وتأكيدا لذلك - افتتح ذلك المنشور بعبارة «بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله لا ولد له ولا شريك له فى ملكه» مقررًا أنه لم يجرى إلى مصر بقواته إلا ليخلص المصريين من أيدي الظالمين ، ثم «يأيتها المشايخ والقضاة والأئمة.. قولوا.. قولوا لأمتكم إن فرنساوية هم أيضا مسلمون مخلصون».

أما حينما ذهب فرنسا تحتل الجزائر فى سنة ١٨٣٠ فإنها استخدمت فى البداية حججا أكثر واقعية. لقد تحرك الأسطول والجيش الفرنسى إلى الجزائر غازيا لأن حاكم الجزائر تجرأ فى غضبه وخبط ذراع القنصل الفرنسى بمنشة فى يده.. وهى إهانة كبرى لاتغفرها فرنسا. وحينما ثار السؤال: لماذا لم ترد فرنسا الإهانة بمثلها.. بلكم الحاكم الجزائرى مثلا ردا على خبطة المنشة !؟ أصبح على فرنسا أن تعود إلى قاموس «الرسالات السامية» الذى تستخدمه الدول الكبرى.

فالحقيقة - وفرنسا تقسم بأنها لاتقول غير الحقيقة - ان فرنسا تحتل الجزائر عسكريا دفاعا عن مصلحة مشتركة تهم «العالم المتحضر» وبالتحديد: وضع حد لقرصنة التجار الجزائريين.

بمجرد أن تم لفرنسا احتلال الجزائر نسيت كل مايتعلق بالعالم المتحضر ، والقضاء على إرهاب وقرصنة التجار الجزائريين. لقد توسعت فى احتلالها لكى يمتد إلى تونس ومراكش (المغرب) ووصل بها الأمر إلى اعتبار الجزائر ذاتها إقليما فرنسيا له نواب فى البرلمان الفرنسى كاي مقاطعة

أخرى داخل فرنسا. بالطبع لم يتوقف أبدا كفاح الجزائر من أجل حريتها لكن هذا الكفاح لم يتحول إلى وجع حقيقي في قلب فرنسا إلا بعد أن قررت مصر، بعد ثورة يوليو ١٩٥٢، الوقوف بجانب الثورة الجزائرية. وحينما استقلت الجزائر فعلا في سنة ١٩٦٢ برئاسة أحمد بن بيللا كان هذا أولا بفضل أبنائها. وفي الوقت نفسه بسبب دعم مصر لثورتها.. وهو أمر حفظه الجزائريون للشعب المصري دائما ولجمال عبدالناصر تحديدا. فعبد الناصر لم يساعد الجزائر في استرداد حريتها فقط وإنما استرد الجزائر للعروبة وللإسلام، وكلاهما حاولت فرنسا القضاء عليه طوال ١٣٢ سنة.



لكن لنبق في موضوعنا الاساسي، موضوعنا هو الشعارات الجذابة التي ترفعها الدول الكبرى، أو «الموسيقى العذبة» التي يعزفها أقوياء الغابة الدولية للنصب على ضعفاء الغابة.. وأحيانا للنصب على بعضهم بعضا.

في سنة ١٩٣٣ مثلا وصل أدولف هتلر وحزبه النازي إلى السلطة في المانيا... وصل بوسائل ديمقراطية تماما وببرنامج لم يكن يخفيه. بل إنه في سنة ١٩٣٧ مثلا ألقى خطابا عاما في مدينة نورمبرج قال فيه «إذا أردت مهاجمة خصمي فإنني لن ألجأ إلى التفاوض واضاعة الوقت وقضاء عدة أشهر فيها لكنني أعمل ما عملت دائما: أخرج في جنح الظلام وأنقض عليه كالبرق الخاطف».

مع ذلك.. فحتى الانقراض في جنح الظلام يحتاج من الدول الكبرى إلى شعارات جذابة للتمويه. وهكذا، فبعد أن استولى هتلر على النمسا رفع شعارا جميلا جذابا هو «الدفاع عن الأقليات» في الدول الأخرى.. واضعا عينيه في هذه المرة على تشيكوسلوفاكيا. إن حجة هتلر المعلنة هي أن تشيكوسلوفاكيا - الدولة المستقلة - تقوم باضطهاد الأقلية الناطقة بالألمانية في شعبها.

لم يكن هذا صحيحا بالمرة.. فالدولة القائمة في تشيكوسلوفاكيا كانت تعامل الأقليات في شعبها بلا تمييز ولا تفرقة، وبأفضل من أي دولة أخرى وسط أوروبا. ثم إن تشيكوسلوفاكيا دولة ديمقراطية، وقوية، ولها حلفاء أقوياء مثل فرنسا وروسيا. مع ذلك.. فتحت شعار «مساعدة هتلر في الدفاع عن الأقليات» تخلى الحلفاء عن حليفهم، وفرضوا على تشيكوسلوفاكيا التخلي لألمانيا عن مقاطعاتها الحدودية ذات الأغلبية الناطقة بالألمانية.

هل يهدأ هتلر؟ أبدا. لقد شجعته التنازلات على طلب المزيد منها. وذهب إليه رؤساء حكومات بريطانيا وفرنسا وإيطاليا لاسترضائه. في هذه المرة يريدون منه أن يسجل طلباته كتابيا حتى لا يفاجئهم فيما بعد بطلبات أخرى. وفعل.. عملها هتلر. وقرأ رئيس وزراء بريطانيا مذكرة هتلر المكتوبة فأصابه الذهول. إن الاستجابة إلى هذه الطلبات معناها تفكيك تشيكوسلوفاكيا - أو ما تبقى منها - عمليا. أبدا أبدا.. أبدا هكذا أجاب هتلر قرناه.. مضيفا: دعكم من مضمون هذه المذكرة،

ركزوا فقط على عناونها والعنوان هو «السلام».. أنا رجل سلام والهدف من تلك الطلبات هو فقط تحقيق السلام.

وباسم السلام وافق المجتمعون على طلبات هتلر. وافقوا حتى بغير استشارة الدولة الضحية تشيكوسلوفاكيا ذاتها. إنها «معاهدة ميونيخ» الشهيرة في ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٣٨.

وعاد رئيس وزراء بريطانيا إلى بلاده مباشرة شعبه بأنه حقق «السلام في عصرنا» ومنع حربا قد يشنها هتلر في أوروبا. أما رئيس وزراء فرنسا فقد عاد بالطائرة إلى باريس ليجد الآلاف في انتظاره للترحيب به، باعتباره بطلا للسلام. وهمس رئيس الوزراء في أذن أقرب مساعديه متهمكا بقوله: آه لو يعرف هؤلاء البلهاء مضمون هذا «السلام» الذي يهتفون من أجله.

بعد قليل.. عرفوا. ففي شهر مارس سنة ١٩٣٩ قامت ألمانيا باحتلال ماتبقى من تشيكوسلوفاكيا. ولأن التنازلات تفتح الشهية إلى طلب المزيد والمزيد من التنازلات.. فقد أصبحت بولندا هي الضحية التالية لهتلر. وفي أول سبتمبر سنة ١٩٣٩ قامت ألمانيا بغزو بولندا. بعدها حاولت فرنسا التصدي لألمانيا فاحتلها هتلر. بعدها حاولت بريطانيا - بعدهما الولايات المتحدة ومن هؤلاء - زائد الاتحاد السوفيتي تشكلت مجموعة «الحلفاء»، ضد مجموعة «المحور» من ألمانيا وإيطاليا واليابان. لقد بدأت الحرب العالمية الثانية:



كانت الشعارات المطروحة هي أن الحرب تجرى دفاعا عن الديمقراطية. ومن أجل مواجهة الخطر المشترك اضطر ونستون تشرشل، الزعيم الجديد لبريطانيا، إلى ابتلاع كل عدائه السابق للاتحاد السوفيتي وماركسيته وزعيمه جوزيف ستالين.. مبررا ذلك بقوله: «إنني سأتحالف حتى مع الشيطان في سبيل مصلحة بلادي». هكذا أصبح الاتحاد السوفيتي جزءا أساسيا من مجموعة «الحلفاء». وبدأت الصحف الأمريكية تكتب غزلا في ستالين والاتحاد السوفيتي. نفس الاتحاد السوفيتي الذي ظلت الولايات المتحدة تعاديه، وترفض حتى الاعتراف به دبلوماسيا حتى سنة ١٩٣٣، الآن هو الحليف المخلص وتتدفق عليه الأموال والأسلحة الأمريكية بصفته الجديدة عضواً في التحالف من أجل الديمقراطية.



في الحرب العالمية الثانية كان تعرض بولندا للغزو الألماني هو السبب المباشر في اشتعالها اسميا.

مع ذلك فبقدم سنة ١٩٤٥ أصبح مؤكدا انتصار معسكر «الحلفاء» ضد معسكر «المحور». واختار المنتصرون تبشير العالم بنظام دولي جديد، أساسه العدل والحرية والديمقراطية، ورمزه هو منظمة

جديدة باسم «الأمم المتحدة». وهكذا شهدت مدينة سان فرانسيسكو الأمريكية في شهر ابريل ١٩٤٥ انعقاد المؤتمر التأسيسي للإعلان رسميا عن اقامة منظمة «الأمم المتحدة». والدول المدعوة للحضور هي بالطبع - التي خاضت الحرب ضد دول «المحور» أو كانت ضحية لها.

إنها نحو خمسين دولة (مصر كانت بينها). أما المفارقة الكبرى فهي أن بولندا - الدولة الضحية التي نشأت الحرب العالمية الثانية أصلا باسم الدفاع عنها - لم تحضر الاجتماع. والسبب أن المنتصرين الكبار لديهم مشاغل أكبر وأهم من تلك الجزئيات والفرعيات. أكبر مشاغلهم هي توزيع الغنائم في هذا النظام الدولي الجديد الذي قرروا إقامته. بكلمات أخرى: إعادة رسم الخريطة الدولية.

النظام الدولي الجديد عنوانه هو الديمقراطية والحرية والمساواة. إنها - مرة أخرى نفس «الموسيقى العذبة» التي يتم عزفها من جانب الأقوياء في آذان الضعفاء.. فيصيحون أكثر سلاسة في الانقياد.. وأكثر التزاما بالطاعة.



يدور الزمن. يتغير الواقع. يخرج الاتحاد السوفيتي من اللعبة بعد أن كان أحد شركاء «الانتصار» فيما مضى. لكن السياسة لاتعترف أبدا بما مضى. السياسة هي «الآن». وهي «المستقبل». ومن يريد المستقبل يبدأ من الآن. أما الحديث عن أمجاد عصر مضى، فهو موضوع المؤرخين.. وليس السياسيين. تكلمني عن أصلك وفصلك وأبيك وجدك؟ جميل، لكن، ماذا تساوي أنت؟ والآن؟ هل تعيش على حساب ماتركه لك الأب والجد.. أو أنك تصنع - بمجهودك الخاص رصيда جديدا يجعل الأب والجد فخورين بك في قبوريهما ١؟

في شهر مارس سنة ١٩٩١ وقف الرئيس الأمريكي جورج بوش وقتها - أمام اجتماع مشترك في واشنطن لمجلسي الكونجرس - البرلمان - الأمريكي. المناسبة هي «انتصار» الولايات المتحدة في حرب تحرير الكويت من غزو قام به حاكم العراق. هي أولا لم تكن حربا تخوضها الولايات المتحدة بمفردها، فقد حرصت - بدأب وحصافة - على أن تضم إليها، ولو بشكل رمزي، نحو ثلاثين دولة أخرى. هي ثانيا - كانت حملة تأديبية بأكثر مما كانت حربا. فلا العراق هو ألمانيا.. ولا الكويت تزرع خيارا وجزرا.

كانت حرب بترول.. لا أكثر ولا أقل. وهي في الأساس إعادة توزيع للحن قديم مستمر. في خطاب الرئيس الأمريكي أمام برلمانه، في مارس ١٩٩١، كان مألوف الحرص على تهنئة الذات، هذا طبيعي. وكلمات كبيرة رنانة. هذا طبيعي أيضا. والرئيس الأمريكي يقرأ خطابه من الورق فيصفق له الكونجرس مقاطعا، بحيث إن مدة الخطاب استغرقت ثلاثين دقيقة.. ربما عشر

دقائق منها كلمات من الرئيس الأمريكي وعشرون دقيقة تصفيق من الكونجرس. هذا طبيعي.. مرة
ثالثة إنما المهم، ولا يزال الرنين في أذني حتى الآن برغم مرور السنوات، هو تلك الكلمات التي
ارتجلها الرئيس الأمريكي قائلاً في هذا السياق «لقد هزمنا العدوان». تصفيق حاد.. و«الحرب
انتهت». تصفيق حاد.. و«الآن سنصنع السلام» وقوف وتصفيق حاد.

ثم: «لقد أثبتت التكنولوجيا الأمريكية تفوقها. عاصفة من التصفيق. إنها الأفضل في العالم
كله. وقوف وتصفيق وتلويح بالعلم الأمريكي. والآن أقول للأمريكيين: اقترضوا.. وانفقوا
وتوسعوا.. فأمریکا هي الأقوى والأفضل والقرن الأمريكي قادم أمامنا. وقوف وتصفيق وتلويح
بالعلم الأمريكي.

كل هذا مفهوم تماماً، في سياق رئيس يخاطب شعبه، إنما السؤال في نهاية المطاف هو: هم
ينتجون، ولديهم فائض يبيعونه للآخرين. ونحن مستهلكون، ولدينا نقص يجب أن نشترية من
الآخرين. وإذا استمرت المعادلة على هذا النحو فلا أحد يحتاج إلى احتلالنا.. نحن نصبح قابليين
للاحتلال فعلاً. والموسيقى التصويرية رقيقة وعذبة: باسم الحرية افتح سوقك، افتح تجارتك، افتح
جيبك الخ.

إنها حرية التجارة. وكل حديث عن الحرية يظل ممتعا، لأنها – من قبل ومن بعد – الحلم
الأكبر للإنسانية. وبذلك الصفة فلنبداً أولاً بالطرب من كلمة «الحرية» لأن أمامنا بعد ذلك مانفكر
فيه – ونفكر بجد – حينما ننتقل من «الموسيقى العذبة» إلى النصف الآخر من الجملة.



عوطوه ..
الله يرحمه !



حينما كتبت المقال الماضى متناولا فيه - ضمن أشياء أخرى معنى حرية التجارة كما تطرحه الدول الكبرى.. لم يكن فى خيالى أن الأحداث الساخنة ستأتى بكل تلك السرعة لكى توضح عمليا ما أقصده. لم أتوقع أيضا أن يخرج كل هذا البركان الغاضب من صدور شبان وشابات فى قلب مدينة أمريكية تفصلها عنا بحار ومحيطات.. مدينة هى بذاتها مقر لجزء من «غرفة العمليات» التى ترفع شعارات «العولمة» و«تحرير التجارة» و«افتح جيبك تأكل ملبن» وكل تلك الشعارات الجميلة البراقة طالما هى شعارات. أما فى اللحظة التى تخضع فيها للمناقشة والفحص والمساءلة.. فإنها تكشف عن منطق الغابة الذى يريد الكبار الأقوياء فى الساحة الدولية فرضه على الصغار الضعفاء .

لم يخطر فى بالى مثلا أن يخرج شباب غاضب فى مدينة جنيف السويسرية لكى يقطعوا الكهرباء عن مقر منظمة التجارة العالمية قائلين: إن «الإنسان ليس سلعة». أو أن يخرج شباب غاضب آخر فى مدينة لندن عاصمة بريطانيا رافعين شعارات من نوع «منظمة التجارة العالمية هى منظمة اللصوص العالمية». أو أن يخرج جون ريتشارد سون ممثل المفوضية الأوروبية فى واشنطن لكى يتهم الولايات المتحدة بـ «الإمبريالية الاقتصادية» وبأنها لا تحاول أن تفرض على شعوب العالم فقط كيف تحكم نفسها.. ولكن تفرض عليها ما تشتريه وما تأكله وما تلبسه وما تستهلكه. ولا أن يخرج مهاتير محمد رئيس وزراء ماليزيا لكى يقول: «إن الناس يحتجون على منظمة التجارة العالمية لأن القوى الاقتصادية الكبرى تريد نشر مخابها حتى تستولى على العالم بأسره بالمعنى الحرفى للكلمة.. وتجعله يعمل تحت إمرة حفنة من الشركات القوية».

لم يخطر على بالى كذلك أن يخرج خمسون ألفا من الشباب - معظمهم أمريكيون - لكى يعبروا عن غضبهم ضد اجتماع وزارى يحضره ممثلو ١٣٥ دولة فى مدينة سياتل الأمريكية. ومع أنه اجتماع لمنظمة التجارة العالمية والوفود فيه حكومية برئاسة وزراء التجارة.. إلا أن الحكومة الأمريكية لم تتحمل دولارا واحدا من التسعة ملايين دولار تكاليف المؤتمر. السبب بسيط: إن الشركات العملاقة الأمريكية تطوعت، ربما عن طيب خاطر، بتحمل تلك التكاليف. بل وأعد بعضها مسبقا برامج

مبهرة لكى تقوم تلك الوفود بزيارة مصانعها لعلهم يعودون بعد ذلك إلى بلادهم هاتفين بأنبهار: تعيش حرية التجارة.

الحرية جميلة . لكن حرية التجارة شيء آخر. تماما كأن نقوم بإلقاء صبي فى العاشرة من عمره فى البحر قبل أن نعلمه السباحة. أو حتى نعلمه السباحة ثم نلقى به فى قلب المحيط الأطلنطى قائلين: إن عليه أن يتسابق. فلكى يلقى هذا الصبي بنفسه فى البحر عليه أولاً أن يتعلم السباحة. بعدها يتعلم أن يسبح فقط فى حدود كفاءته الجسمانية.. بغير هذا وذاك نكون كمن يدفع هذا الصبي إلى الانتحار. المسألة ليست مكابرة ولا شعارات.. لأن الله اعطانا عقولا لكى نستخدمها وليس لكى نلغيها.. أو نرهنها عند الآخرين.

فى الواقع الدولى حولنا شيء من ذلك. الدول التى سيقننا إلى عصر الصناعة لم تولد هكذا . لقد بدأت مثلنا فقيرة.. ضعيفة.. متخلفة زراعية وإقطاعية.. إلخ. مع بدايتها مشوار النهضة الصناعية كان عليها أولاً أن تحمى صناعاتها الناشئة حتى يشتد عودها. كان عليها أيضاً أن تقيد وارداتها حتى لا تتراكم ديونها للآخرين فيجيئون إليها ببوارجهم المسلحة. ثم بعد مائتى سنة من النهضة المستمرة أصبحت دولا صناعية كبرى كما نراها الآن. لكنها بعد أن أصبحت كذلك نسيت ما بدأت به. وانهمكت فى إيطارنا نحن بمواعظها عن حرية التجارة.

مرة أخرى: الحرية جميلة. والتنافس أجمل. لكن التنافس يكون بين متكافئين. أو على الأقل.. بين متقاربين. إنما.. صبي فى العاشرة يدخل فى مباراة ملاكمة مثلا مع محمد على كلاً حينما كان بطلا للعالم فى الملاكمة النتيجة واضحة. وهى سقوط الصبي بالضربة القاضية أو حتى من الخضة. وفى السنوات الأخيرة جرى إغراقنا بشعارات براقة وجذابة من نوع «العولمة» .. «الخصخصة».. حرية رأس المال.. حرية التجارة.. إلخ.. كلها كلمات حق يراد بها باطل.. وفلوس. وفلوس يجرى شفتها فى اتجاه واحد فقط من الضعفاء إلى الأقوياء.. ومن الفقراء إلى الأغنياء.

فى سنة ١٩٩٧ مثلما جرى زلزال اقتصادى روع العالم كله. زلزال عنوانه «الأزمة المالية فى دول جنوب شرق آسيا». حتى ذلك الوقت كانت الدعايات السائدة تطلق اسم «النمور الآسيوية» على حفنة من الدول.. مثل ماليزيا وسنغافورة وكوريا الجنوبية وتايلاند وأندونيسيا. حتى أول يناير سنة ١٩٩٧ كانت تقارير صندوق النقد الدولى تبشر دول العالم الثالث كله بأنها إذا كانت تحلم بالنهضة الصناعية والاقتصادية السريعة فعليها أن تقلد تلك «النمور الآسيوية». طوال عشرين سنة كنا نسمع هذا الموال. والموال لم يكن من فراغ. بالعكس. تلك الدول نجحت فعلاً فى اقتحام عصر الصناعة خلال جيل واحد. وحقت فى عشرين سنة نهضة حققتها أوروبا وأمريكا فى ضعف تلك المدة. هذه دول تعبت وتعلمت وتدربت وعبأت كل مواردها لاقتحام صناعات محددة والتصدير إلى الآخرين بأسعار

أرخص. من مكاسبها هذه أصبحت تتمتع بفائض متراكم من الأرصدة و عملات قوية وحصانة ضد السقوط مرة أخرى فى بئر الفقر والجهل والمرض الذى خرجت منه.

فى القصة أيضا سياسات دولية. فبعد الحرب العالمية الثانية تبلور الصراع العالمى بين نظامين اقتصاديين: الرأسمالية ومعسكرها تقوده الولايات المتحدة.. والماركسية ومعسكرها يقوده الاتحاد السوفيتى. ولأن «خلافهم رحمة» فقد وفرت تلك المنافسة مساحة لدول العالم الثالث - ومصر فى قلبه - حتى تناور لمصلحة شعوبها.. لأن كلا من المعسكرين يريد أن يجذبها إليه.

المعسكر الرأسمالى هنا كان أذكى. لقد حسبها فوجد أن إغراء العالم الثالث بالنموذج الرأسمالى، كما تطور تاريخيا فى أرض الواقع، لن يحقق لتلك الشعوب أحلامها فى وقت قصير، ولا بثمن مقبول. ففى القرن العشرين لم يعد أحد مستعدا للقبول بالمنطق المتوحش الذى عاشت به الرأسمالية فى القرن التاسع عشر. وقتها لم تكن هناك حقوق للعمال ولا نقابات تدافع عن مصالحهم، ولم يكن صاحب المصنع ملتزما بالضرائب ولا برعاية عماله صحيا أو اجتماعيا. باختصار.. هى رأسمالية متوحشة وجد فيها الروائى الإنجليزى تشارلز ديكنز مادة خصبة لقصصه الباقية معنا حتى الآن.

مع التنافس بين الماركسية والرأسمالية عقب الحرب العالمية الثانية أصبحت الرأسمالية أبعد نظرا من ناحيتين. أولا - اقتبست لنفسها بعض أفكار العقيدة الماركسية ذاتها. فأصبح هناك حد أدنى للأجور وشبكة تأمينات اجتماعية ونقابات للعمال - والأكثر أهمية - نظام صارم تماما للضرائب يخضع له الغنى قبل الفقير. فى الولايات المتحدة مثلا.. لو ثبتت تهمة التهرب من الضرائب على أى شخص - وزيراً أو غفيراً - الآن أو قبل عشرين سنة - فلا هزل بالمره. إنما المصادرة والسجن وفقدان أهلية الترشيح لمناصب عامة. ثانيا: ركزت الولايات المتحدة على بضع دول صغيرة لكى تطرح من خلالها نموذجا آخر معدلا للرأسمالية. دول بحجم سنغافورة وماليزيا وتايوان وكوريا الجنوبية مثلا.. وكلها فى مجموعها أقل من مائة مليون نسمة. لماذا تلك الدول؟ ولماذا فى آسيا؟ لأن شبح النموذج الماركسى فى التنمية موجود ومطروح بقوة فى صورة دولة بحجم الصين. صين ماوتسى تونج. فإذا رأى ألف مليون صينى بعيونهم مثلا أن نموذجهم فى التنمية الاقتصادية لا يوفر لهم بعد ربع قرن أكثر من الغذاء والكساء.. فهذا شىء.. أما إذا رأوا دولا صغيرة قريبة منهم نجحت فى ربع قرن أيضا فى أن توفر لشعوبها الغذاء والكساء والدواء والمسكن والسيارة ودفتر توفير بالبنك.. فهذا شىء مختلف.. ونموذج أكثر إغراء بالتقليد.

إن.. ما نجح فى جنوب شرق آسيا.. وفى دول «النموذج الآسيوية» تحديدا.. لم يكن الرأسمالية التقليدية. لكنها الرأسمالية المحسنة المقيدة المنضبطة المسؤولة اجتماعيا.. التى تقوم فيها الدولة بكل سلطاتها بدور الدينامو المحرك للاقتصاد والمعبىء للمدخرات والمدعم للصادرات والمقيد للواردات والمقيد - بدرجة أكبر - لقواعد السوق الحرة والتجارة الحرة.

بعد انتهاء الحرب الباردة وسقوط الماركسية - فى أوروبا على الأقل - وتفكك الاتحاد السوفيتى.. التقطت الولايات المتحدة أنفاسها لأول مرة منذ سنة ١٩٤٥. التقطتها.. مؤقتا. صحيح أن انتهاء الحرب الباردة معناها هزيمة الماركسية. لكن هذا مجرد نصف المعادلة. أما النصف الآخر المستمر فى علم الغيب فهو: انتصار الرأسمالية. والولايات المتحدة هنا كانت فى سنة ١٩٤٥ أكبر دولة دائنة للآخرين لكنها فى سنة ١٩٩٠ أصبحت أكبر دولة مدينة فى التاريخ.

والحل؟ أفكار كثيرة جرى طرحها، أفكار من نوع أن سقوط الماركسية هو نهاية التاريخ. فحيث إن حركة التاريخ تتشكل من الصراع بين الشيء ونقيضه.. وحيث إن النقيض اختفى. إذن: الصراع اختفى. إذن: انتهى التاريخ. افتحوا الأبواب للمتصر.. وقدموا له فروض الطاعة.

الكلام كبير. لكنه مذل. يكفى أن نتذكر أن التناقضات والصراعات والمواجهات والحروب البشرية كانت موجودة قبل الماركسية وتظل موجودة بعدها. ثم إن المنتصر الآن يريد المكافأة والجائزة. يريد ثمن انتصاره. ويريد من جيوب الآخرين. والمنتصر هنا ليس مجرد فكرة أو دولة أو سياسة.. وإنما شبكة ضخمة من شركات عملاقة متعددة الجنسيات عابرة القارات. أكبر ثلاثمائة شركة منها تسيطر فعلا على سبعين بالمائة من الاقتصاد العالمى. ثلثا تلك الشركات أمريكية. والثلث الآخر موزع بين أوروبا الغربية واليابان. إذن.. هؤلاء الأغنياء فى الشمال فتحت شهيتهم وتحركت مصالحهم فى اتجاه بعضهم بعضا. لكن أساسا فى اتجاه دول الجنوب. دول العالم الثالث. يعنى: حضارتنا.

والمصالح الكبرى تحتاج دائما إلى التنكر وراء شعارات كبرى. شعارات من نوع «العولة» مثلا: يا أخ.. انتبه.. العالم الآن قرية صغيرة واحدة عالمية. الحدود فقدت معناها والقيود عديمة الجدوى وسيادة الشعب على اقتصاده مفهوم متخلف وسيادة الدولة على مواردها مفهوم أكثر تخلفا. الآن.. ها هى فرصة العمر. افتح حدودك. افتح جيوبك. اختصر أوهامك. لا تحمل هم فقرائك لأنهم يستحقون فقرهم ولا مرضاك لأنهم يستحقون مرضهم. أمامك فرصة العمر. انفتح علينا لأننا العالم ولأنه - بمزاجك أو غصب عنك - سوف يتم «عولتك». أنت الجانى على نفسك.. إذا لم تفتح محك وبسرعة. عندنا مشاغل أخرى وزبائن آخرون.

الكلام مهم. فيه بعض الإغراء لكن فيه أيضا الوجه القبيح. والانداز الأول هنا جاء عمليا فى سنة ١٩٩٧. فى غمضة عين وجدت دول «النمو الآسيوية» إياها أنها تحولت إلى فئران مذعورة. لقد تبخرت كل مدخراتها وأرصدها من العملات الأجنبية.. وانهارت قيمة عملاتها الوطنية، وبعد أن كانت دائنة أصبحت فجأة مدينة. والفاعل هنا مجهول.. مؤقتا على الأقل.

فى حينها كتبت سلسلة مقالات فى جريدة «الحياة» التى تصدر من لندن محورها السؤال المنطقي التالي: كيف تنام شعوب بكاملها ليلا وهى غنية وقوية وبنوكها المركزية عامرة بالأرصدة الضخمة

ثم تستيقظ نفس هذه الشعوب صباحا لتجد نفسها فقيرة معدمة وجائعة ومدينة وعملتها الوطنية بسعر التراب والملايين من عمالها في حالة بطالة؟ المصانع هي نفسها ونتاجها بنفس الجودة والشعوب هي نفسها وأبنائها بنفس التعلم المرتفع وعمالها هم أنفسهم وبنفس الكفاءة الإنتاجية. إذن: ما هو السر في كل هذا الزلزال؟

كان السر بسيطا. لقد قيل لهم: تعولوا. افتحوا الأبواب. افتحوا الأسواق. اشطبوا القيود على دخول وخروج الأموال لتكون بلا رقيب ولا حسيب. في البداية دخلت الأموال قادمة من الخارج في شكل قروض. طبعاً قال البعض وقتها: إن هذا تعبير عن الثقة وشهادة بحسن السير والسلوك يعززها صندوق النقد الدولي إياه. لكن.. فجأة خرجت تلك الأموال في غمضة عين حيث أصحابها يريدونها مرة واحدة.. وفورا. ألم يتفق الجميع من البداية على أن جوهر «العولة» هو تحرير دخول وخروج رؤوس الأموال؟

جوهر العولة أيضا هو حرية التجارة.

هذا يعيدنا إلى المؤتمر الوزاري الأخير لمنظمة التجارة العالمية في مدينة سياتل الأمريكية. هذه المنظمة نشأت أصلا في سنة ١٩٩٥ لكي تصبح هي الشرطي الثالث عاليا بعد صندوق النقد الدولي والبنك الدولي. فقد تأخر ميلادها حتى سنة ١٩٩٥ لأنها لم تكن ممكنة طوال سنوات الحرب الباردة. والمنظمة مقرها مدينة جنيف وتضم حاليا ١٣٥ دولة.

في صندوق النقد الدولي تصدر القرارات حسب حصص الدول الأعضاء في رأس المال. في الأمم المتحدة تصدر القرارات بالتصويت المتساوي.. يعني لكل دولة صوت واحد.. كبرت أو صغرت. أما في منظمة التجارة العالمية فقد ولدت بدعة جديدة هي أسلوب «التوافق». تماما كالبرلمانات الشكلية في أشد الدول استبدادا وديكتاتورية.. حيث يجلس رئيس البرلمان في المنصة متسانلاً: موافقون؟ وقبل أن يلتقط أي أحد أنفاسه يرد نفس الشخص: طبعاً موافقون. إذن ننقل إلى البند التالي في جدول الأعمال.

ولأن هذا هو ماجرى فعلا في إنشاء منظمة التجارة العالمية والمعاهدة العجيبة المترتبة عليها.. فقد امتد الوضع إلى داخل معظم دولها. في برلمان واحدة من دولنا المعتبرة مثلاً وقف الوزير المختص يطلب من الأعضاء باسم الحكومة التصديق على الالتزامات الجديدة لتحرير التجارة. ثم وقف أحد الأعضاء يطلب أولاً توزيع نصوص هذه الالتزامات حتى يمكن مناقشتها برلمانياً. لكن الوزير المختص رد عليه مستنكراً: تقرأوا ماذا؟ وتناقشوا ماذا؟ تناقشوا خمسمائة صفحة التزمت بها الحكومة مع منظمة التجارة العالمية وانتهى الأمر؟ هل ستعرفون أحسن من الحكومة؟

لكن المشكلة ليست في عدد الصفحات، ولا حتى في صياغاتها التي تبدو فنية. المشكلة هي أن تحرير التجارة هنا يمس مصير شعوب بكاملها. يمس حياة ملايين بعد ملايين بعد ملايين. يمس

ما يأكله الناس وما يلبسونه وما يحصلون عليه من دخل ومرتبات - الأخطر من هذا كله - يمس فرصهم في التوظيف أو عدم التوظيف.. وبالتالي يمس مستوى حياتهم ومستقبل أبنائهم. ثم إنه قبل أي حديث عن حرية التجارة يجب أن نضمن أولاً عدالة التجارة.

والشركات عابرة القارات هنا تريد من الجميع فتح الأبواب أمام التجارة العالمية لأن هذا هو جوهر العولة. وهي بالطبع غير مستعدة للتحديث في مضمون هذه الحرية فما بالناس بسيرة العدالة. الولايات المتحدة تريد من الدول النامية إطلاق حرية الاستيراد تحت عنوان حرية التجارة لأن لديها هي - أي لدى الولايات المتحدة - فائض كبير تنتجه وتريد تصديره إلى الآخرين. إذن في المقابل: هل تفتح الولايات المتحدة أبوابها أمام العمالة الشابة القادمة من الدول النامية؟ أبداً. لأن هذا يعني مزاحمة العامل الأمريكي داخل بلده.

وتحرير التجارة يتضمن - من بين أشياء أخرى - أن تبيع الدول النامية بنوكها، حتى ولو قطاعاً خاصاً، إلى الآخرين وتفتح أبوابها أمام «التجارة الإلكترونية».. فقط لمجرد أنها الأكثر تقدماً فيها، وبشرط أن تصبح الواردات من أمريكا هنا معفاة بالكامل من أية رسوم أو جمارك عند دخولها.

لكن.. لكي نستورد «بكبسة» زر.. يجب قبلها أن نصدر «بكبسة زر». ولكي نفعل ذلك يجب أن يكون لدينا فائض نصدره. ولكي يصبح لدينا فائض يجب أولاً أن ندخر ونتعلم ونعمل ونتعب ونؤجل بعض الاحتياجات المهمة.. حتى نستوفي أولاً الاحتياجات الأهم. لكي نسبح يجب أولاً أن نتعلم السباحة. ولكي نسبح في المحيط الأطلنطي يجب أن نكون في حالة بدنية وصحية تسمح لنا بمسابقة الآخرين في مياه المحيطات المفتوحة.

في مدينة سياتل الأمريكية انفجر بركان الغضب. وانفجر في آخر مكان توقعه أحد.. فمدينة سياتل بذاتها مقر لعدد من الشركات الأمريكية العملاقة صاحبة المصلحة المؤكدة في تحرير التجارة العالمية. شركات مثل «بوينج» المنتجة للطائرات وقيمة مبيعاتها في العام الماضي فقط ٥٦ مليار دولار منها ٢٧ مليار دولار صادرات إلى الدول الأخرى. هي أيضاً مقر لشركة ميكروسوفت أكبر شركة صانعة لأجهزة الكمبيوتر وتوابعها. في مواجهة هؤلاء وأمثالهم خرج خمسون ألف شاب معظمهم أمريكيون يمثلون جمعيات أهلية. منهم من يسعى إلى حماية العمال الأمريكيين من مزاحمة الأجانب، ومنهم من يسعى إلى حماية البيئة، أو حتى لحماية العدالة كقيمة إنسانية كبرى تسبق الحرية.

كان هذا مفاجئاً في جانب وغير مفاجيء في جانب آخر.. كان مفاجئاً من حيث حجم الغضب لكنه غير مفاجيء من حيث موضوعه. فمن قبل كانت هناك إرهابات تابعناها في جنيف وباريس ولندن ومدن أوروبية أخرى. والشرارة البسيطة التي انطلق منها الغضب كانت رفض أوروبا فتح

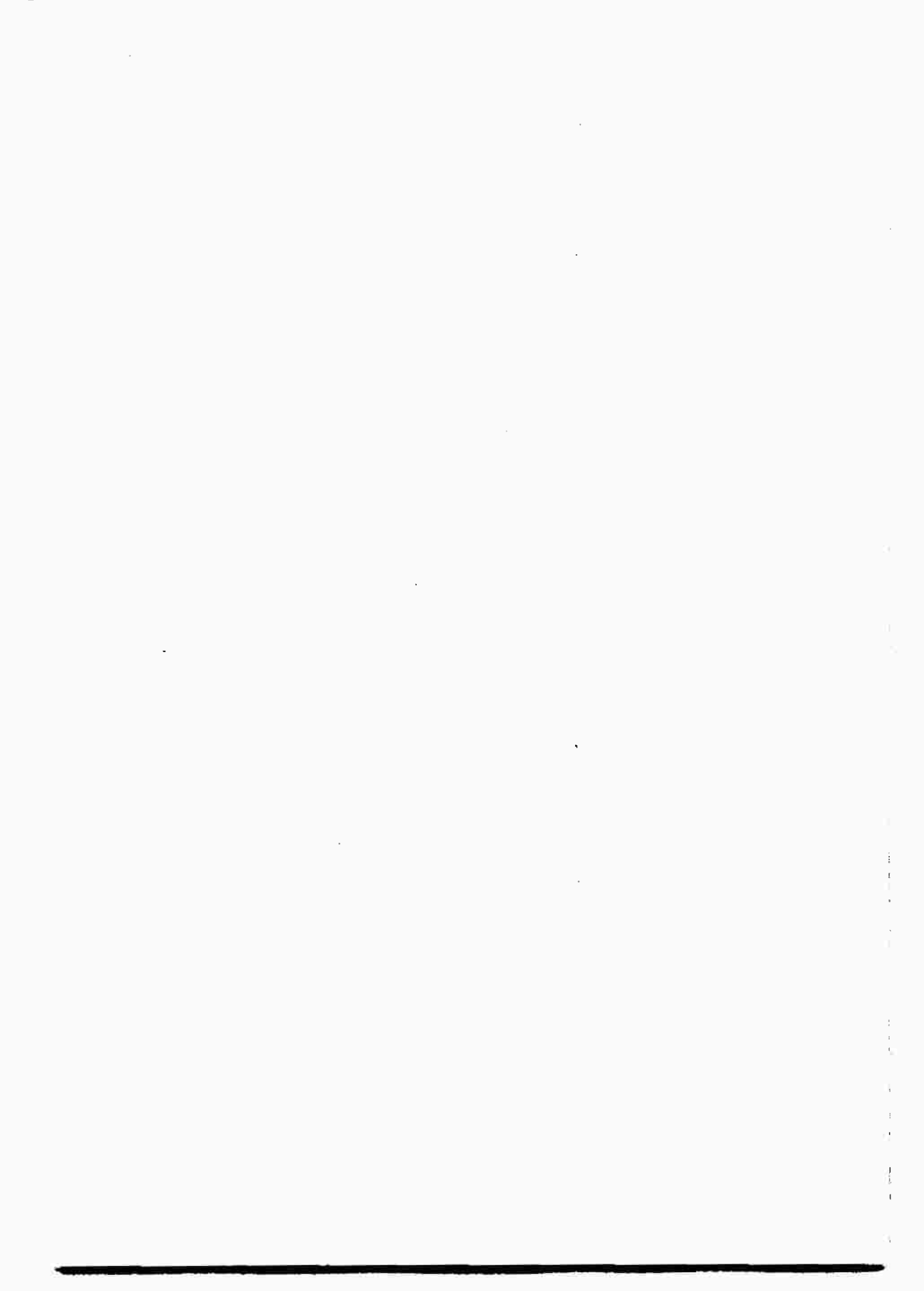
أبوابها أمام الأغذية الأمريكية المعالجة هرمونيا لوجود شكوك علمية فى أنها تصيب النساء بسرطان الثدي والرجال بسرطان البروستاتا، أمريكا استخدمت سطوتها داخل منظمة التجارة العالمية لارغام أوروبا على ابتلاع اعتراضها. حرية التجارة تعنى حرية التجارة.. لا إحم ولا دستور. أنتم حلفاؤنا.. أهلا وسهلا. لكن مصالحنا التجارية أهم.

يعنى الخنافة بدأت على كبير. وبعدها فقط بدأت الدول الصغيرة فى عالمنا الثالث تفيق على هول ما التزمت به سابقا، وفوق ذلك ما أصبح مطلوبا اضافته إلى التزاماتها فى اجتماع سياتل. وحتى لا تتوهم الدول النامية، وهى ثمانون بالمائة من الدول الأعضاء، أن المسألة فيها تشاور أو مناقشة أو ديمقراطية بدأت الرئيسة الأمريكية للمؤتمر بتحذير الوزراء المجتمعين من اللحظة الأولى قائلة لهم: إن فشل المؤتمر غير وارد. بعدها قالت لمثلئ الدول النامية: عليكم بتأييد الموقف الأمريكى.. والا وجدت «معكم» حلا آخر. وحينما أرادت وكالات الأنباء تلخيص بركان الغضب لدى الوفود الحاضرة نقلت عن الدبلوماسى المصرى المخضرم منير زهران قوله: «إنهم يعاملوننا كالحيوانات.. يبقوننا بالخارج فى البرد ولا يبلغوننا بأى شىء».

أما خارج مقر المؤتمر، حيث البرد والصقيع، فقد كانت مظاهرات خمسين ألف شاب وشابة أكثر تفجرا. مظاهرات اضطرت السلطات الأمريكية فى مواجهتها إلى إنزال الآلاف من الشرطة المحلية ثم القوات الخاصة الاتحادية ذات الملابس والتجهيزات الخاصة كما لو كانت تخوض حرب النجوم والكواكب.. مستخدمة القنابل المسيلة للدموع.. فارضة حالة الطوارئ وحظر التجول على المدينة.. حيث لم يكفها اعتقال خمسمائة فتى وفتاة.

من هؤلاء الشباب استردت شعوب العالم بعض ثققتها الضائعة فى نفسها وفى مستقبلها.. فى مواجهة شركات كبرى عاتية تلح على شعوب العالم بدعواتها الجذابة المتكررة: تعولوا.. وبسرعة حتى لا يفوتكم القطار.. لكنها تحذف الوجه الآخر من الجملة: تعولوا... يرحمكم الله. أوبكلمات أخرى: ارموا أنفسكم فى المحيط.. حتى قبل أن تتعلموا السباحة.





.. آخرها بترول !



الجماعة حلفاء.. والحرب عالية.. والخطر مشترك.. واللقاءات متكررة.. والكاميرات جاهزة.. والوجوه كلها ابتسامات.. والكلام فخم ضخم عن الحرية والديمقراطية، والعدالة والمساواة، والمستقبل المشرق.. وكلنا فى الهوا سوا. يعنى لأول وهلة: البساط أحمدي ! إنما.. لحظة لو سمحت. فى السياسة قد يوجد بساط. لكن لا يوجد «أحمدي». توجد مصالح. والمصالح لها حسابات وفيها مقايضات، وتقرررها عقول باردة، وتخططها أحيانا بأقصى درجات السرية.

و.. شىء من هذا شهدته مصر ذات أيام ثلاثة محددة من شهر فبراير سنة ١٩٤٥، حينما دارت على أرضها - أو فى مياهها الإقليمية بمعنى أدق - مفاوضات حاسمة بين أطراف محددة. من الأطراف مثلا: ملك مصر - فاروق وقتها - ولم يكن له.. لا فى «الطور ولا فى الطحين» ومنهم ملك عربى لدولة جديدة عمرها ١٣ سنة ويتحسس طريقه لأول مرة فى غابة السياسات الدولية... هو عبدالعزيز آل - سعود. ومنهم امبراطور بالأسم ولكن من غير فعل.. هو هيلاسلاسى امبراطور الحبشة (أثيوبيا فيما بعد) ومنهم ونستون تشرشل رئيس حكومة الامبراطورية البريطانية العظمى، التى حتى تلك الفترة - لم تكن الشمس تغيب عن أراضيها.. لكنها بعد الاجتماع ستدرك أن مشوارها فى الهبوط إلى أسفل قد بدأ. ومنهم أيضا من ليس امبراطورا، ويرفض أصلا أى كلام امبراطورى مكتفيا بأنه «فرانكلين روزفلت» وبصفته رئيسا للولايات المتحدة.. الذى يتحسس الطريق لكى تصبح بلاده مستقبلا أهم من أى امبراطورية.. سابقة أو لاحقة.

هؤلاء الخمسة لم يجمعهم على أرض مصر وقتها اجتماع مشترك واحد.. لكنها كانت اجتماعات منفردة منفصلة. وفى كل منها يغنى كل طرف على ليله! أما «ليلي» الحقيقية فى القصة كلها فلن يتحدث عنها أحد علنا.. لا بالخير ولا بالشر. «ليلي» هذه هى البترول !

ونستطيع ان نطلق على القرن العشرين عشرات الأوصاف. إلا أن ما يعيننا هنا هو أنه : قرن البترول. بغير البترول لا تكتمل أبداً فكرتنا عن القرن العشرين كله. من البترول انطلقت حروب، وسقطت عروش، ونشأت عروش، وحيكت مؤامرات، وتربى جواسيس كبار.. لا يهتمون فقط برصد

العدو.. وإنما أيضا - بل وربما أساسا - بتحليل بول ودم «الصديق»، من غير أن يدرك هو بالطبع أن البول والدم والحالة الصحية له شخصا عنصر أساسى فى تشكيل سياسات دولية !

هو البترول إذن الذى شكل جزءا أساسيا من ملامح القرن العشرين.. مع أنه فى مادته الخام مجرد سائل لزج أسود اللون. لقد بدأنا رحلتنا بالقرن السادس عشر بصفته قرن «الفلل» ونريد أن نصل إلى القرن العشرين بصفته قرن البترول.. وكله أسود.. فى أسود!

لم تبدأ القصة من هنا. فى الواقع أن البشرية استمرت حتى القرن السابع عشر تستخدم الأخشاب كمصدر للوقود والطاقة. مع بدء الثورة الصناعية لم تعد أخشاب وغابات العالم كله قادرة على ملاحقة احتياجات المصانع الجديدة. هنا.. تحولت المصانع الجديدة إلى الفحم كمصدر للطاقة. وبريطانيا - باعتبارها أول من دخل عصر الصناعة - كانت لديها كميات ضخمة من الفحم. لكن مع التوسع الصناعى المتسارع بدا أن مناجم الفحم قد لا تستطيع أيضا ملاحقة الطلبات الجديدة.

وفى سنة ١٨٦٥ أعد اقتصادى بريطانى بارز تقريراً يحذر فيه من احتمال أن ينضب مخزون بريطانيا من الفحم بحلول سنة ١٩٠٠. الإنذار نفسه شغل بال الدول الصناعية الأخرى فرنسا وألمانيا مثلا فى الجانب الأوروبى.. والولايات المتحدة فى الجانب الآخر من المحيط الأطلنطى . لقد بدأ الجميع سعيهم إلى استكشاف مصادر جديدة للطاقة، تكون بديلا عن الفحم أو احتياطيا له.

المصدر هو البترول. حتى العقد السابع من القرن التاسع عشر كان البترول معروفا كمصدر ثانوى للإضاءة والتدفئة. فى الواقع أن العرب عرفوا منذ القرن العاشر كيف يكررون البترول.. ومن مشتقاته كانت المصابيح الحكومية فى شوارع القاهرة وغيرها تضاء ليلا.

لكن المشكلة مع البترول لم تكن المعرفة.. وإنما التكنولوجيا. فالثورة الصناعية التى حمل الغرب لواءها منذ القرن الثامن عشر، إذا كانت ستتجه إلى البترول كمصدر للطاقة يلزمها ابتكار طرق جديدة لاستخراجه بكميات ضخمة، ثم تكريره بأسعار تجارية معقولة. يعنى.. المطلوب لم يكن الحفر فقط تحت سطح الأرض.. وإنما التنقيب فى باطن الأرض ومن خلال تكنولوجيا جديدة. تلك التكنولوجيا توافرت فقط فى العقد السابع من القرن التاسع عشر.. لكنها استمرت تنتشر ببطء، إلى أن جاءت الحرب العالمية الأولى فى سنة ١٩١٤.

الحرب دائما تعنى تعبئة الطاقات وتركيز الموارد، واستثمار العقول، لأنها تضع مصائر دول بكاملها على المحك. فى السلاح البحرى مثلا يعطى استخدام البترول مزية حاسمة للسفن الحربية. فالسفن التى تستخدم الفحم يمكن للعدو أن يرصدها من مسافات بعيدة من خلال رصد

الدخان المتصاعد منها نتيجة احتراق الفحم. تصميم السفن أيضا يجب أن يوفر مساحة كبيرة لتخزين الفحم. يجب أيضا استخدام أيد عاملة كثيرة من أجل تخزين الفحم ونقله داخل السفينة ذاتها. إنما باستخدام البترول يختفي كل هذا. فالبترو سائل، والطاقة الحرارية الناشئة منه أكبر، والأيدي العاملة المطلوبة أقل.. من خلال استخدام الأنابيب.

وبريطانيا أصبحت امبراطورية عظمى من خلال أسطولها البحري فى المياه الدولية. من هنا أصبحت وزارة الحرب البريطانية هى التى تلح على الحكومة بكل قوة للتحويل فورا إلى البترول، ضمانا لاستمرار التفوق البحري. هذا يعنى العمل على استكشافه فى بلاد أخرى، لأن بريطانيا - حتى ذلك الوقت - لم يكن لديها سوى الفحم.. بينما الولايات المتحدة استكشفت حقولها الخاصة من البترول، وفرنسا فعلت ذلك فى مستعمراتها، وألمانيا فى الطريق.

هذا التحول من الفحم إلى البترول أصبح حاسما. ففى بداية سنوات السبعينيات من القرن التاسع عشر بلغ المستخرج من البترول فى العالم كله مليون طن سنويا. مع نشوب الحرب العالمية الأولى فى سنة ١٩١٤ قفز الرقم إلى ستين مليون طن. مع نهاية الحرب العالمية الثانية فى سنة ١٩٤٥ قفز الرقم من جديد إلى ٣٥٠ مليون طن. والآن - فى سنة ٢٠٠٠ - قفز الرقم إلى عشرة أمثال !

فى سنة ١٩٠١ اطلع مغامر بريطانى على تقرير سرى فرنسى يتحدث عن إمكانية وجود مخزون ضخم من البترول فى جوف الأرض الإيرانية. وبسرعة تمكن من الحصول على امتياز التنقيب عن البترول فى نحو نصف مليون ميل مربع من الأراضى الإيرانية، مقابل مجرد أربعين ألف جنيه استرليني نقدا وبضائع، زائد ١٦٪ من الأرباح لحكومة إيران .

لكن بعد ثلاث سنوات احتاج المغامر البريطانى إلى شركاء جدد. وفى هذه المرة تم استكشاف البترول فى إيران فعلا سنة ١٩٠٩. هنا فقط استيقظت قرون استشعار الامبراطورية فى بريطانيا فقررت الحكومة شراء أسهم هذه الشركة فى سنة ١٩١٤ بناء على إلحاح من وزير البحرية فيها.

معنى هذا القرار عمليا هو أن حكومة الدولة الرأسمالية الأولى فى العالم تقوم بتأميم شركة قطاع خاص. لكن الأكثر أهمية هو أن صاحب تلك المشورة كان ونستون تشرشل وزير البحرية (الذى سيرفض بعدها بأربعين سنة قيام حكومة إيران ذاتها بتأميم الشركة البريطانية لصالح شعب إيران!).

مع الأيام المبكرة بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى مباشرة أصبح الحديث عن البترول - واحتمالاته ومناطق وجوده - هو من أهم الأسرار العليا فى عواصم الدول الكبرى التى يخفيها كل طرف عن المنافسين. وصرح اللورد كرزون وزير خارجية بريطانيا: «سوف يكشف المستقبل أن الحلفاء قد أبحروا إلى النصر فوق أمواج من البترول».. لكن المضمون الحقيقى لكلماته كان لايزال

سرا مقصورا على الجنرالات وضباط المخابرات، الذين بدأوا يتدفقون على الشرق الأوسط أساسا، تحت مسميات مختلفة حتى لا تعرف شعوب المنطقة ذاتها سر هذا الاهتمام.

أدى البترول إذن إلى فتح شهية بريطانيا للسيطرة - قبل الآخرين - على مناطق عديدة من إيران، ثم العراق ومعظم الخليج العربي، باستثناء بعض مناطق وجدت بريطانيا أنها مجرد صحراء قاحلة لا يلزمها التعجل.

في تلك الصحراء كانت تدور قصة أخرى. فعبد العزيز آل سعود أمير منطقة نجد في صراع مع الشريف حسين أمير الحجاز. وفي المرحلة الأخيرة من الحرب العالمية الأولى استخدمت بريطانيا الشريف حسين لطرد الوجود التركي العثماني مقابل أموال ووعدته بأن تجعله فيما بعد ملكاً على دولة عربية موحدة تمتد إلى فلسطين وسوريا ولبنان. في نفس الوقت أرادت بريطانيا ضمان حياد عبدالعزیز آل سعود فقررت له معونة قدرها خمسة آلاف جنيه إسترليني.

بعد خروج بريطانيا منتصرة من الحرب العالمية الأولى نسيت كل وعودها السابقة واكتشف العرب أنها في الحقيقة اتفقت مع فرنسا سرا على توزيع أراضي العرب غنائم بينهما، فيما عرف باسم «خريطة سايكس - بيكو»، والغنائم هنا كانت على كبير!

لكن في نفس الوقت فوجئت بريطانيا بتطور آخر. فعبد العزيز آل سعود نجح بحد السيف والسلاح في التوسع من نجد إلى الحجاز في سنة ١٩٢٦، وأعلن نفسه ملكا لخليجها. وفي سنة ١٩٣٢ أعلن قيام الدولة الموحدة الجديدة باسم «المملكة العربية السعودية».

لم تعترض بريطانيا الامبراطورية على هذا التطور، لكنها أيضا لم تطمئن إليه. في النهاية رأت أنها باحتلالها للعراق ولشيخات الخليج شمالا وشرقا، ووجودها العسكري في عدن جنوبا - فإنها تحاصر الدولة الجديدة الناشئة. أما الملك عبدالعزيز نفسه فقد بدأ يتعامل مع الواقع أمامه.

والواقع أنه يرأس مملكة مساحتها مليون كيلومتر مربع.. لكن مواردها محدودة تماما. بعدها جاءت الأزمة الاقتصادية العالمية، التي بدأت أصلا في أمريكا وأوروبا، لكن نتائجها امتدت إلى آخرين.. هو من بينهم.

لم تكن للدولة السعودية الناشئة علاقات تجارية تجعلها ضحية للكساد العالمي بشكل مباشر. لكنها أصبحت ضحية فعلا من حيث لم تحتسب. فالمورد الأساسي للمملكة يأتي من توافد مسلمي العالم للحج، بمعدل مائة ألف شخص سنويا. في سنة ١٩٣٠ انخفض الرقم إلى أربعين ألفا، ثم إلى أقل من ثلاثين ألفا. وبحلول سنة ١٩٣٥ أصبح الملك السعودي لا يجد موارد كافية تسمح بمجرد تسديد مرتبات موظفيه.. حتى حينما اقترح بعض الأموال من كبار التجار المحليين لم تتراجع أزمته المالية. وفكر الملك السعودي في تدبير شئونه بطريقة أخرى. فالدولة الأولى التي اعترفت

به ملكا كانت الاتحاد السوفيتي بقيادة جوزيف ستالين.. بل وأقامت لها سفارة عنده. هكذا أوفد عبدالعزيز آل سعود في سنة ١٩٣٥ وفدا ممثلا له إلى موسكو برئاسة ابنه الامير فيصل (ملك السعودية فيما بعد)، لإقناع الزعيم السوفيتي جوزيف ستالين بإعطاء معونة إلى السعودية إذا تيسر.. أو قرض إذا أمكن. في التفاوض قال ستالين: إن بلاده ذاتها تعاني من حصار دولي تقوده الولايات المتحدة.. التي لم تعترف أصلا بقيام الاتحاد السوفيتي (وظلت كذلك حتى سنة ١٩٣٣). وأنه إزاء ظروفه لا يملك أموالا نقدية يمنحها. لكنه في نفس الوقت يريد علاقة طيبة بالسعودية.. وبالتالي فغربونا للصداقة سوف يعطى للسعودية شحنة من البترول السوفيتي تباعها بمعرفتها وتحصل على الثمن.. مجانا.

على ضوء ما نعرفه بعد ذلك.. فإن المفارقة هنا مزدوجة. أولا: أن الاتحاد السوفيتي يهدى جزءا من بتروله إلى دولة ناشئة لا يعرف هو، ولا تعرف هي، أنها ستصبح فيما بعد صاحبة أكبر احتياطي بترولي في المنطقة كلها !

ثانيا: أن كبار اللاعبين في الغابة الدولية كانوا يريدون أيضا كما لو أنهم في حالة اكتفاء بما تحت أيديهم من مناطق بترولية.. بما جعلهم يستكشفون البترول فعلا شمال وشرق وجنوب السعودية.. ولكن من غير السعودية ذاتها. بالطبع بريطانيا مهتمة بالسعودية.. لكن عبدالعزيز آل سعود - بالتجربة - لم يكن يثق في دوافعها. فرنسا وألمانيا لديهما تكنولوجيا قادرة على استكشاف مناطق البترول، لكنهما يركزان على مناطق أخرى. والولايات المتحدة تريد بترولا لحسابها خارج أراضيها لكنها لاتزال تترك المهمة لشركات القطاع الخاص.. مؤقتا إلى أن يتأكد وجود البترول على الأقل .

من المفارقات التي نلاحظها هنا وسوف تتكرر كثيرا كلما كان في القصة بترول.. هو أن شركات البترول الانجليزية والأمريكية هي التي نراها في الواجهة لكن في الخلفية دائما ارتباط وثيق لها بحكومة بلدها وعلى وجه الخصوص بأجهزة المخابرات في بلدها.

كل شركة تحرص على أن يكون لها رجالها المقربون من الملك السعودي.. وكذلك لمراقبة رجال الطرف الآخر المنافس داخل نفس الدائرة.

من المفارقات أيضا أن شركة البترول البريطانية نجحت في «زرع» أحد عيونها داخل دائرة الملك السعودي.. اسمه جون فيلبي. لكن جون فيلبي هذا هو نفسه الذي نصح الملك عبدالعزيز آل سعود سرا بأن يعطى الأولوية للأمريكيين.. في خيانة غير معلنة لجانبه البريطاني (من مفارقات التاريخ أيضا أن كيم فيلبي ابن جون فيلبي الذي أصبح في مرحلة تالية من أهم رجال المخابرات البريطانية في المنطقة - تبين في النهاية أنه عمل سرا جاسوسا للاتحاد السوفيتي على كل من المخابرات البريطانية والأمريكية معا. ولم تكتشف الدولتان ذلك إلا بعد لجوئه إلى الاتحاد السوفيتي).

وفي سنة ١٩٣٣ حسم الملك السعودي التنافس البريطاني الأمريكي المستتر.. فأعطى للشركات الأمريكية امتياز التنقيب عن البترول في المنطقة الشرقية (المطلة على الخليج) مقابل أن تدفع له فورا خمسة وثلاثين ألف جنيه استرليني، ثم عشرين ألفا بعد ١٨ شهرا، وخمسة آلاف كإيجار سنوي، وخمسين ألفا عند ظهور البترول، وخمسين ألفا أخرى بعد اكتشاف البترول بسنة.. على أن تخصم كل تلك المبالغ فيما بعد من ثمن البترول المستخرج ذاته. بحسبة أخرى تكون الشركات الأمريكية قد احتكرت لنفسها امتياز البترول السعودي مقابل أقل من مائة وسبعين ألف جنيه استرليني طوال السنوات الثلاث التالية.. تصرف كسلفة مؤقتة للملك السعودي.. زائد اعتراف أمريكا به ملكا.. وإن كان تبادل السفارات سيتأخر سنوات أخرى حرصا على عدم استفزاز بريطانيا.

ربما تبدو الأرقام هنا مفاجئة. لكن علينا أن ننظر إليها في إطار ظروفها وزمنها.. خصوصا أن الملك السعودي لم يكن متأكدا أصلا من وجود بترول لديه. الأمريكيون فقط كانوا يرجحون الاحتمال من خلال تقارير سرية سابقة وباعتبار أن المنطقة الشرقية بالسعودية امتداد جغرافي للكويت والعراق وإيران، التي تأكد فيها وجود البترول. وفي النهاية بدأ فعلا استخراج البترول السعودي المتوقع في سنة ١٩٣٨، وبكميات تجارية من النوع الذي يلهب خيال كبار اللاعبين!

هنا فقط بدأ الكلام الجاد. فالوحوش الكاسرة في الغابة الدولية لا تراقب الآخرين فقط، ولكنها أيضا تراقب بعضها بعضا.

بترول؟..!؟ يعني: مصدر خطير للقوة.. اقتصاديا واستراتيجيا ونفوذ وسيطرة.. يعني.. المستقبل.

إنما لأن ألمانيا بدأت الحرب العالمية الثانية ومعها إيطاليا وبعدها اليابان، فيما أصبح يسمى «دول المحور».. أصبحت بريطانيا غير قادرة على المواجهة بمفردها، ولا بد لها من إقناع الولايات المتحدة بالدخول في الحرب حليفة لها.. بل وأيضا إغراء «البيع» الكبير.. أو الشيطان الأكبر - وهو الاتحاد السوفيتي بأن يصبح جزءا من معسكر «الحلفاء» ضد معسكر «المحور». ولتراجع - مؤقتا - كل الخصومات الأخرى ضد الشيوعية والماركسية.

وكان ونستون تشرشل رئيس وزراء بريطانيا يمثل تقليدياً كل ميراث وغطرسة الامبراطورية البريطانية التي لا تغيب الشمس عن أراضيها. وبذلك الصفة هيأ لنفسه أنه قد ينجح في استخدام الآخرين لحسابه ولحساب امبراطوريته.

وإزاء الخطر العاجل المشترك.. تظاهر كل طرف بأنه يساير الآخر.

ومع اقتراب الحرب العالمية الثانية من نهايتها المظفرة ضد «المحور» و «لصالح» الحلفاء.. اجتمع القادة البارزون الثلاثة في «يالطا» بشبه جزيرة القرم في الاتحاد السوفيتي. والموضوع

المطروح هو: اقتسام غنائم الحرب. والغنيمة المطروحة في تلك اللحظة كانت أوروبا. والصفقة التي فوجيء تشرشل بأن الرئيس الأمريكي روزفلت يوافق عليها هي: شرق أوروبا من نصيب الاتحاد السوفيتي.. وغرب أوروبا من نصيب الغرب بقيادة الولايات المتحدة.

وتوجس تشرشل سرا مما يجري، لأنه كان قد أقنع نفسه - بقدرة قادر! - بأن بريطانيا العظمى يجب أن تكون الفائز الأكبر. الآن يكتشف - بكل لطف وكياسة - أن الولايات المتحدة لم تدخل الحرب لحسابه، ولا لحساب بريطانيا.. وإنما لحساب الولايات المتحدة نفسها!

وعشية انتهاء مؤتمر «يالطا» اكتشف تشرشل مفاجأة أخرى. أنه - أي تشرشل نفسه - سيعود بالطبع مباشرة إلى بلاده. أما الرئيس الأمريكي روزفلت فلديه مشوار بسيط قبل العودة إلى بلاده. مشوار إلى.. مصر!

أي مصر؟! هل يقصد الرئيس الأمريكي مصر.. المملكة المستقلة اسمياً ولكنها المستعمرة البريطانية فعلياً؟! مصر التي يديرها السفير البريطاني، وسيطر عليها مئات الآلاف من الجنود البريطانيين؟! مصر التي فتحتها بريطانيا أمام عشرات الآلاف من الجنود الأمريكيين في سياق جهود «الحلفاء» خلال الحرب العالمية الثانية؟! مصر.. التي أصبحت الولايات المتحدة تستخدم فيها القواعد العسكرية البريطانية.. - بل ولها - حتى مطارات خاصة فيها.. كذلك المطار في منطقة «الفرسوار» قرب الإسمايلية، بشكل مستقل تماماً عن القوات البريطانية المحتلة لمصر؟!!

بالضبط. بالضبط. الرئيس الأمريكي ذاهب إلى مصر. وستهب طائرته في نفس مطار «الفرسوار» الذي تديره القوات الأمريكية. لكن.. حتى لا يتصور مستر تشرشل أن الولايات المتحدة ستزاحم بريطانيا على مصر.. فإن الرئيس الأمريكي سيكون له برنامج عمل مستقل.. وسيمارسه من «الياه الإقليمية» المصرية، وليس من الأراضي المصرية. بالطبع هذا يقتضى استقبالا بروتوكوليا للملك مصر - من قبيل المجاملة - . لكن ليس هناك ما هو أكثر! ولم يسترح ونستون تشرشل بالمرّة إلى ما سمعه. خصوصاً أنه قرر لتوه أن يتجه إلى مصر أيضاً.. بينما الرئيس الأمريكي يقول له: إن هذا شأنه الخاص. الآن توجد مصالح جديدة على المحك.. في صحتك يا عزيزي ونستون.. وتصبحى على خير يا بريطانيا العظمى!!





في الحلوة .. والبحيرات اطمة !



لا جدتي ولا جدتك - ربما - سمعت عن ونستون تشرشل رئيس وزراء امبراطورية بريطانيا العظمى طوال سنوات الحرب العالمية الثانية. إنما جدتي كانت بين وقت وآخر تستدعي من ذاكرتها مخزونها من الأمثال الشعبية.. فتتساءل مثلا: إيه رماك على المرء؟.. وتردد في نفس اللحظة: الأمر منه! والحكمة هنا هي: أن الحياة ليست دائما اختيار بين الجيد والسيء وإنما تصبح أحيانا بين السيء.. والأسوأ!

تشرشل في عز مجده اقترب من نفس المعنى حينما قال: إنه شيء سيئ ان يحتاج المرء إلى حلفاء من أجل خوض الحرب.. لكن الأسوأ هو أن يخوض الحرب بغير حلفاء.

وحينما بدأت ألمانيا الحرب العالمية الثانية في سنة ١٩٣٩ كان الخيار الأول لبريطانيا هو أن تتصدى لها بالاشتراك مع فرنسا. لكن بعد أن استسلمت فرنسا وصعد نجم ألمانيا بسرعة البرق اكتشفت بريطانيا - حتى وهي امبراطورية عظمى - أنها لن تستطيع مواجهة ألمانيا بمفردها فبدأت تلح على الولايات المتحدة بالانضمام إليها ضد المانيا (ومعها إيطاليا، ثم اليابان).

الأمريكان حسبوها من حيث المكسب والخسارة. هم في بلدهم يفصلهم المحيط الأطلنطي عن أوروبا شرقا والمحيط الباسفيكي عن آسيا غربا، لماذا وجع الدماغ؟ ولماذا التضحية والخسارة؟ إنما - وبغير أن نحسب المكاسب هنا بالدولارات - اختارت الولايات المتحدة أن تمد بريطانيا بالأسلحة، والدفع نقدا أو حين ميسرة. .. يا بخت من نفع واستنفع! يعني مصانع الأسلحة الأمريكية تشتغل وتبيع وتكسب.. وبريطانيا تحارب هناك.. في أوروبا ضد عدوها الجديد الذي تخشاه. ضد ألمانيا وباقي دول المحور.

ثم قامت اليابان في ديسمبر سنة ١٩٤١ بضربة جوية ضد القاعدة البحرية الأمريكية في «بيرل هاربور» في الساحل الغربي الأمريكي. وفي غمضة عين ضاع كل الأسطول الأمريكي في القاعدة.. من طائرات وسفن حربية. أسباب الضربة لها قصة أخرى، إنما المهم أن أمريكا بعدها دخلت الحرب العالمية الثانية رسميا.. ولأنها الأكبر والأغنى فقد اشترطت أن يعمل معسكر «الحلفاء» تحت قيادتها.

فى الحرب أسلحة.. وبشر. الأسلحة يمكن شراؤها بالنقد أو بالدين أو بالاستعارة. إنما البشر قصة معقدة. فبالتدريج، وباسم المجهود الحربى، أصبح يتدفق على بريطانيا نفسها مئات الآلاف من الجنود الأمريكيين فى قواعد حربية خاصة بهم، مع ذلك كانت مشاعر المواطنين العاديين نحوهم خليطاً من الترحيب والتأفف. الترحيب لأن الضرورة لها أحكام. أما التأفف فلأن الانجليز حتى تلك اللحظة كانوا ينظرون للأمريكان على أنهم همج، ناس أصبحوا أغنياء قبل أن يصبحوا حكماء. ويتصرفون بعنجهية قبل أن يصبحوا متحضرين. وفى النوادى الليلية يقضون إجازتهم بالوقوع فى غرام الفتيات الإنجليزيات. حتى دوايت إيزنهاور – الجنرال الأمريكى الذى أصبح قائداً عاماً لقوات «الحلفاء» فى أوروبا، دخل فى علاقة غرامية مع السكرتيرة الانجليزية.. متناسياً أنه متزوج ورب أسرة.. حتى ولو كانت أسرته بعيدة عنه فى أمريكا.

من التحالف أيضاً أصبح على بريطانيا أن تعطى لأمريكا تسهيلات فى كل بلد يخضع للنفوذ البريطانى. فى مصر مثلاً.. حيث بريطانيا هى قوة الاحتلال ولها قواعد عسكرية ضخمة ومعاهدة رسمية تضع مصر كلها تحت تصرفها.. تدفق عشرات الآلاف من الجنود الأمريكان. وبالطبع يصبح لهم نفس الامتيازات المكفولة للجنود البريطانيين فى مصر.. وأولها الدخول والخروج بغير استئذان أو حتى تأشيرة دخول من الحكومة المصرية. فى الواقع إن الحكومة المصرية ذات نفسها لم تكن تعرف أى شئ عن كل تحركات قوات الحلفاء على أرضها حتى حينما تقدمت القوات الألمانية بقيادة ثعلب الصحراء، روميل، من ليبيا نحو الأسكندرية، ثم حينما حشدت بريطانيا جيشاً بقيادة مونتيجمورى لواجهته عند السلوم.. كانت الحكومة المصرية تعرف بما يجرى من الصحف ووكالات الأنباء!

وأحد الأسباب الجوهرية فى هزيمة «روميل» فى معركة العلمين واضطراره إلى الانسحاب.. كان نجاح الأسطول البحرى البريطانى فى منع وصول إمدادات البترول إليه. وبريطانيا نفسها أصبحت تحصل على احتياجاتها من البترول من أمريكا. وكله.. بحسابه.

حينما اجتمع الحلفاء الثلاثة الكبار – روزفلت عن امريكا، وتشرشل عن بريطانيا وستالين عن الاتحاد السوفيتى فى «يالتا» سنة ١٩٤٥ كان الاجتماع للاتفاق على توزيع غنائم الحرب، بعد أن أصبحت هزيمة المانيا النهائية محسومة خلال اسابيع وبعدها اليابان. فى الاجتماع أعيد رسم خريطة أوروبا بعد الحرب.. وعلى الهامش جزء بسيط من الشرق الأوسط فى مقدمته إيران.

فالزعيم السوفيتى جوزيف ستالين – الذى تحتل قواته شمال ايران – يريد الاعتراف ببلده بمصالح دائمة فى ايران ما بعد الحرب.

تشرشل هنا.. رأسه وألف سيف. ايران يعنى البترول. وبريطانيا مصممة على أن بترول ايران، – زائد العراق والخليج – هو من نصيبها. ونصيبها وحدها. هنا بالذات قام الرئيس الأمريكى

بتأييد تشرشل في موقفه. أحد الأسباب كان وجود اتفاقية سرية سابقة عرفت باسم «اتفاقية الخطوط الحمراء» تعترف فيها الولايات المتحدة بأن تكون الشريك الأصغر في بتروال المنطقة، لأنها هي بذاتها دولة بتروولية كبرى.. بينما بريطانيا هي الشريك الأكبر..

وقبل أن يهنئ تشرشل نفسه على هذا الدعم الأمريكي في مواجهة ستالين جاءت المفاجأة الأكبر. ففي الليلة الأخيرة لمؤتمر «يالتا» انتحى الرئيس الأمريكي روزفلت بتشرشل جانبا ليقول له بشكل عابر إنه ربما يمر بمصر في طريق عودته إلى الولايات المتحدة.. مصر؟.. طيب يلزمك أي شئ ترتبه لك في مصر؟ تحب أبعت لسفيرنا في القاهرة لكي يعطى تعليماته لملك مصر ليكون في استقبالك؟ تحب أجيء أنا نفسي معاك فيظهر للعالم كله مرة أخرى كم نحن حلفاء؟

لا.. لا.. ياعزيزي ونستون.. طول عمرك كريم: إنما مشواري إلى مصر لا علاقة له بمصر أصلا. المسألة هي أن أبنائي الجنود الأمريكيون هناك. الزيارة لرفع معنوياتهم وبعدها عندي برنامجي الخاص. إنما إذا كان لديك إصرار بهذا الشكل.. فيمكن لنا الاجتماع معا فيما بعد.. فليكن مثلا في ميناء الاسكندرية.. تصبح على خير.

بالنسبة لبريطانيا العظمى.. الموضوع لاعلاقة له بالخير!

الموضوع فيه برنامج خاص، وعزف منفرد، وآخرة المشوار. هكذا، لعب الفأر في عب تشرشل. بريطانيا تحالفت مع أمريكا على الحلوة والمرة. الحرب - وهي المرة - في طريق النهاية. أين الحلوة؟

لم يشف الرئيس الأمريكي غليل ونستون تشرشل. فقط استقل الطائرة إلى مطار الدفرسوار في مصر. ومن هناك بالسيارة إلى شاطئ قناة السويس. وهناك انتقل إلى طراد أمريكي جاهز في انتظاره. سفينة حربية اسمها «كوبينسي». في تلك السفينة سيعاد رسم خرائط النفوذ الدولي في الشرق الأوسط لعشرات قادمة من السنين، وحتى بغير أن تعرف دول الشرق الأوسط نفسها أي شئ.. وفي مقدمتها مصر التي يوجد الرئيس الأمريكي في مياها الإقليمية الآن لعدة أيام!

في اليوم الأول قام الرئيس روزفلت باستقبال فاروق ملك مصر من باب المجاملة. وبمجرد أن جلس الملك فاروق في مقعده انفجر في الشكوى والاستغاثة. أما الشكوى فمن سوء معاملة السفير البريطاني في مصر للملك و: يسيادة الرئيس.. حتى لو كانت بريطانيا تحتل مصر.. إلا أن سفيرها يمكن أن يجاملني قليلا بصفتي ملك مصر والسودان. أما الاستغاثة فهي لكي يدعوه الرئيس روزفلت إلى زيارة أمريكا رسميا فربما يرفع هذا من مكانته في نظر سفير بريطانيا في مصر!

وحصل الملك فاروق يومها من روزفلت على كثير من الابتسامات وبعض كلمات المواساة. لكن ليس أكثر.

بعده استقبل الرئيس الأمريكي «هيلاسلاسي» امبراطور الحبشة. لقد جاءت به من أديس أبابا طائرة حربية أمريكية بغير أن يعرف سبب استدعائه، خير؟.. صحيح أن أمريكا ليست لها حاليا مصالح كبرى في الحبشة.. إنما يمكن أن يكون لها في المستقبل.. فتحتاح مثلا إلى تسهيلات لاستقبال الطائرات الأمريكية الذاهبة إلى - أو القادمة من - الهند وما وراءها.

ثم جاء الاجتماع الثالث الذي هو مربط الفرس في كل هذا المشوار. اجتماع مع الملك عبدالعزيز آل سعود ملك الدولة السعودية الناشئة حديثا ولا يوجد لأمريكا سفير لديها.. وإنما مجرد وزير مفوض أو قائم بالاعمال، لأن بريطانيا اعتبرت من قبل أن وجود سفير لأمريكا في السعودية سيكون تطورا غير ودي أو طمعا في مصالحها. أمريكا سايرت الأنجليز حتى لا تثير شكوكهم قبل الأوان. وسواء كان الأسم «سفيرا» أو «غفيرا» فهو ممثل رسمي لأمريكا في السعودية، أما الأكثر أهمية فهو أن أمريكا نجحت في أن يكون لها رجلها الخاص - اسمه الكولونيل ويليام إيدي - الذي أصبح مقربا من الملك تحت اسم «مستشار خاص» وتتحمل الحكومة الأمريكية مرتبه. وفي الدوائر الأمريكية المعنية كان يعرف «ويليام إيدي» بأنه رجل المهمات الخاصة،.. وهو يجيد اللغة العربية تماما. وهو الذي سيتولى حالا مهمة الترجمة بين الملك السعودي والرئيس الأمريكي.

وحتى يجيئ الملك السعودي في شكل أمريكي لائق، فقد أرسلت إليه أمريكا مدمرة ضخمة - أصبحت أول سفينة حربية أمريكية تدخل مياه جدة - مع تعليمات مشددة لقائد المدمرة بأن يوفر للملك وصحبه كل وسائل الراحة. وفي الرحلة من جدة إلى قناة السويس لأبأس من إطلاع الملك على الأماكن الحربية الجبارة للمدمرة بل وحتى إطلاق بعض قذائف الأعماق في عرض البحر الأحمر استعراضا لقدرة التكنولوجيا الأمريكية في اصطاد السفن المعادية.. حتى ولو كانت غواصات تحت الماء.

هكذا استقل الملك عبدالعزيز المدمرة مع ٤٨ من أفراد حاشيته. وحينما طلب الملك من قائد المدمرة شحن بعض الخراف الحية وروعوس الضأن لزوم مآذب الغذاء والعشاء التي سيقمها.. رحب الضابط الأمريكي بالطلب فورا، فبعد كل شيء.. هي الولايات المتحدة - فقط - التي تستطيع سفنها الحربية التكيف مع أية مفاجأة !

كانت تلك هي المرة الأولى التي يغادر فيها الملك عبدالعزيز أراضيها إلى الخارج. في هذه المرة يسافر بدعوة من فرانكلين روزفلت رئيس الولايات المتحدة، الدولة الكبرى التي تتزعم معسكر المنتصرين في الحرب العالمية الثانية. وعلى الرغم من سنه المتقدمة.. وحالته الصحية غير الطيبة بسبب ضعف متزايد في قدميه.. فإنه كان يقظ الذهن بما يسمح له بملاحظة ذلك القدر من التنافس على مملكته الناشئة خلال السنة الأخيرة. تحديدا التنافس بين الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى.

قبل عشرة أشهر فقط عملت بريطانيا بهمة على اقناع الملك باستبعاد بعض كبار موظفيه المقربين منه.. على أساس أنهم أصدقاء مقربون من الأمريكيان.. وأمريكا كلامها كثير وفعلها قليل.. وبريطانيا العظمى هي فقط التي يمكن الاعتماد عليها لأن مصالحها في المنطقة كبيرة ودائمة.. بينما اهتمام أمريكا بالمنطقة سينتهي بنهاية الحرب العالمية الثانية. وقبل أربعة أشهر فقط عادت بريطانيا تلح على الملك عبدالعزيز من جديد ليرفض طلبا أمريكيا بالسماح لها - أي للولايات المتحدة - بإقامة قاعدة جوية لها في الظهران.. شرق السعودية. والآن.. هاهو الرئيس الأمريكي نفسه يدعو الملك عبدالعزيز إلى الاجتماع به في المياه الإقليمية المصرية بقناة السويس. إنما السؤال هو: إذا كان الرئيس الأمريكي قد استقل الطائرة من شبه جزيرة القرم في الاتحاد السوفيتي إلى مصر.. فلماذا لم يذهب مباشرة إلى جدة أو الرياض فيتم الاجتماع المطلوب على أرض السعودية ذاتها؟ هل لأن الولايات المتحدة لا تريد إغضاب بريطانيا؟

لكن بريطانيا هي في مصر قوة احتلال.. وبالتالي فهي صاحبة النفوذ الأول فيها.. فهل اختيار البحيرات المرة وسط قناة السويس، وعلى متن سفينة حربية أمريكية بحراسة أمريكية هو ضمان كاف ضد تلصص بريطانيا العظمى على ما سيجري؟

لم تكن لدى الملك السعودي إجابات قاطعة على تلك التساؤلات. ليس بعد. إنما الأمر الذي كشفته الوثائق فيما بعد هو أن التناقض بين بريطانيا وأمريكا أصبح على أشده مع اقتراب الحرب العالمية الثانية من نهايتها. تناقض شديد الضراوة بين امبراطورية عظمى تعتبر أن الشرق الأوسط في معظمه هو من بين ممتلكاتها، وبين قوة بازغة - أكبر - ترى أن الزمن يتغير لصالحها. صحيح أن بريطانيا امبراطورية عظمى.. بل ويجمعها مع الولايات المتحدة لغة مشتركة.. إنما السياسة مصالح دول وشعوب.. وفي لغة المصالح الباترة لأمجال لمجاملات أو تهيات. هناك فقط حقائق حتى ولو كان من نتائجها جرحى ودماء.. وسيل من الدولارات.

تلك الحقائق كانت حتى تلك اللحظة محاطة بأسوار مرتفعة من السرية. أقصى درجات السرية. في الواقع إنه قبل اجتماع البحيرات المرة هذا بسنة، وبالتحديد في ٢٠ فبراير سنة ١٩٤٤ - بعث ونستون تشرشل رئيس وزراء بريطانيا ببرقية سرية خشنه اللهجة إلى الرئيس الأمريكي فرانكلين روزفلت تصرف فيها الأول على أن دولته امبراطورية عظمى بينما الثانية هي مجرد عابر سبيل.

كانت الولايات المتحدة تفكر في عمل اجتماع مشترك مع بريطانيا لمناقشة مسألة البترول في الشرق الأوسط. في البداية وافقت بريطانيا على أساس أنه سيكون اجتماع خبراء. لكن بمجرد أن عرفت أن الوفد الأمريكي سيكون برئاسة وزير الخارجية توجست الشر كله.. فهذا التحول يعني أن الموضوع سيصبح قضية سياسية تكون فيها أمريكا الطرف الأقوى. هكذا كتب تشرشل إلى حليفه

الكبير روزفلت مسجلا اعتراضه، لأن هذا قد يعنى «رغبة لدى الولايات المتحدة فى حرماننا من ممتلكاتنا البترولية فى الشرق الأوسط، وهى التى يعتمد عليها، - ضمن اعتبارات أخرى - أسطولنا البحرى فى كل امداداته».

يومها رد الرئيس الأمريكى على تشرشل يطمئنه إلى أن الولايات المتحدة ليست لها مظاهر فى بترول إيران والعراق. وردا على هذا الكرم كتب تشرشل من جديد إلى الرئيس الأمريكى برقية سرية فى الرابع من مارس سنة ١٩٤٤ يقول له فيها: «أشكركم شكرا جزيلا على تأكيداتكم الخاصة بعدم التطلع إلى حقول بترولنا فى إيران والعراق، ودعنى أعاملك بالمثل فأعطيكم التأكيد بأنه ليس لدينا أى تفكير فى محاولة إقحام انفسنا فى مصالحكم أو ممتلكاتكم فى المملكة العربية السعودية».

مع ذلك، فقد اتخذ تشرشل خطوتين، أولا: ألح على الرئيس الأمريكى بأن تظل كل هذه المداولات بين البلدين عن بترول الشرق الأوسط مداولات سرية، أقصى درجات السرية، ربما لكى لايتنبه المنافسون الآخرون إلى مايجرى، وربما لكى لاتعرف دول المنطقة ذاتها أهمية الثروة الضخمة هذه التى توجد فى أراضيها.

أما الخطوة الثانية فقد كانت أبسط من ذلك.. فحبا فى الإنسانية ورغبة فى مكافحة الجراد المحتمل خطره فى شرق السعودية.. أرسلت بريطانيا خمسمائة خبير من عندها لبحث الموقف.

وخلال فترة قصيرة تلقى الرئيس روزفلت مكالة تليفونية من وزير بحريته «جيمس فورستال». فى المكالة ينقل الوزير إلى رئيسه اكتشافا خطيرا جرى للتو: إن الخمسمائة رجل الذين بعثت بهم بريطانيا متنكرين تحت اسم خبراء لمكافحة الجراد من باب الإنسانية. هم جواسيس وخبراء هدفهم الحقيقى هو: «أن يروا ماذا نفعل نحن هناك وما حجم البترول الذى اكتشفناه فى تلك المنطقة شرق السعودية».

ونصح الرئيس الأمريكى بالهدوء وطمأنه «رجالنا» - أى رؤساء شركات البترول الأمريكية - و: «دعنا نتظاهر بأننا نصدق بريطانيا فى حبها للإنسانية، ونقتصر نحن أيضا باعتبارنا محبين للإنسانية! وبالعكس.. ساعة الجد قد يكتشف البريطانيون أننا أكثر منهم حبا فى الإنسانية».

لم يكن هدوء الرئيس الأمريكى هنا من فراغ.. فالعيون والآذان الأمريكية كانت تحيط بالملك السعودى وأسرته من كل جانب فى شكل مستشارين أو مجرد ممثلين لشركة البترول الامريكية العاملة فى شرق السعودية. شركة اسمها «ارامكو» تنوب بدورها عن أربع شركات بترول أمريكية كبرى .

وكما كشفت الوثائق فيما بعد فإن العلاقة كانت وثيقة بين رجال شركة «أرامكو» هذه وبين «مكتب الخدمات الاستراتيجية» الذي تحول فيما بعد إلى «وكالة المخابرات المركزية الأمريكية» .

وحسب كتاب جديد بعنوان «البترول والله والذهب: قصة أرامكو والملوك السعوديين» لمؤلفه أنطوني براون وصدر في سنة ١٩٩٩ من ٤٢٠ صفحة يكشف المؤلف مثلاً عن أنه في إحدى العمليات السرية ميكرا في سنة ١٩٤٥ عملت شركة «أرامكو» بتنسيق مع «مكتب الخدمات الاستراتيجية» الأمريكي للحصول على عينات من بول وبراز الملك عبدالعزيز آل سعود سرا وتحليلها طبياً لتشخيص وضعه الصحي الحقيقي . مهمة علق عليها مسئول بوزارة الخارجية الأمريكية قائلاً: «نادراً ما أصبح المرحاض الذي يستخدمه عاهل أجنبي موضع اهتمام بهذا القدر من رجال مخابراتنا» .

هذا يعيدنا إلى ذلك اليوم الحاسم، ١٤ فبراير سنة ١٩٤٥، في البحيرات المرة وسط قناة السويس المصرية.. حينما بدأ أخيراً ذلك الاجتماع بين الملك عبدالعزيز آل سعود والرئيس الأمريكي فرانكلين روزفلت.. بناء على دعوة من الأخير .

وبعد ترحيب بالملك السعودي قال فرانكلين روزفلت: إننى سعيد برؤيتك. والآن أحب أن اسمع منك.. ماذا تود أن أفعل لك ؟

وبعد الترجمة فوجئ الرئيس روزفلت بالرد. قال له الملك القادم من الصحراء: اننى سعيد باستقبالكم الودى لكنك أنت الذى رغبت فى رؤيتى ولهذا أفترض أن لديكم ماتقولونه لى!





..أمر بخصنا وحدنا !



على الرغم من أننا لانزال فى سنة ١٩٤٥ والأحداث على أرض فلسطين ساخنة فإن المستقبل كان باديا فى الأفق. فبريطانيا هى سلطة الانتداب التى تحتل فلسطين لكنها أيضا صاحبة «وعد بلفور» الذى وعد مبكرا بمساعدة اليهود على أن يكون لهم وطن قومى فى فلسطين. مع ذلك، وبرغم الخطط المتتابة لتهجير أكبر عدد ممكن من يهود أوروبا إلى فلسطين... فإنهم استمروا أقلية سكانية صغيرة.

لقد عوضوا ذلك بالانخراط فى تشكيلات مسلحة، علنية وسرية، لم تعد تهاجم الفلسطينيين فقط، وإنما بدأت تهاجم أيضا سلطات الانتداب البريطانية. والهدف الثابت من كل هذا هو التعجيل بإقامة دولة يهودية فى فلسطين على حساب أصحاب الأرض انفسهم، بعد أن اضطرت بريطانيا إلى إعطاء العرب وعودا مناقضة، مكافأة لهم على مساعدتها فى مجهودها الحربى:

وفى هذه المرة الأولى التى يجتمع فيها الرئيس الأمريكى فرانكلين روزفلت مع الملك عبدالعزيز آل سعود فى البحيرات المرة بقناة السويس أراد روزفلت أن يبدأ أولا بفتح شهية الملك السعودى للحديث فقال له: أريد أن اسمع رأيك بشأن المشكلة الفلسطينية... بصفتك قائدا عربيا بارزا.

هكذا انطلق الملك السعودى فى رده على رئيس الولايات المتحدة - قائد معسكر «الحلفاء» فى الحرب العالمية الثانية التى تقترب من نهايتها - يفند له الحجج المطروحة صهيونيا فى عواصم الغرب. فلسطين ملك لشعبها، وحق العرب فيها ثابت منذ ٣٥٠٠ سنة، بينما اليهود كانوا فيها من قبل مجرد عابرين، وهم الآن دخلاء على فلسطين. وإذا أراد الغرب حلا للمسألة اليهودية فليفعل ذلك عالميا.. ولكن ليس على حساب فلسطين. والمساعدة الغربية للصهيونية فى فلسطين لن تكون خطرا يهدد فلسطين وحدها، بل سيهدد سائر البلاد المجاورة بامتداد الشرق الأوسط كله.. خصوصا أن مطامع اليهود ليست فى فلسطين وحدها بل هم يتوون العدوان على ما يجاورها من البلدان العربية وستكون الدولة اليهودية أكبر العوامل فى إفساد ما بين العرب و«الحلفاء».

استمع الرئيس الأمريكي إلى كل ذلك باهتمام مكتفيا بالرد بأنه شخصيا لن يتخذ أى قرار بالنسبة لفلسطين دون استشارة مع كل العرب واليهود... لكنه مجرد رئيس للفرع التنفيذي (الحكومة).. وبالتالي لا يستطيع أن يمنع مناقشات الكونجرس والصحافة الأمريكية فى هذا الموضوع !

بعدها انتقل الرئيس الأمريكى إلى صلب الموضوع ، الذى جاء له أصلا إلى هنا فى البحيرات المرة، وجعله يدعو الملك السعودى إلى مقابلته لأول مرة، وهو: البترول. ولأن روزفلت كان يتابع خلال السنة الأخيرة تحديدا مفاوضات الإنجليز خلف الكواليس تنافسا مع الولايات المتحدة على النفوذ السياسى والبترولى فى منطقة الخليج - ومن بينها السعودية - فقد بدأ بكلمات موحية.. قال فيها للملك عبد العزيز: إننا نحب الإنجليز لكننا أيضا نعرف الإنجليز ونعرف الطريقة التى يصرون بها على فعل الخير بأنفسهم. أنت وأنا نريد الحرية والرخاء لشعبينا ولجيراننا بعد الحرب (العالمية الثانية). أما كيف ويبد من تتحقق الحرية ويجئ الرخاء.. فهذا أمر يخصنا وحدنا.

الكلام واضح.. وما أوله شرط، آخره نور. فما يتكلم فيه رئيس الولايات المتحدة مع ملك السعودية هو أمر يجب ألا تكون بريطانيا - أو غيرها - طرفا فيه، حتى ولو كانت بريطانيا هذه أقرب الحلفاء إلى الولايات المتحدة طوال الحرب العالمية الثانية. أصحاب... أحباب.. حلفاء على العين والرأس. إنما المصالح.. مصالح .

ثم أضاف الرئيس الأمريكى قائلا: إن الانجليز أيضا يعملون ويضحون من أجل تحقيق الحرية والرخاء للعالم لكن بشرط أن تتحقق تلك الأمور على أيديهم وأن تصدر مكتوبا عليها «صنع فى بريطانيا».

هم إذن - أولئك الانجليز - محبوبون للخير والحرية والرخاء. والأمريكيون يريدون أيضا نفس الخير والحرية والرخاء للعالم.. لكن ابتغاء مرضاة الله وثواب الدنيا والآخرة !
إذن: لتتكلم أولا فى.. الدنيا. فى البترول. وليكن هذا «أمرا يخصنا وحدنا».

والنتيجة: اتفاق امريكى سعودى من ثلاثة أجزاء: فأولا: تدفع الشركات الأمريكية إلى الحكومة السعودية ٢١ بنسا - بدلا من ١٨ بنسا - عن كل برميل بترول تستخرجه من السعودية (الدولار الأمريكى يساوى مائة بنس). ثانيا: توسيع منطقة الامتياز التى تحتكرها الشركة الأمريكية لتصبح مليون ونصف المليون كيلومتر مربع أى نحو ثلاثة أرباع كل مساحة المملكة. ثالثا: يستمر العمل بهذا الاتفاق ستين سنة تنتهى فى سنة ٢٠٠٥.

بهذا الاتفاق - الذى ظل مضمونه سريا لبعض الوقت، تكون الولايات المتحدة قد سجلت انقلابا حقيقيا فى موازين القوة الاقتصادية والاستراتيجية لصالحها، وأغلقت الباب مسبقا أمام منافسة

ومزاحمة الصديق والعدو. انقلاب جعل جريدة «النيويورك تايمز» الأمريكية تعلق خلال أسبوع على ماجرى فى البحيرات المرة باعتبار أنه يشكل «المرحلة الثانية من محادثات يالتا».

كان اجتماع «يالتا» هدفه تقاسم مناطق النفوذ فى أوروبا بين الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة.. بينما بريطانيا تصبح ذبلاً للأخيرة. أما فى اجتماع البحيرات المرة فقد بدأت الولايات المتحدة عملياً فى إزاحة بريطانيا من عرش سيطرتها البترولية فى الشرق الأوسط. بالطبع.. ستظل بريطانيا مسيطرة بترولياً فى إيران والعراق ومشيخات الخليج لكن الولايات المتحدة غير متعجلة، لأنها - وقد ضمنت إبعاد الاتحاد السوفيتى عن الشرق الأوسط انشغالاً بمكاسبه فى أوروبا الشرقية - تريد الآن زحزحة حليفها البريطانى من الشرق الأوسط بكل لطف وكياسة وحب للخير والحرية والرخاء والانسانية.. نفس الحب الذى تتغنى به بريطانيا.

ولأن ونستون تشرشل رئيس وزراء بريطانيا استعماري مخضرم.. وامبراطورى بالثلاثة.. وقال من قبل إنه مصمم على ألا يشهد فى حياته تصفية الامبراطورية البريطانية.. فقد غير برنامج رحلته بعد انتهاء مؤتمر «يالتا». فبدلاً من العودة إلى بلاده مباشرة ذهب أولاً إلى اليونان، ومن هناك إلى الاسكندرية لى يجتمع مرة أخرى، ومنفرداً، مع الرئيس الأمريكى روزفلت.

فى الاجتماع انتظر تشرشل من حليفه الكبير أن يتحدث معه، ولو من باب الثرثرة، عن نتائج اجتماعاته فى البحيرات المرة وسط قناة السويس، أبداً. وبدل أن يحدثه روزفلت عن السعودية وبترولها، حدثه عن اليابان وآخر معاركها الضارية ضد معسكر «الحلفاء» فى آسيا والمحيط الباسيفيكي.

الفأر لعب فى عب تشرشل. اليابان؟ ومعاركها الضارية؟ اليابان تطالع فى الروح وهزيمتها النهائية مجرد مسألة وقت. إنما البترول.. وبترول الشرق الأوسط تحديداً.. أين محله من الإعراب؟

لم ييأس تشرشل.. لقد تظاهر بأنه يصدق الرئيس الأمريكى، ويصدق من كل قلبه. إذا كان الرئيس الأمريكى يرى ان اليابان هى موضوع الساعة.. فليكن.. هى موضوع الساعة. إنما بالنسبة لتشرشل.. البترول هو موضوع الدقيقة.. هذه الدقيقة. هكذا ترك تشرشل الرئيس الأمريكى لى يكمل رحلته عائداً إلى بلاده وبعدها مباشرة خطف تشرشل رجله إلى القاهرة. بالطبع تشرشل لايعنيه فى القاهرة مقابلة الملك فاروق، ملك مصر، حيث الملك هو من عهدة السفير البريطانى. سيقابله تشرشل طبعاً، وفى حضور السفير، إنما من باب الفضول لأكثر.. لأن الرئيس الأمريكى قابله فى البحيرات المرة. تشرشل سيقابل أيضاً هيلاسلاسى امبراطور الحبشة. ومرة أخرى.. سيقابله فقط تحسلاً للملابسات «استدعائه» لمقابلة الرئيس الأمريكى فى البحيرات المرة.. لا.. لا..

تشرشل عينه على ملك السعودية. أين الملك عبدالعزيز؟ إنه يستجم في الفيوم. إذن.. هيا بنا يا أنتوني (إيدن.. وزير خارجيته) إلى الفيوم. في الفيوم حاول تشرشل الاستعماري العجوز استنطاق الملك السعودي بأى شئ مما جرى بينه وبين الرئيس روزفلت. اسكت.. هس. الملك حويط. ثم إن روزفلت كلماته مستمرة في الرنين حيث: «ما بيننا هو «أمر يخصنا وحدنا». والآن، إذا كان لدى مستر تشرشل - باعتباره رئيس حكومة الامبراطورية العظمى ومحباً للخير والإنسانية - ما يقوله أكثر من الرغبة في الحرية والديمقراطية والرخاء، فالملك يرحب بالاستماع. فيما عدا ذلك، فإن كل ما لدى الملك ليقوله من انطباعات عن اجتماعه مع الرئيس الأمريكي في البحيرات المرة هو أن مستر روزفلت رجل لطيف وظريف ومجامل.. وأهداه فوراً كرسيًا متحركاً حتى لا يتعب الملك قدميه الضعيفتين أكثر من اللازم!

بالطبع.. لم يجرى تشرشل إلى الفيوم خصيصاً لكي يعبر عن اهتمامه بالحالة الصحية للملك عبدالعزيز آل سعود.. معلش يا زهر! معلش بريطانيا العظمى! انت قيمة ومركز واستعمار امبرطوري ميري.. إنما للزمن احكام. والآن تخرج بريطانيا العظمى من معمة الحرب العالمية الثانية وهي منتصرة عسكرياً - صحيح - إنما الوجه الآخر للعملة هو انها أصبحت مدينة بستة مليارات دولار لذات نفس امريكا.. حليفها الكبير. إنها مدينة أيضاً لدول عديدة من بينها مصر، التي حكمت عليها بريطانيا بالعمل لحسابها مساهمة في الجهود الحربية البريطانية مقابل الدفع.. حين ميسرة. مصر هذه - الدائنة لبريطانيا وليس عندها ولا عند ملكها - فاروق - سوى السمع والطاعة. إنما حينما تكون أمريكا هي الدائنة، يصبح على بريطانيا السمع والطاعة.

وأمریکا هذه خرجت من الحرب العالمية الثانية وهي الأقوى اقتصادياً واستراتيجية على مستوى العالم.. فمقابل خسائر قليلة، بشريا وماديا، أصبحت الولايات المتحدة تملك بمفردها نصف الرصيد العالمي من الذهب بما في ذلك مخزون بريطانيا من الذهب في جنوب افريقيا، الذي اشترط روزفلت مسبقا التنازل عنه لحساب أمريكا حتى تستمر أمريكا في إعطاء الأسلحة إلى بريطانيا لكي تستمر الأخيرة في مواجهتها العسكرية ضد ألمانيا ودول «المحور». وأمريكا خرجت من الحرب أيضاً وهي بمفردها تنتج نصف ما ينتجه العالم كله من البترول والفحم والكهرباء وأسطولها التجاري أصبح لأول مرة أكبر وأضخم من أسطول الامبراطورية البريطانية وموجود في كل محيطات العالم.

الآن تكسب الولايات المتحدة أيضاً مواقع جديدة حاکمة على حساب بريطانيا. آخر تلك المواقع هي السعودية التي سیتأكد مع الوقت أن في أراضيها الصحراوية الجرداء أكبر مخزون بترولی تملكه دولة منفردة في العالم كله.. باستثناء أمريكا نفسها. أمريكا نفسها دولة بترولية. وتستطيع الاستغناء ببترونها عن كل بترول العالم. لكن بترول العالم - خصوصا في السعودية وايران والعراق

والخليج - يظل أرخص تكلفة وأضخم ربحاً! ثم إن البترول ليس مجرد سلعة تجارية تحقق الأرباح الفلكية لمن يسيطر عليها بل له أيضاً قيمة استراتيجية.

فبالقنم والمسطرة.. هناك حرب عالمية سوف تنتهي وشيكا، بعد خراب الحرب. هناك توجه حتمى إلى إعادة بناء وتعمير ماخربته الحرب. فاليابان - وكل أوروبا الغربية - سوف تكون عطشى للبترول.. خصوصاً وهى جميعاً حتى تلك اللحظة ليس لديها أى بترول تختزنه أراضيها. فى تلك الحالة ليس هناك - حتى تلك اللحظة - سوى مصدرين اثنين للحصول على البترول. أولاً: من الولايات المتحدة نفسها.. وقد فعلت ذلك بالنسبة لحلفائها حينما قطعت ألمانيا عليهم خطوط إمدادهم بالبترول فى السنوات الأولى من الحرب العالمية الثانية. لكن أمريكا فعلت ذلك لظرف طارئٍ تحتتمه الحرب. الآن قرارها أصبح هو أن تحتفظ لنفسها ببترولها الخاص بنظرية.. القرش الأبيض ينفع لليوم الأسود. ثانياً: من مصادر البترول المبشرة فى الشرق الأوسط.. خصوصاً ان تكلفة استخراجهِ وتسويقه أقل كثيراً.. والباقي كله مكسب.. ومكسب معتبر.. للشركات التى تستخرجه، وكلها شركات أجنبية، معظمها أمريكية وبريطانية.

وتلك الشركات أصبحت هى التى تسيطر على وتتحكم فى سوق البترول حول العالم من حيث الكميات والأسعار. ومع انها غالباً شركات قطاع خاص.. إلا أنها لاتتحرك قبل ضمان موافقة حكومات بلادها.

الحكومة الأمريكية مثلاً نهبت على شركاتها بعدم التصرف فى أى جزء من أسهمها ورأس مالها إلا بعد الحصول مسبقاً على موافقة حكومية. كذلك فإنها لا تتجه إلى التنقيب عن البترول فى أى بلد إلا بعد موافقة الحكومة الأمريكية. والمعلومات التى تحصل عليها سواء بوجود بترول من عدمه.. وأماكن وجوده وتقدير كمياته.. تظل هى سر الأسرار الذى يجب حجبهِ تماماً عن البلد نفسه صاحب الأرض والبترول، حتى لايعرف ذلك البلد حجم وطبيعة الكنز الموجود فى باطن أراضيهِ! حتى الأرباح الفعلية التى تحققها شركات البترول هى أيضاً أسرار عليا. وفى السنوات ما بين ١٩٣٤ و ١٩٤٣ مثلاً حققت الشركة البريطانية التى تستخرج البترول من إيران ثمانمائة مليون دولار أرباحاً صافية.. بينما كل مادفعته لايران من رسوم فى نفس الفترة أقل من مائة مليون دولار. فى السعودية اتفقت أمريكا لتوها على أن تدفع شركاتها إلى الحكومة السعودية ٢١ سنتاً عن كل برميل.. بينما استمرت ٢٨ سنة بعدها تباع البرميل بدولارين. فى العراق نفس الشئ.. هكذا أصبح البترول عنواناً لأكبر عملية نهب منتظمة فى القرن العشرين.

وشركات البترول لم تكن مجرد شركات. كانت تتصرف على أنها دول داخل الدول. فى «الشركة البريطانية الإيرانية للبترول» مثلاً أصبحت للشركة أجهزة مخابراتها الخاصة وشبكة معلوماتها التى تتابع أولاً بأول.. ليس فقط الوضع السياسى فى إيران.. ولكن الحالة المالية

والاقتصادية والصحية لكل النخبة الحاكمة.. بما فيها من سياسيين ووزراء وأحزاب وصحف وبنوك وحكومة ومعارضة وتقابات عمل ونواد كبرى. ومن الغريب أن دول البترول في تلك السنوات لم تكن تطالب بأى زيادة في الرسوم التى تحصل عليها ثمنا للبترول المستخرج من أراضيها. بالعكس. كانت تطالب فقط بزيادة المستخرج من البترول. وفي حالة إيران مثلا كان أقصى طموح للإيرانيين هو السماح لهم بحد أدنى من المشاركة.. كأن يصبح لهم مثلا عضوان فى مجلس ادارة الشركة يمثلان حكومة إيران. لم يكن هذا طلبا عويضا، ولا هو بالشئ الكثير. مع ذلك فإن الرئيس الإنجليزي للشركة فهم المغزى فوراً. وحينما قيل له إنه يستطيع كسب ثقة الإيرانيين بمجرد وظيفتين.. فإنه رد بانفعال وسخط وغضب قائلا: هل تريدونهم أن يطلعوا على دفاترنا ويعرفوا أسرارنا.. فيطمعوا فينا؟!!

بالطبع لم تكن الأسرار ستظل أسارا إلى الأبد. ومع تزايد الطلب العالمى من البترول.. والأرباح الفلكية التى تحققها شركات البترول العالمية مقابل سعر التراب الذى تحصل عليه الدول صاحبة البترول.. بدأ الغليان الشعبى بدرجات متفاوتة بين دولة وأخرى. فى إيران مثلا جاء الغليان الشعبى بحكومة جديدة فى السلطة برئاسة محمد مصدق. وفى البداية تظاهر محمد رضا بهلوى شاه ايران بمسايرة الطوفان الشعبى.. إلى أن اتخذت الحكومة - ووافق البرلمان على ذلك - قرارا بتأميم شركة البترول «البريطانية الايرانية للبترول».

بعدها لم يعد الحال إلى ماكان عليه مطلقا.. لا فى ايران، ولا فى كل منطقة الشرق الأوسط. كان التأميم قانونيا مائة فى المائة.. وهو حق من سلطة الدولة.. وحكومة إيران - حتى - مستعدة لتعويض حملة الأسهم بسعر تلك الأسهم فى السوق الدولية. مع ذلك حاولت بريطانيا أن تقلب الدنيا على حكومة ايران. وارتفع صوت تشرشل الاستعماري المخضرم محتجا بأن ايران يحكمها اللصوص. بالطبع هو لا يقصد رجال البترول الانجليز وانما يقصد حكومة إيران! لقد لجأت حكومة ايران إلى محكمة العدل الدولية، فصدر الحكم لصالحها ضد بريطانيا العظمى.

إنما.. ابدأ. بدل القانون جاء منطق القوة. ولأن قوة بريطانيا لم تكن كافية فى تلك اللحظة، فقد اضطرت إلى الاستعانة بالولايات المتحدة، هكذا دبرت المخابرات الأمريكية انقلابا عسكريا أطاح بمحمد مصدق وحكومته فى سنة ١٩٥٣، وبعدها فقط عاد شاه إيران من منفاه المؤقت فى الخارج، لكى يصبح من وقتها فصاعدا رجل أمريكا فى ايران.. ضد شعب إيران. كانت الفكرة كلها من شقين. فأولا: يجب أن تظل عملية نهب البترول بسعر التراب مستمرة على حساب الشعوب صاحبة هذا البترول. وثانيا: يجب أن يتحول محمد مصدق وحكومته إلى أمثولة تردع كل من تسول له نفسه حول العالم باسترداد الحقوق المنهوبة لبلده.

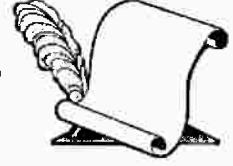
ولأن التاريخ لا يسير أبداً فى خط مستقيم، ولأنه فى جوهره خليط متتابع من الهزائم والانتصارات.. فسرعان ماجأت الضربة المضادة فى ظروف مختلفة تماماً.. ومن مكان لم يرد فى خيال أصحاب السطوة فى عرش القوى العالمية.

الضربة فى هذه المرة.. جاءت من مصر. فى السادس والعشرين من يوليو سنة ١٩٥٦ وقف جمال عبدالناصر رئيس الجمهورية فى ميدان المنشية بمدينة الاسكندرية لى يعلن تأميم «الشركة العالمية لقناة السويس». إنها - قانونا - شركة مساهمة مصرية مع ذلك لم تكن مصر تملك فيها شيئاً، ولا تعرف عن أسرارها أى شئ. ومع أن القرار المصرى نص على تعويض حملة الأسهم حسب قيمة أسهمهم التجارية عشية التأميم.. فإن أقوىاء الغابة الدولية انتفضوا غضباً واعتراضاً، وسرعان ما جهزوا سكاكينهم الطويلة لقطع رقبة هؤلاء المصريين الذين هبئ إليهم زورا أنهم اصحاب قناة السويس.

ساعتها.. لم تكن عيون وحوش الغابة مسلطة فقط على قناة السويس.. وإنما مسلطة بنفس القدر على البترول.. كنز القرن العشرين.



النجاة بحرا .. والغرق برا !



المسألة هي طفل في السادسة. الطفل بشوش، ومحبوب من زملائه، ومجتهد في دراسته. الطفل أيضا تعلم السباحة في المدرسة، ويهوى الرسم بالألوان في البيت بعد أن يستذكر دروسه. وبالرغم من أن والديه انفصلا بالطلاق قبل سنتين.. فإنهما اتفقا وديا على أن تستمر رعاية الطفل مسئولية مشتركة بينهما.. طوال الأسبوع هو في مدرسته ومع أبيه، وفي عطلة نهاية الأسبوع هو مع أمه وأسرتهما في نفس المدينة.

ذات ليلة.. لم يعد الطفل إلى منزل أبيه. في البداية لم ينزعج الأب كثيرا.. فربما تكون الأم قد رآته مبكرا فضلت الذهاب به مباشرة إلى المدرسة في الصباح. لكن الأب فوجئ في اليوم التالي بأن طفله غير موجود بالمدرسة، لأن الأم لم تذهب به أصلا إلى هناك. الآن بدأ القلق. لقد ذهب الأب إلى منزل زوجته السابقة فوجد الباب مغلقا بالضبة والمفتاح. مزيد من القلق..

بالسؤال والتقصي فوجئ الأب بصدمة عمره.. فالأم صحبت طفلها وآخرين للأبحار ليلا إلى الولايات المتحدة على بعد ثمانين كيلومترا. وعند هذا الحد عاد الأب إلى منزله منهارا قائلا لزوجته الجديدة: اليوم انتهت حياتي.

لم تنته حياته. لكن الذي بدأ هو كابوس طويل مرعب، سرعان ماسيتحول إلى أزمة دولية غير مسبوقة! طرفاها الولايات المتحدة ورئيسها بيل كلينتون في جانب. وكوبا ورئيسها فيديل كاسترو في جانب آخر!

وفيما بينهما أصبحت صحف العالم ومحطاته التلفزيونية تتابع يوميا مايجرى على مدار الساعة. وسواء كان العنوان هو أزمة أو مأساة، فإن اسم بطلها أصبح طوال الأشهر الخمسة الأخيرة أشهر من نار على علم، الأسم هو «إيليان»!

المسألة هي طفل في السادسة. والطفل إيليان صحبتته أمه إلى الساحل ليلاً، حيث يوجد قارب صغير طوله أقل من ستة أمتار. في هذا القارب الصغير احتشد ١٤ شخصا، وفيهم عجائز فوق السبعين وفيهم أيضا «إيليان» في السادسة من العمر، وأمّه، ثم مقاول تلك الرحلة السرية الذي هو

أيضا صديق حميم جديد لوالدة إيليان، والذي جعل من مثل تلك الرحلات السرية مهنته، حيث يتقاضى من الشخص الواحد ألف دولار حتى يبحر به على هذا النحو إلى الشاطئ الآخر في البحر الكاريبي.. الشاطئ الأمريكي.. حيث الفكرة الرائجة عنه هو أنه شاطئ اللبن والعسل، والغنى والثراء، والمليون دولار في لمح البصر. كثيرون عبروا هذا الطريق البحري من قبل وبنفس البدائية والسرية. بعضهم وصل فعلا إلى الأرض الأمريكية واستقر هناك ومعظمهم هزمته أمواج البحر العالي ففرق في الطريق.

من هنا قال والد إيليان منهارا: اليوم انتهت حياتي.. قالها لأن قلبه ارتج فوراً من شبح الموت غرقاً لطفله ذى السنوات الست، وبغير أى فرصة تتخيلها له أمه ليصبح مواطناً أمريكياً في أرض اللبن والعسل والدولارات على قفا من يشيل!

فى بحر القلق تذكر «خوان جونزاليز» - والد إيليان - أن له عما هاجر من كوبا مع أقرباء آخرين واستقروا منذ سنوات فى مدينة «ميامي» الأمريكية، نفس المدينة التى أصبح فيها عشرات الآلاف من المهاجرين السابقين الذين حصلوا على الجنسية الأمريكية وقتها وأصبحوا يشكلون جالية كبيرة. واتصل الأب من كوبا تليفونيا بعمه فى مدينة ميامي الأمريكية. هل عندكم أى أخبار عن وصول مهاجرين جدد من عندنا؟ هل هناك حتى أى أخبار بحالات غرق أو انتشار جثث، طمئنونى من فضلكم.. فابنى إيليان مع أمه دخلا طريق الموت هذا.

كان التاريخ هو ٢٢ نوفمبر ١٩٩٩. العم ليس عنده أخبار. لكنه وعد بالمتابعة و: قلت لى ابنك اسمه إيه؟ متى أنجبته؟!

المسألة هى طفل فى السادسة. وخلال أيام فرضت الحقيقة نفسها بغير جهد من أحد. فالذى حدث هو أن تلك الرحلة السرية فشلت فى المحاولة الأولى، فعاد القارب بركابه مرة أخرى إلى الساحل الكوبى.. سعياً إلى إصلاح موتور القارب بسرعة.. بعيداً عن عيون السلطات الكوبية. هنا أفاق بعض الركاب إلى هول المغامرة فترجعوا. الطفل إيليان هو الآخر بكى وصرخ مستعظفاً أمه، مناشداً لها بتركه يعود إلى مدرسته. الأم هدأته، وناولته حبة دواء يحميه من دوار البحر...: اركب يا حبيبى... وبعد كام ساعة ستصبح فى مدرسة أكبر وأجمل وأغنى.

وسط البحر تعطل موتور القارب من جديد. تعطل تماماً. وقرر الرجال فى القارب التخلص من هذا الموتور اللعين تخفيفاً للحمولة، فألقوا به فى عرض البحر. فى تلك اللحظة اختل توازن القارب بشدة، فانقلب بالجميع. ولأنه قارب بدائى اشتراه الماويل بـ ٢٥٠ دولاراً فقط فلا توجد به أية وسائل للنجاة سوى أنابيب مطاطية، هى ثلاثة إطارات داخلية من عجل السيارات منفوخة بالهواء. اثنان من المسافرين تشبثا بأحد الاطارات.. اطار آخر اختفى.. الطفل إيليان ذو السنوات

الست تشبث بالاطار الثالث غير مدرك في الظلام أن مياه البحر ابتلعت كل الآخرين بمن فيهم والدته نفسها.. ربما لأن القارب متهالك.. لكن أيضا لأنهم لا يعرفون السباحة! إيليان الصغير يعرف السباحة. وبذلك المعرفة اختار له القدر مصيرا آخر.



في الساحل الأمريكي شاهد صيادو الاسماك جثة طافية. وبخبرتهم السابقة أدركوا فوراً أنهم أمام مأساة جديدة مما اعتادوا عليه طوال سنوات. لقد خرجوا يبحثون في عرض البحر، حيث الجو نهار، والشمس حارقة، والأمواج عالية. من بعيد لمحوا شيئاً طافياً يتأرجح مع الأمواج، وحينما اقتربوا هالتهم المفاجأة.. هذا طفل صغير مستلقى على ظهره فوق إطار السيارة المنفوخ. الطفل ملتهب الوجه والجسم بفعل الشمس والمياه المالحة.. الطفل أيضاً غائب عن الوعي..

في مدينة ميامي الأمريكية بذل أطباء المستشفى جهدهم لمعالجة الطفل الناجي لتوه بمعجزة.. وبمجرد أن استرد وعيه بدأوا يستفهمون منه.

في البيت دق جرس التليفون، فاخطف والد إيليان السماعة مذعوراً ومتلهاً: هل لك طفل اسمه إيليان؟ هل عنوان منزلك هو.. صرخ الأب الملتاع مقاطعاً: نعم.. نعم.. ماذا جرى لإيليان؟

هذا الطبيب الأمريكي من روعه.. إيليان هنا في المستشفى تحت العلاج، ونريد منك الاستفسار عن سجله الطبي حتى نحتاط لكل احتمال. في الواقع إيليان هو الذي أعطانا رقم تليفونك في كوبا وعنوان المنزل والمدرسة.. نرجو أن تهدأ قليلاً لأن انفعالك هذا قد يضر بالطفل. أصر الأب على أن يسمع أولاً صوت الطفل لكي يصدق ويطمئن. أخيراً.. هذا إيليان يتكلم باكيا: بابا.. أنا شاهدت ماما وهي تضيع في المحيط، ماما غرقت.. حقيقة كتبي غرقت. ليس المدرسة غرق أيضاً.. بابا..

تمزق الأب في التو واللحظة بين اطمئنانه على طفله، وبين حالة التشوش الطاغية في كلماته المتقطعة. لقد تقمص الهدوء وهو يرد: لا يا إيليان.. لا يا حبيبى. لبسك المدرسى وحقيبة كتبك موجودة أمامي هنا في المنزل.. بل إن إحدى مدرساتك كانت تسأل عنك بنفسها قبل لحظات. ابتهج إيليان لأول مرة وقال لوالده فرحاً: صحيح يا بابا؟.. طيب قل لها أن تحافظ على درجي في الفصل وسأعود بسرعة.



لم يعد إيليان حتى اللحظة.. لا بسرعة ولا ببطء! ففي الظروف العادية تقرر قواعد القانون الدولي أن على الدولة المعنية - هي الولايات المتحدة في حالتنا هذه - أن تعيد الطفل إيليان إلى أبيه في كوبا فوراً.. مع أقصى درجات الشكر على اهتمامها الإنساني بإسعاف الطفل وعلاجه. لكن الذي حدث هو أن هذه الحالة الإنسانية انقلبت بفعل فاعل إلى أزمة دولية كبرى.. اختلطت فيها

السياسة بالإنسانية.. والكراهية بالمحبة.. والأسرة بالدولة. هكذا ظهر أقرباء والد إيليان في مدينة ميامي الأمريكية فوراً، وتسلموا الطفل للقيام برعايته.. مؤقتاً. لكن عم والد إيليان – ويعمل «سمكري» سيارات في مدينة ميامي أصر على الاحتفاظ بالطفل.. بينما العم الآخر لوالد إيليان – ويعمل بائع سمك – اختلف مع شقيقه مصمماً على أن الحق والأصول والقانون والإنسانية تحتم إعادة إيليان إلى أبيه في كوبا. ولأن الأول رفض الفكرة تماماً فقد تشاجر معه الثاني مقررًا مقاطعته نهائياً لقسوة قلبه وفظاظه أسلوبه.

في الجالية الكوبية بمدينة ميامي وكل ولاية فلوريدا انتشر الخبر كالنار في الهشيم. الجالية في معظمها هاربون سابقون من كوبا.. إما تعبيراً عن السخط على فيديل كاسترو ونظامه.. أو بحثاً عن حلم الثراء في أمريكا في غمضة عين أو بمزيج من الاثنين معاً. في الجالية أيضاً أعضاء في عصابات المافيا الإجرامية. والمافيا، لها ثأر قديم مع كاسترو ونظامه في كوبا.

كوبا هذه جزيرة صغيرة في البحر الكاريبي، سكانها عشرة ملايين. في سنة ١٩٥٩ قامت في كوبا ثورة شعبية استولت على السلطة من نظام فاسد ومتحالف مع عصابات المافيا. أمريكا كدولة كبرى لم تقبل بتمرد كوبا الصغيرة هذه ضدها، فأعلنت عليها الحصار فكان رد كاسترو على ذلك هو التحول إلى الشيوعية، حتى يغري الاتحاد السوفيتي بالقدم إلى مساعدته. تلك كانت ذروة سنوات الحرب الباردة، حيث يناوش كل معسكر المعسكر الآخر. لكن أمريكا ترفض المناوشة، وترفضها قطعاً إذا كانت على مسافة ثمانين كيلومتراً من حدودها، ومن «حشرة» صغيرة اسمها كوبا يمكن أن يؤدي تمرداها إلى تشجيع كل «الحشرات» الأخرى من دول أمريكا الجنوبية على تقليدها. هكذا بدأت محاولات متتالية لاغتيال كاسترو، ثم لغزو كوبا، ثم لإغراء أكبر عدد ممكن من شعب كوبا بالتمرد على حكومته.. ولو بالهجرة إلى أمريكا. كاسترو أيضاً، وبمنطق قدرة النملة على مضايقة الفيل، خرج ذات يوم وأعلن بالصوت «الحياتي» فتح الباب بلا قيد ولا شرط أمام كل الراغبين بالهجرة إلى أمريكا والإقامة فيها. هكذا وجدت أمريكا عشرات الآلاف من الكوبيين يطلبون الهجرة إليها.. وفي مقدمتهم كل العجائز وأرباب السوابق. هنا فقط تنبهت أمريكا إلى الفخ الذي ذهبت إليه بقدميها، فالحرية وحقوق الإنسان والديمقراطية شعارات جميلة طالما يتحمل الآخرون ثمنها. أما إذا أخذ الكوبيون الكلام بجديّة وصدّقوا الشعارات وسعوا إلى الهجرة إلى أمريكا فعلاً.. فهنا تصبح في المسألة حسابات أخرى. حسابات من نوع حماية العامل الأمريكي مثلاً من مزاحمة الأجانب له في بلده على فرص العمل المتاحة.

واختارت أمريكا حلاً وسطاً، فأصدرت أعجب قانون على الإطلاق. قانون له رقم رسمي، لكن له عنوان شعبي، هو قانون «كوبا». بمقتضى هذا القانون تلتزم السلطات الأمريكية بعدم تشجيع أية هجرات غير مشروعة إليها إنما – وهنا جوهر القانون – أى مواطن أجنبي يصبح بقدميّه في الأرض

الأمريكية أو في مياها الإقليمية وعلى مسؤوليته الشخصية يكون من حقه فوراً الحصول تلقائياً على تصريح حكومي بالإقامة الدائمة تمهيداً لإعطائه الجنسية الأمريكية.

بكلمات أخرى.. أمريكا لن تحرض مواطني كوبا على القدوم إليها غصبا عن حكومتهم. بذلك تصبح أمريكا ملتزمة حقا بقواعد القانون الدولي. إنما من شاء من مواطني كوبا أن يتحمل المخاطرة ويطلب فجأة على الساحل الأمريكي، فتلك مسؤوليته.. هو بمفرده يتحمل وزرها. بعدها فقط تعطيه أمريكا جنسيتها من باب الإنسانية و«يا بختك يا فاعل الخير».

وفي التاريخ الأمريكي كله لم يصدر قانون أمريكي تفصيلاً على جنسية محددة إلا هذا القانون. هذا هو السر في استمرار الرحلات البحرية غير المشروعة للهروب من كوبا إلى الساحل الأمريكي. رحلات فيها من الموتى أكثر مما فيها من الأحياء وفيها من السياسة أكثر مما فيها من الشرعية.

والآن جاءت مأساة الطفل «إيليان» لكي تلخص هذا كله. لقد خرج الآلاف من الجالية الكوبية في كوبا يطالبون بعدم إعادة إيليان إلى أبيه في كوبا، وبأن تعطيه الحكومة الأمريكية تصريح الإقامة الدائمة فوراً.. وتعطى لعم والده - «السمكري» - الحق القانوني في حضانته.

في المقابل خرج مئات الآلاف في كوبا يتظاهرون تضامناً مع الأب وحقه في استرداد طفله. ومع الوقت بدأت المأساة تخرج من نطاق العدل والإنسانية لكي تغرق في أحوال السياسة. لقد جاء الطفل إيليان بقدميه إلى أمريكا سعياً إلى الحرية والديمقراطية والإنسانية والثراء والمليونيرات، هذا دليل جديد على عظمة أمريكا وبؤس كوبا وحاكمها الديكتاتور. أمريكا يجب ألا تعيد الطفل إلى أبيه، لأن الغنى لا يستسلم للفقير.. والقوى لا تستسلم للضعيف.. والديمقراطية لا تستسلم للاستبداد. من الناحية الرسمية، خرجت أمريكا بصوتين. هناك أولاً: صوت العقل والقانون والالتزامات الدولية، ويمثله الرئيس كلينتون.. فبحكم مسئولية منصبه قال إن القانون الأمريكي الداخلي في مثل هذه الحالة يفرض عودة الطفل إلى حضانه أبيه. أما نائبه - ألبرت جور - فبصفته مرشحاً قادمًا للرئاسة هو محتاج بشدة إلى حشد أصوات انتخابية لمصلحته. وأصوات الجالية الكوبية في مدينة ميامي وكل ولاية فلوريدا جاهزة لحساب من يزايد سياسياً. إذن الحل عند البرت جور هو استصدار قانون جديد من الكونجرس خصيصاً باعطاء الجنسية الأمريكية فوراً إلى الطفل إيليان وأبيه و - فوق البيعة - كل أقربائهما الراغبين في مغادرة كوبا والذهاب إلى الولايات المتحدة.

انقلبت المأساة إذن رأساً على عقب. في الكونجرس الأمريكي مثلاً قاموا باستدعاء الطفل الصغير إيليان، و.. هات يا جلسات استماع كل هدفها هو ان يثبت كل سياسي لناخبيه المحتملين حرصه على بقاء الطفل في أمريكا. في القضاء أيضاً.. من محكمة إلى محكمة.. بدأت المناورات. فيما بين المناورات بدأوا يأخذون الطفل إيليان في رحلات ترفيهية تصورها كاميرات التلفزيون وهو سعيد

تماما، حاملا العلم الأمريكي وسط بحر من الحلوى والهدايا والألعاب والملابس الجديدة الزاهية.. وأيضا وسط مدينة الملاهي الشهيرة ديزنى لاند. لقد خصصوا للطفل الصغير إيليان سيارة من طراز «لكيزس» - افخم من السيارة المرسيدس - لزوم الابهار، بل وأعلنوا أيضا أن كل ماعلى الأب الكوبي أن يفعله هو أن يختار لنفسه ولطفله الإقامة فى أمريكا.. وساعتها سيحصل الأب فورا على سيارة خاصة ومنزل ووظيفة مجزية وأموال مجانية تصل إلى مليونى دولار. بالطبع كل هذا فوق قدرات «السمكري» عم الأب المقيم فى ميامى والمختطف - عمليا - للطفل إيليان فهو وأسرته مستورو الحال، ولم يسبق لهم أصلا أن عرفوا هذا الطفل أو سألوا عن أخباره، لكنها السياسة.. وعصابات المافيا.

فى كوبا اجتمعت جدتا الطفل إيليان - جدته من الأب وجدته من الأم - لكى تعلن بصوت واحد: نحن هنا فى كوبا قد لانكون أغنياء، هم هناك فى أمريكا سحروا الطفل إيليان بعالم ديزنى لاند.. ليس عندنا فى كوبا مدينة ملاه مثل ديزنى لاند إلا أن فيها والده واخاه وأهله وأصدقائه وأقرباءه الذين يحبونه. بعدما سافرت الجدتان معا إلى امريكا بناء على اتفاق مسبق بأن السلطات الأمريكية ستسمح لهما بلقاء الطفل إيليان لمدة يومين لكن الزيارة جرى اختصارها إلى ساعة ونصف ساعة وفى التنفيذ تحولت إلى ربع ساعة. وبعيون باكية عادت الجدتان لكى تقولوا بلوعة: هذا ليس نفس إيليان الذى عرفناه.. إيليان كان طفلا ذكيا منطلقا طبيعيا «حبويا» تلقائيا.. الآن هو مخلوق آخر طفل متردد يتلعثم ويخشى من شئ ما.. الآن نحن أصبحنا أكثر إصرارا على أن هذا الطفل لابد من إنقاذه.

حتى أبوه تولدت لديه نفس المראה.. فى البداية كان يتصل به تليفونيا فى منزل الأقرباء فى ميامى. لكن خلال المكالمات كان الأب يحس بشئ غير طبيعى قائلا: كنت أحس أنهم يصيحون فى الطفل فى أثناء حديثه معى عبر التليفون.. أو يرفعون من صوت التليفزيون حتى لايسمعنى جيدا.. أو يدسون الحلوى فى فمه حتى يصعب على فهم مايقوله. فى النهاية عرض فيديل كاسترو حلاً رآه الرئيس الأمريكى معقولا. فإذا كانت السلطات الأمريكية تقول إنها فى انتظار حكم قضائى يقرر لمن تكون حضانة الطفل.. فإنه يقترح سفر الأب نفسه إلى أمريكا ليأخذ طفله.. ويستمر الاثنان معا فى أمريكا حتى يصدر الحكم القضائى الموعد.

لكن الأب ذهب إلى واشنطن، وأقام فى بيت دبلوماسى كوبي محاولا استعادة الطفل.. ولم يحدث. إنما الذى حدث أمران.. أولا: فوجئ الأب بشريط فيديو تذييعه كل محطات التليفزيون الأمريكية على مدار الساعة. فى الشريط يوجه الطفل الصغير إيليان عينيه إلى الكاميرا قائلا: يابابا أنا لاريد الذهاب إلى كوبا فإذا كنت تريد أن ترانى.. فعليك بالمجئى إلى هنا فى ميامى. كلمات أدركت كل أم أمريكية فورا - والأمهات تحديدا - أن هذه لايمكن أن تكون كلمات طفل فى السادسة.. أيا كان.

أما الأمر الآخر فهو نفس الأب جالسا أمام جهاز التلفزيون فى واشنطنون.. متابعاً برنامجاً أمامه فى التلفزيون احتفالاً بعيد ميلاد طفله هو.. وسط أقرباء فى ميامى للأب لم يكونوا من قبل يعرفون سابقاً أى شئ عن الأب أو عن طفله. ولأن الأب لا يزال ممنوعاً من استعادة طفله.. فقد بدت مشاهدة طفله أمامه فى التلفزيون بديلاً تالياً بحكم الضرورة. وما رآه أمامه على الشاشة هو طفله مرتدياً خوذة قتال من النوع الذى يستخدمه الجنود فى الحروب.. وهو ملتف بالعلم الأمريكى.. ومحاط بأسلحة نارية معتادة فى السياق الأمريكى!

وصرخ الأب مذعوراً.. ليس هكذا أريد أن ينشأ طفلى.

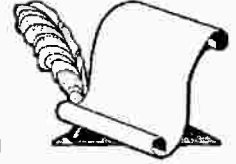
فى الحقيقة إن هذا جرى قبل فترة قصيرة من قيام صبى آخر فى مثل عمر إيليان – صبى أمريكى فى هذه المرة من سكان مدينة ميتشجان الأمريكية – باستخدام أسلحة مثل هذه لإطلاق النار على زميله فى الفصل الدراسى.. فأرداه قتيلاً على الفور.

المسألة هى طفل فى السادسة. الطفل كانت أمواج البحر العاصف رحيمة به. لكن أمواج السياسة – حتى اللحظة – يعنيها شئ آخر.. حتى لو كان هذا يعنى تحويل الطفل ذاته إلى مجرد وقود فى معركة أكبر تماماً من اسمه ومن قدراته.

وفجر السبت ٢ ابريل سنة ٢٠٠٠ قامت الشرطة الفيدرالية الأمريكية باقتحام منزل الأقرباء بميامى لأخذ الطفل بقوة القانون وتسليمه إلى والده فى واشنطن بشرط ألا يغادر الاثنان الولايات المتحدة حتى تنعقد المحكمة الاستئنافية يوم ١١ مايو الحالى على الأقل.



مولد .. وصاحبه غائب !



طفل فى السادسة مكانه الطبيعى الذى يعيش فيه هو مع والديه. طفل فى السادسة أصبح يتيم الأم مكانه الطبيعى هو مع والده. طفل فى السادسة أصبح يتيم الأم بعد أن رآها بعينيه وهى تموت.. أو تضيع فى المحيط حسب تعبيره.. مكانه الطبيعى مع والده وأسرته وزملائه ومدرسته وكتبه وألعابه وهواياته وبيئته التى اعتاد عليها.. مع دعاء الجميع للأب بأن يمارس أقصى درجات الحكمة والحنان والمحبة والرعاية.. بما يمتص من نفس طفله صدمة انكساره النفسى المفاجئ هذا فى مثل تلك السن المبكرة.

هذه ليست مسألة عويصة ولا صعوبة الإدراك بهذا القدر الذى صورته لنا الإعلام الأمريكى منذ شهر نوفمبر الماضى (١٩٩٩) بمناسبة الطفل الكوبى إيليان جونزاليز. هذه مسألة تقررها الفطرة والأديان والقوانين والإنسانية والحس السليم و- فوق هذا كله - مصلحة الطفل نفسه إذا كنا نريد له تجاوز الصدمة والخروج به إلى الواقع الحقيقى فيما بعد كشخصية سوية طبيعية متوازنة.

لكن لأن الطفل فى السادسة، ولأنه نجا من الفرق بينما أمه تحاول الهروب به من كوبا إلى أمريكا، ولأن أمريكا تكره كوبا كنظام وسياسة.. فقد تحولت هذه المأساة الإنسانية الصغيرة إلى سيرك إعلامى خطير يشغل بها الإعلام الأمريكى شعبه وبعده كل شعوب العالم. هناك أيضا الأقرباء البعيدون لوالد الطفل وهم أنفسهم هربوا سابقا من كوبا وأصبحوا مواطنين أمريكيين فى مدينة ميامى بولاية فلوريدا الأمريكية.

هؤلاء الأقرباء لم يكونوا من قبل يعرفون أى شئ عن هذا الطفل أو أبيه. لكنهم رأوها فرصة للتعبير عن كراهيتهم السياسية لنظام الحكم فى كوبا ورئيسها فيديل كاسترو.

الطفل إيليان جونزاليز ذو السادسة من العمر قد يعرف عن الملوخية أكثر مما يعرف عن كوبا أو كاسترو. الطفل فى السادسة يعرف أسرته وشارعه وجيرانه ومدرسيه وألعابه وتعليمه. لكن الأقارب العقارب رأوها فرصة لاحتجاز الطفل - حتى لانقول: اختطاف الطفل - عندهم فى مدينة ميامى، رافضين تماما إعادته إلى أبيه فى كوبا... وبحجة أن أمريكا الغنية تكفل مستقبلا للطفل

أفضل مما ينتظره في كوبا الفقيرة. حينما لم تنطل هذا الحجة على أحد قالوا: إن القانون الأمريكي يمنع إعادة الطفل إلى والده في حالة عدم أهلية هذا الوالد لرعايته.

الكلام صحيح. لكن ما يقصده القانون بعدم أهلية الأب شئ آخر. شئ كالانحراف أو الإجرام أو المخدرات أو الجنون. إنما الأب في حالتنا هذه طبيعي ولم يقصر من قبل في رعاية طفله، مشهود له بين جيرانه بحسن السمعة والسلوك، بل إن الحكومة الأمريكية ذاتها أوفدت لجنة من عندها لكي تذهب إلى الأب في كوبا وتعاين على الطبيعة مستوى حياته، وسابق رعايته لطفله. الأب قد لا يكون غنيا فحياته مستورة. لكنه أيضا ليس معتوها. ليس منحرفا. ليس فاقد الأهلية لرعاية طفله كما بدأ يدعى الأقارب العقارب في ميامي.

إنما.. تقول لمن؟! الغرض مرض. ولأن غرض الأقرباء في مدينة ميامي الأمريكية هو شحن المشاعر الأمريكية في قضية سياسية تهمهم هم وعصابات المافيا وبعض السياسيين الأمريكيين.. حتى على حساب مصلحة الطفل نفسه.. فقد ساقوا فيها وصمموها على الاحتفاظ بالطفل. فإذا لم يكن هذا يعجب الأب في كوبا.. إذن عليه أن يأتي إليهم بنفسه في ميامي..

الكلام افتراء.. لكن الأب يظل في النهاية هو الأب. لقد قرر أن يسافر بنفسه إلى أمريكا مع زوجته الجديدة وطفلهما ذى الشهور الستة الذى هو نصف شقيق لإيليان. لكن الأب خوان جونزاليز وقف في مطار هافانا - عاصمة كوبا - لكي يعلن قبل صعوده إلى الطائرة: إننى ذاهب إلى أمريكا لاستعادة طفلى. لكننى لن أتحدث إلى هؤلاء الأقرباء الذين يختطفون طفلى. ولن أقبل بأى شرط ولن أشارك في أية مبارزات دعائية حول استعادة إيليان.

هكذا لم يذهب الأب إلى مدينة ميامي حيث طفله مع الأقارب العقارب. وإنما ذهب إلى العاصمة الأمريكية واشنطن ليقوم مؤقتا في بيت دبلوماسى كوبي انتظارا لأن تتمكن السلطات الأمريكية من استرداد طفله.

أسبوع وراء أسبوع وراء أسبوع بينما السيرك الإعلامى منصوب على مدار الساعة. بل إن وزيرة العدل الأمريكية ذات نفسها اجتمعت بهذا الأب لمدة ساعة لكي تعرض عليه التقدم بطلب للجوء إلى أمريكا فيصبح فوراً واستثنائيا مواطنا أمريكيا هو وطفله معا. الأب لا يريد اللجوء، الأب يريد طفله، ويريد العودة إلى بلده كوبا.

لأسباب تاريخية وسياسية عديدة. هى أيضا لاتخلو من العبث، أصبح اسم كوبا وكاسترو عند بعض السياسيين الأمريكيين يتعادل مع الجحيم و«أبو رجل مسلوخة». والسياسيون الأمريكيون - وتلك أيضا مشكلة أخرى - عينهم على الانتخابات وأصوات الجالية الكوبية في ولاية فلوريدا جاهزة لحساب من يدخل المزايدة. تماما كما في حالة الأقلية اليهودية الأمريكية المنظمة لحساب إسرائيل بحجة ان العرب ليس لهم في الانتخابات الأمريكية لا أصوات ولا فلوس.. بينما اليهود

الأمريكيون جاهزون بالأصوات والقلوس. عند بعض السياسيين الأمريكيين المسألة محددة: معك الحق والقانون والعدالة.. يفتح الله. معك الأصوات وجاهز بالقلوس.. أنا في طولك وعرضك.

المظاهرات المنظمة في مدينة ميامي الأمريكية أصبحت يومية وشعارها: لاتعيدوا إيليان إلى أبيه لأن الأب سيعود به إلى كوبا.

أما في كوبا فهناك مظاهرات مضادة. حتى زملاء إيليان في مدرسته الابتدائية - وهذا ملفت في سن السادسة - وضعوا على كرسي إيليان في فصله الدراسي ورقة كتبوا فيها: ممنوع الجلوس. هذا كرسي محجوز لإيليان. أما خارج المدرسة فقد جمع المعارف والجيران والأصدقاء تبرعات للمساهمة في تغطية تكاليف رحلة الأب إلى أمريكا لاسترداد طفله.

الأب استمر في واشنطن ينتظر مقهورا وليس أمامه سوى مشاهدة التلفزيون بعد أن أصبحت المحطات الأمريكية تتسابق في متابعة حياة إيليان مع اقرباء أبيه في ميامي وسط ألعابه الجديدة وملابسه الأمريكية والمظاهرة الدائمة المحيطة بالمنزل.

ربما نقول هنا «رزق الهبل على المجانين».. حيث رزق محطات التلفزيون ارتبط بمجانين ميامي.. لكن.. لا هؤلاء هبل ولا أولئك مجانين. فلأن هذه الدراما الإنسانية موضوعها طفل في السادسة نجا من الغرق بحرا وجرى إنقاذه بالصدفة بعد ٤٨ ساعة كاملة قضاها في المحيط نائما فوق انبوبة مطاطية بلا طعام ولا شراب.. فقد مست القضية أوتارا إنسانية في قلوب المشاهدين الأمريكيين. ولأن محطات التلفزيون الأمريكية في منافسة ضارية مع بعضها البعض.. ولأن هدف تلك المنافسة هو الحصول على جمهور أكبر من المشاهدين.. ولأن الجمهور الأكبر معناه مزيد من الإعلانات التجارية وبالتالي أرباحا أضخم.. فقد تحولت المسألة إلى سيرك.. والسيرك إلى هيستيريا و: يابخت من أفاد.. واستفاد..

في إحدى اللقطات التلفزيونية مثلا رأى المشاهدون الطفل إيليان وهو يلهو بسيارة أطفال مبهرة لمن في عمره، بينما السعادة بادية في وجهه المبتسم. وبسرعة البرق.. بدأت الشركة المنتجة لسيارة الأطفال هذه في حملة إعلانية بملايين الدولارات شعارها: «إذا كنت تريد لطفلك أن يكون سعيدا هكذا مثل إيليان.. اشتر له هذه السيارة اللعبة فورا». ومن السيارة إلى الملابس إلى ألعاب الفيديو إلى أنواع الحلويات.. إعلانات إعلانات إعلانات. مبيعات. مبيعات.. أرباح. أرباح. أرباح.

رزق الهبل على المجانين؟ لا هؤلاء هبل ولا أولئك مجانين. إنما الكل نسي الطفل نفسه.. هذا الطفل تحديدا الخارج لتوه من محنة مفاجئة. ومحنة.. قد لايسعفه وعيه في التعبير عنها. ربما يكون هذا الطفل قد أصبح متقطعا في نومه. ربما يفاجأ في نومه بكاكوس رؤيته لأمه «تضيع في المحيط أمامه». ربما يصرخ مناديا: ماما. ربما يبحث عن كتبه أو ملابسه المدرسية. ربما يتمتم

فى اللاوعى باسم أبىه.. أو باسم جدته.. أو حتى باسم زميله وصديقه فى الكرسى المجاور بفصله الدراسى. ربما.. وربما.. وكلها أشياء متقطعة ومنفصلة لا يدركها سوى من تربى هذا الطفل بينهم... أو من اطمأن هو إلى حبيبهم له واهتمامهم به أو حتى من تشاجر معهم على كرسي.. أو كتاب.. أو لعبة.. أو.. أو.. أو..

الكل نسى الدراما الاساسية. وموضوع الدراما. الكل نسى الطفل نفسه.. واعتبروه مجرد مناسبة جذابة لترويج مصالحهم أو سياساتهم. قليلون هم الذين اعترضوا على هذا «المولد» وتقزوا من هذه الهيستيريا الجماعية. هيستيريا طاغية كما لو أن هذا الطفل إيليان سيصبح رئيسا لأمريكا لو بقى فيها.. أو سيجرى قتله فى كوبا لو عاد إليها.

الطفل نفسه كأي طفل فى السادسة: ولا هنا. هكذا يبدو إعلاميا على الأقل. بل إن الأقرباء الأوصياء فى ميامى بعد أن تأكدوا من إصرار الأب على استرداد طفله والعودة إلى بلده كوبا تقدموا إلى الحكومة الأمريكية بطلب مكتوب باسم إيليان. طلب يقول فيه إنه يريد من الحكومة الأمريكية الحصول على حق اللجوء السياسى. لجوء؟ وسياسى؟ الطفل ذات نفسه لا يعرف معنى هذا ولذا. ولا يعرف حتى اللغة الإنجليزية المكتوب بها الطلب. فالطفل لغته الأسبانية ككل شعب كوبا. الطفل أيضا، وهو فى السادسة، يكاد يكتب اسمه الكامل بصعوبة.. فهو لا يزال فى السنة الأولى الابتدائية.

إنما السيرك سيرك. والهيستيريا هيستيريا. والسياسة تريد مزيجا من كليهما.

السياسة والمصلحة عملت من الحكاية مولد.. والمولد صاحبه غائب. وهو غائب لأنه فى السادسة.

أحد أعضاء مجلس النواب الأمريكى نسى أنه عضو منتخب فى الكونجرس وأن مصلحته هى فى منافقة الناخبين المنظمين مثل هؤلاء فى ولاية فلوريدا، وتذكر فقط موقفه وشعوره كأب. لقد كتب هذا النائب مقالا يحتكم فيه إلى عقل وقلب كل أمريكى قائلا ما خلاصته: يا جماعة.. فكروا بالعقل.. ماذا لو كان الوضع معكوسا وكان هذا الطفل أمريكى أصلا وهربت به أمه إلى كوبا.. ورفضت كوبا إعادة الطفل إلى أبىه الأمريكى. كيف كان سيصبح شعورنا فى تلك الحالة؟ يا جماعة.. أنا أكثركم كراهية لكاسترو حاكم كوبا ونظامه. لكن إيليان هذا طفل صغير فقد أمه فأصبح أكثر احتياجا إلى أبىه. إننى شخصا أب لأربعة أطفال منهم ثلاثة صبية. وأعرف جيدا كم يصبح الآباء مهمين لأطفال فى سن السادسة. يا جماعة.. السؤال فى هذه الحالة هو: هل الأفضل لإيليان أن يعيش فى بلدنا العظيم بغير أبىه.. أو أن يعيش مع أبىه فى كوبا؟ لاوجه للمقارنة. لهذا أقول بأعلى الصوت أعيدوا الطفل إلى أبىه - اليوم وليس غدا.

وفي ٢٣ أبريل (٢٠٠٠) الماضي، بسلطة القانون وقوة الشرطة وإشراف وزيرة العدل الأمريكية شخصياً، أعيد الطفل إيليان إلى أبيه. إذن.. هل يعود الاثنان إلى كوبا؟ أبداً. فحتى الحكومة الأمريكية لا تريد أن تبدو - في سنة انتخابية - وكأنها أقل نفاقاً من كل السياسيين. كل ما فعلته هو إعادة إيليان إلى أبيه المقيم مؤقتاً في واشنطن.. ثم إبعاد الاثنين إلى قاعدة عسكرية، ثم إبعاد الاثنين زائد زوجة الأب والطفل نصف الشقيق إلى بيت ريفي بعيد عن واشنطن ممنوع على أي دبلوماسي كوبي الاقتراب منه.. ثم السماح لأربعة تلاميذ من زملاء إيليان في مدرسته في كوبا بالقدوم لمصاحبة إيليان في مقر إقامته المؤقت هذا. بناء على إصرار الأب والحاح زوجته وإصرار مدرسته وجدتيه. من الأب ومن الأم المتوفاة.

لماذا كل هذا؟ لماذا لا يعود الأب وطفله إلى بلدهما؟ لماذا لا يعود إيليان إلى مدرسته وتعليمه بعد أن ضاعت عليه فعلاً ستة أشهر وكسور؟ لأن الحجة في هذه المرة هي وجود دعوى جديدة من الأقارب العقارب في ميامي يطلبون فيها من المحكمة الاستئنافية أن تقرر باسم الطفل أن الأب ليس بمفرده صاحب الحق في اختيار المكان والبلد التي يقيم فيه طفله. وإلى أن تفصل المحكمة في الدعوى.. يصبح الأب وطفله ممنوعين من مغادرة أمريكا والعودة إلى كوبا.

إذن.. أصبحنا أمام عبث جديد في سيرك منصوب إعلامياً منذ ٢٥ نوفمبر الماضي حينما جرى إنقاذ الطفل إيليان من مياه البحر العالي. ما تأثير تلك الأشهر التي مضت، والتي يمكن أن تمضي، على الصحة النفسية بالنسبة للطفل ذاته؟ قليلون انشغلوا بهذا السؤال، لكن رسام كاريكاتير أمريكي موهوب - والكاريكاتير بطبيعته هو فن التركيز والدخول في صلب الموضوع بغير لف ولا دوران - لفت نظري برسمه الكاريكاتيري. الرسم، ويتصرف، تقف فيه وزيرة العدل الأمريكية بجسمها الخضم فاردة زراعيها ترحيباً عند الباب وهي تقول للطفل إيليان تعال.. هات حضن كبير وقبله لعمتك أمريكا. أما الطفل إيليان نفسه، بجسمه الضئيل وعينييه الجاحظتين خوفاً ورعباً فيقف ممسكاً بسماعة التليفون قائلاً: هالو.. بابا، متى سنعود إلى كوبا؟

رسام كاريكاتير آخر، في لندن عاصمة بريطانيا في هذه المرة، نشر رسمين متجاورين. في الرسم الأول يصور حالة الهستيريا السائدة في ولاية فلوريدا الأمريكية حيث يتصارع فريقان.. أحدهما يرفع علم كوبا مطالباً بالطفل إيليان.. والفريق الآخر يرفع علم أمريكا يريد أيضاً الطفل إيليان. أما إيليان نفسه فيقف صغيراً نحيل الجسم مغلوباً على أمره في الوسط صامتاً مرتعباً. وفي الرسم المجاور يصور الحال في أنثيوبيا بقارة أفريقيا.. حيث الشمس مشرقة، لكن الأطفال كما الأشباح.. بلا وجوه ولا معالم.. ويتساقطون جوعاً وفقرًا وحرماناً.

بكلمات أخرى يريد رسام الكاريكاتير هنا أن ينبه الجميع إلى جوهر النفاق في هذه القصة.. حيث طفل واحد يكاد يموت نفسيا من طوفان الادعاء بالاهتمام به وبمستقبله.. بينما في العالم أطفال بالملايين يموتون فعليا من نقص الاهتمام بهم وبطعامهم.

قارئ من سويسرا بعث برسالة إلى جريدته يقول فيها: إيليان لديه أب يراعه فاتركوه له.. وحولوا ولو جزءا بسيطا من اهتمامكم إلى ملايين الأطفال الآخرين في العالم الذين يموتون يوميا بلا رعاية ولا اهتمام ولا أم ولا أب.. لأن كلا الوالدين توفيا أصلا فقرا وجوعا وحرمانا. ثم أم أمريكية بعثت هي الأخرى برسالة غاضبة إلى جريدتها المفضلة تقول فيها: إنكم تفرضون علينا كل هذا الاهتمام الهيستيري.. ليس حبا في الطفل إيليان وإنما كراهية لجنسيته. لو كان هذا الطفل من المكسيك أو نيجيريا أو حتى هايتي.. هل كان سيحظى بكل هذا الاهتمام وتلك الأضواء الإعلامية؟

أما وزيرة العدل الأمريكية فبعيدا عن الأضواء ذهب إليها عدد من السياسيين الأمريكيين غاضبين أصلا من مجرد إعادة الطفل إيليان إلى والده. فقالت لهم: قبل أن تعترضوا على إعادة إيليان إلى أبيه ورغبة أبيه في العودة بطفله إلى كوبا.. فكروا فقط في أن لدينا عشرة آلاف من الأطفال الأمريكيين لهم حالات مماثلة بالضبط ونعمل جاهدين على استردادهم من دول أخرى لأن أحد الوالدين أمريكي الجنسية.. ومن حقه طبقا للقانون الأمريكي استعادة طفله فإذا لم نبدأ بأنفسنا... كيف نقنع الآخرين بالامتثال لفكرة القانون من الأساس؟

لم تصل المناقشة إلى نتيجة على الأقل حتى اللحظة. فالفكرة السائدة عند بعض السياسيين الأمريكيين هي ببساطة: أمريكا هي الأقوى. الأغنى. الأكبر. وبذلك الصفة تصبح أمريكا هي القانون. ماتفعله أمريكا هو القانون. يجب أن يعجبك هذا فإذا لم يعجبك أنت حر. إنما الطفل إيليان - وحتى إشعار آخر - هو غنيمة أمريكية. وبالنسبة.. هل شاهدت الطفل إيليان ومدى سعادته بينما يلعب بسيارة أطفال أمريكية؟ هل اشتريت لطفلك مثل تلك السيارة؟ إذا لم تكن قد فعلت.. فأنت الجاني على نفسك.



.. مخنة فوق رؤوسنا !



مرة أخرى أجدنى مشدودا إلى الكتابة عن نفس الموضوع، بل نفس الشخص، خلال فترة وجيزة. الشخص هنا طفل فى السادسة تفصلنا عنه بحار ومحيطات. والدراما التى أصبح هو فى قلبها شغلت دولة كبرى بضخامة الولايات المتحدة.. وصغرى بضآلة كوبا. وفيما بينهما احتار العالم كله، متسائلا: ما هذا السيرك الإعلامى المنسوب على مدار الساعة؟ طفل فى السادسة نجا من الغرق بعد أن فقد أمه يجب تسهيل عودته إلى أبيه وبلده. كيف يحدث العكس ويصبح كلاهما محتجزين معا فى العاصمة الأمريكية واشنطن ومنوعين من العودة إلى بلدهما ؟

أعود مرة أخرى إلى الطفل الكوبى إيليان جونزاليز. أعود لأسباب شخصية وموضوعية معا.. ولأماكن تتراوح بين مدينة طلخا التى يفصلها نهر النيل عن النصورة.. وبين نيويورك على الساحل الشرقى الأمريكى ولوس أنجلوس على الساحل الغربى .

فى طلخا اجتمعنا كالعادة لتناول العشاء. وسط العشاء سمعنا «نداهة» عبر الشارع تكرر صياحها على السامعين: «عيل تايه يا أولاد الحلال». النداهة هنا امرأة يتم استئجارها للطواف بالشوارع ليلا أو نهارا إعلانا لخبر.. أو توسلا لمساعدة. الآن هى تعلن الخبر وتطلب المساعدة: عيل تايه يا أولاد الحلال .

فى تلك اللحظة انحسرت اللقمة فى زور أمى - حرفيسا - وانقبض صدرها وهى تتمتم بصوت حزين: اللهم ألهم أمه الصبر.. اللهم ألهم أمه الصبر .

لم تقل أمى ما هو أكثر.. وبعدها لم تكمل طعامها. وتطلعنا نحن الإخوة الصغار إلى بعضنا البعض، ثم أسرع بعضنا إلى الشارع نصف المظلم ملاحقين النداهة مع آخرين نساءها: هذا الطفل.. كم عمره؟ أين تاه؟ ما لون ملابسه؟ أين أهله؟ .. إلخ.

فى اليوم التالى أصبحت كالمعتاد فى فصلى الدراسى بالسنة الأولى من مدرسة طلخا الثانوية. مدرسة حكومية نشأت حديثا ويحاولون فيها ممارسة أسلوب نموذجى فى التعليم. فبعكس مدارس أخرى ثانوية أيضا.. كانت هذه لها ملاعبها الخاصة الفسيحة فى كرة السلة والكرة الطائرة

والملاكمة والمصارعة وكرة الطاولة. وفيها مطبخ ومسرح ومكتبة وصالة للموسيقى . وفيها إذاعة مدرسية يديرها التلاميذ أنفسهم.. لوقت قصير في الصباح، ثم لمدة ساعة في فسحة الغداء .

في الفسحة، وفي الإذاعة، اقترحت على زملائي في لجنة الإدارة نوعا من التغيير. فإلى جانب أغاني عبدالحليم حافظ ومحمد فوزي وفريد الأطرش وأقوال الصحف مثلا.. لماذا لا نذيع تنويها عن حادث ضياع الطفل بالأمس، وعن أوصافه وظروف ضياعه وعنوان أهله ؟ لقد رحب زملائي التلاميذ على الفور بحماس وقلق بالغين.. فسمعنا كل تلاميذ المدرسة الموجودين في الملعب يمرحون ويلعبون.. يتنبهون. فبغير حتى أن تسعفنا عقولنا وقتها بتفسيرات أو نظريات كان الحس البدهي بيننا هو ان محنة طفل في السادسة تتجاوز أهله لتصبح محنتنا جميعا. محنة فوق رؤوسنا .

والمجتمع المحلى القريب تصرف في لحظتها بشعور تلقائى من التضامن والمسئولية أمام الواقعة .



هذا يقفز بى إلى مدينة نيويورك. فى تلك المدينة الأمريكية نشأت علاقة صداقة بينى وبين النجم الأمريكى المعروف أنتونى كوين، وأقمنا فى فندق واحد لنحو ثلاثة أسابيع. وأنتونى كوين مشهور فى العالم العربى ببطولته لفيلم «زوربا اليوناني» وفيلم «عمر المختار» ضمن أفلام أخرى .. وبحكم وجودنا معا طوال اليوم وأطرافا من الليل فقد بدأ أنتونى كوين يحكى لى بعض ذكرياته شديدة الخصوصية .

من تلك الذكريات واقعة محددة استمرت محفورة فى عقل أنتونى كوين لعشرات السنين.

هو فى الأصل مكسيكى الجنسية. وبحكم ان المكسيك هى الجار الجنوبى الفقير للولايات المتحدة.. وبحكم ان الدعاية السائدة فى المكسيك تبشر بجاذبية الدولار الأمريكى والثراء الأمريكى والحياة الأمريكية.. فقد أصبح الكثيرون يتطلعون إلى يوم يهاجرون فيه إلى الولايات المتحدة .

ولأن أسرة أنتونى كوين تعيش فى فقر مدقع فقد أصبح كل طموح الأم هو أن تصحب طفلها هذا - أنتونى - كل صيف فى هجرة غير مشروعة عبر الحدود.. للبحث عن فرصة عمل فى أقرب مزرعة أمريكية. وهذا النوع من الهجرة خصوصا كانت سلطات الحدود الأمريكية تغض عيونها عنه لمصلحة محددة. فأصحاب المزارع الأمريكية فى تلك المنطقة يريدون عمالة رخيصة . وشرطة الحدود تسمح لهم بذلك لأنها تعرف أن العامل المكسيكى الذى يوجد على الأرض الأمريكية بطريقة غير قانونية يصبح أكثر قابلية للتحكم فيه والسيطرة عليه بعيدا عن الحقوق والقوانين والنقابات.. إلخ. فمع أى خطأ يرتكبه العامل المكسيكى هذا يستطيع صاحب المزرعة أن يسلمه إلى الشرطة فيجد نفسه معتقلا.. بلا حقوق ولا نقود ولا هوية.. وربما بمصيبة فوق رأسه.

فى المزرعة الأمريكية أصبح الطفل أنتونى كوين وأمه ضمن «عمال التراحيل».. هؤلاء القادمين موسميا من المكسيك بأجور شحيحة مقابل جمع الفواكه طوال الصيف. وذات ظهيرة وقفت صاحبة المزرعة الأمريكية بحصانها أمام أنتونى كوين وأمه. ثم ترجلت واتجهت إلى الطفل الصغير تتأمله وتداعبه. فى اللحظة التالية تحدثت مع أمه. فى الحوار أجابت الأم على الأسئلة: نعم لديها أولاد آخرون فى قريتها بالمكسيك. نعم هم يعانون من الفقر المدقع. نعم هى تتحمل شقاء هذه الرحلة كل صيف سعيا لأى نقود قليلة تساعد على قسوة الحياة فى بلدها. نعم هى لم تفكر - بعد - فى إلحاق أنتونى بأية مدرسة لأن «العين بصيرة واليد قصيرة».

فى اللحظات التالية همست صاحبة المزرعة فى أذن الأم بما اعتقدت انها الكلمات السحرية. هى تملك هذه المزرعة الضخمة مع زوجها.. وكلاهما يقترب من السبعين عمرا.. وبلا أولاد. الآن تراودها منذ مدة فكرة الحصول على طفل لكى تتبناه مع زوجها ويورثانه جزءا من ثروتها الطائلة. الآن هى تجد هذا الطفل أمامها. تجد أنتونى. والآن هى تعرض على الأم مبلغا مغريا من الدولارات تعود به إلى المكسيك وتضمن لها حياة مريحة مدى العمر لها ولباقى أولادها.. مقابل التنازل لها عن هذا الطفل - أنتونى . فقط . الشرط هو أن يجرى تسجيل هذا كله فى عقد اتفاق.. تتعهد فيه الأم بأنها لن تحاول مستقبلا.. وبأى شكل وتحت أى ظروف.. رؤية طفلها هذا من جديد.. حيث سيصبح له اسم آخر، وحياة أخرى، وجنسية أمريكية، ومستقبل أكثر إشراقا. هه، ما رأيك؟ ما أوله شرط آخره نور .

فى نيويورك يجلس معى أنتونى كوين سارحا بخياله وذاكرته إلى تلك النقطة البعيدة البعيدة من طفولته.. وبالتحديد إلى تلك اللحظة بالضبط.. قائلا: لحظتها تطلعت إلى أعلى.. إلى أمى وهى تستمع باهتمام وصمت إلى صاحبة المزرعة الأمريكية. ولعدة لحظات تالية بدت لى بطول دهر بأكمله.. صمتت أمى.. بينما أحس أنا بجسمى النحيل الضئيل يكاد يرتعش.. وحينما نطقت أمى أخيرا وطاوعتها الكلمات.. كانت إجابتها هي: هذا يا سيدتى عرض مدهش أشكرك عليه بشدة . فقط. أتوسل إليك أن تمهلينى بعض الوقت للتفكير .

ركبت صاحبة المزرعة حصانها وهى تترد بكلمات واثقة: لا بأس.. أمامك يومان وليس أكثر.. مفهوم؟

مع مضى الليل ظلت الأم يقظة تماما وصامدة بجوار طفلها فى عنبر النوم مع العملات والعمال الأجراء الآخرين. أنتونى كوين نفسه حاول اليقظة أيضا أو حتى التحدث همسا إلى أمه. لا هى مصغية إليه ولا هو مستمر يقظا.. فالأم فيها ما يكفيها، وطفلها لايزال فى السادسة، وقطعا لن يفهم شاعلها فى تلك اللحظة، لأنه بالتأكيد لم يستوعب أصلا مغزى ما جرى، وقد غلبه النعاس فى نهاية المطاف.

عند الفجر فوجئ الطفل أنتوني بأن أمه توقظه برفق وهدوء وصمت بعد أن عبأت ملابسها القليلة في سلة متوسطة الحجم. وبينما هو يتحرك بين النوم واليقظة .. كررت أمه بأصبعها على فمها مشيرة إليه بالأصبع لا ينطق بحرف ولا يثير ضجة. فقط .. عليه أن ينهض ويسير في صحتها.. وبسرعة.

هكذا هربت الأم مع طفلها من المزرعة فجرا إلى مكان آخر أقرب ما يمكن إلى الحدود الأمريكية مع المكسيك.. سيرا على الأقدام أحيانا أو بركوب سيارة أو أتوبيس أحيانا أخرى .

فيما بعد تغيرت الظروف وتعذلت الحياة ومضت السنوات. وأنتوني كوين نفسه هاجر في مطلع شبابه إلى الولايات المتحدة لكي يجرب حظها فيها ملاكما قسوة الحياة عند القاع في المجتمع الأمريكي. لقد فشل في مهن عديدة، وجرب محاولات أكثر.. إلى أن وضع قدميه بعد مشوار طويل على طريق النجاح كممثل سينمائي. بعد النجاح جاءت الشهرة والثروة .. وهو أيضا جاء بأمه من المكسيك لكي تعيش معه تحت رعايته لعله يعوضها عن بعض الحرمان والشقاء والمعاناة في المكسيك .

برغم هذا كله.. ومع عشرات السفين التالية.. استمر المشهد إياه حاجزا نفسيا داخلها لدى أنتوني كوين نحو أمه. حاجز من المرارة والتشكك وعدم اليقين. أخيرا في لحظة تجلى - وكان الطفل الصغير أنتوني قد أصبح في الستين من العمر - أطلق من صدره سؤاله المختزن ضد أمه: كيف كدت أهون عليك إلى هذا الحد؟ هل يعقل أنك فكرت، ولو للحظات قليلة أن تبيعيني لصاحبة المزرعة؟ لقد تطلعت إلى وجهك لحظتها مليا.. وأنت تطليبين منها مهلة للتفكير.. مهلة لكي تبحنى مسألة التخلص مني مقابل حفنة دولارات ! طبعاً هذا لم يحدث.. إنما طلبك منها مهلة للتفكير معناه أنه كان يمكن أن يحدث ..

انزعجت الأم بشدة من كلمات وتساؤلات طفلها.. فحتى لو أصبح في الستين عمرا.. يظل هو طفلها. وبعد لحظة تغيرت ملامح وجهها إلى الغضب، وهى تقول له: هل ظل هذا هو انطباعك الذي كتمته في صدرك طوال كل تلك السنوات؟! لماذا لم تصارحنى بأفكارك هذه من وقتها؟ لماذا لم تسألني يوما؟ أو في اليوم التالي.. أو في السنة التالية؟! لماذا غاب عنك، حتى بعد أن كبرت وخبرت الحياة.. ما يمكن أن يكون سببا في إجابتني؟ نحن فقراء وهى غنية. نحن غرباء وهى في بلدها. نحن ضعفاء وهى قوية. نحن تحت سيف الإقامة غير المشروعة في مزرعتها وفي بلدها. لقد فكرت لحظتها.. ليس في الصفة التي تعرضها هي .. ولكن فقط في: ماذا يكون رد فعلها لو أنني رفضت الصفة في التو واللحظة. هل ستخطفك مني؟ هل ستسلمنا إلى الشرطة فندخل السجن معا بتهمة الإقامة غير المشروعة هل.. وهل.. وهل..؟!

ثم أضافت الأم: تلك هي بالضبط كانت مشاغلي وتساؤلاتي الداخلية في نفس اللحظات التي أصابني فيها الصمت الكامل من هول المفاجأة. بعدها اخترت أن أظاهر بالموافقة مبدئياً.. ورجوتها فقط في مهلة يوم أو يومين.. حتى أجد حلاً ينجينا معا - أنت وأنا - من المأزق.

والحل كان ما فعلته بالضبط.. أن أهرب بك إلى أبعد مكان عنها.. لأنك طفلي الذي لا تعادله كل أموال العالم.. والآن.. بعد كل هذا العمر.. لاتزال تحتفظ في داخلك بغضبك هذا مني؟! الآن.. أنا التي أصبحت غاضبة منك.. ومن قلبك الأسود هذا.

لكن أنتوني كوين لم يكن أسود القلب. فقط كان طفلاً في السادسة. في وقائع تلك السن تصبح الذاكرة متفتحة تماماً، وترصد الصغيرة قبل الكبيرة. ترصد الوقائع كمادة خام، بلا مراجعة ولا تكرير ولا تفحص. فكلما تعلقت الوقائع بمن نحبهم ونهتم بهم كلما اتسعت لها الذاكرة لأطول وقت بعدها. فالطفل في تلك السن المبكرة تحركه كلمة تشجيع.. أو لحظة حنان.. أو دفعة طموح.. أو حسن تربية. ليست هناك علاقة حتمية في هذا السياق بين حسن التربية ودرجة الفقر أو الغنى. فالطفل قد ينشأ موهوباً في بيئة فقيرة.. وقد يفسد في محيط غنى. قد يتحمل المسؤولية عن محيطه في سن مبكرة.. وقد يظل قاصراً في تفكيره حتى مع تقدم العمر. وحينما اجتمعت مع أنتوني كوين بعد ذلك مرة أخرى في مكان إقامته بمدينة لوس أنجلوس الأمريكية.. فوجئت به يتطلع إلى بعض الخدم المكسيكيين العاملين في بيوت كبار الأثرياء وفجأة أشار إلى أحدهم، وهو يقول لي: لقد كنت في مثل سنه حينما جئت إلى هذه المدينة لأول مرة باحثاً عن مستقبل.

قلت له مداعباً: لكنك على الأقل لم تكن في سن السادسة.. وإلا كنت قد انطلقت في ذكرياتك بنفس التحديد والوضوح!



هذا يعيدني من جديد إلى الطفل الكوبي إيليان جونزاليز. طفل في السادسة. فبعد سبعة أشهر قضاه محتجزاً في أمريكا.. سمح له القضاء الأمريكي في نهاية المطاف بالعودة مع أبيه إلى وطنهما كوبا. عودة تمت فعلاً في ٢٩ يونيو الماضي.

مع عودته أعرف أما مصرية كانت تتابع الخبر تليفزيونياً وإلى جوارها أحد أطفالها.. واسمه حسام. الأم كانت فرحة لعودة إيليان - الذي لا تعرفه ولا تعرف بلده - أخيراً إلى أهله ومدرسته. لكن طفلها حسام لم يكن فرحاً بنفس القدر قائلاً لأمه: يا ماما.. نحن هنا انتهينا من امتحاناتنا في المدرسة.. هذا معناه أن إيليان ضاعبت عليه الامتحانات وضاعت عليه السنة! فوجئت الأم بالملاحظة.. ففكرت لحظة قبل أن ترد: لن تكون هذه مشكلة.. فيمكن للمدرسة أن ترتب له امتحاناً خاصاً مراعاة لظروفه..

رد عليها طفلها من جديد : جائز بعد كده زملاؤه يعايرونه فى المدرسة.. بأنه ينجح بالكوسة ! ..
يعنى بالواسطة ! تلك هى أيضا كل اهتمامات طفل مصرى.. طفل فى السادسة !



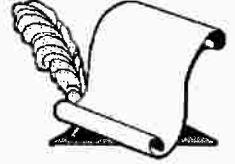
البعض فسر عودة إيليان إلى بلده بأنه انتصار للاستبداد على الديمقراطية. والبعض قال : إنه إنعان من الدولة الأقوى فى هذا العالم إلى الدولة الصغيرة فى محيطها. فى الواقع إن الفائز الوحيد فى كل تلك الدراما هو الطفل نفسه الذى عاد إلى محيطه وبيئته الطبيعية.. بغير أن نحشر السياسة فى غير مكانها.

أما مكان السياسة فيوجد لدى الجالية الكوبية فى الولايات المتحدة. جالية من المهاجرين الكوبيين الذين أصبحوا مواطنين أمريكيين بداخلهم مخزون من الكراهية ضد كوبا ونظامها السياسى. هم أحرار فى «التمتع» بهذا المرض. لكن ما ليسوا أحرارا فيه هو محاولتهم جعل السياسة الخارجية الأمريكية نحو كوبا رهينة فى أيديهم.. حتى ولو كان هذا ضد مصالح أمريكا نفسها.

أقول هذا ونحن - كعرب - نعانى أيضا من شيء مشابه. نعانى من جالية يهودية صهيونية فى أمريكا.. نشيطة ومنظمة وفعالة.. مع أنها لا تمثل أكثر من اثنين بالمائة من الشعب الأمريكى. هؤلاء «الاثنان بالمائة» يصبون فى الحياة السياسية الأمريكية قدرا استثنائيا من الكراهية ضد كل ما هو عربى.. ولحساب كل ما هو إسرائيلى. انها قصة أخرى.. أما فى اللحظة الراهنة فيكفينى أن أتذكر أنه بعودة طفل فى السادسة إلى أسرته وأهله ومدرسته.. يصبح الأمل فى عالم أفضل أكثر قوة.. وأقرب منا.



لبنان .. بالزيتون والرصاص والجبنه !



لبنان. حالات وصور. فى الغناء مثلاً شجن قليل ورقص كثير. ناس رايقة وفايقة تريد أن تنبسط وتعيش لحظتها وتدع الخلق للخالق. أحياناً تنفعل بشدة مع فيروز وهى تغنى: «حبيبك بالصيف.. حبيبك بالشتا».. وأحياناً تفاجئك - مثل صباح - وهى تشكو من حبيبها لأنه: «العصفورية.. وصلنى بأيده.. وما ظل على». أين الغلط؟ ولماذا الشكوى وقد وضعها الحبيب مع الطيور والعصافير وكل ما هو رقيق؟! لكن.. انتظر. لأن «العصفورية» فى اللهجة اللبنانية هى.. هى.. هى: مستشفى المجانين!!

بين وقت وآخر يفاجئك لبنان بشىء من العقل.. فيختار وديع الصافي مثلاً معنى غير مألوف حينما يغنى: «الله يرضى عليك يا ابني.. زهرى انكسر والهم دوينى.. سوسو ما عندها عليك حنية. ومعوودة الرقص ليليه». إذن.. هل أصبح اللبناني يكره الرقص لنفسه ولابنه؟ انتظر مرة أخرى. فوديع الصافي يرشح عروساً لابنه - اسمها ليلى فيغنى له: «خذ ليلى.. بنت ضيعتنا.. بتعيش يا ابني مثل عيشتنا.. ليلى يا ابني إن جارت الأيام.. بتعيش عالزيتون والجبنه.. صار لى عمر يا ابني أربى فيك.. يا ابني ع رب الخير عم باهديك. خذا ليلى ولا تعذبني. الله يرضى عليك يا ابني».

يعنى الحكاية إن الحياة الحقيقية فيها ما يتجاوز الرقص. الحكاية فيها زيتون وجبنه وتحسب لشدائد الأيام.

فى ٢٤ مايو سنة ٢٠٠٠ عاش لبنان الوطن ذروة الشدائد وأجمل الأيام. ذروة لبنان.. والزيتون والجبنه.. والرصاص والمقاومة والانتصار.. وتحرير لبنان من احتلال اسرائيلى استمر ٢٢ سنة.



لبنان. حالات وصور. مواطنة لبنانية شابة - صحفية بالمناسبة - اسمها «كوزيت» تردت صورتها حول العالم نقلاً عن وكالة الأنباء الفرنسية. المواطنة الشابة جرى تحريرها للقو من سجن «الخيام» الاسرائيلى الشهير مع ١٤٣ آخرين. بمجرد فرار الاحتلال الاسرائيلى لحق به عملاؤه اللبنانيون من ميليشيا أنطوان لحد تاركين أسلحتهم وما رخص من ملابسهم.

لقد قام خمسمائة مواطن لبناني باقتحام السجن وتكسير أبوابه وسط زغاريد النساء. المعتقلون خرجوا من الزنازين إلى ضوء الشمس لأول مرة. فبعضهم معتقل بلا محاكمة وتحت التعذيب منذ نحو ١٥ سنة. الصورة هنا لهذه المواطنة اللبنانية الشابة حاملة في يدها اليسرى زجاجة ماء. أما يدها اليمنى فتلوح بها عالياً بعلامة النصر. ربما سنعرف لاحقاً الأهل التي عاشتها داخل السجن.

أما في اللحظة الراهنة فوجهها المبتسم يقول كل شيء.. تشير بيدها إلى أعلى، والصليب يتدلى من سلسلة بسيطة في عنقها، وإلى جوارها سيدة لبنانية مغطاة الرأس عريضة الياقانة. في الخلفية شبان لبنانيون مسلحون ومرفوعو الرؤوس. ملفت تماماً أنهم جميعاً مرفوعو الرؤوس. ملفت أيضاً أن المواطنة مسيحية.

لبنان. حالات وصور. في خط الحدود مباشرة بين إسرائيل ولبنان هذه ثلاثة مدافع إسرائيلية - برواية وكالة رويترز - هجرها جنود الاحتلال نجاة بجلودهم. في قلب الصور خمس نساء. إحداهن تحمل رضيعاً إلى صدرها بيدها اليسرى، بينما تمسك بيدها اليمنى طفلة لها في سن أقل من العاشرة. الأب الغائب من الصورة. ربما كان من شهداء الاحتلال، أو يقوم في تلك اللحظة بمهمة أخرى لتطهير الأرض المحررة. لكن الصورة أمامنا لنساء وأطفال يريدون التأكد بأعينهم من مصير احتلال ونهاية كابوس.

لبنان. حالات وصور. في خط الحدود مباشرة بين لبنان وإسرائيل يقف جندي إسرائيلي «متمرساً» بسلحه الأوتوماتيكي الموجه إلى أسفل. على مسافة مترين أو ثلاثة يوجد السياج الفاصل، وبعده مباشرة مواطنون لبنانيون متحمسون. بعضهم يرفع علم لبنان. بعضهم يرفع راية «حزب الله». وسطهم شيخ يحمل طفله فوق كتفيه، حتى يملأ الطفل عينيه بالمشهد فيتذكره مستقبلاً لو حاول أحد ترويعه أو إرهابه بكابوس آخر.

لبنان. حالات وصور. امرأة لبنانية عائدة لتوها من إسرائيل عبر نقطة حدود. قبل الصورة كانت ترتعد خوفاً لأنها أصلاً فرت إلى إسرائيل رعباً وخوفاً. المرأة لها زوج يعمل في ميليشيا أنطوان لحد العميل لإسرائيل.. وغائب منذ أيام في مهمة بإسرائيل لا تعرفها هي. في تشوش الانسحاب الإسرائيلي وفراره كادت المرأة تفقد رشدها، ففرت من بيتها في بلدة «بيت جبيل» مع طفليها. في إسرائيل وجدت نفسها مع آخرين تنتظر الساعات في خيمة ببلد غريب، لا تعرف به أحداً، ولا يهتم بها أحد - على حد قولها - . هكذا انسحبت في هدوء عائدة مع طفليها إلى الحدود سيرا على الأقدام محاولة التغلب على الرعب الآخر في داخلها من المصير الذي قيل لها إنها ستواجهه على أيدي مقاتلي «حزب الله» المسلمين. عند الحدود نقلتها سيارة الأمم المتحدة إلى قريتها. بمجرد أن نزلت من السيارة مع طفليها أحاط بها شباب المقاومة اللبنانية - من «حزب الله» وغيره -

مقدمين لها زجاجة مياه قائلين لها: لا تخافى.. فلن يصيبك مكروه. بعد دقائق أصبحت فى منزلها وسط أقرباؤها وأحضانهم ودموعهم.



إسرائيل. بعض صور. الصحف تنشر البيان الرسمى بانسحاب الجيش الإسرائيلى من لبنان بلا قيد ولا شرط. الانسحاب - الفرار - تاريخه فجر ٢٤ مايو سنة ٢٠٠٠. مع البيان صورة يعرض الصفحة الأولى لجنود إسرائيليين غمر الفرخ وجوههم، بينما أحدهم يتحدث فى تليفون. العنوان فوق الصورة هو: «ماما.. غادرنا لبنان!». صحيفة إسرائيلية أخرى عنوانها هو: «الإذلال».

إسرائيل. بعض صور. الجنرال اللبناني أنطوان لحد يتحدث بمرارة إلى صحيفة إسرائيلية. يتحدث عن خديعة إسرائيلية له: «قلتم لنا دائما إننا حلفاؤكم. لكننى فجأة أدركت أن إسرائيل لا تخدم إلا نفسها». هو سافر إلى بيته الآخر فى باريس، مطمئنا إلى أن الوقت متسع. من باريس استمر يتصل تليفونيا برؤسائه فى إسرائيل. كله تمام. حتى وهو فى مطار باريس عاثدا إلى إسرائيل. كله تمام. ثم هبط فى إسرائيل ليفاجأ بالانهيار - أو هكذا يقول! إنه يقول أيضا: «لقد تركتم الشريط الحدودى من دون وضعى فى الأجواء، وتركتمونا خلفكم مثل الحيوانات.. الآن كل شىء انتهى.. الآن لا تنادونى بالجنرال». له حق. اسمه العميل.. أو الخائن. لكن ليس الجنرال.



الصور كثيرة والمفارقات أكثر. إسرائيل هى إسرائيل. لكن الذى تغير هو لبنان. لبنان فى طبيعته الجديدة مفاجيء ومدعش للجميع.. أصدقاء وخصوما. مدعش حتى لمواطنيه. لا أحد يتوهم للحظة أن لبنان فى قوة إسرائيل عسكريا.. أو حتى قادر على منعها من غزوه مرة أخرى كلما ناسبها ذلك. الذى تغير هو المواطن اللبناني نفسه. مواطن سنة ٢٠٠٠ أكثر ثقة بنفسه وبشعبه وببلده. هو لم يحارب إسرائيل رأسا برأس. حاربها رأسا بدبابة. لقد تصرف بسلاح محدود تماما بيده فى مواجهة القوة العسكرية الضاربة فى الشرق الأوسط بكفالة أمريكية.

لم يكن مشوار المقاومة مجانيا، ولا كان نزهة. كان مشواراً من التضحيات والدمار والخراب والحرائق والدموع. حتى أسابيع قليلة سابقة كانت إسرائيل تهدد بحرق لبنان. هى فعلا قادرة، لأنها فعلت ذلك بالضبط مرات عديدة سابقة. لقد مارست ضد لبنان عقابا جماعيا حول الشعب اللبناني كله إلى رهائن للقصف المستمر من طائراتها. فى إحدى الحملات الإسرائيلية الكبرى قالت إسرائيل صراحة وعلنا وبكل تبجح إن هدفها من القصف العشوائى على مدار الساعة هو إرغام نصف المليون لبنانى فى الجنوب على الهجرة شمالا إلى العاصمة بيروت، سعيًا إلى الضغط على حكومة لبنان، أملا فى الضغط على حكومة سوريا، تعجيلا للضغط على حكومة إيران، وصولا إلى الضغط على «حزب الله» والمقاومة الوطنية فى الجنوب.. فيتوقفوا عن مضايقة الاحتلال الإسرائيلى!

لم تفكر إسرائيل أبداً في أن أقصر الطرق هو أكثرها استقامة. لم تفكر أصلاً في أن لبنان دولة مستقلة. إسرائيل نظرت إلى لبنان دائماً باعتباره ورقة في يدها ولحسابها ضد باقي العالم العربي. وفي سنوات جولدا مائير كرئيسة لوزراء إسرائيل كانت تقول دائماً: «إنني لا أعرف - بعد - من تكون الدولة العربية الأولى التي تسعى إلينا صلحاً، لكنني متأكدة أن لبنان سيكون الدولة الثانية» تعني: إن كانت المسألة هي لبنان، فلبنان في جيب إسرائيل وجاهز لحسابها. المهم هم الآخرون. لبنان لم ينظر إلى نفسه أصلاً على أنه في جيب إسرائيل أو غيرها. لبنان في جيب اللبنانيين. وبصرف النظر عن أن كل ما ساهم به في حرب فلسطين الأولى كان مجرد ألف عسكري بيناق خفيفة.. فإن لبنان كان هو الدولة العربية الأولى التي اختارت أن تكون في حالها وتترك إسرائيل لحالها.

لبنان عربي. طبعاً. لكنها عروبة على الهادي.. وفي الطراوة.. ومع الميزات والمشهيات ! واللبنانيون أحبوا الحياة لأنفسهم ولغيرهم. أحبوا التفاح والأزياء والموضة والدبكة والتبولة والكبة والمواويل السياسية شعراً.. وحين ميسرة ! أحبوا أم كلثوم وفيروز ووديع الصافي ومحمد عبدالوهاب والمصارى.. وفرنسا شعراً.. وأمريكا نثراً. أحبوا جبلهم وثلوجهم وأمطارهم زخات.. زخات. أحبوا في الحياة لونها البمبي.. والدنيا ربيع والجو بديع و«قفلى على كل المواضيع». والرجل اللبناني حينما يراك مزعجاً من شخص فأسهل رد عنده هو: ما تدير بالك.. بكير أنا أقوصه. يعني باكر هو سيطخه.. يقتله.. بالرصاص. لا تقلق. باكر سيجيء وهو لن يقتل أحداً - لن يقوصه - بالرصاص.. لأنه بلا رصاص! والفتاة اللبنانية حينما تقول «تقبرني» فقد يصاب المواطن العربي الآخر بالخضة والارتباك لأن هذه الفتاة تتكلم بتلك البساطة عن القبر والموت وما أشبه. هي لا علاقة لها بالموت. هي تقول «تقبرني» حبا في الحياة وغراماً.

في تلك الطبعة الأولى من لبنان هو يريد من الآخرين أن يتركوه في حاله ليعيش ويعنى ويرقص ويتاجر ويجمع كبوش التوت ليضع القلب في بيروت، ويذهب العقل إلى بلاد المهجر، حتى يعود بالمال والنفوذ. الآخرون جميعاً تركوا لبنان في حاله.. إلا إسرائيل.

إسرائيل كدولة قامت في سنة ١٩٤٨. وأول رئيس لحكومتها كان ديفيد بن جوريون. لكن في سنة ١٩٣٧ - يعني قبل قيام إسرائيل بإحدى عشرة سنة - وضع بن جوريون عينه على لبنان تحديداً قائلاً: «لبنان هو الحليف الطبيعي لليهود في أرض إسرائيل.. إن قرب لبنان منا جغرافياً سيجعله حليفاً للدولة اليهودية بمجرد قيامها».

بعد قيام إسرائيل كدولة، ومن الدقائق الخمس الأولى في حياتها، شرع بن جوريون في ممارسة أفكاره عملياً. لم يكن في بال لبناني واحد مطلقاً أن بلده الصغير المسالم هذا بند محوري وجوهري وأساسى في خطط الدولة الوليدة لتوها.. إسرائيل. مع ذلك فقد بدأ أول رئيس حكومة لإسرائيل في تبادل الأفكار كتابياً مع وزير خارجيته موسى شاريت. أفكار وخطط محورها: علينا أن نبحث عن

ضابط ماروني صغير نستأجره لحسابنا في لبنان، وندفعه إلى إقامة دويلة صغيرة للمارونيين، نقوم نحن بدعمها وتمويلها وحمايتها واستخدامها تقسيما للبنان وضربا وإضعافا للآخرين. تلك وغيرها أسرار إسرائيلية موثقة جرى الكشف عنها بعد سنوات طويلة.

حينما تبادل رئيس وزراء إسرائيل رسائله السرية تلك عن لبنان مع وزير خارجيته لم يكن هناك - بعد - جمال عبد الناصر ولا خوميني ولا عرب محيط أو خليج ولا جندي سوري واحد ولا «حزب الله» ولا أيضا أي وجود سياسي للشيعية ولا نفوذ إيراني ولا حتى طائرة عسكرية لبنانية واحدة يملكها لبنان.. ببساطة لأن موارده على قد الحال ومواطنيه مشغولون بالحياة برا أو بالترحال بحرا وجوا إلى بلاد الله سعيا إلى الرزق.

فكرة لبنان في هذا كله هي ظروفه وتركيبته الخاصة. زائد الفكرة الأهم.. وهي أنك إذا تركت الشر في حاله.. فسوف يتركك الشر في حاله. العرب سايروا لبنان في تفكيره هذا وأخذوه بعقله. والعقل اللبناني رفع شعارا خلاصته هو أن لبنان طالما تصرف كدولة ضعيفة مسالمة ماشية جنب المحيط. وتعمل بهمة لجذب السياح والخروج من جيوبهم بالمصارى.. فكله تمام !

لكن فكرة إسرائيل عن لبنان كانت مختلفة تماما. لبنان ضعيف. لبنان مسالم. لبنان في حاله. إنما لبنان أيضا بلد أقليات. هناك غالبية مسلمة وأقلية مسيحية. إنما تحت هذا العنوان العريض هناك مسلمون سنة، ومسلمون شيعة. ومسلمون دروز بالمقابل. بل هناك مسيحيون. إنما بين المسيحيين هناك موارنة. كاثوليك. وأرثوذكس. في كل هؤلاء من يستقوى لنفسه بالعروبة. ومن يتطلع إلى فرنسا. ومن يتطلع إلى مصر.. أو سوريا. أو أمريكا.. وفي كل الأحوال يتطلع إلى جيبه. إلى «المصارى» التي هي أصلا صفة للعملة المصرية حينما كان المصريون قبل مائة سنة هم الأكثر توجها إلى لبنان للاصطياف .

فكرة إسرائيل في هذا كله هي استخدام لبنان لضرب العرب جميعا.. من خلال رفع حجة «الدفاع عن الأقليات».. بدءا من المارونيين.. وانتهاء بالغاء لبنان ذاته ليصبح محمية إسرائيلية . هكذا بدأت الحرب الأهلية في لبنان سنة ١٩٧٥. بدأت بفعل فاعل. وبحجة مبدئية هي تخليص لبنان من سيطرة أربع مائة ألف لاجئ فلسطيني وأسلحتهم. فجأة.. في لبنان.. البلد الصغير الضعيف المسالم المتعايش مع بعضه بدأ القتل الأعمى من وداخل كل طائفة ودين. البلد كله تحول إلى «عصفورية».. إلى مستشفى مجانيين !

لكن الخيوط كلها لم تكن بأيدي مجانيين.. وإنما مخططون. في سنة ١٩٧٨ قامت إسرائيل بغزوتها الأولى ضد لبنان. وفي ١٩٨٢ قامت بغزوتها الكبرى الثانية.. فأصبحت داخل قصر رئيس جمهورية لبنان ذات نفسه بقلب بيروت. بعد فترة انسحبت إسرائيل لكنها احتفظت بنحو ألف كيلومتر مربع تحت احتلالها داخل لبنان، وأطلقت عليها اسم «الحزام الأمني».

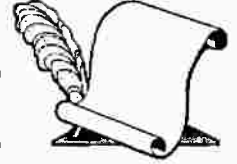
لكن اللبنانيين كانوا قد استوعبوا الدرس. ولو متأخرين. درس أن صاحب الأرض هو المسئول عن تحريرها. وهكذا بدأ سكان الجنوب اللبناني وهم بالنسبة الأكثر فقرا في كل لبنان - ينظمون أنفسهم في تنظيمات مقاومة وطنية، أبرزها «حزب الله» الذي لم يكن موجودا قبل سنة ١٩٨٢. مقاومة حقيقية جادة.. تضرب وتختفي. وهي تضرب المحتل الإسرائيلي فقط ومن أصبح عميلا له. لم تكن مواجهة متكافئة بالمرّة.. فإسرائيل هي القوة العسكرية الضاربة في كل الشرق الأوسط. بينما أفراد تلك المقاومة الوطنية اللبنانية أقل من خمسة آلاف يقاتلون لحساب وطنهم.. لا لفئة ولا لطائفة ولا لمذهب. هكذا بدأ يولد لبنان الجديد. لبنان الذي أعاد اكتشاف معنى الوطن والأسرة والتعايش والمقاومة والتحالفات الصحيحة.. مواجهة للأخطار المؤكدة. بعد ٢٢ سنة من الاحتلال الإسرائيلي المباشر، اكتشفت إسرائيل أيضا - ولو مؤقتا - أن لبنان الضعيف هذا يصبح قويا بوحدته الوطنية.. وبالتمييز بين الحليف والعدو يتضح أنها هي العدو. هكذا لجأت إسرائيل إلى الأمم المتحدة بعد طول كراهية، واستغاثت بفرنسا بعد طول رفض، وخرجت من لبنان بسرعة.. متخيلة حتى عن العملاء الذين استأجرتهم هي ضد شعب لبنان!

لقد تظاهرت إسرائيل بأنها تنسحب تنفيذا لقرار مجلس الأمن رقم ٤٢٥.. الذي صدر أصلا في سنة ١٩٧٨ مطالبا إسرائيل بالانسحاب الكامل من لبنان.. واستمر حبرا على ورق إلى أن نجحت المقاومة اللبنانية المسلحة في إرغام إسرائيل على تنفيذه بعد أن استمرت تتجاهله ٢٢ سنة. إسرائيل دخلت لبنان بحجة إنقاذه.. فانتهت إلى تخريبه. وإسرائيل حرّضت بعض لبنان ضد بعضه الآخر، ودفعت كل طائفة ضد الأخرى، فانتهت إلى توحيد كل لبنان ضدها. وإسرائيل عاقبت شعب لبنان جماعيا، وأظلمت مدنه.. فانتهت إلى أن تهرب هي في جنح الظلام. وإسرائيل خططت لتنفيذ انسحابها في يوليو فإذا بها تضطر صاغرة إلى الفرار في مايو. وإسرائيل أطلقت على منطقة احتلالها في الجنوب اللبناني اسم «الحزام الأمني» فأصبحت تلك المنطقة تحديدا هي الأقل أمنا بالنسبة لإسرائيل.

لم يكن في القصة لغز ولا سر. كان فيها فقط لبنان جديد يواجه إسرائيل بسلاحه هو.. وليس بسلاحها. إنها مواجهة بين إرادة القوة في جانب وقوة الإرادة في جانب آخر. القوة تستطيع أن تدمر وتحرق وتحتل. لكنها لا تستطيع أبدا أن تحقق الأمن للاحتلال. ودرس آخر: لقد بدأ لبنان بأن ترك إسرائيل في حالها.. لكنها إسرائيل التي لم - ولن - تتركه أبدا في حاله. لقد تجبرت إسرائيل بقوتها على لبنان الضعيف المسالم. ولبنان أرغم إسرائيل على أن «تخطف ذيلها في أسنانها» وتنسحب فجرا بلا قيد ولا شرط!

بالزيتون والجبن، والرصاص والمقاومة، والوحدة الوطنية.. يستحق اللبنانيون فعلا وطنهم الجديد هذا.. الذي ولد صوتا وصورة فجر الرابع والعشرين من مايو سنة ٢٠٠٠.

أه .. يا بلد الدروس الخصوصية !



غمرتنى الحيرة فى كل مرة أمسكت فيها بالقلم لكى أكتب فى موضوع محدد يشغلنى منذ مدة.. موضوع نظامنا التعليمى المعاصر من أساسه. فى الموضوع أطراف عديدة.. من الأسرة إلى المدرسة إلى الجامعة إلى الطالب نفسه. فى الموضوع أيضا مجتمع واسع وقيم محددة يريد أن يزرعها مبكرا فى نفوس وعقول أبنائه. فى الموضوع كذلك مصالح اقتصادية وسياسية عاتية، حتى لو بدأنا بمجرد ظاهرة الدروس الخصوصية التى أصبحت متفشية كالوباء.. بحيث انقلبت الآلية وأصبحت الدروس الخصوصية هى الأصل والمدرسة هى الفرع .

الآن لم تعد مصر هى بلد الأهرام والسد العالى. أصبحت بلد الدروس الخصوصية. لقد سافرت إلى عشرات الدول الأجنبية شرقا وغربا وشمالا وتأملت مجتمعات متقدمة من أمريكا إلى اليابان.. ومجتمعات نامية من نيبال إلى موريتانيا.. فلم أجد فى أى بلد مثل هذا الكابوس فى كل منزل. كابوس الدروس الخصوصية .

وفى جميع مراحل التعليمية، من المدرسة إلى الجامعة، اعتبرت نفسى محظوظا لأن التعليم الذى تلقته كان عاديا فى جوهره، والتعليم العادى الذى أقصده هو ذلك الذى تتكافأ فيه فرص الجميع ويتشرب الناس منه أهم قيمة على الإطلاق.. قيمة الاعتماد على الذات.

فى مدينتنا الصغيرة كانت هناك مدارس حكومية عديدة ومدرسة خاصة واحدة اسمها «مدرسة العدوى». وبعبارة ما أصبح رائجا حاليا فإن صورة المدرسة الخاصة فى أذهاننا كانت سلبية تماما. حيث الأصل هو الالتحاق بمدرسة حكومية لأن التعليم فيها جاد ومنضبط ومجانى وبوابة المدرسة يتم إغلاقها فى الموعد المحدد كل صباح ولو حدث أن تأخر أحدنا دقيقة واحدة، ومهما يكن وضعه الاجتماعى أو عذره الشخصى، فإن النظام هو النظام .

فى المقابل كانت المدرسة الخاصة الوحيدة غير ذلك. بالطبع هى بمصروفات. لكن الأهم هو أن الذين يلتحقون بها هم التلاميذ الذين تخلصت منهم المدارس الحكومية بسبب سوء السير والسلوك أو عدم الانضباط أو لتعدد مرات الرسوب أو مجرد الرغبة فى الحصول على شهادة بأى تكاليف وبأقل مجهود.

من المدرسة الإعدادية الحكومية، تعلمت حب القراءة. بل إن ناظر المدرسة نفسه كان يؤلف كل سنة مسرحية من فصل أو فصلين.. ثم يختار بنفسه التلاميذ الذين يوزع عليهم أدوار المسرحية. وبعد التدريبات - أو شيء كالتدريبات - تتم دعوة المدرسة كلها للاحتشاد في الفناء الخلفى حتى نؤدى المسرحية أمامهم وسط التصفيق الحاد. لكن الأهم من ذلك هو المسابقة السنوية فى القراءة والتي تكون جوائز التفوق فيها مجموعات من الكتب المتنوعة يجيء مندوب المنطقة التعليمية لتسليمها للفائزين مع التقاط الصور التذكارية التي احتفظ بها حتى الآن .

لا أقول : إننا كنا جميعا - أبناء الفصل الواحد - نحب القراءة بدرجة متساوية. فبعضنا كان يهوى الرياضة أو مشاهدة أفلام السينما أو الرحلات فى الإجازات.. إلخ. لكننى أقول فقط إن النظام التعليمى كان حريصا على أن يكون لكل منا هوايته الخاصة التى يحبها ويتفوق فيها إلى جانب الدراسة .

وفى حالتى الخاصة كان طبيعيا أن تشدنى فى البداية مجلات الأطفال ثم قصص أرسين لوبين البوليسية المسلية ، ومع الوقت بدأت أرتقى إلى الروايات ثم الكتب الأكثر جدية. وفى تسعين بالمائة من الحالات كنت أستفيد فى ذلك من المكتبة العامة فى المنصورة.. وهى مكتبة كانت تقع فى حينها على النيل مباشرة فى موقع شديد الجمال والجاذبية والهدوء. وبعد فترة بدأ أمين المكتبة نفسه يشجعنا على استعارة الكتب خارجيا بشرط المحافظة عليها واعادتها فى الموعد المحدد.. ولأننى اعتدت الذهاب إلى المكتبة مع زميل صديق فى نفس فصلى الدراسى، اسمه سمير جرجس، فقد أصبح أمين المكتبة يرمى قراءتنا كما لو كان أبا إضافيا لنا .

مع الأحداث الجارية بدأت أتعلق بقراءة الصحف - جرائد ومجلات. ولأنها لم تكن متوفرة فى المكتبة العامة، ولأن المصروف الشخصى لم يكن قادرا على الوفاء بالمهمة، فقد اتفقت مع اثنين من باعة الصحف على الاستعارة منهما.. ولمصلحة الطرفين. فالمجلة الأسبوعية التى تصدر فى القاهرة يوم السبت مثلا يشحنونها إلى الأقاليم مساء الجمعة. وتظل فى حوزة البائع ثلاثة أيام على الأقل. وبحسبة بسيطة كنت أستعير المجلة من البائع مساء الجمعة كى أعيدها إليه بعد يوم أو يومين على الأكثر فيسجلها هو ضمن مرتجعاته. هكذا أكون بامتداد الشهر قد قرأت كل الصحف المتاحة مقابل ملاليم.. ويكون البائع نفسه قد استفاد هو الآخر حتى ولو بالملاليم .

لا بد أن «القراء الصغار» من أمثالى كانوا ظاهرة عامة أرقّت دور الصحف فابتكرت لها الحلول. مثلاً.. أصبحت المجلة تصدر مقصورة من جانبين فقط بحيث لا بد لمن يقرأها أن يقوم هو باستخدام السكين أو المقص لفتح الطرف الأعلى غير المقصوص.

والفكرة هنا هى عدم قبول أية مرتجعات من البائعين يكون قد جرى قصها من أعلى. لكن اللعبة لها أيضا لعبتها المضادة. فالقراء الصغار أمثالى دربوا أنفسهم عمليا على قراءة المجلة بغير الاضرار إلى قص طرفها الأعلى.. وإن يكن بقدر من الصعوبة.

من القراءة بدأت أعيد اكتشاف كتاب كبار مثل طه حسين.. أو اكتشاف كتاب جادين بحجم أحمد بهاء الدين.. أو ساخرين بحجم محمد عفيفي.. أو رسامي كاريكاتير موهوبين بحجم صلاح جاهين وبهجت وحجازي.. بغير أن أدرك في حينها أن معظم هؤلاء ستربطني بهم فيما بعد علاقات شخصية وثيقة .

ولأن القراءة هي أصلا هواية أساسها حب الاطلاع والمعرفة.. فقد اعتدت منذ صغرى على التعامل مع كتبى، وحتى كرايسى المدرسية بعشق يجعلنى أشتري ورق تجليد خاص أزرق اللون للمحافظة عليها.. الورق كنا نشتره من المكتبات أفرخا كاملة.. ثم يقوم المرء بقصاصة ما يكفى لمقاس كل كراس وكتاب.. حتى لا تبلى الأغلفة سريعا من كثرة الاستخدام. ومن الملفت هنا أننى ما زلت أحتفظ حتى الآن بالكثير من كتبى الدراسية من الإعدادى إلى الثانوى إلى الجامعة، وفي كل كتاب توجد علامات بالقلم الرصاص والمسطرة فى الصفحات التى أحب أن أركز معانيها تلخيصا للمضمون .

بامتداد سنواتى الدراسية، وبكل مراحلها، لم يحدث فى أى وقت أن احتجت إلى مدرس خصوصى، لا أقول ذلك إحياء بأننى كنت خارقا.. لكن تأكيدا على أننى كنت «الشخص العادي» ففى أيامنا كانت الدروس الخصوصية عورة تسيء إلى من يتلقاها.. وتسيء أكثر إلى من يعطيها. فالمدرسون معنا فى المدرسة والكتب فى أيدينا.. والدراسة جادة.. وبعد ذلك فليتنافس المتنافسون . بين وقت وآخر كانت تحدث مطبات. فى السنة الثانية الإعدادية مثلا جاءت الشهادة من المدرسة مسجلة الخبر الجلل. خبر أن ترتيبى الدراسى بين تلاميذ الفصل قد تراجع بالمرّة .

والأهم من ذلك أن عندى فى الشهادة ثلاث «كعكات» و«الكعكة» هنا هى دائرة بالقلم الأحمر تسجلها المدرسة على الدرجة التى حصلت عليها فى إحدى المواد.. تنبيهها لولى الأمر بأن التلميذ المقصود هنا مهدد بالسقوط فى هذه المادة. الآن عندى بدل «الكعكة».. ثلاث .

حينما يلعب الأطفال معا فى تلك السن ويرغب أحدهم فى الخشونة.. فإنه يعاير زميله بما يراه نقصا فيه. وذات يوم رآنى أبى مكتنبا ومنزويا فسأل أمى عن السبب، وببساطة ردت هى عليه: لعب عيال.. أصحابه عايروه بالثلاث «كعكات» فى الشهادة فخاصمهم وانسحب من الشارع وأصبح على هذه الحال .

فى لحظتها لم يبد أبى اهتماما يذكر لكنه فى أول فرصة أغلق باب الحجرة جالسا يتحدث معى بلهجة يختلط فيها الحزم مع المودة.. قال لى: اسمع جيدا ما سأقوله لك الآن لأننى لن أكرره مرة أخرى.. حينما ترتكب خطأ يجب أن تتعلم شجاعة أن تحاسب نفسك عليه بدل أن تلوم الآخرين.. أنت كنت مجتهدا فى الدراسة لكنك فى المرة الأخيرة تخلفت. أنا لا يهمنى فى شهادتك كعكة واحدة أو ثلاثاً أو حتى عشراً. يهمنى أن تتعلم أنت الدرس، والدرس هنا هو أنك لم تستذكر كتبك

بما فيه الكفاية فتخلفت عن زملائك.. وهم ليسوا أفضل منك إلا بمجهودهم. فإذا كنت حزينا حقا لهذا السبب عليك أن تثبت ذلك عمليا بأن تعود إلى التفوق في المرة المقبلة. مخلصتك لزملائك ليست الحل.. انسحابك من الشارع ليس الحل. إنما الحل هو أن تعطيني الآن وعدا من رجل بأنك ستكون متفوقا في شهادتك المقبلة.. أنا لن أحدد لك كيف تذاكر أو متى تلعب.. أنا سأعتمد فقط على كلمتك لي الآن.. كلمة رجل لرجل.. مفهوم ؟

الشيء الملفت هنا تماما، بعد كل ماضى من سنوات العمر، هو استخدام أبى لتعبير «كلمة رجل لرجل».. لقد ولد هذا التعبير في داخلي إحساسا غريبا وممتعا بالمسؤولية. في حينها لم يكن الأهل يساعدوننا في المذاكرة.. لم تكن هناك أيضا بالرة بدعة الاستعانة بمدرسين خصوصيين.. لكن قيمة الاعتماد على النفس كانت هي الأكثر أهمية، وحينما يكتسب المرء تلك القيمة في سن مبكرة تلازمه بعد ذلك طول العمر.

وكما وعدنى أبى على انفراد فإنه لم يفاتحنى بعدها مطلقا في شئونى المدرسية، وإذا كان يتابعنى من بعيد فلا بد أن هذا لم يكن ظاهرا لى.. الشيء الوحيد الذى طغى على هو أن أفى له بوعدى الشخصى. وعد: رجل لرجل.

حينما جاءت الشهادة التالية كانت هي في الواقع شهادة إتمام المرحلة الإعدادية. لم أكن متفوقا فقط على مستوى المدرسة.. وإنما على مستوى كل المنطقة التعليمية بمحافظة الدقهلية وجميع مدارسها الإعدادية.. الآن أصبحت من العشرة الأوائل على مستوى كل مدارس المحافظة. بالطبع كان أهم شخص في حياتى يهمنى صدى النتيجة عنده.. هو أبى. وسواء أكان السبب هو حالته الصحية شبه المعتلة أخيرا.. أو لأنه كان قد نسى كلامه معى قبل سنة.. فإن درجة ترحيبه بالنتيجة ومكافأته لى عنها.. جاءت بأقل مما توقعته. هو في مرضه لم يكن يحب الشكوى مطلقا بما جعله يبدو بالنسبة لى وكأنه محصن ضد المرض. وهو في حزمه أيضا لم يكن قاسيا.. لكنه أيضا لم يكن يحب التدليل.

ومرة أخرى انفردي بي في أول فرصة ليقول لى: أنا لم أنس اتفاقي معك في العام الماضى. إنما الذى يهمنى أكثر أنك أنت الذى لم تنس وعدك لى. وعد رجل.. لرجل. الآن أنا مطمئن إلى أنك استوعبت الدرس. تقصيرك في العام الماضى لم يكن كارثة. وتفوقك في هذه السنة ليس معجزة. فقط لا تنس أن حلاوة النجاح هي بقدر اعتمادك على الذات وثقتك بنفسك. أنت قصرت فتراجعت.. وأنت اجتهدت فتفوقت.. و... و... و.. الآن اغرب عن وجهى فأنا أريد أن استريح.

برغم الجملة الأخيرة من كلمات أبى - والتي لم أدرك مغزاها إلا بعد أسابيع قليلة - فإننى اعتبرت كلمات أبى أكبر وسام يكافئنى به. فمع أننى عند أمى والشارع كله لأزال مجرد «واحد من

العيال».. فإن هذا الأب الصارم الحازم قليل التعبير عن مشاعره قاطع الكلمات في تحديد مواقفه.. أدخل في قاموسى الصغير مبكرا كلمات من نوع «الشعور بالمسئولية» و «الاعتماد على الذات» و «محاسبة النفس قبل محاسبة الآخرين» و.. التفوق ليس حلما.. وإنما هو إرادة وإصرار وتعب ومجهود ومسئولية.

من التصرفات الغريبة للقدر أن كلمات أبى فى ذلك اليوم أصبحت هى آخر ما سمعته منه. فمن يومها، وربما من لحظتها، أصبح طريح الفراش.. وممنوعا علينا - نحن الصغار - دخول غرفته. هذا يعنى أن الوضع خطير.. حيث هو كان يرفض أصلا فكرة الاستسلام للمرض.. وفى نفس الوقت هو فى لحظات ضعفه النادرة كان يختار الاحتفاظ بها لنفسه فقط بغير أن يحمل همها للآخرين. فقط هى أمى المسموح لها بالدخول إلى غرفته والخروج منها ونشرتها الصحية المتكررة فى أذاننا هي: أبوكم بخير.. هو دور بسيط وإن شاء الله يخرج منه.

فى تلك اللحظات كنت أنا الذى أكثر من الخروج.. وأذهب تحديدا إلى مدرسة طلخا الثانوية - المدرسة التى سألتحق بها. وبغير حتى أن أنتظر فتح أبواب المدرسة لتقديم الأوراق.. فقد كنت أذهب إليها يوميا مع مجموعتى الخاصة من الأصحاب.. حتى نستكشف تلك الدنيا الجديدة التى سندخلها خلال وقت وجيز.

لقد بدا لنا مبنى المدرسة فى حينه أضخم مما اعتدناه.. وملاعبها الفسيحة تفسح لنا عن نقلة كبيرة فى حياتنا ستجعلنا جزءا من عالم «الكبار» الذين هم سبقونا ليصبحوا «تلامذة ثانوي».. كما لو أن هذا بحد ذاته اعتراف رسمى بأننا انتقلنا من دنيا «العيال» إلى دنيا «الرجال». اعتراف بخاتم النسر.

المدرسة موجودة وقريبة منا ومررنا أمامها مرات من قبل. لكنها الآن - والآن فقط - أصبحت بؤرة حياتنا واهتمامنا. وكما لو أن الرء دخل فى حالة غرامية - فتلك بداية سن المراهقة الفائرة - أصبحت المدرسة الثانوية الموعودة هى «المحبوبة» التى تحتفظ فى داخلها بسحرها الخاص وجاذبيتها الطاغية.

وتذكرت ذات يوم أن لى قريبا سبقنى إلى تلك المدرسة قبل سنتين. قريب اسمه نبيه جمعة.. مهذب ولطيف وشديد الانجذاب إلى دنيا الرياضة.. خصوصا لعبة الكرة الطائرة.. أو «الفولى بول» التى أصبح تفوقه فيها محل إعجاب فى مدينتنا الصغيرة.

سألت نبيه جمعة مندهشا: كل هذه الملاعب بالمدرسة؟ وكل هذه الكتب؟

ضحك نبيه وهو يتعامل مع حب استطلاعى المبكر قائلا: انتظر ولا تتعجل.. فالوجود بالمدرسة ليس كل شيء. صحيح فيها ملاعب تكفى لممارسة الكرة الطائرة وكرة السلة والملاكمة والمصارعة

وملعب صغير لكرة القدم.. إنما المدرسة تعتمد أيضا في كرة القدم على ملعب كبير في المنصورة تتم اتاحته للمدارس بالتناوب.. وعلى أى حال فأنت قد تجد نفسك أكثر في كرة السلة.. وبالمدرسة مدربون ممتازون في تلك اللعبة أيضا .

سألقه متلهفا: وماذا عن الكتب؟ رأيت قبل أيام شحنات ضخمة من الكتب مع أن الوقت لا يزال فسيحا قبل بداية العام الدراسي.. وحتى باب تقديم الأوراق للقبول بالمدرسة لم يفتحوه بعد . قال نبيه: لا.. تلك كتب لابد أنها واردة لمكتبة المدرسة.. ففي العادة تصل الكتب الدراسية قبيل السنة الدراسية بأسبوع أو اثنين ..

قلت له: يعنى المدرسة فيها مكتبة أيضا؟ وفيها نظام للاستعارة الخارجية؟ احتار نبيه في الإجابة للحظات قبل أن يرد: طبعا في المدرسة مكتبة كبيرة وموقعها في الطابق الأرضي. أما عن الاستعارة من عدمها فلا أعرف بالضبط لأن مخي كله في الكرة الطائرة .

عدت إلى البيت في حالة معنوية مرتفعة لم أجد لها انعكاسا في وجه أمي. هذا يعنى أن النشرة الصحية ثابتة على ما كانت عليه. لا تقدم في الحالة الصحية لأبي .

بعد قليل جاء «البوسطجي» إلى بيتنا مناديا بصوت مرتفع: ياست أم محمود.. ياست أم محمود ..

الرجل نعرفه.. فهو من أهل البلد. والرجل يعرف الأصول. وفي البلد الأصول ليس فيها محمود. فيها فقط اسم الابن الأكبر. وأنا لست الأكبر. ماذا جرى؟ هل الناس نسوا الأصول ؟ خرجت أمي إلى باب البيت.. وأنا في أثرها من باب الاستطلاع. فتلك أول مرة اسمع فيها اسمي على لسان بوسطجي. هذا الرجل الطيب.. «البوسطجي». وبعكس أى مرة سابقة رفض أن يسلم أمي الخطاب إلا بعد الحصول على «الحلاوة» . الكلمة هنا شعبية وتبشر بخبر طيب يريد رجل البريد الحصول على مكافأته عنه مقدما. لكن.. كيف يعرف هو مسبقا أن في هذا الخطاب المسجل خبرا طيبا، بينما الخطاب ذاته مغلق؟!!

هرش البوسطجي رأسه بيده وهو يتطلع نحوى قائلها: لأن الخطاب وارد باسم ابنك هذا، ولأنه من وزير التربية والتعليم كما هو مسجل عليه هنا. ولأن عليه أيضا خاتم بكلمة «مبروك».. تبقى الحكاية باينة من عنوانها .

ثم تطلع نحوى ووضع يده على كتفي سائلا في عشم ومودة: انت يا ابني في سنة كام ؟ قلت له باعتزاز: رايح أولى ثانوى.. قال بسرعة بديهة: هایل.. يعنى أصبحت من حملة الشهادات الإعدادية.. ودى شهادة مهمة.. ربنا يوفقك يا ابني.. انما قبل أى شيء لازم الحلاوة.. بعدها فقط توقع حضرتك هنا بالاستلام فأعطيك الخطاب..

فى الواقع هو أعطانى الخطاب فعلا، ومعه قلمه الخاص لكى أوقع فى دفتره بالاستلام.. وتركته أنا مع أمى لكى تعطيه ما يرضيه. إنما ما شغلنى فى تلك اللحظة أمران. أولا - هو يتحدث عن وزير التربية والتعليم الذى لم أتخيل أنه يعرف مدرستى ولا حتى مدينتى. ثانيا - قبل رغبتى الملحة فى فتح الخطاب لمعرفة محتواه.. أريد أن أطير داخل البيت إلى أبى فى غرفته لكى يفتح هو الخطاب ويقرأ ما بداخله قبلى .

نادتنى الأم بحزم مذكرة لى بالتعليمات. ممنوع الدخول. هى وحدها التى دخلت غرفته وبعد دقائق خرجت من الغرفة لكى تقول لى بما توهمته مؤقتا من دمة عابرة فى عينيها: خذ يابنى.. أبوك يقول لك: إن هذا الشيك هو مكافأتك.. وأنت وحدك تصرفه.. وأنت وحدك تتصرف فى فلوسه كما تشاء .

أمسكت بالخطاب المفتوح بغير أن استوعب أصلا معنى كلمة «شيك» .. إنما الكلمات والأرقام واضحة: خمسة وعشرون جنيها. هذا فى حينه مبلغ ضخم يساوى مرتب خريج جامعى عن توظيفه وعمله لمدة شهرين. أما الرسالة المرفقة ففيها كلمات مطبوعة رقيقة تنتهى بتوقيع من وزير التربية والتعليم فعلا.. كمال الدين حسين.

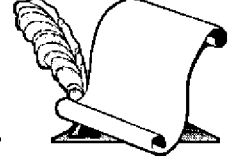
مع شعورى الكبير بالمفاجأة والفرحة الطاغية.. إلا أن أكثر ما أهتمنى فى تلك اللحظة هو أن أسأل أمى: ماذا قال أبى.. ولماذا لا أسمع تلك الكلمات منه هو ؟

لحظتها ترقرت فى عيني أمى دمة حقيقية وهى تتمتم لنفسها: الله يكون فى عونى.. وحينما تصلى ادع له.. أما الآن فدع أباك فى حاله .

لم نترك أبى فى حاله. لكنه هو الذى تركنا فى حالنا. فبعد يومين.. فارق الحياة .



ونعطلت .. لغة الكلام !



رتبت لنفسى أمسية هادئة أساسها الوحدة والأوراق والأقلام، استعداداً لمقال ارتبطت مسبقاً بموعد نشره، وأصبحت تلك الأمسية هى فرصتى الأخيرة لكتابته. الفكرة جاهزة، الموضوع محدد الملامح، ولم يبق فقط سوى أن أجلس إلى مكتبى المنزلى لكى أبدأ فى الكتابة. هكذا أمسكت بالقلم وبدأت فعلاً. سطر وسطرين.. وفى مقدمة السطر الثالث وقع ما لم أتحسب له، لقد دق جرس التليفون.. وبمجرد أن رفعت السماعة فى حالة شديدة من الضيق والانزعاج جاءنى صوته هاشأً باشاً..

إنه الموسيقار محمد عبد الوهاب. قلت له: حمد الله على السلامة. متى عدت من لبنان؟ رد عبد الوهاب: أمس. ولك معى سلامات من أصدقاء عديدين فى مقدمتهم سعيد فريحة. أبعدت الأوراق من أمامى لكى أتابع من خلال محمد عبد الوهاب أخبار الصحفى اللبنانى الكبير سعيد فريحة صاحب دار "الصيد" وأصدقاء آخرين.. كذلك أخبار لبنان خلال الشهرين اللذين قضاهما عبد الوهاب هناك. لكن عبد الوهاب بعدها فاجأنى بسؤال: ما هى أخبار الناس مع الغناء؟

قلت له: أى غناء؟!

قال: يعنى مثلاً.. أغنية "فاتت جنبنا" عامله إيه مع الناس؟

وبشكل تلقائى أجبت: لاشى.. الأغنية ذاتها لاشى.. أنت سافرت بعد أن اطمأنتت كالعادة على سرعة انتشارها لكن بعيداً عن نفوذك الإذاعى لا أظن أن الأغنية ستعيش طويلاً.

قال عبد الوهاب: يا «ساتر» ليه؟!

قلت له: لأنها مفككة الكلمات والنغمات. ولأنها ساذجة المعانى. ولأنها لن تكون من أفضل ألحانك. ولأنها باختصار.. هى أغنية سيئة.

تمتم عبد الوهاب تعبيره الأثير عند الانزعاج والقلق: يا حفيظ.. يا حفيظ.. اسمع.. عندك ضيوف؟ مرتبط بالخروج؟ أنا معطلك؟ حينما أجبت أسئلته بالنفى قال عبد الوهاب: إذن سأطلبك مرة أخرى.

جريت العودة إلى الأوراق أمامي من جديد أمسكت بالقلم وعدت إلى ما كنت فيه.. عدت إلى السطر الثالث. وقبل أن أشرع في الكتابة دق جرس التليفون من جديد.. إنه محمد عبدالوهاب مرة أخرى . الآن هو الذى يستكمل مكالمته الأولى بالتساؤل: قلت لى إن الأغنية سيئة؟ أجبتة : نعم.. ولن تحسب من أفضل ألحانك.. وليس هكذا يتغنى الناس الآن. استمع محمد عبد الوهاب بكل اهتمام وانزعاج وبغير مقاطعة.. بعدها سألتى من جديد: أنت مرتبط بالخروج ؟ إذن سأطلبك مرة أخرى . حاولت العودة إلى الأوراق من جديد. العودة إلى السطر الثالث. أبداً.. لقد أصبح ذهنى مشتتاً بين ما أريد أن أكتبه وبين الانزعاج الشديد الذى تسببت فيه لمحمد عبد الوهاب. صحيح هناك بيننا صداقة عميقة وثقة كاملة لكن هو فى الموسيقى والغناء اسمه محمد عبد الوهاب بكل ما يعنيه هذا من رصيد !

لقد غنى عبد الحليم حافظ فى حفله السنوى الأخير أغنيتين جديدتين، إحداهما من ألحان عبد الوهاب وهى " فانت جنبنا " والأخرى من ألحان بليغ حمدي وهى " أى دمة حزن لا " ولأن الثلاثة أصدقاء حميمون لى.. فإن أساس الصداقة هو الصدق والموضوعية. مع ذلك .. فبعد مكالمه عبد الوهاب الثانية بدأت أنا أشعر بالانزعاج الشديد . الانزعاج من نفسى. لماذا أقول لعبد الوهاب عن أغنية من ألحانه أنها سيئة ؟ ولماذا يأخذ عبد الوهاب نفسه كلماتى بمثل هذا القلق ؟ فى النهاية . أنا لست متخصصاً فى الموسيقى والغناء وعلاقتى بهما مجرد مستمع عادى كملايين آخرين .. ألا يجوز أن يتصور عبد الوهاب فى داخله أننى بذلك أتحيز لبليغ حمدي وهو ملحن الأغنية الجديدة الأخرى فى نفس حفل عبد الحليم حافظ قبل شهرين ؟!

قبل أن أتأكد بالضبط من رد فعل عبد الوهاب الحقيقى جاءتنى مكالمته الثالثة .. الآن هو يشرح باستفاضة متسائلاً: ما رأيك فى أن صديقك المخضرم سعيد فريحة هنأنى فى بيروت على أغنية " فانت جنبنا " بالذات .. وقال لى أنه يحب الاستماع إليها تكراراً كلما ذهب إلى بيته الريفى فى شتورا ؟! ..

قلت لعبد الوهاب أنت تعرف سعيد فريحة أفضل وأقدم منى . تعرف طبيعته المجاملة الرقيقة وانحيازه الكامل لكل ألحانك .. قديمها وجديدها .. وحينما تستمع إلى رأى سعيد فريحة فإنك تستمع إلى رأى محمد عبد الوهاب فى محمد عبد الوهاب !

لأول مرة ضحك عبد الوهاب بشدة وهو يقول لى : حلو التعبير ده .. والله سأقوله له نقلاً عنك فى أول مكالمه معه . والآن .. عندك مانع أطلبك من جديد ؟

بالطبع لم يعد عندى مانع .. ولم تعد عندى أيضاً الرغبة فى العودة إلى القلم والورق من جديد. لقد جاءت مكالمه عبد الوهاب الأولى فى السابعة مساء . والآن تقترب الساعة من الثامنة ، والبال لم

يعد رائقاً ولا متسعاً لأكثر من "فنجان" شاي . قبل الشاي جاءت المكالة الجديدة من عبد الوهاب..
في هذه المرة هو مستمر في الحديث كما لو لم يحدث انقطاع بين المكالات.

يقول عبد الوهاب أنت فاجأتني برأيك في أن الأغنية سيئة .

لحظتها قلت له مستدركاً : يا سيدى لو كان رأيي يزعجك فهو في النهاية مجرد رأى .. وأنا
لم أتطوع به .. فلتكن الأغنية غير سيئة لكنها على الأقل لم تطف أى جديد .. لا معنى ولا مغنى..
رد عبد الوهاب : ما رأيك في أن هذه الأغنية بالذات أنا صاحب فكرتها ؟ لقد جئت بحسين السيد
واقترحت عليه أن يكتب لى أغنية تكون هي الوجه الآخر لأغنية «ساكن قصادى» .. فاكّر «ساكن
قصادى» ؟ فاكّر النجاح الهائل الذى حققته وقتها ؟ تمام .. إذن أنا الذى اقترحت الفكرة على حسين
السيد والآن يبدو أنني الذى ورطته .

قلت له : لا أحد ورط أحداً . وقد لا يكون إحساسى بالأغنية هو القاعدة .. لابد أن هناك كثيرين
غيرى سيقولون لك في الأغنية رأياً آخر .. رأياً أفضل .

قال محمد عبد الوهاب : لكننى أردت رأيك أنت ..

قلت له بعد أن أدركت الورطة التى أصبحت فيها : رأيي قلته لك من البداية . فى أقل القليل ..
لم تطف الأغنية أى شيء تأليفاً ولحناً ..

قال عبد الوهاب : غريبة .. مع أن نزار قباني قضى معى سهرة كاملة فى بيروت وهو يمتدح
فكرة الأغنية وكلماتها ..

قلت له ضاحكاً : وهل يأخذ أحد برأى نزار قباني فى كلمات حسين السيد ؟! أنت تعرف كما
رويت لى أنت نفسك من قبل أنه لا يجمع بينهما سوى أن كلاً منهما كان فى داخله حلم بأن يكون
ممثلاً .. وكلاهما فشل . أما فى الشعر الغنائى فالأكثر صواباً هو أن تعرف رأى حسين السيد فى
نزار قباني وليس العكس ! على الأقل حسين السيد طرق فى الأغنية العربية معانى وصوراً جديدة
وجميلة لم يسبقه إليها أحد . بالتالى فمديح نزار قباني فى أغنية "فاتت جنبنا" ربما لا يكون أكثر
من عربون يقدمه لك حتى تغنى من كلماته هو فى المرة المقبلة .

تساءل عبد الوهاب متمعناً : عربون ؟! والله هو قدم لى فعلاً نحو عشرين من قصائده لعلى
أختار إحداها لتلحينها . بالطبع لم أعده بشيء لأن القليل مما يكتبه نزار يصلح للغناء .. أقصد
الغناء العاطفى وليس الحسى ..

ثم سكّ عبد الوهاب لحظات قبل أن يضيف مكرراً : اسمع . خليك بالبيت . سأطلبك مرة
أخرى .

طلبني مرة أخرى . في هذه المرة هو يضيف : ما رأيك في تقى الدين الصلح غير أنه رئيس وزراء لبنان ؟ الرجل يفهم في الشعر وفي الغناء ورأيه إن " فانت جنبنا " أغنية بديعة ..

قلت له مداعباً : وهل يصدق أحد آراء السياسيين .. خصوصاً في لبنان !؟

ضحك عبد الوهاب تحت حساب أنه سيطلبني تليفونياً مرة أخرى ! وهكذا فعل مرة ، ومرة ، ومرة ، ومرة . في النهاية .. تجاوز الوقت منتصف الليل . لقد أزحت الأوراق من أمامي ، فلم يعد في الذهن متسع للكلام . . صوتاً وكتابة . لقد تعطلت لغة الكلام .. وتبخرت الليلة عن آخرها . لكن .. أبداً . التليفون مرة أخرى . وهذا محمد عبد الوهاب من جديد مع حكايات إضافية عن بيروت والجبل ولبنان والأصدقاء وكلها تصب في نهاية المطاف عند أغنية «فانت جنبنا».

قلت لمحمد عبد الوهاب : على فكرة أنا سحبت رأيي . الآن اقتنعت فعلاً بأن الأغنية هائلة وبديعة وإضافة كبرى للغناء العربي .

سألني عبد الوهاب بتلقائية : بتتكلم جد ؟

قلت له : كل جد . فقط أريد منك خدمة بسيطة . لقد بدأت مكالماتك معي في السابعة . والآن مضت خمس ساعات أقنعتني بعدها فعلاً بأن أغير رأيي في الأغنية . فإذا كنت تريد التأكد والاطمئنان حقاً .. لا يبقى سوى أن تتصل تليفونياً بكل واحد من الثلاثين مليون مصري وتتحدث مع كل منهم خمس ساعات بمثل ما فعلت معي .. ويعدها سيصبح كل شيء .. «تمام» .

جاءني صوته ضاحكاً مجلجلاً : ها ها ها ها .. لا يا حبيبي . الآن أنا الذي اقتنعت . تصبح على خير .

بعد تلك الليلة التليفونية مع عبد الوهاب بمدة اتصلت بي مذيعة مخضمة بالإذاعة المصرية . مذيعة صديقة كانت قد شهدت من قبل جانباً من علاقتي بمحمد عبد الوهاب . لقد بشرتني بمفاجأة كبرى ستأتيني بها . المفاجأة هي شريط بصوت عبد الوهاب .. وبه شيء يخصني .. هي نفسها فوجئت به . كان عبد الوهاب يسجل سهرة إذاعية سألته المذيعة خلالها عن السر في تطوره الدائم وانتقال الإعجاب به من جيل إلى جيل . في التسجيل أجابها عبد الوهاب بأن سره الأكبر هو شعوره الدائم بعدم الرضاء عن نفسه . بالطبع .. هو كفنان لا يخرج إلى الناس بلحن إلا إذا كان راضياً عنه . لكن .. " يحدث بين وقت وآخر أن أضع لحناً يهين لي في لحظتها أننى " جبت الديب من ذيله " ثم يفاجئني صديق أثق في محبته وأمانته وصدقه بأن يدلّق على رأسى جردل مياه يجعلني أسترده من جديد حالة عدم الرضاء هذه .. فأحاول في المرة التالية أن أكون أحسن وأفضل . " سألته المذيعة بحب استطلاع : وهل في حياتك يا أستاذ عبد الوهاب من تتقبل منه مثل هذا الرأى السلبي ؟ رد عبد الوهاب : " نعم : هناك في حياتي صديقان أو ثلاثة أدخرهم لأى موقف

أحتاج فيه إلى لحظة صدق". تزايد حب الاستطلاع لدى المذيعة المخضرمة فألحت على محمد عبد الوهاب لكي يقوم بتسمية هؤلاء الأصدقاء النادرين . لكن عبد الوهاب اعتذر .. وأقصى ما فعله هو أنه وعدها بأن يستجيب إلى رجائها .. إنما بعد انتهاء التسجيل الإذاعي .

والذي حدث فعلاً هو أن التسجيل انتهى ، ومدت المذيعة يدها إلى جهاز التسجيل قائلة لعبد الوهاب : الآن أصبحنا خارج التسجيل يا أستاذ عبد الوهاب والآن كلتي فضول واشتياق لمعرفة من هم أصدقاؤك هؤلاء الذين قلت في التسجيل إنك تدخرهم للحظة صدق. لحظتها أفصح لها عبد الوهاب فعلاً .. ذاكراً اسمي تحديداً . أما المفارقة التي لم يتوقعها عبد الوهاب ، ولا حتى المذيعة نفسها كما أقسمت لي ، فهي أن الشريط لم يتوقف .. والجهاز استمر في التسجيل .. ولم تدرك هي تلك الحقيقة إلا بعد عودتها إلى منزلها وتشغيلها للشريط من جديد. الآن تفاجئني المذيعة الصديقة بالشريط ذاته.. وبالدقة تفاجئني بالجزء الشخصي الذي ائتمنها عليه محمد عبد الوهاب. والآن هي تهديني هذا الجزء من الشريط بشرط واحد هو أن أفسر لها السبب في عدم تطرقي من قبل إلى هذا الجانب الشخصي في علاقتي بعبد الوهاب بالرغم من البرامج الحوارية العديدة التي كنت فيها الضيف المتحدث. قلت لها : أولاً دعينا نتفق على أن ما قاله لك عبد الوهاب بشكل شخصي يظل بالفعل شخصياً ما دامت تلك هي رغبته. ثانياً.. من حيث إنني لم أتطرق من قبل إلى هذا الجانب في علاقتي بعبد الوهاب فالسبب بكل أمانة هو أن هذا ليس من حقي. هذا من حق صاحب الشأن نفسه.. الذي هو محمد عبد الوهاب. ولو لم أسمع الآن بأذني صوت عبد الوهاب نفسه على هذا الشريط لما سمحت لنفسي أن أرويه لأحد.. حتى في حدود الصداقة .

قالت المذيعة : لكن هذه فضيلة نادرة !

قلت لها : مرة أخرى.. دعينا نحدد.. أولاً.. فضيلة من؟ الفضيلة الأساسية هنا هي لمحمد عبد الوهاب نفسه. فلو لم يعطيني هو حرية مصارحته.. لما فعلت. ولو لم يكن هو قد أصبح متضخم الخبرة بالحياة والبشر.. لما فعل. دعيني هنا أنبهك إلى حقيقة أخرى حاکمة . فالغن ذاتي.. بينما العلم موضوعي . والفنان بطبيعته عنده كلمة "أنا" تجيء قبل كلمة "نحن" .. والفارق بين فنان ذكي وآخر غبي هو أن الأخير يعيش على مدار الساعة داخل كلمة "أنا" .. بينما الأول يحرص باستمرار على الخروج من ذاتيته ليتعلم فضيلة النظر إلى نفسه بعيون الآخرين.. بمن فيهم من ينتقدونه. ولو لم يكن محمد عبد الوهاب بذلك الذكاء لما أصبح عبد الوهاب الذي نعرفه. عبد الوهاب المستمر معنا بفنّه والمتجدد باستمرار. هذا فنان وضع في عقله، وفي حياته، " فلتر " يصفى له الوهم من الحقيقة. فنان أدرك أن النجاح شيء.. والاستمرار في النجاح شيء آخر. فنان لم يجد أي غضاظة في أن يتعلم.. حتى ممن هم في سن أولاده .. فنان لم يسمح للغرور بأن يسيطر عليه.. ولا للشهرة والأضواء أن تعمى بصره. محمد عبد الوهاب هو في الحياة كانت له نقائص كأي شخص آخر..

وأعرفها عنه قبل غيري. لكنه في الفن كان يتعلم دائماً بأن العبرة ليست فقط بما تحقق في الماضي.. ولكن بـ"ماهي أحلام المستقبل؟".

في الواقع إن مشوار الحياة أتاح لي مبكراً الاقتراب بشدة من أسماء سبقتني بجيل واحد أو جيلين. كلهم أساتذة.. بغير أن يقصد أي منهم أن يصبح له تلاميذ. كلهم مثمرون مرتين: مرة بعطائهم الذاتي، ومرة بالقيم التي أتاحوها للآخرين. اختلفت طباعهم في أشياء وأشياء.. واتفقت في شيء واحد: أن الموهبة بحد ذاتها عطاء من الله.. لكن حماية الموهبة هي من صنع الإنسان، والإنسان يحمي موهبته بالعلم والتعلم، بالواقعية والأحلام، بالتطلع إلى منافسة الأفضل.. وليس الأسوأ، بالتواضع وليس بالتكبر.. والعطاء قبل الأخذ.. والإصرار دائماً على أنه بعد الحسن لا يزال هناك الأحسن.. فهذا هو سر التطور. لقد لمست هذا السر متكرراً عن قرب شديد.. ليس فقط في علاقتي بمحمد عبد الوهاب وأم كلثوم ولكن بطفه حسين أيضاً وكل العصاميين الكبار الذين أوهمونا بأنهم يتعلمون منا.. بينما الحقيقة المجردة هي أننا الذين كنا نتعلم منهم.

وفى تلك الليلة التليفونية التي تناولتها هنا مع محمد عبد الوهاب - من بين ألف ليلة أخرى وأخرى - ضاع مني المقال الذي كنت أستعد لكتابته.. فتأجل إلى حين ميسرة وعلى حد تعبير عبد الوهاب الذي سجل بصوته - فيما بعد - بعيداً عنى ووصلنى بغير قصد من أحد - فإننى "دلقت على رأسه جردل مياه".. الخ.

هذا سخاء من محمد عبد الوهاب لا يدهشنى. أما الذى يدهشنى ولم يقصده هو قطعاً - فهو أنى تعلمت لنفسى فى تلك الليلة درساً خطيراً.. لا بد أن أعود إليه لاحقاً .



رئيس فوق .. ورئيس تحت !



بمجرد أن جلست إلى مقعدى داخل الطائرة المتجهة إلى أبو ظبى ، وربطت حزام المقعد ، منيت نفسى ببضع ساعات قليلة من النوم العميق الذى أصبحت فى أشد الحاجة إليه بعد يومين من الإرهاق المتواصل . لقد مرت المضيغة بيننا حاملة حزمة من الصحف الأجنبية والعربية .. اخترت من بينها ثلاث مجلات أجنبية وجريدة واحدة ، ثم وضعت الحزمة فى حقيبة يدى لكى أقرأها فيما بعد .. وحين ميسرة .. أما الآن فى هذه اللحظة فكل ما أريده هو النوم .. النوم .. النوم .

راح النوم . فى الواقع أن الراكب فى المقعد المجاور بدأ يتبادل الحديث مع الراكبين أمامنا .. فواضح أنهم أصدقاء . ومع تبادلهم التعليقات .. طار النوم . لقد اختلطت مشاعرى بين الضيق والارتياح . فمقابل حرمانى من النوم كان موضوع الجدل بين الثلاثة هو نفسه الذى دعيت إلى أبو ظبى للتحدث بشأنه فى حوار على الهواء من المقرر إذاعته فى المساء التالى من قناة أبو ظبى التليفزيونية الفضائية .. مع مشاركة بالتليفون والفاكس من المشاهدين فى دول شتى . الموضوع هو : الانتخابات الأمريكية . الانتخابات التى ضبطت فيها الولايات المتحدة فى حالة تلبس . أما نوع حالة التلبس هذه فيتوقف على المشاهد نفسه . هناك من يرى أنها قمة الديمقراطية . ومن يرى أنها مثال فى التخبط . هناك من يتابعها كما الألعاب البهلوانية فى السيرك .. ومن يتابعها كما لو كانت مباراة فى كرة القدم التى تحسمها الضربات الترجيحية . هناك من يتحمس لألبرت جور مرشح الحزب الديموقراطى إلى الرئاسة .. ومن يتحمس لجورج ووكر بوش مرشح الحزب الجمهورى . هناك من يهتف لأمريكا ومن يسخر من أمريكا .

وفجأة استدار جارى نحوى مشيراً بيده إلى المجلة الأمريكية بين يديه وسألنى : بدمتك .. أليس هذا نوعاً من الظلم ؟ هذه الانتخابات يجب أن يفوز فيها جورج بوش .. انظر إلى الخريطة .. أشار جارى فى المقعد إلى خريطة توضيحية بعرض صفحتين فى المجلة الأمريكية بين يديه . والخريطة توضح الولايات التى فاز فيها كل من المرشحين ، باللون الأزرق تعبيراً عن جورج بوش والأحمر تعبيراً عن ألبرت جور . الأزرق يكسب لأنه كما يبدو فى الخريطة فاز بأصوات العدد الأكبر من الولايات . أليس كذلك ؟

قلت : يبدو كذلك . لكن يا أخى الكريم حينما نتكلم عن أى شيء يتعلق بأمريكا يجب أن نفرق أولاً بين ما هو "كذلك" وبين "ما يبدو كذلك" . إنما دعنا أولاً نتعارف قبل أن تفرض أمريكا نفسها علينا فى هذه الرحلة.

تعارفنا . هو مهندس كمبيوتر ، وكذلك زميلاه فى المقعدين أمامنا . والثلاثة من مواطنى سلطنة عمان ويعملون فى شركة بترول . هم غير منغمسين فى السياسة ، ولكنهم انجذبوا تلقائياً إلى انتخابات الرئاسة الأمريكية بمناسبة المفاجآت المتتالية الجارية منذ السابع من نوفمبر (٢٠٠٠) يوم الانتخابات . أو ليست هذه هى الديمقراطية ؟

قلت له مداعباً : دعنى أسألك أولاً ثلاثة أسئلة . ما هى أكبر دولة ديموقراطية فى عالمنا المعاصر ؟ وما هى أقدم دولة ديموقراطية ؟ وما هى الدولة الأكثر إنسانية فى نظامها الديموقراطى ؟ رد تلقائياً وبغير تردد : هذه ليست ثلاثة أسئلة . كلها سؤال واحد وإجابته عندى واحدة . إنها أمريكا .. فهى الأكبر والأقدم والأكثر إنسانية .. بدليل كل هذا الذى نتابعه .

قلت له : أنت معذور فى إجابتك الحاسمة القاطعة هذه ، لكن دعنى أطرح عليك الحقائق المجردة ، أولاً . فأكبر دولة ديموقراطية فى عالمنا المعاصر هى الهند (ألف مليون من السكان) وأقدم دولة ديموقراطية (حسب التعريف الغربى المعاصر للديموقراطية) هى بريطانيا . أما النموذج الديموقراطى الأكثر إنسانية وإحساناً بالمسؤولية الاجتماعية فتجده إما فى فرنسا أو فى ألمانيا .. أنت وذوقك.

تساءل هو فيما يشبه الاحتجاج : وأمريكا تجيء بعد كل هؤلاء ؟

قلت له : أمريكا تجيء قبلهم جميعاً .. ليس لأنها النموذج الأفضل أو الأكبر أو الأقدم أو الأحدث قلباً . هى قبلهم لأنها الأعلى صوتاً والأغنى ثروة والأقوى عضلات . وفى الغابة الدولية يحصل الأقوى على ميزة مجانية هى اهتمام الآخرين به . إنه اهتمام مجانى قرين للقوة الأمريكية الراهنة .. بدليل ما نحن فيه الآن .. ها نحن الأربعة أصبحنا نناقش الانتخابات الأمريكية ربما بحماس أكبر من معظم المواطنين الأمريكيين أنفسهم . فما لا تقوله هذه الخريطة المنشورة أمامك فى المجلة الأمريكية مثلاً هو أن المجتمع الأمريكى هو الأقل مشاركة فى الانتخابات من بين كل الدول الديموقراطية . حتى فى إيران مثلاً تقترب نسبة المشاركة من الثمانين بالمائة . أما فى أمريكا فالشاركون فى التصويت أقل من خمسين بالمائة . هؤلاء نحو مائة مليون ناخب . ذهبت أصوات نصفهم إلى مرشح الحزب الديموقراطى .. والنصف الآخر إلى مرشح الحزب الجمهورى . وفى نهاية المطاف سيصبح واحد منهما هو الرئيس .. وسيصبح رئيساً للجميع برغم أنه حصل على ربع أصوات من لهم حق الانتخاب .

قال جارى مهندس الكمبيوتر : لكن النتيجة لم تحسم بعد . فإذا كانت العبرة بفارق الأصوات يكون البرت جور هو الرئيس . وإذا كانت العبرة هى بمجموع الولايات يصبح الفائز هو جورج بوش . هل هذه مسألة صعبة ؟

أجبت قائلاً : فى حالات أخرى هى ليست صعبة . لكنها فى الحالة الأمريكية تحديداً تصبح صعبة لأن ظروف أمريكا لا تنطبق فى العالم كله إلا على أمريكا . وللأسف لدى بعضنا تصور شائع بأن أمريكا دولة مثل كل الدول . لا . أمريكا دولة غير الدول . أمريكا حالة خاصة فريدة تماماً بظروفها وتاريخها ونموذجها الديموقراطى . وهذا التفرد أحياناً يكون ميزة .. وأحياناً يكون عبئاً .

انضم إلينا الراكبان فى المقعدين أمامنا وتقاطعت الأسئلة مع الأجوبة وفى النهاية طار النوم من عيني .. أحد الثلاثة قال مثلاً : أنه هو نفسه قضى سبع سنوات من عمره فى الدراسة بأمريكا ، وكان يعتبر نفسه حتى هذه اللحظة عارفاً بكل ما هو أمريكى . لكنه مع هذه الانتخابات الرئاسية فى أمريكا اكتشف أنه يجهل الكثير عن نظامها الانتخابى .

قلت له مطمئناً : لا بأس فى ذلك .. فالذين يفهمون النظام الانتخابى الأمريكى من بين الأمريكيين أنفسهم لا يزيدون على ثمانية بالمائة حسب آخر استطلاع منشور قبل أسبوع واحد . مقابل هؤلاء هناك ٩٢٪ من الأمريكيين كانوا يعتقدون حتى الآن أنهم بأصواتهم الحرة المباشرة هم الذين يختارون الرئيس أياً كان . الآن يكتشفون أن فى الأمر قصة أخرى .

تدخل أحد الثلاثة متسائلاً : تقصد نظام " المجمع الانتخابى " أو " الكلية الانتخابية " ؟

قلت له : بالضبط . فالانطباع الرائج هو أن الرئيس الأمريكى يفوز بمنصبه بالانتخاب الحر المباشر . وهنا يوجد انتخاب حر ومباشر . ولكن الكلمة الأخيرة والفاصلة يقررها "المجمع الانتخابى" وهو عبارة عن ٥٣٨ مندوباً يمثلون ولايات أمريكا الخمسين زائد العاصمة . واختيارهم يجرى حسب نظام آخر مختلف أساسه تمثيل الولايات بشكل نسبى حسب مجموعة عوامل مختلطة هدفها الأساسى هو أن تصبح لكل ولاية - صغرت أو كبرت - مصلحة أساسية فى انتخاب الرئيس ونائبه .

وقاطعنى أحد "الجيران" الثلاثة بالطائرة متسائلاً : ولماذا كل هذا التعقيد ؟ إن هذا يعنى أن "المجمع الانتخابى" بهذا الأسلوب يقوم بدور الرقيب أو الوصى على إرادة الناخبين ..

قلت له : بالضبط .. وهذا كان هدفه من الأصل . هدفه ممارسة الوصاية على الإرادة الانتخابية للشعب الأمريكى .

تراجع الحماس فى نبرة جارى فى المقعد معترضاً بقوله : وهل هذه تصبح ديموقراطية ؟

قلت له : أنت تتكلم عن الديمقراطية بالطلق . ليس في السياسة شيء مطلق . في السياسة كل الأمور نسبية . وما نتحدث عنه هنا هو نموذج محدد من الديمقراطية .. يختلف عن نماذج أخرى .. لكنه في رأى الأمريكيين أنفسهم وتلك بلدهم على أى حال هو الأكثر مناسبة لهم ولتاريخهم .

لولا أن المضيغة قاطعتنا بالشاي والقهوة لما عاد الاثنان اللذان أمانا إلى مقعديهما. لكنها خمس أو عشر دقائق حتى عادت المناقشة تفرض نفسها من جديد.. ولأنى فقدت أملى في نوم عميق.. فقد أصبحت المشاركة واجبة.

قلت للجيران الثلاثة : لكى نفهم أمريكا علينا أولاً أن نعود إلى الأساسيات . فهذه الدولة العظمى التى نراها حالياً كل عمرها ككيان سياسى هو مائتا سنة وكسور . هى أصلاً لم تبدأ كدولة. بدأت كمجموعة من الدول . والاسم الرسمى لأمريكا هذه هو " الولايات المتحدة الأمريكية " لكن الترجمة الحرفية للاسم الإنجليزى كان يجب أن تكون " دول أمريكا المتحدة " لأنها بدأت بثلاث عشرة دولة مستقلة اتفقت معاً على إقامة دولة اتحادية تجمع بينهم. فى هذه الدولة الاتحادية الجديدة تتحول الدول المستقلة سابقاً إلى ولايات، وتتنازل عن جزء من سلطاتها إلى الدولة الاتحادية، بينما تحتفظ لنفسها بجزء آخر من السلطات. هناك مثلاً سياسة خارجية واحدة ودستور واحد وبرلمان واحد وقوانين اتحادية.. الخ. لكن فى نفس الوقت لكل ولاية برلمانها الخاص وقوانينها المحلية الخاصة وقضاؤها الخاص وحتى شرطتها الخاصة.. الخ.

فى حينها ابتكر مؤسسو الدولة الاتحادية الجديدة نظام " المجمع الانتخابى " بهدفين.. أولاً : لكى تضمّن الدول الصغيرة التى تنضم إلى الاتحاد فتصبح ولايات صغيرة إلى أن صوتهما لن يتم تجاهله فى اختيار رئيس الدولة ونائبه. فلو جرى الاحتكام فقط إلى التصويت المباشر لاهتم المرشحون فقط بالولايات الأكثر سكاناً وتجاهلوا الولايات الأخرى . ثانياً : كانت هناك فكرة سائدة لدى النخبة السياسية ترى أن المواطنين العاديين ليسوا أكثر من رعا أو غوغاء أو أميين.. " كلمة تجيبهم وكلمة توديعهم " .. أكثر من ذلك . فى النموذج الديموقراطى الأمريكى كانت البدايات متواضعة تماماً ومن أكثر النقاط انخفاضاً . مثلاً.. هذه الدولة العظمى التى نعرفها باسم دارج هو " أمريكا " بدأت أصلاً بحرمان كل الفقراء من حق التصويت والمشاركة فى الانتخابات . فلكى يحصل المواطن العادى على هذا الحق يجب أن يثبت أولاً أنه من أصحاب الأملاك العقارية أو المنقولة. بدأت أيضاً بحرمان النساء - كل النساء - من حق التصويت. بدأت كذلك بحرمان السود - كل السود - من حق التصويت . بل إن المواطن الأمريكى الأبيض لو كان فقيراً يجرى حرمانه من حق التصويت ، ولا ننسى أنه بالرغم من حرب أهلية لتحرير العبيد (أى الأمريكيين السود) جرت

فى القرن التاسع عشر فإن المساواة القانونية بين البىض والسود داخل المجتمع الأمريكى استمرت ناقصة تماماً حتى أقل من ٣٥ سنة مضت . وحتى رئاسة داويت أيزنهاور مثلاً للولايات المتحدة ، يعنى حتى سنة ١٩٦٠ ، كانت الدولة الاتحادية تضطر إلى إنزال جيشها الاتحادى إلى الشوارع حتى ترغم المدارس الأمريكية على قبول التلاميذ السود بين صفوفها لأن القوانين المحلية لبعض الولايات كانت مستمرة فى تمييز المواطن الأمريكى الأبيض ضد المواطن الأمريكى الأسود.

مع أن وجبة الغداء داخل الطائرة أتاحت بعض الاستراحة .. إلا أنه بمجرد أن جمعت المضيعة أطباق الطعام الفارغة عاد موضوع الساعة لكى يفرض نفسه من جديد . فى هذه المرة قال أحدهم : أنا عندى حل سريع لهذا الإشكال الانتخابى الأمريكى .. " يختاروا الرئيس بالقرعة .. أو بلعبة " ملك أو كتابة " .. هاهاها .. قال الآخر : " أو يطلبوا من الأمم المتحدة إيفاد مراقبين للإشراف على الانتخابات الأمريكية بمثل ما تفرض أمريكا وصايتها هى على دول كثيرة فى هذا العالم.

قلت من جانبى : أو أن يفعلوا ما قرره البرازيل مثلاً قبل شهر ، ففى انتخابات المجالس البلدية بطول البرازيل وعرضها جعلوا التصويت يتم باستخدام نظام إلكترونى بالكامل حتى على مستوى المدن الصغيرة . وبالتالي أصبحت نتيجة الانتخابات محسومة ومعلنة فى أقل من ٢٤ ساعة .

اعترض جارى فى المقعد قائلاً : أليس غريباً أن أمريكا التى تبشر العالم كله بأهمية الاعتماد على التكنولوجيا تصبح هى بذاتها الأكثر افتقاراً إلى التكنولوجيا فى نظامها الانتخابى .. وعند الاختلاف يحتكمون من جديد إلى نظام فرز الأصوات يدوياً ؟

قلت له : هذا حدث لمجرد أن الفرز الميكانيكى للأصوات أعطى نتيجة متقاربة تماماً .. فلم يعد يفصل بين مرشح وآخر فى ولاية فلوريدا ضمن ستة ملايين صوت أكثر من ٥٣٧ صوتاً . وهو ما جعل ألبرت جور يبدأ سلسلة من " التماحيك " القانونية لإعادة فرز الأصوات يدوياً فى دوائر انتخابية محدودة ومحددة يعرف الجميع مسبقاً أن الحزب الديموقراطى يسيطر فيها .

تدخل أحد الثلاثة معترضاً : لكنه حصل على ما طلبه بحكم من المحكمة العليا بولاية فلوريدا . أليس القضاة هنا محايدين وهم صوت القانون ؟

قلت له : مرة أخرى دعنى أذكرك بما ينقصنا معرفته عن أمريكا . فكفرتنا التقليدية عن القضاء هو أنه محايد وعن القضاة هى أنهم أناس مهنيون محترفون ومتفرغون وغير مسموح لهم بأى انتماءات سياسية أو التعبير علناً عن ولاء سياسى لطرف دون آخر . فى النظام القضائى الأمريكى تختلف المسألة جذرياً . فتعيين القضاة أنفسهم تتدخل فيه السياسة . والقضاة مسموح لهم بالانتماءات السياسية . من هنا لجأ ألبرت جور مثلاً مرشح الحزب الديموقراطى إلى المحكمة

العليا في ولاية فلوريدا معرفته المسبقة بأن كل قضاتها السبعة لديهم إنتماء إلى حزبه السياسي. بالمثل .. لجأ جورج بوش إلى المحكمة العليا (الاتحادية) في واشنطن لمعرفة أيضاً بأن أغلبية قضاتها التسعة لديهم مواقف وانتماءات سابقة أقرب إلى حزبه السياسي الحزب الجمهوري . هكذا رأينا مثلاً حكماً تصدره المحكمة العليا المحلية في فلوريدا لصالح ما يطلبه ألبرت جور من إعادة فرز الأصوات يدوياً . وفي اليوم التالي مباشرة قامت المحكمة العليا الاتحادية في العاصمة واشنطن بنقض الحكم مقرر وقف الفرز (أو في الواقع .. إعادة الفرز) يدوياً . أى أنها حكمت جوهرياً لصالح جورج بوش . وكان جيمس بيكر وزير الخارجية الأسبق والناطق باسم جماعة جورج بوش يقول علناً معبراً عن حالته من الحيرة : نحن أصبحنا يوم فوق .. ويوم تحت . في الواقع تابعنا جميعاً أنه أحياناً كان المرشحان المتنافسان يتبادلان المواقع في يوم واحد . مرة فوق .. ومرة تحت . وكله قانوني بالمفهوم الأمريكي.

بعد الطائرة والفندق وليلة من النوم العميق حملتني السيارة إلى استوديوهات قناة أبو ظبي التلفزيونية القضائية حتى يبدأ البرنامج في تمام الساعة التاسعة مساء .

الكلام يجيب بعضه . فقبلها بأسبوع واحد كنت ضيفاً في تلفزيون القاهرة مدعواً من المذبة الالامعة درية شرف الدين للتعليق على فيلم تعرضه بإحدى حلقات برنامجها المعروف " نادى السينما . " البرنامج مسجل . ليس على الهواء . وجملة المدة التي يستغرقها تعليقى سواء قبل الفيلم المعروض في الحلقة أو بعده ، لا يتجاوز عشرين دقيقة . مع ذلك احتاج إعداد الاستوديو لتلك العشرين دقيقة إلى أكثر من ساعتين . ولولا تقدير خاص لمكانة درية شرف الدين فى نفسى كمشاهد لكنت استغنيت عن التسجيل .. وعن التلفزيون المصرى بأكمله.

بتلك الحالة المسبقة ذهبت إلى استوديوهات قناة أبو ظبي التلفزيونية القضائية .. وعمرها كله لا يتجاوز الأشهر المدة . رتبت نفسى لعدم المفاجأة من شخص يمسك فى يديه بمقشة لكى يكنس أرض الاستوديو . وشخص ما فى الاستوديو وظيفته ضبط الإضاءة فيقوم بضبطها وإعادة ضبطها عشرين مرة قبل أن يقرر أنه مستعد لبدء التسجيل . ورتبت نفسى كذلك للمبات إضاءة فى الاستوديو تحوله إلى محرقة تجعل المرء يتصبب حرارة حتى من قبل أن يفتح الله علينا بكلمة . ورتبت نفسى فى نهاية المطاف لمعيشة قدر من التوتر .. وحرق الدم .. تفرضه برامج الهواء بطبيعتها على المذيع فى الاستوديو وتنتقل منه بالعدوى إلى ضيفه داخل الاستوديو .

لم ندخل الاستوديو إلا قبل الطلوع على الهواء بخمس دقائق .. فقط .

السبب بسيط كما فهمت . هناك برنامج آخر على الهواء كان قبلنا وينتهى فى التاسعة إلا خمس دقائق . دخلنا لكى نجد كل شىء مرتباً كما الساعة والدقيقة والثانية . شىء واحد كان هو

المفاجأة غير المفاجئة . إنه الأسئلة التلقائية على الهواء مباشرة من مشاهدين غير مرتبين يساهمون بملاحظاتهم أو إستفساراتهم .. وفي معظم المرات بعكس ما تتوقعه السيدة ليلى الشخلى صاحبة البرنامج .

فى نهاية ساعة الحوار التليفزيونى على الهواء سألتنى المذيعة الالامعة صاحبة البرنامج : هل لدينا دروس نخرج بها من انتخابات الرئاسة الأمريكية هذه ؟ قلت لها : الدروس كثيرة لكن من منظورنا نحن فى بلادنا هذه سيكون الدرس الأكثر أهمية هو أن أمريكا التى اعتادت طويلاً على إعطاء الآخرين مواظ ومحاضرات فى الديموقراطية .. سوف تتعلم من الآن فصاعداً أن تتواضع كثيراً وتنظر إلى نفسها فى المرآة . فقبل كل شيء هى لا تحتكر الديموقراطية . وبعد كل شيء لا يمثل نموذجها الديموقراطى النموذج الأقوى ولا الأفضل فى هذا العالم .. ولا هو أيضاً النموذج الخالى من النواقص والثغرات . والمواطنون الأمريكيون هم وحدهم الذين يحق لهم اختيار ما يناسبهم ويناسب ظروفهم . كذلك الآخرون . إنه درس مهم لنا أن نعرفه . ومهم لأمريكا أن تتعلمه .. فهذا سيكون أفضل لها .. وللعالم .

هكذا عدت إلى الطائرة من جديد مغادراً أبو ظبى بعد ٧٢ ساعة .. كان الموضوع الطاغى خلالها هو انتخابات الرئاسة فى أمريكا . ومرة أخرى : هذه ميزة مجانية يحصل عليها أقوىاء الغابة .. مكافأة أخرى لقوتهم وعلو صوتهم .



شاي .. وموسيقى !



بمجرد أن اقتربت من مدخل منزلي خرقت أذني أصوات أبواب سيارة قريبة تنفتح ثم تنغلق بالتتابع ، وأكثر من صوت يناديني ويستوقفني بعصبية ظاهرة. وحينما تلفت حولي فوجئت بثلاثة أشخاص يسرعون نحوي تسبقهم كلمات متداخلة لا أعرف إن كانوا يوجهونها إلي أو لأنفسهم. خلال لحظات بدأت تتضح ملامح المفاجأة، فقد أصبحت داخل مثلث من الرفض والاحتجاج والعصبية. هؤلاء الثلاثة انتظروا معا داخل سيارة أحدهم وعيونهم تطلق شراراً نحو مدخل منزلي ترقباً لحضوري. أما وقد حضرت.. فقد حاصرني شرار العيون، وحدة الكلمات بما لا يسمح لي بالفهم أو حتى بالمقاطعة. إنني بالنسبة لهم جميعاً مدان لو تكلمت.. ومدان لو لم أتكلم. فقط هم مرتاحون لحقيقة مؤكدة: إنني تحت القبض والتساؤل والاستجواب.

حاولت أن أفهم أولاً ما هو الموضوع. في البداية لم أفهم أى شيء. فهمت فقط أن في القصة عبد الوهاب. نعم. الموسيقار محمد عبد الوهاب. وأن هناك غلاً و غضباً متفجراً داخل الأشخاص الثلاثة ضد محمد عبد الوهاب وضدي لمجرد صداقتي بعبد الوهاب. وأن الحل الوحيد الباتر هو وقف إذاعة كل أغاني عبد الوهاب من الغد وحتى إشعار آخر.

عند هذا الحد تحول الموقف من مأساة إلى ملهة. منع إذاعة أغاني عبد الوهاب بصوته أو بموسيقاه؟ هكذا.. خبط لزيق؟ " اللهم اجعله خير. " فقط يا إخواننا هل ستعلو أصواتكم في الشارع على هذا النحو؟ تفضلوا أولاً الشاي والقهوة وثانياً لأفهم منكم الحكاية من أولها لأنني لا أحب دعوتي إلى دخول الفيلم من منتصفه .

صعدنا معاً إلى شقتي. بينما ارتمتي الثلاثة على أقرب المقاعد في طريقهم، دخلت أنا إلى المطبخ أعد الشاي والقهوة.. فالثلاثة تربطني بهم صداقات وثيقة تسمح لي بأن أقرر من البداية ما الذي يروق لأمزجتهم. والثلاثة في تلك الليلة هم إبراهيم صبرى ومحمد أنور، وكلاهما مذيع بارز في محطة إذاعة الشرق الأوسط القاهرية. ثم محمد علوان كبير مخرجى الدراما بنفس المحطة. الشاي والقهوة. ثم أول سؤال من عندي: ما هي الحكاية بالضبط. ومن أولها لو سمحتم ؟

الحكاية هي أننا نقرب من العيد الكبير. عيد الأضحى. وكما في شهر رمضان تتنافس محطات الإذاعة بالقاهرة لكي تقدم لمستمعيها أحلى تشكيلة ممكنة من الأغاني والحوارات والبرامج. محطة إذاعة الشرق الأوسط تحديداً طرأت لها فكرة تقديم سهرة حوارية مع الموسيقار محمد عبد الوهاب لمدة ساعتين في مساء اليوم الأول من عيد الأضحى. سهرة استثنائية. فمن حيث الشكل هناك مديعان للتحاور مع عبد الوهاب. وبدلاً من الإخراج الإذاعي التقليدي سيتطوع بأخراجها محمد علوان، وهو مخرج الدراما المعروف عند المستمعين بخطباته الإذاعية السنوية المعتادة في شهر رمضان. ولأن مثل تلك السهرة الاستثنائية تحتاج إلى تعديل مسبق في خريطة البرامج فقد عرض الثلاثة فكرتهم على السيدة/ مديحه نجيب مديرة المحطة. ومديحه نجيب سيدة هادئة وديعة بالغة التهذيب وعريضة الخبرة. وإزاء أى فكرة جديدة كان هدوء مديحه نجيب يتحول فوراً إلى حماس مشتعل وإصرار على توفير شروط النجاح.. والبداية هي أولاً ضمان موافقة عبد الوهاب نفسه.

في وجود " الفرسان الثلاثة " بمكتبها رفعت مديحه نجيب سماعة التليفون طالبة عبد الوهاب لمعرفة رأيه . من جانبه استمع عبد الوهاب إلى شرح لفكرة السهرة من مديحه نجيب وأنه بمجرد موافقته على التسجيل وتحديد موعد للحوار معه في منزله، ستقوم هي فوراً بتعديل خريطة البرامج والتأكد من التنويه عن السهرة تكراراً من قبلها بيومين حرصاً على جذب أكبر عدد ممكن من المستمعين. هه ؟ موافق يا أستاذ عبد الوهاب ؟

وعبد الوهاب يرد : طبعاً طبعاً يا مديحه هانم. هذه المعاملة الاستثنائية من محطتكم شرف كبير لى لا أستطيع رفضه. أنا أيضاً سألقى ارتباطاتى وأكون فى انتظار الأساتذة الثلاثة بمنزلى غداً فى السابعة مساءً إن شاء الله....

قاطعته مديحه نجيب بتفاؤل : إنما إيه يا أستاذ عبد الوهاب ؟ لو لك أى طلبات خاصة أنا موافقة مقدماً..

وعبد الوهاب يرد : العفو.. ليست لى طلبات. فقط لى رجاء واحد لو سمحت. أن يجيء معهم صديق لى أتونس به. إنه محمود عوض.. تعرفينه طبعاً ..

ردت المديرة بحماس : طبعاً يا أستاذ عبد الوهاب. هو أيضاً صديق لنا جميعاً وسوف أنبه على الثلاثة - وهم أمامى الآن - بالمجيء إليك غداً فى السابعة مساءً وبصحبة محمود عوض..

إلى هنا والكلام طبيعى. إذاعة ستسجل سهرة حوارية وموسيقار نجم يتحمس واسمى ورد فى رد عبد الوهاب بشكل عابر. خير.. أما غير الطبيعى بالمرّة فهو ما جرى ذلك.

أولاً.. فى صباح اليوم التالى المحدد للتسجيل اتصل بى الثلاثة من الإذاعة لإبلاغى برغبة محمد عبد الوهاب . بالصدفة لم أكن موجوداً طوال اليوم.. لا بالمكتب ولا بالبيت. ولأن الحصول

على موعد للحوار الإذاعي مع محمد عبد الوهاب هو مكسب استثنائي لا يجب التفريط فيه.. فإن "الفرسان الثلاثة" ذهبوا معاً إلى بيت عبد الوهاب في حي الزمالك ومعهم جهاز التسجيل، ذهبوا أيضاً ومعهم عذرهم.

سعاد مديرة البيت استقبلتهم بمودة مألوفة وقالت لهم: الأستاذ معكم الآن الشيخ - المقيّم - مصطفى إسماعيل لكنه على وشك الانصراف.. والأستاذ في انتظاركم على أي حال. تفضلوا. بعد قليل انصرف الشيخ مصطفى إسماعيل، وكان عبد الوهاب شديد الإعجاب بصوته، وجاءت سعاد إلى الضيوف الثلاثة بفنجان الشاي. وبعد المجاملات المألوفة شرح الثلاثة لمحمد عبد الوهاب مضمون التنويهات التي بدأت إذاعتها فعلاً عن السهرة منذ عصر اليوم. تنويهات مستمرة اليوم وغداً وبعد غد أول أيام العيد - حيث ستذاع السهرة لساعتين اعتباراً من الحادية عشرة مساءً. بالطبع عبد الوهاب يرحب ويتمتم: هايل.. هايل..

بعدها تدخل محمد علوان سائلاً عن أقرب فيشة كهرباء موجودة بالصالون، وطالباً من زميله تحضير الجهاز استعداداً لبدء التسجيل.. هنا قاطعه عبد الوهاب منزعجاً: تسجيل إيه يا أستاذ علوان؟

ارتبك علوان، وهو المخرج الكبير، فرد بتلقائية: تسجيل السهرة التي نتحدث عنها واتفقنا معك عليها منذ الأمس.

قال عبد الوهاب بكل هدوء: نعم اتفقنا بالأمس على تسجيل وعلى سهرة، وعلى موعد لإذاعة السهرة. كل هذا صحيح. لكن لم يكن هذا كل الاتفاق. مثلاً قلت لمديحه هاتم، وهي انसानه فاضله وصادقه، وسمعت منها في التليفون أنكم معها في المكتب موجودون وسامعون الحديث.. أننى أرجوكم في حضور محمود عوض كصديق أتونس به..

رد عليه الثلاثة مؤكدين كلمات بعضهم البعض: تمام يا أستاذ عبد الوهاب.. مضبوط. لكننا لم نستطع العثور عليه.. عشرين ثلاثين مرة طلبناه في البيت وفي كل مكان ولم نجده. وحتى تتأكد من ذلك بنفسك.. نرجوك أن تطلبه الآن في بيته.. فإذا كان موجوداً ادعه للحضور..

قال عبد الوهاب معترضاً: هو ليس موظفاً عندي لكي أدعوه بهذا الشكل. أنا قلت لكم بالأمس ما أرجوه.. مفهوم.. حاولتم ولم تنجح المحاولة. أنا أيضاً استجيت وحاولت.. إذن: لا تسجيل.. صعب الثلاثة من هول الرد فحاولوا أن يشرحوا لمحمد عبد الوهاب فداحة النتيجة، بعد أن جرى تعديل خريطة البرامج فعلاً والتنويه إذاعياً عن أهمية السهرة فعلاً. الآن ستتحول المسألة من سهرة كبرى إلى فضيحة كبرى. كيف يفسرون الأمر للسيدة مديحه نجيب؟ ولرئيس الإذاعة؟ وللمستمعين؟ هذا شأنكم أنتم وليس شأنى.. عن إنكم.. وبغير انتظار لمزيد من الجدل تركهم محمد عبد الوهاب في صالون بيته وغادر متوجهاً إلى أبعد مكان ممكن: حجرة نومه.

بتلك الحالة من الصدمة والغضب المكتوم غادر الثلاثة بيت محمد عبد الوهاب متوجهين إلى بيتي. وفي الشارع جلسوا في السيارة قبالة البيت انتظاراً لحضوري.. ربما لأن راحتهم الليلة لن تتحقق إلا إذا أخرجوا من داخلهم بركان الغضب في وجه أحد. أي أحد. في الشارع أصبحت - أنا - هذا الأحد وفي بيتي استمعت إلى الحكاية بكل اهتمام ومفاجأة ، الثلاثة في شدة الانفعال.. والثلاثة يكررون رواية الموقف حرفياً ويكل تفاصيله كما لو أننى كنت رابعهم. أو بالدقة : لكى أصبح رابعهم . مع ذلك.. فبعد معرفة الحكاية كلها.. من طقق لسلامو عليكم.. فوجئت بنفسى أنفجر من الضحك.

لقد بدت ضحكاتى فى لحظتها نشازاً مروعاً مع الحالة النفسية والاندماج الكامل لدى الفرسان الثلاثة .. وهم بالأصل أصدقاء. وبكل همة وإباء استنكر الثلاثة رد فعلى الضاحك بشدة، فقالوا بصوت واحد : جئنا نحكى لك عن كارثة عملها فينا صديقك عبد الوهاب .. فتضحك ؟

تعجبت أولاً من حكاية " صديقك " عبد الوهاب فقلت لهم : أولاً عبد الوهاب صديق للمايين.. ربما أكون واحداً منهم. ثانياً.. أنا أضحك لأن محمد عبد الوهاب الذى تحكون لى عنه الآن ليس مطلقاً عبد الوهاب الذى أعرفه.. فى الواقع أنا مندهش تماماً مثلكم. بل ربما أكثر منكم..

لا أدري من من الثلاثة انطلقت منه بعد ذلك فكرة مفاجئة وافق عليها الآخرون فوراً . لا بد من رد الصفعه إلى عبد الوهاب. لا أقل من منع إذاعة أغانيه من المحطة فوراً. غداً ندخل إلى السيدة مديحه نجيب بطلبنا المشترك الموحد هذا لإقناعها ، حتى يتعلم عبد الوهاب أنه إذا كان يستغنى عن الإذاعة ويهينها بهذا الشكل.. فإن الإذاعة تستطيع هى أيضاً الاستغناء عنه.

لم أرد ولم أعلق بالرغم من أن هذا الانفعال الغاضب، الطارئ ، أعاد إلى ذهنى فوراً ما حكته لى أم كلثوم تفصيلاً ، ولغير النشر ، حينما تعرضت هى لما يشبه الإهانة الملتوية قبل سنوات من هذه المحطة الإذاعية، وقبل سنوات من تولى السيدة / مديحه نجيب مسئولية إدارتها ، فطلبت أم كلثوم وقف إذاعة أغانيها فى تلك المحطة حقاً لها وانتصاراً لكرامتها. وقتها انقلبت الدنيا وجرى تصحيح الموقف بكل هدوء وموضوعية.

لم أرد ولم أعلق لأن الموقف هنا مختلف جذرياً من ناحية.. ولأن هؤلاء " الفرسان الثلاثة " يتكلمون فقط بغضب اللحظة.. ومع صديق لجأوا إليه من باب المودة ، كما لو كان " صندوق الشكاوى " المتاح أمامهم. ثم إننى اعتبرت نفسى أصلاً خارج الموضوع بالمره . فلا أنا وعدت أحداً ثم خالفت وعدى.. ولا أنا موظف عند محمد عبد الوهاب أو عند الإذاعة.. ولا أنا.. ثالثاً أفهم أصلاً لماذا تكون لى أية علاقات بسهرة حوارية تريدها إذاعة ويتحمس لها عبد الوهاب.. وفجأة يفقد حماسه.

كان الوقت متأخراً حينما انصرف الثلاثة من عندى. مع ذلك فقد أصبحت أنا أكثر اندهاشاً

من الحكاية كلها. فبعد الوهاب الذى أعرفه غير ذلك بالمرة . إنه شديد الرقة والمجاملة مع أهل الإذاعة تحديداً . وحينما تكون له أغنية جديدة مثلاً ، بصوته أو بمجرد ألحانه ، فإنه يمسك بسماعة التليفون ناقلاً حماسه للأغنية إلى الجميع .. من أول رئيس الإذاعة .. إلى مذيعى البرامج و" ما يطلبه المستمعون " .. بل حتى إلى عمال السويتش فى تليفونات الإذاعة .. والآن ، بكل تلك البساطة ، يغامر محمد عبد الوهاب بإغضاب محطة إذاعية كاملة على هذا النحو ؟ ولأول وهلة فكرت أن أطلبه تليفونياً لأفهم منه أصل الحكاية. لكننى فكرت أيضاً فى أن الأمر لا بد أنه مجرد دعابة. فلو كانت المسألة بما تبدو عليه من أهمية لكان عبد الوهاب قد بادر بالاتصال بى . إذن .. فلأنس الموضوع والصباح رباح.

وكما عرفت فيما بعد .. فإن المشهد فى اليوم التالى انتقل إلى مكتب السيدة مديحه نجيب . وسواء لأنها تحتفظ داخلها بضمير القاضى ، أو حرصاً على نجاح المحطة ، أو اعتزازاً بمكانة محمد عبد الوهاب ، فقد كانت هى التى نهرت الثلاثة جميعاً ، قائلة بغضب : نمنع إيه ؟ نمنع أغانى عبد الوهاب ؟ أنتم فى حالة جنان ؟ ثم .. لازم أعرف أولاً .. ومنه هو .. ما الذى حدث بالضبط وأمسكت المديرية بسماعة التليفون.

صباح الخير يا أستاذ عبد الوهاب .. أمامى الآن محمد علوان وإبراهيم صبرى ومحمد أنور .. زعلانين جداً مما حصل لهم عندك أمس ..

قاطعها عبد الوهاب بهدوء: ماذا يا مديحه هانم ؟ هل أنا .. لا سمح الله .. أسأت معاملتهم ؟ ألم يقولوا لك أننى استقبلتهم فى الموعد المحدد فعلاً ؟ ألم يقولوا لك أننى دعوتهم لشرب الشاى .. وشربوه فعلاً .. حتى واحد منهم لم يعجبه الشاى فى فنجان وعائزته فى كوب زجاجى .. فعملنا له شاى جديداً وفى كوب زجاجى ..؟

- أيوه يا أستاذ عبد الوهاب .. لكن التسجيل لم يتم .. والمسئولية هنا كبيرة عليهم .. والمشكلة أكبر ..

- لا لا يا هانم .. ربنا لا يجيب مشاكل .. أنا أيضاً زعلان مثلهم .. وكان بودى التسجيل يتم فعلاً ..

- يعنى أنت يا أستاذ عبد الوهاب لم تغير رأيك ؟ يعنى ممكن التسجيل يتم .. وفى الوقت الضيق الباقى على العيد ؟

- طبعاً طبعاً يا مديحه هانم .. وبكل سرور ..

- الحمد لله .. أنا كان رأيى دائماً أن إذاعتنا لها معزة عندك .. طيب يسجلوا معك أمتى يا

أستاذ عبد الوهاب ؟

- مفيش مشكلة أبداً.. يسجلوا النهاردة الساعة السابعة مساء لو أرادوا..
 - طبعا يا أستاذ عبد الوهاب كلنا نريد التسجيل .. خلاص.. النهاردة الساعة السابعة مساء
 بالدقيقة سيكون الثلاثة عندك في البيت.
 قاطعها عبد الوهاب بهدوء مرة أخرى قائلاً : في هذه المرة يا مديحه هانم أرجو أن تكوني
 أنت الشاهدة .. أنا عايز محمود عوض يحضر التسجيل. مفيش محمود عوض يبقى مفيش تسجيل..
 ولا حتى شأى.
 ضحكت مديحه نجيب، وهي تكرر كلمات عبد الوهاب على مسمع من الثلاثة معها في المكتب
 قائلة من عندها: الرجل معه حق . بدل ما يطلب منى " فلوس " طلب محمود عوض. الباقي عليكم..
 أنتم وشطارتكم..
 حتى تلك اللحظة كان حب الاستطلاع يملكني إزاء ما أسمعه.. حتى بعد أن اتصل بي من جديد
 " الفرسان الثلاثة " زائد السيدة مديحه نجيب. لقد أصبحت عندي صورة متكاملة فعلاً عما جرى.
 لكن .. كلما عرفت أكثر، استغربت أكثر. في نحو الواحدة ظهراً دق جرس التليفون بجوارى.
 ورفعت السماعة لكي أجد صوته هو.. محمد عبد الوهاب. وقبل أى حديث فوجئ هو بنوبة ضحك
 تنتابني. أما هو فقد استمر هادئاً.. وبعدها بدأ يشرح جانباً من الحكاية.



فين الشاى .. يا سعاد ؟



حينما اتصل بى الموسيقار محمد عبد الوهاب تليفونياً فوجئ بأننى أسأله مندهشاً: بدمتك إنت قلت للسيدة مديحة نجيب فعلاً أن أحد " الفرسان الثلاثة " طلب فى بيتك الشاى فى كوب بدلاً من الفنجان ؟

رد عبد الوهاب بكل جدية : آه.. قلت لها هذا فعلاً.. ماذا فى ذلك ؟
قلت له غريبة .. لا أحد يتخيل أن محمد عبد الوهاب يكون عنده ضيوف فى بيته ، وهو واخذ باله بدقة من كل واحد شرب إيه .. وفى فنجان أو كوب مياه ..
فجأة تنبه عبد الوهاب إلى المفارقة ورد بخفة دمه المعتادة : أصلك لا تعرف ، هو طلب شاى جاء له الشاى . ثم اعترض على أنه فى فنجال ، فقلت لسعاد (مديرة المنزل) تاخذ الشاى من أمامه ، وتعمل له شاى جديد تجيء به فى كوب زجاجى . هو اعترض مرة أخرى ، وقال لها تترك له فنجال الشاى لأنه سيشربه .. إنما بالنسبة للشاى الجديد فهو يريد فى كوب زجاجى . يعنى عايز يشرب الشاى مرتين وهذا ما حدث فعلاً .. وبعدها رايح يشتكى لمديرة المحطة !؟
ثم اقترح محمد عبد الوهاب أن نجلس قبيل الساعة السابعة .. موعد وصول فرسان الإذاعة الثلاثة لتسجيل السهرة الإذاعية المقرر إذاعتها فى اليوم التالى أول أيام العيد . لكنى قلت له أنهم أصروا على المرور على بمنزلى ضماناً لذهابى معهم .. قدماً بقدم .

بعد المكالمة سرحت فى هذا الجانب من شخصية عبد الوهاب . فمن جانبه كان مؤمناً بأنه لا يكفى أن يكون موسيقاراً جيداً فقط ، وإنما متحدث لبق أيضاً . هو ليس هاوياً للقراءة لتاعب فى عينيه . لكنه يعتمد إثارة القضايا العامة السائدة مع المقربين من أصدقائه . أحياناً ينكش الواحد منهم عمداً ، حتى يجبره للحديث فى موضوعات الساعة . ولأن محمد عبد الوهاب مخلوق تليفونى فقد كان التليفون أداؤه المستمرة للاتصال والثروة فى موضوعات شتى من اهتمامات الناس .
فى بعض الأحيان كنت أقول له مداعباً : على فكرة .. أنا استمعت لنفسى أمس فى الراديو .. بصوتك !

وفهم عبد الوهاب المداعبة فوراً .. لأنه في العادة يكون قبلها بيومين أو ثلاثة قد تحدثت معي في مكالة تليفونية مطولة مستفسراً عن هذا الموضوع أو ذاك من حديث الناس وقضايا الساعة. وبعد أن يأخذ الحوار مجراه وأنساه تماماً .. أفاقاً بعدها بيوم أو يومين ببرنامج إذاعي استمع إليه بالصدفة فإذا بمحمد عبد الوهاب يدلي فيه، على لسانه، بنفس الآراء التي سمعها مني سابقاً . بالتجربة عرفت إلى أي حد يهتم عبد الوهاب بأحاديثه الإذاعية، وفي سبيل ذلك لا بأس من أن يستفزني بأسئلة لكي أطرح أجوبة ، أفاقاً بعدها أنها أصبحت أجوبته هو إذاعياً . في البداية كان هذا يلفت نظري فأسأله .. لماذا لم ينبهني إلى أنه ينوي اقتباس آراء لي في مكالة عابرة .. فربما لو نبهني لكنت اهتممت بصياغتها أفضل ..

لكن عبد الوهاب كان عنده غالباً رد جاهز لكل شيء. فبكل بساطة يقول : ألم نتفق على أنني في مقام والدك وأنت ابني ؟ طيب .. إذا كنت ترتدي رباط عنق وأعجب به والدك .. هل ستعترض إذا أخذه منك ليستخدمه هو ؟ وأرد عليه : لا بأس في ذلك. بشرط أن يكون عندي أولاً رباط عنق.. ويكون على ذوق والدي .

وفى إحدى المرات كنت مدعواً في بيت عبد الوهاب فرجاني عدم الانصراف لأحضر تسجيل سهرة إذاعية مع نجوى أبو النجا ، وهى فى حينها مذيعة بارزة فى محطة " صوت العرب " وهو نفسه معجب بصوتها. قبل أن يبدأ التسجيل أراد عبد الوهاب أن ينكشها مسبقاً لمعرفة موضوع السهرة المقرر لها أن تستمر ساعة . وحينما نظر إلى عبد الوهاب محتاراً قلت له : إننى أقترح مدخلاً مختلفاً لهذه السهرة يكون أقرب ما يكون إلى عنوان " زوجى محمد عبد الوهاب " واستغرب الفكرة تماماً ، فهو اعتاد أن يكون النجم والعنوان . قلت له إن العنوان لا ضرورة له ، لكننى أقترح فقط نوعاً من السيناريو التمثيلي الخفيف يسمح للمذيعة بأن تقول أنها وصلت مبكرة عن موعدها فاستقبلتها نهلة (زوجته) .. وأنه فى انتظارك يجرى الحوار بينهما عن جانبك المنزلى فى الحياة اليومية . أربع أو خمس دقائق بالكثير - كما يبدو للمستمع - تصل أنت إلى الصالون فيدور الحوار بعدها معك فيما تريده المذيعة .

فكر محمد عبد الوهاب قليلاً قبل أن تروق له الفكرة . لقد نهض متوجهاً إلى الداخل ، لكي تنضم نهلة القدسى إلى السيناريو الفورى بالصدفة . ومضت الفكرة فى سياقها الطبيعى بعد ذلك بأفضل مما توقعته لها . أما الغريب فعلاً فهو أنه بعدها بأسبوعين فوجئت بالحوار منشوراً شبه كامل وحرافياً فى صفحتين من مجلة أسبوعية قاهرية وبعنوان " زوجى محمد عبد الوهاب " لكن على أنه حوار خاص انفردت به مندوبة المجلة ، وليس منسوباً مطلقاً .. لا إلى صوت العرب ولا إلى نجوى أبو النجا . وقلت لمحمد عبد الوهاب : هذه سرقة علنية .. وبجاجة . أنا شخصياً أحس أنني تعرضت للنشل برغم أن الحوار الإذاعي لم يكن منسوباً إلى من بعيد أو قريب .

أما الأكثر غرابة هو رد عبد الوهاب نفسه . فبكل هدوء وارتياح قال لى : أنا على العكس منك.. مبسوط صحيح أن الفن فكرة . لكن الفن أيضاً .. انتشار . واللصوص لا يسرقون إلا الأشياء التى يرونها ثمينة . وفى الآخر .. هناك من استمتع بحوار عبد الوهاب مسموعاً .. والآن يستمتع به مقروءاً . لا يهم إذن من ينسب الفضل لنفسه فى إذاعة أو فى مجلة . الحوار أعجب الناس والفكرة لفئت أنظارهم.. وهذا هو الأهم.

والآن نحن فيها من جديد . إنما الوضع فى هذه المرة يختلف .. حيث " الفرسان الثلاثة " من محطة إذاعة الشرق الأوسط ، هم المخرج الإذاعى الكبير محمد علوان .. ثم محمد أنور وإبراهيم صبرى كمذيعين . فى الوسط يجلس محمد عبد الوهاب .. بينما أجلس أنا كصديق للطرفين بمناسبة إصرار عبد الوهاب على فكرة أنه "يتونس " بى .

الآن يبدأ التسجيل .. السؤال الأول من المذيع : الليلة أول أيام عيد الأضحى المبارك يا أستاذ عبد الوهاب واختارت محطتنا الاحتفال به معك فى بيتك ياترى .. تقول إيه لنا وللمستمعين ؟ وعبد الوهاب يرد باختصار : " أقول .. كل سنة وانتم طيبين " . السؤال التالى من المذيع الثانى : ياترى أستاذ عبد الوهاب .. إيه ذكرياتك عن العيد ؟ يعنى .. بيفكرك بإيه ؟

- بيفكرنى بالخروف واللحمة والفتة ..

السؤال التالى : هل يختلف العيد يا أستاذ عبد الوهاب زمان .. عن العيد الآن ؟ مرة أخرى يرد عبد الوهاب بتحفظ وإيجاز : العيد أساساً زمان والآن يفرح به الأطفال . أما الكبار ففرحتهم سببها أنه أجازة عن العمل .

لعشر دقائق تقريباً مضت الأسئلة والأجوبة على هذا النحو . سؤال ورد غطاءه . ووجدت نفسى أتململ وأكاد أحترق فى داخلى . وتخيلت نفسى مستمعاً فى البيت يجلس بجوار الراديو أتابع مثل هذا الحوار . تخيلت نفسى أيضاً ويدى تمتد إلى مؤشر الراديو لكى أغير المحطة تلقائياً بحثاً عن مادة إذاعية أخرى تكون أكثر جاذبية .

هكذا وجدت نفسى أمد يدي فى صالون عبد الوهاب إلى جهاز التسجيل لكى أوقفه محتجاً : معقول يا جماعة سهرتكم دى تشد المستمعين .. ولدة ساعتين .. أو حتى عشر دقائق على بعض ؟ لم يكن هناك خطأ من أحد . الكل أستاذ فى مجاله . لكنها مشكلة مذيعين منبهرين بعبد الوهاب.. ومشكلة عبد الوهاب نفسه الذى يتعامل مع الناس على موجتين إحدهما ما أراه الآن أمامى من إجابات تقليدية لأسئلة أكثر تقليدية .

ورغبة فى تخفيف حزام الاندهاش الذى حاصرني قلت ضاحكاً : دعونا نعيد شريط التسجيل إلى بدايته لتكون البداية مختلفة تماماً . دعونا نبدأ مثلاً بسؤال من أحدكم : يا أستاذ عبد الوهاب نحن عندك منذ ساعة ولم تعزم علينا حتى بالنشأ ؟

تطلع " الفرسان الثلاثة " نحوى للحظة . ولكنهم تطلعوا لمحمد عبد الوهاب للحظات فى محاولة لاستكشاف رد فعله هو . وهو يسألنى : طيب وسؤال زى ده .. له رد ؟ قلت له : عشرين رد . يعنى تقول لهم مثلاً .. أمس كنتم هنا وعزمتكم على شأى ولم يتم التسجيل . الليلة فيه تسجيل ومفيش شأى . إنتم أصحاب الاختيار والقرار .. عايزين تسجيل .. أو عايزين شأى ؟

فجأة تهللت أسارير محمد عبد الوهاب . إنما الذين انفكت عقدتهم فعلاً فهم " الفرسان الثلاثة " مطمئنين إلى حسن رد الفعل عند عبد الوهاب . خصوصاً بعد أن جلجلت ضحكته فجأة وهو يرد فرحاً كطفل : والله رد فيه فكرة وفيه ابتسامة .. وبعدين ؟

قلت مقترحاً : بعدين يجىء السؤال التالى . يعنى مثلاً .. لماذا أنت مشهور عنك البخل يا أستاذ عبد الوهاب ؟ والرد مثلاً هو ..

خمس أو ستة أسئلة اقترحتها على هذا النحو وبعدها ذاب الجليد تماماً بين عبد الوهاب وفرسان الإذاعة الثلاثة . عبد الوهاب أصبح أكثر سلاسة ودفئاً بالنسبة لهم .. والثلاثة أصبحوا أكثر فصاحة وإقتحاماً بالنسبة له . ثم أكملت الفكرة باقتراح آخر . لماذا يجلس المخرج الكبير محمد علوان صامتاً مكتفياً بكونه مخرج السهرة ؟ لماذا لا يشارك بنفسه أمام الميكروفون ؟ فمثلاً .. بعد كل إجابة من عبد الوهاب يقوم محمد علوان بدور المعلق على الإجابة قبولاً أو رفضاً .

فجأة نهض محمد عبد الوهاب واقفاً كما لو كان على وشك الرقص فرحاً لولا أن استدرك نفسه فى منتصف المسافة . لكنه قال للفرسان الثلاثة بحماس بالغ : كده فعلاً نضمن المستمع معانا ، لأنه يلاقينا فى شكل فنى جديد ومختلف . ما هو الفن ؟ الفن فكرة . والفكرة جميلة وشكلها مختلف . ثم سكنت فجأة مفكراً للحظات قبل أن يضيف : إنما حيث كده نكمل الفكرة على أصولها .. يعنى عندى إضافة .. أنا أجيب عن سؤال .. فالأستاذ علوان يعلق على إجابتى مرة .. بعدها فى إجابتى التالية سيادتك إنت تعلق على إجابتى .. وهكذا . هكذا أصبحت إضافة عبد الوهاب هى أن يحولنى من مستمع إلى مشارك فى السهرة ومعلقاً على نصف آرائه . ولم يكن ممكناً أن أرفض المشاركة فى فكرة كنت أنا الذى اقترحتها لتوى .

لقد مضى الحوار الإذاعى كما لو كان مباراة " بينج بونج " . أحياناً كنت أسحب محمد عبد الوهاب بعيداً . إلى قصة مجهولة له هناك فى لبنان لم يقدر لها أن تكتمل . أو أسحبه إلى قريب . إلى محمود شكوكو ، الوحيد فى طفولتنا الذى صنعت له التماثيل الصغيرة التى يقوم الباعة بإغرائنا بها مقابل مجرد زجاجات قديمة فارغة تحت عنوان " شكوكو بالقرايز يا أولاد " كيف خطر لعبد الوهاب أن يلحن لمحمود شكوكو وآخرين ضمن أغنية سينمائية بديةة شاركت فيها ليلى مراد وإسماعيل ياسين وآخرون منهم من بنى من الفول سبع عمارات ، ومن هو مربوط على الدرجة

التاسعة .. والناس درجات .. ومرشح يأخذ الثامنة غير العلوات .كيف تعطى الموسيقى هنا ملامح غنائية مختلفة تماماً لكل شخص حسب بيئته وطموحه في الحياة .

الأغنية من الباب للباب . وعبد الوهاب في حوارهِ يخرج من كل الأبواب . السؤال وإجابته ثم تعليق بالسلب والإيجاب من محمد علوان أو منى .. وبتلقائية يتوقعها المستمع . والأكثر غرابة كان محمد عبد الوهاب نفسه الذى انفتحت نفسه فبدأ يدلى بآراء غير تقليدية بالمرّة من التى اعتاد عليها فى معظم حواراته الإذاعية . آراء غير مسبقة . آراء فى الفن . فى الشعر . فى الموسيقى . فى أم كلثوم . فى طه حسين . فى عبد الحليم حافظ . فى فيروز . فى لبنان . فى جارة الوادى . فى أحمد شوقي . فى الفارق بين غناء الصالونات وغناء المسارح للجماهير . فى معنى الفلوس عنده ومقياس البخل والكرم . فى حكاية الوسوسة . فى معنى السعادة . فى كمال الطويل ومحمد الموجى وبلينغ حمدى . فى العلاقة بين " تخونوه " و " ظلموه " . فى .. وفى .. وفى

حينما انتهى الشريط الأول ، ومدته ساعة ، كنا كما لو أننا جميعاً لاهثو الأنفاس بعد سباق محموم فى الجرى . عبد الوهاب نفسه يتساءل مع تغيير الشريط: معقول مضي من الوقت ساعة بحالها ؟ دى مش سهرة .. دى محاكمة .. قالها بحماس . وانعكس حماسه عملياً فى مناداته على سعاد - مدير المنزل - باستغراب وحماس بالغ : إنت فين يا سعاد ؟ فين الشاى والقهوة وأى طلبات للضيوف يا سعاد ؟ الشاى بييجى مرتين يا سعاد .. مرة بالفناجيل ومرة بالأكواب . كفاية فضايح يا سعاد . فين العصير يا سعاد ..

قلت له متظاهراً بالهمس : لا تبالح فى الحماس .. بعدين الضيوف يطلبوا عشاء ..

عاد محمد عبد الوهاب إلى ضحكته المجلجلة . أما محمد علوان فكله اندهاش . إنه تعامل سابقاً مع محمد عبد الوهاب إذاعياً كمخرج لحلقات " شيء من العذاب " التى كتبها أحمد رجب . لكن علوان مندهش الآن من هذا الكرم المفاجئ من عبد الوهاب .. حواراً ومشروبات . ثم قال متسائلاً : معقول فاتت ساعة ؟ معقول يا أستاذ عبد الوهاب نفسك مفتوحة لكل هذه الأجوبة التى نسمعها منك لأول مرة .

والآن يرد عبد الوهاب بهدوء ، ولكن بضغط على الكلمات : أظنك يا أستاذ علوان تعذرني الآن وتفهم لماذا تمسكت بوجود محمود عوض . لأننى فى حاجة دائماً إلى من ينكشنى حتى أتحمس .. ومن يدهشنى حتى أنطلق . فالفن ليس له كبير . يعنى أنا محمد عبد الوهاب .. إنما لو قلت لى أقعد اسمع محمد عبد الوهاب نفسه يتكلم فى الراديو لمدة ساعتين سأصاب بالزهق والملل . لابد يكون فيه فكرة . فيه جاذبية . فيه شيء جديد . فحتى محمد عبد الوهاب يحتاج إلى الجديد ليتحمس مستمعاً لمحمد عبد الوهاب .

الشيء الغريب فعلاً هو أن تلك السهرة الإذاعية المطولة سجلت بعد إذاعتها في اليوم التالي نجاحاً غير مسبوق بسيل من مكالمات وبرقيات المستمعين يطلبون إعادة إذاعتها ثلاث مرات وهي سابقة غير مألوفة في تلك المدة القصيرة.

أما في حينها فقد كان رد الفعل الأول الذي لفت نظري هو من عبد الحليم حافظ. لقد اتصل بي بعد الإذاعة بيومين ليقول لي متسائلاً : بدمتك.. كم من الوقت احتجتموه ، لإعداد هذه السهرة أنست وعبد الوهاب ؟. وحينما حكيت له بالضبط ما حدث ، وكيف أن الأمر كله جاء صدفة ، غير عبد الحليم موضوع الحديث فجأة وسألني : هو العيد الصغير (عيد الفطر) باقى عليه كام ؟. قلت له حوالى عشرة أشهر. قال عبد الحليم بكل هدوء وجدية : طيب من دلوقتي سأرتب مع فرسان الإذاعة الثلاثة ليكونوا عندي في البيت مع جهاز التسجيل ليلة الوقفة (بعد عشرة أشهر).. إنما يا ريت تشرفني معهم..

قلت لعبد الحليم بنفس البراءة : ماشى .. سأكون عندك بالصدفة بعد عشرة أشهر . إنما الساعة كام ؟



إعلانات .. والأجر على الله !



جلست أمام جهاز التلفزيون محدداً من البداية ما أريد أن أشاهده وأتابعه. لا أفلام ولا مسلسلات ولا برامج ولا حتى نشرات أخبار أريد متابعتها. أتطلع فقط لمعرفة حال بلدنا .. وأعرفه من إعلاناتها. فالإعلانات ، خصوصاً فى التلفزيون والصحف ، مكلفة للغاية . والذين يعلنون لديهم بالطبع ما يريدون الإعلان عنه . لكن قبل ذلك لديهم الأموال اللازمة لتسديد ثمن إعلاناتهم. ثم إن الإعلانات لا ترفع ضغط الدم . ولا يوجد من يدفع لكى يعلن للمشاهدين خبراً سيئاً . كلها أشياء مبهجة . كلها سلع أو خدمات مغرية. والإعلانات عنها تكون غالباً راقصة .. لا أعرف لماذا . وبين إعلان وآخر يقدم لك المعلن نفسه من خلال نجوم مسرح أو سينما رأوا فلوس الإعلانات أسهل وأكثر من فلوس الفن فاقتصروا الطريق إلى داخل بيوتنا .. نحن نشترى السلع وهم يقبضون العمولة فى حين أن المعلنين يفوزون بالأرباح .

هى إن سهرة للتسلية .. كبدية . هى أيضا هواية أمارسها بين وقت وآخر حتى فى رحلات خارج مصر .

أتذكر أننى ذات رحلة مبكرة إلى الولايات المتحدة وكندا قضيت فيها شهوراً لدراسة الشخصية المصرية المهاجرة ومدى تفاعلها مع المجتمع الأمريكى أو الكندى الذى هاجرت إليه . الدراسة نشرت بعض حلقاتها فى " أخبار اليوم " ثم أصدرتها فى كتاب بعنوان " مصرى بمليون دولار " . فى الكتاب فصل بعنوان " مستر أمريكا " حاولت فيه أن أصحب القارئ معى فى رحلة لفهم الحياة الأمريكية كما هى عليه فعلاً . مع ذلك كانت الإعلانات - وإعلانات التلفزيون تحديداً - هى أحد الأبواب الخلفية التى طرقتها لفهم ما أراه . فى حينها لفت نظرى تماماً أن التلفزيون بالنسبة للأمريكيين هو كالكتبة بالنسبة للفرنسيين ، والصحف بالنسبة للإنجليز ، والمقاهى بالنسبة للمصريين .. مع فارق أساسى جداً هو : أسلوب ونوع الإعلانات التى تتخلل برامج التلفزيون الأمريكى . فى حينها أيضاً كانت محطات التلفزيون فى أوروبا تنظر إلى محطات التلفزيون الأمريكى بترفع وازدراء والسبب هو أن المحطات الأمريكية كلها قطاع خاص وهدفها الأول تحقيق الأرباح. وبالتالي نحن

أمام تليفزيون تجارى يحقق أرباحه من إيرادات الإعلانات . وحينما تقرر الاستطلاعات أن مشاهدى محطة تليفزيون هم الأكثر عدداً .. فإن هذا يعنى إقبالأ أكبر من الشركات الضخمة للإعلان فيها عن سلعها فتحقق المحطة أرباحاً أكبر. ونتيجة لذلك ابتدعت المحطات الأمريكية أسلوب حشر الإعلانات فى لحظات الذروة.. بل ويجرى قطع الفيلم المذاع ، أو البرنامج أو حتى نشرة الأخبار ، عدة مرات بغواصل إعلانية لضمان الإذعان المطلق من المشاهد حيث إنه: أينما تكونوا .. تحاصرهم إعلاناتنا. فمهما يكن الفيلم أو البرنامج أو الخبر المذاع فلا بد أن تتخلله الإعلانات . الخبر عن القمر.. والإعلان عن مسحوق غسيل. الخبر عن الزلزال فى اليابان.. والإعلان عن إعداد الشورية. الخبر عن رئيس الجمهورية.. والإعلان عن استخدام زيت الشعر لغزو قلوب النساء.

فى أوروبا كانوا يعتبرون هذا سوقية وقلة احترام لحقوق المشاهدين . لكن باحترام أو من غيره صاحب القلوس حر فى شروطه وطلباته .. ومحطة التليفزيون تريد مزيداً من الإعلانات . كثيرون من المثقفين الأمريكيين الذين عرفتهم كانوا مشمئزين أيضاً .. ويحسدون المواطن الإنجليزى أو الفرنسى أو الألماني مثلاً لأن فلوس الإعلانات لا تحاصره إلى هذه الدرجة فى محطاته التليفزيونية كما هى الحال فى أمريكا. والاعتراض ليس حتماً على الإعلانات من حيث المبدأ ولكن على فرضها داخل البرامج والمسلسلات ونشرات الأخبار .. لأن هذا يقلب المسألة رأساً على عقب.. فبدلاً من أن تكون الإعلانات فى خدمة البرامج تصبح البرامج فى خدمة الإعلانات.

الجدل هنا مستمر . لكن ما أتذكره الآن هو أننى كتبت تحديداً فى ذلك الكتاب المبكر فى حياتى: " إن مشاهدة التليفزيون الأمريكى توحى لك للوهلة الأولى بأنهم شعب يعانى من تسوس الأسنان وتساقط الشعر والصداق المزمن والمغص الدائم . نساؤهم تحتاج إلى سوتيانات محشوة ورجالهم يعتمدون فى جاذبيتهم على زيوت الشعر . إن المجتمع الأمريكى .. كما تصوره الإعلانات هو كابوس من الخوف والغيرة والثروة والاعتياب والحسد والطموح والجشع والطمع والشهوة.. حيث الغاية تبرر الوسيلة .. حيث العاطفة يجب أن تكافأ والمثل العليا يجب أن تداس والقيم تلوث . إن الأمريكى المثالى ، كما ينطبع فى ذهنك من الإعلانات هو شخص يعيش فى عذاب القلق والشهوة.. شخص لا قيمة لأى شيء عنده إلا إذا ارتبط بنتائج عملية سريعة. إنه يقرأ الكتب لكى يتحدث جيداً . يستمع إلى الموسيقى لكى يؤكد مركزه الاجتماعى . يختار ملابسه لكى تؤثر على تجمعات رجال الأعمال. يسلى أصدقاءه لكى يتقدم فى وظيفته . يقدم الهدايا المستمرة لزوجته لكى تحبه ، ولأولاده لكى يحترموه .. فحتى الحب والاحترام - بالنسبة للإعلانات الأمريكية لا يتمان إلا بالرشوة . "

" إنها إعلانات لا ترى شيئاً مقدساً ولا شيئاً شخصياً . إنها للحقيقة تخاطب مشاعر الأمومة أو الزواج أو الدين أو الصداقة أو الصحة أو النظافة . ولكنها تصور الحب مثلاً كشئ تنافسى يذهب

لهؤلاء القادرين على شراء أغلى الهدايا . تصور المداقة على أنها سلعة فى المزداد ، لا يحصل عليها من يقدم لأصدقائه مشروباً رخيصاً أو يجلسهم على أثاث متواضع . إن الترقى والتقدم فى الحياة لا يأتى عن طريق العمل أو الذكاء أو الشخصية أو أية قيمة متعارف عليها .

” إنه يأتى بمزيج ذكى من الخداع والرشوة و”القر” والابتزاز . إن كل هذا يوقع دارس الشخصية الأمريكية فى مشكلة مربكة . إن من مهمة العلنيين أن يدرسوا أولاً عناصر هذه الشخصية قبل أن يخاطبوها . مواردكم تمكنهم من الحصول فى دراستهم هذه على أحدث أبحاث علماء النفس والاجتماع . وعلى ذلك فإذا كانت هذه الإعلانات تتم بناء على تحليل صحيح للشخصية الأمريكية فإن هذا يعنى أن الشعب الأمريكى هو شعب فاسد متدهور .. بينما الحقيقة هى عكس ذلك تماماً . إن العلنيين يخاطبون فى الشعب الأمريكى مشاعر الخوف والاستعلاء والأنانية . ومع ذلك فليس فى الشخصية الأمريكية ما يؤكد وجود هذه الدوافع مطلقاً .. تناقض..

كانت تلك هى انطباعاتى المكتوبة مبكراً من زمن سابق . انطباعات بأن ثقافة الاستهلاك هى التى يجرى ترويجها والإلحاح عليها .. بفكرة أن إستهلاكاً أكثر يغرى بإنتاج أكبر . والآن أصبحت فيها .. إنما من خلال سهرتى مع إعلانات التليفزيون المصرى . كنا أوروبيين - تليفزيونياً - حتى سنوات قليلة مضت . الآن .. متأمركين . الآن لا توجد فواصل إعلانية فقط . بل الإعلانات فى قلب البرنامج والفيلم والمسلسل . لم يبق سوى نشرة الأخبار .. ربما لأنها ملك الحكومة .. والحكومة لا تقبل المنافسة . الإعلانات جذابة مبهرة سريعة الإيقاع معظمها ينتهى بعنوان أو رقم تليفون أو عبارة : اتصل بنا الآن .. اشترى الآن . طيب .. نشتري وفهمناها . إنما : نشتري ماذا ؟

خذ عندك : أجهزة تكيف من كل نوع .. فالجو صيف وعيب الناس تقول عليك متخلف . والبوتاجازات أشكال وأنواع وحرام الدول المتقدمة تتمتع بها وأنت بعيد . جاهزون لتأثيث منزلك من الألف إلى الياء لو أنت جاهز نحن رهن الإشارة . الأثاث من إيطاليا والكريستال من فرنسا والموكيت من هونج كونج وطبق الدش من تايوان . السيارات من شرق وغرب .. وبالتفسيط المريح . حتى شركة الأسواق الحرة ، التى كان هدفها الأصلى البيع المحدود للعائدين من الخارج مقابل عملات صعبة .. تعرض الآن بيع نفس السلع المستوردة بالجنيه المصرى ، وبغير جواز سفر ، وباستعداد لتوصيل السلع إلى المنازل بسيارات الشركة مجاناً . هذا جهاز للمطبخ . يابانى أصلى . جهاز لشطف البطن .. لزوم الريجيم . مسحوق غسيل من أمريكا لزوم النظافة . هذه بطاقة إنتمان تحت أمرك لتمويل مشترياتك من الخارج رأساً . معقول الحمام فى بيتك بلاط قيشانى ؟ يا ستى عيب . أنت لست أقل من جارتك .. حمامها سيراميك . نحن جاهزون بالسيراميك حتى لحجرة الاستقبال فى منزلك وبعدها يحبك زوجك أكثر . مكانس من كوريا . حرير من الصين . مسحوق طعمية أكر : طعمية من لبنان . تليفون محمول صناعة السويد . للمرأة الجميلة وتبحث عن جمال

أكثر .. عطور من فرنسا . بعدها كل الرجال تحت أمرك . للرجل المتدين مسبحة وسجادة صلاة صناعة الصين . للأولاد فوانيس سحرية من ماليزيا وأحذية رياضية من تايلاند . هيا يا بطل : بابا يريدك رياضياً متفوقاً والتفوق يبدأ من الحذاء المناسب إلى البطاطس المحمصة وساندويتشات الهامبورجر وفراخ كنتاكي ماركة الخواجة إياه وعشرين صنف جبنة من سويسرا والدانمرك من أجلك خصيصاً . المرأة تجيء قبل الطفل وبعده . تريدين جمال كلوديا شيفر ونحافة يسرا أوحتي قالب ليلي علوى ؟ كله موجود . مساحيق للتجميل ووصفات للسمنة وموديلات من روما وباريس وزيتو للشعر من مدريد وشريط أغان من بيروت وصل تواء من مطربة تقول إن أباهأ أوصاها من صغرها بأن عليها : « إذا عشقت .. تعشق مضبوط » وحسب تلك الأغنية الوثيقة - تخبرنا المطربة المحترمة : إذا باعشق أعشق مضبوط . إذا باحكي أهندس كلماتي . إذا بامشى أركز خطواتي . إذا باضحك ادرس بسماتي .. وكله كله تنفيذا وصايا الأب . هذا النوع الغنائى الإعلانى من الأب . إعلانات إعلانات . إعلانات . السهرة جميلة ومسلية ومغرية : و : اشترى الآن . اتصل الآن قبل أن يسبقك جارك إلى الشراء . تلحح يا أخينا ولا تدفن نفسك بالحياة . الحياة حلوة بس نفهمها . والحياة جميلة بس كبر مخك وافتح جيبك .

إعلانات.إعلانات.إعلانات. والحساب يجمع . الحساب يطلع أولاً من جيوب المشاهدين المستهلكين . فيصّب رأساً فى جيوب البائعين بعد أن يحصل التلفزيون فى منتصف المسافة على عمولته . لكن السؤال بعد هذا كله هو : إذا عرفنا من يدفع .. فمن يكون المستفيد ؟ فى كل السلع التى تابعتها إعلانياً لم أجد بينها سلعة واحدة مصرية باستثناء السيراميك وبعض السجاد . حتى الطعمية كغذاء مصرى من يومه .. يصدرها لنا لبنانى شاطر . يعنى .. كل أمم الأرض أنتجت ونحن تم اختصارنا إلى مجرد مستهلكين لإنتاجها . هل الحياة الواقعية تسير هكذا؟ ألا يحب كل أبوين لابنهما أن يجد الوظيفة والشقة والسيارة وجهاز التكييف والسفر للسياحة بالخارج فوراً ؟ لكن كل أبوين يجدان من اللازم تربية ابنهما على مبدأ أساسى هو : بقدر لحافك - مد رجلك .. تذاكر .. تنجح .. تزرع .. تحصد .. تدخر .. تأمن . تعتمد على نفسك .. تضمن النجاح فى الحياة والتفوق على كل منافسيك . تريد أن تستهلك .. كن أولاً منتجاً فتتعامل مع الآخرين رأساً برأس . والآن .. ماذا ننتج ؟

كنا ننتج ، مثلاً ، أفلاماً سينمائية نصرها لكل العالم العربى . الآن يعد خمسين فيلماً فى السنة أصبحنا ننتج .. يادوب - خمسة . كنا ننتج أدوية مصرية وعالية تستوردها منا أفريقيا وآسيا . الآن أصبحت الصيدليات الكبرى هى التى تروج للأدوية الأجنبية لجرد أن مكسبها فيها أكبر . كنا نفخر بصناعة نسيج من القطن المصرى بدأها طلعت حرب بشركة المحلة الكبرى وضاعفها عزيز صدقى بالتصدير إلى أوروبا . الآن تحولت صناعة النسيج عندنا إلى «بنت الجارية» . كنا شديدي

الاعتزاز بصناعة الأثاث في مدينة دمياط التي تصدرها إلى أوروبا الشرقية. الآن راحت دمياط ودخلت روما على الخط. كنا ننتج سيارة «فيات ١٢٨» .. ولو بالتجميع .. سعرها في متناول الطبقة المتوسطة. الآن تخبرنا الإعلانات بعشرين ماركة سيارات كلها مستوردة بالكامل وأسعارها من العيار الثقيل وكل المطلوب منا - كمستهلكين - أن نوقع على فواتير الشراء فتلتزم الحكومة بتحويل جنيهاتنا المصرية إلى عملات أجنبية .. ولو بالاقتراض والدين .

الفكرة هنا من شقين . أولاً : حاجتنا إلى نوع مطلوب من الوطنية هو « الوطنية الاقتصادية ». هذه الوطنية ليست أبداً « دقة قديمة » فالزعيم الأمريكي الراحل إبراهيم لنكولن مثلاً كان يخطب في مواطنيه الأمريكيين قبل مائة وأربعين سنة قائلاً : أنا لست خبيراً في الاقتصاد . أنا قانوني بحكم الدراسة . لكنني أيضاً مواطن أمريكي بحكم المولد والانتماء . وما أعرفه هو أن المواطن الأمريكي حينما يشتري سلعة من إنتاج بريطانيا مثلاً فقد دفع هو الثمن . أما الذي استفاد من ورائه فهو صاحب مصنع في بريطانيا ، وعمال إنجليز ، وسفينة شحن بريطانية .. إلخ . لكن نفس المواطن الأمريكي حينما يشتري سلعة أمريكية يكون بذلك قد ضمن وظيفة لعامل أمريكي ، وحقق ربحاً لمصنع أمريكي ، وأفاد بائعاً أمريكياً .. وفي نهاية المطاف يصبح الاقتصاد الأمريكي أكثر قوة .. وأهم نتائج القوة هنا هو أن يجد الشاب الأمريكي فرصة عمله في انتظاره .

أخيراً قرأت في باب تقليدي في جريدة أمريكية خبراً نشرته قبل مائة سنة . في الخبر يسجل مراسل الجريدة في نيويورك أن السلطات المختصة بدأت بكل حزم تطبيق القانون الأمريكي الجديد الصادر وقتها ، بمنع استيراد النسوجات من الخارج تماماً . وإحدى السفن التي وصلت إلى ميناء نيويورك ضبط فيها رجال الجمارك سيدة أمريكية بدت منتفخة الجسم بشكل لافت وتبين بعدها أن السبب هو كومة الملابس التي ترتديها وكومة أخرى من الملابس في حقيبة لها قائلة لمأمور الجمارك أن هذا كله لاستعمالها الشخصي. وبعد أن راجع مأمور الجمارك الموقف قال لها : يا سيدتي .. هذه ملابس جديدة تماماً ولا يبدو عليها أنك استخدمتها أصلاً . أقدم لك اعتذارى. لكن القانون هو القانون . كل تلك الملابس يتم مصادرتها مع فرض الغرامة القانونية التي يجب عليك تسديدها حالاً .. وإلا : الحبس . في نفس الجريدة الأمريكية ، قبل مائة سنة ولكن بعدها بأسبوع واحد خبر آخر في الصفحة الأولى لمراسلها من باريس ، يسجل فيه أن وزيراً في الحكومة الفرنسية هاجم قانون الجمارك الأمريكي الجديد معلناً أن فرنسا تعتبره إعلان حرب تجارية ضد كل أوروبا.

بحرب أو بغيرها ، ويسوق مفتوحة أو مغلقة ، لم تكن أمريكا ستصبح على ما هي عليه الآن لولا أنها استوعبت مبكراً درس الجوهري : يجب أن تنتج أولاً قبل أن تستهلك ، وتصدر قبل أن تستورد. وسواء تكلمنا من اليمين إلى الشمال أو من الشمال إلى اليمين فإن المسألة فعلاً هي حياة أو

موت . هي حياة لجيل جديد من الشباب يصبح في سن العمل .. وهذا هو الشق الآخر المهم . فحينما نشاهد إعلاناً عن سلعة مصرية نصبح أمام واقعة محددة . واقعة أن مصنعاً جديداً جرت إقامته في بلدنا . لا يهم أن يكون المصنع قطاعاً خاصاً أو عاماً ، بالضبط كما أنه لا يهم أن تكون القطة بيضاء أو سوداء . المهم هو أن تصطاد الفئران . المهم أن نبني اقتصاداً منتجاً يتيح فرص العمل لكل الشباب .

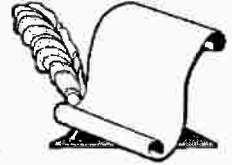
وحينما أشاهد إعلاناً عن سلعة أجنبية لترويجها داخل مصر فهذا خبر طيب للشباب هناك في البلد المنتج . لكنه أيضاً خبر سيئ للشباب هنا في مصر المستوردة . هذه ليست دعوة لمنع الإعلانات . هذه دعوة لكي نصصح حياتنا من تحت لفوق . في أول زيارة لى إلى اليابان قبل سنوات طويلة فوجئت بأن السلع اليابانية تباع في طوكيو بأعلى مما هي خارج اليابان . هذا لأنهم يردعون الاستهلاك المحلي ويشجعون التصدير . أما المفاجأة الأخرى فهي المنع المطلق لاستيراد سلع محددة .. أهمها الأرز . اليابان جزيرة كما نعرف ومعظمها صخرية . والأرز الياباني بتلك الصفة من أردأ أنواع الأرز في العالم . واليابان دولة غنية ، وهي قريبة من أمريكا حيث الأرز الأمريكي أجود وأرخص . لكن .. أبداً . لو استورد المواطن الياباني كيلوجرام واحداً من الأرز لا يصادر الأرز فقط ولكن يعاقب المواطن نفسه بالغرامة والحبس . ليس في الموضوع أى عداء لأرز الآخرين . ولكن حماية زراعة الأرز الياباني من البوار .

وفي صبانا لم نكن نشاهد خارج المدن مخبزاً للخبز الأفرنجى - العيش الفينو - وكانت بيوتنا تصنع خبزنا . بعد أن كبرنا عرفنا أن الفكرة من قديم هي تشجيع القرية المصرية على أن تكون قرية منتجة لخبزها ودجاجها ولحومها وبيضها .. إلخ .

وأخيراً قرأت أن وزارة التموين تبحث إطلاق تراخيص مخازن العيش الأفرنجى بحجة أن مواطن الريف من حقه أن يأكل نفس العيش المتاح لمواطن المدينة . كلام كبير لكنه مضلل . فأولى درجات العدالة هي أن تبقى على قيد الحياة . أن تنتج خبزنا وكساءنا . أما إذا كنا سنولد ونتعب ونتعلم ونتخرج لكي نصبح في نهاية المطاف عاطلين مستوردين ومستهلكين .. فلنا الله . لكن الله حينما أراد هدايتنا بعث إلينا بأنبياء يعملون ويكدحون ويصنعون طعامهم ويكسبون عيشهم .

ويوم نجد الإعلانات الرائجة في بلدنا هي عن سلع مصرية يصبح من حقنا أن نطمئن لمستقبل أفضل . أما في اللحظة الراهنة فتحاصرنا الإعلانات على مدار الساعة . إعلانات أمريكانى . ولو كانت أمريكا عاشت حياتها كما نفعل نحن أخيراً لما أصبحت أمريكا التى نراها الآن . أمريكا المنتجة والمصدرة والمفرقة لأسواق الآخرين بسلعها بناءً على حسبة بسيطة يكررونها دائماً : كل سلع بألف مليون دولار تصدرها أمريكا إلى الآخرين .. معناها عشرين ألف وظيفة جديدة للشباب الأمريكى . حقيقة أدركوها من أيام إبراهيم لنكولن قبل ١٤٠ سنة والآن يحصدون ثمراتها . هم ينتجون ويصدرون . حلال عليهم . نحن نستورد وندفع ونقترض ونتعطل . حرام علينا .

شيك .. ياخذ العقل !



الحكاية فى أولها تبدو مسلية. هذه رسالة واردة إلى بالبريد الجوى وقادمة من أشخاص لا أعرفهم بالمرّة. هم توصلوا إلى اسمى وعنوان منزلى ، والرسالة مطبوعة على ورق فاخر ملون، وتبدأ باسمى مطبوعا بالانجليزية، وبحروف كبيرة، مع خبر مثير: يا مستر محمود عوض.. هناك ٤١٠ ملايين دولار فى انتظارك. الرسالة واردة من استراليا وموقعة أولا من امرأة اسمها ديانا. وهى ككل امرأة من هذا النوع.. تدخل مباشرة فى صلب الموضوع..

والموضوع بكلمات الرسالة هو: اننى أعشق ألعاب اليانصيب. وبين وقت وآخر كنت أكسب جائزة متواضعة بعشرة دولارات. لكننى أصبحت مع أصدقائى نكسب مئات الجوائز كل أسبوع. لذلك نحب أن تشاركنا.. لقد بحثنا حول العالم عن ألعاب يا نصيب بجوائز أضخم وفرص أسهل للفوز هناك وتكون الجوائز نقدا ومعفاة من الضرائب. هكذا وجدنا نوعين من اليانصيب. هناك البريطانى ويتيح ١٢٥ فرصة للفوز بالجوائز، وكذلك اليانصيب الاسترالى ويتيح ألف جائزة. مجموع جوائز النوعين معا ٤١٠ ملايين دولار. بعض هذه الملايين يمكن أن يصبح من نصيبك يا مستر محمود عوض.

ولكى تدخل السحب الأول كل المطلوب منك هو شراء تذكرة بمجرد ٣٥ دولارا. من الآن احتجزنا لك رقما خاصا لعضويتك الشرفية معنا. أيضا نريد تاريخ ميلادك باليوم والشهر لأن الاحتمال كبير بأن نفاجئك بهدية معتبرة فى نفس التاريخ. كذلك نريد رقم تليفونك لكى نخبرك على وجه السرعة بكل مرة تفوز فيها بمبلغ يتجاوز خمسة آلاف دولار....

الحكاية فى أولها تبدو مسلية لكننى نحيث الرسالة جانبا... نسيتها.

بعدها رسالة أخرى وبالبريد الجوى . فى هذه المرة هى من لندن وتبدأ كما يلى:

يا صديقى العزيز فيما وراء البحار . أنت مدعو للاشتراك فى أسرع يانصيب نموا فى التاريخ. هذا اليانصيب بدأ فى ١٩ نوفمبر سنة ١٩٩٤ بالملكة المتحدة (بريطانيا). بعدها بشهر واحد كسب شخص بمفرده مبلغ ١٧ مليونا و ٨٧٠ ألف جنيه استرلينى. أى ما يعادل ٢٨ مليونا و ٢٠٠ ألف دولار. فى أبريل ١٩٩٥ فاز شخص واحد أيضا بجائزة تساوى ٢٢ مليونا و ٣٠٠ ألف جنيه استرلينى. ومبكرا فى سنة ١٩٩٦ فاز ثلاثة أشخاص معا بمبلغ مشترك هو ٤٢ مليون جنيه استرلينى.

ثم الآن هناك سحب جديد متوسط جوائزته للشخص الواحد تسعة ملايين و٩٠٠ ألف جنيه استرليني. المكسب هنا معفى من الضرائب تماما والسحب يتكرر كل أسبوع. مطلوب منك فقط ٦٥ دولارا مقابل المشاركة طوال تسعة أسابيع، أو ١٣٠ دولارا مقابل المشاركة ١٨ أسبوعا، أو ٢٦٠ دولارا مقابل المشاركة لمدة ٣٦ أسبوعا. كلما دفعت أكثر أصبحت فرصتك فى الفوز أكبر.

الحكاية فى أولها تبدو مسلية. لكننى، مرة أخرى، نحيث الرسالة جانبا ونسيتها. شهر والثانى ثم رسالة ثالثة. فى هذه المرة من كندا. إنه اليانصيب الكندى بجوائز إجمالية قيمتها ثمانية ملايين دولار. كل المطلوب منى للمشاركة فيه من مكانى بالقاهرة هو تسعون دولارا. الرد يكون بالبريد أو بالفاكس و: سارع بالمشاركة لأن التذاكر المخصصة للأجانب فيما وراء البحار محدودة والاقبال عليها يتزايد يوما بعد يوم.

بعد استراليا وبريطانيا وكندا جاء الدور على أسبانيا. هذه الرسالة بالبريد الجوى واردة على عنوان منزلى بالقاهرة. انه يانصيب آخر باسم «الجوردو» الكلمة أسبانية ومعناها السمين أو التخين أو الضخم. الرسالة المطبوعة، باسمى فى مقدمتها، تبدأ بكل رقة: يا صديقى العزيز فيما وراء البحار: أنت مدعو للدخول فى واحد من أكبر سحبين لليانصيب الأكثر شعبية فى كل أوروبا. هذا يا نصيب تشرف عليه الحكومة الأسبانية والسحب يتم مرتين سنويا... الأصغر فى يوليو والأكبر فى ديسمبر. الباقي فقط مائة ألف تذكرة بينما المطروح هو ٣٨ ألفا و٩٩٩ جائزة يعنى هناك فائز واحد من بين كل ثلاثة مشتركين، بينما اليانصيب الكندى هناك فائز واحد بين كل ٥٤ مشتركا. وفى اليانصيب الأسترالى فائز واحد بين كل ٢١٠ مشتركين. وفى يا نصيب ولاية نيويورك فائز واحد من بين كل ٣٣٣.

فى السحب القادم - أول يوليو سنة ٢٠٠١ يحصل الفائز على ١٣ مليون دولار. الثانى يحصل على أكثر من ستة ملايين دولار. والجوائز الأخرى هي.... وكلها معفاة من الضرائب. كل المطلوب منك الآن هو شراء تذكرة واحدة مقابل ٧٥ دولارا، أو تذكرتين مقابل ١٤٥ دولارا، أو ثلاث تذاكر مقابل ٢١٠ دولارات...»

ومع أن الرسالة واردة من أسبانيا إلا أن الرد يكون على عنوان فى هولندا حيث مقر الوكالة المتخصصة للزبائن المحتملين أمثالى ممن يقيمون وراء البحار.

الحكاية فى أولها تبدو مسلية. لكننى مرة رابعة، نحيث الرسالة جانبا ونسيتها. بعدها جاءت الرسالة القنبلة من ألمانيا. وهى قنبلة لأنها تبدأ، باختصار وبغير موارد، بصورة شيك مصرفى مطبوع وموقع للصرف. خمسة وعشرين مليون مارك ألمانى (تساوى تقريبا عشرة ملايين دولار أمريكى) يتم دفعها بمدينة هامبورج بألمانيا فى تاريخ محدد هو ٣٠ ديسمبر سنة ٢٠٠١ لأمر المستفيد الذى هو: محمود عوض. مصر.

شيء جميل ومنعش أن يتلقى المرء شيكا مصرفيا، وبالماركات الألمانية، وبهذا المبلغ الضخم الذى يساوى حاليا نحو أربعين مليون جنيه مصرى. شيء.. ولا فى الأحلام. حتى هارون الرشيد فى زمانه لم يكن بكل هذا الكرم والسخاء. هو على الأقل كان يطلب أولا قصائد شعر تمدحه وتمجد فيه. لكن هذه الرسالة تبدأ من غير طلبات، وبشكل مفحم خلاصته ٢٥ مليون مارك، ولكى يصبح الكلام عمليا فإن الرسالة تقترح على مسبقا برنامجا متكاملًا لاستثمار هذه الخمسة وعشرين مليون مارك.

فالرسالة الواردة إلى بعنوانى فى القاهرة تقترح على البرنامج التالى لكى أختصر الطريق إلى "الاستقلال والحرية": أولا أشتري فيلا فاخرة فى أجمل مكان فى العالم لن يتجاوز ثمنها مليونين ونصف المليون مارك. أشتري سيارة من أفخر ماركة ثمنها مائتا ألف مارك. أقوم برحلة ترفيهية مدهشة حول العالم ككل المليونيرات ستكلفني مائتي ألف مارك. أشتري شقة إضافية للإجازات السريعة بأى مكان فى أوروبا كالريفيرا مثلاً بثمانمائة ألف مارك. بعد هذا الإنفاق والبذخ سيتبقى لدى من قيمة الشيك مبلغ ٢١ مليوناً وثلاثمائة ألف مارك. لحظتها أضع المبلغ فى أى بنك كوديعة للاستثمار. ولو أعطانى البنك مجرد أربعة بالمائة فائدة فهذا يعنى حصولي على دخل شهرى قيمته ٧١ ألف مارك أبعثرها يميناً ويساراً كما أشاء... بينما يظل مبلغ الوديعة ثابتاً كما هو.. وديعة بإسمى لدى البنك.

الآن عدت أتأمل الشيك من جديد والرقم مرة أخرى: ٢٥ مليون مارك. فيه من الشيك كل صورته وأركانه. فيه تاريخ محدد للصرف واسم محدد للمستفيد وتوقيع محدد للدافع ورقم محدد للمدفوع بالحروف والأرقام ثم مكان الصرف. فقط مطبوع أيضاً فى الركن الأعلى يساراً إشارة إلى أنه نموذج «عينة»... بما يعنى أنه "بروفة" للشيك الحقيقى الذى يحتمل أن يكون من نصيبى فيما لو شاركت بهذا اليانصيب الألمانى بمدينة هامبورج. أما المطلوب مقابل كل هذا السخاء، بل تلك الثروة المحتملة الهابطة من حيث لم أحتسب، فهو أن أشارك بدفع ٤٥ دولاراً أو ٧٢ أو ١٤٠ دولاراً حسب مزاجى.... فترتفع فرص فوزى من ٨٩٪ إلى ٩٨٪ إلى ١٠٠٪ وكل شيء بكلامهم محسوب بالكمبيوتر. والمسألة كلها مجاملة موجهة إلى شخصياً، حيث يقول صاحب الرسالة المطبوعة: يامستر محمود عوض..... هذه دعوة شخصية لك للمشاركة فى هذا اليانصيب: فأنا لا أرسل مثل هذه الدعوة إلى أى شخص. والسبب هو أننى أتعهد حصر عدد الزبائن فى هذا اليانصيب، فكلما قل العدد زادت فرص الفوز. ومع ان الجائزة الأولى هى ٢٥ مليون مارك.. إلا أن هناك جوائز أخرى. فإذا كان السحب الكبير سيجرى فى ٣٠ سبتمبر سنة ٢٠٠١ لكن منذ الآن، أى من قبلها بشهور، هناك سحب يومى جائزته الأولى مليون مارك يومياً، والثانية سيارة مرسيدس ثمنها ٦٠ ألف مارك، وبعدها ٢٤ جائزة من كل عشرة آلاف مارك و..... و.....

إنما خلدنا في حكاية الشيك . ادفعوا مبلغ خمسة وعشرين مليون مارك لأمر ... شيء يهبل . شيء يأخذ العقل . فخبطة حظ مثل هذه يصبح المرء طرزان مدينته ومليونير عصره وهارون زمانه... وبأقل القليل - مجرد ٤٥ دولاراً أو حتى ١٤٠ لو كان الطمع أكبر . وبمثل هذه الألعاب من الذي لا يطمع ومن الذي لا تتفتح شهيته للمزيد من والمزيد من الطمع ؟ الحكاية ممكن تخيب ويمكن تصيب أيضاً بدعاء الوالدين أو بأحلام اليقظة . فاليانصيب نوع من القمار .

بالفعل قمار . والقمار ضعف إنسانى غريزى تربطه علاقة عكسية مع العقل . فبالعقل فقط يدرك المرء أن المكسب والثراء السريع موجود فقط في الروايات والأساطير والجرائم ومثل هذا النوع من ألعاب الحواة ... «ألعاب الثلاث ورقات» البدائية كما عرفناها صغاراً ، لكن في هذه المرة على أكبر ... وبالأخواتى .

إنما نرجع للشيك . لقد تأملته من جديد وتأملت الرسالة المرفقة به وعدت إلى الرسائل السابقة من أسبانيا وأستراليا وكندا وبريطانيا . كلها شركات عابرة للقارات لديها مثل تلك الإمكانيات لاصطياد الزبائن المحتملين حول العالم وإغرائهم ودغدغة مشاعرهم خصوصاً في عالمنا الثالث . حتى الرسائل المطبوعة على ورق فاخر وبألوان جذابة يشترك في صياغتها خبراء في علم النفس لأن الرسالة هنا تلعب على مجموعة نقاط ضعف بشرية كالتخاطب الشخصى ، وطبع اسم المرسل إليه بحروف كبيرة والإيحاء له بأن كثيرين فازوا قبله والفرص المتاحة أمامه عديدة ومتنوعة ومغرية ، وأنه كلما دفع أكثر أصبحت فرصه فى الفوز أكبر ... وبالملايين . طبعاً حاجه تهبل وشيكات تأخذ العقل ... إنما فى حالة واحدة فقط . أن يكون المرء ناقص عقل ودين وتربية وثقافة ومعرفة .. ويكون أيضاً بالغ الطمع فى الفلوس السهلة . وفى تجربتى الخاصة هنا شغلنى أمران . كيف أصبح اسمى وعنوان منزلى متاحاً بهذا الشكل لشركات لا أعرفها ما بين كندا وأستراليا؟ ولماذا لم تبدأ مثل تلك الرسائل فى الوجود إلا فى خلال السنوات القليلة الأخيرة ؟

فى الإجابة عن السؤال الثانى وجدت الرد بسيطاً . وبغير أن نفتح النقاش واسعا فى مسألة «العملة» فقد أصبح انفتاح الأسواق الدولية على بعضها البعض يعنى حرية حركة الأموال . فإذا كان فى جيبى بطاقة ائتمان بالقاهرة بالعملة الأجنبية فهذا يعطينى حرية شراء أى سلعة من أى مكان فى العالم وأعطى للشركة الأجنبية رقم بطاقة الائتمان الخاصة بى وتوقيعى... فيصبح البنك المصرى الذى أتعامل معه ملتزماً بتسديد المبلغ فوراً وتحويله إلى الشركة الأجنبية وبالعملة الأجنبية . فى هذا الجانب خير ... وفيه شر أيضاً .

أما الإجابة عن السؤال الأول فقد توصلت إليها بعد أن تكررت مثل هذه الرسائل شهراً بعد شهر . وأصل الحكاية هى أننى على مدار السنة أشتري كتباً أجنبية عديدة وأدفع اشتراكات سنوية

فى عشرات من المجلات والصحف ونوادى الكتب الأجنبية. مع كل بطاقة اشتراك لم ألاحظ فى البداية أن هناك سؤالا مطبوعا ومتكررا، وإن يكن بحروف صغيرة للغاية. سؤال يقول: هل ترغب - أو لا ترغب - فى تلقي مطبوعات دعائية من شركات ومؤسسات أخرى؟

السؤال برىء... وفى البداية لم أكن أضع أية إجابة... سواء بالرغبة أو بعدمها. مع الوقت اكتشفت أن الشركات الكبرى عابرة القارات هذه حولت قوائم زبائنهم المشتركين لديها إلى سلعة إضافية... فأصبحت تبيع قوائم المشتركين وعناوينهم إلى بعضها البعض. من هنا المفاجأة. فأنا أسدد اشتراكا لنادى كتب فى الولايات المتحدة مثلا... لأفاجأ بعدها برسائل دعائية ترد إلى من شركة مجوهرات فى هونج كونج مثلا، أو سلسلة مخازن وحلويات فى ولاية تكساس بأمريكا، أو مصنع أسلحة شخصية فى سويسرا، أو شركة سيارات فى السويد، أو شركة توظيف أموال فى جبل طارق، أو حتى شركة توفير جنسيات أجنبية بديلة وجوازات سفر إضافية من دول صغيرة جدا فى جزر المحيط الهادى أو بعض دول إفريقيا.

هذه المسألة بحد ذاتها موضع خلاف سياسى كبير مؤخرا بين الولايات المتحدة من جانب وبعض دول أوروبا الغربية من جانب آخر. فالحكومات الأوروبية ترى أن تراسل شركة مع مواطن دون استئذانه وموافقته مسبقا يمثل نوعا من الإعتداء على حق المواطن فى الخصوصية... وبالتالي لابد من تجريم قيام الشركات ببيع أو تبادل قوائم الزبائن مع بعضها البعض إلا بشرط وجود موافقة كتابية صريحة مسبقة من المواطن المعنى فى كل حالة. فى المقابل ترى الحكومة الأمريكية حتى الآن إطلاق حرية الشركات فى اقتحام حياة الزبائن المحتملين بالمطبوعات الدعائية كجزء من حرية التجارة.

انما... نرجع للشيك.. فلكى يصلنى مثل هذا العرض بالقاهرة لابد من سهولة تحويل الأموال وهذا ما تشترطه قوى "العولة" تحت شعار حرية التجارة. لابد أيضا من قلة العقل. هم يصطادون الزبون من خلال إغرائه بالمال الضخم السهل السريع وبغير مجهود وبضربة حظ. يعنى: "قمار". وبامتداد التاريخ كان القمار أقصر الطرق إلى الخراب. ومن هنا تتدخل الحكومات لمنعه والأديان لتحريمه. إنما على طريقة "إذا لم ينتقل الجبل إلى محمد فعلى محمد أن ينتقل إلى الجبل" اقتحمت حياتنا مؤخرا إغراءات أخرى... هى نصف الطريق إلى القمار. برامج المسابقات فى التلفزيون مثلا. هى أصلا للتسلية والترفيه وبالتالي فجوائزها كانت معنوية ورمزية بغير تركيز زائد عن الحد على الفلوس.... وبالذات الفلوس الضخمة.

ونتذكر قبل سنوات قليلة اقتحام شركات محلية لشاشات التلفزيون المصرى ببرامج خاصة فى شهر رمضان أساس جوائزها الفلوس... وبآلاف... وبالكاميرات تعرض يوميا مشهد "سعداء الحظ" وهم يتناولون من مندوب الشركة المختصة شنطة الفلوس. وقتها أصبحت تليفونات القاهرة

والأقاليم تصاب بالشلل لساعتين أو ثلاث يوميا.. التي هي الفترة المحددة للاتصال بالتلفزيون تليفونيا.. لعل وعسى.. أكثر من ذلك.. لاحظنا مؤخرا اقتحام برنامج مسابقات لبناني لشاشات التلفزيون المصري بإغراء غير مسبوق للمشاهد المصري هو أن يكسب المليون. فإذا لم يكن هذا نصف الطريق إلى القمار... فماذا يكون؟ وإذا كان الطريق إلى الثروة يمثل هذا الحظ العشوائي.. ومثل تلك السهولة... فلماذا يأخذ الناس حياتهم بجدية؟ التسلية واردة.. ومرغوبة.... ولازمة بين وقت وآخر. ولكن جر الرجل إلى القمار وتنويعاته شيء مختلف. إنه استبدال بالحياة الحقيقية أوهام تهيل. أوهام تأخذ العقل وتشغط الفلوس ، أوهام أولها فلوس سهلة. طيب.... وآخرتها؟



التعليم .. ضد التيار !



حينما فاجأني الطبيب ذات مساء بأن إحدى الكليتين في جسمي معطلة بالكامل ، ومنذ سنوات طويلة سابقة، نحى جانبا أوراق التحاليل والفحوصات ثم بدأ يشرح لى كصديق .. معنى ان يعيش المرء بكلية واحدة. لكن الطبيب الصديق فوجيء بأن سؤالى الأساسى هو: هل يعنى هذا أننى أعيش منذ عشرين سنة على الأقل بكلية واحدة ؟ رد الطبيب بالإيجاب. ولحظتها فوجيء بأننى انطلقت فى نوبة حادة من الضحك.. بعد ان صدمتنى تلك المفارقة الكبرى. مفارقة ان أجيء إلى الطبيب لشكوى محددة.. فإذا المصادفة البحتة تكشف لى عن شىء آخر مختلف تماما.. وبطريقة عابرة.

لقد تنفس الطبيب الصديق الصعداء قائلا لى: الحمد لله انك تأخذ الأمر ببساطة.. فقد كنت أحمل هم الكلمات التى أشرح لك بها الموقف. وعلى أى حال فإن هذه هى الحكمة الإلهية الكبرى. حكمة أنه بالنسبة لوظائف الجسم الأساسية أعطانا الله بدل العضو الواحد عضوين. هناك رئتان بدل الرئة الواحدة. وعينان بدل العين الواحدة. وأذنان وقدمان ويدان بدل الأذن والقدم واليد الواحدة.. الخ.

لكن محنتى اليوم شىء مختلف. محنتى اليوم فشلت تماما، وطوال شهور. فى التعامل معها ببساطة.. او التغلب عليها بالسخرية. محنتى اليوم هى المدرسة التى تعلمت فيها. مدرسة كآلاف المدارس المنتشرة فى بر مصر. لكنها بالنسبة لى مسألة مختلفة تماما. فى مصر انهيار عام فى العملية التعليمية نلاحظه سنة بعد أخرى ونقرأ عنه فى الصحف ونلمس نتائجه ونراه بعيوننا. هناك هبوط عام فى مستوى التعليم، وعلاقة غير صحية بين الطالب وأستاذه، وعنف غير مسبوق بين الطلبة أنفسهم، ومحنة مستمرة داخل كل أسرة اسمها: الدروس الخصوصية.

مع ذلك يظل المرء متابعاً لكل هذا.. باقتناع داخلى أكيد بأن كل هذا اذا حدث فى كل مدارس مصر.. فلن يحدث أبداً فى المدرسة التى تعلمت فيها. ليس لأننى شخصيا على رأسى ريشة. لكن لأننى اعتقدت دائما بأن مدرستى بالذات على رأسها ريشة. مدرسة ثانوية قضيت فيها ثلاث سنوات من عمرى وأكاد أحفظ تضاريسها وترتيب فصولها ومساحات أبنيتها عن ظهر قلب. أتذكر

وجوه مدرسيها واحدا بعد الآخر وملامح اثنين من النظار تعاقبا علينا وشجاراتنا الصبانية كطلبة خارج فصولها بسبب مسائل كان يهيا لنا في حينها أنها تحدد مصير العالم.

أتذكر مدرس اللغة الفرنسية - مسيو جورج - الذي جعلني أعشق اللغة الفرنسية من بساطة عشقه هو لها. أتذكر الأستاذ يوسف مدرس التاريخ الذي كان يشرح لنا مبادئ الثورة الفرنسية وشخصيات نابليون بونابرت وجنرالاته كما لو كان يحكي عن أصدقاء له يعرفهم شخصا. أتذكر الأستاذ كساب مدرس اللغة العربية الذي كان يشرح لنا بغرام وهيام فكرة ان اللغة هي التذوق والوضوح والسلاسة والموسيقى.. وهي التعامل مع الألفاظ بدقة. وكان يكرر لنا أن المقرر الدراسي موجود معنا في الكتاب لكن مهمته الأولى كمدرس هي أن يجعلنا أولا نعيش اللغة ونتذوقها لأن هذا لو حدث ستصبح اللغة بعد ذلك تحت تصرفنا بدل ان نكون نحن تحت تصرفها.

أتذكر الكتب المدرسية التي كانت تصل إلى المدرسة قبيل بدء السنة الدراسية بأسبوع أو أسبوعين لكي تجدنا في انتظارها على أحر من الجمر. وبمجرد ان يتسلم كل منا كتبه المدرسية كنا نتسابق على شراء أفرخ كاملة من ورق التجليد - أزرق اللون أحيانا وشفاف غالبا - حتى لا تبلى الكتب في أيدينا بعد ذلك من كثرة الاستعمال. بل إنني كنت على وجه الخصوص حريصا على أن أخطط بالقلم الرصاص والمسطرة في صفحات كل كتاب مدونا على الهوامش ما يساعدني بعدها على التذكر والترخيص، حريصا في معظم الأحيان على أن يظل الكتاب بين يدي محتفظا برشايقته ونظافته. وبعد كل سنوات العمر لا أزال احتفظ ببعض تلك الكتب كما هي بالضبط بأوراق تغليفها، كما لو ان تلك الكتب هي تحويشة العمر، بل هي العمر، الذي يضيف إليه الزمن ولا يخصم منه. أتذكر ملاعب المدرسة ومنشآتها. ملاعب كرة السلة والكرة الطائرة والهوكي وتنس الطاولة والمصارعة. أما كرة القدم فقد كان لها ملعب آخر في المنصورة تشترك فيه المدارس الثانوية التي لا تتسع مساحات كل منها لوجود ملعبها الخاص بها. أتذكر مسرح المدرسة الذي كنا نقدم فيه مسرحية واحدة على الأقل في السنة تتنافس فيها مع المدارس الأخرى. أتذكر المطبخ الذي كنا نتناول فيه الوجبة الساخنة يوميا. وأتذكر غرفة الموسيقى والبيانو يتصدرها. وأتذكر المكتبة التي كنا نمارس فيها القراءة الحرة في الشعر والقصة والتاريخ والأدب والسياسة.. باللغة العربية دائما وبالانجليزية غالبا وبالفرنسية أحيانا. أتذكر صحيفة الحائط التي كنت أشرف على تحريرها مع زملاء آخرين وحصلنا بها على جوائز لدرستنا. أتذكر مكتب ناظر المدرسة الذي كنا ندخل إليه في حالتين فقط: حالة التوبيخ قبل استدعاء ولي الأمر.. أو حالة التهنة حينما تتفوق المدرسة على مدارس أخرى. وإلى جوار المكتب منضدة مستطيلة تزامت عليها كؤوس وجوائز سابقة حصلت عليها المدرسة في تنافسها مع مدارس أخرى بالمحافظة او القطر المصري.. بينما عم سيد الفراش مكلف من الناظر بأن مهمته الأولى كل صباح هي تنظيف تلك الكؤوس لكي تظل براقا ولا معة.

أتذكر رحلات المدرسة، سواء فى أجازة نصف السنة أو فى الأجازة الصيفية. رحلات يصحبنا فيها مشرف واحد فى كل مرة رغم شقاوتنا التى كانت فى حينها تجعلنا نبدو بالنسبة له كما لو كنا غفارىت مصورة. فى إحدى تلك الرحلات ذهبنا إلى مصانع المحلة الكبرى للغزل والنسيج. وفى الرحلة ذهاباً وإياباً كان المشرف يشرح لنا ببساطة قيمة تلك المصانع ومغزاها. فى سنوات الاستعمار كان الانجليز يحكمون علينا بالاكْتفاء من القطن بزراعته حتى يأخذوه إلى بلادهم فيحولونه إلى منسوجات وملابس يصدرونها إلينا بأضعاف الثمن. أما بمصانع مثل هذه التى نراها فى المحلة الكبرى فقد أصبحنا نحن الذين ننتج ملابسنا.. بل ونصدر أقمشتنا إلى الآخرين.

وفى المصانع نفسها بالمحلة الكبرى فاجأتنا المساحات الضخمة لعنابر الغزل والنسيج، والتخطيط البديع للمساحات الفضاء الخضراء والشوارع والحدائق والنظافة الكاملة لمطابخ العمال التى تقدم لكل وردية وجباتها الساخنة من اللحم أو الدجاج أو الأسماك بأسعار رمزية تماماً. والعمال أنفسهم يجلسون إلى جوار رؤسائهم من المهندسين على نفس الموائد المستطيلة بعد أن يكون كل منهم قد حمل بين يديه طاولته الخاصة من الصلب اللامع المقسم إلى مستطيلات ومربعات تستوعب مفردات الوجبة الكاملة. أتذكر أيضاً تلك الرحلة الكبرى التى لم تتم. رحلة ظللنا نحلم بها منذ السنة الأولى فى هذه المدرسة الثانوية. رحلة إلى أسوان لزيارة خزان أسوان ويقوم بها فقط طلبة السنة الثالثة.

لكن على حظنا توقفت رحلة أسوان بعد أن بدأت مصر فى بناء السد العالى. ونظر المدرسة يعزينا من خلال الميكروفون فى طابور الصباح بأن البلد كله أصبح معبأ لبناء السد العالى رغم أنف دول كبرى وصغرى حاربتنا لكى نظل أسرى لفيضان النيل بدل أن نصبح سادة لمياهه.

وفى حالة مدينتنا على وجه الخصوص لم يكن الناظر محتاجاً إلى مزيد من الشرح. فقد رأينا بأعيننا كيف أن فيضان النيل فى سنة سابقة أشاع فى البلد كله حالة من الطوارئ لأن مياه الفيضان خرجت عن نطاق السيطرة وأغرقت نصف مباني مدرستنا الإعدادية فتأخر بدء السنة الدراسية بها إلى حين ميسرة. وكنا نذهب بين يوم وآخر لنتطلع إلى مدرستنا الواقعة على نهر النيل مباشرة.. وقد غرقت نصف مبانيها فى المياه.. ونحن نكاد نبكى لأن تلاميذ آخرين فى مدارس أخرى انتظموا فى دراستهم لبعد مدارسهم عن نهر النيل.. بينما مدرستنا نحن على وجه الخصوص عاجزة عن استقبالنا إلى أن يلطف الله بالبلاد والعباد وتنحسر مياه الفيضان.

أتذكر إذاعتنا المدرسية التى كنا نديرها كلجنة منتخبة من الطلبة أنفسهم. وأتذكر على وجه الخصوص حرصنا على إذاعة «اسطوانة» أغنية «حكاية شعب» لعبد الحليم حافظ وهى تبدأ بغناء المجموعة: قلنا حانبنى وادى احنا بتينا السد العالى. أغنية لعبد الحليم من الحان كمال الطويل. وقد عشقتها مبكراً بغير أن أدرك أن مشوار العمر سيجمعنى فيما بعد بعبد الحليم وكمال الطويل فى صداقة عميقة.

أتذكر أيضا أن هناك كلمات محددة كانت مشطوبة بالكامل من قاموسنا. هناك مثلا الدروس الخصوصية وهي بدعة شاذة تماما لم يكن لها وجود بالمرّة في حياتنا. لا في حياتنا كصبية صغار ولا في حياتهم كمدرسين كبار. ولم يحدث في حالة واحدة طوال ثلاث سنوات ان احتاج تلميذ واحد أعرفه إلى دروس خصوصية.. ولا حدث لمرة واحدة أيضا أن احتاج مدرس واحد إلى إعطاء دروس خصوصية.

هناك أيضا تعبير «مدرسة نموذجية». لم تكن مدرستنا نموذجية فالتعبير نفسه لم يكن واردا. المدرسة هي المدرسة. أما أنها كذلك أو ليست كذلك. مدرستنا كانت كذلك، هي مدرسة حكومية أقيمت حديثا في مدينة «طلخا» والتعليم فيها مجاني بالكامل. وإذا لم تكن «مدرسة طلخا الثانوية» هذه نموذجية فلا بد أنها أقرب ما يمكن إلى النموذجية. ربما لم ندرك ذلك في حينها وإنما أدركناه فيما بعد.. وبعد تطورات فادحة في العملية التعليمية برمتها.

أقول إنها مدرسة حكومية لأن القاعدة العامة في حينها هي أن التعليم كله حكومي. هناك مدارس قليلة خاصة وأهلية وبمصرفات. لكن الذين كانوا يلتحقون بها هم فقط الذين كانت ترفضهم المدارس الحكومية لسبب يتعلق بالفشل الدراسي أو بسوء السير والسلوك. في مدينة طلخا كانت توجد مدرسة واحدة من هذا النوع اسمها «مدرسة العدوى» كان أهلنا ينظرون لتلاميذها كما لو أنهم وباء بشري يجب علينا الابتعاد عنه.

والفارق بين المنصورة وطلخا هو نهر النيل، تماما كالقاهرة والجيزة، وأحد زملائي في مدرسة طلخا الثانوية، وأصدقائي أيضا، اسمه طلعت شعراوى والده مقاول من كبار الأثرياء. لكن الأهم من ذلك هو أن أسرة طلعت شعراوى تسكن في المنصورة، وبالضبط قبالة مدرسة المنصورة الثانوية ذاتها. مع ذلك، وبرغم المشوار اليومي الطويل نهابا وإيابا. كان والد طلعت قد اختار له مدرسة طلخا الثانوية بناء على حسن سمعتها الدراسية الشائعة في المنصورة وطلخا خلال سنتين من وجودها. أتذكر.. وأتذكر.. وأتذكر.

لكننى اليوم أتذكر هذا الذى مضى بغصة فى حلقومى ووجع فى قلبى. فذات يوم، وعلى حين غرة، قرأت فى جريدة «المساء» خبرا واردا إليها من مراسلها الصحفى فى المنصورة - نادر عمارة - بالعناوين التالية: «استبعاد مدير مدرسة الزيات الثانوية - الفصل نهائيا لـ ١٣١ طالبا وإبلاغ الكونترول باسمائهم».

يا إلهى هذه هي مدرستى أنا. هذه مدرسة طلخا الثانوية التى قضيت فيها ثلاث سنوات من أهم سنوات عمرى. لقد غيروا اسمها قبل سنوات قليلة لتصبح «مدرسة أحمد حسن الزيات الثانوية» بحجة الرغبة فى تكريم اسم الأديب الكبير الراحل الذى كان من أبناء مركز طلخا. فى حينها لم

تسرق لى الفكرة بالمرّة لان التكريم الحقيقى لا يكون باطلاق اسم الزيات على مدرسة قائمة وانما بانشاء مدرسة جديدة كاملة، وأحدث. تحمل منذ يومها الأول اسم الأديب الكبير.

إنما لأن المسألة استسهال ومجرد تكريم إدارى شكلى، فقد اكتفوا بتغيير اسم المدرسة من غير حتى أن يفكروا فى إعطائها المضمون الاستثنائى المتميز الذى يتناسب مع القيمة الأدبية الكبرى لاسم أحمد حسن الزيات.

أما الأسوأ على الإطلاق فهو فاجعتى الأساسية. فبدلاً من أن تصبح مدرستى أفضل وأحدث مما كانت عليه فى أيامى وهو التطور الطبيعى فقد أصبحت الآن أسوأ. وبدلاً من أن يحافظ الجيل الحكومى الحالى على تفوق تلك المدرسة - وهذا أضعف الإيمان - فإنه يحولها إلى أى شيء آخر يختلف تماماً عن معنى كلمة «مدرسة». وبدلاً من أن أقرأ عن مدرستى النموذجية تلك فى الصفحة الأولى اذا بى أقرأ عنها فى صفحة الحوادث فى هذه المرة. ونتيجة لزيارة تفتيشية مفاجئة قام بها اللواء محمد مصطفى الشناوى محافظ الدقهلية وقتها، اذا بالزيارة تكشف عن فساد كامل فى إدارة المدرسة وفساد أكبر فى سلوك الطلبة ومدرسين غائبين تماماً تفرغاً للدروس الخصوصية وطلبة لم يعد لأحد سلطان عليهم وأصبحوا يتعاملون مع بعضهم البعض بالمطاوى والسكاكين ونفوذ الآباء لدى المدرسين.

يا إلهى من هذه الصدمة المروعة. أعرف تماماً ان العملية التعليمية فى مصر كلها تنهار بالخطوة السريعة فى السنوات الأخيرة، وأعرف وأقرأ يومياً عن الفساد والعنف والانحراف فى مدارس عديدة.. لكننى لم أتخيل يوماً ان يصل شيء من هذا بالمرّة إلى مدرستى التى عرفتها.

بالضبط كما يفاجأ المرء بأن المدينة زاد فيها عدد اللصوص.. لكن المرء يظل على ثقة من أن شارعنا نحن الذى تربينا فيه لا يمكن أن يكون فيه لصوص.. وبيتنا نحن لا يمكن أن يدخله فاسدون.

المقارنة الأكبر هى أنه بدل أن يتقوى الجزء الأضعف فى مجتمعنا بالجزء الأفضل فيصبح مثله، إذا بالجزء الأفضل ينهار فيتراجع إلى مستوى الجزء الأضعف. وبدلاً من يحافظ جيل على انجازات جيل سابق ويضيف إليها.. اذا به يفرط فى تلك الانجازات ويخضع منها.

المصيبة الواضحة الآن هى أن هذا هو ما حدث. وبرغم ان الخبر المنشور الذى قرأته مضت عليه شهور.. إلا أنني كنت أتطلع نفسياً إلى خبر آخر يصححه. ليس بمعنى ان يكون الخبر الأول كاذباً.. ولكن بمعنى أن يتحول الخبر الصدمة إلى مقدمة لتصحيح ما جرى ورد الاعتبار إلى هذه المدرسة تحديداً. هناك محافظ شجاع كشف الفساد وضبطه متلبساً. لكن الناقص هو محافظ آخر شجاع يضع علاجاً سريعاً لعلاج ما جرى ويشرف بنفسه على تصحيح ما جرى.

لا أقول هذا لان مدرستى على رأسها ريشة (مع انها كانت كذلك).

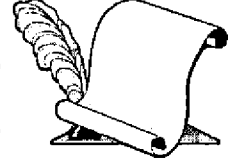
لكننى أقوله فقط لان المدرسة كانت نموذجية فعليا وتعليمها كان الأفضل واقعيا ونتائجها كانت السابقة فعلا.

وشىء آخر. قبل أربع أو خمس سنوات قرأت في الصحف ان «مدرسة الملك الكامل» الثانوية بالنصورة أصبحت من المدارس الأفضل على مستوى الجمهورية كلها من خلال النتائج التى حققها طلبتها فى الثانوية العامة. يومها قلت فى حديث اذاعى لمحطة «صوت العرب» اننى اعتبر ان هذا الخبر من أهم الانجازات المصرية فى السنة كلها. والسبب عندى كان بسيطاً للغاية. فمنذ صبانا كانت سمعة تلك المدرسة تحديداً هى أنها الأسوأ والأكثر تسبياً فى نظامها وتأخرها فى نتائجها.. الآن يتبين انه بعد ان تسلم ادارتها ناظر جديد واختار بنفسه مدرسين جددا وتابع الجميع نظاما جديدا للدراسة على مدار الساعة.. فقد تحققت للمدرسة تلك النتائج المدهشة خلال سنة واحدة. والأكثر أهمية ان طلبة المدرسة المتفوقين على مستوى الجمهورية شهدوا بأنهم وصلوا إلى ذلك دون الحاجة مطلقا إلى أى دروس خصوصية لأن المدرسة ذاتها تحولت إلى خلية نحل تعليمية حقيقية ينضبط فيها المدرسون والطلبة معا فى سباق تربوى وتعليمى نذر نفسه لمهمة واحدة: رد الاعتبار إلى العملية التعليمية من الألف إلى الياء.

يومها خرجت من خلال اذاعة «صوت العرب» أسجل تحية علنية إلى ناظر تلك المدرسة وكل طاقمه من المدرسين.. مستخلصا النتيجة الجوهرية التى تعيننى أساسا: ان تغيير الأسوأ لكى يصبح الأفضل ممكن فعلا. والنجاح فى حالة واحدة هنا يصبح بحد ذاته معديا لكل المحيط القريب والبعيد من المدارس.. ومشيعا للأمل فى أن يصبح بلدنا أفضل حالا مما هو عليه.

الآن مضت شهور بغير ان أقرأ الخبر الذى طال انتظارى له. خبر عودة مدرستى - مدرسة طلخا الثانوية أو أحمد حسن الزيات - إلى ما كانت عليه فى أيام دراستى بها.. بل وأفضل مما كانت عليه. هناك محافظ جديد للدقهلية هو احمد سعيد صوان لا أعرفه شخصيا لكننى أعرف فقط انه لو أشرف بنفسه - وضمن مسئولياته الأخرى - على رد الاعتبار إلى تلك المدرسة.. فكانما يرد الاعتبار إلى كل العملية التعليمية فى محافظته. والنجاح هنا لا يقاس بالأسهل ولكن بالأصعب فلنترك جانبا حسين بهاء الدين وزير التربية والتعليم وتصريحاته التليفزيونية. دعونا نبدأ من الموقع العملى والحقيقى للتحدى. لو وضع كل محافظ ضمن جدول أعماله اليومى بمحافظته إخراج عشر مدارس فقط كل سنة من دائرة السقوط إلى دائرة النهضة.. فسيصبح من حقنا كشعب ان نأمل فى مستقبل أفضل. ربما يبدو ما أقوله هنا سباحة ضد التيار. لأن مبررات الفشل قائمة وأعداء الاستسلام للواقع متراكمة. لكن لا بأس. يستطيع المرء ان يفقد إحدى كليتيه وتستمر به الحياة. لكن المجتمع لا يستطيع ان يفرط فى مدارسهِ ويدعى فى نفس الوقت انه قادر على النهضة. من المدرسة تبدأ النهضة.

حريف .. عابر للقارات !



هى رسالة فى باب " بريد الأهرام ". السطور قليلة والصورة مفاجئة لكن الفجیعة هنا بدت جزءا من مأساة أكبر. الجزء المسكوت عنه ؟ ربما. الجزء الذى يمس معانى وقضايا أكبر؟ يجوز. الجزء الذى يرد إلى وعاظ قضايا حقوق الإنسان سيقاً اعتادوا سابقا على استخدامه ضدنا؟ محتمل. لكن مهما اختلفت التفسيرات والإجابات فإن فى الرسالة بشراً حقيقيين من لحم ودم حسنى النية إلى أقصى درجة منبهرين بالنموذج الأمريكى فى الحياة ولو لسنوات محدودة فى سن التشكيل، لقد ذهبوا إلى هناك لأن "هناك" هذه بدت من بعيد فيلما آخر من أفلام هوليوود.. حيث الحياة سهلة والعيش رغد والأحلام عريضة.. لكى يكتشفوا فى لحظة صدمة أن الحياة كما يمكن أن تكون سهلة، يمكن أيضا أن تكون مرعبة.

هى رسالة فى باب " بريد الأهرام" ربما يراها البعض نتيجة فرعية لصدمة أكبر، هى صدمة ما جرى فى الولايات المتحدة يوم الثلاثاء ١١ سبتمبر ٢٠٠١ حينما أفاق الأمريكيون ومعهم العالم كله على عمل إرهابى غير مسبوق بالمرة. ثلاث طائرات ركاب مدنية (الرابعة سقطت أو أسقطت فى بنسلفانيا) استخدمها خاطفوها كصواريخ طائرة.. فدمرت اثنتان منها أعلى برجين فى نيويورك ودمرت الثالثة أحد الأجنحة الخمسة لبنى وزارة الدفاع الأمريكية.(البنتاجون) فى العاصمة واشنطن. وخلال أقل من ساعة كانت الانهيارات غير المسبوقة قد وقعت مخلقة وراءها نحو ثلاثة آلاف قتيل، بينما الطائرات بركابها أصبحت جزءا من الأشلاء والركام: دافنة معها سرها الكبير. لم تكن أهمية ما جرى هى فقط فى أنه عمل إرهابى غير مسبوق، ولكن أولا فى الكيفية التى جرى بها، والأماكن التى وقع فيها: نيويورك العاصمة المالية.. وواشنطن العاصمة السياسية للولايات المتحدة - القوة العظمى المنفردة عالمياً بعرض القوة منذ عشر سنوات على الأقل. دولة اعتادت تاريخياً على أن ترى نفسها محصنة ضد عدوان الآخرين.. ليس فقط بحكم القوة العسكرية والتفوق التكنولوجى.. ولكن أيضا بحكم الطبيعة. فى شرقها محيط أطلنطى يفصلها عن أوروبا.. وفى غربها محيط باسفيكى يفصلها عن آسيا. وفى شمالها حدود ممتدة مع كندا هى الأكثر هدوءاً بين كل

الدول. وفي جنوبها حدود مع المكسيك حيث المشكلة الوحيدة هي منع التسلل غير القانوني للعمالة المكسيكية الرخيصة. فجأة، وسط هذا الاطار التاريخي من الحصانة والمناعة، أفاق الأمريكيون في صباح الثلاثاء ١١ سبتمبر على هول ما جرى. ليس فقط أن عملاً إرهابياً بهذه الضخامة والفاعلية جرى في مدنها.. ولكن أيضاً لأن الفاعل بدا مجهولاً فلم يترك خلفه ذرة من دليل تحدد هويته أو ملامحه أو حتى أهدافه. في الساعات القليلة الأولى بدأ يتسلل في الإعلام الأمريكي (خصوصاً التلفزيوني منه .. وهو الأكثر انتشاراً وتأثيراً) أخبار كما الإشاعات.. حيث لا مصدر تستند إليه ولا وسيلة متاحة للمراجعة. أخبار أو إشاعات بأن هذا الإرهاب المفاجيء غير المسبوق لابد أن يكون فلسطينياً أو عربياً أو إسلامياً أو مزيجاً من هذا كله .. معاً.

لم يكن هذا غريباً في حد ذاته . ففي سنة ١٩٩٥ ارتاع الأمريكيون أيضاً من هول تفجير ضخم جرى في المبنى الحكومي الفيدرالي بمدينة أوكلاهوما أدى إلى أكوام من القتلى والجرحى . يومها أيضاً لم تكن التحقيقات الحكومية قد بدأت - بعد - إلا أنه وفي اليوم التالي خرجت الصحيفة الكبرى للجالية اليهودية الصهيونية في الولايات المتحدة بعنوان مناشيت بعرض الصفحة الأولى عبارة عن كلمة واحد هي : عملوها.

أما من الذين عملوها .. فشرحه في السطر التالي : " الإرهاب العربي الاسلامي وراء تفجير أوكلاهوما " وخلال ساعات قليلة كانت مشاعر الغضب الشعبي قد ركزت هدفها على كل من يبدو عليه أنه عربي الانتماء أو مسلم الديانة . لقد تتابعت الاعتداءات ضد أقرب المساجد الإسلامية أو الجيران من أصل عربي .. وأقرب الملامح التي يبدو منها عروية أو إسلام.

لكن المفاجأة الكبرى وقعت حينما كشفت التحقيقات ، وبالمصادفة البحتة، عن أن مخطط ذلك التفجير غير المسبوق هو مواطن أمريكي اسمه " تيموثي ماكفى " - مجند سابق في الجيش الأمريكي المحارب في الخليج سنة ١٩٩١ ، بل وملفه العسكري مزدحم بشهادات التقدير ، وأن هذا الأمريكي القح لديه أسبابه الخاصة (مع آخرين) لتفريغ شحنته المعبأة من الغضب ضد ما اعتبره رمزاً حكومياً فيدرالياً في أوكلاهوما .. وبالشكل الارهابي الذي خطط له وحكم عليه بالإعدام بسببه فيما بعد.

انن خرج العرب انتماء والمسلمون ديانة براءة من إرهاب أوكلاهوما .. وإنما بغير أن يعتذر لهم أحد عن الإهانات والتحرشات التي جرت ضدهم كمواطنين يحملون الجنسية الأمريكية.

وفي ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١ يجيء إرهاب نيويورك وواشنطن بمستوى أكبر وأضخم . وفي هذه المرة عاد نفس السيناريو وإن يكن على نطاق أخطر . ربما لأن ما جرى في هذه المرة جاء كالصدمة الصاعقة. في الساعات الأولى لما جرى في ١١ سبتمبر لم تكن الحكومة الأمريكية نفسها قد استوعبت - بعد - طبيعة وحجم وأسباب ما جرى. مع ذلك بدأت تتسلل إلى الاعلام أخبار

كما الإشاعات. أخبار من نوع: جرى اكتشاف سيارة بيضاء اللون في موقف السيارات القريب من مطار بوسطون وبداخلها كتاب باللغة العربية عن قواعد قيادة الطائرات "بوينج ٧٥٧" - التي استخدمت في تدمير برجى نيويورك ومبنى البنتاجون في واشنطن- وعلى الكتاب أسماء لخمسـة أشخاص من أصل عربي.

كانت صياغة الخبر على هذا النحو ضد أبسط القواعد المهنية، فهو منسوب إلى مصدر مجهول، ولا يحدد من الذى قام " باكتشاف " السيارة.. ولا ما هى الأسماء الخمسة من أصل عربي. والأهم من ذلك.. إن قيادة طائرة بوينج ٧٥٧ لا تتم بمجرد قراءة كتاب عنها قبل ريع ساعة من اختطافها. مع ذلك، وفى حالة الذهول العام عند الشعب الأمريكى من هول ما جرى فى نيويورك وواشنطن، أصبح هذا التضليل هو نقطة البداية فى توجيه الغضب العام نحو اتجاه محدد: العروبة انتماء والإسلام ديانة.

الأحداث التالية بعد ذلك معروفة. لقد تدحرج الاتهام بعد ساعة إلى شبكة يتوهدا من بعيد شخص اسمه أسامة بن لادن ومنظمة حاكمة فى بلد اسمه أفغانستان، ثم قائمة اتهام رسمية تحدد تسعة عشر شخصاً بالاسم على أنهم الذين اختطفوا الطائرات وماتوا معها ومع ركابها. الأسماء كلها لعرب ومسلمين. وفيما بعد تبين أن تلك القائمة الحكومية الرسمية الأمريكية لمن قاموا بتفجيرات ١١ سبتمبر فيها من توفاه الله قبل سنة، ومن أبلغ قبل سنتين عن سرقة جواز سفره، ومن لم يغادر السعودية أصلاً ومن يقيم فى تونس ولم يغادرها منذ تسعة أشهر... الخ. إنما بقدرة قادر.. هم أصبحوا القادة الإرهابيين لطائرات ١١ سبتمبر.

فى الشعب الأمريكى (٢٧٠ مليوناً) يوجد سبعة ملايين مسلمو الديانة. من هؤلاء نحو مليون من أصل عربي. كلهم حصلوا على الجنسية الأمريكية بالشروط الأمريكية. كلهم مواطنون صالحون اختاروا الحياة والتصرف والتفكير كأمركيين. جزء من النسيج الوطنى الأمريكى مثل كل الأقليات الأخرى التى يتشكل منها المجتمع الأمريكى. يسددون الضرائب ويعملون بالشركات وبعضهم حتى يتطوع لخدمة القوات المسلحة الأمريكية وبين وقت وآخر.. ربما يشاركون فى الانتخابات.

فجأة وجد هؤلاء أنهم أصبحوا مشتبهين فيهم، وبشكل جماعى، عن جريمة لا تعرف الحكومة الأمريكية - بعد - كل أبعادها. لقد أصبحوا متهمين والغضب الجماهيرى يحاصرهم من كل جانب والتحرش الأعمى يطاردهم على مدار الساعة. وخلال أسبوع واحد سجلت الشرطة الأمريكية بلاغات مقدمة إليها بستمائة حالة تحرش عدوانى من هذا النوع ضد عرب ومسلمين أو من يبدو عليهم كذلك. فى مدينة لوس أنجلوس مثلاً قام مجهولون بالإعتداء على مواطن أمريكى من أصل مصرى فأرهبوه قتيلاً. فيما بعد تبين أنه قبضى مصرى هاجر إلى أمريكا قبل عشرين سنة قضاها بكل همة فى إقامة

محلّه الخاص للبقالة أقبل عليه فيه كل الزبائن تناغماً مع حسن خلقه ومعاملته وكان جيرانه في المسكن والعمل أول من صعقهم خبر مقتله. مواطن آخر جرى العدوان عليه غدرًا لمجرد أن ملامحه تبدو شرق أوسطية، فإذا به هندي الجنسية وإن يكن طويل الذن، إنه من طائفة السيخ. طلبة عديدون مبعوثون من بلادهم أو يدرسون في الجامعات على حسابهم الخاص وجدوا أنفسهم فجأة محل تحرشات عدوانية في الشارع. قنابل حارقة يجري إلقاؤها على مساجد في مدن أمريكية مختلفة. تهديدات بالقتل تتكرر تليفونياً من غرباء. السفارة السعودية تنصح رعاياها المبعوثين (نحو سبعة آلاف) بالأسير في الشارع فرادى. لو ابتعدوا عن الشارع يكون أفضل. لو بقوا في منازلهم يكون أفضل وأفضل. أما لو عادوا إلى وطنهم فهذا أفضل وأفضل. السفارة الكويتية أبلغت مواطنيها المبعوثين للدراسة بتشجيع أمريكي باستعدادها لتحمل ثمن تذاكر العودة لمن يخشون الخطر على حياتهم. طبيب سعودي أوفدته إلى تكساس شركة أرامكو البترولية للدراسة.. فوجيء بالشرطة تقتحم منزله وتسحبه بملابس النوم من بين زوجته وأولاده للاعتقال دون إبداء الأسباب ويمنعه من الاتصال بمحام إلا عن طريق الشرطة وبعد مرور عشرة أيام كاملة من الاعتقال... الخ.

ولأننا في عصر العولمة فقد أصبح الإعلام التليفزيوني خصوصاً - يجعل الإشاعات في مدينة أمريكية صغيرة تتحول في لمح البصر إلى أخبار مزاعة صوتاً وصورة باتساع العالم. عالم المحطات الأمريكية المصورة. فقد أصبح العرب انتماء والمسلمون ديانة أو مظهراً داخل حريق من الكراهية يجري الترويج له عالمياً كما هي الحال في أمريكا. إنها التحرشات المتكررة تنتشر باتساع قارات من أوروبا إلى استراليا إلى أمريكا الجنوبية.

هذا يعيدني إلى باب "بريد الأهرام" وتلك الرسالة المحددة التي تم نشرها ذات صباح فجاءت على الوجيعة. الرسالة تقول فيها السيدة شويكار خليفة رئيس قناة الدراما : "... لم تفعل ابنة أخي رغبة فريد خليفة شيئاً تستحق عليه من أجله هذا الضرب المبرح الذي أدى إلى إصابتها بارتجاج في المخ وكسر في الأنف.. فكل ما فعلته هو أنها جلست مع صديقة مصرية لها تتحدثان في مطعم قريب من جامعة وندسور بكندا، وهي الجامعة التي تدرس فيها.. وأحست ابنة أخي وصديقتها بتحركات غريبة في الطاولة القريبة منهما والتي يجلس حولها ست من البنات الأمريكيات. وفجأة وبدون سابق إنذار هجمت الأمريكيات الست على رغبة وصديقتها وانهلن عليهما ضرباً لمجرد أنهما عربيتان تتحدثان اللغة العربية. والأغرب من هذا هو ذلك التواطؤ المشين من جانب رجال الشرطة الكندية الذين أفرجوا بسرعة عن الأمريكيات وأتاحوا لهن الفرصة للهروب والعودة إلى أمريكا عبر الحدود القريبة بينما تحفظ رجال الشرطة على المصيريتين، وعلى طالب مصري آخر حاول أن يتدخل لفض الاشتباك. وإحقاقاً للحق فقد تدخل أحد الطلاب الكنديين وشهد لصالح رغبة وصديقتها فتمت ملاحقة عصاة البنات الأمريكيات وقبض عليهن قبل أن يدخلن

الحدود الأمريكية وتبين أنهم مسلحات بمسدسات أيضاً. والحمد لله أنهم لم يستخدموا هذه المسدسات في عدوانهم على رغبة وصديقتها. والسؤال هو: ماذا يمكن أن نقبل حتى نطمئن على بناتنا وأولادنا الدارسين في أمريكا في ظل هذه الهجمة العنصرية الشرسة؟

جاءتني تلك الرسالة المنشورة على الوجيزة.. فطوال أيام قبلها كنت أتلقي مكالمات تليفونية من أصدقاء لي في أمريكا وكندا وأعرفهم من زمن. وفي كل مكالة تتكرر الحكايات عن التحرشات العدائية المفاجئة والحياة التي تحولت إلى جحيم بسبب ذلك التيار الأعمى من الكراهية العشوائية منذ ١١ سبتمبر. قبلها بأيام أيضاً كنت قد قرأت مقالاً لصحفية أمريكية تناشد فيها مواطنيها الأمريكيين بالاحتكام إلى عقولهم وعدم الانزلاق إلى سلوك عنصري كالذي أصبحت هي تلمسه فعلاً في حياتها اليومية. هي أمريكية أبا عن جد ومتزوجة بأمريكي مسلم يبدو أنه من أصل عربي وبتلك الصفة تخاطب مواطنيها متسائلة: كيف نتحول فجأة في عيون جيراننا الذين يعرفوننا منذ سنوات إلى إرهابيين محتملين لمجرد أننا مسلمو الديانة؟ كيف يتحرش الناس في الشوارع بشقيقات زوجي لمجرد أنهم يرتدين الحجاب؟ كيف أقنع طفلي الصغير بأن الغرباء الذين كانوا يبتسمون له حتى ١١ سبتمبر أصبحوا يكشرون في وجهه بعدها؟ أي خلل فادح هذا الذي تفرضه علينا ثقافتنا ويشيعه بيننا إعلامنا؟

أعادني هذا أيضاً إلى خبر نقلته وكالة الأنباء الفرنسية موضوعه كاتب لبناني ماروني اسمه إلياس خوري كان يشارك في ندوة في جنوب شرق فرنسا.. ففوجيء في الثامن من أكتوبر ٢٠٠١ برجال الشرطة الفرنسيين المسلحين يقتحمون عليه غرفته بالفندق لتفتيشها ثم استجوابه لمدة ٤٥ دقيقة باعتباره إرهابياً محتملاً. في النهاية تبين أن موظفة بالفندق سمعته يتكلم في التليفون باللغة العربية ويتلقى رسالة بالفاكس بالعربية فهميء إليها أنه يخطط لعملية إرهابية ومن هنا استدعت له الشرطة التي جاءت على وجه السرعة.

طائرات مدنية في أمريكا يتوجس فيها راكب من جاره ذي الملامح العربية.. وخلال لحظات يأمر قائد الطائرة بإنزال هذا "المشتبه فيه" من الطائرة كشرط لإقلاعها وشرطة المطار تنفذ الطلب بلا مناقشة. طائرات أخرى تعتمد فيها سلطات المطار إعادة التفتيش مرات ومرات لراكب لمجرد أن ملامحه عربية. وفي إحدى الوقائع أمروا راكبا بخلع طاقم أسنانه لأن به جزءاً معدنياً ربما يكون به سلاحاً إرهابياً من نوع جديد. أحداث وأحداث وأحداث حولت حياة الملايين عرب الانتماء أو مسلمي الديانة إلى كابوس. في أمريكا منهم سبعة ملايين. في أوروبا الغربية ١٢ مليوناً. صحيح خرج كبار السياسيين بمستوى جورج بوش مثلاً ينبهون مواطنيهم إلى التفرقة بين الإسلام والإرهاب. وبعضهم تعمد زيارة مراكز إسلامية. مع ذلك استمر التيار الغالب في الشارع يمارس كل الكراهية العمياء التي يغذيها الإعلام. هذا يعني أحد أمرين:

إما أن التصحيحات الرسمية أضعف مما يجب .. أو أن المصالح المحركة لتيار الكراهية في الشارع أقوى مما يجب .

أما المسألة الأكثر خطورة على الإطلاق فهي : لا يوجد حتى الآن دليل واحد تعلنه السلطات الأمريكية ويحدد بالضبط شخصيات أو دوافع أو جنسيات أو مصالح أولئك الذين قاموا بذلك. الإرهاب ثابت بالصوت والصورة . وتلك هي الحقيقة الوحيدة المؤكدة حتى الآن . أما كل ما بعدها فلا يزال، رغم كل هذا الحريق العابر للقارات، مجرد شبهات هائمة ... قد لا نعرف حقيقتها إلا بعد زمن طويل قادم .

وسؤال أخير : هل يعرف أحد منذ سنة ١٩٦٣ وحتى الآن.. من الذي خطط فعلا لاغتيال جون كيندي الرئيس الأمريكي الراحل ؟



حالة استثناء !



جلست أتابع ما يجرى فى جلسة الأمم المتحدة بنيويورك بمشاعر مختلفة تماماً . لقد بدأت الدورة العادية للجمعية العامة للأمم المتحدة لتوها .. لكن فى حال غير الحال وزمن غير الزمن . الآن إجراءات أمنية غير مسبقة .. ليس فقط فى مبنى الأمم المتحدة ذاته .. وإنما فى كل المنطقة المحيطة به والشوارع المؤدية إليه . هناك قواطع أمنية على الأرض وحراسات بوليسية خاصة ببنادق أوتوماتيكية بنظارات معظمة فوق أسطح كل المباني القريبة . وتعديل مسارات المرور وسيارات إسعاف ميدانية للطوارئ وغرفة عمليات تشرف على هذا كله .

فى الأمم المتحدة كما نعرف يوجد مجلس الأمن الذى هو " الحكومة " أو السلطة التنفيذية المفوضة بحماية السلام والأمن الدوليين . وهناك " الجمعية العامة " التى هى بمثابة البرلمان الذى تتساوى فيه الدول الأعضاء فى التزاماتها وحقوقها . هذه الجمعية العامة تعقد دورة سنوية فى أواخر سبتمبر من كل عام . فى العادة يذهب إلى الأمم المتحدة فى تلك المناسبة رؤساء دول وحكومات ، والقليل من وزراء خارجية . ليرأسوا وفود بلادهم . وغالباً ليلقى كل منهم خطاباً طويلاً أو قصيراً يطرح فيه رؤية بلاده للواقع الدولى . فى العادة أيضاً يلقي الرئيس الأمريكى كلمة بلده كما تابعتها جورج بوش الابن مؤخراً .

فى هذه المرة جاءت الدورة العادية للأمم المتحدة بكل ما هو غير عادى . هى أولاً تأخرت عن مواعيدها لظروف أمنية عنوانها ماجرى فى ١١ سبتمبر الماضى . هناك أيضاً المناخ النفسى الذى تعيشه مدينة نيويورك تحديداً من يومها .. لأن ماجرى فى ١١ سبتمبر كان له وقع الصدمة على المواطن الأمريكى العادى .

وفى كل المرات التى كنت أسافر فيها إلى نيويورك لحضور اجتماعات الدورة السنوية للأمم المتحدة أو اجتماعات مجلس الأمن .. كان طبيعياً أن أبدأ يومى الأول باستخراج بطاقة مرور من قسم الإعلام بببنى الأمم المتحدة . لكن عملياً لم يحدث فى أى مرة أن استوقفنى رجال الأمن عند مداخل المبنى طالبين الاطلاع على ذلك التصريح . ليس لأنه غير مهم ولكن ربما بحكم تمرسهم وخبرتهم .

الآن أعتقد جازماً أن هذا أصبح من الماضي . أكثر من ذلك . ربما يستجوبني الأمن في كل مرة على نحو خاص واستفزازي تحسباً من أن ملامحي ، بل وبدءاً من اسمي ، ربما تكشف عن إرهابي متنكر .
فمنذ ١١ سبتمبر (٢٠٠١) وما جرى فيه من استخدام ثلاث طائرات ركاب مدنية كصواريخ لتدمير برجى مركز التجارة الدولي في نيويورك وجزء من مبنى وزارة الدفاع الأمريكية في واشنطن .. والحالة " جيم " في أمريكا . يعنى الحالة .. طواريء . تشريعات . تصدر في لمح البصر وإجراءات استثنائية يتم إتخاذها بقليل من المناقشة والمراجعة وتضييق على حريات الناس بموافقة ممثلهم في البرلمان .. الكونجرس .. وتركيز خاص على الأجانب ، ثم تركيز أكثر وأكثر على كل من هو عربى الانتماء أو مسلم الديانة من بين الأجانب . أما إذا كان عربى الأصل أو مسلم الديانة ما بين ١٨ و ٤٥ سنة عمراً .. فيا داهيه دقى . هو أكيد إرهابى إلى أن يقوم هو بإثبات العكس .. لو استطاع إلى ذلك سبيلاً .

لنأخذ مثلاً هذه الحالة . طالب من دولة الإمارات العربية المتحدة اسمه سيف المبحر تى أراد العودة إلى بلاده بعد أن انتهى من دراسة ماجاء لأجله . لقد أغلق حسابه المصرفى فى أحد بنوك مدينة بوسطن التى يقيم فيها وأنهى عقد إيجار شقته وباقى ارتباطاته استعداداً للسفر فى اليوم التالى . المشكلة هى أن هذا اليوم التالى كان ١١ سبتمبر الذى جرى فيه ما جرى فارتاع الشعب الأمريكى بكامله . فى حينها أوقفت السلطات الأمريكية كل الرحلات الخارجة من أمريكا أو القادمة إليها جواً وبحراً وبراً لكى تبدأ فوراً الحملة الشاملة للتحرى والتحقيق

الطالب المذكور بحثت عنه الشرطة ضمن بحثها عن كل من كانوا ينوون المغادرة فى ١١ سبتمبر ، وخصوصاً عربى الأصل ومسلمى الانتماء . لماذا التركيز على هؤلاء تحديداً .. وبهذا الهوس غير المبرر .. تلك قصة أخرى . فى النهاية اتصلت به الشرطة الأمريكية على تليفونه المحمول طالبة حضوره للرد على بعض استفسارات . لقد وافق بكل سرور . إنما من حسن حظه أنه قام بخطوتين : أولاً . أخطر سفارة بلاده فى واشنطن فنصحته باصطحاب محام على سبيل الاحتياط وهو ما فعله كخطوة ثانية . فى الشرطة قالوا للمحامى : عد من حيث أتيت لأن المذكور من الآن رهن الاعتقال . لماذا ؟ وما هى التهمة ؟ لا تهمة . ولا تفسير . من الشرطة تلاحقت الأسئلة فلا بد من سر خطير دفع المذكور إلى إغلاق حسابه البنكى وإنهاء عقد إيجار شقته والحجز للسفر فى ذلك اليوم تحديداً - ١١ سبتمبر .

لقد فتشوه وكل متعلقاته أينما وضعها استعداداً للسفر وتحروا عنه وعن زملائه وأصدقائه والأماكن التى اعتاد الذهاب إليها طوال الأسابيع السابقة ومراجعة الكمبيوتر الخاص به وكل الرسائل الواردة إليه أو الصادرة منه .. إلخ . إلخ .

بعد كل هذا .. هل أفرجوا عنه ؟ أبداً . المحامى من ناحية والسفارة من ناحية : هل توجد تهمة محددة تبرر الاستمرار فى اعتقاله ؟ أبداً . لا توجد تهمة . مجرد احتياط . لعل وعسى . أسبوع بعد أسبوع . وبعد طلوع الروح : أفرجوا عنه .

المذكور هنا كان محظوظاً برغم تجربته بالغة المرارة هذه . فمنذ ١١ سبتمبر ٢٠٠١ تبين أن السلطات الأمريكية تعتقل - حتى كتابة هذه السطور - نحو ألف ومائتين على هذا النحو .. كلهم عربيو الأصل ومسلمو الديانة . كلهم بغير تهمة محددة تبرر الاستمرار فى اعتقالهم . بل إن السفارات العربية فى واشنطن تحاول منذ ١١ سبتمبر الحصول من السلطات الأمريكية على مجرد أسماء المعتقلين وأماكن اعتقالهم .. بلا جدوى .

فى ظروف عادية كان يمكن لأى اعتقال على هذا النحو أن يثير ضجة واعتراضاً أكبر داخل أمريكا ذاتها .. لأن المواطن الأمريكى كان يعتز دائماً بأنه يعيش فى مجتمع يتمتع فيه بحماية القانون . الآن تبخر هذا . وتبخر أكثر وأكثر بالنسبة للأجانب . كل الأجانب كقاعدة عامة .. وعربيو الانتماء ومسلمو الديانة بصفة خاصة .

وهكذا صدرت التشريعات على وجه السرعة ، التى تعطى للشرطة الأمريكية سلطات لم تحلم بها من قبل . سلطة الاعتقال لمجرد الشبهة . سلطة إستمرار الإعتقال مفتوحاً لأجل غير مسمى . سلطة مراقبة البريد والتليفون والمراسلات الإلكترونية . سلطة تفتيش المنازل دون سند قانونى وبغير علم أصحابها . بل إنهم بدأوا يفكرون فى اعطاء الشرطة سلطة استخدام وسائل «الضغط الجسمانى» على المعتقلين لأول مرة - يعنى التعذيب - مع الاستعانة بخبرة إسرائيل فى هذا الخصوص ووسائلها المتوحشة المعروفة فى تعذيب المعتقلين الفلسطينيين... إلخ .

أكثر من ذلك .. أعطيت للشرطة سلطة الحصول من المدارس والكليات الجامعية أولاً بأول على كل البيانات المتعلقة بكل طالب أجنبى يدرس فيها . من الآن فصاعداً على كل مدرسة ومعهد وكلية وجامعة أن تخطر الشرطة أولاً بأول بأسماء وجنسيات وأماكن إقامة الطلبة الأجانب الذين يدرسون فيها .. وتخطر أيضاً بمن ينتظم فى دراسته أو يتخلف عنها ولأى سبب تخلف . تخطر كذلك بسأى تغيير فى عنوان الإقامة ومصدر التحويلات المالية التى ترد اليه وهل له بريد اليكترونى . والشرطة تراجع تلك البيانات أولاً بأول مع الطالب الأجنبى ، فإذا اختلفت أقواله عن الحقيقة فى أى شىء .. كأن يكون قد نسى مثلاً الإبلاغ عن التغيير فى محل إقامته .. فللشرطة هنا أن تقرر ترحيله إلى بلاده فوراً إذا كانت رحيمة به .. أو تعتقله دون أسباب ولا اتهام إذا شاءت ذلك . نفس الشئ إذا تجاوز مدة تصريح إقامته بيوم واحد . للشرطة أيضاً إلغاء تصريح الإقامة الدائمة (الكارت الأخضر) فى أى وقت ، مع الترحيل إلى الخارج لمن ترى فيه شبهة .. حتى من غير وجود أدلة .

كل هذا أو حتى بعضه، لم يكن متخيلاً بالمرّة أن يحدث في أمريكا قبل ١١ سبتمبر. أمريكا كانت تعابير البلاد الأخرى مؤخراً بأنها بلد الحريات المدنية التي يحميها القانون. كانت أيضاً تعطى لنفسها حق القيام بدور الواعظ للدول الأخرى عن حقوق الإنسان.. بل وريباً أيضاً على باقي المجتمع الدولي فيما يناسبها هي من مصالح. الآن إنتهى كل هذا بجرة قلم.. وبشطرة قانون. وبدلاً من أن يسموه " قانون الطوارئ " أو " قانون مكافحة الإرهاب " سموه " القانون الوطني ". وبدلاً من أن يأخذ القانون حقه في المناقشة المستفيضة جرى التسرع في إصداره.. وبحجة أن السلطات المختصة ستراعى في التنفيذ من باب الذوق والأريحية أن تستخدم سيف هذا القانون ضد الأجانب فقط أو الذين هم من أصل أجنبي. من الطلبة فقط يوجد في أمريكا ستمائة ألف. أما من العمال فيوجد ملايين.. معظمهم من المكسيك.. الجارة الجنوبية للولايات المتحدة.

المشكلة هنا أن الدولة التي تفعل ذلك هي أمريكا على وجه الخصوص لأنها أصلاً دولة مهاجرين. بل أن القوانين الأمريكية كانت تشجع قدوم المهاجرين إليها، خصوصاً المتعلمين، لكي يعملوا بها. والسبب عملي واقتصادي تماماً. فحينما تحصل أمريكا على مهاجر أجنبي متعلم وخريج جامعي مثلاً. تكون قد حصلت عليه مجاناً بينما مجتمعه الأصلي هو الذي تحمل تكاليف تربيته ورعايته وتعليمه. في تلك الحالة يصبح المهاجر إضافة إلى اقتصاد أمريكا.. ومجاناً. وحتى بالنسبة للطلبة الأجانب الذين يذهبون إلى أمريكا للدراسة فإنهم يذهبون إليها بفلوسهم. وفي ولاية كاليفورنيا وحدها تحصل الكليات الجامعية على ألف وستمائة مليون دولار سنوياً كرسوم للدراسة من الطلبة الأجانب الذين يجيئون إليها.

طيب. بطواريء أو بغيرها.. أمريكا حرة في نفسها. إنما المشكلة التي تعطينا نحن هنا حقاً هي أن الذي يجري مؤخراً تحت عنوان عريض هو مواجهة " الإرهاب الإسلامي " الذي أصبح أسامه بن لادن عنواناً له. بن لادن هذا اختراع أمريكي من أصله. لاهو رشح نفسه في انتخابات ولا زكاه علماء الأزهر أو أئمة الشيعة في إيران ولا ترددت السعودية في سحب جنسيتها منه قبل خمس سنوات. لاشيء من هذا يذكره الإعلام الأمريكي مطلقاً. الأهم من ذلك أن بن لادن كان صنيعاً أمريكية في هوجة استخدام أمريكا لرأية " الجهاد " الإسلامي لحسابها.. يوم كانت لها مصلحة في إرغام الاتحاد السوفيتي السابق على الانسحاب من أفغانستان. وحتى تفجير سفارتي أمريكا في تنزانيا وكينيا في أغسطس ١٩٩٨ لم تنشر أية وسيلة إعلام أمريكية كلمة واحدة سيئة.. لا عن بن لادن ولا عن حركة " طالبان " التي تؤويه في أفغانستان. وكلاهما وضعتهما أمريكا تحت المقصلة منذ ١١ سبتمبر ٢٠٠١.

الموضوع يهمنى أيضاً لأن سوء النية المسبق واضح عند رفع شعار " الإرهاب الإسلامي ". في أيرلندا الشمالية مثلاً مواجهة دامية منذ عقود بين السلطات البريطانية ومنظمة الجيش

الجمهورى الأيرلندى السرية . مواجهة وصلت ذات مرة إلى حد نسف مبنى بكامله سعياً إلى اغتيال مارجریت تاتشر فى داخله ، وهى وقتها رئيس وزراء بريطانيا . مع ذلك .. ولأكثر من ثلاثين سنة .. لم تستخدم جريدة بريطانية واحدة تعبير "الإرهاب الكاثوليكي" . ولا استخدمت جريدة أيرلندية تعبير " الإرهاب البروتستانتى " . أنديرا غاندى أيضاً ، رئيسة وزراء الهند الراحلة ، جرى اغتيالها وهى التى كانت أحد رموز دول عدم الانحياز ورائة عن والدها الزعيم جواهر لال نهرو . ومع ذلك لم تستخدم جريدة عربية واحدة تعبير " الإرهاب البوذى " .

المسألة الجوهرية هى أن الإرهاب لا يحسب على جنس أو ملة أو ديانة على النحو المروج الذى نتابعه منذ ١١ سبتمبر . إسحاق شامير مثلاً ، رئيس وزراء إسرائيل الأسبق ، شارك بنفسه سابقاً فى اغتيال وزير بريطانى بمدينة القاهرة ، اسمه اللورد موين . فى حينها أصدرت بريطانيا أمراً بالقبض عليه بصفته إرهابياً مطلوباً تقديمه إلى العدالة . لكن أحداً فى بريطانيا لم يقل فى حينها إن هذا هو " إرهاب يهودى " . وفى أمريكا أيضاً .. جرى القبض فى الثمانينات على مواطن يهودى أمريكى اسمه " جوناثان بولارد " يعمل محللاً للمعلومات فى البحرية الأمريكية - وبتهمة التجسس - مقابل أجر ثابت من إسرائيل .. ناقلاً إلى إسرائيل أدق أسرار معلومات التجسس الأمريكية ، ومن بينها التجسس على دول عربية وثيقة الصلة بأمريكا . وبلغت القضية من الخطورة إلى درجة قيام السلطات الأمريكية بفرض أقصى درجات السرية عليها .. مع شهادة مكتوبة من وزير الدفاع الأمريكى وقتها بأن تلك الحالة التجسسية هى أخطر ما واجهته أمريكا فى كل القرن العشرين . مع ذلك .. لم تكتب جريدة أمريكية واحدة فى تلك المناسبة عن " الإرهاب اليهودى " أو " التجسس اليهودى " ومن باب أضعف الإيمان «التجسس الصهيونى» .

فى النهاية .. الإرهاب إرهاب . بلا جنس ولا ملة ولا دين . لماذا إذن وضع شعوب بكاملها ، وديانة من أساسها ، موضع الاتهام أو التبرير أو الدفاع؟ ويصبح العرب والمسلمون جميعاً فى موقع الاتهام والمحاكمة .. إلى أن يثبتوا لأمريكا - وأمريكا تحديداً - ما هو عكس ذلك ؟ نعرف أن الرئيس الأمريكى جورج بوش قال وكرر علناً لشعبه : إن أمريكا تحارب الإرهاب وليس الإسلام . على عيني ورأسى . إنما الإجراءات الفعلية التى تمارسها السلطات الأمريكية فى أرض الواقع تذهب فى اتجاه آخر .

آخرها مثلاً .. قيام أمريكا بفرض إجراءات استثنائية ضد طالبى تأشيرة الدخول إليها من ٢٦ دولة ، كلها عربية إسلامية .. فى مقدمتها مصر والسعودية والأردن والكويت ولبنان وسوريا والمغرب وتونس .. إلخ . والإجراءات تصبح أكثر وأكثر صرامة إذا تراوح سن طالب التأشيرة ما بين ١٨ و ٤٥ سنة . هنا يا شاطر حساب الملكين : أصلك وفصلك واسم والدتك وأفكارك وقراءاتك وابن مين فى البلد وهل تذكرة سفرك ذهاب فقط أو ذهاب وعودة ... إلخ .

أما الأكثر خطورة، وفي الحالة الراهنة من الهوس الأمريكي، فهو أن تتلاحق علينا وعلى العالم في السنوات القادمة مئات الكتب والأفلام والمسلسلات التليفزيونية التي تعيد وتزيد في إرهاب ١١ سبتمبر وأن المسؤولين عنه عرب ومسلمون.

وفي رأيي المتواضع هنا: إنهم.. ليسوا عرباً مسلمين. فحتى الآن لا يوجد دليل واحد قدمته أمريكا إلى شعبها أو للعالم يثبت صحة الشبهات التي تردها على مدار الساعة منذ ١١ سبتمبر. دليل واحد يقبله محقق مهني أو قاض نزيه. هناك مصالح كبرى وراء ما جرى. وفي تاريخ أمريكا ذاتها ما يوضح ذلك.

والحقيقة فيما جرى لابد أن تظهر يوماً ما . لكن المشكلة هي أنه.. إلى أن يحدث ذلك... فإن أمريكا تضعنا جميعاً - عرباً ومسلمين - في حالة اشتباه أمام العالم بمنطق " خذوهم بالصوت " واسترضاء للشعب الأمريكي بتقديم كبش فداء له على وجه السرعة امتصاصاً لحالته من الصدمة والغضب. أمريكا تقول لشعبها : العدو ليس هنا.. في داخلنا إنما هناك عدو بديل... هناك بعيداً بعيداً... وبالصدفة أيضاً لديه مصالح مهمة سنصدرها لحسابك.

والحقيقة فيما جرى يوم ١١ سبتمبر لابد أن تظهر يوماً ما. أكررها مرة أخرى. إنما المشكلة الآن هي أن حالة الاشتباه هذه ليست عنصرية فقط. إنها جريمة أخرى اضافية في حق كل العائلات الأمريكية لضحايا ١١ سبتمبر.



صباح الخير .. يا أوروبا !



مع وصول هذا المقال وهذه المجلة إلى القراء ، يعنى اعتباراً من الساعة الأولى من يوم أول يناير سنة ٢٠٠٢ ، سيكون ثلاثمائة مليون مواطن فى ١٢ دولة أوروبية قد أفرغوا جيوبهم من كل ما فيها من أوراق مالية و عملات .. وتنازلوا عنها نهائياً .. لكى يحصلوا بدلاً منها على نفس قيمتها وإنما بعملة جديدة يتعاملون بها لأول مرة فى تاريخهم . عملة اسمها " اليورو " .. وهى الحروف الأربعة من كلمة أوروبا باللغة اللاتينية .

بالطبع من حق كل مواطن أن يحتفظ لنفسه بما يشاء من العملات المملوكة . لكنها فى تلك الحالة ستصبح عملات تذكارية لها قيمة عاطفية وإنما بغير قيمة مالية مقبولة للتداول .

قد لا تكون هذه أول مرة فى التاريخ يجرى فيها سحب عملات من الأسواق نتيجة لإلغائها . لكنها بالتأكيد أضخم عملية من نوعها . فالعملات الورقية الجديدة التى سيبدأ العمل بها لو جرى رص المطبوع منها بجوار بعضها البعض فسوف يتجاوز طولها المسافة بين الأرض والقمر خمس مرات .

الناس فى أوروبا أو بالضبط فى ١٢ دولة فى أوروبا استعدت لذلك من زمن .. بالرغم من ارتباطاتهم العاطفية بالعملات الوطنية المملوكة . بعضها ، كالمارك الألمانى مثلاً ، كان رمزاً لأداء اقتصادى مدهش حققته ألمانيا بعد خراب الحرب العالمية الثانية . بعضها ، كالفرنك الفرنسى مثلاً ، استمر معمولاً به ٢٠٦ سنوات رغم تحول فرنسا من الجمهورية إلى الملكية إلى الجمهورية من جديد . بعضها كان رمزاً للاستقلال الوطنى كالفرنك البلجيكي مثلاً الذى ولد كعملة وطنية فى سنة ١٨٢٣ ، بعد إستقلال بلجيكا بسنتين . بعضها ، المارك الألمانى مرة أخرى ، كان رمزاً أيضاً للدولة القوية الجديدة التى أقامها بسمارك من توحيد ولايات صغيرة متفرقة وأصبح المارك عملتها الموحدة منذ سنة ١٨٧٦ . بعضها اعتاد الناس عليه لنحو سبعة قرون ، كالفلورين الهولندى الذى بدأ العمل به كعملة فى سنة ١٣٢٥ ... الخ .

من الآن فصاعداً ستختفى كل تلك العملات الاثنتا عشرة نهائياً من التداول وسيتعامل ٣٠٠ مليون مواطن بالعملة الموحدة الجديدة : هؤلاء المواطنون فى ١٢ دولة أوروبية لا يتحدثون حتى

لغة واحدة مشتركة . فى الواقع هم يتحدثون ١١ لغة مختلفة . لا يجمع بينهم أيضاً حدود سياسية واحدة .. فكل منهم مستمر فى حدود دولته التى ستستمر بدورها كدولة مستقلة لها حدودها السياسية المعروفة على الخريطة .

مع ذلك فاعتباراً من أول يناير سنة ٢٠٠٢ ستصبح نفس تلك الدول قوة أكبر فى الساحة الدولية، وسيضطّر العالم كله شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً إلى وضعها فى حسابه وأخذها فى اعتباره بشكل مختلف أكثر جدية. هى دول اعتادت سابقاً على العزف المنفرد . وفى عزفها المنفرد هذا لم تكن أى منها ضعيفة بالمرّة . فى الواقع أن منها، كألمانيا مثلاً ، من أصبح بمفرده أكبر قوة اقتصادية على مستوى وسط غرب أوروبا . ومنها، كفرنسا مثلاً، من يمتد تأثيرها الثقافى إلى خارج حدودها بما سمح لها بتشكيل تجمع خاص بها للدول الناطقة باللغة الفرنسية . بعض تلك الدول هى الأكثر سكاناً (ألمانيا مثلاً ٨٣ مليوناً) . وبعضها الآخر ربما أقل سكاناً من حى شبرا فى القاهرة، مثل لوكسمبورج حيث تعداد سكانها أقل من نصف مليون . بعضها كان له أصل وفصل فى التاريخ كإمبراطوريات فى زمن غابر... كالبرتغال وأسبانيا وهولندا وفرنسا .

وبعضها على قدر حاله عاش بجوار الحائط كأيرلندا مثلاً . بعضها ثقافته اغريقية كالليونان. وبعضها ثقافته خليط من عدة ثقافات ولغات. فنلندا مثلاً . كلها مسيحية الديانة لكن بمذاهب مختلفة... مع ذلك فبعضها من بين سكانه ملايين المسلمين كفرنسا ... الخ .

فى الخلاصة.. نحسبها يمين أو شمال .. لغات أو ثقافات .. تاريخ أو على هامش التاريخ ... تطلع الحكاية من شامى إلى مغربى . إنما الشامى والمغربى عندنا على الأقل لهم لغة واحدة تجمع بينهم هى العربية . لكن هؤلاء فى أوروبا يتحدثون ١١ لغة مختلفة . عند جماعتنا لغة عربية واحدة من المحيط إلى الخليج ومع ذلك فلهم عشرون عملة مختلفة.. إنما من الآن فصاعداً هؤلاء أصبحت لهم عملة واحدة يتعاملون بها مع أنفسهم ومع العالم ... هى : اليورو "

اليورو " هذه بدأت بفكرة بسيطة قبل أقل من أربعين سنة .. الفكرة هى : لماذا لا نتكامل معاً اقتصادياً .. فنصبح أكثر كفاءة لمصلحتنا كدول ولمصلحتنا فى مواجهة الآخرين ؟ الفكرة بدأت بست دول . بعدها تطورت الفكرة البسيطة إلى فكرة أكبر : لماذا لا نقيم بين دولنا سوقاً مشتركة ؟ بعد نجاح السوق الأوروبية المشتركة هذه تطورت الفكرة إلى إقامة " الاتحاد الأوروبى " ويضم ١٥ دولة.. ستصبح وشيكاً ٢٥ دولة. ولأن الفكرة لم تكن مجرد خيال شعراء وإنما تقوم على المصالح المشتركة فقد تجاوب معها الجميع. من ست دول إلى ١٥ ثم ٢٥ تالياً. إنما المشوار لم يكن سمناً على عسل. كان فيه مطبات وعواصف وأعاصير. عند كل إعصار يعيد البعض تفكيرهم من جديد : نرجع إلى العزف المنفرد ونفضها سيرة ... أو نستمر معاً فى المركب الواحد ؟

بريطانيا مثلاً، ومن البداية، استنكفت هذا التفكير الأوربي من أساسه . بريطانيا كانت لاتزال ترى نفسها رمزاً لامبراطورية كبرى .. وإن تكن الشمس قد غربت عنها بعد هزيمتها في بورسعيد سنة ١٩٥٦ . بريطانيا أيضاً جزيرة ويفصلها البحر عن أوروبا . وبذلك الصفة كانت ترى نفسياً أنها شيء .. وأوروبا شيء آخر منفصل . بريطانيا - ثالثاً - كانت ترى أن عليها اللعب في المضمون . والمضمون في القاموس البريطاني وقتها هو أمريكا . اذا كان على بريطانيا أن تختار من تربط مستقبلها به .. فليكن أمريكا وليس أوروبا.

أوروبا أيضاً كانت متوجسة من بريطانيا.. من هنا تزعمت فرنسا، خصوصاً على أيام زعيمها شارل ديغول، معارضة أى محاولة من بريطانيا للانضمام إلى السوق الأوروبية المشتركة. فكرة ديغول كانت هي أن بريطانيا لن تكون أبداً مخلصاً لأوروبا . هي مخلصه وستظل مخلصه لأمريكا . بالتالي فإنه بقبول عضويتها في السوق الأوروبية المشتركة فسوف تلعب بريطانيا دور حصان طروادة داخل السوق لحساب أمريكا . أو بالقليل ستقوم بدور الفرمال لإبطاء سرعة التوجه الأوروبي نحو التكامل. فقط بعد رحيل ديغول نجحت بريطانيا في الانضمام إلى عضوية السوق الأوروبية المشتركة.

أمريكا ذات نفسها أعطت لبريطانيا الضوء الأخضر للانضمام إلى أوروبا لحسابات أخرى خاصة بها. في وقتها كانت الحرب الباردة في ذروتها بين أمريكا والاتحاد السوفييتي ورأت أمريكا أنه قد يخدمها تكامل أوروبا الغربية اقتصادياً.. طالما أن نفس دول أوروبا الغربية هذه هي في معظمها أعضاء في منظمة حلف شمال الأطلسي ... وهو التحالف العسكري الذي تقوده أمريكا.

بعدها أصبح الكلام أكثر جدية. دول "الاتحاد الأوروبي" تريد من العالم أن يتعامل معها ككتلة اقتصادية واحدة . العالم مستعد . لكن كيف يحدث هذا ونفس الخمس عشرة دولة تتعامل مع بعضها البعض بخمس عشرة عملة وطنية مختلفة ؟ من هنا أصبحت الخطوة الضرورية التالية هي : عملة أوروبية موحدة .

ولأن الأساس من البداية هو المصلحة المشتركة فكان الاتفاق بين الجميع هو أن القرارات الكبرى تكون بالإجماع. لو أجمعت ١٤ دولة مثلاً على قرار ثم جاءت لوكسمبورج مثلاً لتعترض - وهي بسكان أقل من حي شبرا - اذن يسقط القرار أو تخرج هي من الاتحاد. أكثر من ذلك.. هناك ١٥ دولة يضمها الاتحاد الأوروبي. لكن جميع المداورات لابد في نفس اللحظة من ترجمتها إلى إحدى عشرة لغة المعمول بها وقتها في نفس تلك الدول. هذه الجزئية في حد ذاتها أصبحت معناها هو أن الميزانية الإدارية المعتمدة سنوياً لمؤسسات الاتحاد الأوروبي يذهب ثلثاها في مجرد تغطية تكاليف ترجمة وثائق ومداورات الدول الأعضاء.

كلها مطبات كان يمكن فى أى منها أن ينفطر عقد "الاتحاد الأوروبى" مرة بعد مرة. مع ذلك كانت الإرادة السياسية عند الدول الأعضاء أقوى من كل العقبات. السياسيون كأشخاص: تغيروا مرات بعد مرات فى الدول المعنية. أحزاب حاكمة تغيرت وتوجهات سياسية تعدلت. مع ذلك لم يجرؤ سياسى واحد، ولا حزب واحد، على الانقلاب على من سبقوه. المسألة ليست مجرد حلم مشترك بل أساساً مصالح مشتركة. مصالح الدول ومصالح الناس.

أوروبا لم تكن تريد لنفسها أن تظل فى مقعد المتفرج بينما الدنيا تتغير. فى الغرب هناك أمريكا التى هى بذاتها وبمواردها وإمكانياتها قوة اقتصادية عظمى. فى الشرق هناك اليابان وهى - بنصف سكان أمريكا - قوة اقتصادية كبرى. لو استمرت دول أوروبا فى العزف المنفرد فسوف تطحنها هذه وتلك. إنما لو تصرفت أوروبا كمجموعة اقتصادية واحدة فسوف تصبح لاعباً اقتصادياً يحسب له الجميع كل حساب.

هكذا اتخذت الخمس عشرة دولة فى "الاتحاد الأوروبى" قراراً إجماعياً بالعملة الموحدة. وفى سنة ١٩٩٢ وقعت معاهدة مشتركة - تسمى معاهدة ماستريخت - لضبط معايير هذه العملة الجديدة.. وإقامة بنك مركزى جديد تفوضه الدول الأعضاء فى إدارة العملة الجديدة، وتحدد أول يناير ٢٠٠٢ تاريخاً لبدء تداول العملة الموحدة الجديدة.

بريطانيا خصوصاً (ومعها الدانمرك والسويد) وافقت فعلاً ثم خلعت نفسها بعد ذلك... ليس من الاتحاد الأوروبى ولكن بالذات من الالتزام بعملة أوروبية موحدة. براحتها. هكذا فكر الآخرون. فالموضوع من الأساس هو الاقتناع بوجود مصلحة مشتركة بين الدول الأعضاء ولصالح شعوبها حتى تتعامل مع المجتمع الدولى بصوت واحد.. اقتصادياً.

كل هذا طبيعى وعادى على مستوى السياسيين. إنما فى نهاية المطاف يتصرف السياسيون هنا فى مصالح الناس ولا بد من تجاوب الناس مع ما يجرى.. خصوصاً وأن المطلوب من الناس فى هذه المرة هو الاستغناء عن عملاتهم الوطنية التى تألفوا معها واعتادوها جيلاً بعد جيل.. بل لقرون طويلة فى بعض الحالات.

لقد مضت ١٢ دولة أوروبية فى مشوار العملة الأوروبية الموحدة حسب المواعيد المقررة. إنما فى نفس السياق بدأ البحث عن الأفكار العملية التى تضمن حماس الناس للعملة الموحدة الجديدة وإقبالهم عليها.

المسألة ليست أوامر تصدرها الحكومات وبعدها على الشعوب السمع والطاعة. المسألة هى أن يقتنع كل مواطن باختياره الحر بأن فيما يجرى تحقيقاً لمصالحه هو وأولاده... ومستقبلاً أفضل تتسع فيه المصانع.. وتتضاعف فرص العمل وتنخفض فيه تكاليف الإنتاج. وفى أقل القليل فإن نفس

المواطن يصبح قادراً على استخدام نفس الفلوس في جيبه داخل ١٢ بلداً أوروبياً، بغير أن يضطر إلى أن يستبدل بها عملة أخرى كلما عبر الحدود متحملاً رسوم استبدال العملة.

لقد أصبحت كل دولة حريصة على شرح مسألة العملة الموحدة هذه لمواطنيها كل بطريقتها الخاصة.. وقبل الموعد المحدد بفترة كافية. مائتا مليون كتيب جرى إرسالها إلى الناس في بيوتهم. آلاف الإعلانات التليفزيونية جرت إذاعتها عن مزايا العملة الجديدة ومدى حصانتها ضد التزوير. حتى أساقفة الكنيسة مثلاً رأَت حكومة اليونان أن تشاركهم معها في حملات التوعية.. فأرسلت إليهم بالمطبوعات راجية لهم أن يوزعوها على المصلين كل يوم أحد بعد شرح مضمونها.

أما على مستوى الائتلى عشرة دولة فقد استعان البنك المركزى الأوروبى الجديد. بجيش من أخصائى العلاقات العامة لتصميم حملة متكاملة يجرى تكرارها فى وسائل الإعلام لتشرح للناس مغزى هذا التحول الجديد فى حياتهم. أما الأكثر أهمية فهو التوجه إلى الشباب. من بين الأفكار التى أجمع عليها الخبراء مثلاً الذهاب إلى جميع المدارس لشرح المسألة للتلاميذ. منها أيضاً فكرة أن الأطفال فيما بين سن الثامنة والثانية عشرة يكونون فى العادة الأسرع تكيفاً مع المتغيرات الجديدة.. بل وهم غالباً الذين يشرحونها لآبائهم وأمهاتهم.

بالتالى ذهبت الحملة الإعلامية إلى هؤلاء الأطفال فى مدارسهم لتطرح عليهم الدخول فى مسابقة على مستوى الائتلى عشرة دولة، لمدة شهر ونصف الشهر، أساسها توجيه خمسة أسئلة عن العملة الأوروبية الجديدة ليقوم كل تلميذ بالإجابة عليها. هناك ١٢٠٠ جائزة مالية فورية للفائزين. وفيما بعد الفوز هناك مسابقة تالية بين الفائزين وعنوانها "نجوم فوق العادة". الجوائز ٢٤ دعوة مجانية، بمقتضاها، يسافر كل فائز، مع والديه، إلى فرانكفورت مقر البنك المركزى الأوروبى.. حيث يتسلم كل فائز أمام الكاميرات مجموعة متكاملة من الأوراق المالية والعملات التى يصدر بها "اليورو".. مجاناً. وكل هذا فى احتفال خاص مذاع على الهواء مساء ٣١ ديسمبر سنة ٢٠٠١.

الكل استجاب. وأوروبا (١٢ دولة) تكاملت اقتصادياً وأصبحت لها عملتها الجديدة الموحدة. هؤلاء الذين تكاملوا - لمصلحة شعوبهم - لا تزال تفرق بينهم ١١ لغة مختلفة. لكن من الآن فصاعداً أصبحت أوروبا الجديدة هذه لاعباً رأساً برأس مع أمريكا واليابان ومن يستجد.

من المثير للتأمل هنا أن (الاتحاد الأوروبى) الذى أصبح يضم ٢٥ دولة أوروبية وتقف دول أخرى على أبوابه تنتظر السماح لها بالإنضمام (تركيا مثلاً) بدأ باللغة الأساسية فى السياسة. لغة المصالح المشتركة. بدأ باتحاد لمنتجى الصلب ثم سوق أوروبية مشتركة ثم اتحاد أوروبى وعملة رسمية واحدة تناطح العملة الأمريكية فى الاقتصاد العالمى رأساً برأس.

من المثير للتأمل أيضاً أن مشروع (السوق العربية المشتركة) سبق في الظهور (السوق الأوروبية المشتركة). لكن بينما تاهت السوق العربية المشتركة في دهاeliz السياسة وتقلباتها، كانت السياسة هي التي حافظت على قوة الدفع لاكتمال المشروع الأوربي ضد تقلبات الزمن.

من المثير للتأمل ثالثاً أنه.. بينما (الحلم الأوربي) انطلق من دول متفرقة في الطريق إلى كيان أكبر ما تزال له أبعاد أوسع وأعمق.. نجد عندنا العكس. دول موجودة تسعى إلى التشرذم. وبدل أن تسعى إلى القريب منها، بل المجاور لها، فإنها ترتبط أكثر وأكثر بالغريب والبعيد عنها. الآخرون يبحثون عن ما يجمع بينهم.. بينما الساسة في دولنا ينزلقون إلى ما يفرق بيننا. هذا لا يعنى أن الآخريين أفضل منا أو أننا أقل منهم. يعنى فقط أن العروبة الرسمية ما تزال أقل من مستوى وقدرات العروبة الواقعية.

في الواقع أن لدينا بعض (جزر) النجاح التي كان يمكن الانطلاق منها والبناء عليها. لدينا مثلاً بنك أقيم في سنوات السبعينات برأسمال مشترك من خمس دول عربية. وفي إحدى اللحظات وصل التوتر السياسي بين اثنتين من الدول المشاركة في أس مال البنك - مصر وليبيا - إلى ذروته.. بل حتى إلى القطيعة الكاملة. لكن أحداً لم يجرؤ على المساس بالبنك أو الخروج منه.. ببساطة لأنه أصبح مصدرًا للأرباح المتعاطمة التي تتقاسمها أولاً بأول الدول المؤسسة.. كل بحسب حصتها.

لدينا أيضاً خط (سوميد) للبتروال المقام على الأرض المصرية كمشروع مشترك بين حفنة من الدول العربية.. ومستمر في تحقيق الأرباح المتصاعدة للجميع سنة بعد أخرى.

لدينا (الهيئة العربية للتصنيع) التي كان يفترض فيها أن تقيم صناعة عربية للسلاح بدل عشرات المليارات التي تدفعها الدول العربية كل سنة للإستيراد من الآخريين. وقبل أن تنطلق الفكرة إلى النجاح أصابتها اتفاقات كامب ديفيد بالشلل.

وبعيداً عن الأسلحة.. أماننا المفارقة الأكبر وهي اعتمادنا في غذائنا على الإستيراد من الخارج بينما منحنا الله كل امكانيات وقدرات الاكتفاء الذاتي، بل والتصدير أيضاً إلى الآخريين. في السودان مثلاً ملايين الأفدنة من الأراضي القابلة للزراعة بأقل تكلفة، ولكن ينقصها البشر والأموال. ولدى مصر السوق المتسعة وفائض من البشر لكن تنقصها الأرض والأموال. ولدى ليبيا أموال بترولية فائضة ولكن تنقصها المياه والسوق المتسع. نفس الشيء ينطبق على السعودية.

وبين فترة وأخرى يفرض المنطق السليم نفسه متسائلاً: لماذا لا يتكامل المال والبشر والأرض هنا فينتج الجميع غذاؤهم ويصدرون الفائض إلى الآخريين.. وكله مكسب وفرص عمل وقوة إضافية؟ لكن الذي يحدث هو العكس على طول الخط: ليبيا تدفع عشرين مليار دولار تكلفة لإقامة ما سمي بـ (النهر العظيم) ولا يزيد في جوهره عن خط أنابيب لنقل مياه جوفية على بعد مئات الكيلومترات

جنوباً لكى تروى شمالاً أراضٍ محدودة.. لا هى هنا ولا هناك. السعودية تزرع قمحاً بعشر أمثال تكلفته فيما لو استوردته من السودان. ومصر التى كانت فى حالة اكتفاء ذاتى من الغذاء - أو ما هو قريب منها - خفضت مساحاتها المزروعة من القمح لكى تستورد القمح الأمريكى.. وبمئات الملايين من الدولارات.. سنوياً.

أحياناً تكون أحلام الناس أكبر من قدراتهم. لكننا هنا أمام حالة عكسية: أحلامنا تصبح أصغر وأصغر من قدراتنا. وبالمقارنة مع أوروبا.. هذا ليس فارقاً فى العقول. إنه فارق فى السياسات.

لقد كتبت سابقاً - بالعربى الفصيح - دفاعاً عن لغتنا العربية فى مواجهة اللهجات المحلية. وكتبت - بالعربى الصريح - عن ما جرى للبتروى العربى فى أكبر عملية نهب فى القرن العشرين. فى هذه المرة أكتب - بالعربى الجريح - عن سيطرة العزف المنفرد على سياسات دولنا العربية فتصبح كل منها أكثر ضعفاً واعتماداً على الآخرين. وإذا كانت السياسة فى أبسط تعريفاتها هى حسن إدارة مصالح الناس ومستقبلهم.. فإن ما صنع الاتحاد الأوروبى - والعملة الموحدة إحدى ثماره - هو نقل لفكرة (الاتحاد قوة) إلى أرض الواقع اعتماداً على لغة المصالح المشتركة فى أبسط صورها. و.. صباح الخير يا أوروبا.

مساء الخير يا عرب.



التدريب الزمني للمقالات حسب نشرها بمجلة الشباب

الموضوع	التاريخ	الموضوع	التاريخ
عزیزی عبد الحليم: وحشتنا	مارس ١٩٩٧	الفيتو.. والقانون.. والغابة.....	أبريل
زوربا: الحياة بالطول والعرض	أبريل	أولها.. فلفل	مايو
الله يعطيك العافية.. وحكايات أخرى ..	مايو	في التاريخ: طالع.. نازل	يونيو
قضية كل جيل وسؤال كل عصر	يونيو	أنت حلمي السعيد؟.. أبوك يبشتغل إيه؟ يوليو	
غرام يقصف العمر	يوليو	مات الملك.. عاش الملك	أغسطس
هونج كونج؟ غطيني يا صفية	أغسطس	الأسلحة علينا.. والقتل عليك!	أكتوبر
في العاصفة:		عيال اللغة الرابعة!	نوفمبر
الطالبة دينا تسأل والرئيس يشرح	سبتمبر	موسيقى عذبة.. للنصب على نغماتها! ...	ديسمبر
سندريللا.. بالقلوب.....	أكتوبر	عولوه.. الله يرحمه	يناير ٢٠٠٠
رجال اليوم السابع	نوفمبر	..آخرها بطرول	فبراير
عبد المنعم رياض: نهاية البداية (٢) ...	ديسمبر	في الحلوة.. والبحيرات المرة	مارس
من غزو مصر إلى الهيستيريا (٣)	يناير ١٩٩٨	أمر يخلصنا وحدنا	أبريل
الحق والقوة: تلك هي المسألة (٤)	فبراير	النجاة بحرا.. والفرق برا..!	مايو
ضباب الحرب والسياسة (٥)	مارس	مولد.. وصاحبه غائب	يونيو
مشاعر من لحم ودم	أبريل	محنة فوق رؤوسنا	يوليو
سكين في وجهي	مايو	لبنان.. بالزيتون والرصاص والجبنه! ...	أغسطس
مصر.. ناقص واحد	يونيو	آه.. يا بلد الدروس الخصوصية	سبتمبر
أم أحمد زويل.. وبالعكس	يوليو	وتعطلت لغة الكلام!	أكتوبر
جول.. من غرفة الكونترول	أغسطس	رئيس فوق.. ورئيس تحت	يناير ٢٠٠١
أرز وحب وحقوق إنسان	سبتمبر	شاي.. وموسيقى	أبريل
الفضيحة.. بجلاجل	أكتوبر	فين الشاي يا سعاد؟	مايو
الحل.. هو المشوى	نوفمبر	إعلانات.. والأجر على الله!	يونيو
حال الدنيا	ديسمبر	شيك يأخذ العقل	يوليو
للحزن صباح آخر	يناير ١٩٩٩	التعليم ضد التيار!	أكتوبر
أولاد حلال.. مثلنا	فبراير	حريق عابر للقارات	نوفمبر
من باب الخطأ	مارس	حالة اشتباه	ديسمبر
		صباح الخير.. يا أوروبا	يناير ٢٠٠٢

المحتويات

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١٨٩	أولها.. فلفل	٥	عزيزى عبد الحليم: وحشتنا
١٩٥	فى التاريخ: طالع.. نازل	١٣	زوربا: الحياة بالطول والعرض
٢٠١	أنت حلمى السعيد؟.. أبوك بيشتغل إيه؟	١٩	الله يعطيك العافية.. وحكايات أخرى
٢٠٩	مات الملك.. عاش الملك	٢٥	قضية كل جيل وسؤال كل عصر
٢١٧	الأسلحة علينا.. والقتل عليك!	٣١	غرام يقصف العمر
٢٢٣	عيال اللغة الرابعة!	٣٩	هونج كونج؟ غطينى يا صفية
٢٣١	موسيقى عذبة.. للنصب على نغماتها!	٤٧	فى العاصفة: الطالبة دينا تسأل والرئيس يشرح
٢٣٧	عولوه.. الله يرحمه	٥٤	سندريللا.. بالقلوب
٢٤٥	.. آخرها بتروول	٦٥	رجال اليوم السابع
٢٥٣	فى الحلوة.. والبحيرات المرة	٧٣	عبد المنعم رياض: نهاية البداية (٢)
٢٦١	أمر يخصنا وحدنا	٨٣	من غزو مصر إلى الهيستيريا (٣)
٢٦٩	النجا بحرًا.. والغرق برا..!	٩١	الحق والقوة: تلك هى المسألة (٤)
٢٧٧	مولد.. وصاحبه غائب	٩٩	ضباب الحرب والسياسة (٥)
٢٨٣	محنة فوق رؤوسنا	١٠٧	مشاعر من لحم ودم
٢٨٩	لبنان.. بالزيتون والرصاص والجبنه!	١١٣	سكين فى وجهى
٢٩٥	آه.. يا بلد الدروس الخصوصية	١١٩	مصر.. ناقص واحد
٣٠٣	وتعطلت لغة الكلام!	١٢٥	أم أحمد زويل.. وبالعكس
٣٠٩	رئيس فوق.. ورئيس تحت	١٣١	جول.. من غرفة الكونترول
٣١٧	شأى.. وموسيقى	١٣٩	أرز وحقوق إنسان
٣٢٣	فين الشأى يا سعاد؟	١٤٧	الفضيحة.. بجلاجل
٣٢٩	إعلانات.. والأجر على الله!	١٥٣	الحل.. هو المشوى
٣٣٥	شيك يأخذ العقل	١٥٩	حال الدنيا
٣٤١	التعليم ضد التيار!	١٦٥	للحزن صباح آخر
٣٤٧	حريق عابر للقارات	١٧١	أولاد حلال.. مثلنا
٣٥٣	حالة اشتباه	١٧٧	من باب الخطأ
٣٥٩	صباح الخير.. يا أوروبا	١٨٣	الفيديو.. والقانون.. والغابة

كتب للمؤلف

دراسات سياسية

- ممنوع من التداول - (دار الشروق) - الطبعة السابعة
- أفكار إسرائيلية - (كتاب الإذاعة) - الطبعة الثانية
- الحرب الرابعة - سرى جداً - (المكتب المصرى) - الطبعة الثالثة
- متمردون لوجه الله - (دار الشروق) - الطبعة الثالثة
- وعليكم السلام - (دار المستقبل العربى) - الطبعة الثالثة

دراسات أدبية

- أفكار ضد الرصاص - (دار الشروق / دار المعارف) - الطبعة التاسعة
- شخصيات - (دار المعارف) - الطبعة الثانية
- سياحة غرامية - (دار الشروق) - الطبعة الرابعة
- مصرى بمليون دولار - (مكتبة الأنجلو) - الطبعة الثالثة
- أوراق إلى حبيبتي - (دار الشروق) - الطبعة الأولى

دراسات فنية

- أم كلثوم التى لا يعرفها أحد - (كتاب اليوم) - الطبعة الرابعة
- محمد عبد الوهاب الذى لا يعرفه أحد - (دار المعارف) - الطبعة الثالثة

فى الرواية والقصة

- أرجوك لا تفهمنى بسرعة - (روز اليوسف) - الطبعة الثالثة
- شئ يشبه الحب - (كتاب اليوم) - الطبعة الأولى

تحت الطبع

- اليوم السابع - دار ميريت
- مختارات - دار ميريت

٢٠٠٦/٢٠١٧	رقم الإيداع
ISBN 977-02-6909-3	التقييم الدولى

١/٢٠٠٥/٦٥

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)